ديوان ابن زيدون ورسائله



شرح وتحقيق

الأستاذ علي عبد العظيم

تقديم ومراجعة

الدكتور محمد إحسان النص

ديـــــوان

ابـــن زيـــدون

ورســائــلــه

شــرح وتحــقــيــق

الأستاذ علــي عبدالعـظـيم

تقـديم ومـراجـعـة

الدكتور محمد إحسان النص

الكويـت 2004

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحث
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
سيدي ولد الأمجاد

بإشراف

عبدالعزيز محمد جمعة

الصف والإخراج والتنفيذ

محمد العلي

أحمد متولي **أحمد جاسم**

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمك: ISBN : 99906 -72 - 10 - 5
رقم الإيداع : Depository Number: 2004 / 00284

الطبعة الثالثة
من منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
الكويت ٢٠٠٤

الطبعة الأولى عام ١٩٥٧
الطبعة الثانية عام ١٩٨٠
نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
هاتف: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)
E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

تصديــــــر...

ابن زيدون شاعر كبير، تجري قصائده على ألسنة الناس، ويتبوأ مكانة سامقة في ديوان العرب وربما يكون هو أعلى تجليات الإبداع الشعري العربي في الأندلس.

وقد اختارت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، أن تطلق اسمه على دورتها التاسعة التي تنعقد في رحاب الأندلس، وقررت أن تكون مدينة قرطبة الجميلة ملتقًى للشعراء والأدباء والوفود المشاركة لأنها مسقط رأسه الذي أطل منه على الوجود. بيْدَ أنَّ هذا الاهتمامَ بالشاعر لا يقف عند هذا الحد، فقد أردنا إعادة نشر ديوانه الكامل من جديد، جامعاً لكل إنتاجه الشعري وما كتبه من رسائل نثرية ومطارحات أدبية، وكانت أمامنا عدة طبعات لهذا الديوان، بتحقيق جهابذة وعلماء بارزين، خَلُصْنا في النهاية إلى اعتمادِ النسخة التي حققها الأستاذ الجليل الدكتور علي عبدالعظيم رحمه الله، لما تتميز به من جودة علمية وشروح وافية، ولكون صاحبها قد كرس الكثير من عمره لدراسة ابن زيدون وآثاره، وقد صدرت دراسته أول مرة عام ١٩٥٧م في القاهرة.

وقد عانت الأمانة العامة للمؤسسة الكثير من الصعوبات في الوصول إلى أثر أو عنوان لمحقق هذه الطبعة الأستاذ علي عبدالعظيم، فقد تُوفي الرجل منذ فترة طويلة، إلى أن تمَّ العثور على أرملته وهي القريبة الوحيدة له الباقية على قيد الحياة أطال الله في عمرها، وقد تم الاتفاق معها على الإذن بإصدار هذا الديوان – المحقق من طرف زوجها الراحل الذي لم يترك بنينَ ولا إخوةً له من بعده – في طبعة خاصة بمناسبة

انعقاد دورة ابن زيدون التي تنظمها مؤسستنا في إسبانيا في الفترة من ٤-٨ أكتوبر من العام الحالي ٢٠٠٤.

ويسرني هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور إحسان النص نائب رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، الذي قام بمراجعة الديوان وقراءته، حيث وضع الكثير من التصويبات الهامة والملاحظات المفيدة على متنه وهامشه كما قدم له بمقالة فنية أفادتني وأسعدتني، والشكر موصول للإخوة الباحثين والعاملين في المؤسسة على جهودهم المثمرة والمخلصة وأخص بالشكر الباحث الأستاذ عبدالعزيز جمعة والباحث الأستاذ سيدي ولد الأمجاد لإشرافهما على الطباعة ولقسم الكمبيوتر في الأمانة العامة.

وفي الختام أتمنى للقُرّاء الكرام أن يجدوا في عوالم هذا الديوان المزيد من المتعة والفائدة وأن ينهلوا من معينِهِ الفياض رائقَ الشعرِ وأعذبَهُ لذةً للشاربين.

ورحم الله ابن زيدون الذي يقول:

ويا نسيمَ الصَّبا بلغ تحيتنا

من لو على البُعْدِ حَيًّا كان يُحيينا

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في جمادى الأولى 1425هـ

الموافق يوليو 2004م

****

آفاق الإبداع في

شعـــــر ابن زيـــدون

الأستاذ الدكتور إحسان النص

أجمع النقاد والباحثون في الأدب الأندلسي، من العرب والغربيين، على أن ابن زيدون هو أعظم شعراء الأندلس وأكثرهم إبداعًا وتجديدًا في شعره. فما هي العوامل التي كانت وراء إبداعه، وما هي فنون الشعر التي تجلّى فيها هذا الإبداع؟

من المحقق أن الشعر الأندلسي عامة غاير في كثير من سماته وفنونه أنماط الشعر في المشرق، وإن كان شعراء المشرق قد قدّموا لشعراء الأندلس فيضًا من المعاني والأفكار نهلوا منها وكانوا النموذج الأرقى الذي تشوّقوا إلى محاكاته، فالشعراء، مهما سعوا إلى التجديد ومغايرة النماذج الشعرية السابقة عليهم ليس في قدرتهم التخلّي عن موروثهم ومحفوظهم من تلك النماذج، فهي جزء من محصلتهم الثقافية وهي مستكنّة في أعماق وجدانهم وذاكرتهم، ولا سبيل أمامهم لمحوها من كيانهم الشعري، فكذلك نجد أن مورّثات (جينات) شعراء كل عصر تولّد أجنّة حيّة في أشعار من يليهم. فإن زعم شاعر من الشعراء أنه أوجد شعرًا منبت الأسباب بشعر سابقيه فهو يجانب الحقيقة ويخالف سنن الخلق الفني، فهذا الخلق لا يكون من عدم بوجه من الوجوه، فلابدّ للأحق من اقتفاء السابق على نحو من الأنحاء. فالفن الشعري قائم على المحاكاة، ولا يخلو نسيج أي عمل إبداعي من خيوط للمحاكاة، تقلّ أو تكثر.

وسمة أخرى من سمات الشعر الأندلسي عامة، هي فقره بالنظرات العقلية، فلم يكن لشعراء الأندلس ثقافة فلسفية متعمقة. وقد أشار إلى هذه الخصيصة المستشرق الشاعر الإسباني غارثيا غومث في كتابه عن الشعر الأندلسي، وهو يجيد اللغة العربية وترجم شعرًا عربيًا إلى الإسبانية، قال: «ولا بدّ أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي

عامة – فيما خلا بضع شواذ – فقير جدًا من الناحية الذهنية التفكيرية، ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير»[1].

ومن المحقق أن مجالات الإبداع في الشعر الأندلسي تغاير تلك التي نجدها في شعر المشارقة، فهي تبرز في فنون من الشعر ربما فاقوا فيها شعراء المشرق، ومن تلك الفنون وصف الطبيعة والغزل ووصف مجالس السّمر والشراب ووصف البلدان التي أصابها الدمار والعفاء. وابن زيدون يمثّل في شعره الجوانب الثلاثة الأولى إضافة إلى موضوع الاعتذار والاستعطاف.

وإذا تقصينا العوامل التي كانت وراء إبداعه في هذه الفنون الثلاثة نجدها تتجلّى في الجوانب الآتية:

١ – ثقافة الشاعر.

٢ – الطبيعة الأندلسية.

٣ – المجتمع الأندلسي.

٤ – تجارب الشاعر والأحداث التي مرّ بها.

٥ – نشأته وطبيعته ومزاجه.

أولاً - ثقافة الشاعر:

من خلال قراءتنا شعر ابن زيدون يتجلّى لنا ما كان يتحلّى به من ثقافة واسعة تتناول شتى آفاق المعرفة. وقد زوّدته بهذه الثقافة مصادر شتى، منها ما أخذه عن أبيه، وكان هو معلمه الأول، وكان والده من العلماء المعروفين، ولكن تتلمذه لوالده لم يطل لأنه توفي وابن زيدون في الحادية عشرة من سنّه. وقد تلمذ لعالم آخر هو أبو بكر مسلم بن أحمد، وكان من علماء العربية، ولابن زيدون رسالة وجّهها إليه حين كان في سجن ابن جهور، وهو يصف فيها حاله في السجن ويعاتبه عتابًا رقيقًا لأنه تخلّى عنه في محنته، ويطلب إليه أن يشفع له عند ابن جهور بعد أن تخلّى عنه أصدقاؤه[2].

---

(١) غارثيا غومث: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص ٢٥.

(٢) وردت الرسالة في الذخيرة لابن بسّام ٣٠٥/١.

ولكن مورد ثقافته الأوسع إنما كان مطالعاته في الكتب التاريخية والأدبية واللغوية والفقهية ودواوين الشعراء. ويبدو أنه كانت لوالده مكتبة حافلة بمجموعة كبيرة من كتب الفقه واللغة والأدب والفلسفة. فأكبّ عليها يطالعها بشغف الباحث عن المعرفة، وقد تركت هذه الثقافة صدى واسعًا في أشعاره ورسائله، فاستفاضت فيها الإشارات التاريخية والإحالات الأدبية والاقتباسات الشعرية والمعاني الفقهية، ولا نجد شاعرًا أندلسيًا يجاري ابن زيدون في سعة ثقافته وغزارة معارفه.

ثانيًا - الطبيعة الأندلسية:

حين دخل الفاتحون العرب الأندلس وجدوا أنفسهم في بيئة تغاير كل المغايرة بيئاتهم في المشرق، فليس في هذه البيئة الجديدة بواد قاحلة وموارد مياه شحيحة ولا بيوت شعر وخيام وأطلال دارسة، وإنما وجدوا بلادًا عامرة بالحدائق النضرة والمياه المتدفقة والأشجار الباسقة. ومع أن العرب وجدوا في الحواضر التي استقروا فيها بعد الفتوح الإسلامية طبيعة تختلف عن بيئة أهل البادية القفر، بيد أن هذه الطبيعة لا تماثل بيئة الأندلس في روعتها. وقد عبّر الشاعر الأندلسي ابن خفاجة عن روعة الطبيعة الأندلسية فقال:

يا أهل أندلس لله دركمُ ... ماءٌ وظل وأنهار وأشجارُ

ما جنَّة الخلد إلا في دياركمُ ... ولو تُخِيِّرتُ هذا كنتُ أختار

لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرًا ... فليس تُدْخلُ بعد الجنة النارُ

فالشاعر الأندلسي سحرته طبيعة الأندلس وبهرته مشاهدها الرائعة وخلبت لبّه، فوقع في أسرها، وامتزجت بروحه وعواطفه، فهو يصفها من داخله، فيتفاعل معها ويحسّ نبضها، في حين أن شعراء المشرق كانوا يصفونها كما تبدو لهم من خارج، ولا يتفاعلون معها صنيع الشاعر الأندلسي.

وقد تركت هذه الطبيعة الخلاّبة أثرها العميق في نفس ابن زيدون ولا سيما أنه كان يقوم بنزهات في ربوعها الفاتنة بصحبة ولادة، فكانت ذكرياته لهذه النزهات ترتبط عضويًا بحبّه لولادة وتغزله بها، ووصف الطبيعة في شعره لا تكاد تخلو منه قصيدة من قصائده.

ثالثًا - المجتمع الأندلسي:

مثلما اختلفت طبيعة الأندلس عن طبيعة المشرق اختلف مجتمعها عن مجتمعه، فكان أهل الأندلس، مع كثرة الأحداث التي كانت تتتابهم، منكبيّن على لذائذ الحياة ومتعها، فمجالس اللهو والشراب كانت قائمة في كل حاضرة من حواضر الأندلس، وأكثر الأمراء والولاة والرؤساء – ولا سيما في عهد ملوك الطوائف، وهو عصر ابن زيدون – كانوا منغمسين في هذه المجالس، يعكفون على تعاطي الراح ويستمتعون بسماع الغناء وينكبون على لذائذ الحياة بمختلف صورها. ولم يكن المجتمع الأندلسي يعرف التزمت الديني والقيود الاجتماعية التي كانت تهيمن على مجتمع المشرق. وكان للمرأة في الأندلس من الحرية ما لم يكن للمرأة في المشرق مثله، ولا سيما نساء الطبقة الراقية. ومثال هذا الانطلاق والانعتاق من القيود الاجتماعية سيرة ولادة بنت المستكفي التي كان لها مجلس (صالون) يغشاه الرجال، فيتسامرون ويتناشدون الأشعار، ولولادة شعر تصرّح فيه بمنحها عاشقيها ما يشتهون، وهو قولها:

وأمكن عاشقي من لثم خدّي
وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولم تكن للنساء في المشرق العربي مثل هذه الجرأة في التصريح بعواطفهن وعلاقتهن بالرجال.

رابعًا - تجارب الشاعر والأحداث التي مرّ بها:

شعر ابن زيدون يواكب مراحل حياته ويصوّر بأمانة وصدق كل ما عاناه الشاعر في حياته من هموم وآلام وما تعرّض له من خطوب، ولا يسع الباحث أن يدرس شعره بمعزل عن حياته، خلافًا لما ذهبت إليه طائفة من النقاد المحدثين الغربيين ومن تابعهم من النقّاد

العرب من إمكان دراسة النص الشعري بمعزل عن المؤثرات الخارجية والعوامل البيئية، فلم يكن ابن زيدون من أولئك الشعراء الذين اتخذوا شعرهم وسيلة لكسب المال بمديح الخلفاء والأمراء والأشراف، فهؤلاء ربما مدحوا رجالاً لا يضمرون لهم الولاء والود، فشعرهم لذلك لا يمثل حقيقة عواطفهم. أما ابن زيدون فلم يمدح إلا من أخلص الولاء لهم، فشعره يمثل حقيقة شعوره.

وإذا نظرنا في شعر ابن زيدون نجد أن ثمة أمرين استأثرا بمعظم شعره وكان لهما أعمق الأثر في حياته، وهما: حبّه لولادة بنت المستكفي، وسجنه الذي استمر خمسمئة يوم. فمن المحقق أنه أحبّ ولادة حبّاً لم تخب وقدته طوال حياته، وكان غزله صدى هذا الحب العنيف، أحبها في أيام الوصل وظل يحبها بعد القطيعة والهجر، وفي ديوانه عشرات من المقطعات المقولة بعد هجرها إياه وكلها تنبض بصدق العاطفة، وغزله يستغرق الحيز الأكبر من شعره.

أما سجنه فقد كان محنة عانى منها معاناة شديدة، ولا سيما حين وضع مع اللصوص والسفلة، وقد حاول الشاعر استعطاف أبي الحزم بقصائد عدة وبرسالته الجدية ولكن ابن جهور أصم أذنيه عن هذا الاستعطاف، ولم تفلح وساطات أصدقاء ابن زيدون في حمل ابن جهور على إطلاقه، فلمّا لم تجد محاولاته هذه كلها نفعًا اضطر إلى الفرار من سجنه واللجوء إلى بني عبّاد بإشبيلية، في رحلته الأولى إليهم، فشعره صورة صادقة عن حبه لولادة وسجنه.

خامساً - نشأته وطبيعته ومزاجه:

كانت أسرة ابن زيدون من الأسر ذات المكانة الرفيعة في قرطبة، وكانت ذات ثراء عريض، فنشأ ابن زيدون في أكناف الرفاهية والنعمة. فلما شب نمت في نفسه دواعي الطموح إلى تبوؤ المناصب العليا في الدولة وإلى أن يغدو من أولي الأمر والنهي. وقد تحقق له ما يصبو إليه من رفعة في ظل دولة أبي الحزم بن جهور في بادئ الأمر، ويبدو أنه كانت تراوده آمال أوسع مدى مما وصل إليه، ونحن لا نبعد أن يكون له يد في الفتنة

التي نشبت في قرطبة إبان حكم أبي الحزم، وشعره يبرزه في صورة الرجل المتعالي البعيد الهمة، وهو يصور، إلى جانب ذلك، ورغبته في أن ينال حظوة لدى ملوك الطوائف وأمرائها، وقد لقي في سفارته لديهم وإقامته عندهم حفاوة وإكرامًا بالغين، بل إنه، مع حبه الصادق لولادة ومحاولته استرضاءها لم يستطع مغالبة كبريائه في بعض مواقفه منها، فأظهر إعراضه عنها، ورسالته الهزلية التي جعلها على لسان ولادة تمثل مدى اعتزازه بمكانته ورفعة شأنه.

****

آفاق الإبداع في شعره

عملت المؤثرات التي أوردناها على إنضاج عبقرية ابن زيدون وموهبته الشعرية، فأنتج شعرًا شهد النقاد بمستواه الفني الرفيع وإبداع قائله المتفوق، وهذا الإبداع يصدق أيضًا على نثره في رسائله التي بعث بها إلى أبي الحزم والأمراء الذين اتصل بهم وأصدقائه.

وسنقف هنا عند إبداعه الشعري فحسب، نتقصى مواطنه ومظاهره في إيجاز شديد. وهذا الإبداع يتجلى أوضح ما يتجلى في الفنون التي استغرقت الحيّز الأوفى من ديوانه، وهي الغزل والوصف والمديح والاستعطاف.

وإبداع ابن زيدون في هذه الفنون نلقاه في جوانب شتى، في ابتكار المعاني والأداء والأسلوب والصياغة والفن التصويري والجرس الموسيقي.

أولا - الإبداع في المعاني:

على وفرة ما أبدعه شعراء الغزل المشارقة من معانٍ جديدة في شتى العصور، ولا سيما في العصر الإسلامي، فإن ابن زيدون استطاع أن يضيف إلى هذه الثروة الوفيرة معاني مبتكرة لم تخطر في بال من سبقه من المتغزلين. وقد ألهمه هذه المبتكرات حبه المتوقد لولادة، سواء في حال الوصل والمساعفة أو في حال القطيعة والهجر، ولم يكن ابن زيدون من الشعراء الذين ينقلون هواهم من امرأة إلى أخرى، فقد استحوذت ولادة على جماع عاطفته وسويدائه، ويصدق عليه قول أبي تمام:

نقل فؤادك كيف شئت من الهوى

ما الحبّ إلاّ للحبيب الأول

وأول ما نلحظه في غزله امتزاجه بوصف الطبيعة امتزاجًا عضويًا، فالمرأة والطبيعة كانتا مصدرين للجمال في أبدع صوره، وابن زيدون موكل بالجمال ينساق إلى سحره حيثما وقعت عليه عينه، تستهويه العيون النُّجل والقدود المشوقة وسائر مفاتن المرأة الحسناء، كما تستهويه مشاهد الرياض الغنّاء والأشجار الباسقة والثمار الجنيّة والأنهار المتدفقة وسائر مشاهد الطبيعة، فالارتباط وثيق بين وصف الطبيعة ووصف المرأة، والحب والطبيعة هما نسيجا شعره، فمشاهد الطبيعة كانت تذكّره بولّادة، وغزله كان يستوحي من الطبيعة ما يذكّره بمحاسن المرأة، من نحو قوله:

إنّي ذكرتك بالزهراء مشتاقَا
والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنه رقّ لي فاعتلّ إشفاقا

وابن زيدون يجعل هنا الطبيعة تشاركه أحاسيسه وعواطفه، فاعتلال النسيم مرتبط باعتلال الشاعر، وهذا التلاحم بين الطبيعة وعواطف الشاعر مستفيض في سائر غزله، نحو قوله:

ولطالما اعتلّ النسيم فخلته
شكواي رقّت فاقتضت شكواكِ

وهو يستعير من الطبيعة رموزًا تمثل الطبائع الإنسانية والقيم الخلقية نحو قوله:

لا يكن عهدكَ وردًا
إن عهدي لك آسُ

فعهد صديقه أبي حفص بن برد غير ثابت، فهو يحكي الورد في سرعة ذبوله، في حين أن عهده ثابت دائم شأن نبات الآس الذي لا يسرع إليه الذبول، فالورد هنا رمز للذبول السريع والآس رمز للديمومة. ونلاحظ هنا أن التشبيه بالآس لم يكن معهودًا قبله في الشعر بهذه الدلالة. وعهود ولّادة كانت رياحين لروح الشاعر:

لُيسقَ عهدكم عهد السّرور فما
كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

والشاعر يستنبط من صورة التفاح معاني يلبسها ممدوحه ابن جهور، فثماره في حسن منظرها هي الدنيا في إقبالها على ابن جهور، ولكن حسن التفاح حائل وحسن ممدوحه باق:

لها منظر حسنٌ في العيون
كدنياك لكنه منتقل

وطعم التفاح لذيذ لذائقه لذة ذكرى ممدوحه، ورائحته تثني على ممدوحه، ولين ملمسها يحكي لين زمانه:

وطعمٌ يلذّ لمن ذاقه
كلذّة ذكراك لو لم يُملْ
وريًا إذا نفحت خلتها
تُملّ ثناءك أو تستهلْ
يُمثِّل ملمسُها للأكفْ
فِ، لين زمانك أو يمتثلْ

وهذا المزج بين مجالي الطبيعة وأخلاق الممدوح من أبرز مجالات الإبداع في شعر ابن زيدون.

وغزل ابن زيدون حسيّ ماديّ، فالشاعر يقف في وصف الشعراء الذين ينظرون الى المرأة على أنها جسد جميل يثير في محاسنه الأشواق والرغبات الجنسية، وهذا الاتجاه طبيعي في بيئة الأندلس المتحضرة المترفة ومجتمعاتها المنغمسة في اللهو والمجون والشراب وكل المتع التي لم تكن في متناول شعراء البادية القدامى الذين كانوا إذا وصفوا مفاتن المرأة فغايتهم تسويغ تعلقهم بها، في حين أن هذه المفاتن كانت وراء تعلّق الشاعر الأندلسي بالمرأة، فنسمع ابن زيدون يقول في وصف صاحبته:

يجـــول وشـــاحـــاها على خـــيـــزرانة
وتُشـــــــرق في بـرديّـتـين الخـــــــلاخـلُ

ويقول في نونيته المشهورة في وصف ولّادة:

ربـيـب مـلـك كـــــأن الـلـه أنـشــــــأه
مــــسكًا وقـــدّر إنشـــاء الورى طينا
أو صـــاغـــه ورِقًـــا مـــحـــضًـــا وتوّجـــه
من ناصع التـــبـــر إبداعًـــا وتحـــســـينا
إذا تـأوّد آدتـه رفـــــــــاهـيـــــــــةً
تُومُ الـعـــقـــود وأدمـــتْـــه البُـــرى لينا
كـــأنما أُثبـــتت في صـــحن وجـنـتـــه
زُهـر الـكـواكب تـعـــــــــويـذًا وتـزيـيـنـا

وهو إذا تغزل شاقته المفاتن الجسدية وتشوق إلى الاستمتاع بها:

مــــا لـلـمُــــــدام تُـديـرهـا عــــيـنـاكِ
فــيـــمـــيل في سُكر الـصـــبـــا عطفـــاكِ
هـلاّ مـــزجـت لـعـــاشـــقـــيك سُـــلافـــهـــا
بـبَـــــرود ظَـلـمـك أو بـعــــــذب لَـمـــــاكِ
بل مـــا عليك وقـــد مـــحـــضـتُ لك الـهـــوى
في أن أفـــــوز بـحـظـوة الـمِـــــســـــواكِ
يـدنـو بـوصـلـك حـين شـطّ مــــــــــزاره
وهـمٌ أكـــــــاد بـه أقـــــــبّل فـــــــاكِ

ويتجلى إبداعه في فن الغزل في قصيدته الفائية خاصة، وهي من قصائده الطوال الدالة على طول نفسه الشعري، فنسمعه يقول فيها:

وفي الـسِّـــيَـــراءِ الرّقْمِ وسط قـــبـــابهم
بـعــــيـــدُ مناط القـــرط أحـــورُ أوطفُ

تبـــــاين خـلقـــــاه، فــــــعَـــــبـلٌ منـعّمٌ
تـأوّد فـي أعـــــلاه لَدْنٌ مُـــــهـــــفـــــهفُ
فَلِلْعـــــانِكِ المرتجّ مـــا حـــاز مـــئـــزرٌ
وللـغُـــصُن المهـــتـــزّ مـــا ضـمّ مِطْرفُ
فَـــــــــدَيْـتُـكِ أنّـى زرتِ نـوُركِ واضـحٌ
وعـطـركِ نمّـام وحَـلـيُـكِ مُـــــــــرجـفُ

ومشاهد الطبيعة وهديل الحمام الورق ومذاق الخمرة، كل ذلك يذكّره بولّادة ويثير شوقه إلى الاستمتاع بمحاسنها:

وإنّي لـيـســتـهـوينيَ الـبـرقُ - صـبـوةً -
إلـى برق ثـغـــــر إن بدا كــــــاد يـخطفُ
ومـــــــــــا ولـعـي بـالـرّاح إلاّ تـوهّـمٌ
لظَلـمٍ بـه كـــــالـرّاح لـو يُـتـــــــرشّفُ
وتُذْكِـــرُني العِـــقْـــدَ الـمُـــرِنّ جُـــمـــانُه
مُـــــــرِنّـاتُ وُرْقٍ في ذرا الأيك تـهـــــتـفُ

فكذلك نتبين مدى اندماج الغزل بالطبيعة في شعر ابن زيدون.

وابن زيدون لا يكتفي بوصف مشاهد الطبيعة في الأرض بل يرفع بصره إلى السماء متطلعًا إلى نجومها وأفلاكها وبروجها، تردفه في ذلك معارفه الفلكية، وهو لا يصف هذه المشاهد السماوية والآثار العلوية لإبراز معارفه الفلكية وإنما ليلتمس مشابهها في أخلاق الناس وحركاتهم نحو قوله:

إلـى أن بـدت في دُهـمـــــة الأفـق غُـــــرّةٌ
ونُـفِّـــــــرَ من جُـنح الـظـلام غُـــــرابُ
وقـد كـادت الجـوزاء تهـوي فـخلتُـهـا
ثناها من الشّـــعْـرَى الـعَـبـورِ جِـذابُ

كـــأنّ الـثـــريّا رايةٌ مـــشـــرعٌ لـهـــا

جـــبـــانٌ، يُريد الطّعن ثمّ يـهـــابُ

كـــانّ ســـهـــيـــلاً في رباوة أفـــقـــه

مُـــســـيـمُ نجـــوم حـــان منه إيابُ

كـأنّ السُّـهـا فـاني الحُـشـاشـةِ شَـفّـهُ

ضنًى فـخُـفـاتٌ مـرّة ومَـثـاب

كـأنّ الصـبـاح اسـتـقـبس الشـمس ضـوءَها

فـجـاء لـه من مُـشـتـريه شِـهـابُ

☆☆☆☆

فكذلك نقف على مواطن الإبداع في معاني ابن زيدون، وقد يغير في بعض شعره على معاني الشعراء في المشرق، واقتباس الشاعر من معاني سابقيه أمر فاش في الشعر، قديمه وحديثه، فالشاعر حين يحفظ أشعار سابقين تختزن ذاكرته معاني أشعارهم، فترد في خاطره حين يتصدّى لنظم الشعر، فيقتبسها. وقد كثر الحديث عن هذه الظاهرة لدى نُقّاد الشعر القدامى، في سياق الحديث عن السرقات الشعرية وصورها (الاقتباس والتضمين وغيرهما). وفي العصر الحديث وضع النقاد الغربيون هذه الظاهرة في نطاق نظرية أطلقوا عليها مصطلح «التناص» وواضعة هذه النظرية الناقدة جوليا كريستيفا، فمن نماذج هذا التناص في شعر ابن زيدون قوله مخاطبًا ممدوحه:

فـثق بهـزبر الشّـعـر واصـفحْ عن الورى

فـــإنـهـم - إلا الأقـلّ - ذُبـابُ

ولا تعـدل المُـثْنينَ بي فـأنا الذي

إذا حـضـر العُـقمُ الشّـواردُ غـابوا

يـنوبُ عن المُـدّاح منّي واحـدٌ

جـمـيعُ الخـصـال ليس عنه مَنابُ

ففي هذه الأبيات ينظر ابن زيدون إلى قول المتنبي:

أجــــزني إذا أُنشــــدت شـــعـــرًا فــــإنما

بشـــــعــــــري أتـاك المادحــــــون مُــــــردّدا

ودع كلّ صــــوت غـــيــــر صــــوتي فـــإنني

أنـا الـطـائـر المحكـيُّ والآخـــــر الـصَّــــــدى

على أن ابن زيدون حين يستعير معاني الشعراء يتصرف في الأداء ويأتي بصور جديدة فيصدق عليه مذهب الفيلسوف والناقد الفرنسي درّيدا Derrida، مبدع المدرسة التفكيكية، فهو يفكك المعنى المستعار ويعرضه في لبوس جديد، فيصدق عليه قول الجاحظ: «إن المعاني معروضة في الطريق وإنما الشأن للألفاظ». وأمثال هذا التناص مستفيضة في شعر ابن زيدون، وهي تدل على سعة ثقافته الأدبية ومعارفه الشعرية.

وفي شعره اقتباسات قرآنية في المعاني والصور، من ذلك قوله في قصيدته التي رثى بها أم المعتضد بن عباد:

خـــفــضت جناح الذلّ في الـعــزّ رحـــمـــة

لـهــــا وعــــزيز أن تذلّ وتـخـــــضـــــعـــا

فهو ينظر إلى قوله تعالى: (واخفض لهما جناح الذُّلّ من الرحمة). (الإسراء٢٤).

بيد أن ما استعاره ابن زيدون من معاني الشعراء الآخرين لا يُعدُّ شيئًا مذكورًا بالقياس إلى ما أبدعه من معانٍ جديدة لم يسبق إليها وكان أبا بجدتها، ومن العسير استقصاء كل ما أبدعه فكره الثاقب من المعاني البكر في مختلف الأغراض التي طرقها، على أن إبداعه المتميز يتجلى في فنّي الغزل والمديح خاصة. وحسبنا أن نحيل على طائفة من القصائد تبرز إبداعه في مجال المعاني، وتأتي في المقدمة قصيدته الرائعة:

أضـــــــحى الـتـنـائي بـديـلاً مـن تدانـيـنـا

ونـاب عن طيب لقــــيــــانا تجــــافــــينا

فقد استحوذت هذه القصيدة على إعجاب النُقّاد والشعراء وعامة الناس، فحفظوها وعارضها كثير من الشعراء. ومن عيون قصائده القافية التي مطلعها:

إني ذكــرتكِ بالزهراء مــشــتــاقَــا
والأفقُ طلقٌ ومــرأى الأرض قــد راقــا

وقصيدته الفائية التي أولها:

أمــا في نســيم الرّيح عَــرْفٌ مُــعَــرِّفُ
لنا: هل لذات الوقف بالجــزع مــوقفُ؟

وقصيدته التي أولها:

مــا جــال بعــدكِ لحظي في سَنا القَــمَــرِ
إلاّ ذكــرتُكِ ذِكْــرَ العَــيْنِ بالأَثَرِ

وسينيته التي مطلعها:

مــــا عــلــى ظــنِّــيَ بــاسُ
يــجــرحُ الــدهــر ويــاســو

وقصيدته اللامية التي أولها:

ألَمْ يَأْنِ أنْ يبكي الغــمــامُ على مــثلي؟
ويطلبَ ثأري البــرقُ مُنْصَلِتَ النَّصلِ؟

ففي هذه القصائد، وفي مخمسيته، وفي سائر شعره معانٍ بكر تستأثر بالإعجاب.

وآفاق ابن زيدون الثقافية والمعرفية قد رفدت شعره بقدر واسع من مصطلحات الفقه والحديث والمنطق والفلسفة وأمثال العرب. من ذلك قوله في سينيته التي وجهها إلى أبي حفص بن برد، فذكر مصطلحي النص والقياس:

وودِادي لــــك نــــصٌّ
لم يخــالفــه قــيــاسُ

وفي قصيدته التي وجهها إلى ابن عبدوس يرد مصطلحا الجوهر والعرض:

عَـــمِـــدْتَ لشــــعـــري ولم تتّـــئبْ
تُـعـــــارضُ جـــــوهَره بـالـعَــــــرَضْ

وفي قصيدة أخرى يذكر مصطلحي الكون والفساد:

كــــــان الـرضــى، وأُعـــــيــــــذه
أنْ يـعـــــقـبَ الـكـونَ الـفـــــســـــادُ

ونحو هذا مستفيض في شعره.

ولابن زيدون اطلاع واسع على الأحداث التاريخية وأخبار العرب وأمثالها، فهو يكثر من تضمينها في شعره، والإشارة إليها، من ذلك قوله:

ســـأبكي على حظي لديك، كــمـــا بكى
(ربيـــــعـــــةُ) لـمَّـــا ضلّ عنه (ذؤابُ)

وهو يشير في هذا البيت إلى خبر ذؤاب بن رُبيعة الأسدي، قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي، وكان رُبيعة قدم الموسم لافتداء عتيبة فلم يجد الربيع بن عتيبة وظن أنه قتل ابنه ذؤابًا فرثاه بأبيات.

ومن تضمينه أمثال العرب قوله من قصيدة مدح بها أبا الوليد بن جهور:

لا يـزل مـن حـــــاســــديـه مـكـثــــرٌ
أو مـــقـلٌّ، (ســـبق الســيفُ الـعـــذلْ)

☆☆☆☆

ثانيًا - الأداء:

فإذا انتقلنا من أفق المعاني إلى أفق الأداء اتسع مجال الإبداع في شعر ابن زيدون، وتحقق قول الجاحظ في أن الشأن للألفاظ لا للمعاني، فالأداء هو مجاله الإبداعي المتألّق، فلابن زيدون ذائقة مرهفة في اختيار الألفاظ المناسبة للموضوع الذي يعالجه.

ولو تقصينا معجمه اللفظي لوجدنا أنه يكثر من إيراد أسماء الرياحين والورود والحدائق والحلي والعطور والنجوم والثمار والطير. وكثرة ورود هذه الألفاظ في شعره أثر من آثار الطبعية الفاتنة الروعة التي عاش في ظلالها، والبيئة الحضرية المترفة التي عاش في ربوعها. والأمثلة على ورود هذه الألفاظ في شعره مستفيضة يعسر حصرها،ولا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده. وحسبنا إيراد نموذجين لهذه الظاهرة هما قوله يعاتب ولاّدة:

هذا الصباحُ على سُراك رقيبًا
فَصِلي بفرعكِ ليلَكِ الغربيبا
ولديك أمثالَ النجوم قلائدٌ
ألفتْ سماءك لبّةً وتريبا
لينبْ عن الجوزاء قُرطُكِ كُلّما
جنحتْ تحتَّ جَناحَها تغريبا
وإذا الوشاحُ تعرّضت أثناؤه
طلعتْ ثُريّا لم تكن لتغيبا
ولطالما أبديتِ إذ حيَّيْتِنا
كفّاً هي الكفُ الخضيبُ خضيبا

وقوله في لاميته:

ألمْ يأنِ أن يبكي الحمامُ على مثلي
ويطلبَ ثأري البرقُ مُنْصَلِتَ النَّصلِ
وهلاّ أقامتَ أنجمُ الليل مأتمًا
لتندبَ في الآفاق ما ضاع من ثَكْلِي
ولو أنْصَفَتْني – وَهْيَ أشكالُ همّتي –
لألقتْ بأيدي الذُلِّ لمّا رأت ذُلّي
ولافترقتْ سَبْعُ الثُريّا وغاضَها
بمطلعها ما فرّقَ الدهرُ من شملي

وابن زيدون مصور ماهر يفتنُّ في إبراز المعاني في حُلة قشيبة تثير الإعجاب، وهو يستعين في صوره هذه بشتى ضروب الأداء البلاغي، يجنح إلى التشبيه أو المجاز أو التشخيص والتجسيم أو التعبير الكنائي. وهو ينتزع صوره في أغلب الأحيان من طبيعة الأندلس المزدانة بشتى الألوان والأشكال، وقد ينتزعها من الآثار العلوية: من الكواكب والقمر والشمس والأفلاك والسّحب، فخياله المبدع يسعفه في النفاذ إلى كل ما يحيط به من مشاهد ورؤى، فهو يؤلف بين الحسِّي والحسِّي، أو بين الحسِّي والمعنوي، ويشخّص المجردات، ويضفي على موصوفاته الألوان البهيجة فتغدو لوحة رائعة تأخذ بالألباب.

ولا يتسع المجال هنا لاستيفاء الأمثلة على براعته التصويرية، فقصائده تزدحم بمختلف الصور، وحسبنا أن نستشهد بنماذج قليلة تبرز هذه البراعة، يقول في إحدى قصائده:

وغُصنٍ ترشّف ماء الشبابِ
ثَراه الهَوَى، وجناه الأملْ
بدتْ في لداتٍ - كزُهرِ النُّجوم -
حِسانِ التحلّي مِلاحِ العَطَلْ
مَشَيْنَ يباهينَ روضَ الرُّبا
بيانعِ روضِ الصِّبا المُقْتَبَلْ
فمن قُضُبٍ تتثنى بريحٍ
ومن قُضُبٍ تتثنَّى بدلّ

ومن صور التشبيه قوله من قصيدة في مدح المعتضد بن عبّاد:

أغَرُّ إذا تجهَّمَ وجهُ دهرٍ
تبلّجَ فيه كالقمر اللِّياحِ
هو المُبقي ملوكَ الأرض تَدْمَى
قلوبُهمُ كأفواه الجِراحِ
أبَحْرَ الجود في يوم العطايا
وليثَ البأس في يومِ الكفاحِ

وهو ينتزع صوره من الطبيعة:

شِيَمٌ هي الزَّهْرُ الجَنِيُّ، تبسّمتْ

عنه الكمائمُ في الضّحاءِ المانعِ

ومن نماذج تشخيص المجردات قوله في رثاء أم المعتضد:

لقد أجهش الإخلاص بالأمس باكيًا

عليكِ، كما حَنَّ اليقينُ فَرَجَّعا

وقصيدتاه النونيّة والقافيّة زاخرتان بالصور المبتكرة نحو قوله:

والروض عن مائه الفضّي مبتسمٌ

كما شَقَقْتَ – عن اللّبات – أطواقا

وردٌ تألّقَ في ضاحي منابته

فازداد منه الضُّحى في العين إشراقا

سَرَى ينافِحُهُ نَيْلوفَرٌ عَبِقٌ

وَسْنانُ نبّهَ منه الصُّبحُ أحداقا

ولا تقتصر عناية ابن زيدون على حشد الصور البيانية في قصائده بل يضيف إليها شتى ألوان الزخارف البديعية، ولا سيما صور التماثل والتشابه (الجناس)، والتضاد المعنوي والطباق والمقابلة، فهو مولع كل الولع بإيراد هذه الزخارف، وهذا الولع سمة من سمات الترف الحضاري عرفها المشرق العربي منذ القرن الرابع الهجري واستفاضت بعده، وعرفها المغرب العربي والأندلس منذ ذلك الحين أيضًا. ومن نماذج هذا الإسراف في إيراد الزخارف قوله في النونية:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ألا – وقد حان صبح البين – صبّحنا

حَيْنٌ، فقام بنا للحَيْنِ داعينا

من مُـبلغُ الـمُلبـسـينا بانتـزاحـهمُ
حـزنًـا مـع الـدهـر لا يَـبْلـى ويُـبـلـيـنـا
أنّ الـزّمـانَ الـذي مـازال يضـحكنا
أنسًـا بقـربـهمُ قـد عـاد يُـبكينـا

✡✡✡✡

وابن زيدون حريص على أن يوفر لشعره قيمًا إيقاعية موسيقية تجعل وقعه في الأسماع والنفوس أشد إطرابًا وتأثيرًا، وتتأتى موسيقاه من اختيار الألفاظ العذبة الحلوة الجرس، فهو يختارها اختيار الصائغ الحاذق جواهره ويواقيته. ولهذا أطلق عليه النقاد لقب «بحتري المغرب». ولا تفارق شعره هذه السمة المميزة حتى حين يتصدى للنظم في الأغراض التي تتطلب فخامة الألفاظ كالمديح ووصف القتال والفخر. واسمعه يقل في أروع قصائده المدحية، وهي الفائية التي مدح بها المعتمد بن المعتضد بن عبّاد والتي ذكر فيها إيقاعه بأعدائه:

طلاقـة وجـهٍ في مـضـاءٍ كـمـثل مـا
يروقُ فـرندُ السَّـيْفِ والحـدُّ مـرهفُ
على السَّيفِ من تلك الشهـامـةِ مِـيـسَمٌ
وفي الرَّوضِ من تلك الطلاقـةِ زُخْـرفُ
سـجـايا لمن والاه كـالأَرْيِ تُجْـتَنَى
تعـودُ لمن عـاداه كـالشَّـرْيِ يُنقفُ
أليس «بنو عـبّـادٍ» القـبلةَ التي
علـيـهـا لآمـال البـريّةِ مَـعْكَفُ
بِهِمْ باهتِ الأرضُ السَّـمـاءَ: فـأوجـهٌ
شُـمـوسٌ وأيدٍ من حـيـا المُـزنِ أَوْكَفُ

وتمضي بنا سائر أبيات القصيدة على هذه الشاكلة من رقة الألفاظ وعذوبة الجرس، وينبغي ألاّ يذهب بناالظنّ إلى أن هذه الألفاظ صدرت عن شاعر مطبوع بعيد عن تكلّف الصنعة، فابن زيدون شاعر ماهر في صنعته، يتأنق في اختيار ألفاظه غاية التأنّق.

وتتأتّى موسيقا شعره كذلك من اختيار الألفاظ المتجانسة أو المتماثلة في الوزن ضمن البيت الواحد (الموسيقا الداخلية)، ومن نماذج هذا الاختيار قوله:

وتبــــرزُ خلفَ حـــجـــاب الـعَـــفــافِ
وتَسْــــفِــــرُ تحتَ نـقـــابِ الخـــجلْ

ونحو قوله معاتبًا ولّادة:

عــــــلامَ أطَّبَـــــتْكِ دَواعــي الـقِـلَـى
وفــــــيمَ ثَـنَـتْكِ نَـواهــي الـعَــــذَلْ
ألـم ألـزَمِ الـصَّــــبْــرَ كـــيْـــمــا أخفَّ
ألـم أُكْــــثِـــرِ الـهَــــجْـــرَ كـي لا أُملْ
فــــمـــا عُـــوفِـــيَتْ مِـــقَــتي من أذًى
ولا أُعْـــفِـــيَتْ ثِقَــتي مـن خَـــجَلْ

ونحو قوله:

فــانحلّ مــا كــان مــعــقــودًا بأنفــسنا
وانْبَتَّ مـــا كـــان مـــوصـــولاً بأيدينا

ونحو قوله:

أبـرز الجِـــيــــدَ في غَــــلائِلَ بيـضٍ
يَتَــغَـلْغَلْنَ في حـــدائق خُـــضْـــرِ

وهذا الضرب من الصنعة الموسيقية مستفيض في شعره.

وقد يقطّع البيت إلى فقرات صوتية متساوية ليحدث إيقاعًا للسامع، نحو قوله:

إلـى أنْ تـنـاهـتْ شــــفـــــاءَ الـعـلـيلِ
وأُنْسَ الـمَـــشـــوقِ، ولَـهْـــوَ الـغَــــزِلْ

ونحو قوله في السينية:

والمحـــــــاذيـرُ ســـــــــهـــــــامٌ

والمـقـــــــاديـرُ قـــــــيـــــــاسُ

ونحو قوله في المديح:

طـريقـــــتُكم مُـــــثلى، وهـدْيُكُمُ رضًى

ومـــذهبُكم قـــصـــدٌ، ونائلُكم غَـــمْـــرُ

عـــطـــاءٌ ولا مَـــنٌّ، وحُـــكـــمٌ ولا هـــوًى

وحِلمٌ ولا عـــجـــزٌ، وعـــزٌّ ولا كـــبـــرُ

وهو ينوّع في الأوزان والقوافي، ويؤثر في المقطعات البحور المجزوءة، وخاصة مجزوء الكامل ومجزوء الرمل، وله ميل إلى اختيار القوافي الساكنة الرويّ.

وفي الجملة إنه يراعي في قصائده الموسيقا الداخلية والموسيقا الخارجية معًا.

تلكم في إيجاز شديد أبرز آفاق الإبداع في شعر ابن زيدون، والاتساع في بيانها يفتقر إلى سفر كامل، ويكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

د. إحسان النص

****

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على جزيل إحسانه، ونستمد منه التوفيق والتأييد،
ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه، وعلى من اقتدى بسنته واهتدى بهداه.

مقدمة

الأندلس أيكة وارفة الظلال، دانية القطوف، يانعة الثمار، غردت عنادلها فترة من الزمان، فملأت القلوب والأسماع، وبهرت النفوس والألباب، ولكن صداها تبدد في غياهب الزمان وغمار الأحداث، ولم يبق من هذه الألحان الساحرة إلا أنغامٌ شاردة مهومة خلدها الزمن في طياته، وسجلها الخلود على صفحاته، فتهادت إلينا خلال القرون تثير كوامن الوجدان، وتحرك سواكن الأشجان.

ويمتاز الشعر الأندلسي بأنه – في الأغلب الأعم – يعبر عن العواطف العميقة والمشاعر القلقة المشبوبة، ويصور معالم الطبيعة الخلابة الساحرة في هذه البقعة الرائعة، متجافياً عن المشكلات الفلسفية ومزالق التفكير العميق.

وقد ظهر بالأندلس شعراء أفذاذ أبدعوا في الشعر آيات خالدات، باروا فيها شعراء المشرق فقاربوهم أحياناً، وكادوا يبزونهم في بعض الأحايين. ولكن معظم آثارهم تحيفها الزمان، وطمسَتها الأحداث، وبددها التعصب الذميم، وما بقي منها اعتورته عوامل التصحيف والتحريف فغيرت معالمه وشوهت محاسنه، وكادت تصرف عنه الأدباء والباحثين، ولكن سمو ألحانه، ورقة أنغامه، وعمق إلهامه، تهوِّن ما يبذل في سبيل كشفها من جهود.

وإذا درسنا شعراء الأندلس وجدنا ابن زيدون زعيمهم بلا مراء، وهو – إلى هذا – يعد في الرعيل الأول من شعراء العربية في جميع المواطن والأزمان. ومكانته في النثر قريبة من مكانته في الشعر فاستحق أن يجذب إليه قلوب الأدباء في عصره وما تلاه من عصور.

ولكن آثاره الشعرية والنثرية وردت إلينا ناقصة مليئة بالتحريف والتصحيف، على الرغم مما يتمتع به من صوت ذائع ومكان مرموق.

وقد لمسنا هذا في دراستنا لتاريخ حياته وفنون آدابه، فاضطررنا قبل هذه الدراسة النقدية المسهبة إلى أن ندرس آثاره باحثين عن أصالة نسبتها إليه، جامعين ما تبدد منها في شتى المصادر، مصححين ما اعتراها من تشويه وأخطاء، وقد خرجنا من هذا البحث المجهد بصورة من آثاره قريبة إلى الصحة دانية إلى الصواب بقدر ما وسعه الجهد وأسعفت به الآثار.

وقد رأينا قبل أن نتحدث عن هذه الآثار الفنية، ووسائلنا لإبرازها، أن نلقيَ على عصر الشاعر ثم على حياته بعض الأضواء.

فمما لا شك فيه أننا لا نستطيع أن ندرس آثار فنان دون أن ندرس أحداث حياته التي ألهمته ما أبدعه من آيات، كما أننا لا نستطيع أن ندرس حياة عبقري دون أن ندرس العصر الذي أنبته والبيئة التي نجلته، فالإنسان مع صنع بيئته، وإن حلَّق في أجواز الفضاء.

وقد لخصنا هذا البحث بإيجاز من كتابنا المسهب (ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه. مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٥)(١).

[علي عبدالعظيم]

****

---

(١) بحث مسهب في ٥٧٨ صفحة من الحجم الكبير، درسنا فيه الأدب الأندلسي بعامة وأدب ابن زيدون بخاصة، ورجعنا فيه إلى عشرات المراجع المخطوطة ومئات المراجع الأصيلة بالعربية والإنكليزية والألمانية واللاتينية والتركية. نشرته مكتبة الأنجلو المصرية.

عصر ابن زيدون

(القرن الخامس للهجرة)

ملوك الطوائف:

عاش ابن زيدون في عصر ملوك الطوائف، وهو عصر انحدرت فيه الدولة بعد صمود، وضعفت بعد قوة،، وانكمشت بعد امتداد.

فقد وقعت الأندلس فريسة للعصبية العنصرية بين القبائل العربية ثم للعصبية الجنسية بين العرب والبربر والصقالبة[1]، ثم للمذاهب السياسية ما بين عباسية وعلوية وأموية، ثم للحزازات الدينية ما بين اليهودية والمسيحية والإسلام، مما أضعف الدولة، وجعلها فريسة سهلة للأمراء المسيحيين بالشمال، فاستطاعوا أن يتحيفوا أطرافها وأن يفرضوا سلطانهم على كثير من حكام الأقاليم.

وانقسمت الأندلس نتيجة لهذه الأحداث إلى أقاليم عديدة يحكمها أمراء عديدون، بأسهم بينهم شديد، يعتدي بعضهم على بعض، ويستعين كل منهم بحماية الأعداء المتربصين، ولسنا الآن بسبيل تأريخ هذا العصر أو الحديث عن أمرائه المتناحرين، وإنما يعنينا في هذا المقام التحدث عن إمارتين من هذه الإمارات هما قرطبة وإشبيلية، فقد طوى الشاعر في الأولى شطر حياته، وطوى في الثانية الشطر الأخير.

بنو جهور بقرطبة:

سقطت الخلافة بالأندلس نتيجة لما اعتورها من ضعف وانحلال، وقامت على أنقاضها عدة دويلات، فاجتمع أهل قرطبة سنة ٤٢٢هـ وأعلنوا الحكم الجهوري(*) ونادوا

---

(١) هم الأرقاء الذين اشتراهم الخلفاء من أنحاء أوروبا أو استرقوهم في غزواتهم المتوالية، وقد استكثر منهم الخليفة الناصر، ودربهم خير تدريب، وسما ببعضهم إلى أكبر المناصب، استشرى أمرهم من بعده، واستقلوا ببعض الولايات، وهم في هذا يشبهون عنصر الأتراك بالخلافة العباسية ببغداد، وعنصر المماليك في الدولة الأيوبية.

(*) في الأصل (الجمهوري) ولعل هذا خطأ مطبعي، وواضح أنها (الجهوري) نسبة إلى (آل جهور).

بأبي الحزم بن جهور حاكماً لهذا الإقليم، وكان شيخاً وقوراً، وعالماً جليلاً، اشتهر بتمسكه بأهداب الدين، فكان يصلي التراويح ويشهد الجنائز، ويؤذن على باب المسجد وهو حاكم لهذا الإقليم، وكان بعيد النظر فلم يبارح داره إلى قصر الخلافة، ونادى بأنه أمين مؤقت على الحكم حتى يجتمع الناس على إمام، وأعلن أن الحكم شورى، ولكنه ضبط الأمور بحزمه، وساس الرعية بدهائه، وقام بإصلاحات عديدة، وتحامى أن يشتبك مع حكام الأقاليم المجاورة، في المنازعات والحروب، وطالما تحرش بنو عباد بإشبيلية، ولكنه كان يتفادى الاشتباك معهم بكل السبل، ولما نادوا بالخليفة هشام الثاني المزعوم واستعدوا لتأييده بقوة السلاح بادر بالاعتراف به، ولكنه ظل يكشف للناس زيفه حتى تهيأت الأذهان للانصراف عنه، فأعلن سقوط بيعته، وجنب بلده التعرض للأخطار.

وكان ابن زيدون من وزرائه المقربين، ثم تغير عليه نتيجة لبعض الدسائس فألقى به في السجن، ولكن الشاعر استطاع أن يفر من سجنه بعد أن مكث به خمسمائة يوم وتذرع بولي العهد حتى عفا عنه الأمير، وسنعرض لهذه المحنة في دراستنا لحياة الشاعر بالتفصيل، وتوفي أبو الحزم بن جهور سنة ٤٣٥هـ.

فتولى الأمر بعده ابنه أبوالوليد، وكان من أصدقاء الشاعر المقربين، فأدناه منه وولاه وزارته وناط به السفارة بينه وبين ملوك الطوائف، فخف الشاعر على قلوبهم، وأحضروه مجالس أنسهم، ورفعوا بينهم وبينه الكلفة، فطالت إقامته لديهم حتى ضاق الأمير بهذا التصرف، وأصغى فعزله من منصبه، ثم رضي عنه بعد عدة أعوام، ولكن الدسائس عادت ثانية، فهجر الشاعر أميره وانتقل إلى بني عباد بإشبيلية، وقد ظل ابن جهور يحكم قرطبة حتى تقدمت به السن وأساء ابنه التصرف فوقعت قرطبة في أيدي بني عباد سنة ٤٦٢هـ فضموها إلى إشبيلية، وكانت للشاعر مشاركة في هذا التدبير.

بنو عباد بإشبيلية:

استقل أبوالقاسم بن عباد بحكم إشبيلية سنة ٤١٤هـ فاستطاع بدهائه وثرائه وحزمه أن يقوي دعائم الحكم ويوطد أركانه في هذا الإقليم، وجه همته إلى تقوية جيشه وضرب

بعض أعدائه ببعض مما أضعف شوكتهم وأوقع كثيرين منهم فريسة له. وامتدت مطامعه فوقع على شخص يشبه هشاماً الأموي فنادى به خليفة، ودعا حكام الأقاليم للدخول في طاعته، فاستجاب له بعضهم وتأبى عليه الآخرون، واستطاع من وراء هذه الدعوة أن يضم إليه بعض البلاد، وتوفي سنة ٤٣٣هـ، فخلفه ابنه المعتضد بن عباد، وكان قوي الشكيمة طاغي الإرادة صارم العزمات ميالاً لسفك الدماء مشغوفاً بالحروب، فشن حروباً متوالية على البلاد المجاورة، فوسع رقعة إقليمه إلى أضعاف ما كانت عليه، وكان مع قسوته وجبروته شاعراً رقيقاً يصوغ الشعر ويجزل عليه الصلات فاجتمع في بلاطه عدد كبير من الشعراء كان شاعرنا زعيمهم بلا مراء، وقد استعان الأمير بخبرة الشاعر السياسية فولاه وزارته، واستعان به في أهم شؤون دولته فساسها أحكم سياسة ودبرها خير تدبير، وتوفي المعتضد سنة ٤٦١هـ فخلفه ابنه المعتمد بن عباد، وكان من أصدقاء الشاعر الحميمين، فأقره في مناصبه، وعرف له قدره، واستطاع أن يفتح بتدبيره قرطبة، وكانت مطمح أنظار الطامحين من حكام الأقاليم، وكان المعتمد من أرق شعراء الأندلس شعراً، ومن أبرعهم صياغة، فجمع حوله طائفة كبيرة من الشعراء وفي عهده اشتد العداء بين الأمراء المسيحيين بالشمال وأمراء المسلمين بالجنوب، وأوشك الإسلام أن يندثر بالجزيرة، فاستغاث المعتمد بن عباد والأمراء المسلمون بيوسف بن تاشفين أمير الملثمين بالمغرب فأغاثهم، ولكنه التهمهم بعد أن رد عنهم كيد المسيحيين، فمات المعتمد في أسره بعد أن قاسى ما قاسى من عذاب وتنكيل.

الحضارة العربية بالأندلس:

بينما كانت الفوضى السياسية منتشرة بالأندلس كانت الحضارة الإسلامية بها قد أينعت وازدهرت وبلغت غاية النماء، وأصبحت الأندلس مقصد طلاب العلم ومهبط رواد المعرفة من أنحاء أوربا المختلفة، وقامت حركة ثقافية كبرى لترجمة الروائع العربية إلى اللغة اللاتينية (لغة العلم والأدب السائدة بأوروبا في هذه العصور) وانتشرت التقاليد العربية في كثير من البقاع الأوربية وكان معظم الأمراء الغربيين إذا احتاجوا جراحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطة وجهوا طلبهم إلى قرطبة التي ذاع صيتها في أوربا حتى وصفتها راهبة سكسونية بأنها جوهرة العالم.

وكانت خصبة التربة ووفرة المعادن من أسباب الرخاء الشائع في الأندلس، وإلى هذا يشير ابن حوقل بقوله: «وأما جزيرة الأندلس فتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية فيهم، لما هي فيه من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته» ولهذا كانوا يكرهون السائلين فإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يستعطي سبوه وأهانوه، وازدهرت التجارة تبعاً لازدهار الزراعة والصناعة داخلياً وخارجياً، فكانت أساطيل الأندلس التجارية تمخر عباب البحر الأبيض والمحيط الأطلسي، وكانت السلع الأندلسية رائجة بأسواق الإسكندرية والقسطنطينية ودمشق وبغداد.

قرطبة:

هي درة الأندلس وإحدى حواضر العالم المعروف في القرون الوسطى، افتن العرب في تشييدها وعمرانها، فناهزت قصورها ستين ألف قصر وحماماتها سبعمائة حمام ومساجدها ١٦٠ مسجداً، وقارب سكانها المليون، ولم تكن مدينة بأوربا يأوي إليها في زمن ازدهار قرطبة أكثر من خمسين ألفاً، ومن أشهر ضواحيها الزهراء، وقد افتن الخليفة الناصر في بنائها، وجلب إليها الرخام والتماثيل من القسطنطينية، وأنفق في زخرفتها ومد الماء إليها أموالاً طائلة استمرت عشرات السنين، وقد اشتهرت قرطبة بمسجدها الجامع حيث كان موطن عبادة ومجمع سياسة وندوة علوم، وكان يتسع لثمانين ألف مصل، وقد أفاض المؤرخون في وصف قرطبة وضواحيها ومساجدها ومنتزهاتها وقنواتها وجسورها بما يبهر الخيال، وسنرى في آثار ابن زيدون صدى هذا الجمال الفتان.

إشبيلية:

كانت حاضرة الأندلس قبل قرطبة، ثم عاد إليها ازدهارها في عصر بني عباد، حيث زاحمت قرطبة فزحمتها، وتقع على شاطئ الوادي الكبير، ولها جميع خصائص الثغور لأن النهر عندها بطيء التيار، ويصل مد البحر إلى ما بعدها، وتقوم في أجمل بقاع الأندلس وأعدلها هواء في جبل الشرف الدائم الخضرة الممتد مسافة أربعين ميلاً في اثني عشر

ميلاً تظللها أشجار التين والزيتون، ولا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف أشجاره واشتباك غصونه، وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات والديار الحسنة، وفيها يقول ابن مفلح: (إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس لأن تاجها الشرف، وفي عنقها سمط النهر الأعظم، وليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر، يضاهي دجلة والفرات والنيل، تسير فيه القوارب للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيار...) وقد اشتهرت بمجالس اللهو والشراب، ومن آثارها البديعة الباقية من عهد بني عباد القصر ويسمونه الآن (الكازار) ومن أروع ما فيه قاعة السفراء وارتفاعها عشرون متراً وطول كل ضلع منها اثنا عشر متراً، وهي من أروع التحف في جلالها وفخامتها ونقوشها الذهبية الموشاة بالألوان الحمراء والزرقاء والخضراء. وسنرى آثارها الرائعة مشعة في شعر ابن زيدون حيث طوى في ظلالها شطر حياته الأخير.

الحياة العقلية:

ازدهرت الحياة العقلية في عصر الطوائف خير ازدهار، وفي هذا يقول تريند: «لم ينبغ أعلام مفكري إسبانيا الإسلامية في عصر خلافة قرطبة الزاهر، بل في عصور الفوضى السياسية التي أعقبت ذلك العصر، وكان الطالب الإنجليزي أو الأسكتلندي الذي يرغب في أن يظفر بنصيب من العلم بأرسطو أوفر من غيره يشد رحاله إلى الأندلس حيث يتعلم كيف يقرأ المؤلفين اليونانيين بالعربية».

أما انتشار التعليم فحسبنا ما قاله دوزي: «كان كل فرد بالأندلس يعرف القراءة والكتابة، على حين كانت أوربا المسيحية تتخبط في دياجير الجهالة إذا استثنينا منها رجال الدين» ولا عجب فقد كان العرب إذا فتحوا بلداً بادروا بإنشاء مسجد ومدرسة فيه، وكان تعليم البنات شائعاً عند الأندلسيين، وكان كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شعر العرب وينظمن ويترسلن، وبلغ بعضهن درجة الأستاذية في اللغة والآداب، وكانت للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والأجناس في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية، أما المدارس العامة فكان بقرطبة وحدها ثمانون مدرسة عامة، وكان للعلماء والشعراء والمؤرخين مجامع علمية وأدبية أشبه بالأكاديميات في العصر الحديث،

وكان هناك قول مأثور ينقشونه على أكثر معاهدهم العلمية هو: «إن العالَم يقوم على أربعة أمور: علم الحكماء، وعدل العظماء، ودعاء الصلحاء، وشجاعة الشجعان».

الحركة الفكرية:

نلاحظ فيها أن العلوم الدينية كانت صاحبة المقام الأول، وكان الفقهاء يتمتعون بمنزلة سامية تقرب من منزلة الأمراء، بل كانوا كثيراً ما يهددون عروشهم ويؤلبون العامة عليهم إذا آنسوا منهم انحرافاً عن القصد وجنوحاً عن السداد، وتأتي علوم اللغة وفنون الآداب في المرتبة الثانية، وقد ازدهرت بالأندلس ازدهاراً عظيماً لأنها صادفت بيئة صالحة وطبيعية موحية ومواهب ملهمة، وقد أسهم الأندلسيون بنصيب وافر في العلوم المعاشية من طب وهندسة وفلك، ولكن عامة الشعب نفروا من العلوم الفلسفية وناهضوا المهتمين بها حتى أحرقوا كتبهم، وإن كانت العقول بدأت تتحرر بعض التحرر من هذا الغل الثقيل في عهد الطوائف وما تلاه من عصور، وقد نبغ في عصر ابن زيدون عدد كبير من أفذاذ العلماء والشعراء والأدباء، من أبرزهم ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ وكان واسع الثقافة حر الرأي مع تدين وتصون، ويقال إن مؤلفاته بلغت ٤٠٠ مجلد تناهز ثمانين ألف ورقة في الفقه والحديث والجدل والنسب والمنطق والفلسفة والشعر، ومن أشهر كتبه طوق الحمامة وهو أول كتاب في فلسفة الحب، وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، ويؤهله لمقام عال بين العلماء باعتباره أول عالم عني بدراسة الأديان والموازنة بينها، وأنه وصل إلى نتائج لم ينتبه إليها أحد حتى ظهور المدرسة النقدية الحديثة في القرن السادس عشر. ومن أشهر علماء اللغة ابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ صاحب المخصص والمحكم، ومن أشهر المؤرخين ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩هـ وهو أعظم مؤرخي الأندلس وله في تاريخها كتاب المبين في ستين مجلداً، وقد بقيت من هذا الكتاب آثار متفرقة في كتب المؤرخين، يُروى أنه ألف خمسين كتاباً آخر لم يبق منها إلى الآن إلا بعض كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس، ومن أشهر الأدباء المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس المتوفى سنة ٤٦٠هـ ألف كتاب المظفري في خمسين مجلداً، ومن أنبغ مؤلفيهم في الطب الزهراوي المتوفى سنة٥٠٠ هـ صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وقد طبع هذا الكتاب باللاتينية في القرن

الخامس عشر، فأمد أوربا بمرجعها الأكبر في تجبير العظام والأعمال الجراحية وبخاصة فتح المثانة وإخراج الحصاة، وله كتيب صغير في الآلات الجراحية مع توضيحها بالأشكال وطرائق الاستخدام.

وكتب الأدب والتراجم غاصة بالحديث عن وفرة هؤلاء العلماء الأفذاذ في عصر ملوك الطوائف، ومن أمتع كتب التراجم الأدبية في هذا العصر الذخيرة لابن بسام وهو في أربعة أقسام ضخمة طبع بعضه وما زال معظمه مخطوطاً، ومن كتب التراجم القيمة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي والصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار، وقد طبعت بمدريد ويعاد طبعها الآن بالقاهرة(١).

المكتبات:

عنيَ الأندلسيون بالكتب عناية تامة، وبذلوا جهداً مشكوراً في التأليف كما بذلوا أموالاً طائلة في نسخ الكتب وتغليفها والرحلة في طلبها، وقد أنشأ الحكم مكتبة جامعة بقرطبة بلغ عدد كتبها ٤٠٠ ألف كتاب، وكانت فهارسها في ٤٤ كراسة في كل كراسة خمسون ورقة ليس بها غير أسماء الكتب وحدها، ويروعنا هذا إذا علمنا أن عدد الكتب الخطية بدار الكتب المصرية بالقاهرة أقل من مائة ألف كتاب حتى الآن. وأصبح اقتناء المكتبات شارة من شارات الرئاسة والشرف حتى عند الجهال، ويروى أن الأندلس كان بها ستون مكتبة عامة أنشأها الخلفاء الأمويون، بل يقال إن غرناطة وحدها كانت تحوي سبعين مكتبة عامة في عهد الطوائف، ولما انهارت الخلافة الأموية نهبت خزائن الكتب بقرطبة فبيعت كتبها بأبخس الأثمان، ولكنها انتقلت إلى الحواضر الأندلسية الأخرى فأوجدت بها نهضة علمية أذكتها حركة المنافسة بين الملوك والأمراء، ويروي المقري أن ما جمعه أحمد بن عباس الوزير بالمرية بلغ أربعمائة ألف مجلد كامل أما الكتب الناقصة فلم يوقف على عددها لكثرتها، وكان محمد بن إبراهيم جد أم الشاعر من أضبط الناس لكتبه، وأجمعهم لذخائر الرواية، وله تأليف جمع فيه كلام أبي زكريا يحيى بن معين في ثلاثين جزءاً ويحدثنا ابن شكوال أن عبدالرحمن بن فطيس كان جمّاعة للكتب وله ستة من

(١) يقوم بتحقيقها ونشرها صديقنا العلامة السيد عزت العطار الحسيني وتطبعها مطبعة السعادة بالقاهرة.

الوراقين ينسخون له دائماً، وقد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، ومتى علم بكتاب قيم عند غيره طلبه وبالغ في ثمنه فإن تمسك به صاحبه انتسخه منه ورده عليه، حتى النساء كنَّ مشغوفات بجمع الكتب، يقال إن عائشة بنت قادم كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتُعْنَى بالعلم ولها خزانة كتب عامرة بأعظم المصنفات.

الحياة الأدبية:

كان الأدباء الأندلسيون يتلقون التوجيه من إخوانهم المشارقة، فكانوا يشدون إليهم الرحال، ويستقدمون نابغيهم، ويبذلون في الحصول على مؤلفاتهم أغلى الأثمان، ولكنهم في عصر الطوائف أخذوا يتحررون من هذه التبعية ويشعرون باستقلالهم الفكري، وشرعوا في مباراة المشارقة ومعارضتهم فبزوهم حيناً وقاربوهم في معظم الأحايين، وإلى هذا يشير الدكتور فيليب حتي بقوله (كانت الثقافة الشرقية في القرون الأولى التي مرت على السلطة الإسلامية في الأندلس تسري إليها من مستوى عال... غير أن الآية انعكست في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) والقرون اللاحقة كما يستدل من مسير ابن زهر والباهلي إلى الشرق لإفادة أهله، وقد فاض سيل المعارف الأندلسية في القرن الثاني عشر بحيث طما على أوربا نفسها).

وفي عصر الطوائف ظهرت طائفة من أفذاذ الكتاب والشعراء الخالدين مثل ابن حزم وابن شهيد وابن دراج وابن برد وابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن عمار وابن حمديس وابن خفاجة وابن بسام من أعلام الكتاب والشعراء، وإلى هذا يشير ليڤي بروڤنسال بقوله: «كان القرن الحادي عشر الميلادي عصر ملوك الطوائف عهداً عرفت فيه إسبانيا أكبر إشراق شعري من غير شك». ولا عجب فقد كان النثر يعبر عن أغراضه بأسلوب مصقول متموج أقرب إلى الأوزان الشعرية منه إلى الانسيابات النثرية، ويقرر الدكتور أحمد ضيف أنهم وصلوا في النثر أحياناً إلى درجة لا تفرق بينها وبين الشعر إلا في الوزن وقواعد العروض، ولعل هذا ما عناه ابن بسام في حديثه عن رسائل ابن زيدون، بأنها كتب هي بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور.

وكثيراً ما كان الشعر يستخدم في الرسائل بدلاً من النثر، وقد ظهرت في هذا العصر تجديدات وابتكارات في الشعر والنثر لا نكاد نجد ما يشبهها في الأدب القديم،

منها نظم الأراجيز التاريخية التي اعتمد عليها (ربيرا) ليقول بوجود أدب قصصي أندلسي سابق على ظهورها، ومنها ازدهار الموشحات التي كان لها فيما بعد صدى بعيد، ومنها الرحلة الخيالية إلى وادي عبقر وهي ملحمة نثرية شعرية أبدعها خيال ابن شهيد وسماها (التوابع والزوابع) وسبق بها رحلة المعري في (رسالة الغفران) كما سبق (دانتي) في رحلته السماوية و(ملتون) في فردوسه المفقود. والإنصاف يقتضينا أن نقرر أن الشعراء والكتاب الأندلسيين لم يتحرروا كل التحرر من الأدب القديم الموروث، شأنهم في هذا شأن إخوانهم المشارقة، فقد استمر الأدب الجاهلي يهيمن بأوضاعه وتقاليده على الأدب العربي في شتى العصور.

وكانت محاولات التجديد دائماً في نطاق محدود فقد ظل الشعر غنائياً والنثر معتمداً على الخطب والرسائل، ولم يعرف الأدب العربي القصص أو الملاحم بمعناها الحديث.

وكانت محاولات التجديد في الشعر مقصورة على محاولة التحرر من قيود الوزن والقافية فظهرت الموشحات، وحاول كثيرون أن يفلتوا من قيود العربية الفصحى وحركات الإعراب فظهرت الأزجال.

ونلاحظ أن الشعر الأندلسي خلا من التأملات الفكرية العميقة، ولعل هذا راجع إلى تزمت الأندلسيين المذهبي، ونفورهم من العلوم الفلسفية، وإن كان شعراء الأندلس قد برزوا في وصف الطبيعة، وأبدعوا فيها آيات رائعة جديرة بالخلود، وإننا لنلمس الطبيعة حية نابضة في شعر ابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس، وكان لطبيعة الأندلس الرائعة أثر بارز في هذا الإلهام، وأروع ما يطالعنا عندهم وبخاصة عند ابن زيدون أنه مزج حبه للطبيعة وحبه للمرأة بحبه للوطن، فأبدع في هذا روائع بهرت النفوس وملأت الأسماع.

ولقد افتتن الأندلسيون بالشعر افتتاناً عظيماً فشغل به الخاصة والعامة على السواء.. فكان الملوك والأمراء وعلية القوم يقرضون الشعر ويتساجلونه ويجزلون عليه الصلات، كما كان العامة يهتزون له وينظمونه على اختلاف مراتبهم وتباين طبقاتهم، حتى الخدم والجواري وعصابات اللصوص والفتاك كانوا يقرضونه في شتى المناسبات، وكان

الأدب كفيلاً برفع صاحبه إلى أسمى الدرجات، وكتب الأدب والتاريخ غاصة بشتى الروايات في هذا المضمار، وحسبنا ما رواه القزويني في حديثه عن مدينة شلب «قل أن ترى بمدينة شلب من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني أدباً، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه» واشتهر بعض الأميين بقرض الشعر مثل ابن جامع الصباغ ويحيى القصاب، وكانت أبيات من الشعر كفيلة بالتجاوز عن كل ذنب ونسيان كل إساءة، حتى أنهم كانوا أمام روعة الشعر وفتنته يغضون أحياناً عن إقامة بعض الحدود.

وكان الأندلسيون على تزمتهم الفكري متحررين في حياتهم الخاصة، وفي بعض فنونهم الأدبية، فكانوا يعاقرون الراح ويعقدون مجالس اللهو والطرب والغناء، وظهر أثر هذا واضحاً في مراسلاتهم الشعرية والنثرية وسنرى منه آثاراً رائعة في هذا الديوان.

****

حياة ابن زيدون

(٣٩٤ - ٤٦٣هـ/ ١٠٠٣ - ١٠٧٠م)

أسرة الشاعر

تمهيد:

ينتمي الشاعر من جهة أبيه إلى بني مخزوم فهو أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، وبنو مخزوم بطن من لؤي بن غالب من بطون قريش، وكانت لقريش مكانتها عند العرب في الجاهلية والإسلام، وكان بنو مخزوم من بطونها الممتازة، ومن هاماتهم خالد بن الوليد المخزومي كانت إليه القبة والأعنة، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فهي قيادة الفرسان في الحروب.

ولا نعرف شيئاً عن أجداد الشاعر ولا عن طريق وفودهم إلى الأندلس، وكل ما نعرفه ما وصفه به ابن حيان المؤرخ الكبير المعاصر له من أنه «ذو الأبوة النبيهة بقرطبة» وأنه كان «من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة أيام الجماعة والفتنة» ونحن نعلم مكانة الفقهاء في الأندلس ونفوذهم الخطير وسلطانهم على العامة والأمراء، وكان لا يتسم بسمة الفقيه إلا عالم خطير، فقد كان الأندلسيون لا يقدمون أحداً للفتوى حتى يطول اختباره، وتعقد له مجالس المذاكرة، ويكون ذا مال حتى لا يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس، وكان الخليفة نفسه لايستطيع أن يخرق هذه القاعده، فلا يقدر أن يمنح إنساناً لقب الفقيه أو المفتي إلا بعد موافقة العلماء الأعلام على جدارته لهذا المنصب وثبوت يساره، وحينئذٍ تباح له الفتوى أو الشهادة، وتكون له علامة تميزه بين الناس هي لبس القلانس والرداء، ولا بد من توافر شروط عديدة فيه إلى جانب علمه وثرائه لا نرى داعياً للإطالة في سردها، وهي مسطورة في كتب الفقهاء، وكان شاعرنا ينتمي إلى هؤلاء الفقهاء من جهتي أمه وأبيه، وسنلقي ضوءاً على كل منهما مع مراعاة الإيجاز.

والده:

كان من فقهاء قرطبة وأعلامها المعدودين، وكان إلى هذا ضليعاً في علوم اللغة بصيراً بفنون الآداب، ويذكر القاضي عياض في تراجمه لأعلام الفقهاء أن والد الشاعر «كان متفنناً في ضروب العلم جم الرواية والمعرفة فصيحاً جميل الأخلاق» ومن هذا يتضح أن ثقافته كانت عميقة متنوعة، وكان على قسط وافر من الثراء، وهذه الصفات جميعها جعلت له شأناً خطيراً في حاضرة الخلافة، فكان الحكام يستشيرونه في الخطير من أمورهم، ويستفتونه في المشكل من شؤونهم، وكانت المشورة والفتوى محصورتين في عدد قليل من أكابر الفقهاء، وكان وثيق الصلة بالأمراء والعظماء وكان أنيقًا في مظهره لبقًا في تصرفاته، ولهذا نجا من المحن المتلاحقة والفتن الثائرة التي أودت بكثير من ذوي المكانة في عصره، وتوفي أثناء تفقده لضيعة له في البيرة، فنقلت جثته إلى قرطبة ودفن بها سنة ٤٠٥هـ وقد جاوز الخمسين فرثاه صديقه أبوبكر بن عبادة بن ماء السماء بأبيات تدل على منزلته العالية ومكانه المرموق.

جده لأمه:

ليس لدينا من الآثار ما يلقي ضوءاً على أم الشاعر، ولكننا نعرف أن جدها محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي كان من العلماء المرموقين وأنه ذو بصرٍ بالحديث ورجاله، يحسن التقييد والضبط في ما يكتب، وكان من أضبط الناس لكتبه وأجمعهم لذخائر الرواية، وله تأليف جمع فيه كلام أبي زكريا يحيى بن معين في ثلاثين جزءاً وكان يتولى النظر في الأوقاف بقرطبة، وظل في منصبه حتى مات سنة ٣٩١هـ.

ونعرف أن أباها أبا بكر محمد بن محمد بن إبراهيم... كان من العلماء المرموقين، ولي القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والسوق بقرطبة، وهو منصب جليل لا يقل عن منصب وزير، وكان من أهل الصرامة، ونستطيع أن نقرر أنه كان ثرياً فإننا نعلم أن الثروة من شروط ولاية القضاء، وكان شديد العناية بالعلوم، وقد نعته شاعرنا في ديوانه بالوزير الفقيه صاحب الأحكام، وقد أشرف على تربية الشاعر بعد أن ثكل أباه طفلاً، وظل يرعاه حتى جاوز الشاعر الأربعين، فقد توفي أبوبكر محمد بن محمد بن إبراهيم سنة ٤٣٢هـ أثناء محنة سبطه.

ومن هذا نرى الأم سليلة أسرة كريمة لا تقل عراقة عن أسرة الأب، وهي تنحدر من قبيلة قيس عيلان، وكان لهذه القبيلة شأن خطير بالأندلس، وكانت تتولى أحياناً زعامة المضريين جميعاً بمن فيهم قريش، مما يدل على ما بلغته هذه القبيلة من عز وشأن في هذه البلاد، ومن هنا نستطيع أن نقرر أن الشاعر نَجَلَةُ والدان كريمان، وأن الجو الذي درج فيه مهد له عوامل العظمة والنبوغ.

مولده:

ولد شاعرنا في أوائل سنة ٣٩٤هـ (أواخر سنة ١٠٠٣م) بالرصافة من أرباض قرطبة، وهي ضاحية متصلة بقرطبة أنشأها عبدالرحمن الداخل وسماها الرصافة تشبيها برصافة جده هشام، واتخذها مقراً له ومتنزهاً في معظم أوقاته، ونقل إليها غرائب وكرائم الشجر من كل ناحية فسار ذكرها في الآفاق واتصلت عمارتها من بعده، وقد اشتهرت بجناتها الفيحاء ومياهها الجارية، وقد لهج بذكرها الشعراء، وشدا بجمالها شاعرنا في مواطن عديدات، وحسبنا أن نشير إلى إحدى مخمساته فيها حيث يقول:

ويومٍ بجَوفيِّ الرُّصافة مُبهجِ
مررنا بروض الأُقحوان المدبَّجِ
وقابَلنا فيه نسيمُ البنفسج
ولاح لنا ورد كخدٍّ مُضَرَّجِ
تراه أمام النَّور وَهْوَ إمامُ

****

نشأته

تمهيد:

انحدر الشاعر كما ذكرنا من أسرة كريمة مرموقة المكان، وقد فقد أباه وهو في الحادية عشرة من عمره، فكفله جده لأمه، وكان عالماً جليلاً تقلب في مناصب الإدارة الرئيسية من شرطة وقضاء، وكان شديد الصرامة في أحكامه، ولهذا نعتقد أنه كان حازماً في تربية سبطه، وأن هذا الحزم جنبه مزالق السقوط التي يتعرض لها الأيتام من ذوي الثراء.

وكان لوالد الشاعر أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة والعلم الغزير، ومثل هؤلاء الرجال الأعلام جديرون أن يرعوا حقوق صديقهم الراحل في ابنه العزيز وأن يوالوه بالرعاية والتثقيف.

ولهذا تهيأت لشاعرنا عوامل النبوغ من ثروة مناسبة، وعقول حانية حازمة، وبيئة جميلة فتانة، وعصر مزدهر بالمدنية والحضارة، حافل بأفذاذ العلماء والأدباء، هذا فضلاً عن الموهبة الفطرية والاستعداد الخصب والوراثة الصالحة والتوجيه السديد.

ثقافته:

ليس أمامنا ثبت بالعلوم التي درسها الشاعر فكونت ثقافته وبوأته مكانه الرفيع، ولكننا نعرف «أن مناهج الدراسة الأولى في التعليم عند الأندلسيين كانت تتناول كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف ورواية الشعر، أما التعليم العالي عندهم فيقوم على تفسير القرآن الكريم ودراسة علوم الدين والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية». ومن الطبيعي أن شاعرنا سلك هذه السبل، والدارس لآثاره الأدبية يرى صدى لشتى المعارف والفنون في هذه الآثار، فيرى كثيراً من التعبيرات

القرآنية وإشعاعاً من الأحاديث النبوية، كما يرى فيها إلماماً بأصول الفقه وعلوم الدين، كما يلمس فيها إدراكاً للطب والعلوم الفلسفية، أما التاريخ فقد كان دارساً له مولعاً به يستشهد دائماً بحوادثه، ويرجع دائماً إلى عبره، وقد ألف كتاباً لم يبق لدينا منه إلا بعض النصوص، وأما علوم اللغة وفنون الآداب فهي ميدانه الرحب ومجاله الفسيح، ولهذا حق له أن يقول:

وَنَجَّذَني علمٌ توالتْ فنونُهُ
كما يَتَوالى في النِّظام سِخابُ[1]

أساتذته:

نعتقد أن ثقافة الشاعر الواسعة العميقة نتيجة لتتلمذه على أساتذة عديدين، ولكن المصادر الباقية بين أيدينا لم تذكر أسماء هؤلاء الأساتذة إلا واحداً سنعرض له بعد قليل، ولكننا نرجح أن أستاذه الأول كان أباه، وهو أمر طبيعي، فإن القرائن ترجح أن الشاعر كان وحيده فمن الطبيعي أن يُعنَى به كل العناية ويهتم به كل الاهتمام وبخاصة إذا علمنا أن هذا الوالد كان أستاذاً لبعض الأدباء، كما نرجح أن جده لأمه كان من أساتذته الأولين.

ومن آثار الشاعر الخالدة رسالة كتبها إلى أستاذه أبي بكر مسلم وقد بحثنا طويلاً عن هذا الأستاذ وانتهى بنا البحث إلى أنه أبوبكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي، يقول ابن بشكوال في ترجمته: «إنه كان رجلاً جيد الدين، حسن العقل، متصاوناً، لين العريكة، واسع الخلق، مع نبله وبراعته وتقدمه في علم العربية واللغة، راوية للشعر وكتب الآداب، كان لتلاميذه كالأب الشفيق، والأخ الشقيق، مجتهداً في تبصيرهم متلطفاً في ذلك سَنِيّاً ورعًا، وافر الحظ من علم الاعتقادات سالكاً فيها طريق أهل السنة، يقصر اللسان عن وصف أحواله ولد سنة ٣٧٦ وتوفي سنة ٤٣٣هـ وكان إمام مسجد السقاء.. وكان متمسكاً فاضلاً».

ويظهر أن صلات الشاعر به ظلت وثيقة حتى قارب الأربعين، ولهذا فزع إليه في محنته عقب فراره من سجنه، ومن عوامل حبه للشاعر أنه كان تلميذاً لأبيه معتزاً بهذه التلمذة معترفاً بها، ولهذا توطدت بينهما الصلات.

(١) نجذني: حنكني، السخاب: العقد.

ومما لاشك فيه أن الشاعر تأثر في دراساته بكثير من أعلام عصره كما تأثر بكثير من الأدباء السابقين، ولعل لوفرة الكتب في عصره ولسعة ثروته أثراً في ثقافته العميقة وعلمه الغزير.

صداقات مبكرة:

اتصل الشاعر بكثير من عظماء عصره وأعلامه، وسنرى هذا ماثلاً في آثاره الشعرية وفنونه النثرية، ومن أبرز الأدباء الذين توطدت علاقة الشاعر بهم في سن مبكرة أبوالوليد بن جهور وأبو بكر بن ذكوان.

أما الأول فكان ولياً للعهد ثم حاكماً وقد تحدثنا عنه وعن أبيه في ما سبق، وكان كما قال ابن بشكوال: «حافظاً للقرآن العظيم مجوداً لحروفه كثير التلاوة له، وكان معتنياً بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم» وكانت فيه رحمة ورقة ولين ظهر أثرها أثناء حكمه فقد كان يدرأ الحدود بالشبهات، ويبالغ في ذلك، حتى لا يكاد يقيمها ارتكاناً على أنه ليس هناك إمام مجمع عليه، وقد ظهرت آثار هذه الرقة في معونته للشاعر إبان محنته، وظلت صداقتهما قوية على الدسائس والفتن حتى ناهز الخمسين، وفي هذه الصداقة يقول ابن خاقان: «وكان له مع أبي الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا، وسقياه من تصافيهما نطافا).

وأما الثاني فقد وُليَ منصب الوزارة واشتهر أمره فصار كما يقول ابن بسام: «أحوذياً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته». ثم وُلي القضاء بقرطبة وهو منصب كبير جليل يفوق منصب الوزارة، فأظهر الحق، ونصر المظلوم، وفجع الظالم، وحمد الناس أحكامه، وكان إلى هذا صلب القناة حميّ الأنف، رفض أن يوافق الحاكم على التصرف في مال الأوقاف لإنفاقه في المصالح، واعتزل القضاء، وتوفي دون الأربعين فحزن الناس لفقده، وشيع ابن جهور جنازته ورثاه جماعة من الشعراء ولشاعرنا فيه قصيدة تنطق بالبث وتفيض بالأشجان.

وكان لهؤلاء الأصدقاء في مستهل شبابهم صبوات ونزوات، يطرحون فيها التزمت والوقار، ويلقون عن كواهلهم أعباء المناصب فينسى ابن زيدون أنه وزير وينسى ابن جهور

أنه ولي للعهد وينسى ابن ذكوان أنه من أعلام القضاة، فقد سمعوا أن القاضي التنوخي كان ينادم الوزير المهلبي مع القاضيين ابن قريعة وابن معروف، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، فإذا طاب لهم المجلس ولذ السماع وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتناول كل منهم كأساً من الذهب مملوءة خمراً فيغمس فيها لحيته بل ينقعها حتى تتشرب أكثر الشراب ثم يرش بعضهم بعضاً ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات.... فإذا أصبح الصباح عادوا إلى عادتهم في التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.

سمع الأصدقاء الثلاثة هذه النادرة فاستجابت لها نفوسهم الشابة الفتية فقضوا أمسيات تفيض بالمرح والبهجة والصفاء، يقول فيها ابن بسام: «وكان القاضي أبوبكر ابن ذكوان أجل من اشتمل عليه أَوَانٌ مجداً وشرفاً، وتفننًا في العلم وتصرفًا، مع دعابة حين خلواته تحل حُبا المحتبي، ورقاعة عند نشواته كالتنوخي والمهلبي، فإذا أصبحوا بكر أبوبكر إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته، وأنكر ما كان عليه من فكاهته فكأنما في برديه الإمام... مع عدله في قضائه.....

حتى إذا راح الرواح عادوا إلى القصف وتجاوزوا في ميدانهم كل وصف، إلى أن اختُلِسَ أبو بكر منهما وتقلص ذيل مؤانسته عنهما فاعتاضا عنه بسواه وأفاضا في ما كانا فيه وما تعدياه».

****

في غمار الأحداث

رجل ثورات:

لا نعرف متى ابتدأ الشاعر يسهم في أحداث عصره، ولكننا نعلم أنه كان في الصفوة المرموقة من شباب قرطبة، ونعرف أن الرأي العام بقرطبة كان يقظاً قوياً يعزل الحكام ويوليهم ويفرض آراءه، ويراقب التنفيذ، أما دور الشاعر في هذه الأحداث فلا نعلم عنه شيئاً بالتفصيل، وإنما نعرف أنه قام بدور رئيسي في إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة، وفي تأسيس حكومة جهورية بزعامة ابن جهور، وإلى هذا يشير ابن خاقان في حديثه عنه بأنه: «زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية» ويقرر ابن دحية أنه «زعيم الوزارة القرطبية ونشأة دولتها السنية» ومن الطبيعي أنه لم يشترك بسيفه في هذه الثورة فإننا لا نعلم عنه أنه رجل حرب وقتال، وإنما هو رجل سياسة وبيان، ولعله استغل جاهه وثراءه وبيانه، وهي أسلحة ماضية في توجيه الرأي العام، ولما وقع الجفاء بين الشاعر وأميره أخذ يذكره بأياديه السابقة في تأسيس دولته في رسالته الجدية حين يقول: «ففيم عبث الجفاء بأذمتي؟ وعاث العقوق في مواتيٍّ؟ وتمكن الضياع من وسائلي؟ ولم ضاقت مذاهبي؟ وأكْدَتْ مطالبي؟ وعلام رضيت من المركب بالتعليق؟ ومن الغنيمة بالإياب؟».

نصيب متواضع:

أكرم الحاكم الجديد الشاعر ورفعه إلى منصب الوزارة واعتمد عليه في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين، ولكن الشاعر لم يقنع بما ناله، ولا ندري مدى أطماعه، ولعله كان يطمع أن يكون هو الحاكم الفعلي، أو يكون موقفه من ابن جهور موقف الحجاب من الخلفاء.

ولكن ابن جهور كان حازماً بعيد النظر، يحكم ولا يتظاهر بالحكم، ويتواضع للعامة ويعلن أنه يباشر الحكم مؤقتاً حتى يجمع الناس على إمام، وإذا درسنا نفسية كل من ابن

جهور وابن زيدون فإننا نجدهما على طرفي نقيض، فالأمير متواضع متعفف والشاعر مغرور طموح، والأمير متزمت وقور والشاعر متحرر متهور، هذا إلى فوارق السن بينهما، وقد لعبت الدسائس بينهما دورها، وكان للشاعر خصوم أقوياء ينفسون عليه مكانته السياسية، كما ينفسون عليه حُظْوتَه عند ولادة الأميرة الحسناء سليلة البيت الأموي الكريم، فبدأت العلاقات تفتر بين الشاعر والأمير حتى انتهت إلى مصيرها المحتوم.

حب عاصف:

لعب الحب دوراً خطيراً في حياة الشاعر وفي تلوين فنه، ولما كان تعلق الشاعر بولادة قد ألهمه أروع ما صاغه من الشعر، فضلاً عن أنه خلق له خصوماً أقوياء شوهوا العلاقات بينه وبين أميره، وأفلحوا في دسائسهم حتى ألقى به الأمير في السجن، فقد رأينا أن نلقي ضوءاً على تدرج هذه العاطفة المشبوبة، وما مرت به من أطوار، ولكننا نحب أن نتقدم بكلمة عن شخصية حبيبته تكشف عن نفسيتها وما تفور به من بواعث ونزوات.

ولادة:

زهرة من زهرات البيت الأموي الكريم فهي ابنة الخليفة محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي بالله، وكان أبوها ساقط الهمة ضعيف الرأي مشهوراً بالتخلف والضعة والانغماس في الشهوات، ثار عليه أهل قرطبة ففر متخفياً بين امرأتين إلى مدينة إفليج فدس له أحد ضباطه السم فمات، وكان قد تزوج من أمة مسيحية حبشية هي بنت سكرى المورورية، ولعلها أم ولادة، وجاءت ولادة على العكس من أبيها «رئيسة الطبع كريمة النفس شريفة الأصل جميلة الشكل، وكانت لا تترك أحداً يتصرف في مجلسها ولا بالدرهم الفرد». ومع أنه للوراثة أثرها المحتوم فليس من الضروري أن يرث الابن صفات أبويه بل قد يرث صفات أجداده الأبعدين، ومما لاشك فيه أن أجداد ولادة كانوا من أفذاذ الرجال، على أن للزواج المختلط أثره في نجابة البنين، وكانت أمها أجنبية وجدتها لأبيها أجنبية، فلا عجب إذا جاءت «نادرة زمانها ظرفاً وحسناً وأدباً» وفي هذا يقول المقري «وكان أبوها جاهلاً ساقطاً وخرجت هي على نهاية الأدب والظرف» ويقول ابن بسام: «إنها كانت واحدة

أقرانها حسن منظر ومخبر» وقد أثنى عبدالله بن مكي – وكان معاصراً لها – على فضلها وسرعة بادرتها ونباهتها وفصاحتها، أما مواهبها فيقول فيها الضبي: «أديبة شاعرة جزلة القول مطبوعة الشعر، تمالط الشعراء، وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء» ويقول ابن بسام: «وأما ذكاء خاطرها وحرارة نوادرها فآية من آيات فاطرها». ويروي ابن نباتة أنها كانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ونظم جيد. ويحدثنا بدر الدين الصديقي أنها أجيزت بالإفتاء والتدريس. أما جمالها ورقتها فحسبنا ما ذكره ابن خاقان: «وكانت من الأدب والظرف وتنعيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب». وكانت لها مع هذا موهبة في الموسيقى والغناء، وكثيراً ما كان العظماء يحضرون مجالسها فينعمون بسمرها ويطربون لأحاديثها ويسكرون بموسيقاها وألحانها.

وكانت قد تحررت من التقاليد بعد سقوط الخلافة الأموية ففتحت أبهاء قصرها للعظماء والأدباء، وبهذا فتحت (صالونًا) أدبياً سبقت به شهيرات فرنسا بعدة قرون، فتهافت على ندوتها الشعراء والوزراء مأخوذين برقتها المغرية وجمالها الخلاب، فتعشقها الكبراء منهم، ولكنها كانت متصاونة فزادتهم انجذاباً إليها، وإلى هذا يشير ابن بسام بقوله: «يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب». وقد أشارت هي إلى ذلك بقولها:

إني – وإن نظر الأنام لبهجتي –
كظباء مَكّةَ صيدهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ من لِين الكلام فواحشًا
ويصدّهنَّ عن الخَنا الإسلامُ

وأنشدها أحد زوارها قول بشار:

لا يُوئِسنّك من مُخَدَّرةٍ
قولٌ تُغلِّظُهُ، وإن جَرحا

عُــــسْـــرُ الـنـســـــاء إلـى مُــــيــــاســــرةٍ

والـصَّـــعب يُركَبُ بـعـــدمـــا جَـــمَـــحَـــا

فقالت إلا من ولادة، ولكنها كانت تبدر منها بوادر تطمع فيها المتهافتين، من ذلك ما كتبته على عاتقي ثوبها:

أنـا والـلـه أَصْـلُـحُ لـلـمــــــعــــــــالـي

وأمـــشي مِــشــــيــــتي وأتـيــــه تِيــــهــــا

وأُمْكِنُ عــــاشــــقـي من صـــحـن خــــدّي

وأعطي قُــــبلـتي من يشـــتــــهــــيــــهـــا

ومن نزواتها أنها كانت تقول شعراً ماجنا خليعاً سنعرض له بعد قليل، ومما يؤخذ عليها تعلقها بمُهجة بنت التيّاني القرطبية، وكانت من أجمل نساء زمانها وأخفهن روحاً، فعلقت بها ولادة، وكانت مهجة مكشوفة الوجه وقاح اللسان، مما حمل كثيرين من المستشرقين على إساءة الظن بهذه العلاقة المريبة.

ويحدثنا (نيكل) أن نزواتها لا تكاد تختلف عن النزعات التحريرية بين النساء الجامعيات ونجوم المسرح والخيالة في العصر الحديث، ويشبهها بـ(جورج صاند) في مغامراتها العاطفية.

على أن بعض معاصريها ضاق بتحررها فقال ابن مكي إنها: «لم يكن لها تصاون يطابق شرفها». وقال ابن بسام بعد أن أثنى عليها: «على أنها – سمح الله لها وتغمد زللها – اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها....».

أما صفاتها الجسمية فديوان الشاعر حافل بوصف جمالها الرائع وسحرها الخلاب. كانت بيضاء الوجه صفراء الشعر، وبهذا يصفها فيقول:

أو صــــاغــــه وَرِقًــــا مــــحــــضًــــا وتــوَّجَـــهُ

من ناصعِ الـتِّـــبـــرِ إبداعًــــا وتحـــســــينا

وكانت ممشوقة القوام طويلة العنق بارزة الصدر دقيقة الخصر رابية الردف مع عينين حوراوين وأهداب وطف:

وفي السِّيَراءِ الرّقْمِ وَسْط قبابهمْ
بعيدُ مَناط القِرط أحورُ أوطفُ
تباين خلقاه فعبلٌ منعَّمٌ
تأوّدَ في أعلاه لدْنٌ مُهَفْهَفُ
فلِلْعانِكِ المرتجِّ ما حاز مئزرٌ
وللغُصُنِ المهتزّ ما ضمّ مِطْرفُ

وهي إلى هذا رقيقة البشرة لينة الملمس:

إذا تأوّدَ آدتْهُ رفاهيةً
تومُ العقود، وأدمته البُرى لينَا

✲✲✲✲

يا ألينَ النّاسِ أعطافًا، وأفْتَنَهُمْ
لحظًا، وأعطر أنفاسًا وأردانَا

وكان لها خال أسود بخدها:

مفضّضُ الثّغر له نقطةٌ
من عنبرٍ في خدّه المُذهب

وكانت تجمع إلى جمال الخلقة جمال التزين وعذوبة الحديث:

له خُلُقٌ عذبٌ وخَلْقٌ محسَّنٌ
وظرفٌ كعرف الطيب أو نشوة الخمرِ
يُعلِّلُ نفسي من حديثٍ تَلَذُّهُ
كمثل المُنَى والوصلِ في عُقُبِ الهجرِ

ومما يروى من خفة روحها أنها مرت يوماً على دار ابن عبدوس فرأته جالساً وأمامه بركة متولدة من كثرة الأمطار، فلما رأى ولادة «نشر كُميه ونظر في عطفيه وحشد أعوانه إليه: فقالت له: أبا عمر:

أنت الخَصيبُ وهذه مصرُ
فتدفّقا، فكلاكما بحْرُ

فتركته لا يحير حرفًا، ولا يردُّ طرفًا».

شعرها:

نرى من المناسب هنا أن نسرد ما وصل إلينا من شعرها ومعظمه يدور حول ابن زيدون:

١ - كتبت إلى ابن زيدون:

تَرقَّبْ إذا جنّ الظلام زيارتي
فإني رأيتُ الليلَ أكتمَ للسّرِ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ
وبالبدر لم يطلُعْ وبالنجمِ لم يَسْرِ

٢ - وكتبت إليه:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرّقِ
سبيلٌ فيشكو كلٌّ صَبٍّ بما لقي؟
وقد كنتُ أوقاتَ التّزاور في الشِّتا
أبيتُ على جَمرٍ منَ الشّوقِ مُحرِقِ
فكيف وقد أمسيت في دار قطعة؟
لقد عَجَّلَ المقدارُ ما كنتُ أتقي
تَمُرُّ الليالي لا أرى البَينَ ينقضي
ولا الصبرَ من رِقِّ التشوّقِ مُعْتِقي
سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلاً
بكل سكوبٍ هاطلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ

٣ - سأل ابن زيدون جاريتها (عتبة) إعادة الغناء في مجلسها بغير إذنها، ولحظت منه بعض الميل إلى هذه القينة فكتبت إليه:

لَوْ كنتَ تُنصفُ في الهوى ما بيننا
لم تَهْوَ جاريتي ولم تَتَخَيَّرِ
وتركتَ غُصنًا مثمرًا بجَماله
وجَنَحْتَ للغصنِ الذي لم يثمرِ

ولقـــــد علـمتَ بـأنني بدرُ الـسَّـــمــــا

لكن دُهيتُ لشِــقْـــوَتي بـالـمُــشــتـــري

٤ – وقالت تهجوه:

إن (ابـن زيـدونَ) لـه فـــــقـــــحـــــةٌ

تـعـــــــشـقُ.... الـســـــــراويـلِ

لــو أبـصـــــــرتْ.. عــلـى نـخــلـةٍ

صـــــارت مـن الـطَّيْــــــرِ الأبابـيـلِ

٥ – ولها في هجائه وهجاء غلامه علي:

إن (ابـنَ زيـدون) – عـلـى جـــــهـلـه –

يـغـــــتــــابني ظـلـمًـــــا، ولا ذنبَ لـي

يلـحظني شـــــزرًا إذا جــــئــــتُــــهُ

كــــأنمـا جــــئتُ لأخــــصـي (علـي)

٦ – وكانت تُلقِبهُ بالمسدس حيث تقول:

وَلُـقِّــــــبْـتَ المســـــدَّس، وَهْـوَ نَـعْـتٌ

تفـــــارقـك الحـــيـــــاة، ولا يُفـــــارقْ

فـلــوطــيٌّ ومــــــــــأبــونٌ وزانٍ

وديُّـوثٌ وقـــــــرنـانٌ وســـــــــارقْ

٧ – ولها تهجو الأصبحي:

يـا أصــــبـــحيُّ اهنأ فكم نـعـــمـــةٍ

جــــاءتك مـن ذي الـعـــرش ربِّ الـمِـنَنْ

قــــد نلـت بـ .... ابنك مـــا لـم ينلْ

بـ .... (بـوران) أبـوهـا (الحــــــسـن)

ونلاحظ أن ما بقي من شعرها يقل عن مدى شهرتها، وأن فيه إسفافاً قد يقبله عصرها، ولكننا نضيق به في العصر الحديث، على أن في بعضه عاطفة قوية صادقة وإن خلا من التجديد.

منافسة عنيفة:

ولقد تنافس في التودد إليها الشعراء والأدباء وكان من أبرز المتوددين إليها أبو عبدالله بن القلاّس وأبو عامر بن عبدوس وشاعرنا ابن زيدون، وقد زجر ابن زيدون منافسه الأول بقصيدة لاذعة يقول فيها:

أعد نظرًا فإن البغيَ مما لم يزل يصرَعْ
ولا تُطع التي تغويك فهي لغَيِّهم أطوعْ
ولا تكُ منك تلك الدار بالمرأى ولا المسمعْ
فإن قصارك الدهليزُ حيث سواك في المضجعْ

فما كاد يتلوها حتى ازدجر وانسحب من الميدان، أما ابن عبدوس فقد ظل يزاحم ابن زيدون في حبها منافسة عنيفة فزجره بقصيدة أخرى قاسية يقول فيها:

أثرتَ هِزبرَ الشَّرى إذ ربضْ ... ونبَّهتَهُ إذ هدا فاغتمضْ
حَذارِ حذارِ فإنَّ الكريمَ ... إذا سيم خسفًا أبى فامتعضْ
فإنَّ سكونَ الشُّجاع الهو ... سِ، ليس بمانعه أن يَعضّ
أعيذك من أن ترى مِنْزَعي ... إذا وتري بالمنايا انقبضْ

فلم يزدجر ابن عبدوس وغالى في التودد إليها، وأرسل إليها امرأة تستميلها إليه، وعلم ابن زيدون بهذه الوفادة فكتب إليه رسالته الخالدة على لسان ولادة وهي الرسالة

المعروفة بالهزلية، مزقه فيها كل ممزق، وجعله مضغة في الأفواه وسخرية للأنظار، وقد أحدثت هذه الرسالة أثرها، فكف ابن عبدوس عن ملاحقة ولادة حتى حين، وانصرف بجهده كله إلى تأليب الأمير على ابن زيدون وأفلح في إثارة الأمير عليه فقذف به في السجن، وهنا عاد ابن عبدوس إلى ولادة فاسترد مودتها وظلت صلاتهما قائمة حتى جاوزا الثمانين، وكانت ثروتها قد تبددت فكان يواسيها بماله وتوفي سنة ٤٧٢هـ وتوفيت هي سنة ٤٨٤هـ وقد قاربت المائة.

مد وجزر:

عرف شاعرنا ولادة بعد أن بلغ أشده وتبوأ منصب الوزارة ونضجت مواهبه، وكان يغشى ندوتها مع من يغشاها من العظماء مدلاً بمكانة أسرته ووفرة ثروته وعلو منزلته وذيوع شهرته في فنون الشعر والنثر والشؤون السياسية، وكان الشاعر عزباً كما نفهم من رسالته الهزلية، وصادفت ولادة فيه فتى وسيم المحيا حلو الحديث قوي العارضة رقيق الشعر نابه المكان، وصادف هو منها رقة وانعطافاً وأنوثة صارخة وجمالاً فتاناً فانبعث فيهما ميل قوي تدرج إلى حب عنيف.

أمـــا الضَّنَى فَجَنَتْهُ لحظةٌ عَنَنٌ
كأنَّهـا والرَّدى جـاءا على قَـدَرِ
فـهـمتُ مـعنى الـهـوى من وحي طرفك لي
إن الحـوار لَـمَـفْـهـومٌ من الحَـوَرِ

ولقد قوّى هذه العاطفة اتفاق ميولهما ومشاربهما الفنية وصفاتهما الجسمية فكلاهما كان شاعراً مفتوناً بالموسيقى والغناء، ميالاً إلى معاقرة الشراب، وكلاهما كان وسيماً ظريفاً حاضر البديهة عذب الحديث، وكلاهما من صفوة الطبقة الراقية وسنهما متقاربة، وكلاهما عزب، فلا عجب إذا جذب الهوى شبيهاً إلى شبيه، فاندفعا مع الحب في تستر وتصون عبر عنهما الشاعر بقوله:

أصـونُـكِ مـن لحـظـات الـظُّـنـونِ
وأُعـلـيـكِ عـن خَـطَـراتِ الـفِـكَـرْ
وأحـذرُ مـن لحـظـات الـرقـيـبِ
وقـد يُسـتـدامُ الـهـوى بـالحَـذَرْ

وقد وصف لنا الشاعر أول لقاء تم بينهما، وسنذكره في آثاره، ويكفينا الآن أنها كتبت إليه ليترقب زيارتها في المساء، وأنهما قضيا ليلة حافلة في حديقة غناء تساقيا فيها كؤوس الراح، وأنه بات معها «يجني أقحوان الثغور ويقطف رمان الصدور».

ولكن هذه العاطفة المشبوبة الثائرة، لم تلبث أن اشتهرت وطار ذكرها على كل لسان، فلم يجد الشاعر بعد هذا حاجة إلى التستر فقال:

يا من غدوتُ به في الناس مُشْتَهِرًا
قلبي عليكَ يقاسي الهمَّ والفِكَرا
إن غِبْتَ لم ألقَ إنسانًا يؤانسني
وإن حَضَرْتَ فكلُّ الناس قد حضرا

فضاقت ولادة بهذا الإعلان، ووجد الخصوم الفرصة سانحة فأوغروا صدرها عليه فاعتذر إليها:

والله ما ساءني أني خفيتُ ضَنًى
بل ساءني أن سرِّي بالضَّنى علَنُ
لو كان أمريَ في كتم الهوى بيدي
ما كان يعلم ما في قلبيَ البَدنُ

ولكن خصومه لم يكفوا عن إذكاء حفيظتها عليه، واندفع هو في مخاصمتهم فمس حبيبته مساً عنيفاً في قصيدتيه لابن القلاس وابن عبدوس، ثم ازداد في اندفاعه فصورها بصورة البغي الهلوك في رسالته الهزلية، وهنا ضاقت به ولادة وانكشف عن عينيها الغطاء، فرأت غروره وصلفه، وتذكرت إعجابه بجاريتها عتبة، ومر بخاطرها نقده لشعرها[1] فصدت عنه، وفي فورة من فورات غضبه الجنونية اعتدى عليها بالضرب، وإن كان قد ندم على فعلته وحاول عنها الاعتذار:

---

(١) نقد الشاعر بيتها:

سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلاً
بكل سكوب هاطل الودق مغدق

فقال إن هذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأما المستحسن فقول الآخر:

فسقى ديارك - غير مفسدها -
صوب الربيع وديمةٌ تهمي

إن تكنْ نالتكِ بالضَّرب يدي

وأصابتكِ بما لم أُرِدِ

فلقد كنت لَعمري فاديًا

لكِ بالمال وبعض الولدِ

فثقي مني بعهدٍ ثابتٍ

وضميرٍ خالصِ المُعتقَدِ

ولئن ساءك يومٌ فاعلمي

أن سيتلوه سرورٌ بغدِ

والواقع أنهما – على تقاربهما في الميول والأهواء – كانا على أهبة للجفاء، فكلاهما كان طاغي الشخصية عارم الغضب مندفعاً، وهذه الصفات تجعل صاحبيها متوازيين لا متكاملين، ولما زادت في دلالها عليه ثارت ثورته فكتب إليها:

قد علقنا سواكِ عِلقًا نفيسا

وصرفنا إليه عنكِ النُّفوسا

ولبسنا الجديد من خِلَعِ الحُبْـ

ـبِ، ولم نَألُ أن خلعنا اللبيسا

ليس منكِ الهوى ولا أنتِ منه

اهبطي مصر أنتِ من قوم موسى[(١)]

وهنا نجح خصوم الشاعر في حمل الأمير على سجنه، فهدأت نفسه في السجن وأخذ يناجيها منه بأبيات عاطفية رقيقة، ثم فر من سجنه إلى إشبيلية ومنها كتب إليها النونية الخالدة التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

(١) كناية عن انها مبتذلة مباحة، ويشير بهذا إلى قول ابي نواس:

أظنك من بقية قوم موسى

فهم لا يصبرون على طعام

ولما عفا عنه الأمير وعاد إلى قرطبة بالغ في التودد إليها، ويظهر أنها عادت معه إلى مودتهما السابقة، ولكن إلى حين، فقد انصرفت عنه بقية الحياة، وإن كان حبه لها ظل يعتلج في حنايا صدره، ويتردد في ألحان شعره زهاء ثلاثين عاماً حتى طوته المنون.

دراسة تحليلية:

لا يزال الغموض يعتور موقف ولادة من ابن زيدون وموقفها من غيره من المحبين فإنها على جمالها ورقتها ظلت عانساً طول الحياة، مع كثرة الراغبين فيها المتهافتين عليها، وإنها لتقبل على ابن زيدون، ثم تصد عنه، ثم تعود إليه لتنصرف عنه انصرافاً تاماً، وتقبل على ابن عبدوس، ثم تعبث به وتسخر منه، ثم تعود إليه عودة أشبه بالصداقة منها بالمحبة وقد حار فيها معاصروها، فوصفوها بالتصون والعفاف ثم نعتوها «بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها» كما حار فيها المستشرقون فرموها بالجنسية المثلية Homosexuality وهي ميل المرأة إلى المرأة والرجل إلى الرجل، واتهموها بمهجة بنت التياني القرطبية وشبهوها في هذا بالشاعرة الإغريقية سافو، ولكن هذا الاتهام يدفعه أن مهجة هجت ولادة فاتهمتها بالجنسية المغايرة Heterosexuality حيث قالت:

ولادة قد صرتِ ولاّدةً ... من غير بَعْلٍ فُضِحِ الكاتمُ
حكت لنا مريمَ، لكنما ... نخلة هذي... قائمُ

وصلاتها بابن زيدون تقطع بأنوثتها الطبيعية، وحسبنا قراءة وصفه لأول لقاءٍ تم بينهما وما حدث فيه.

ولكننا نستطيع أن نجد تعليلاً مقنعاً لجميع تصرفاتها. هذا التعليل هو أنها مصابة بالسادية Sadism وهي حب إيقاع التعذيب على الجنس الآخر، وتنغرس بذور هذا المرض في المرأة منذ الطفولة حين تشعر بأنها تنقص عن الطفل بعض الأعضاء فتشعر بحسد وغيرة يسمى حسد الذكورة Penis Envy ويظل هذا الحسد ينمو، حتى يؤول إلى مرض خطير بعد البلوغ، ويرجح بعض الباحثين أن يكون هذا المرض أثراً وراثياً لفساد النطفة الناتج عن التسمم بالخمر، ونحن نعلم أن أباها كان من المدمنين.. ومن مظاهر السادية أن

تنصب المرأة شراكها للرجل حتى يقع فريسة هواها فتذيقه أنواع الصدود، وتجلب عليه صنوف الشقاء وضروب الحرمان، وقد اعترفت إحدى السيدات للعالم النفسي (اشتكل) (Stekl) فقالت: «إن اللذة الجنسية ضعيفة إذا قيست باللذة التي أستشعرها من العمل السادي، فهي لذة لا يحدها الوصف ولا تصورها الألفاظ، فإنني أشعر بشخصي يسمو ويعلو ويملأني الزهو والكبرياء والجلال، وتبلغ بي النشوة أوجها كلما شعرت أنني بسطت سيطرتي على هؤلاء الرجال دون أن أشبع لهم رغبة أو أطفئ لهم شهوة، فهم عبيدي يظلون يجرون خلفي طمعاً في أن يتذوقوا حلاوة وصالي بعد أن ذاقوا مرارة قسوتي وكبريائي، فهم أتباع لي دائماً يحدوهم الأمل في نعيمي فلا يدخلون إلا جحيمي» وفي هذا يقول شاعرنا:

علّلتِني بالمُنى حتى إذا علِقتْ
بالنفس لم أُعطَ من أسبابها طَرفا
غُيِّرْتَ عن خُلُقٍ قد لان لي زمنًا
لينَ النَّسيم، فلما لَذَّ لي عَصَفا

وأشعاره حافلة بمثل هذا العتاب.

ومن مظاهر السادية حب التلويث، وقد لوثت ولادة سمعة كل من اتصل بها فقد عبثت بابن عبدوس (وكانت كثيرة العبث به) ولوثت سمعة ابن زيدون وقد مر بنا هجاؤها الفاحش له، ثم لوثت سمعة الأصبحي وابنةُ ومزقت عرضهما كل تمزيق، وإلى هذا يشير العمري بقوله: «وكانت ولادة ذات بوادر يشيب لها رأس الوليد....» ويقرر نيكل (Nykl) أن سلوكها كان متسماً بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادي الطبيعي الذي يذكرنا بجورج صاند، وأنها ورثت عن أبيها بعض ملامح الخشونة، والمريضة بهذا المرض لا تدوم صلاتها إلا برجل ذي انحراف مقابل لانحرافها تسيطر عليه نزعة قبول التعذيب Masochism وهي النزعة المقابلة للسادية، ولعل ولادة صادفت هذا الشخص في ابن عبدوس حيث كانت تكثر من العبث فيرضى بعبثها، ثم تنصرف عنه إلى ابن زيدون فيظل يترامى على قدميها راضياً مغتبطاً، ثم تسخر منه فيرضى عن هذه السخرية، ولهذا دامت علاقتهما حتى جاوزا الثمانين.

****

عواصف وأنواء

قاض واتهام:

حشد خصوم الشاعر قواهم، وأحكموا أمرهم، فأدخلوا في روع الأمير أن الشاعر يتآمر على حكمه وأنه ضالع في الدعوة لهشام الخليفة المزعوم بإشبيلية، وكان الأمير قد نقض بيعته بعد إبرامها، ثم أوهموه بأن الشاعر أطلق لسانه في هجائه، وزعموا أن غشيانه مجالس ولادة غشيانٌ مريب قد يُخفي خلفه مؤامرات سياسية مع أقاربها الأمويين المخلوعين فاستجاب الأمير لهذه الدسائس، ولكنه لم يرد تقديمه للمحاكمة بهذه التهم، فإن من العسير إثباتها عليه بل استطاع الشاعر في قصائده ورسائله أن يوهن ما قامت عليه من أساس. فأوحى الأمير إلى حاشيته فدبرت له تهمة اغتصاب عقار، ولما كانت التهمة ملفقة فقد عين الأمير قاضياً خاصاً أعده للحكم في هذه القضية هو عبدالله بن أحمد بن المكوى ويحدثنا عنه ابن بشكوال: «أنه لم يكن من القضاء في ورد ولا صدر لقلة علمه ومعرفته، وإنما كانت أثرة أثر بها». ومن الطبيعي أن تكون هذه الأثرة لهدف خاص يحرص عليه الأمير، ولم يطلق عليه لقب القاضي لأنه غير جدير به، ولهذا نعته ابن حيان بأنه أحد حكام قرطبة وقال فيه ابن سعيد: «ولم يكن في نصاب القضاء، وهو ممن آثر الخمول للدعة، والفلاحة على الدراسة... ولم يطلق عليه اسم القضاء» أما صفاته بعد ولاية القضاء فقد «اكتسب صرامة وإعجاباً حتى استخف بكثير من وجوه الناس، فجرت له بذلك خطوب.... من رجل قليل العلم نكد الخلق.. وقد ألح الناس في صرفه حتى صرفه أبوالوليد بن جهور سنة ٤٣٥هـ».

محاكمة عاصفة:

ما كاد القاضي يسمع التهمة وشاهد الإثبات حتى أمر بإلقاء الشاعر في السجن مخالفاً الإجراءات القانونية المتبعة في هذا الزمان طبقاً لمذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وقد نبهه الشاعر دون جدوى إلى هذه المخالفات وأهمها:

١ - اكتفى القاضي بشهادة شاهد واحد وهو مع هذا غير عدل، جرحه ابن زيدون.

٢ - لم يعط ابن زيدون فرصة للدفاع عن نفسه، وإظهار براءته، مع أن هذا حق معترف به في جميع الشرائع والقوانين.

٣ - أحس الشاعر بالجو المحيط به، فعرض الصلح على الخصوم، وهو جائز بين المسلمين طبقاً للحديث الشريف، ويندب للقاضي أن يسعى فيه، ولكن القاضي تهرب من هذا الموقف الحرج.

٤ - على أن التهمة - مع فرض ثبوتها - لا تجيز الحبس، فقد قرر الفقهاء أنه لا يجوز الحبس في الحق إذا تمكن الحاكم من استيفائه، والشاعر من الأثرياء.

٥ - لم يترك الفقهاء أمر الحبس فوضى، بل حددوا له أمداً لا يتجاوز عاماً واحداً في أقسى العقوبات، ولكن حبس الشاعر لم يكن له أمد محدود، وقد طال حتى فر الشاعر من سجنه بعد أن قضى به خمسمائة يوم.

٦ - قدم الشاعر دليلاً كتابياً بوثيقة تبرئه من التهمة فلم يلتفت إليها قاضيه.

٧ - طرح الشاعر في سجنه بين الأوغاد واللصوص بعد أن كان منفرداً بحجرة فيه طبقاً لنظام السجون الذي كان يميز بين طبقات المسجونين، وقد شكا الشاعر هذا دون فائدة أو غناء.

زمن السجن:

تضاربت أقوال الباحثين في زمن سجن الشاعر حتى ادعى بعضهم أنه سجن مرتين: مرة قبل الثلاثين في عهد أبي الحزم بن جهور، ومرة وقد جاوز الأربعين في عهد أبي الوليد بن جهور، وكلا الرأيين بعيد عن الصواب، والذي أوقع في الوهم الأول ما ذكره الشاعر في قصيدته التي استعطف فيها أبا الحزم ابن جهور حيث يقول:

لم تَطْوِ بُردَ شبابي كبرةٌ، وأرى
بَرقَ المشيب اعترى في عارضِ الشَّعَرِ

قبل الثلاثين إذ عهد الصِّبا كثَبٌ
وللشبيبة غُصنٌ غيرُ مُنْهَصِرِ

مع أن المعنى لا يزيد على أن المشيب أدرك الشاعر دون الثلاثين، وليس هناك ما يمنع من أن الشاعر يتحدث بهذا وهو في الأربعين، فكأنه يؤرخ بدء مشيبه، على أن الشاعر ذكر بعد فراره من السجن أن الشيب لم يلم بمفرقه، وإن ألمّ بفؤاده:

هرمتُ ومـــا للشَّــيب وخطٌ بمفـــرقي

وكـــائنْ لشـــيب الهم في كـــبـــدي وَخْطُ

مما يدل على أن الشاعر لا يقصد ما يقول، وإنما هي معان شعرية تناسب المقام على أن هناك استحالة مادية في دخول الشاعر السجن دون الثلاثين، فإنه بلغ هذه السن بعد ولاية ابن جهور الحكم بثمانين يوماً، وقصيدته في السجن تقطع بأنه قضى فيه مدة طويلة:

إن طال في الســـجن إيداعي فـــلا عـــجبٌ

قـــد يُودَع الجَـــفنَ حـــدُّ الصـّــارم الذَّكَـــرِ

وقد عرفنا أن الشاعر ولي منصب الوزارة للأمير، وقام بالسفارة بينه وبين الملوك المجاورين، وعلا شأنه في الدولة، وكان كما يقول ابن دحية: «زعيم الوزارة القرطبية، ونشأة دولتها السنية، حتى صار ملهج لسانها، وحلَّ من عينها مكان إنسانها.. وكان بينه وبين رئيسها أبي الحزم بن جهور ائتلاف الفرقدين واتصال الأذن بالعين...». فليس من المعقول أن يتم هذا كله في فترة ثمانين يوماً. أما الرأي الثاني الذي ينادي بأنه دخل السجن بعد الأربعين في زمن أبي الوليد بن جهور فيوهم به ما ذكره ابن خاقان من أنه: «كان له مع أبي الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا.. إلى أن وقع له طلب أصاره إلى الاعتقال... فاستشفع بأبي الوليد وتوسل... فما ثنى إليه عنان عطفه... حتى تسلل من حبسه ففر فرار الخائف وسرى إلى إشبيلية سرى الخيال فوافاها غلسًا فهشت له الدولة..... وحصل عند المعتضد كالسويداء من الفؤاد.... وألقى بيده مقاليد ملكه وزمامه... وما زال يلتحف بخطوته ويقف بربوته حتى أدركه حمامه». وتبعه في هذه الرواية ابن نباتة، والواقع أنهما ينقلان عن ابن حيان، ويظهر أن السجع والعجلة أسقطتا عبارة لابن حيان هي: «..... أداه إلى السجن فألقى نفسه على أبي الوليد بن جهور في حياة والده». فعبارة (في حياة والده) تزيل كل لبس أو غموض، وجميع الرسائل والقصائد التي كتبها الشاعر من سجنه موجهة إلى أبي الحزم بن جهور لا إلى ابنه أبي الوليد.

والواقع أن الشاعر لم يسجن إلا مرة واحدة في عهد أبي الحزم بن جهور بعد نقض بيعة هشام بقرطبة سنة ٤٣١هـ وبعد أن تولى ابن المكوى القضاء – وهو الذي نيط به أمر محاكمته – لسبع خلون من محرم سنة ٤٣٢هـ، ونحن نعلم أن الشاعر فر من سجنه وكتب رسالته إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد الذي توفي لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣هـ، ومن هنا نستطيع أن نجزم بأن الشاعر سجن في الفترة بين محرم سنة ٤٣٢ وشعبان سنة ٤٣٣ وهي مدة تزيد قليلاً عن خمسمائة اليوم التي حدثنا عنها الشاعر في شعره ونثره، وقد فر الشاعر من سجنه فطوى المسافة بين قرطبة وإشبيلية في ليلة واحدة كما ذكر ابن دحية وابن خاقان، مع أن المسافة بينهما ثلاثة أيام، ويؤيد هذه الحقيقة أن ابن زيدون اتصل بالمعتضد وهنأه بزواجه من السيدة بنت مجاهد العامري بقصيدة مطلعها:

اخطبْ فملكك يفقدُ الإملاكا

واطلبْ فسعدك يضمنُ الإدراكا

ونحن نعلم أن هذا الزواج تم بعد أن تولى المعتضد الحكم سنة ٤٣٣هـ وقبل وفاة مجاهد العامري سنة ٤٣٦هـ – وهذه الفترة تناسب الزمن الذي حددناه لفرار الشاعر إلى إشبيلية – وقد يسبق إلى الذهن أن الشاعر أرسل قصيدته من قرطبة إلى المعتضد بإشبيلية، ولكن يدفع هذا الوهم ما قاله الشاعر في قصيدته:

أسبوعُ أنسٍ مُحْدِثٌ لِيَ وحشةً

عِلمًا بأني فيه لستُ أراكا

فأنا المُعذَّبُ غيرَ أني مُشْعَرٌ

ثِقَةً بأنك ناعمٌ فهَناكا

ويحدثنا ابن بسام أن الشاعر كتب على لسان المعتضد قصيدة إلى صهره الموفق مجاهد، أما هجرة الشاعر الثانية إلى إشبيلية فقد تمت سنة ٤٤١هـ في عهد أبي الوليد بن جهور بعد أن فاوض الشاعر المعتضد ووثق بما سوف يكله إليه من مهام رئيسية، وقد هاجر الشاعر من قرطبة، فكثر الأسف عليه كما يقول ابن حيان ولم يتجه إلى إشبيلية مباشرة بل عرج على بطليوس فقضى فيها بضعة أشهر اتصل فيها بأميرها المظفر بن الأفطس ومدحه وأثنى عليه أطيب الثناء.

****

عهد جديد

عفو مشكور:

فر الشاعر من سجنه بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته في استعطاف أميره، ومن المرجح أن ولي العهد أبا الوليد بن جهور صديق الشاعر أعانه على الفرار، وقد وجد الشاعر بإشبيلية صدراً رحباً حيث أدناه الحاكم منه وقربه إليه وغمره بإنعامه، ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة موطن صباه ومَعقّ تمائمه ومسرح هواه فكتب إلى حبيبته النونية الخالدة التي استهلها بقوله:

أضـــــحى الـتـنـائـي بـديـلاً مِـنْ تَدانـيـنـا
ونابَ عن طيبِ لُقْــيـــانا تَجـــافـــينا

وختمها بقوله:

أوْلِـي وفــــــاءً، وإن لـم تـبـــــــذلـي صـلـةً
فـــــالطيفُ يقنعنا، والذكـــرُ يكفـــينا
وفي الجَـــوابِ مَـــتـــاعٌ إنْ شَـــفَـــعْتِ بهِ
بـيـضَ الأيـادي الـتـي مـــــا زلـتِ تـولـيـنـا
عـلـيكِ مـنـا ســـــلام الـلـه مـــــا بقـــــيتْ
صَـــبـــابةٌ بكِ نُخـــفـــيـــهـــا فـــتُـــخـــفـــينا

ثم جذبه هواه إلى قرطبة فكر إليها مستخفياً بضاحيتها الزهراء ثم أخذ يراسل أصدقاءه مستشفعاً بهم لدى الأمير فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد، وهذه الرسالة تعتبر وثيقة تاريخية تلقي أضواء على محاكمته ومعاملته بالسجن، ثم أتبعها بقصيدته الطائية البارعة، ولم يكتف الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند ولي العهد، ومن الزهراء كتب إلى حبيبته أبياته العاطفية الممتعة التي استهلها بقوله:

إنّي ذكـــرتُكِ بـالـزهـراء مـــشـــتـــاقَـــا

والأفقُ طـلـقٌ ووجـــهُ الـرّوضِ قـــد راقـــا

وأخيراً نجح الشاعر في مسعاه فعفا عنه الأمير، ولم تمض أشهر حتى مات الأمير وتولى الحكم ابنه أبوالوليد بن جهور صديق الشاعر الحميم فبدأت صفحة جديدة من حياة ابن زيدون.

الحاكم الجديد:

قرب الحاكم الجديد شاعره وصديقه إليه «ورفع مكانته، ونوّه به، وأسنى خطته واعتمد عليه في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين». ونرجح أن الشاعر أفلح في استرداد مودة حبيبته في هذه الفترة فصفت نفسه وتفتحت مواهبه، وأقبل على عمله بنفس متفتحة ومواهب مشبوبة وقد أكسبته التجارب التي مرت به خبرة ودربة ودهاء نفعته في سفارته لدى ملوك الطوائف، وأعانه على النجاح ما تحلى به من «الوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلاطة وقوة العارضة والافتنان في المعرفة»، وإلى هذا يشير ابن حيان بقوله: «ولما ولي أبوالوليد الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته وأوسع راتبه وجلله كرامة».

سحابة عارضة:

لَمْ يكفَّ خصوم الشاعر ومنافسوه في حبه وفي مناصبه عن الدس والكيد له عند حاكمه الجديد، وكثيراً ما ضاق بهم الشاعر فهتف بأميره:

فَـــدَيْتُكَ كم ألقى الفـــواغـــرَ من عـــدا

قِـــراهـم لنيـــران الفـــســـاد ثِقـــابُ

عـــفـــا عنهمُ قـــدري الرفـــيعُ فـــأهجـــروا

وبـاينـهـم خُلقِي الجـــمـــيلُ فـــعـــابـوا

ســـأبكي على حظي لديك كـــمـــا بكى

(ربـيـــــعـــــةُ) لمـا ضـلّ عـنـه (ذُؤابُ)

ولكن خصوم الشاعر الأقوياء ظلوا يلاحقونه بالوشايات والسعايات، وأتاح هو لهم الفرصة حيث تلبث الشاعر في بلاط إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أثناء سفارته لديه بمالقة فأطال مكثه عنده، واقترب منه وخف على نفسه، وأحضره مجالس أنسه كما يقول ابن حيان، وكانت في إدريس صفات تقرب الشاعر منه وتقربه إلى الشاعر، فكلاهما كان شاعراً مولعاً بالطرب والشراب والغناء مع ميل إلى الاستهتار، ويظهر أن ابن جهور استبطأ سفيره فألح عليه في العودة فلم يلب النداء، فاهتبل خصوم الشاعر هذه الفرصة وحملوا الأمير على عزله من منصبه، وهو تصرف طبيعي من الأمير.

وهنا عاد الشاعر إلى أميره مستغفراً ضارعاً فأعرض عنه فتوسل إليه:

بنيتَ فلا تهدِمْ ورِشْتَ فلا تبري
وأمرضت حسادي وحاشاك أن تُبري
هَبِ العزلَ أضحى للولاية غايةً
فما غاية الموفى من الظل أن يكري؟
ففيم أرى ردَّ السلام إشارةً
تسوِّغُ بي إزراءَ من شاء أن يُزْري؟
فإن عاقتِ الأقدارُ فالنفس حرةٌ
وإن تكن العُتبَى فأحرِ بها أحري

ولكن الأمير ظل معرضاً، فقام الشاعر بسياحات عديدة لدى الملوك المجاورين فزار بلنسية وطرطوش وبطليوس، وبدأ يراسل المعتضد بإشبيلية يعرض عليه خدماته، وأخيراً رضي الأمير عن شاعره فأعاده إلى مناصبه حتى حين.

الهجرة الأخيرة:

ولكن خصوم الشاعر لم يكفوا عن الإساءة إليه وملاحقته بالفتن والوشايات وأخيراً قامت في قرطبة ثورة ضد الأمير تولى كبرها بنو ذكوان، فلفحت الشاعر بنيرانها، واستطاع الأمير أن يتغلب عليها ولكنها تركت في نفسه أثراً من ابن زيدون، ففزع الشاعر إليه بقصيدة ضارعة يُنحي فيها باللائمة على بني ذكوان ويتبرأ من عقوقهم ويشفق من مغبة جحودهم.

قل للوزير الذي تأميله وزري
إن ضاقَ مضطربٌ أو هالَ مُطَّلَعُ
أَصِخْ لهمس عتابٍ تحته مِقَةٌ
تُكلِّفُ النفس منها فوق ما تَسَعُ
ماللمتاب - الذي أحصفتُ عُقدته -
قد خامرَ القلبَ من تضييعه جزعُ؟
لا تستجزْ وَضْعَ قَدْري بعد رَفْعِكَهُ
فالله لا يرفعُ القدرَ الذي تَضَعُ

ولكن الشاعر أدرك أن مقامه بقرطبة خطرٌ عليه ففارقها إلى بطليوس، وترك بها فراغاً كبيراً شعر به الأمير وحاشيته وفي هذا يقول ابن حيان: «فخلا بالحضرة مكانه، وكثر الأسف عليه». وكانت المفاوضات المتصلة بين الشاعر والمعتضد بن عباد بإشبيلية قد لقيت نجاحاً كبيراً على يد صديقه الوزير أبي عامر بن مسلمة، فرحل الشاعر من بطليوس إلى إشبيلية: «فهشت له الدولة وتاهت به الجملة فأحمد إليها فراره وأرهفت النكبة غراره» كما يقول ابن خاقان.

****

في ظل بني عبّاد

لوعة وحنين:

طوى الشاعر ببطليوس بضعة أشهر رتل فيها قصائد تجأر بالشكوى وتفيض بالحنين إلى قرطبة، وصف فيها لوعته لفراق موطنه وأهله وأحبابه وتوجس من إقدامه على عالم جديد مجهول لا يدري ما يخبئه له القدر فيه، ومن أروع ما صاغه في هذه الفترة أرجوزته التي استهلّها بقوله:

يا دمعُ صُبْ ما شئتَ أن تصوبا
ويا فؤادي آنَ أنْ تذوبا
إذِ الرزايا أصبحتْ ضُروبا
لم أر لي في أهلها ضريبا

ونرجح أنه نظم فيها مخمستيه الخالدتين، وحائيته الثائرة:

خليلي لا فطرٌ يسرُّ ولا أضحى
فما حالُ من أمسى مَشوقًا كما أضحى؟

كما نظم كثيراً من القصائد والمقطعات، ومن أشجى ما قاله في مناجاة حبيبته والشوق إلى مواطنيه:

هل تذكرون غريبًا عاده شَجَنٌ
من ذكركمْ، وجفا أجفانَهُ الوَسَنُ؟
يُخفِي لواعِجَهُ، والشوق يفضَحُهُ
فقد تساوى لديه السِّرُ والعَلَنُ
يا ويلتاهُ!! أيبقى في جَوانِحِهِ
فؤادهُ، وهْو بالأطلال مُرتَهنُ؟

وأرّقَ العينَ والظلماءُ عاكفةٌ
ورقاءُ قد شفّها إذ شفّني حَزَنُ
فبتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتها
وبات يهفو ارتياحًا بيننا الغُصُنُ

☆☆☆☆

يا هل أجالسُ أقوامًا أُحبُّهمو؟
كنا وكانوا على عهدٍ، فقد ظعنوا
أو تحفظون عهودًا لا أضيّعُها
إن الكرامَ بحفظِ العهدِ تُمْتَحَنُ

ومنها:

إن كان عادكمو عيدٌ فَرُبَّ فتًى
بالشوق قد عادهُ من ذِكْرِكمْ حَزَنُ
وأفردته الليالي من أحبَّتِهِ
فبات ينشدها ممّا جَنَى الزَّمَنُ:
«بم التعلل؟ لا أهلٌ، ولا وطنٌ
ولا نديمٌ، ولا كأسٌ، ولا سَكَنُ!!»

لقاء كريم:

هاجر الشاعر إلى إشبيلية، وقد سبقه إليها كثير من أعلام قرطبة المعدودين وكانوا قد فروا منها حينما نقض ابن جهور بيعة هشام، ومن أشهرهم أبومروان عبدالله بن أحمد، وأبو بكر عبدالله القرشي التميمي وأبو عامر بن مسلمة صديق الشاعر الحميم ووسيلته إلى المعتضد بن عبّاد، فلما هبط الشاعر إشبيلية نزل في ضيافة صديقه فأكرم وفادته وأطاب مثواه، وكان أبو عامر يبني في داره مجلساً فأنشده ابن زيدون:

عُمِّرَ من يعمُرُ ذا المجلسا
أَطْوَلَ عُمْرٍ يبهجُ الأنفسا

وبَـعْـــــــــدَ ذا عُــــــوِّضَ عـن داره

عَـــدْنًا، ومن ديبـــاجِـــهِ الـسُّندســـا

وَوُفِّــيَ الـفـــــوزَ بـهــــا والـرضـى

ووُقِّــيَ الأســــــواءَ والأبْـؤُســـــا

ودام (عـــبّـــادٌ) لـعــــهـــد الـهــوى

يـحــــرسُ حـــتى يُـفْنِيَ الأحْــــرُســـا

أما المعتضد فقد لقي الشاعر أكرم لقاء، وغمره بحفاوته وبره «وجعله من خواصه يجالسه في خلواته، ويركن إلى إشاراته، في صورة وزير» والواقع أن الأمير عامل الشاعر معاملة صديق، ورفع بينهما الكلفة وأهدى إليه، وقبل هداياه، وأحضره مجالس لهوه ومطارح أنسه، وعاطاه العقار، وطارحه الأشعار والأسمار، أهدى إليه الشاعر هدية تفاح وكتب معها:

يا من تَزَينت الرئاسةُ حين أُلبسَ ثوبَها

جاءتك جامدةُ المُدام فخذ عليها ذَوْبَها

وتلقى منه هدية خمر مشفوعة بأبيات رقيقة فأجاب عنها:

يُشــــرّف مملوكَكَ الـمُـــسْـــتَــــرَقَّ

نـظـمٌ مـن الـكـلـم الــمُـنْـتَـــــخَـلْ

وراحٌ تـعـــــيــــــدُ إلـى مـن أسنْــ

ـنَ، طيبَ زمـــان الصـــبـا الـمُـــقْـــتَـــبَلْ

فـــــأخـــــجلـني البـــــرُّ من فــــرطهِ

وإنّ الجـــواب ليــــبــــدي الخَــــجَلْ

وكان المعتضد يبيح لشاعره دخول حمام قصره، ويبعث إليه الطيب والبخور فيهتف شاكراً:

رضــــاكَ لـنا قـــبلَ الـطهـــور مطـهِّـــرُ

وقُــــربُكَ من دون البَـــخُـــورِ مُـــعَطِّرُ

فلو عــــزّ حـــمـّــــامٌ لأدفـــائنا ذُرًى
يفـــيض به مـــاءُ النّدى الـمُــتَــفَــجِّــرُ
ولـو لـم يـكنْ طيبٌ لأغـنـتْ حـــفـــاوةٌ
تُمَـــسِّكُ منـهـــا حـــالنـا وتُعَنْبَــرُ

مناصب خطيرة:

كان بلاط المعتضد يغص بالكتاب والشعراء والعلماء، فاستطاع شاعرنا بسهولة أن يشق طريقه إلى أن يكون شيخ الشعراء في هذا البلاط، أو شاعر المصر كما يقول منافسه ابن حصن، ثم أصبح المستشار الأول للأمير «وهو منصب يشبه منصب رئيس الديوان الملكي أو وزير القصر في العصر الحديث».

وإلى هذا يشير شاعرنا بقوله:

حَــسْـــبِيَ الـنُّصحُ والـودادُ وشكرٌ
عطّر الدهرَ مـنه مِـسـكٌ فـضــيضُ

وقوله:

شـــــاورنـــي[1] فـــي أمـــــــره
شَــيْـحــانُ لو شـــاء اســتــبــدْ

ثم عهد إليه بالسفارة بينه وبين أمراء الطوائف في مهمٍّ رسائله لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة فاستحق بهذا لقب ذي الوزارتين «وهو لقب يختص به الملك أفراداً معدودين يشركونه في التدبير فضلاً عن المشورة».

ثم جعله رئيساً لوزرائه وفي هذا يقول أوغست كور: «وكان كاتم سر المعتضد ثم كبير وزرائه». وقد سماه صاحب المعجب ذا الرئاستين، وسماه الذهبي الصاحب «وهو لقب يطلق عند المشارقة على رئيس الوزراء المطلق التصرف كالصاحب بن عباد». ويذكر ابن نباتة أن المعتضد تلقاه بالقبول والإكرام، وولاه وزارته وفوض إليه مملكته، ويقول ابن

(١) جاءت في متن الديوان (مشاورٌ) ، انظر ص ٦٢٧ . «المراجع»

خاقان في حديثه عن المعتضد إن ابن زيدون: «أظهر صولته، ودبر دولته، وأدجى ضحاها، وأدار بالمكاره رحاها».

وكان ابن زيدون يطمع في أن يضم بين يديه القويتين جميع المناصب الخطيرة في الدولة، فكانت نفسه تتوق إلى أن يضم إلى مناصبه منصب الكتابة، وكان الكاتب يطلع على جميع أسرار الدولة، ويتحدث باسمها في الخطير من الأمور، ولهذا سعى ابن زيدون ليستأثر بهذا المنصب إلى جانب مناصبه، فحدثت بينه وبين ابن حصن كاتب المعتضد جفوة انتهت بهلاك ابن حصن، ولكن المعتضد عهد بهذا المنصب إلى الكاتب المشهور أبي محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالبر، ثم غضب عليه بعد حين فعزله من منصبه وكاد يفتك به، ويقال إن لشاعرنا أثراً في هذا الاتجاه، ثم فكر المعتضد في أن يعهد بهذا المنصب إلى أبي محمد الباجي، ولكن ابن زيدون استطاع أن يظفر بهذا المنصب الجليل بمعونة صديقه أبي محمد بن الجد، ووفق فيه خير توفيق، وبهذا استطاع أن يجمع في يديه أزمّة الدولة جميعاً.

وكانت التجارب قد حنكته، والأحداث قد صقلته، فاستطاع أن يتقي فتكات المعتضد وغدراته، وأن يسير بسلام مع هذا الأمير الذي قلما سلم من فتكه أحد من معاصريه حتى لقد فتك بابنه ووليّ عهده، ولما سئل ابن زيدون بعد وفاة المعتضد كيف انفرد بالسلامة منه؟ «وقد كان غير مأمون على الدماء، ولا حافظ لحرمة الأولياء، فقال كنت كمن يمسك بأذني الأسد يتقي سطوته، تركه أو أمسكه». ونرجح أنه كان يدخره لفتح قرطبة وهي حلمه العظيم.

سحابات عارضة:

طوى الشاعر في ظلال المعتضد عشرين عاماً، بلغ فيها أرقى المناصب، وجمع بين يديه أزمة الحكم، وقاد الدولة قيادة حكيمة اتسعت فيها رقعتها إلى أضعاف ما كانت عليه، فهل مرت جميعها هينة لينة مع ما تزخر به نفس الأمير من نزوات طاغية واندفاعات عاتية، ومع ما خلقته للشاعر مناصبه من حساد أقوياء وحاقدين طامعين، إن هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة وبخاصة في هذا البلاط الرهيب، وفي هذا يقول أوغست كور: «لم تكن حياة

ابن زيدون بإشبيلية هادئة كل الهدوء الذي يشير إليه ابن خاقان، ولا خالية من المتاعب كما توحي قصائد الديوان». ولم يذكر لنا هذه المتاعب ولا أنواعها، ولكننا نعرف أن ابن زيدون خلق له خصوماً أقوياء: «فغدا شجاً في صدورهم ونكداً في سرورهم» كما يقول ابن خاقان.

وقد وجدنا في القسم الثاني المخطوط من الذخيرة في ترجمة أبي الحسن علي بن غالب بن حصن وزير المعتضد وكاتبه وشاعره حديثاً عن خصومة عنيفة طاغية بينه وبين ابن زيدون، وكان المعتضد يؤجج بينهما نار العداوة والبغضاء إرضاء لنزواته الشريرة، وليتسلى بما ينشب بينهما من ملاحاة وعداء، وكانت الأحداث التي مرت بشاعرنا قد أكسبته خبرة ودراية بطبائع النفوس فلاذ بالصبر والأناة، ودافع خصمه بلين ورفق وأناة، واحتمله ما وسعه الاحتمال، أما ابن حصن فاندفع في طيش وخفة ونزق يستثير الشاعر ويسخر منه ويهجوه معتمداً على موهبة متحفزة تعينه على ارتجال الشعر والإبداع فيه، ومن قصائده في مدح المعتضد ولمز ابن زيدون قصيدة رائية رائعة أسهب فيها في مدح المعتضد، ثم عرج على هجاء ابن زيدون فقال مخاطباً المعتضد:

فدونك عذراءَ المعاني ابتدعتُها
تساعدني عفوًا ولم تَتَعَذَّرِ
إذا ما الرواةُ اسْتَنْشَدَتْها تبرقعتْ
لها أوجهٌ من حشمة وتغيُّرِ
وينكلُ عنها شاعر المصر كلِّهِ
ألا فاضحكنْ من شاعر المصر وافخرِ

ثم لم يكتف بهذه السخرية بل أمعن في تحدي ابن زيدون هاتفاً بالأمير:

ودونك فاحكمْ بين نظمي ونظمِهِ
بذهنٍ ذكيٍّ ثمَّ قدِّمْ وأَخِّرِ
وما أنت ممَّنْ يُحمَد السَّيْفُ عندهُ
لجودة صَقلٍ وهو غيرُ مُذَكَّرِ

وقد لجأ ابن زيدون إلى الحيلة والدهاء والمطاولة حتى استطاع أخيراً أن ينجح في إثارة المعتضد على ابن حصن، وأعانه على بلوغ هذا الهدف نزق ابن حصن واندفاعه وتهوره، وكانت النتيجة أن فتك به الأمير، وإلى هذا يشير ابن سعيد بقوله: «إن ابن زيدون لم يزل يسعى في حتف ابن حصن بمكره حتى فتك به المعتضد». ويقول ابن بسام: «ولم يزل أبوالوليد يطرق ويحلم، ويسدي في أمره ويُلحم، وابن حصن يغتر ويقدم، ففاز ابن زيدون بحِلْمِهِ وتوقره، وهوى نجم ابن حصن بين اغتراره وتهوره، فزلت قدمه، وطاح دمه...».

وهناك خصومة ثانية قامت بين ابن زيدون والكاتب المشهور ابن عبدالبر، وكان المعتضد قد اجتذبه إلى قرطبة بعد أن طارت شهرته في الآفاق، ويحدثنا ابن الأبار أنه: «تهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق، ففاز به قدح عباد[1] بعد طول خصام، والتفاف زحام، فأصاخ أبو محمد[2] لمقاله، وتورط في حباله، وغص أبوالوليد بن زيدون بمقدمه، فجهر كل جهر – زعموا – في إراقة دمه». ولا نعرف أحداث هذه الخصومة، ولكن ابن الأبار يذكر أن سبب غضب المعتضد على كاتبه ابن عبدالبر هو الرسالة التي كتبها الأخير على لسان المعتضد بعد فتكه بابنه وولي عهده إسماعيل، وأنه كتب هذه الرسالة دون روية أو تدبير، ولكننا نعلم أنه كتبها برأي المعتضد وإشارته، وقد رجعنا إلى هذه الرسالة التي نشرها المستشرق (دوزي) فلم نجد فيها مبرراً لهذا الغضب، ولكنها نزوات المعتضد التي قلّما سلم من شرها أحد من حاشيته أو وزرائه، ومما لا شك فيه أن ابن زيدون كان يتطلع إلى منصب هذا الكاتب الكبير ويسعى إليه، وأنه كانت هناك منافسة قوية بينهما حول النفوذ والسلطان، ومن مظاهر هذه الخصومة أن أبا عبدالله محمد بن شرف القيرواني بعث من القيروان إلى المعتضد بخمس قصائد من شعره مع رقعة إلى ابن زيدون سائلاً إياه أن يتوسط له عند الأمير وأن يرفع إليه قصائده، وقد لبى ابن زيدون نداءه ورفع القصائد إلى الأمير، فأمر كاتبه ابن عبدالبر أن يكتب على لسانه كتاب ترحيب إلى ابن شرف القيرواني فكتب إليه رسالة حشاها بالتعريض بابن زيدون، وانتهت المنافسة أخيراً إلى أن غضب الأمير على ابن عبدالبر، وكاد يفتك به، ولم ينج من يديه إلا بعد محاولات ووساطات، وبسبب هذه الخصومات كان ابن زيدون يصف بلاط المعتضد بأنه جنةٌ حفت بالمكاره فيقول:

(١) المعتضد واسمه عباد بن محمد بن إسماعيل بن عبَّاد.

(٢) ابو محمد عبدالله بن يوسف بن عبد البر.

مـن لـي بـشـكـر نـعــــــمــــــــةٍ
الحــــرُّ عنهـــا مـــعـــتـــبَـــدْ؟
سُـــــوِّغْتُ منـهـــا الـعــــزَّةَ القـــعـ
ــســــــاءَ في الـعـــــيش الـرَّغَـــــدْ
حــــيث اسْـــــتُـــضِــــيفَ منهلٌ
صــــــــفـــــــا إلـى ظِـلٍّ بَـرَدْ
كــــــــأنَّـهــــــا لـي جـنَّـةٌ
حُــــــفَّتْ بمكروه الحــــــســــــدْ

وقد بقيت لدينا بقايا قصيدة يعاتب فيها الشاعر أميره عتاباً مرّاً، وما بقي منها هو:

ولما قـــضـــينـا من دُوَيْرٍ إجــــازةً
تحــــدَّرَ دمـعُ المقلـةِ الـمُــــتَـــرَقْــرِقُ

ومنها:

أعــبّــادُ حــتـى من هبــاتِكَ مــخلـصٌ
ودودٌ؟ ومن عـــافــيك بيـــداءُ سَــمْلَقُ؟
تـعـوّدتَ بذلَ الـمُنفـســات، فَــجُـدْتَ بي
وإنـي بصــــونٍ منك أحْـــرَى وأخلَـقُ

ومنها:

ومـــا كـــان ظني أن أرى مُــتَــقَـحِّـمًـا
مُــسَنَّاةَ مــحـــمــومٍ أَخُبُّ وأُعْنقُ

فالأبيات توحي بأن الأمير أبعد شاعره عن إشبيلية إلى مكان مجدب فتوسل إليه ألا يجود به على الصحراء، وأخذ يذكره بما يكنه له من مودة وصفاء، وأنه جدير منه بالصون والولاء.

ولكن هذه المتاعب كلها كانت سحابات عارضة ما تكاد تظهر حتى تزول، وإلى هذا يشير ابن زيدون:

ضـــرائبُ جَـــهْـــمَـــةٌ في الـعـــتب تُتْلى
بـأخـــــلاقٍ لدى الـعُـــتْـــبَى مِـــلاحِ

وأخيراً توفي المعتضد سنة ٤٦١هـ بعد أن تهيأ لفتح قرطبة بتدبير ابن زيدون، وكان الأمير يدخره لهذا الفتح المجيد، ولعل هذا من أسباب نجاة الشاعر من فتكات الأمير.

الحاكم الجديد:

ولي المعتمد بن عباد الحكم بعد أبيه، وكانت بينه وبين شاعرنا أوثق صلات المودة والصداقة والوفاء. كان الأمير الجديد مفتوناً بالشاعر، تتلمذ على يديه وهو وليٌّ للعهد، وتدرب عليه في صياغة الشعر مدة عشرين عاماً دارت بينهما فيها أرق القصائد وأعذب المطارحات. أمر المعتضد أن يكون مجلس ابنه وولي عهده المعتمد مرتفعاً عن مجلس ابن زيدون، فكتب المعتمد لأستاذه معتذراً:

أيـهـــا المنحطّ عنـي مـــجـلسًـــا
ولـه فـي الـقـلـب أعـلـى مـــجـلسِ
بـفـــؤادي لـك حُـبٌّ يـقــتــضـي
أن تُـرى تُـحْــمَـلُ فـــوق الأرؤسِ

فأجابه الشاعر بقصيدة استهلها بقوله:

أســقــيطُ الـطَـلِّ فـــوق الـنرجسِ
أم نـســيـمُ الـروض تحـت الحِنْـدِسِ؟
أم قــريـضٌ جـــاءنـي مـن مـلـكٍ
مـــالـكٍ بـالـبِـــرِّ رِقَّ الأنـفـس

والديوان حافل بما دار بينها من مطارحات ومراسلات.

وشاية دنيئة:

ظن خصوم الشاعر ومنافسوه أن الفرصة أصبحت سانحة لمهاجمة الشاعر عند الحاكم الجديد، فنسبوا إليه أنه حينما بلغه نعي المعتضد قال:

لقد سرّنا أنّ النعيّ موكّلٌ
بطاغيةٍ قد حُمّ منه حِمَامُ

تجانفَ صوبُ الغيثِ عن ذلك الصّدى
ومرّ عليه البرق وهو جَهامُ

ثم دسوا إلى المعتضد قصيدة يغرونه فيها بالفتك بالشاعر، استهلوها بقولهم:

يأيها الملكُ العليُّ الأعظمُ
اقطع وريدَيْ كلّ باغٍ ينئمُ

واحسم بسيفك داء كل منافقٍ
يبدي الجميلَ وضدُّ ذلك يكتمُ

ثم ذكروه بهجاء الشاعر لأبيه، وأن هذا الهجاء أصبح على كل لسان:

لا تحقرنّ من الكلام قليلَهُ
إنّ الكلامَ له سيوفٌ تَكْلِمُ

والمَلْكُ يحمي مُلكهُ عن لفظةٍ
تسري فتُجْلَى عن دوامٍ تَعْظُمُ

فضلاً عن الكلم الذي قد أصبحتْ
غوغاؤنا جهرًا به تتكلمُ

ثم ذكروه بفتكات أبيه في سبيل صونه عرشه، وأن الحزم يقتضيه أن يقتفي آثاره، ثم ختموا قصيدتهم ببيت المتني:

لا يسلم الشّرَفُ الرفيعُ من الأذى
حتى يراقَ على جوانبه الدَّمُ

ولكن الأمير كان أدرى بشاعره، وأوفى لأستاذه، وأعرف بالذمام، فوقع على الرقعة بأبيات استهلها بقوله:

كذبت مُناكمْ، صَرِّحوا أو جَمْجِموا
الدين أمتنُ، والمروءةُ[1] أكرمُ

---

(١) جاءت في متن الديوان (والسجيّة)، انظر ص ٣٩٠ «المراجع».

خُنْتُمْ، ورُمْتُمْ أن أخونَ، وإنما
حاولتمو أن يستخفَّ يَلَمْلَمُ

وختمها منذراً محذراً:

كُفُّوا وإلا فارقبوا لِيَ بطشةً
يُلقى السَّفيهُ بمثلها فيُحَلَّمُ

فاهتز الشاعر لهذه الأريحية وصاغ قصيدة مسهبة في شكر الأمير على ما غمره به من آلاء، يقول منها:

لي منكَ - فليَذُبِ الحسودُ تلظِّيًا -
لطفُ المكانةِ والمحلُّ الأكرمُ
لم تُلْفَ صاغِيَتي لديك مُضاعةً
كلاَّ، ولا خفيَ اصطناعي الأقدمُ
بل أوسعتَ حفظًا وصدقَ رعايةٍ
ذممٌ موثَّقَةُ العُرا لا تُفصَمُ

فتح قرطبة:

استطاع المعتمد بمعونة وزيره وشاعره وأستاذه ابن زيدون أن يفتح قرطبة حاضرة الخلافة الأموية، ودرة الأندلس الفريدة، وكانت قد عزت على أبيه وجده من قبل وعلى ملوك الطوائف الآخرين، وعاد الشاعر إلى بلده قرير العين مثلوج الفؤاد، وما كاد يستقر بها بين أهله وعشيرته حتى ثارت فتنةٌ بإشبيلية، فأرسل المعتمد ولده الحاجب سراج الدولة في جيش كثيف لإخماد الفتنة، ولكن ابن مرتين قائد جيش المعتمد بقرطبة وابن عمّار وزيره الأثير عنده، أشارا عليه بإرسال ابن زيدون مع الجيش إلى إشبيلية لما يتمتع به من كياسة ولباقة وحسن تدبير، هذا إلى ما يظفر به عند أهل إشبيلية من حب وتقدير، وكانا يهدفان من وراء هذه المشورة إلى إقصاء ابن زيدون عن المعتمد ليخلو لهما الجو فيكيدا له حقدًا عليه وضيقاً بما كان يتمتع به من نفوذ عند الأمير وحب شعبي عظيم، فأمره الأمير باللحاق بالجيش فاعتذر بمرضه وشيخوخته، فلم يقبل الأمير منه الاعتذار ثم أرسل ابنه من خلفه بتدبير القائد والوزير.

خاتمة المطاف:

لبى ابن زيدون نداء الأمير «على بقية وعك كان متألماً منه، ولم يعذره في التوقف من أجله فمضى لطيته، مسوقاً إلى منيته» فأخذ الناس يهمسون بضعف مكانة الشاعر عند الأمير، ويظهر أن المرض والكهولة ومشاق السفر وفداحة المهمة والهواجس النفسية فعلت فعلها في نفس الشاعر، فما كاد يتم مهمته حتى ألحت عليه العلة، ثم فاضت روحه في صدر رجب سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م)، ولما وصل نعيه إلى قرطبة جاشت نفوس أهلها بالحزن وفاضت بالآلام «وتناعوه وسيئوا لفقده وحزنوا عليه، إذ كان منهم، متعصباً لهم، هاوياً إليهم، حدِباً عليهم، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية» ولهذا لم يكن عجباً أن ينتقض أهل قرطبة على حكم المعتمد بعد هذا بقليل.

ويظهر أن المعتمد شعر بفداحة ما فعل، ورأى النذر ماثلة أمام عينيه، وأشفق من شعور الشعب، وأحس أنه فقد ركناً ركيناً من أسس دولته، فبادر بتعيين ابن الشاعر مكان أبيه، وعهد إليه بالوزارة، وخصه بولاية إشبيلية حاضرة الملك العتيد مجموعة إلى الإشراف على دار سك النقود، فنهض بما وكل إليه واضطلع بما عهد إليه، وواتته الفرصة فانتقم لأبيه، وظل في خدمة المعتضد(١) حتى قتل سنة ٤٨٤هـ.

وخير ما نختم به حديثنا عن حياة ابن زيدون ما ذكره ابن حيان في رثائه: «فقد تولى من أبي الوليد كهلٌ لن يُخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً وحلولاً من مراتب البلاغة نظماً ونثراً بمرتبة لم يُخلف لها بعده عاطياً بقرانه بين الكلامَيْن وبراعته في الفنين».

****

(١) هكذا وردت في الأصل، ونعتقد ان صحتها (المعتمد) لأن المعتضد بن عباد توفي عام ٤٦١هـ.

أضواء وظلال

صحبنا ابن زيدون من مهده إلى لحده، وتتبعنا أحداث حياته وما مر عليها من نسائم عليلة، أو عصف بها من أعاصير عاتية، والآن حان لنا أن نلقي على شخصيته بعض الأضواء.

بين الخصوم والأنصار:

إن صلات الإنسان بمن حوله واحتكاكه بالمحيطين به تكشف عن جوهر نفسه وتظهر طبيعته للباحثين، وإن العظماء دائماً يشغلون الناس بأنفسهم، ويثيرون حولهم دائماً أجواء من القدح أو المدح والبغض أو الإعجاب، وما من شك في أن رجلاً كابن زيدون ملأ قلوب معاصريه وأسماعهم وزاحم منهم من زاحم، حتى فاز بأسمى المناصب السياسية، وأرفع المراتب الأدبية، إن رجلاً عظيماً كهذا لا بد أن يشغل قلوب معاصريه سواء كانوا من مؤيديه أو من معارضيه، وقد ذهبوا فيه شتى المذاهب، فيقول فيه الحميدي والضبي إنه: «كثير الشعر قبيح الهجاء» ويقول ابن سعيد: «إنه كان سامحه الله ممن لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره» ويصفه ابن حيان بسلاطة اللسان، ولكنه يعود فيصفه بحبه لأهل وطنه وحرصه على نفعهم: «إذ كان منهم، متعصباً لهم، هاوياً إليهم، حدباً عليهم، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم» ويقول ابن نباتة: إن الشاعر «كان حسن التدبير، تام الفضل، متحبباً إلى الناس».

والحقيقة أن الشاعر لم يكن ملاكاً رحيماً ولا شيطاناً رجيماً، وإنما كان إنساناً سوياً، ورجل بلاط محنكاً، يضع الإحسان في موضعه، ويقابل الجحود بالجحود، فقد تنكر لابن عبدوس بعد أن نافسه في حبيبته وهذا أمر مألوف، وكاد لابن حصن وحمل المعتضد على الفتك به، وكان ابن حصن هو المعتدي على الشاعر والمحرض عليه، ولو وجد فرصة لإهلاكه لفعل، ونستطيع أن نقول مثل هذا في ابن عبدالبر الكاتب الشهير.

على أننا نجد الشاعر قد أحسن إلى كثيرين، فقد كشف عن موهبة أدبية أصيلة في أبي بكر محمد بن سليمان بن القصيرة، وكان على فضله منطوياً على نفسه متهيِّبًا الدخول في خدمة المعتضد، فقدمه ابن زيدون إليه، وأثنى عليه، ودفعه إلى أسمى المناصب، ثم زكاه المعتضد عند ابنه المعتمد حتى «عظمت حاله، واتسع محاله». ولولا ابن زيدون لطواه الخمول. وقد توسط لابن شرف القيرواني عند المعتضد وزكاه، وتشفع لأحد أصدقائه عند المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس، وصاغ في هذه الشفاعة رسالة مسهبة وقصيدة ممتعة تبدو فيهما حرارة المودة والإخلاص، وإخلاص الشاعر لوطنه، ووفاؤه لأصدقائه تفيض به صفحات الديوان، وقد لهج كثير من معاصريه بالحديث عن وفائه ومودته، ومن أمثلته قول المعتمد في وصف شعر ابن زيدون وإخلاصه:

نظم درٍّ يستبي القلبَ متى يُنظمْ ويُنْثَرْ

دلّني أنك في الخلصان معقودٌ بخِنْصَرْ

وكتب إليه ابن عمار مستشفعاً به لدى المعتضد من قصيدة طويلة:

يا غُرَّةَ الزمن البهيـ

ـم وعِزَّةَ الأدبِ الذليلِ

اشفع عنايتك الجليـ

ـلةَ لي لدى الملك الجليلِ

ولئن أجبتَ لراغبٍ

وأقَلْتَ عَثْرةَ مستقيلِ

فلكم أتيت بمثلها

وهيَ الصنيعة في مثيلي

وخلاصة القول إن شاعرنا كان يضع الإحسان في مواضعه، والإساءة في مواضعها، وقد عبر عن هذا في قصيدته لابن عبدوس.

فإنِّي ألِينُ لمن لانَ لي

وأتركُ من رامَ قسرى حَرَضْ

الظرف ورقة الحديث وسرعة البديهة:

وهي صفات متجانسة متقاربة اتصف بها الشاعر، وقد هيأتها له ذاكرة قوية، وحافظة مستوعبة، وفطرة مواتية كل المواتاة، وصفه ابن حيان بأنه: «فتى الآداب وعمدة الظرف..... وأنه غلب على قلوب الملوك بفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة، وبأنه لن يُخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً». وفيه يقول ابن بسام: «فأما سعة ذرعه، وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه: فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد، والرمل الذي لا يحصر ولا يعد».

ويتحدث عنه أبو المطرف بن فتوح بأنه: «الحلو الظريف البارع اللطيف» ولهذه الصفات الحلوة نجح في سفاراته لدى الملوك، ففتحوا له صدورهم ومزجوه بأنفسهم كالمعتضد بن عباد وابنه المعتمد حاكمي إشبيلية وإدريس الثاني حاكم مالقة، وبني عبدالعزيز أصحاب بلنسية، وفي اتصاله بهم يقول ابن خاقان: «فحلّ منهم محل الحميّا في الكؤوس، ووقع منهم مواقع البشائر في النفوس، وأقام بين مبرة تواصله، ومسرة تغازله».

أما سرعة بديهته فتتجلى في ما رواه ابن بسام والمقّري من أنه وقف يتلقى العزاء في ابنته، فقيل إنه ما أعاد في ذلك الموقف عبارة قالها لأحد: قال الصفدي: «وهذا من التوسع في العبارة والقدرة في التفنن على أساليب الكلام، وأقل ما في تلك الجنازة وهو وزير ألف رئيس ممن يتعين أن يشكر له، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية، لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده:

ولكنه صَوْبُ العقول، إذا انبرتْ
سحائبُ منه أعقبتْ بسحائب».

وقد وازن أحمد زكي باشا موقف ابن زيدون بموقف (مسيو بوانكاريه) الذي استقبل عشرين وفداً من طوائف الانكليز ورد على كل منهم بعبارة شكر تخالف ما أجاب به

الأخرى، مما جعله موضعاً لإعجاب الناقدين بمقدرته البلاغية، وشتان بين الموقفين، والحالة النفسية في كل منهما.

وكثيراً ما تسعفه بديهته على الارتجال الشعري، يروى أن جارية سألته أن يزيد على بيت قالته:

يا مُـعطشي من وصـال كنتُ واردَه
هل منك لي عَلَّةٌ إن صحتُ: واعَطَشِي

وكانت تتعشق فتًى قرشياً والشاعر يعلم هذا فارتجل سبعة أبيات استهلها بقوله:

كسوتني من ثياب السقم أسبغها
ظلماً، وصيّرتَ من لحف الضَّنَى فُرُشي

ومنها:

صبّاً - إذا التذت الأجفان طعم كرًى -
جفا المنام، وصاح الليلَ: يا قُرَشِي!!

ولا تخفى وعورة القافية في الأبيات، وكثيراً ما كان يرتجل أبياتاً في الرد على المراسلات الشعرية في نفس قافيتها ووزنها، كما كان يرتجل في شتى المناسبات.

روى ابن ظافر أنه خرج للنزهة في إحدى ضواحي إشبيلية، ومعه الوزيران أبوبكر ابن عمار وابن خلدون(١) وبعثوا صاحباً لهم اسمه خليفة ليأتيهم بنبيذ، فلما رأوه مقبلاً بادروا إلى لقائه، واتفق أن فارساً ركض فرسه فصدمه فهشم أعظمه، وأجرى دمه، وكسر قمصال النبيذ، ومضى هارباً، فأسفوا لما حدث وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه فقال ابن زيدون:

أنَلْهُو والحتوفُ بنا مُطيفة؟
ونأمنُ والمنونُ لنا مخيفة؟

فقال ابن خلدون:

وفي يوم وما أدراك يوم
مضى قمصالنا ومضى خليفة

(١) نرجح أنه أبو مسلم عمرو بن خلدون الحضرمي من أشراف أهل إشبيلية وعلمائها توفي سنة ٤٤٩هـ ولعله من أجداد ابن خلدون المؤرخ المشهور.

فقال ابن عمار:

همـــــــا فَـــــــخّـــــــارتـا راحٍ وروحٍ
تكسَّـــرتـا فـــأشـــقـــافٌ وجـــيـــفـــهْ

وقد وصف شاعرنا نفسه بالظرف، والافتنان فيه، وسرعة البديهة فقال:

لا افـتـنانٌ كـافـتـناني في حُلَى الظرفِ الحِـسـانِ
خـــصَّني بالأدب اللـهُ فـــأعلى فـــيـــه شـــاني
خـاطري أنفـذُ - مـهـمـا قِـيسَ - من حَدِّ السِّنانِ

الولع باللذات:

ولي الشاعر مناصب هامة تستدعي الوقار، وكان ينحدر من سلالة فقهاء مهيبين ونشأ في أحضان أناس متزمتين، ولكن نشأته المترفة وطبيعة عصره المتحررة وفطرته المرحة ونفسه الحساسة مالت به جميعاً إلى مباشرة اللهو ومقارفة اللذات، فكان يعاقر الراح ويستجيب للهو ويعشق الموسيقى والغناء، وقد ذكرنا مجالسه اللاهية مع صديقيه أبي الوليد بن جهور وأبي بكر ابن ذكوان، وكانت له مع ولادة ليالي حاليات يساقيها الراح ويستمع إلى غناء جاريتها عتبة، وأعانه على إشباع ميوله أن معظم من اتصل بهم من الملوك أو عاش في ظلالهم كانوا يستجيبون لهذه النزعات مثل أبي الوليد بن جهور في مستهل حكمه، وإدريس بن حمود، والمعتضد بن عباد، وابنه المعتمد، وكثيراً ما كان يهدي الراح ويستهديها، وطالما تلمسها من المعتضد في شعر رقيق مثل قوله:

يـا بـانـيًـــــا كـل مـــــجـــــدِ
وهـــادمًـــــــا كـل وُجـــــــدِ
جـــــسـم الـســـــرور ســـــويٌّ
مـن صــــوغ نُـعـــمـــــاك عـنـدي
فـــــــــــــــهَـــبْ لـــه روحَ راحٍ
يـنـطـقْ بـأحـــــفلِ حـــمـــــدِ

وطالما حثه على معاقرة الشراب:

فهبٌ إلى اللذات مؤثرَ راحةٍ
تُجِمُّ بها النفسَ النفيسةَ للكدِّ
ووَالِ بها في لؤلؤ من حَبابها
كجيد الفتاة الرُّود في لؤلؤ العقدِ
وإن تَدْعُنا للأنس عن أريحيَّةٍ
فقد يأنسُ المولى إذا ارتاح للعبدِ

ولهذا وصف ابن خاقان شعره بأنه «لم يصرفه إلا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلا في سماء مؤانسات وأفراح». أما إشادته بابن جهور حين كسر دنان الخمر فإنه لا يعبر بهذا عن رأيه الخاص، وإنما يؤدي واجباً يقتضيه منصبه الرسمي ويحتمه المقام.

على أن ابن زيدون لم يكن مجاهراً مستهتراً مثل بشار وأبي نواس وغيرهما من الشعراء الماجنين، ولكنه يستجيب لميوله إذا واتته الفرصة وأسعفته المناسبات، ولم يكن منفرداً لهذا بين معاصريه، فقد كان العصر عصر تحرر وترف وانطلاق، كما ذكرنا فيما سبق.

وقد خلق شاعرنا ليكون رجل بلاط من الطراز الأول يجمع بين الكياسة والدهاء واللباقة والظرف ولطف النادرة وسرعة البديهة ومجاراة الحكام في أهوائهم، مع الأخذ من متع الحياة بنصيب.

عزة النفس والشجاعة والإباء:

نعت ابن حيان الشاعر بأنه «ذهب به العجب كل مذهب، وهو عنده كل مطلب» ولكننا نستطيع أن نعدل هذه الصفة فنقول إنها الإباء لا الكبرياء، وشتان بين الوصفين، وإن تقاربا في المظهرين، فالإباء فضيلة مشكورة، قد تحمل صاحبها على التضحية وإنكار الذات، والسمو عن الهوان، وإن كان وراءه ربح أو إحسان.

أما الكبرياء فمرض نفسي يستره صاحبه بهذا المظهر الزائف الخداع، وشاعرنا كان معجباً بنفسه، معتزاً بمواهبه، ولاضير عليه في هذا، فإنه نشأ عن طفولته المترفة

ونبوغه المبكر، ومكانته التي أحرزها في مستهل الشباب، حيث أسهم في إسقاط دولة وإقامة دولة، وشرّق ذكره وغرّب، وخفّ على قلوب الملوك والأمراء فتهافتوا على طلبه، فلا عجب إذا شعر بالعزة والإباء لا بالصلف والكبرياء، ولقد ضحى الشاعر بالمكث في وطنه على شدة تعلقه به، وبالقرب من حبيبته على حدة شغفه بها ضنًّا بنفسه عن مواقف الهوان، وفي هذا يقول: «ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين: العير والوتد، ونظرت في مفارقة الوطن والبين عن الأحبة فتبين لي أن إيحاش نفسي بإيناس أهلي، وقطعها في صلة وطني غبنٌ في الرأي، وخورٌ في العزم، ووجدت الحر ينام على الثكل، ولا ينام على الذل..... إن الذي اخترته لنفسي غاية ما يسيء العدو به ويساء المولى منه، فالجلاء أخو القتل والغربة أحد السباءين.... وقد هجرت الأرض التي هي ظئري، والدار التي كانت مهادي، وغبت عن أمّ أنا واحدها تمتد أنفاسها شوقاً إلي، وتفيض أجفانها حزناً علي....». ومن هذا نلمس حرقة الشاعر على وطنه، وتلهفه على أهله، وتلدُّده على حبيبته، ولكنه استجاب لما فطر عليه من عزة وإباء.

أما شجاعته فتتجلى في أنه قضى حياةً كلها كفاح ونضال في سبيل بلوغ القمة، فإذا صدمته الأحداث أو قهرته النوائب هب إلى النضال ثانياً، وأبى إلا أن يسترد مكانته ويسترجع منزلته، وكم ناضل خصوماً ألداء، وكافح منافسين أقوياء من قضاة ووزراء وأمراء، فلم يفلّ عزمه يأس، ولم يثلم حده قنوط، حتى تم له الانتصار.

وقد صور لنا الشاعر موقفه من الأحداث القاسية المتلاحقة، وكيف قابلها بالكفاح والنضال:

فإن يُجدبْ من الدنيا ... جنابٌ طالما أمرَعْ

فما إن غاضَ لي صبرٌ ... وما إن فاضَ لي مدمعْ

وكائنْ رامَتِ الأيَّا ... مُ، ترويعي فلم أرتَعْ

إذا ضافتني[1] الجُلّى ... تجلّتْ عن فَتًى أروعْ

(١) وردت في متن الديوان (صابتنيَ) بدلاً من (ضافتنيَ)، انظر: ص ٦٠٤ «المراجع».

علـى مـــــــــا فـــــــــاتَ لا يـأسـى
ومِمّــا نـــابَ لا يـــجــــــــــــــــزعْ

صفات جسمية:

للتكوين الجثماني أثر بالغ في الاتجاهات النفسية والملكات الفنية، وقلّما كان مؤرخو العرب يهتمون بهذه الصفات، وكل ما ذكره الرواة عن شاعرنا أنه كان وسيم الوجه، وقد ردد ابن حيان وصفه بهذه الصفة عدة مرات منها قوله في رثائه: «فتولى منه كهلٌ لن يخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً...». فوصفه بالجمال حين كهولته فما بالك به في شبابه، ولعل الشاعر يشير إلى هذا في رسالته لابن عبدوس على لسان ولادة، «ولعل إنما غرك من علمت صبوتي إليه، وشهدت مساعفتي له، من أقمار العصر وفتيان المصر، الذين هم الكواكب علو همم، والرياض طيب شيم» ويظهر أنه كان قوي الجسم متين البنيان، ولعله يشير إلى هذا بقوله في الرسالة السابقة على لسان ولادة : «وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة، والشهوة الوافرة.. وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره...».

ولعل لمتانة تركيبه، وقوة بنيانه أثراً في طول حياته على الرغم مما تعرض له من نكبات وأحداث وما أسرف فيه من شهوات، وكان قوي الأعصاب بدليل موقفه في جنازة ابنته، فقد تحمل الصدمة وانصرف إلى مجاملة الرؤساء المعزين ببديهة حاضرة وفي هذا من قوة الاحتمال ما فيه، ويروي الصفدي أنه كان يخضب بالسواد، وهذا دليل حرصه على أناقته وجمال مظهره.

وكان حسن الصوت رقيق النغمة جيد الإنشاد، وفي هذا يقول ابن حصن في وصف أشعاره معرضاً بشعر ابن زيدون:

ولستُ بكاســيــهــا مـــدى الدهر حليــةً
بـنـغـــــمـــــــةِ إنشـــــــادٍ ولا بمُكرَّرِ

ولعل هذه الصفات الجسمية إلى جانب مواهبه العقلية هي التي أعانته على أن يجلي في ميادين المنادمة والمسامرة، كما أبرزته في مجال السفارات، ولا تزال البعثات الدبلوماسية في العصر الحديث تراعي جمال المظهر وحسن التكوين إلى جانب الكياسة واللباقة والذكاء.

فلسفته في الحياة:

لا بد لكل شاعر فحل من نظرة شاملة دقيقة في الحياة تكشف عن مذهب فلسفي يصدر عنه الشاعر في ما ينتج من آثار، ونحن لا نطلب من ابن زيدون فكراً فلسفياً كالمعري أو أبي نواس ولا مذهباً خلقياً كأبي العتاهية أو المتنبي أو ابن الرومي، لأن البيئة الأندلسية تضيق بالمذاهب الفلسفية وما إليها من أفكار، ولكننا نرى لشاعرنا نظرة فلسفية لوَّن بها حياته وصدر عنها في تصرفاته هي إيمانه بالجبر، وقد لعبت مسألة الجبر والاختيار دوراً هاماً في الفلسفة الإسلامية والمذاهب الكلامية، والشاعر قد درس هذه الأبحاث جميعها، وتأثر بها، ووجد لها في حياته أبلغ الآثار، فكم مرت بالشاعر من أحداث قاسية ومحن متلاحقة غيرت مجرى حياته ونقلته من حال إلى حال، فالإنسان محدود القدرة أمام سلطة الأقدار، وهو خاضع لظروف بيئته وتكوينه ووراثته وإن ظن في نفسه الاختيار، وكثيراً ما يحشد الإنسان قواه ويدبر أموره لبلوغ هدف من الأهداف فيخطئه التوفيق على حين يظفر به من لم يخطر له على بال:

ولقد ينجيك إغفالٌ ... ويُرديك احتراسُ
ولكم أَجْدَى قُعودٌ ... ولكم أكدى التماسُ
وكذا الدهرُ إذا ما ... عزَّ ناسٌ ذلّ ناسُ

وليست هذه نظرة عابرة، ولكنها حقيقة تتردد في شعره كثيراً، وتبرز حتى في رسائله «وما حُمّ واقع، ولا حذر من قدر، وسبق السيف العذل، وتقدم من فعلي ما جفَّ به القلم» حتى الحب يخضع في نظره لتصرف الأقدار:

ما كان حبُّك إلا فتنة قُدِرَتْ ... هل يستطيعُ الفتى أن يدفعَ القدرا؟

والإيمان بالجبر إذا صادف النفوس المنطوية المنكمشة ازدادت انقباضاً ولاذت باليأس والقنوط، ولكنه إذا صادف نفوساً منبسطة فإنها تزداد انبساطاً وتتخذ من

تصرفات الأقدار عوناً ونصيراً، وشاعرنا من النوع الأخير، ولعل لنشأته في بيئة دينية أثراً في هذا الاتجاه، فالقوة المهيمنة على الكون لا تفعل إلا خيراً ولا توصي إلا بخير، وأن ما نظنه نحن شراً ليس إلا ستاراً يخفي وراءه أحسن العواقب ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. وكثيراً ما ينشد الإنسان نفعاً فيناله الضر، أو يتقي ضرّاً وفيه كل الخير:

وأنَّ السَّعْيَ قد يُكدي
وأن الظنَّ قد يخدعْ
وكم ضَرَّ امرءًا أمرٌ
توهَّمَ أنَّهُ ينفعْ

وما دام الشأن كذلك فلا مبرر لليأس ولا داعي للقنوط :

لا يأسَ، رُبَّ دُنُوٍّ دارٍ جامعٍ
للشَّمل قد أدى إليه بِعادُ

ولهذا فهو يقابل الأحداث بصبر وجلد حتى يتغلب عليها:

ثم لا يأس، فكم قد
نِيلَ أمرٌ لم يُؤَمَّلْ

وهو واثق بأن الأقدار ستعينه على بلوغ مناه:

وأصْبِرُ مُسْتَيْقِنًا أنه
سَيَحْظَى بنيلِ المُنى من صَبَرْ

وهو في هذا الاتجاه يعبر عن النزعة الدينية التي رضع لبانها صغيراً:

ولله فينا علمُ غيبٍ، وحسبنا
به - عند جَوْرِ الدهرِ - من حَكَمٍ عَدْلِ

وإيمانه بالنتيجة المرجوة من وراء تصرفات القدر لم يدفعه إلى الكسل، وإنما دفعه إلى العمل، وحضه على الكفاح، واثقاً من أنه إذا نجح فقد نال ما يشتهي، وإذا أخفق ففي

إخفاقه خير مستور أو شر مدفوع، ولهذا اندفع إلى النضال والكفاح واثقاً من أن قوة خفية ترعاه وتسدد خطاه:

مـن كـــان يجـــهلُ مـــا البَليــدُ فـــإنه
مـن تـطُّبـــــيـــــهِ عـن الحظوظ بـلادُ
وفـــتى الشُّـــهـــامـــةِ مَنْ إذا أملٌ ســـمـــا
نفـــذتْ بـه شـــورى أو اســـتـــبـــدادُ

ومن فلسفته العملية أنه – على الرغم من نشأته في بيئة دينية – كان يستجيب لشهواته ويندفع إلى لذاته، ولعله كان واثقاً في الرحمة آملاً في الغفران، وهذا نتيجة لنظرته المتفائلة في الحياة.

نظرته إلى المجتمع:

على الرغم من تفاؤل الشاعر ونظرته الباسمة المتفتحة للحياة، فإنه كان ينظر إلى الناس نظرة تشاؤم وضيق، فقد كان يسيء بهم الظنون ويندد بما فطروا عليه من غدر وجحود، ولا عجب في هذا فقد لقي على أيدي كثيرين منهم أبلغ الإساءات بعد أن قدم إليهم أطيب المودات، كان صديقاً حميماً لابن القلاس وابن عبدوس وابن عمار فلقيَ منهم أعنف الإيذاء، ووفى لأبي الحزم بن جهور ودعم أساس حكمه، فلما استقر له الأمر بادره بالنكال.

وقد عبر الشاعر عن طبائع هذه النفوس الشرسة بقوله:

أذؤبٌ هـــامـــتْ بـــلـــحـــــــــــــمـــي
فـــانتـــهـــاشٌ وانتـــهـــاسُ
كُـلّـهـم يـســــــألُ عـن حـــــا
لـي، ولـلـذئـب اعْـــتِـــســـــاسُ

ثم هو يرى الرجل الكريم هدفاً لأسهم الباغين الحاقدين:

وأشـــدُّ فـــاجـــعـــةِ[1] الدواهي مـــحـــسنٌ
يســـعى لِيُـــعْلِقَـــهُ الجـــريمةَ مـــجـــرمُ
تَلْقَى الحـــســـودَ أصمَّ عن جـــرس الوفـــا
ولقـــد يُصـــيخُ – إلى الرُّقـــاة – الأرقمُ

---

(١) وردت في متن الديوان (وأشدُّ فاجئة)، ص ٣٩١ «المراجع».

أما نظرته إلى المرأة خاصة فقد كنا نتوقع أن ترتفع منزلتها عنده استجابة لهواه العنيف وحبه القهار، ولكن فشله في حبه جعله يقسو على المرأة ويراها متعة عابرة يلهو بها الإنسان حيناً ويقسو عليها في كثير من الأحايين، فهو يرى أن خير زوج للفتاة هو القبر:

حبَّذا هَدْيُ عروسٍ
دفنُها كان الهِداءَ

ويشبه المرأة بالحذاء يخلعه الرجل ويستبدل به آخر، ولا يتورع عن ترديد هذا المعنى في تهنئته للمعتضد بزواجه من بنت مجاهد العامري بعد أن ماتت زوجته الأولى:

هي والفقيدةُ كالأديم اخْتَرْتَهُ
فَقَدَدْتَ إذ خَلُقَ الشِّراكُ شِراكا

وكان لا يتورع عن شتم ولادة وإيذائها، حتى لقد استعمل يده في تأديبها وإن كان قد عاد إليها نادماً مستغفراً:

إن تكن نالتكِ بالضَّرب يدي
وأصابتك بما لم أُرِدِ
فلقد كنتُ لعمري فاديًا
لك بالمال وبعض الولدِ
ولئن ساءكِ يومٌ فاعلمي
أن سيتلوه سرورٌ بِغَدِ

هذه نظرةٌ عابرة ألقينا بها ضوءاً على شخصية الشاعر، وستعيننا هذه النظرة العابرة على دراسة آثاره وإدراك ما فيها من آراء مشعة بالجمال، ونختم حديثنا عن حياته بعبارة جامعة لصفاته أوردها في الحديث عنه معاصره ابن حيان حيث سماه «فتى الآداب وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف والرصف، أبا الوليد أحمد بن زيدون ذا الأبوة النبيهة بقرطبة، والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم، والسلاطة، وقوة العارضة، والافتنان في المعرفة».

والآن حان لنا أن نلقي نظرة نقدية فاحصة على ما خلفه الشاعر من آثار.

****

آثاره الأدبية

فنونه الشعرية

في عصر ملوك الطوائف ظهر في الصياغة الشعرية تياران قويان أحدها منهجي Classic يتمسك بالأساليب المعروفة والتقاليد الأدبية المطروقة التي توارثها الشعراء جيلاً بعد جيل منذ العصر الجاهلي، والتجديد فيه مقصور على المعاني الفكرية والخطرات النفسية وتصوير المظاهر الحضارية التي لم يكن للعرب بها عهد من قبل، والتيار الثاني إبداعي Romantic يحاول التحرر من الأوضاع والتقاليد المأثورة، وقد نجح في التحرر من قيود الأوزان القديمة والقافية الملتزمة في فن الموشحات، كما حاول الانفلات من قيود الفصحى والإعراب في فن الأزجال، وشاعرنا ينتمي إلى المذهب الأول، فقد التزم الأوزان العربية المألوفة، كما التزم القافية إلا في قصيدتيه المخمستين فقد تحرر فيهما بعض التحرر.

ولقد مرت حياته الفنية في ثلاثة أطوار: أولها كان تقليدياً محضاً امتد إلى الثلاثين من عمره، ولم يبق من شعره في هذه الفترة إلا آثار قليلة، والطور الثاني وهو أخصب فترة في حياته الفنية امتد من الثلاثين إلى الخمسين، وفيه دبج الشاعر أعظم آثاره. وظهرت شخصيته الفنية قوية طاغية، ولا عجب: ففي هذه الفترة ذاق حلاوة الحب ثم تجرع مرارة الهجر، وفيها ارتفع إلى أسمى المناصب ثم انحدر إلى قرارة السجن، وفيها نعم بالأمن والسعادة في ربوع وطنه العزيز ثم شقي بلوعة التشرد والاغتراب، وظهرت هذه الألوان جميعها في فنه فملأت القلوب وبهرت العقول، وفي هذه الفترة صاغ جميع رسائله الباقية بين أيدينا كما صاغ أبدع القصائد والمقطعات. أما الطور الثالث فقد امتد من الخمسين حتى نهاية حياته، وكان فيها شيخاً يراعي في إنتاجه الأدبي المقتضيات السياسية والواجبات الرسمية، وقد اختفت شخصيته خلف أعباء منصبه، وتوارت عاطفته وراء حسن صياغته التي بالغ فيها ليعوض ما ينقص فنه من حرارة الوجدان.

وفي هذا الطور الأخير نلاحظ عليه ظاهرة غريبة هي ظاهرة التكرار فقد نقل من قصيدته في مدح ابن جهور ورثاء أمه عشرين بيتاً إلى قصيدته في مدح المعتمد ورثاء أبيه دون تغيير إلا في بعض الأبيات التي اقتضتها التفرقة بين ضميري المذكر والمؤنث، وتراه في قصائد أخرى يكرر بعض الأبيات مع تغيير قافيتها فقط، وقد أشار إلى هذا ابن بسام بقوله إنه تلاعب في قصيدتي التهنئة والرثاء «تلاعب الحطيئة بنسبه، وتصرُّف تصرُّف أبي حنيفة في مذهبه، فأنث وذكر، وقدم وأخر»، قال أبو العلاء:

رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً
ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ

ولعل عبث الذاكرة أو إيثار الراحة أو العجلة هي التي حدت الشاعر إلى هذا التصرف الغريب، وربما كان يحاول أن يسلب بني جهور خير ما صاغه فيهم بعد أن فترت بينه وبينهم الصلات، ثم يخلعه على بني عباد بعد أن طاب عيشه في ظلالهم، وزكت أحواله في كنفهم، وسعد لديهم بأرقى المناصب، ونال أشهى الأمنيات.

فن الغزل:

يستغرق هذا الفن من ديوان الشاعر الثلث تقريباً سواءٌ أكان غزلاً تقليدياً في مقدمة المدائح أم غزلاً مستقلاً مقصوداً لذاته، وهي نسبةٌ عالية لا نكاد نجد لها مثيلاً عند غيره من الشعراء إلا المنقطعين للغزل وحده مثل عمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر والعباس بن الأحنف، وقد تحدثنا في ترجمة الشاعر عن الحب الذي ألهب عواطفه وأثر في حياته كل التأثير، وشاعرنا ينفس في غزله عن حبه، ويبث فيه عواطفه الحارة، ويطلق لوجدانه العنان، ولو كبت في نفسه هذه العواطف الجياشة لوقع فريسة للمرض أو الجنون، ولهذا كان غزله يعبر تعبيراً صادقاً عن خلجات نفسه وومضات حسه ونفثات غرامه المشبوب، فإذا نعم بلقاء حبيبه صور لنا هذا النعيم:

كم بات يدري لَيْلَةُ الغريبا
لمّا انثنى في سكره قضيبا
تشدو حَمامُ حَلْيِهِ تطريبا
هَصَرْتُهُ حُلْوَ الجَنَى رطيبا
أرشف منه المَبْسَمَ الشنيبا

وإذا شقي بعبثه ودلاله هتف به:

أجِـــــدُّ، ومن أهـواه فـي الحُـبِّ عـــــابثُ
وأوفـي لـه بـالـعـــــهــــــد إذ هـو نـاكـثُ
تَـغَــيَّــرْتَ عن عـــهــدي، ومـــا زلتُ واثـقًــا
بـعــــهـــدكِ، لكن غَـــيَّـــرَتْكَ الحـــوادثُ

وإذا يئس من وفائه وصليَ بغدره صاح به:

يا مــســتــخــفّــاً بعــاشــقــيــه
ومــســتــغــشّــاً لناصــحــيــه
ومَـنْ أطـاعَ الـوُشـــــاةَ فـــــيـنـا
حــــتّـى أطـعـنـا الـسُّلُـوَّ فـــيــــه
الحــــــمــــــد لـلـه إذ أرانـي
تـكـذيـبَ مـــا كـنـتَ تـدّعـــيـــه

وإذا غلبه الحنين عاد إليه ضارعاً مستغفراً:

يـا بـائـعًــــا حـظَّـهُ مـنـي، ولـو بُـذِلَـتْ
لِيَ الحـــيـــاةُ – بـحـظِّي مـنـه – لـم أبعِ
تِهْ أَحْـتَـمِلْ، واسْـتَطِلْ أصـبِـرْ، وَعِـزَّ أَهُنْ
وَوَلِّ أُقْـــبِلْ، وقلْ أســـمع، وُمـــرْ أُطِعِ

ويطالعنا الشاعر أحياناً بنفحات من الغزل العذري فيقول:

لــم أنــسَ إذ بــاتــتْ يــدي لــيــلــةً
وشـــاحَـــه الـلاصِقَ دون الـوِشـــاحْ
أَلْــمَـــــــمْـتُ بـالألـطـف مـنـه، ولـم
أجنحْ إلـى مـــا فـــيــه بعـضُ الجُناحْ

ويقول:

وربٍّ ظـلامِ لـيـلٍ جَـنَّ فـــــــوقـي
فَـثُـبْتِ عن الصّـــبـــاحِ إلـى الصّـــبـــاحِ

فـــهل عَـــدَتِ الـعَـــفـــافَ هناك نفـــسي

- فـــــــديتُـكِ - أو جَـنَـحْـتُ إلـى الجُـنـاحِ

ولكن هذه المعاني العذرية العفيفة لا تعدو خطرات شعرية عابرة، أما معظم غزله فحسي ماديٌ فقد كان ينظر إلى المرأة نظرة الشهوة الحسية لا المتعة الذهنية، استمع لوصفه لإحدى لياليه التي بات فيها كما يقول (يجني أقحوان الثغور ويقطف رمان الصدور) وأصغ لوصفه لليلة أخرى:

زارني بـعــــد هـجــــعـــــةٍ، والـثُّـــــريَا

راحـــــةٌ تَقْـــــدِرُ الظـلامَ بـشـــــبــــــرِ

فــــرشـــــفتُ الرُّضـــــابَ أعــــذبَ رشفٍ

وهـصـــــرتُ الـقـــضـــيبَ ألطفَ هصـــرِ

ونـعــــــمنا بـلفٍّ جــــسمٍ بجــــــسمٍ

للتــــصـــافي، وقـــرعِ ثغــــرٍ بثـــغــــرِ

يـالـهـــــــا لـيـلـةً تجـلّـى دُجـــــاهـا

- من سنا وجنتــيــه - عن ضــوءِ فــجــرِ

قَـــصَّـــــرَ الـوصلُ عُـــمْــــرَها، وبودّي

أن يطولَ الـقـــصـــيـــرُ منهـــا بعــــمـري

وفي أمثال هذه الليالي يقول:

ليـــــالِيَ نامـتْ عـــــيــــونُ الـوشـــــا

ةِ عـّنـا، وعــينُ الـرضـــــــــا لـم تـنـمْ

ومـــــالـتْ علينا غـــــصــــونُ الـهـــوى

فــــــأجـنـتْ ثـمـــــــارَ المنى مـن أَمَـمْ

وأيّـامُـنـا مُـــــــذْهَـبـــــاتُ الـبـــــرودِ

رِقــــاقَ الحَـــــواشي صَـــــوافِي الأَدَمْ

فالشاعر مندفع بفطرته إلى الاستمتاع بالحياة، والإقبال على اللذات، فلا تبدو العفة في ثنايا شعره إلا حين ييأسُ من اللقاء أو يتقي الشبهات، وحينئذٍ يهتف بمثل هذه الأبيات:

لئن فاتني منكِ حظُّ النظرْ
لأكتفينْ بسماع الخبرْ
وإن عرضتْ غفلةٌ للرقيبِ
فحسبي تسليمةٌ تُختصَرْ
أحاذرُ أن تَتَظَنَّى الوشاةُ
وقد يُسْتَدامُ الهوى بالحذرْ
وأصْبِرُ مستيقنًا أنَّه
سَيَحْظَى بنيل المنى من صبرْ

وهناك نوعٌ من الغزل عند شاعرنا نستطيع أن نسميه (غزل المكايدة والعناد) وهو يصوغه حينما يدركه اليأس، ويبلغه انصراف حبيبه عنه إلى خصمه فيصفه بأنه:

أكلُ شهيٌّ أصبنا من أطايبهِ
بعضًا، وبعضًا صفحنا عنه للفارِ

ثم يعلن أنه استجد حباً جديداً أنساه حبه القديم:

عاودتْ ذكر[1] الهوى من بعد نسيانِ
واستحدثَ القلبُ شوقًا بعد سلوانِ
من حبِّ جاريةٍ يبدو بها صنمٌ
من اللُّجين، عليه تاجُ عِقيانِ
لأَسْتَجِدَّنَّ فَي عشقي لها زمنًا
يُنسي سوالفَ أيامي وأزماني
حتى نكونَ لمن أحببتُ خاتمةً
نَسَخْتُ - في حبّها - كُفرًا بإيمانِ

ثم يرسل إلى حبيبه من ينبئه أنه استبدل به خيراً منه وأنه سعيد بهذا التغيير والتبديل:

---

(١) في متن الديوان وردت (ذكرى)، انظر: ص ٢٥٧ «المراجع».

وأُشـــعِـــرْهُ أني انتَـــخَـــبْتُ البـــديلَ
وأعْلِمْـــهُ أني اســـتــــجــــدتُ العِـــوضْ
فـــلا مـــــشـــــربي - لقِــــلاه - أمَــــرُّ
ولا مـــــضـــــجـــــعي - لـنَواه - أقضْ
وأنَّ يـدَ الـبـين مـــــــــــــشـكـورةٌ
لـعــــــــارٍ أمــــــــاطَ وَوَصْـم رَحَـضْ

وإذا كان الحب العنيف يرتكز على بعض الغرائز التي ردها علماء النفس إلى بضع عشرة غريزة فإننا نجد الحب عند شاعرنا يرتكز على هذه الغرائز جميعها فتبدو غريزة الضحك وغريزة المقاتلة في رسالته الهزلية، وتبدو غريزة الخنوع في قوله:

لـم تبق جــارحــةٌ بالهـــجـــر من جـــســـدي
إلا خـلـعتِ علـيــــهـــــا بـالضَّنَى حُلَـلا
فـلـيُـــغْـنِ كـــفُّكِ أني بـعضُ مـن ملـكتْ
ولْيَـكْفِ طـرفَكِ أنـي بـعـضُ من قَــــتَــــلا

وتبدو غريزة السيطرة في حرصه على أن يفرض سلطانه على حبيبته ويصد عنها منافسه فينذره:

أعـد نظرًا فـإن البـغيَ مما لـم يزلْ يصـرعْ
ولا تَكُ منك تلك الدارُ بالمرأى ولا المسـمعْ
فإن قُصارك الدهليزُ حيث سواك في المضجعْ

ولا مجال لتتبع الغرائز جميعها في شعره فقد استقصيناها في كتابنا عنه فليرجع إليه من يشاء.

ومع أن الغرائز هي المنابع الأولى للطاقة البشرية، أو هي منشأ العواطف فإنها لا يمكن أن تستقل وحدها بتكوين عاطفة سامية، فالغرائز تتساند فتكون عاطفة فردية مادية،

فإذا سمت هذه العاطفة تحولت إلى جماعية معنوية، فإذا ازدادت سموأ أصبحت عالمية مثالية، كما تتجلّى في الأنبياء وأعلام المصلحين وعباقرة الفنانين وفي هذا يقول غوته: «عندما يتحرك الحب الإنساني ويسرع الخطا تتفتح بذرة الحب الإلهي».

وعاطفة شاعرنا امتدت من المرحلة الفردية إلى المرحلة الجماعية المعنوية، فكثيراً ما يهتف بوطنه، ويحن إلى قومه، ويناجيهم بعد اغترابه في لوعة وحنين:

يضــيقُ بأنواع الصَّـبـابة مـــذهبي
إلى كُلّ رحب الصَّــدر منكم مُـــهـــذَّبِ
مُــفَــضَّضِ لألاءِ الأســاريرِ مُـــذْهَبِ
يُنافسُ منه البـــدر غُـــرَّةَ كـــوكبٍ
درى أنهــــا أبهى سناءً وأضــــوأ

وكثيراً ما هتف بأيامه ولياليه معهم في لهفة واشتياق:

أيــن أيّـامُـنـا؟ وأيـن لـيــــــــالٍ
كـــرياضٍ لَبِـــسْنَ أفـــوافَ زَهْرِ؟
وزمــــانٌ كـــأنما دبّ فـــيـــه
وَسَنٌ، أو هـفـــا بـه فــــرطُ سُكْرِ؟
حـين تغـــــدو إلى جــــــداولَ زرقٍ
يتـــغلغلن في حــــدائقَ خُـــضْـــرِ
في فُـــتُـــوٍّ توشّـــحـــوا بالمعـــالي
وتردّوا بكل مــــجـــدٍ وفـــخـــرِ
وُضَّحٍ تنجلي الغــــيـــاهبُ منهم
عن وجـــوهٍ - مـــثلَ المصـــابيح - غُـــرّ
وســـجـــايا كـــأنهن كـــؤوسٌ
أو رياضٌ قـــد جـــادها صَـــوْبُ قطرِ

بين الطبيعة والحب:

طبيعة الأندلس ساحرة خلابة، وقد صادفت من شاعرنا إحساساً مشبوباً، وقلباً متفتحاً، وموهبة مواتية، فافتتن بها أي افتتان، وزاد في ولعه بها أنها ارتبطت بذكريات حبيبته أوثق ارتباط، فكم مال معها كما يحدثنا هو:

«إلى روض مدبج، وظل سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودر الطل النثور، وجيب الراح مزرور....» وكم طوى معها أياماً في جنبات القصر وشواطئِ (البنتي) وبساتين وثنيات (العقاب) وقنوات العقيق:

سقى جَنَبَاتِ (القصر) صوبُ الغمائمِ
وغنّى على الأغصان وُرقُ الحمائمِ
بقرطبةَ الغرّاءِ دارِ الأكارمِ
بلادٌ بها عقّ الشبابُ تمائِمي
وأنجبني قومٌ هناك كرامُ
فكم ليَ فيها من مساءٍ وإصباحِ
بكل غزالٍ مشرقِ الوجهِ وضّاحِ
يُقَدِّمُ أفواهَ الكؤوس بتفّاحِ
إذا طلعتْ – في راحه – أنجمُ الراحِ
فإنّا – لإعظام المُدامِ – قيامُ
ويومٍ لدى (البُنْتيِّ) في شاطئِ النهرِ
تُدار علينا الراحُ في فِتْيَةٍ زُهْرِ
وليس لنا فرشٌ سوى يانعِ الزهرِ
يدورُ بها عذبُ اللمى أهيفُ الخَصْرِ
بفيه من الثغر الشنيب نظامُ
ويومٍ بجوفيّ (الرّصافة) مبهجِ
مررنا بروض الأقحوان المدبّجِ
وقابلنا فيه نسيمُ البنفسجِ
ولاح لنا ورد كخدٍّ مضرّجِ
تراه أمام النور وَهْو إمامُ

وأكـــرِمْ بأيام (العُـــقـــابِ) السَّـــوالفِ
ولـهــــــوٍ أثرناه بـتـلـك المعــــــاطفِ
بسُـــودٍ أثيثِ الشَّـــعـــر بيضِ الســـوالفِ
إذا رفـــلـــوا فـــي وَشْـــي تـــلـــك المـطــارفِ
فـلـيـس - عـلـى خلـع الـعِـــذارِ - مــــــلامُ
وكم مــشــهـدٍ عند (الـعَـقـيقِ) وجِـسْـرِهِ
قـــعـــدنا على حُــمْــرِ النبــاتِ وصُــفْــرِهِ
وظبيٍ يُسَـــقِّـــينا سُـــلافــةَ خـــمـــرِهِ
حكى جـسـدي - في الســقم - رقَّـةَ خـصـرِهِ
لـواحـظُـه - عـنـد الـرُنُـوِّ - سِـــــهــــــامُ

وهذه الروح شائعة عامة في ثنايا غزله، وحسبنا أن نشير إلى قصيدته التي كتبها إلى حبيبته من الزهراء واستهلها بقوله:

إنـي ذكـــرتُـكِ بـالـزهـراء مـــشـــتــــاقَـــا
والأفْقُ طلقٌ، ووجـــهُ الروض[1] قـــد راقَـــا
ولـلـنَّـســـيـم اعـــتــــلالٌ في أصـــائـلـهِ
كـــأنما رقَّ لي فـــاعـــتـلّ إشـــفـــاقَـــا
والروضُ - عن مـــائه الـفـضّي - مــبــتــسمٌ
كـــمـــا شـــقـــقتَ - عن اللبّـــات - أطواقَـــا

وقد أعجب نيكلسون بهذه القصيدة الرائعة وضربها مثالاً لتوضيح الشعور العميق بالطبيعة التي يتميز بها الشعر الأندلسي، وهذا الشعور القوي بالطبيعة ممتزجة بالحب العنيف نجد به مشابه قوية عند الشعراء الغربيين، ولهذا قرر بعض المستشرقين أن للأندلس أثراً قوياً في شعر الطبيعة الأوربي، وذكروا أن لابن زيدون تأثيراً واضحاً في شعر الطبيعة الغربي الذي يربط بين الطبيعة والحب عند الموهوبين.

ويكاد شاعرنا ينفرد بين شعراء العربية بأنه مزج حبه للطبيعة بحبه للمرأة ثم بحبه للوطن ثم بحبه لآله وعشيرته، ولهذا نستطيع أن نطلق عليه (شاعر الحب والطبيعة) وهو بهذا اللقب جدير.

(١) وردت في متن الديوان (ومرأى الأرض)، انظر: ص ١٦٣ «المراجع».

فن الإخوانيات:

وهو عند شاعرنا فن أصيل، يكاد يسامي غزله في الرقة والروعة والجلال، وعاطفة الشاعر فيه عميقة جياشة توشك أن تستحيل إلى نسيب، وهذا الفن يهدف عنده إلى أربعة أغراض:

١ - المطارحات:

وهي المراسلات الشعرية بأن يكتب الشاعر أبياتاً أو يرد عليها من قافيتها ووزنها، وتتجلى فيها الرقة والعذوبة فضلاً عن العاطفة القوية التي تذكرنا بحبه العاصف الغلاب وشغفه القوي بالجمال، وبخاصة جمال الطبيعة الخلاب.

ومن أمثلته ما أجَاب به صديقه أبا عامر بن مسلمة من أبيات يرد بها على عتابه لتخلفه عن زيارته:

وهل أنسى لديك نعيمَ عيشٍ ... كَوَشْيِ الخدّ طُرِّزَ بالعذارِ؟
وساعاتٍ يجولُ اللَّهْوُ فيها ... مجالَ الطلِّ في حَدَقِ البَهارِ
وإن يكُ قَرَّ عنك اليوم جسمي ... - فُديتَ - فما لقلبي من قرارِ

٢ - الإهداء والاستهداء:

وهو في هذا النوع يصف الهدية وسجايا المهدي أو المهدى إليه، ومن أمثلته قوله مع هدية عنب اسمه (عذارى) أهداها لجده وكتب معها:

أتاكَ مُحَيِّيًا عني اعتمارًا[1] ... عذارَى دونه ريقُ العذارى
تخالُ الشُّهد منه مُستَمَدّاً ... ونفحُ المسكِ منه مستعارا
ولولا أنني قد نلتُ منه ... - ولم أسكرْ - لخِلْتُ به عُقارا
بعثتُ به، ولو أهديتُ نفسي ... إليكَ لكان من برِّي اقتصارا

(١) في متن الديوان وردت (اعتبارا)، انظر: ص ٢٩٣ «المراجع».

فَـــأَنْعِمْ بالقَــبـــول، فـــربٌ نُعـــمَى
أعَـــدْتَ بهـــا دُجى ليلـي نهـــارا

٣ - مجالس الأنس:

وفيها تدور المطارحات الشعرية على نغمات الأوتار ورشفات العقار، وتغلب فيها الرقة والعذوبة ووصف المتع والنعيم، ومن أمثلتها قوله في مجلس صديقه أبي عامر:

أدرها فـــقـــد حـــسن المجلسُ
وقـــد آنَ أنْ تُـتْـــرَعَ الأكـــؤسُ
ولا بـأس إن كـــان ولّـى الـربيـعُ
إذا لـم تَـجِـــدْ فَـــقْـــدَهُ الأنـفُسُ
فـــإنَّ خـــلالَ أبي عـــامـــرٍ
بـهـــا يـحـــضـــرُ الوردُ والـنَّرجسُ

٤ - المناجاة:

وتكاد تكون عنده ألصق بالنسيب منها بالإخوانيات، ومن أمثلة مناجاته قصيدة خالدة صاغها في مناجاة صديقه أبي القاسم بن رفق، ولا نعرف شيئاً عن هذا الصديق، ونكاد نظنه اسماً مستعاراً يكني به الشاعر عن حبيبته، وهذه القصيدة المسهبة تعد في نظرنا من أروع قصائد المناجاة في الشعر العربي استهلها الشاعر بغزل رقيق وصف فيه حبيبه:

هزَّ منه الصِّـــبـــا فـــقـــوَّمَ شطرا
وتجـــافى - عن الوشـــاحِ - بشطرِ
كُـــسِيَ الحـــسنَ فـهـــو يفتنُ فـيـــه
ســـاحـــبًـــا ذيلَ بُردِهِ المُـــسْـــبَكِرِّ
أبرزَ الجِـــيـــدَ في غـــلائلَ بِيضٍ
وجـــلا الخـــدَّ في مـــجـــاسـدَ حُـمْـــرِ
وتَـثَـنَّتْ بـعـطـفــــه - إذ تَـهَـــادَى -
خـطـرةٌ تمـزجُ الـدَّلالَ بـكِـبْــــرِ

ثم انتقل إلى وصف الدهر وكيف فرق بينه وبين أبي القاسم صديقه الوافي الرقيق:

وَتَرَثْنِي خُطوبُهُ في صَفِيٍّ ... فاضلٍ نابهٍ - من الدهر - وِتْرِ

بانَ عنِّي، وكان روضةَ عيني ... فغدا اليومَ وَهْوَ روضةُ فكري

فَكِهُ يبهجُ الخليلَ بوجهٍ ... تَرِدُ العينُ منه يَنْبُوعَ بِشْرِ

وإذا غازَلَتْهُ مقلةُ طرفٍ ... كاد - من رِقَّةٍ يذوبُ - فيجري

ثم أخذ يناجيه مناجاة تسيل رقة وعذوبة:

يا «أبا القاسم» الذي كان رِدْئي ... وظهيري على الزمانِ وذُخري

هل لحالي زماننا من رجوعٍ؟ ... أم لماضي زماننا من مَكَرٍّ؟

أين أيَّامُنا؟ وأين ليالٍ ... كرياضٍ لَبِسْنَ أفْوافَ زَهْرِ؟

بقية الفنون:

أما بقية فنون الشاعر فهي صورة من الذوق الشائع في عصره، ولا نرى داعياً للحديث عنها، فإنه لا يكاد يمتاز فيها عن غيره من الشعراء، ولكن هناك فناً غريباً ظهر عنده وسماه المطيرات وهو مطارحات شعرية دارت بينه وبين المعتمد بن عباد ثم بينه وبين أبي طالب محمد بن مكي، ولم نضمه إلى فن الإخوانيات لأنه قائم على الألغاز والأحاجي التي تدور حول الطيور، وهو أشبه بالنظم العلمي منه بالفن الشعري، ولهذا مات بموت ابن زيدون.

****

فنونه النثرية

تمهيد:

يشبه نثر ابن زيدون شعره في صياغته وموسيقاه، وقد تنبه القدماء إلى هذا فوصف ابن بسام رسائل الشاعر بأنها «بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور» وقد كان أسلوب الكتّاب السائد في عصره هو الأسلوب المزخرف الموشّى بالصور البيانية والمحسنات البديعية، وهو انعكاس لحالة العصر الحافل بأسباب الترف والنعيم، وقد تجلى هذا في الأدب كما تجلى في فنون العمارة وفي الطرز الزخرفية والفنون التطبيقية Minor Arts، وقد نشأت الكتابة الزخرفية بالمشرق، واستقرت أوضاعها على يدي ابن العميد، ثم انتشرت عن طريقه وطريق تلاميذه بالمشرق، وانتقلت إلى الأندلس فصادفت هوى في النفوس وافتناناً من القراء، ومدرسة ابن العميد تعتمد على الكلام المرصع المصقول المزين بالمقتبسات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار المأثورة والحكم المشهورة والأمثال المضروبة، مع التزام السجع في الأغلب الأعم والشغف بالمحسنات البديعية والصور البيانية، ولقد جرى ابن زيدون على طبيعة عصره ولكن بقدر محدود، فلم يلتزم السجع في جميع ما كتب ولم يبالغ في استعمال المحسنات البديعية، فسلمت آثاره من التكلف البغيض، ولكنه أفرط في الاقتباس من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف، وبالغ في الاستشهاد بالأبيات الشعرية أو شطورها دون إشارة إلى قائليها، ولهج بضرب الأمثال المعروفة والاستئناس بالحكم المأثورة وغالى في سرد الأسماء والأحداث التاريخية مغالاة جاوزت القصد في رسالتيه الهزلية والجدية، وأولع بالجمل المترادفة ولعل هذا راجع إلى وفرة ما وعته ذاكرته من أساليب الكلام.

والكتّاب في الأدب العربي طائفتان متمايزتان أولاهما طبقه الكتاب الباحثين الذين تتسع ثقافاتهم وتدق أفكارهم فيعالجون مشكلات الحياة العامة المحيطة بهم ناقدين وموجهين وقائدين، وهم قليلون وبخاصة في الأدب العربي القديم، ومن أشهرهم الجاحظ

وأبو حيان بالمشرق، وابن حزم بالأندلس، وابن خلدون بالمغرب، ولكل منه أثره الخالد في عصره وما تلاه من عصور، والطائفة الثانية طائفة الكتاب المنشئين الذين تنصرف مواهبهم إلى إتقان وسائل التعبير وصياغة الأساليب اللفظية والمعنوية، وعنايتهم بالصور فوق عنايتهم بالأفكار، وهم كثيرون في الأدب العربي، ولا نستطيع أن نعتبر ابن زيدون من الطائفة الأولى، وإنما نستطيع أن نعده في الرعيل الأول من الطائفة الثانية، وهي طائفة لها جهدها المشكور في التلوين والتصوير.

ولم تبق لدينا من آثار ابن زيدون الكتابية إلا طائفة قليلة من رسائله الأدبية، وسطور من كتابه في تاريخ بني أمية، ومقطوعة وصفية، ونظرة نقدية، أما رسائله السياسية فقد ضاعت جميعها، مع أنه قضى أكثر من عشر سنوات يشغل منصب الكاتب الأول للمعتضد، وصدرت عنه رسائل قوية جابت أنحاء الأندلس ولفتت إليه الأنظار كما يحدثنا ابن بسام، وسنتناول هذه الآثار بالدراسة الموجزة بحسب ترتيبها الزمني.

الرسالة الهزلية:

كتبها ابن زيدون على لسان ولادة إلى ابن عبدوس حينما بلغه أنه أرسل إليها امرأة تستميلها إليه، وقد أوسعه فيها تهكماً وأشبعه سخرية، وخلع عليه ثياباً فضفاضة من الكمال لا يمكن أن تتسق معه لأنه يظهر فيها قزماً ضئيلاً يثير الاستهزاء.

والدارس لهذه الرسالة يرى ابن زيدون متأثراً فيها برسالة «التربيع والتدوير» التي صاغها الجاحظ في السخرية من أحمد بن عبدالوهاب الكاتب البغدادي، كما أن فيها ملامح من رسالة أبي حيان في ثلب الوزيرين، والأغراض التي قصدها ابن زيدون في رسالته محدودة، ولكنه أسهب فيها إسهاباً مملاً في ذكر الأسماء والحوادث التاريخية بمناسبة وغير مناسبة حتى جاوزت السبعين اسماً، خلط فيها مشاهير العرب بالعجم، والقدماء بالمحدثين، والمعروفين بالمجهولين، ونابغي فن بنابغي فن آخر، وبعض هذه الأسماء وهمية وبعضها رمز إليه ولم يذكره، وبعضها مجهول غير محدد، ولم يكتف بهذا بل أكثر في رسالته من الاقتباس والتضمين، حتى كادت شخصيته تختفي وراء ما استجلبه من أساليب غيره وبالغ في استعمال المترادفات مبالغة خرجت عن المألوف.

وأقذع في بعض عباراتها، واندفع في هجومه فمس حبيبته مسّاً عنيفاً بحيث أظهرها في صورة البغي الهلوك دون مبرر لهذا الهجوم، وجنى من وراء هذا انصرافها عنه إلى غيره وضيقها به وهجاءها إياه، وفي بعض عبارات الرسالة غموض مثل قوله: «وفصل بين الاسم والمسمى، وصرف وقسَّم، وعدل وقوَّم، وصنف الأسماء والأفعال» حتى إن ابن نباتة شارح الرسالة لم يعرف المقصود من قوله «وصرف وقسم وعدل وقوم» فلجأ إلى العلماء يستفتيهم ففسروها له تفسيراً فقهياً غير مقنع وبخاصة لوقوعها بين اصطلاحين نحويين.

ولكن الرسالة على الرغم من هذه المآخذ تعتبر في مقدمة الرسائل الخالدة في الأدب العربي، لأن أسلوبها التهكمي مثير للضحك من جوانب عديدة قلّما اجتمعت في رسالة إلا في رسالتي الجاحظ وأبي حيان، وقد عمد ابن زيدون في رسالته إلى طريقة المقابلات وأسلوب المفارقات فعرضه خير عرض وصوره أبدع تصوير، فقد رسم ابن عبدوس قزماً ضئيلاً تافهاً ثم خلع عليه حللاً فضفاضة من حلل الجمال والروعة والبهاء، فتعثر في هذه الثياب، ثم خلعها عنه بغتة، وأظهر عوراته ومعايبه مجسمة، وبالغ فيها مبالغة ساخرة جعلته يبدو في صورة أشبه بما نسميه في عصرنا Caricature فالكاتب يرفعه ثم يخفضه ويقدمه ثم يؤخره، ويدلله ثم يزجره: ولا يتركه إلا بعد ان تخور قواه.

ولقد استطاع الكاتب على الرغم من كثرة اقتباسه وتضمينه أن يوائم بين هذه العبارات المستجلبة مواءمة جعلها تبدو من نسيج واحد متلائم الأطراف متوائم الألوان متلاحم في نسق منضود، حتى يظنها من لا يعرفها أنها جميعها من صياغة الكاتب وحده لما يبدو عليها من اتحاد واتساق.

والرسالة تحمل مع هذا عواطف قوية عنيفة من حب وبغض وغيرة وحقد، وهي بقوتها تثير في السامع والقارئ، عواطف مماثلة تدعو إلى المشاركة الوجدانية وهذا أعظم ما يهدف إليه الكاتب[١].

والرسالة تدل على ثقافة واسعة واطلاع شامل على جميع المعارف والفنون والعلوم الشائعة في عصر المؤلف، وفيها خيال خصب استطاع أن يضم حوادث متفرقة وألواناً

(١) وردت في الأصل (الكتاب)، ولعل الصواب ما اثبتناه «المراجع».

متباينة ويؤلف بينها أبدع تأليف، وقد نجحت الرسالة في بلوغ هدفها المنشود، فإن ابن عبدوس انقطع عن زيارة ولادة عدة سنوات حتى هجر ابن زيدون قرطبة وخلا له الجو فعاد إليها لتجديد ما بينهما من صلات، ومن الغريب أن الشاعر كتبها في حالة شبيهة بالارتجال.

الرسالة الجدية:

كتبها الشاعر في أخريات أيام سجنه مستعطفاً فيها أميره أبا الحزم آملاً أن يثير في نفسه عوامل الحنان، مذكراً إياه بخدماته السابقة في تأسيس ملكه وقصائده السابقة في الإشادة بذكره، وقد أفرغ الكاتب في هذه الرسالة جهده وأودعها أقوى وسائله في التأثير، وشفعها بقصيدة عاطفية ضارعة مؤملاً أن تنفذ إلى قلب الأمير.

ونستطيع أن نأخذ على هذه الرسالة ما أخذناه على الرسالة السابقة من حشد الأسماء والأحداث، والمبالغة في الاقتباس والتضمين وكثرة المترادفات، كما نأخذ عليها أن فيها كثيراً من الإدلال على الأمير بما يشبه المَنَّ عليه، وهو أسلوب غير موفق في مخاطبة الحكام، كما نأخذ عليها أن فيها تهديداً باللجوء إلى خصوم الأمير من ملوك الطوائف المجاورين، كما أن فيها ضرباً خفياً من التأنيب، وإن كان يصوغ هذا كله في أساليب وعبارات رقيقة، والكاتب على تمكنه من دراسة الأحداث التاريخية وقع في بعض الأخطاء مثل قوله «وتأولت في بيعة العقبة» ولم يتأول فيها أحد وقوله «وتخلفت عن الصلاة في بني قريظة» وليس هذا من الذنوب وقوله «وكتبت إلى عمر بن سعد أن جعجع بالحسين» والمكتوب إليه هو الحر بن يزيد التميمي لا عمر بن سعد، على أن للكاتب بعض العذر فقد كتب رسالته في السجن وليس بين يديه مراجع تاريخية فضلاً عن أنه كتبها وهو في حالة نفسية سيئة، ومما نأخذه به أنه كان عليه أن يضرب الأمثال بأولي الحلم والعفو عند المقدرة من عظماء الرجال بدلاً من أن يضربه بكبار المذنبين أو المجرمين.

وعلى الرغم من هذه المآخذ فإننا نرى الرسالة تنبض بعواطف قوية عنيفة تثير كوامن الأشجان، وهي إلى جانب عواطفها القوية تنبض: بالأفكار المنطقية وإن كانت أقيستها

مستمدة من الوجدان، ولقد تنوعت معانيها وتعددت أساليبها بين غيبة وخطاب وضرب أمثال واستشهاد بمأثور، وترجحت بين الضراعة والاعتذار، واليأس والرجاء، والتقرب والتلميح بالابتعاد، في عبارات جزلة منتقاة ومعان نابضة بالحياة، وانتقاله بين هذه الخواطر انتقال طبيعي لا فجوات فيه، بل هو سلسلة مترابطة الحلقات في تناسق واطراد.

وهي – بالنسبة إلى الرسالة الهزلية – أقل استطراداً وأنزر سجعاً وأبعد ما تكون عن الإملال، وهي بهذا أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف، ونلاحظ أن الشاعر استعمل فيها ظلالاً من التلميحات أكسبتها حيوية طبيعية، ففيها تصريح وتلميح، واستكانة ووعيد، وبهذا كانت حافلة بشتى الصور والألوان، وكلتا الرسالتين تعتبر دائرة معارف مصغرة، وتصلح نواة لدراسات متنوعة ولهذا عني بهما الشراح، وأفاضوا في التعليق عليهما، وأشهر من شرح الرسالة الهزلية ابن نباته الشاعر المعروف في كتاب سماه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وأشهر من شرح الرسالة الجدية صلاح الدين الصفدي الكاتب الشاعر المشهور في كتاب سماه تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون.

رسالة استعطاف:

كتبها الشاعر بعد فراره من سجنه، وبعد أن عاد من إشبيلية إلى قرطبة مستخفياً بالزهراء ينشد الأمان ويتخذ له الوسائل والشفاعات، وقد أرسل هذه الرسالة إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد وشفعها بقصيدة ضارعة يصور فيها حالته النفسية، ويتوسل به إليه مستشفعاً به عند الأمير، وهذه الرسالة أقوى رسائله جميعاً من الناحية الفنية.

وهي إلى هذا أطول أثر فني بقي لدينا من نثره مع أنها لم تصل إلينا كاملة، وقد تخلص الكاتب في رسالته هذه من الاستشهاد بالأسماء والأحداث التاريخية وتحلل من قيود السجع إلا في القليل النادر، أما ضربه للأمثال واستشهاده بالأشعار، فهي هنا أحكم وألصق بمواضعها من كل أثر سابق، وفي هذه الرسالة أسلم الكاتب نفسه لعواطفه دون تعمل أو تكلف وصور كل ما ينبض به قلبه أو عقله من مشاعر أو أفكار. والرسالة

على قوتها الفنية لم تنل من عناية الباحثين ما نالته الرسالتان الأوليان لأنهما لفتتا العلماء والشارحين لما تحويانه من معارف وفنون.

وهذه الرسالة تلقي ضوءاً على ما قاساه الشاعر في سجنه من إعنات وتصور لنا ما اتبع في محاكمته من إجراءات شاذة، وفيها منطق قوي غلاب وعاطفة مشبوبة، وهي إلى هذا وثيقة تاريخية قيمة تلقي ضوءاً على النظم القضائية السائدة في عصره، وتعتبر آية من آيات دفاع المرء عن نفسه وتصلح أن تكون فصلاً هاماً من فصول تاريخ المحاماة.

وقد تجلت قوة الشاعر وطاقته الفنية في صياغتها فهو فيها فيسلوف منطقي وعالم فقيه وكاتب موهوب وشاعر عاطفي ومحام مدرب فجاءت رائعة الأداء قوية التأثير، وقد نجحت هذه الرسالة في بلوغ هدفها المنشود، وبخاصة بعد أن تضافرت جهود الشاعر مع جهود ولي العهد في استعطاف الأمير.

بقية الرسائل:

حفظت لنا الذخيرة ثلاث رسائل موجزة صاغها الشاعر في التودد إلى المعتضد بن عباد ومفاوضته في الرحيل إليه من قرطبة، وجه الأولى منها إلى صديقه أبي عامر بن مسلمة وسيطه لدى المعتضد، ووجه الثانية والثالثة إلى المعتضد نفسه، والشاعر في هذه الرسائل يعرض مواهبه على الأمير، ويستدر عطفه ومودته ويسبغ عليه حلل الثناء، في عبارات موجزة قوية السبك جزلة الرصف بعيدة عن التكلف أو الاستطراد وقد نجحت هذه الرسائل في توثيق صلاته بالأمير فعاش في كنفه بقية حياته متمتعاً بأكرم محل وأقوى سلطان.

النثر الوصفي:

بقيت لدينا مقطوعة صاغها الكاتب في تصوير ليلة طواها في صحبة ولادة ذاق فيها أفاويق السعادة والنعيم، ثم أتبعها بتصوير موقف مغاضبة وعناد، ويظهر من سياق الوصف أنه صور موقفين متغايرين أو ليلتين مختلفتين: أولاهما سعيدة حافلة بالمتع واللذات، وثانيتهما حافلة بالغيرة والغضب والملاحاة.

وقد صاغ الكاتب هذه المقطوعة استجابة لهواه الغلاب، فكانت تعبيراتها أقرب إلى الشعر منها إلى النثر، بل إنه كان ينفلت من النثر أحياناً فتتدفق عواطفه منظومة شعراً، والتنغيم الموسيقي شائع فيها جميعاً سواء في عباراتها المنثورة أو أبياتها المنظومة، وقد التزم الكاتب في وصفه الفقرات المسجوعة، وحشد فيها ظلالاً من الاستعارات والتشبيهات، ورصعها بالمحسنات البديعية، ومزج فيها بين وصف الطبيعة ووصف الحبيبة فتجلت في نثره خصائص شعره في النسيب، ويظهر من عباراتها أن الشاعر كتبها في كهولته ليصور فيها ذكريات عزيزة على نفسه، وليسترجع بها صور الشباب، على أننا نأخذ عليه فيها أنه تكلف كثيراً في صياغتها حتى كادت الزخارف اللفظية تطغى على عاطفته المشبوبة وهواه الغلاب.

النثر النقدي:

حفظ لنا المقري نصاً نقدياً لابن زيدون، وكانت ولادة قد حثته على أن يبدي لها ما يجد عليها فيه نقداً، ثم كتبت إليه أبياتاً ختمتها بقولها:

سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلاً

بكلِّ سكوبٍ هاطلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ

فنبهها إلى أن هذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأن القدماء نقدوا ذا الرمة في قوله:

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيٍّ على البِلى

ولا زال منهلاً بجرعائك القَطْرُ

مع أنه قدم الدعاء بالسلامة، وأن المستحسن قول الآخر:

فسقى ديارَكِ - غيرَ مفسدها -

صوبُ الربيع وديمةٌ تهمي

وابن زيدون هنا متبع لا مبتكر، وقد أورد العسكري في كتابه الصناعتين هذا النقد، ولكن الشاعر يود أن يبرز سعة معلوماته أمام حبيبته، وأن يقف منها موقف الأستاذ، وقد أشفق من إغضابها فقدم بين يدي نقده اعتذاراً رقيقاً.

وأبيات ولادة في جملتها لا تحتمل النقد لما فيها من تهافت واختلال.

وإذا أردنا أن نتلمس آراء ابن زيدون في النقد الأدبي فإننا نجد في شعره نظرات نقدية سديدة، فالشعر العذب لا ينبعث إلا عن فطرة خصبة موهوبة بعيدة عن التكلف والافتعال، فخير لمن تعوزه هذه الموهبة أن ينصرف عن الشعر فيريح ويستريح:

ما الشِّعْرُ إلا لمن قريحتُهُ ... غَريضَةُ النَّوْرِ غَضَّةُ الثَّمَرِ
تَبْسِمُ عن كل زاهرٍ أرجٍ ... مثلَ الكِمامِ ابتسمنَ عن زَهَرِ

وخير الشعر عنده ما وضحت معانيه ورقت ألفاظه بحيث يتلقفه الخاطر بلا كد ولا عناء:

هوى إليه طَرَبًا خاطري ... كما تلقَّى الوَصْلَ مهجورُ
تَشِفُّ عن معناه ألفاظُهُ ... كما وَشَى بالرَّاحِ بلّورُ

وينبغي في صياغته أن تكون الألفاظ متجانسة متقاربة تسري فيها روح واحدة وتحمل تنغيماً موسيقياً متجانساً، فلا يختلط فيها القوة بالرقة ولا تصطدم البسطة بالانقباض:

من لفظةٍ قارنتْ نَظيرَتَها ... قِرانَ سُقْمِ الجُفونِ للحَوَرِ

وأعذب الشعر عنده هو السهل الممتنع:

دَلَّهَتْ فِكْرِيَ من إبداعِهِ ... حَيْرَةٌ في منطقٍ له مُخْرِسِ
بتُّ منه بين سهلٍ مُطْمِعٍ ... خادعٍ يُتْلَى بحَزنٍ[1] مؤنسِ

---

(١) وردت في متن الديوان (بجَزْءٍ)، انظر: ص ٢٨١ «المراجع».

ومن سمات الشعر الجيد أنه ينفذ من السمع إلى القلب مباشرة في سياق مطرد منضود:

غُررٌ من بدائعٍ لا يَشُكُّ الدْ
دَهرُ في أنَّها قلائدُ دُرٍّ
تَتَوالى على النفوس دراكًا
عن فتًى موسِرٍ منَ الطَّبْعِ مُثري

النثر التاريخي:

يتجلى شغف الشاعر بالتاريخ في آثاره الشعرية والنثرية، ويحدثنا المقري أنه ألف كتاباً جامعاً في تاريخ بني أمية بالأندلس سماه التبيين، وقد ضاع هذا الكتاب كما ضاعت معظم رسائل الشاعر وطائفة كبيرة من شعره، ولكن بقيت من هذا الكتاب بضعة سطور رواها المقري أثناء حديثه عن عبدالرحمن الداخل. ومن التأمل في هذه السطور نلاحظ أن الشاعر التزم في كتابة تاريخه الإيجاز مع إيضاح ما يحتاج إلى الإيضاح، وأسلوبه سهلٌ واضح دقيق خال من السجع والمحسنات، مع أن معاصره ابن حيان كان يسجع في كتابة التاريخ، وابن زيدون حريص في كتابه على ذكر الصفات الجسمية وتتبع البواعث النفسية ومحاولة تعليلها، مما يجعل لكتابه قيمة عظيمة في نظر المؤرخين.

****

أسلوبه الفني

تمهيد:

يقول بوفون Bufon إن الأسلوب هو الرجل نفسه، وهو تعبير صائب، فلكل منا أسلوبه في حياته الخاصة أو العامة، وفي علاقاته بالمجتمع، ومقابلته لمشكلات الحياة، وطرق تفكيره ومزاجه وانفعالاته... كما أن لكل فنان أسلوبه الذاتي المعبر عن شخصيته القوية ومواهبه الخلاقة، ولهذا كان واجباً على كل ناقد أو دارس أن يتعرف على خصائص الأسلوب المميزة لمن يتناوله من الكتاب أو الشعراء. وسنحاول أن ندرس عناصر الأسلوب عند شاعرنا بإيجاز.

الفكرة: Thought

يستمد شاعرنا أفكاره من موردين هامين: أولهما دراساته الثقافية الأدبية الواسعة لمعارف عصره وما سبقه من عصور، وثانيهما تجاربه العديدة المستمدة من وقائع حياته وأحداث عصره ومن احتك بهم من أعلام الرجال، وأفكاره تبدو في ثنايا نثره أكثر مما تبدو في شعره، وهو أمر طبيعي يتسق مع طبيعة الفنين، وكثيراً ما يستعير شاعرنا أفكاره من أفكار غيره ويبالغ في هذا حتى تزحم أفكاره الخاصة وتطغى عليها، ولكنه يصبغ بصبغته كل ما يستعيره من آراء، حتى يبدو عليها طابعه الخاص، وكثيراً ما يكرر أفكاره ويرددها، ولعله يريد تأكيدها والإقناع بها على طريقة الإيحاء.

وإننا لنلمس أحياناً بعض العمق في أفكاره مثل قوله في فلسفة الصبر:

إذا اَسَفَ الثُّكْلُ اللَّبيبَ فَشَفَّهُ ... رأى أفدحَ الثُّكْلَيْنِ أن يَهْلِكَ الأجرُ

مُصَابُ الذي يأسَى بمَيْتٍ ثوابِهِ ... هُوَ البَرْحُ، لا الميتُ الذي أحرزَ القبرُ

كما نلمس في بعضها الدقة والتصميم مع الوضوح:

من كـــان يجـــهلُ مـــا البليـــدُ فـــإنّهُ
مـن تَطُّبـــيـــهِ - عـنِ الحظوظِ - بلادُ
وفـتى الشّـهـامـة - من إذا أملٌ سـمـا -
نفـــذتْ به شُـــورَى أوِ اســـتـــبـــدادُ

والحقيقة أن تلوين الأفكار - لا جدتها - هو أهم ما برع فيه ابن زيدون، والتلوين ينهض عنده على:

١ - المشاكلة:

مثل قوله:

لقـــد جـــدٌ إخـــلاصٌ وحقٌ تَبَـــتُّلٌ
وبالغَ إخـــلاصٌ، وصَحَّ مَـــتـــابُ

٢ - المقابلة:

مثل قوله:

تعـوّضتُ من شَـدْوِ القِيـانِ خـلالَها
صَـدى فَلَواتٍ قـد أطار الكرى ضَـبْـحَـا
ومن حَـمْلِيَ الكأسَ المفـدّى مُـديرُها
تَقَـحُّمَ أهوالٍ حـملتُ لهـا الرُمْـحَـا

٣ - الاقتران:

سواء كان سببياً أم زمانياً أو مكانياً أم عقلياً، فمن أمثلة الاقتران السببي:

سَـــأُحِبُ أعـــدائي لأنّكِ منهمُ
يا مَنْ يُصِحُ - بمُقْلَتَـيْـهِ - ويُسْـقِمُ

ومن أمثلة الاقتران الزماني:

يا بهـجـةَ الدهر حـيّـاً، وَهْوَ - إن فنيتْ
حـــيـــاتُهُ - زينةُ الآثار والسِّـــيَـــرِ

ومن أمثلة الاقتران المكاني:

ويا ربَّ ملهًى بالعقيق، ومجلسٍ
لدى تُرعةٍ ترنو بأحداقٍ نرجِس

ومن أمثلة الاقتران العقلي:

أرى الدهرَ إن يبطشْ فأنت يمينُهُ
وإن تضحكِ الدنيا فأنت لها ثغرُ
وكم سائلٍ - بالغيب عنك - أجبتُهُ
هناك الأيادي الشُّفْعُ والسُّؤدَدُ الوِتْرُ
هناك التُّقَى والعلمُ والحلمُ والنُّهى
وبذل اللُّهَا والبأسُ والنَّظْمُ والنَّثْرُ

العاطفة: Sentiment

يرى (فرويد) أن الغريزة الجنسية هي المسؤول الأول عن كل ما يصدر عن الإنسان من نشاط أو تصرف، أما (إدلر) فيرى أن غريزة حب السيطرة هي أساس تصرفات الإنسان، ويجمع (يونج) بين النظريتين، وإذا حللنا عاطفة الحب عند ابن زيدون وجدناها ترتكز على جميع الغرائز البشرية في الكائن الإنساني، وبخاصة الغريزة الجنسية وغريزة حب السيطرة، وبهذا كانت عاطفته عميقة قوية جبارة امتدت جذورها في أعماق نفسه، وتفرعت أغصانها فآتت أطيب الثمرات، والحب يزداد قوة وعنفاً إذا حالت الحوائل بين المحبين، وفي هذا يقول هكسلي Huxley: «حيثما وجدت القيود وضيقت على المحب وُجد الحب الحقيقي لأنه قائم على الحرمان، وحيثما كان الوصل خفت حدة الحب». وقد ذاق ابن زيدون مرارة الحرمان فرجع في تغريده أشجى الألحان:

أبديتَ لي - من أفانين القِلى - عِبَرًا
أرْسَلْتَنِي - في أحاديث الهوى - مثلا
لم تُبْقِ جارحةً بالهجر من جسدي
إلا خلعتَ عليها بالضَّنَى[1] حُللا

(١) في متن الديوان (للضّنى) ص ٢٢٨ «المراجع».

فليُغْنِ كفُّك أنيَ بعضُ من ملكتْ
وليَكفِ طرفَك أنّي بعضُ من قتلا
ولتقضِ ما شئتَ من هجرٍ ومن صلةٍ
لا أقضِ ما عشتُ سُلوانًا ولا مللا
إن كان لي أمل إلا رضاك فلا
بُلِّغْتُ - يا أملي - من دهريَ الأملا

وقد ذكرنا في ما سبق أن عاطفة الشاعر كانت تتسع وتسمو فتمتد إلى أصدقائه فيناجيهم مناجاة أقرب إلى الغزل منها إلى المطارحات، ويحن إلى مراتع لهوه ومرابع صباه فيهتف كما يهتف المحب بما يثور في أعماقه من صبابات:

معاهدُ لهوٍ لم تزل في ظلالها
تُدارُ علينا للمجون مُدَامُ
فإن بانَ منّي عهدها، فبلوعةٍ
يُشَبُّ لها بين الضلوع ضِرامُ
تَذكَّرْتُ أيامي بها فتبادرتْ
دموعٌ، كما خانَ الفريدَ نظامُ
وصحبةَ قومٍ كالمصابيح، كلّهمْ
إذا هُزَّ للخَطْبِ الملمِّ حسامُ
إذا طافَ بالراح المديرُ عليهمُ
أطافَ به بيضُ الوجوهِ كِرامُ
مَحَلٌّ غنينا بالتَّصابي خِلالَهُ
فأسْعَدَنا، والحادثاتُ نيامُ
فما لحقتْ تلك الليالي ملامةٌ
ولا ذُمَّ من ذاك الحبيبِ ذِمامُ

الخيال: Imagination

من الخيال ما يكون عاماً منبسطاً يتناول الحياة جميعها، ويظهر في صورة مركبة تفيض بالأضواء والألوان والظلال، وتصور المظاهر الخارجية كما تنفذ إلى البواطن الخفية

والأعماق المستقرة في الأغوار، وقد برع شعراء الإغريق في هذا النوع بما أبدعوه من ملاحم ومسرحيات تدور حول الآلهة والأبطال، أما الشعر الغنائي فلا يتسع لإبراز هذا الخيال المركب، ولهذا كان الأدب العربي فقيراً فيه، ولا نكاد نجد منه إلا ظلالاً في الأدب الشعبي مثل ملاحم عنترة وبني هلال وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة، ولكنها لم تظفر بالتفات الباحثين إلا بقدر يسير. أما الأدب العربي فإننا نجد فيه أمثلة للخيال الابتكاري، ويقوم على اختراع صور طريفة تستمد عناصرها من التجارب السابقة والمشاهد المختزنة والمعارف الشاملة بعد تهذيبها بالإضافة والحذف والتلوين.

كما نجد فيه أمثلة للخيال التأليفي، ويقوم على استدعاء صور حقيقية واقعية ثم الربط بينها بعد تنظيمها وتنسيقها ويشبه عملية التلوين في التصوير.

وهناك نوع ثالث من الخيال يسمى الخيال التفسيري، وهو لا يعنَى بتكوين صور جديدة كالابتكاري، ولا بالتنسيق أو التنظيم كالتأليفي، وإنما هو تعليلي يدرك الجمال ويحاول أن يفسره بالإشارة إلى مواضع الفتنة فيه والجمال، ونستطيع أن نجد عند شاعرنا أنماطاً من هذه الأخيلة على اختلاف في النسب والإبداع:

١ – فمن أمثلة خياله الابتكاري قوله:

كأنَّنا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا
والسَّعدُ قد غضّ من أجفان واشينا
سِرّانِ في خاطر الظَّلْماءِ يكتُمُنا
حتى يكادَ لِسانُ الصُّبْحِ يُفشينا

فقد جعل من الوصل كائناً عاقلاً يسعى في ضمهما كما جعل من السعد حارساً أميناً يطمس أبصار الوشاة وصور للظلماء ضميراً يكنهما في أعماق أسراره، وللصباح لساناً ثرثاراً يفضح الأسرار.

٢ – ومن أمثلة خياله التأليفي قوله في مناجاة قرطبة:

نهارُكِ وضّاحٌ وليلُكِ ضَحْيانُ
وتُرْبُكِ مصبوحٌ، وغُصنُكِ نشوانُ
وأرضكِ تُكْسَى حين جَوُّكِ عُريانُ
وريّاكِ روحٌ للنفوس وريحانُ
وحسب الأماني ظلُّكِ المُتَفَيَّأُ

فقد جمع صوراً متقابلة ألفها خير تأليف، ونسقها أبدع تنسيق.

٣ – ومن أمثلة خياله التفسيري قوله في تعليل نكبته بالسجن على رغم ما يتسم به من عظمة ونبوغ محاولاً تبريرها بما يقع في الحياة من أحداث:

ولا يُغْبِطِ الأعداءَ كونِيَ في السِّجْنِ
فإني رأيتُ الشَّمْسَ تُحْضَنُ بالدَّجْنِ
وما كنتُ إلا الصَّارمَ العَضْبَ في جَفْنِ
أو الليثَ في غابٍ، أو الصقر في وكْنِ
أو العِلْقَ يُخفى في الصِّوارِ ويُخْبَأُ

على أن أقوى ما يمتاز به شاعرنا هو الخيال التأليفي فنراه يؤلف في براعة عجيبة بين الصور الحسية والخواطر المعنوية مثل قوله:

له خُلُقٌ عذبٌ وخَلْقٌ مُحَسَّنٌ
وظرفٌ كعَرْفِ الطيب أو نشوة الخمرِ
يُعَلِّلُ نفسي من حديثٍ تَلَذُّهُ
كمثل المنى والوصل في عُقُبِ الهجرِ

وكثيراً ما يستدعي صور الأزهار والماء والأنداء والألحان والمدام، ثم يؤلف بينها في نسق عجيب:

نحنُ من نَعْمائكمْ في زهرةٍ
جَدّدْت عهدَ الربيع المُقْتَبَلْ

زَهَرَتْ أخـــــلاقُكمْ فـــــابتــــــســـــمتْ
كـــــابتــــــســــــام الـورد عن لـؤلـؤِ طَـلْ

وهو مـاهر في تنسيق الصـور المتقـابلة، اسـتـمع إلى مـوازنتـه بين مظاهر الطبيـعـة الرائعة ومفاتن الغيد الساحرة:

بَـدَتْ فـي لِـدَاتٍ كـــــــزُهْـرِ الـنُّـجــــــومِ
حِـــســـــانِ الـتــــحلِّـي مـــــلاحِ الـعَـطَلْ
مَـــــشَـــــيْـنَ يُـهـــــادينَ زهـر[1] الـرُّبـا
بـيـــانـع روض الـصـــبـــا الـمُـــقْـــتَــبِـلْ
فـــــمـن قُـــــضُـبٍ تَـتَـــــثَـنَّـى بـريـحٍ
ومـن قُـــــضُـبٍ تـتـــــــــثـنَّـى بِـدَلّ
ومـــــن زَهَـــــراتٍ تُــــنَــــدَّى بمـــســــكٍ
ومـــــن زَهَـــــراتٍ تُــــنَــــدَّى بـــطَـــلّ

وكثيراً ما يعمد خياله إلى تجسيم الصور سواء كانت حسية أم معنوية:

لَـبِـــــــسْـنـا لـديـه الأمْـن تَـنْـدَى ظـلالُـهُ
وزهـرةَ عـــــيشٍ مــــثـلمــــا أينعَ الـزَّهْـرُ
وعــــادتْ لنا عــــاداتُ دنيــــا، كـــأنما
بـهــــا وَسَنٌ أو هَزٌّ أعـطافَــــهــــا سُكْرُ

وطالما جسَّم له الوهم ما يشتهي من آمال:

يـدنـو بـوصـلـك حـين شَـطَّ مَـــــــــزارُهُ
وَهْـمٌ أكــــــادُ بـه أقَـــــبِّلُ فـــــاك

وحينما يقاسي مرارة الهجر يهرع إلى خياله الخصب فيستدعي به طيف حبيبته فينعم بوصاله على بعد الديار:

إلـفٌ أَلَذُّ غُـــــرورَ الـوَصْلِ يـصــــفَحُ لـي
عنـه، ويقنعني الـتـــعـليلُ بـالخُـــدَعِ

---
(١) في متن الديوان (يباهين روض)، انظر: ص ٤٧٨ «المراجع».

تجلو المُنَى شَخْصَهُ لي – وهْوَ محتجبٌ
عنّي – فما شئتَ من مرأى ومُستَمَعِ

الموسيقى: Music

يرى (كولردج) أن الوزن ينشأ من توازن في العقل ناشئٍ عن الانفعال القهري والمجهود الاختياري، ومن التوازن بين الحالتين المتعارضتين – حالة التأثر الوجداني وحالة الضبط الإرادي – ينشأ الوزن الشعري، وينبغي أن تجتمع هاتان الطاقتان اجتماع تمازج واتحاد لا اجتماع تقارب أو جوار، وهذا الاتحاد ينتج من نفسه لغة بديعة الصور محركة للذهن مثيرة للوجدان، ويتجلى هذا في الشعر، وإن كانت تبدو منه أحياناً في النثر بعض السمات. ولقد حاول بعض الباحثين أن يربط بين وزن الشعر ونبضات القلب التي تبلغ ٧٦ نبضة في الدقيقة في الإنسان السليم، ويرون صلة وثيقة بين نبضات القلب وما يقوم به الجهاز الصوتي، وقدرته على النطق بعدد من المقاطع يعادل ثلاثة لكل نبضة قلبية، ومن الممكن الربط بين نبضات القلب وحركات الرقص والموسيقى والغناء، وهي فنون وثيقة الصلة بالشعر وكثيراً ما تتساند في المسرحيات وبخاصة في الأوبرات.

وبعد هذه المقدمة وفي ضوئها نحاول أن نتعرف الموسيقى التعبيرية عند ابن زيدون. إننا نعلم من دراستنا لحياته أنه كان مفتونًا بالموسيقى والغناء، وكثيراً ما كان الغناء يستخفه فينسى التقاليد ويغفل عن مقتضيات الذوق في معاملة حبيبته افتناناً منه بغناء جاريتها عتبة، وكان يجيد الإنشاد والترجيع إجادة تامة حتى اتهمه منافسه ابن حصن بأنه يتخذ منهما ستاراً يخدع به السامعين عما في شعره من ضعف وإسفاف ونستطيع أن نخرج من دراستنا لأوزانه الشعرية بالملاحظات الآتية:

١ – شعره التقليدي غير متنوع الأوزان فإن ٧٥٪ من شعره في المديح تستغرقها ثلاثة بحور هي الكامل والمتقارب والطويل، وشعره في الرثاء يكاد يستغرقه بحر الطويل.

٢ – ينهج الشاعر في موسيقاه نهج الموسيقى التقليدية المعروفة عند الشعراء الأقدمين، فإن ٥٠ ٪ من شعره تنتظمها البحور الممتدة: الطويل والبسيط والمتقارب، ويتألف كل منها من ثماني تفعيلات.

٣ - نظم الشاعر أغراضه في ١٧ وزناً ما بين كاملة ومجزوءة يستغرق البحر الطويل وحده ثلثها، وهي نسبة تقارب نسبته عند الشعراء الأقدمين.

٤ - شعره العاطفي يناهز ٦٠ ٪ من شعره، أما الشعر الذي تشيع الفكرة فيه كالمدائح أو المطيرات فيستغرق ما بقي من قصائده.

٥ - ينوع الشاعر في أوزانه العاطفية تنويعاً كبيراً، فالغزل يستغرق ١٤ وزناً من أوزانه السبعة عشر، والإخوانيات - وهي قريبة عنده من فن الغزل - تستغرق ١٣ وزناً، وهذا يدل على خصب عاطفته وتعدد مساربها ووفرة تياراتها، فكلما برزت عاطفته في صورة أعطاها الشاعر الموسيقى الملائمة لها، فهي تارة ثائرة، وتارة هادئة، وقد ترد موجزة، وقد ترد مسهبة، وربما كانت مرحة راقصة، وربما كانت قاتمة مجللة بالسواد.

هذا من حيث الأوزان، أما من حيث ترتيب الألفاظ وتنسيق الجمل بحيث تنتظمها روح موسيقية واحدة فإن شاعرنا كان حريصاً عليها كل الحرص، وقد استخدم لتنسيقها فنون الترصيع والطباق فأمدته بأعذب الألحان، ولهذا كان يقسم عباراته في البيت الواحد إلى جمل متموجة تكاد كل موجة منها تعادل زميلتها وتلائمها كل الملاءمة. وقد بلغ التنغيم الموسيقي عند كل منها أوجه في الشعر العربي، فأرقص القلوب وشنف الآذان، استمع إلى قول شاعرنا:

يا قاطعاً حَبْلَ وُدّي
وواصلاً حَبْلَ صَدّي
لو كان عندكَ منّي
مِثْلَ الذي منك عندي
لَبِتَّ بعديَ مِثْلي
وبِتُّ مِثْلَكَ بعدي

وكان يهتم بالقافية اهتماماً كبيراً فيمهد لها بلباقة حتى يتوقعها السامع قبل يلفظها الشاعر:

قل لمن دان بهجري
وهواه لِيَ دينُ

يـا جـــــــــوادًا بِــيَ، إنّـي
بـــك والـــلـــه ضـــنـــينُ
عَـــجَـــبًـــا للقلب يقـــســـو
مـــنـــك والـــقـــدّ يـــلـــينُ

الصورة Form:

يرى بعض النقاد أن مقياس الصورة الأدبية هو أن تستطيع – في دقة وأمانة نقل العواطف والأفكار، ولكننا إذا اكتفينا في الأسلوب العلمي بالدقة والأمانة فإننا لا نستطيع أن نكتفي بهما في الأسلوب الأدبي، بل نضيف إليهما جمال التصوير وتعدد الألوان وعذوبة التنغيم، وكان شاعرنا بارعاً في تلوين صوره وأنغامه وفقاً للتجارب الداخلية والظروف الخارجية التي تدفعه للتعبير، فنراه يلجأ إلى الروعة والفخامة والأوزان الممتدة والقوافي الجزلة في المواطن الجدية، استمع إلى شكواه ما يقاسيه من إهمال:

ألا هل أتى الفـــتـــيـــانَ أن فـــتـــاهُمُ
فـــريســـةُ من يعـــدو، ونُهْـــزَةُ منْ يسطو؟
وأنّ الجَـــوادَ الفـــائتَ الشّـــأو صـــافنٌ
تَـخَـــــــوّنَـهُ شَـكْـلٌ وأزرى بـه ربـطُ
وأنّ الحـــســـامَ العَـــضْبَ ثاوٍ بجـــفنهِ
ومـــا ذُمَّ من غَـــرْبَيْـــهِ قـــدٌّ ولا قطُّ

أما في مواطن اللهو والطرب والمناجاة فتراه يطلق نفسه على سجيتها مختاراً البحور القصيرة والقوافي السهلة والتعبير الرشيق:

مـــــتى أبـثُّـكَ مـــــا بـي؟
يـاراحـــــتي وعـــــذابي
مـــــتى يـنوبُ لـســـــاني
– في شَـــرْحِـــهِ – عن كـــتـــابي؟
مـــــا الـبـــدرُ – شَـفٌ سناه
على رقـــيـــق الـسّـــحـــابِ –
إلا كَـــوَجْـــهِـكَ لـمّـــا
أضـــــاءَ تحت الـنّـقـــابِ

وصياغة الشاعر تعتمد أحياناً على المحسنات البديعية في غير تكلف ولا استكراه، وهو مشغوف بالمطابقة، وقد يتبسط فيمدها إلى المقابلة مثل قوله:

مــــاذا يَريبُكَ من فــتًى، عَــزَّ الـهَــوَى
فَـــعَنا لـنخـــوتِهِ بذلَّةِ خـــاضِعِ؟
هل غَــيْـرَ أنْ مَــحَضَ الوفــاءَ لغــادرٍ؟
أو غـــيـرَ أنْ صــدقَ الـوِصــالِ لقــاطِعِ؟

ومما يلهج به كثيراً مراعاة النظير:

ودون المنى فــيــهم: جــيــادٌ صــوافنٌ
ومــأثورةٌ بيض، وسُــمــرٌ عَــواسِلُ(١)
نَضَــدْتَ رياحينَ الطَّلاقــةِ غَــضَّــةً
ورقــرقتَ مــاءَ البِــرِّ وهْوَ سُــلاسِلُ
مــســاعٍ هي العِــقْــدُ انتظامَ مــحــاسنٍ
تحلّى بهــا جــيــدٌ من الدهر عــاطلُ

ويستهويه الجناس أحياناً سواء كان تاماً أو ناقصاً:

فــهــمتُ مــعنى الـهَــوَى من وحْيِ طَرفكِ لي
إن الحــوار لمفــهــومٌ من الحَــوَرِ
والصَّــدْرُ مــذ وردتْ رِفْــهًــا نواحــيَــهُ
تـومُ القَــلائد لـم تَـجْـنَـحْ إلى صَــدَرِ
واهـاً لـثــغــركِ ثَـغْــرًا بات يكلـؤُهُ
غـــيــرانُ تسري عــواليــهِ إلى الثُّــغَــرِ

****

(١) في متن الديوان (عواملُ) ص ٤٥٣ «المراجع».

منزلته الأدبية

على الرغم من شهرة ابن زيدون وافتتان الناس به فإنه لم ينل مكانه الجدير به، وإذا كان (لامرتين) يعرّف الشعر بإنه إحلال كل ما في نفس الإنسان وقلبه من مشاعر خاصة، وكل ما في عقله من تفكير مقدس في الطبيعة، ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصوير والتوقيع، فإننا بتطبيق هذا التعريف على ابن زيدون نجده قد بلغ القمة أو هو منها على مدى قريب، فقد امتزج هواه الغلاب بذكريات طفولته العذاب وتدفقا في تيار شعوره القوي بالطبيعة وهيامه بها هياماً فاق كل تقدير، فعاطفة الحب تجيش في نفسه ممتزجة بنبضات الطبيعة المتعددة الصور والألوان، وحسبنا هنا أن ننقل بعض أبياته في الزهراء لنرى مدى شعوره بالطبيعة ومشاطرتها ما يجيش بصدره من مشاعر وأشجان:

إنِّي ذكرتُكِ بالزهراء مُشتاقَا
والأفْقُ طلقٌ، ووجهُ الرَّوض[1] قد راقا

وللنَّسيم اعتلالٌ - في أصائله -
كأنما[2] رقّ لي فاعتلَّ إشفاقا

والرَّوْضُ - عن مائه الفضيّ - مبتسمٌ
كما شَقَقْتَ عن اللبّات - أطواقا

يومٌ كأيّام لذاتٍ لنا انصرمتْ
بتنا - لها حين نامَ الدهرُ - سُرّاقا

نلهو بما يستميل العين من زهرٍ
جالَ النَّدَى فيه حتى مالَ أعناقا

كأن أعيُنه - إذ عايَنَتْ أرقي -
بكتْ لِمَا بي، فجال الدمعُ رقراقا

وردٌ تألق - في ضاحي منابته -
فازدادَ منه الضُّحَى في العين إشراقا

---

(١) في متن الديوان (ومراى الأرض) ص ١٦٣ .

(٢) في متن الديوان (كأنّه). ص ١٦٣ مع ملاحظة اختلاف في ترتيب بعض الأبيات.

سَـــرَى يُنافِـــحُـــهُ نَيلوفـــرٌ عَـــبِقٌ
وَسْنانُ نَبَّـــهَ منه الصُّـــبْحُ أحْـــداقـــا
كلٌّ يُهـــــيجُ لنا ذِكْـــرَى تَشَـــوُّقِنا
إليكِ، لم يَعْـدُ عنهـا الصَّـدْرُ أنْ ضـاقـا
لا سكّنَ اللـهُ قلبًـــا عَنّ ذكـــركُمُ
فلم يَطِرْ بجناحِ الشَّـوْقِ خَـفّـاقـا

والأبيات لا تحتاج منا إلى تعليق.

وشاعرنا لا يكاد ينسى الطبيعة حتى في سجنه فإنه يمزج شكاته بترنيمات يرفعها للطبيعة ممزوجة بذكريات يرتلها عن حبيبته، فالقمر يتسلل إلى غرفته بالسجن فيثير فيه كوامن الذكريات، والليل الساجي يبعث فيه أشجى الأنات. فيكاد يمزج سواده بسواد القلب والبصر لو أسعفته الأمنيات.

استمع إلى قصيدته في شكواه من سجنه إلى أميره أبي الحزم فقد استهلها بقوله:

مـا جـال بَعْـدكِ لحظي في سَنا القَـمَـرِ
إلاَّ ذكـــرتُـكِ ذِكْـــرَ العين بالأثرِ
ولا اسْـتَطَلْتُ ذَمـــاءَ الليل من أسفٍ
إلا على ليلةٍ سَـرَّتْ معَ القِـصَـرِ
في نشـوةٍ من سِنات الوصلِ موهمةٍ
ألاَّ مســافـةَ بين الوَهْنِ والسَّـحَـرِ
نـاهيكِ من سَـهَـرٍ بَرْحٍ تـألَّفَـهُ
شـوقٌ إلى مـا انقضى من ذلك السَّـمَـرِ
فليتَ ذاك السَّـوادَ الجَـوْنَ مُـتَّـصِلٌ
لوِ استـعـاد[1] سـوادَ القلب والبَـصَـرِ

ولا نكاد نجد في الشعر العربي مثيلاً لابن زيدون في هذا الاتجاه، بل إن الشعر الغربي لم يعرفه إلا في العصور الحديثة، وقد تنبه إلى هذا أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة حيث قرر أن الاتجاه العاطفي الرمزي المتعلق بالطبيعة والذي اتجه إليه الأدب

(١) في متن الديوان (استعار) ص ٣٣٨ «المراجع».

الأوربي في القرن التاسع عشر كان معروفاً لدى العرب من يوم أن عرفوا الشعر، وبخاصة لما شاهدوه رائعاً جميلاً في الأندلس واستشهد على هذا بقصيدة ابن زيدون في الزهراء، ثم بمقطوعته البائية التي مطلعها:

متى أبثّك ما بي؟

يا راحتي وعذابي

ثم حلل هذين الأثرين وعقب عليهما بقوله: «هذه الرمزية أو هذا التمثل في الطبيعة هو ما يريده النقد الأدبي، وهو بعينه ما فهمه العرب من زمن بعيد، وهو ما كان واضح الأثر جلياً في طبيعة الأندلس الواضحة». ومن الغريب أن القدماء على إعجابهم بابن زيدون فضلوا عليه ابن هانئ حيث جعلوه أشعر الأندلسيين. ولا وجه للموازنه بين الشاعرين، وقد آن لنا أن نصحح هذه الأحكام في ضوء موازين النقد الحديث. على أن بعض القدماء افتتنوا بنونية ابن زيدون فقرروا أن «من لبس البياض، وتختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وروى قصيدة ابن زيدون، فقد استكمل الظَّرف». وقد حاكوا حولها الأساطير فزعموا أنه ما حفظها أحد إلا مات غريباً، وحاول كثيرون وما زالوا يحاولون معارضتها فيقصرون سواء منهم من عاصره، أو من تلاه، ومن أشهر معارضيه أبوبكر بن الملح وصفي الدين الحلي وابن الوكيل وابن حبيس، وقد عارضه في العصر الحديث إسماعيل صبري وشوقي وحافظ، وسيظل مصدر وحي لكثيرين.

أما الباحثون الغربيون فقد أشادوا بعبقرية ابن زيدون ووضعوه في مكانه الرفيع.

١ - فيقرر (كور) أن أسلوب ابن زيدون النقي المنهجي استحق أن يكون المثل الأعلى لمن تلاه من الشعراء.

٢ - يرى (نيكل) أن ابن زيدون: «كان ممثلاً لأنقى أسلوب عربي منهجي في الأندلس، وأنه يمكن موازنته بالبحتري أو المتنبي» ثم يقرر أنه «لولا تأثير ولادة على ابن زيدون لفقد الشعر العربي أعظم جواهره الثمينة».

٣ - ويذكر (جب) أنه: «يعتبر على الأرجح أعظم شعراء الأندلس بأغاني حبه المبكر وبرسائله الشعرية في أخريات حياته».

٤ - ويقول (غومس): «إنه أعظم شاعر قديم وحديث أنجبته الأندلس».

٥ - ويقرر (ليفي بروفنسال) إنه: «يعد بحق أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسي الثاني، والمتغني بالحب الذي لا يعدله أحد، وقد أوحى إليه اتصاله بولادة أشعاراً رائعة الجمال متميزة في أكثر الأحيان بخلوها من البريق الصاخب الذي تميز به شعر من سبقه من الشعراء، وشعره إلى ذلك ذو نزعة إنسانية يكاد يشبه شعر الغربيين».

٦ - ويذكر الدكتور (فيليب حتي) أن بعض الدارسين: «يعد ابن زيدون أعظم شعراء الأندلس على الإطلاق».

وقد أولع كثير من المستشرقين بموازنته ببعض شعرائهم الغربيين من قدماء ومحدثين مثل (أوفيد) و(تيبولاس) و(بترارك)، وعقدوا لذلك فصولاً مسهبات.

كما شغف كثيرون منهم بترجمة آثاره فقد نشر (ريسك) الرسالة الهزلية مع ترجمتها إلى اللاتينية في ليبسك سنة ١٧٥٥م، وترجمت هذه الرسالة أيضاً إلى التركية مع شرح ابن نباتة لها.

ونشر (بستورن) الرسالة الجدية مع ترجمة لاتينية لها في كوبنهاجن سنة ١٨٨٩م، وترجم طائفة من شعره كل من (نيكل) و(كور) و(هنري بيرز).

أما أثر ابن زيدون في من تلاه من الأدباء فقد تحدثنا عمّن عارضه من الشعراء، ونذكر هنا أن كثيرين من الكتاب تأثروا به، ومن أشهرهم محيي الدين ابن عبدالظاهر، فقد قلده في رسالته الجدية برسالة وجهها إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور في شخصٍ تنقصه. وأتبعها بقصيدة جارى فيها قصيدة ابن زيدون يقول في مستهلها:

العلا في ارتشاف دَرِّ العلوم
والحُلَى في انتساخِ دُرِّ الحلوم

وقد عارض الصفدي ابنَ زيدون وقلده في الاستشهاد بالأعلام والأحداث في ترجمته لأستاذه محمد بن يوسف بن علي أبي حيان في كتابه المخطوط (أعيان العصر).

وكما أولع القدماء بمحاكاة ابن زيدون في شعره ونثره أولعوا بشرح رسالتيه الجدية والهزلية.

(أ) فمن شراح الرسالة الجدية:

١ - صلاح الصفدي في كتابه تمام المتون.

٢ - عبدالقادر البغدادي في كتابه مختصر تمام المتون (اختصر الشرح السابق وعلق عليه).

٣ - الشيخ حمزه فتح الله في كتابه المواهب الفتحية.

٤ - الشيخ مصطفى عناني في كتابه إظهار المكنون.

٥ - أبوبكر محمد عليم في كتاب الدر المخزون.

(ب) ومن شراح الرسالة الهزلية:

١ - جمال الدين بن نباته المصري في كتابه (سرح العيون).

٢ - محمد بن البنا المصري في كتابه (العيون).

٣ - نصر الهوريني في كتابه (مسودة التحريرات النصرية).

وحيه للقصاص المعاصرين:

وكما شغل برسالتيه الشراح والمعقبون شغل بأحداث حياته وروعة آثاره كتاب القصة المحدثون، ولا نكاد نجد شاعراً عربياً قد ظفر بالإيحاء إلى طائفة من القصاص كما ظفر ابن زيدون، وقد تنوعت القصص فيه ما بين سرد تحليلي أو حوار مسرحي، وما بين انسياب نثري أو نظم شعري، وأهم ما عرفناه من ذلك مرتباً بحسب تاريخ ظهوره:

١ - الوزير ابن زيدون مع ولادة: مسرحية من ستة فصول للأستاذ إبراهيم الأحدب الطرابلسي.

٢ - غرام الشعراء: فصل مسرحي شعري للشاعر أحمد رامي.

٣ - ولادة وابن زيدون: لمؤلف عراقي حدثنا عنه إخواننا العراقيون.

٤ - ولادة: مسرحية شعرية من أربعة فصول وستة مناظر للأستاذ علي عبدالعظيم.

٥ - هاتف من الأندلس: رواية نثرية تحليلية للأستاذ علي الجارم.

٦ - غراميات ولادة: مسرحية شعرية من ثلاثة فصول للشاعر الأردني حسين سراج باشا.

وستظل حياة ابن زيدون وآثاره وحيًا خالداً للقصاص والكتاب والشعراء مادام لسانٌ يلهج وقلبٌ يخفق بالحب وفكر ينبض بالحياة.

****

الديوان

فرغنا من الحديث عن عصر الشاعر ومن ترجمتنا المسهبة لحياته ودراستنا النقدية لآثاره، والآن حان لنا أن نعرض آثاره بعد أن نطمئن إلى أصالتها كل الاطمئنان، أما الديوان فليس لدينا ما يثبت أن الشاعر جمعه بنفسه، أو أن أحداً جمعه في عصره وإن كان (أوغست كور) يذكر أن معاصري الشاعر جمعوا ديوانه وبخاصة ابن حيان، ولكنه لم يذكر لنا المصدر الذي استقى منه هذا الخبر، مما يجعله محلاً للارتياب، وبخاصة إذا علمنا أن أبا العطاف بن حيي – وكان مولعاً بجمع الشعر – سأل ابن زيدون أن يُطلعَهُ على نبذة من شعره فمطله حتى توسل إليه بالمعتمد بن عباد، ولم نجد في المراجع التي عنيت بتسجيل الكتب أي إشارة إلى الديوان، وأول خبر يصلنا عن ديوان الشاعر ما ذكره ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨هـ من أنه وقف على ديوان شعري لابن زيدون وعلى كثير من ترسله.

وقد اعتمدنا في نشر ديوان الشاعر على أربع نسخ خطية هي:

١ – النسخة رقم (٤٩٦ أدب) بدار الكتب المصرية وتقع في ١٧٩ صفحة، وهي مجهولة الزمن والكاتب ولكن يبدو للدارس أنها أقدم النسخ الخطية الأربعة وأدقها، ونرجح أنها مصدرها وقد رمزنا إليها بحرف (أ).

٢ – النسخة رقم (٥٥٥ أدب) بدار الكتب المصرية كتبها عبدالرحمن ابن عبدالله الحسيني البغدادي سنة ١٢٨٨هـ في ١٥٣ صفحة، وليست لقصائدها عناوين تدل على الموضوعات أو الأعلام، بل تركها الناسخ على بياض وقد رمزنا إليها بحرف (ب).

٣ – النسخة رقم (٧٦ شعر تيمور) بالمكتبة التيمورية وهي أجود النسخ خطاً وأحسنها تنسيقاً مكتوبة سنة ١٣٠٨هـ وكاتبها مجهول وقد رمزنا إليها بحرف (ت).

٤ – النسخة رقم (٤٤٣ أدب) بمكتبة الأزهر، بخط محمد عبدالله الزمراني، وهي مجهولة التاريخ، وقد رمزنا إليها بحرف (ز) وتكاد تكون صورة طبق الأصل من النسخة (ب).

والنسخ جميعها متشابهة في الترتيب وتسقط منها جميعاً بعض الأبيات أو العبارات، مما يرجح أنها من مصدر واحد، أو أنها اعتمدت على النسخة الأولى مع محاولة بعض التحقيق في الأخريات.

وقد طبع الديوان مرتين أولاهما بالقاهرة بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٣٢م شرح وتحقيق الأديبين كامل كيلاني وعبدالرحمن خليفة، وقد علمنا من أولهما أنهما اعتمدا على نسختي دار الكتب الخطيتين أ، ب وقد بذل الناشران جهداً مشكوراً في تحقيق النصوص وتصحيح التحريفات، واجتهدا في ملء بعض العبارات المتروكة، وشرحا كثيراً من مفرداتها اللغوية، وأضافا إلى الديوان رسائل الشاعر وتعليقات عديدة من الكتاب القدماء والمحدثين، كما أضافا إليها شعر المعتضد بن عباد وابنه المعتمد وابن عمار وبعض معارضات الشعراء لابن زيدون، وقد انتفعنا ببعض ما بذلاه من جهد مشكور.

ولكننا نأخذ على هذه الطبعة:

١ - أنها غير مرتبة على نسق معلوم، فلا هي اتبعت النسخ الخطية ولا ترتيب القوافي كما كان السابقون يفعلون.

٢ - استطرد الناشران في الشرح لمناسبة ولغير مناسبة، مما خرج عن القصد إلى حد الإسراف.

٣ - أخطأهما التوفيق في بعض التصحيحات أو الشروح على الرغم مما بذلاه من جهد مشكور.

٤ - خلط الناشران بين الأسماء خلطاً عجيباً، مثل أبي الحزم بن جهور وأبي الوليد بن جهور والمعتضد والمعتمد، وأبهما بعض الأسماء مثل الوزير أبي عامر، وأبي حفص بن برد (يطلق هذا الاسم على شاعرين هما الجد والحفيد).

٥ - نسبا إلى الشاعر ما ليس له، وإن كانا قد استدركا فصححا بعض الأخطاء، ولكن في مكان غير ظاهر مما ضلل ناشر نسخة بيروت.

٦ - أغفلا بعض قصائد الديوان وبعض أبيات من قصائده.

٧ – أهملا ما عدا الديوان من مصادر لها قيمتها من الأصالة والتقدير.

٨ – لم يشيرا إلى مختلف الروايات الواردة في نسخ الديوان والمصادر القديمة.

أما الطبعة الثانية فقد قام عليها الأديب كرم البستاني وطبعها بمطبعة المناهل ببيروت سنة ١٩٥١، وقد تابع الطبعة الأولى في التصحيف والتحريف والزيادة والنقصان، ثم زاد عليها بأن بتر جزءاً من الديوان هو فن المطيرات، وهو خطأ لا يقره البحث العلمي على أي حال.

وقد اعتمدنا على النسخ الخطية الأربع، وعارضناها بما حفظته لنا الذخيرة، وقلائد العقيان والمعجب والمغرب وخريدة القصر من قصائد للشاعر أو مقطعات.

ثم أضفنا ما هدانا إليه البحث من شعر الشاعر في بطون الكتب المعتمدة وأمهات المصادر الأدبية مثل: الكوكب الثاقب، وتمام المتون، وسرح العيون، ونزهة الجلساء، ونفح الطيب، وغيرها من الأسفار.

ووضعنا لكثير من القصائد مقدمات تفسر الجو الذي قيلت فيه: وشرحنا ما يحتاج إلى الشرح من مفردات أو أبيات شرحاً موجزاً آثرنا فيه القصد وعدم الاستطراد، وقد راعينا في ترتيبها موضوعات الفنون مع ملاحظة الترتيب الزمني بقدر الإمكان، وإن كان التحديد الدقيق غير ميسور لأن الشاعر كثيراً ما يدخل فناً في غيره من الفنون، فإننا نجد في مدائحه وصفاً وشكوى ونسيباً، وكثير من آثاره غير معروف زمنه، ولكنا اعتمدنا مع هذا ترتيب النسخ المخطوطة غالباً بعد تقسيمها وتنظيمها بحسب منهجنا المرسوم، لأن هذه النسخ المخطوطة تراعي الترتيب الزمني في الأغلب الأعم، وقد نخالفها أحياناً لاقتناعنا بالترتيب الزمني بعد البحث والتنقيب.

وقد بذلنا جهداً مضنياً نرجو أن نكون قاربنا فيه التمام.

****

الرسائل

أما آثار الشاعر النثرية فقد اعتمدنا فيها على المصادر الآتية:

الرسالة الهزلية:

١ – سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: لجمال الدين بن نباتة المصري، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة.

٢ – نهاية الأرب للنويري الجزء السابع، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ .

٣ – مسودة التحريرات النصرية للأديب نصر الهوريني، نسخة مخطوطة رقم ٨٨٤٥ أدب بدار الكتب المصرية.

الرسالة الجدية:

١ – الذخيرة لابن بسام الجزء الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٣٩ .

٢ – تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون نسخة مخطوطة رقم ٢٤٨ أدب بدار الكتب.

٣ – نهاية الأرب للنويري الجزء السابع، دار الكتب المصربة سنة ١٩٢٩ .

بقية الرسائل:

١ – مصدرها الوحيد هو الجزء الأول من الذخيرة لابن بسام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ .

نثره التاريخي:

اعتمدنا في ما بقي لدينا منه على نفح الطيب للمقري، طبع ليدن سنة ١٨٥٥ – سنة ١٨٦١م .

نثره النقدي:

اعتمدنا فيه على المصدر السابق، وعلى نزهة الجلساء للسيوطي، مخطوط رقم ١٣٨ تيمور بدار الكتب المصرية.

نثره الوصفي:

اعتمدنا فيه على الجزء الأول من الذخيرة، وعلى تحفة العروس للتيجاني، المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٠١هـ.

وقد أغفلنا ذكر المصادر في دراستنا الأدبية لعصر الشاعر وحياته وفنه، لأن من الميسور الرجوع إليها في كتابنا، (ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه) طبع مطبعة (الرسالة) ونشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

وإننا لنشكر للأستاذ عمر الدسوقي أستاذ الأدب العربي بكلية دار العلوم أن هيأ لنا نشر الديوان كما هيأ لنا نشر بحثنا عن ابن زيدون.

ولعلنا بنشر هذه الآثار الخالدة نشراً علمياً نكون قد أَدَّينَا خدمة للأدب العربي بعامة، وللأدب الأندلسي بخاصة، وأن نكون قاربنا في ما ننشده السداد؟.

القاهرة في رمضان سنة ١٣٧٤هـ.

مايو سنة ١٩٥٥م.

علي عبدالعظيم

مدير إدارة المخطوطات

بدار الكتب المصرية

****

الديـــوان

١ – نشوة القرب

النسيب

«عرف شاعرنا فنون الحب، وآثارها في القلب، فأحس نشوة اللقاء، كما ذاق مرارة الجفاء، وسعد بالوصال، كما شقي بالدلال، وتفتحت نفسه للطبيعة وروعتها، كما انتشت بالصداقة وعذوبتها، وتراوحت حياته بين الإقبال والإدبار، والسمو والانحدار، والتجني والملال، وقرب الديار، وشحط المزار، وحنين الذكريات، وبريق الأمنيات، فرتل هذا كله أنغامًا خالدات، استطعنا أن نردها إلى سبعة ألحان، وأن ننسقها في سبعة ألوان، وما أشبه القلب الإنساني في إبداعه، بالطيف الشمسي في إشعاعه».

بلوغ الأمل[1]

سعد الشاعر بلقاء حبيبته، وضَمَّا إلى نشوة اللقاء، نشوة الغناء، فترنمت عتبة وصيفة ولادة بهذين البيتين:

أحـــــبَّـــــتَـنـا: إنِّـي بلـغتُ مُـــــؤمَّـلي
وســـاعـــدني دهري وواصلني حِـــبِّي[2]
وجـــاء يُهنِّيني البــــشـــيـــرُ بقُـــربهِ
فـــأعطيــــتُـــهُ نفـــسي، وزِدتُ له قلبي

****

(١) المرجح أن البيتين من نظم الشاعر صاغهما لتشدو بهما عتبة وصيفة ولادة في خلسات اللقاء وقد أثبتاهما عن الذخيرة.

(٢) الحب بكسر الحاء: الحبيب.

ليلة وصال[1]

....

هَزَّ منه الصِّبا فقَوَّمَ شَطْرًا
وتجافى - عن الوِشاحِ - بشطرِ[2]

رَشَأٌ[3] أقصد الجوانحَ قصْدًا
عن جفون كُحلن - عمدًا - بسِحْر

كُسِيَ الحُسنَ فهْو يفْتَنُّ فيه
ساحبًا ذيلَ بُرده الْمُسْبكرِّ[4]

تحت ظِلٍّ - من الغَرارة - فَيْنَا
نَ، ورَوْقٍ[5] منَ الشَّبيبةِ نَضْر

أبْرَزَ الجيدَ[6] في غلائلَ بيضٍ
وجَلاَ الخَدَّ في مَجاسِدَ حُمْر

وتثنَّتْ بعِطْفِه[7] - إذْ تهَادَى -
خْطَرةٌ تَمْزِجُ الدَّلالَ بكِبْر

✲✲✲✲

(١) آثرنا نقل هذه الأبيات من قصيدة طويلة لأنها تناسب المقام، أما القصيدة بأكملها فيمكن الرجوع إليها في الإخوانيات.

(٢) الشطر: النصف، تجافى: تباعد، الوشاح: قطعة من النسيج عريضة مرصعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها ووسطها، والمراد أن قدها ممشوق برزت منه بعض الأجزاء وضمر البعض الآخر، كما قال عروة بن أذينة:

بيضاء باكرها النعيم فصاغها
بلباقة (فأدقَّها وأجلها)

(٣) الرشأ: الظبي إذا قوي ومشى خلف أمه، أقصد: طعن طعنة صائبة قاتلة.

(٤) المسبكر: الممتد المسترسل.

(٥) روق الشبيبة أولها، وفي نسخة ت (رق)

(٦) الجيد: العنق أو مقدمه أو موضع القلادة منه، الغلائل: الملابس الداخلية، والمصبوغة منها بالزعفران أو أي صبغ أحمر تسمى مجاسد.

(١) العطف بكسر العين: جانب الجسم من أعلاه إلى الوركين.

زارني - بعـــد هجْـــعَـــةٍ - والـثُّـــريّا
راحَـــةٌ تَقْـــدِرُ الظلامَ بشِـــبْـــرِ[1]

والدُّجَى - من نجـــومـــه - في عُـــقـــودٍ
يَتَـــلأْلأنَ مـن سِـــمَـــاكٍ ونَسْـــرِ

تَحْـــسَبُ الأُفْقَ بينـهـــا لازَوَرْدًا
نُثِـــرَتْ - فَـــوْقَـــهُ - دنانيـــرُ تِبْـــرِ

فَـــرَشَـــفْتُ الرُّضـــابَ أعـــذبَ رَشْفٍ
وهَصَـــرْتُ القَـــضِـــيبَ ألطفَ هَصْـــرِ

ونعِـــمْنا بلفٍّ جِـــسمٍ بجِـــسمٍ
- للتَّـــصـــافي - وقَـــرْعِ ثَغْـــرٍ بثَـــغْـــرِ

يا لهـــا ليلـةً! تَجَلَّى دُجـــاهـا
- من سنا وجْنَتَـــيْـــهِ - عن ضـــوءِ فـــجـــرِ

قَـــصَّـــرَ الوصْلُ عُـــمْـــرَها، وبوُدِّي
أن يطولَ القَـــصِـــيـــرُ منهـــا بعُـــمْـــرِي

****

(١) تقدر: تقيس.

مساعفة الحظ[1]

....

إذِ الدنيا متى نَقْتَدْ
أبيٌّ سرورها يتبعْ[2]
وإذْ للحظٍّ إقبالٌ
وإذْ في العيش مُسْتَمْتَعْ
وإذْ أوتارُنا تهْفُو
وإذ أقداحُنا تُتْرع[3]
وأوطارُ المنى تُقْضَى
وأسبابُ الهوى تشفعْ
فمن أُدْمَانَةٍ تعطو
ومن قُمْرِيْةٍ تَسْجعْ[4]

....

****

(١) اخترنا هذه الأبيات من قصيدة طويلة لمناسبتها للمقام، أما القصيدة فقد أوردناها كلها في فن الهجاء.

(٢) معنى البيت أن لذات الدنيا - إذا تأبت على الناس - تنقاد إلينا وتتبعنا أنَّى شئنا.

(٣) تهفو: تسرع إلى الحركة، تترع: تملأ.

(٤) الأدمانة: الظبية المشربة بالبياض - والأفصح فيها أدماءة، تعطو: تمد عنقها وترفع مقدمتيها لتناول أوراق الشجر، القمرية: نوع من الطيور المغردة تشبه الحمام.

باقة أزهــار

ورامــشـــةٍ يشــفي العليلَ نسـيـمُـهـا
مـضـمّـخـةَ الأنفـاسِ طيّـبـةُ النَّشْـرِ[١]
أشـــار بـهـــا نـحـــوي بنانٌ منعّمٌ
لأَغْـيَـدَ مكْحُـولِ المدامعِ بالسِّـحْـرِ[٢]
سـرتْ نَضـرةٌ - من عـهـده - في غـصـونهـا
وَعُلّتْ بمسْكٍ من شـمـائلهِ الزُّهْرِ[٣]
إذا هـو أهدى اليـاسـمـينَ بكفّـهِ
أخـذتُ النجـومَ الزُّهرَ من راحـةِ البـدر
له خُلُقٌ عـذبٌ وخَلْقٌ مُـحَـسَّنٌ
وظرَفٌ كـعَـرْفِ الطِّيبِ أو نَشْـوَةِ الخـمْـر
يُعَلِّلُ نفـسي من حـديثٍ تَلَذُّهُ
كـمـثلِ المُنَى والوصلِ في عُقْبِ الهـجْـرِ[٤]

****

(١) الرامشة: طاقة من الريحان أو الأزهار. مضمخة: معطرة. النشر: الرائحة الذكية.
(٢) الأغيد: الناعم أو الوسنان المائل العنق.
(٣) علت: سقيت ثانياً.
(٤) عقب الهجر: عاقبته.

ذكريات حاليات

أَذْكَـــرْتِنِي ســـالِفَ الـعـــيش الـذي طابَا
يا ليت غـــائبَ ذاك الـعـــهـــدِ قـــد آبا[1]
إذْ نحنُ في روضـــةٍ - للوصل- نَعِّـمَـــهَـــا
من السّـرورِ غَـمـــامٌ فــوقَـــهَـــا صَـــابا[2]
إنــي لأعـــــجَبُ مـن شـــــوقٍ يطاوِلُني
فكلّمـــا قـــيل فـــيــه: (قــد قَــضَـى) ثابا[3]
كمْ نظرةٍ لكِ في عـــــيني علمتِ بهــــا
- يومَ الزيارةِ - أنَّ القلبَ قــــــد ذابا[4]
قلبٌ يُطيلُ مُــــعـــاصـــاتي لطاعــــتكمْ
فـــــإنْ أُكَلِّفْــــــهُ عنكم سَلوةً يـابَى[5]
مـــا تَوْبَتي بنصـــوحٍ - من مـــحـــبُّـــتكمْ -
لا عـــذّب الله إلا عـــاشـــقًـــا تـابا[6]

****

(١) في نفح الطيب: ذاك الوقت.

(٢) في نفح الطيب: أنعمها.

(٣) في نفح الطيب: يطالبني.

(٤) في نفح الطيب: كم نظرة لك عندي قد علمت بها.

(٥) في نفح الطيب: وخريدة القصر:

قلب يطيل مــعــاصـــاتي لطاعـــتكم
فـــإن أكلفـــه يومــــاً سلوة يابَى

وفي أصول الديوان: (مقاماتي) وقد آثرنا رواية النفح والخريدة لأنها أنسب للمعنى وأقرب إلى صياغة الشاعر الفنية، يابى: يأبى.

(٦) في الخريدة: في محبتكم.

هدية محبوبة

أَهدي إلـيَّ بقـــيَّــــةَ الـمِـــســـواكِ
لا تُظهــــري بُخْـــلاً بعُـــودِ أَراكِ[1]
فلعلَّ نفـــسي، أنْ يُنَفِّسَ ســـاعَـــةً
عنهــا بتــقْــبـيل المُــقَــبِّلِ فــاكِ[2]
يا كـــوكـــبًـــا - بارَى سناهُ سناءَه -
تُزهَى القـــصـــورُ به على الأفـــلاكِ[3]
قَـــرَّتْ وفـــازتْ - بالخطيـــر من المُنَى -
عـينٌ تُقَلِّبُ لحظَهَـــا فــــتَـــرَاكِ

****

(١) الأراك: شجر يتخذ الناس من فروعه المساويك.

(٢) معنى البيت أنه يتمنى أن ينفس عنه حزنه تقبيل المسواك الذي قبل فاها.

(٣) السنا: الضوء، والسناء الرفعة. والمعنى أنها اجتمع فيها الجمال الوضاء والحسب الرفيع، وأن القصور تباهي بها أفلاك النجوم. وفي نسخة ت (تزهو).

حسن تعليل[1]

قـــال لـي: «اعْـــتَلَّ مَنْ هَـوِيتَ» حَـــسُـــودٌ
قـلـتُ: «أَنـتَ الـعـلـيـلُ وَيْـحَـكَ لا هُــو»
مـــــا الـذي أنـكرُوهُ مـن بَـثَـــــــراتٍ
ضــــاعــــفتْ حُـــسنَهُ وزادَتْ حُـــلاهُ[2]
جِـسْـمُـهُ - في الصَّـفَـاءِ والرِّقَّـةِ - الْـمـا
ءُ، فـــلا غَـــرْوَ أنْ حَـــبَـــابٌ عَـــلاهُ[3]

****

(١) ظهرت بعض الحبوب في وجه حبيبته فصاغ فيها هذه الأبيات.
(٢) وفي بعض نسخ نفح الطيب: (وزانت حلاه).
(٣) الحباب بفتح الحاء: الفقاقيع التي تعلو صفحة الماء.

نور ونار[1]

وبنَـفْـــسي - وإن أَضَـــرَّ بنفـــسي -
قَـــمـــرٌ لا يُنالُ منه السِّـــرَارُ[2]
جـــالَ مـــاءُ النَّعـــيمِ منه بخَـــدٍّ
فـــيـــه للمُـــسْـــتَـــشِفِّ نُورٌ ونَارُ[3]
مُـــتَـــجَنٍّ، يحلو تَجَنِّيـــهِ عندي
فَـــهْـــوَ يَجْنِي، ومِنِّيَ الإعْـــتِـــذَارُ

****

(١) لم ترد هذه الأبيات بالديوان، وقد أثبتناها عن كتاب المختار من شعر شعراء الأندلس، وعن خريدة القصر.
(٢) السرار: الليلة الأخيرة من الشهر.
(٣) المستشف: المتطلع إلى ما وراء الشيء أو ما خفي منه.

الظالم المظلوم

سِرِّي وَجَهْري أنني تائمُ
قام بكَ العُذْرُ، فَلاَ لائِمُ[1]

لا يَنَمِ الواشِي الذي غَرَّني
ها أنا - في ظِلِّ الرِّضَى - نائمُ[2]

عُدْتَ إلى الوصلِ - كما أشتهي -
فالهجرُ باكٍ، والرِّضَى باسِمُ

حسبي، أنا المظلومُ في ما جرى،
وإن تَشَأ قلتُ: «أنا الظالمُ»

يا سائلاً عمَّا بنفسي له
- تجنِّيًا - وهْوَ به عالِمُ

معنى الهوَى أنتَ، وشَخْصُ المُنَى،
دَعْنِيَ مِمَّا يزعُمُ الزاعِمُ[3]

****

---

(١) تائم من التيم: وهو فساد العقل وذهابه من الهوى، والمعنى أن جمالك الفتان أذهل عقلي فلا لوم علي سواء كتمت حبك أو أعلنته وفي الأصل (نائم).

(٢) نائم من النوم أي الهدوء والسكينة، أو من النيم بكسر النون: أي النعمة التامة.

(٣) في الأصل: معي الهوى ولعل الصواب ما أثبتناه.

الحبيبة (أسماء)[1]

إنَّ لـلأرضِ والـسَّـــمـــــاءِ ولِلْمَــــا
ءِ عـلـيـنَـا أَذِمَّــــــــــةً لا تُـذَمُّ[2]
هِــيَ بَــعْــضُ اسْــمِ مَـــنْ أُحِــبُّ وِلاءً
وبتكرير بَعْــضِــهــا يَسْـــتَـــتِمُّ[3]

****

(١) ربط الشاعر بين الطبيعة وبين اسم حبيبته (أسماء)، فرجع حروف اسمها إلى الأرض والسماء والماء.

(٢) أذمة: جمع ذمام وهو الحق أو الحرمة.

(٣) ولاء (بكسر الواو): متوالية متتابعة.

مفضض الثغر[1]

أيتُّهَا النَّفْسُ إليهِ اذهَبي
فما لقلبي عَنهُ من مَذْهَبِ
مُفَضَّضُ الثَّغْرِ له نُقطةٌ
من عنبرٍ في خَدِّهِ المُذْهَبِ
أنْسانِيَ التوبَةَ من حُبِّهِ
طُلوعُهُ شَمْسًا منَ المغربِ[2]

****

(١) لم ترد الأبيات بالديوان، وقد وردت في النجوم الزاهرة جـ٥ ص٨٨، وإن كان ابن سعيد نسبها في كتابه (عنوان المرقصات والمطربات) إلى أبي القاسم ابن طلحة الصقلي.

(٢) يشير إلى الحديث الشريف: (ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض).

موكب الجمال[1]

....

وغـصـنٍ تَرَشَّفَ مـاءَ الشـبـابِ
تـراهُ الـهَـوَى، وجـنـاهُ الأَمَـلْ[2]

تـهـادى لَطِيـفَـةَ طَيِّ الوِشـاحِ
وترنُو ضـعـيـفـةَ كَـرِّ الـمُـقَلْ[3]

وتبـرزُ خلف حـجـاب الـعـفـافِ
وتسـفـرُ تحت نقـابِ الخـجـل[4]

بَدَتْ في لِدَاتٍ - كَـزُهْرِ الـنجـومِ -
حِـسَـانِ التَّـحَلِّي مِـلاحِ العَطَلْ[5]

مـشـيـن يُبـاهـين روضَ الرُّبـا
بِيـانِع روضِ الصِّـبـا الـمُـقْـتَـبَلْ

فَـمِـنْ قُـضُـبٍ تـتـثـنـى بـريـحٍ
ومـن قُـضُـبٍ تـتـثـنـى بِـدَلّ

ومـن زهـرات تُـنَـدَّى بمـسـكٍ
ومـن زهـرات تُـنَـدَّى بـطـلّ

(١) أبيات مختارة من قصيدة طويلة أوردناها بتمامها في فن المديح.

(٢) شبه حبيبته بغرس نما في ثرى الحب وارتوى بماء الشباب فأثمر أعذب الآمال.

(٣) تهادى: تتهادى أي تتمايل في مهل إعجابًا بجمالها.

(٤) تظهر في حجاب من عفافها، وتبرز للعيون ولكن تحت ستار من الخجل، وفي الأصل (تحت النقاب).

(٥) لدات: زميلات، والمعنى: ظهرت بين غادات فاتنات مثل النجوم الزهر جميلات في حالتي التجرد أو التحلي.

تعـــاهدَ صـــوبُ العِـــهَـــاد الحِـــمَى

ولا حَلَّ مـــــربـعَـــــهـــــا في مَلَلْ[1]

مَـــــــــرَادٌ - مـن الحُـبِّ - غَضٌّ الجَـنَى،

لــديــه - مــنَ الــوَصْــل - وِرْدٌ عَــلَــلْ[1]

ليـــاليَ مـــا انفكَّ يُهـــدي الســـرورَ

حـــبـــيبٌ ســـرى، ورقـــيبٌ غَـــفَلْ

****

(١) صوب العهاد: المطر، وفي الأصل (مل مربعها) ولعل الصواب ما ذكرناه.

(١) مراد: موضع الجيئة والذهاب، ورد علل: منهل مطروق.

٢ – بين روعة الطبيعة ولهفة الهيام

(فتنت الطبيعة شاعرنا كما فتنته حبيبته، فخفق قلبه خفقتين، وهتف بكلا الحبين هتافًا رددته الأيام، وخلده الزمان).

ليالي قرطبة

سَقَى الغيثُ أطلالَ الأحبَّةِ بالحِمَى
وحاكَ عليها ثوبَ وشيٍ مُنمنَما
وأطلعَ فيها للأزاهير أنجُما
فكم رفلتْ فيها الخرائدُ كالدُّمَى
إذِ العَيْشُ غضٌ والزمانُ غلامُ(١)

✡✡✡✡

أَهيم بجبّار يَعِزُّ وأخضَعُ
شذا المسكِ - من أردانه - يَتَضَوّعُ
إذا جئتُ - أشكوه الجَوَى - ليس يسمعُ
فما أنا - في شيءٍ منَ الوصل - أطمعُ
ولا أنْ يزورَ المُقلتَينِ مَنامُ(٢)
قضيبٌ - منَ الرَّيحان - أثْمَرَ بالبَدْرِ
لواحظُ عينيهِ مُلئنَ منَ السِّحْرِ
وديباجُ خدّيْهِ حكى رونقَ الخمرِ
وألفاظُهُ - في النُّطق - كاللؤلؤ النَّثْرِ
ورِيقَتُهُ - في الارتشافِ - مُدَامُ(٣)

✡✡✡✡

---

(١) حاك: نسج. الوشي: النسيج المزخرف بالألوان. رفلت: تهادت وتبخترت. الخرائد: الفتيات الحييات أو الأبكار. الدمى: تماثيل صغيرة متقنة الصنع، وتصنع من الرخام أو العاج غالباً، ويضرب بها المثل في الحسن فيقال: أحسن من الدمية.
(٢) شذا المسك: عبيره. الأردان: أكمام القميص أو أثواب الخز. يتضوع: يفوح.
(٣) الديباج: النقش أو الزينة أو نسيج حريري، والمراد صفحة خديه الناعمين كالمخمل الحريري.

سَقَى جَنَباتِ القصرِ صَوبُ الغمائمِ
وغنَّى على الأغصانِ وُرْقُ الحمائمِ
(بقرطُبَةَ) الغرّاءِ دارِ الأكارمِ
بلادٌ بها عقّ الشبابُ تمائمي
وأنجَبَني قومٌ - هناك - كرامُ[1]

✡✡✡✡

فكمْ ليَ فيها من مساءٍ وإصبَاحِ
بكلِّ غزالٍ مُشْرِقِ الوَجْهِ وَضَّاحِ
يُقَدِّمُ أفواهَ الكؤوسِ بتُفّاحِ
إذا طَلَعَتْ - في راحِهِ - أنجمُ الرّاحِ
فإنّا - لإعظامِ المُدامِ - قِيامُ[2]

✡✡✡✡

ويومٍ لدى (البُنْتِيِّ) في شاطئ النهْرِ
تُدار علينا الرّاحُ في فِتيةٍ زُهْرِ
وليس لنا فَرْشٌ سِوَى يانعِ الزَّهْرِ
يدورُ بها عذبُ اللَّمَى أهيَفُ الخصْرِ
بِفيهِ - من الثَّغْرِ الشَّنيبِ - نظامُ[3]

✡✡✡✡

ويومٍ (بجُوفِيِّ الرُّصافة) مُبْهِجِ
مررْنا بروْضِ الأقحوانِ المُدبّجِ
وقابَلنا فيه نسيمُ البنفسجِ
ولاح لنا وردٌ بخدٍّ مُضَرَّجِ
تراه أَمامَ النَّوْرِ وهْوَ إمَامُ[4]

✡✡✡✡

---

(١) عق الشباب تمائمي: شق الشباب العوذات التي علقت علي طفلاً، والمراد: أنني ولدت ونشأت في هذه المواطن الجميلة.
(٢) يقدم: يغطي، والمراد التفكه بالتفاح مع الشراب. الراح: جمع راحة وهي الكف.
(٣) البنتي: نسبة إلى البنت وهو حصن من أعمال بلنسية، ولعله نهر صغير ينساب منه إلى ضواحي قرطبة، عذب اللمى: طيب الشفتين، الشنب: ماء ورقة وبياض وعذوبة في الأسنان، والثغر الشنيب: الفم المفتر عن أسنان لؤلؤية.
(٤) الجوف عند الأندلسيين والمغاربة هو الشمال، جوفي الرصافة: شمالها، وهي ضاحية من ضواحي قرطبة أنشأها عبدالرحمن الداخل وزينها بالحدائق الغناء وزاد فيها خلفاؤه من بعده، وقد نشأ الشاعر وشب في ربوعها الغناء، الأقحوان: زهر طيب الريح ذو ورق أبيض مشرشر في وسطه دائرة صفراء، المدبج: المزين المزخرف.

وأَكْـــرِم بأيّام «العُـــقـــاب» السَّـــوالِفِ
ولَهْـــوٍ أَثَرْنَاهُ بتلكَ الـمَـــعَـــاطِفِ
بسُـودِ أثيث الشـعـر بيضِ السـوالف
إذا رفَـلُـوا فـي وَشْـيِ تـلـك الـمَـطـارفِ
فلـيس – على خَلْعِ العِــذارِ – مَـــلامُ[1]

✲✲✲✲

وكمْ مـشـهـدٍ عند (العَـقِـيقِ) وجـسـرِهِ
قَـعَـدْنا على حُـمْـرِ النبـاتِ وصُـفْـرِهِ
وظبيٍ يُسَـقِّـينَا سُـلافـةَ خَـمـرِهِ
حكَى جَـسَدي – في السُّـقْمِ – رِقَّـةَ خَـصْرِهِ
لـواحظُـهُ – عـنـد الـرُّنُـوِّ – سِـهَـــامُ[2]

✲✲✲✲

فَـقُلْ لزمـانٍ قـد تَـوَلَّى نَعـيـمُـهُ
ورثّتْ – على مَـرِّ الليـالي – رُسـومُـهُ
وكم رقَّ فـيـه – بالـعـشيِّ – نسـيـمُـهُ
ولاحتْ لسـاري اللّيلِ فـيـه نجـومُـهُ:
«عليكَ منَ الصَّبِّ الـمُـشـوقِ سـلامُ»

****

(١) أثيث الشعر: غزيره، السوالف: صفحات العنق، رفلوا: تهادوا به وعجبوا. المطارف: أردية من الخز مربعة ذات أعلام، خلع العذار: الاستهتار وعدم المبالاة.

(٢) الرنو: إدامة النظر، وفي الأصل: الدنو، ومعناه: القرب.

مواكب الذكريات

تَنَشَّقَ - من عَرْفِ الصَّبا - ما تنشَّقَا
وعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبا فتشوَّقا
وما زال لَمْعُ البرق - لما تألَّقا
يُهيبُ بدمع العينِ حتَّى تدفَّقا،
وهل يملكُ الدمعَ المَشُوقُ المُصَبَّأُ؟[1]

✡✡✡✡

خليليَّ - إنْ أَجْزَعْ فقد وَضَحَ العُذْرُ
وإنْ أستطعْ صبرًا فمِنْ شيمتي الصبرُ
وإن يكُ رُزْءًا ما أصابَ به الدهرُ
ففي يومنا خمرٌ، وفي غدِهِ أمرُ
ولا عجبٌ، إِنَّ الكريمَ مُرَزَّأُ[2]

✡✡✡✡

رَمَتْني الليَّالي عنْ قِسِيِّ النوائبِ
فما أخطأتني مرسَلات المصائبِ
أُقَضِّي نهاري بالأماني الكواذبِ
وآوي إلى ليلٍ بطيءِ الكواكبِ
وأبْطَأُ سَارٍ كوكبٌ باتَ يُكْلأُ[3]

(١) العرف: الطيب، الصبا: ريح الشمال، أهاب: دعا، المصبأ: الذي ثارت به الصبوة.

(٢) (اليوم خمر وغدًا أمر) مثل قاله امرؤ القيس حينما بلغه مصرع أبيه، وكان في مجلس لهو وشراب، ويروى أنه قال أيضاً: (لاصحو اليوم، ولا سكر غداً).

(٣) ليل بطيء الكواكب: طويل، يشير إلى قول النابغة.

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب

كلأ الكوكب: رعاه وأطال مراقبته.

أَقُرْطُبَةُ الغَرّاءُ! هل فيكِ مَطمعٌ؟
وهل كَبِدٌ حَرّى لبَيْنِكِ تُنْقَعُ؟
وهل لِلَيالِيكِ الحميدةِ مَرْجِعُ؟
إذِ الحسنُ مرأى - فيك - واللَّهْوُ مَسْمَعُ
وإذْ كَنَفُ الدنيا - لديكِ - مُوَطَّأُ[(١)]

☆☆☆☆

أليس عجيبًا أن تَشُطَّ النوى بكِ؟
فأحْيَا كأنْ لمْ أَنْشَ نَفْحَ جنابكِ
ولم يلتئِمْ شَعْبي خلال شِعابِكِ
ولمْ يَكُ خَلْقي بدؤُهُ من تُرابكِ
ولم يَكْتَنِفْني- من نَواحيكِ - مَنشأُ[(٢)]

☆☆☆☆

نهارُكِ وضّاحٌ، وليلُكِ ضَحْيَانُ
وتُربُكِ مَصْبوحٌ، وغُصنُكِ نَشْوانُ
وأرضُكِ تُكْسَى، حينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ
وريّاكِ رَوْحٌ للنفوس ورَيْحَانُ
وحَسْبُ الأَمَانِي ظِلُّكِ المُتَفَيَّأُ[(٣)]

☆☆☆☆

أأنسى زمانًا (بالعُقابِ) مُغَفَّلا؟
وعيشًا بأكناف (الرُّصافةِ) دَغْفَلا؟

---

(١) الكنف: الناحية أو الظل، وكنف الله: حرزه وستره ورحمته، موطأ: ممهد ومهيأ.

(٢) لم أنش: لم أشم، النفح: الرائحة الذكية، الجناب: الفناء، الشعب: الصدع، والتأم شعبهم: إذا اجتمعوا بعد تفرق، الشعاب: الأحياء العظيمة أو مسايل المياه أو ما بين الجبال.

(٣) نهارك وضاح: مضيء مشرق، ضحيان: بارز للشمس، ومعنى ليلك ضحيان: أي وضاء، مصبوح: مسقى في الصباح.

ومَـغْنًى - إزاءَ (الجَـعْـفَـرِيَّةِ) - أقْـبَـلا

لِنـغْمَ مَـــرادُ الأُنسِ رَوْضًــا وجـــدولا

ونِعْمَ مَـحَلُّ الصَّـبْـوَةِ الـمُـتَـبَـوأُ[1]

✡✡✡✡

ويا رُبَّ ملْهًى (بالعـقـيقِ) ومـجلسِ

لَدَى تُرْعَــةٍ، تَرْنُو بأحــداقِ نَرْجَسِ

بِطاحُ هـواءٍ مُطْمِعِ الخــالِ مُـؤنِسِ

مَـغِـيمٍ - ولكنْ من سَنا الرّاحِ - مُـشْـمِسِ

إذا مــا بدت - في كــأســهــا - تَتَـلألأُ[2]

✡✡✡✡

وقـدْ ضَمَّنَا - مِن (عينِ شُـهْـدَةَ) - مَشْـهَدُ

بدأنا وَعُـدْنا فـيــه، والعَـوْدُ أَحْـمَـدُ

يَزُفُّ عَـرُوسَ اللهـو أَحْـوَرُ أَغْـيَـدُ

له مَـبْـسِمٌ عــذبٌ، وخَـدٌّ مُـوَرَّدُ،

وكَـفٌّ - بِحِنَّـاءِ الـمُـــدام -تُـقَـنَّأُ[3]

✡✡✡✡

وكائنْ عَدَوْنَا - مُصْعِدِينَ - على الجِسْرِ

إلى (الجَـوْسَقِ النَّصْرِيِّ) بين الرُّبا العُفْرِ

---

(١) الغفل بفتح الغين والفاء: السعة من العيش ومنه قول الشاعر:

إذا نحن في غَـفَلٍ، وأكـثـر همنا

صـرف النوى وفـراقنا الجـيـرانا

والمغفل: المستور، ومعنى الزمان المغفل: الهادئ الناعم، ومنه غفلات العيش، عيش دغفل: واسع مخصب. المراد بفتح الميم: مكان الجيئة والذهاب.

(٢) التُرعة: فوهة الجدول، أو الروضة في مكان مرتفع، البطاح: مسايل المياه، وبطاح هواء: ممرات هواء، وقد تكون (مطاح هواء) أي مساقط هواء، الخال: السحاب الذي لايخلف مطره أو لا مطر فيه، والمعنى: مساقط هواء عليل، يطمع في المطر لرقته ويؤنس منه لجفافه، والجو مقنع بالغيوم ولكنه مضيء من أشعة الخمر.

(٣) تقنأ: تصبغ باللون الأحمر المنبعث من أشعة المدام.

ورُحْنَا إلى الوَعْساءِ من شاطئ النَّهْرِ
بِحيثُ هُبوبُ الريحِ عاطرةَ النشرِ
على قُضُبِ النُّوّارِ، فَهْيَ تُكَفَّأُ[1]

☆☆☆☆

وَأَحْسِنْ بأيَّامٍ - خَلَوْنَ - صَوَالِحِ
(بمَصَنْعَةِ الدُّولابِ) أو قَصَرِ (ناصِحِ)
تَهُزُّ الصَّبَا - أثناء تلك الأباطِحِ -
صَفِيحَةَ سَلسالِ المَوارد سائحِ
ترى الشَّمْسَ تجلو نَصْلَهَا حين يَصْدَأُ[2]

☆☆☆☆

ويا حبَّذا (الزهراءُ) بهجةَ منظرِ
ورقَّةَ أنفاسٍ، وصِحَّةَ جَوهرِ
وناهيك من مبدًا جَمالٍ ومَحْضَرِ
وجَنَّةِ عدْنٍ تَطَّبِيكَ وكَوْثرِ
بمرأى يزيدُ العُمْرَ- طيبًا - ويَنْسَأُ[3]

☆☆☆☆

معاهدُ أبكيها لعهدٍ تَصَرَّمَا
أَغَضٌّ - من الورد الجَنِيِّ - وأَنْعَمَا
لَبِسْنَا الصِّبَا فيها حَبيرًا مُنمنَمَا
وَقُدْنَا - إلى اللذّات - جيشًا عَرَمْرَمَا
له الأمنُ رِدْءٌ، والغضارةُ مَرْبَأُ[4]

☆☆☆☆

---

(١) كائن عدونا: كم جرينا، الجسر بفتح الجيم وكسرها: القنطرة الممتدة على مجرى الماء، الجوسق: القصر، العفر: الرمال البيضاء أو الحمراء، الوعساء: رابية من الرمل الندي تنبت أحرار البقول. تكفأ: تتمايل.

(٢) المصنعة: الحوض المتسع لجمع الماء، الدولاب آلة للري، مصنعة الدولاب مكان وافر المياه، وهو هنا علم، الأباطح: مسايل المياه.

(٣) ناهيك: حسبك، تطبيك: تدعوك، ينسأ: يؤخر.

(٤) الحبير المنمنم: الثوب الناعم الموشى، وفي ب، ت، ز (حريراً)، ردء: ظهير ومعين، الغضارة: السعة والنعمة والخصب، وفي الأصل (الغداوة)، المربأ: مكان المراقبة.

كساها الربيعُ الطَّلقُ وَشْيَ الخمائلِ
وراحتْ لها مَرْضَى الرياحِ البلائلِ
وغادَى بَنُوها العيشَ حُلوَ الشمائلِ
ولا زالَ منا بالضُّحى والأصائلِ
سلامٌ - على تلك الميادينِ - يُقْرَأُ[1]

✡✡✡✡✡

أَإِخْوانَنَا للواردينَ مَصادرُ
ولا أَوَّلٌ إلا سيتلُوهُ آخِرُ
وإني - لإعْتابِ الزمانِ - لَناظِرُ
فقد يستقيلُ الجَدُّ - والجَدُّ عاثِرُ -
وتُحْمَدُ عُقْبَى الأمْرِ ما زال يُشْنَأُ[2]

✡✡✡✡✡

ظَعَنْتُ، وكان الحُرُّ يُجْفَى فيَظْعَنُ
وأصبحتُ أسْلُو بالأُسَى حينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ - على اليأسِ - الفؤادُ المُوَطَّنُ
وإنَّ بلادًا هُنْتُ فيها لأَهْوَنُ
ومَنْ رامَ مثلي بالدَّنِيَّةِ أَدْنَأُ[3]

✡✡✡✡✡

ولا يُغْبِطِ الأعداءَ كَوْنيَ في السِّجْنِ
فإني رأيتُ الشمسَ تُحْضَنُ بالدَّجْنِ
وما كنتُ إلا الصَّارِمَ العَضْبَ في جَفْنِ
أَوِ اللَّيْثَ فِي غابٍ، أو الصَّقرَ فِي وَكْنِ
أوِ العِلْقَ يُخْفَى فِي الصِّوَانِ ويُخْبَأُ[1]

✡✡✡✡✡

(١) راحت: خفت وطابت.

(٢) إعتاب: إرضاء وصفح، يستقيل الجد: ينهض من عثاره، يشنأ: يبغض.

(٣) ظعنت: رحلت، الأسى بكسر الهمزة وضمها جمع أسوة بالكسر والضم: ما يتعزى به الحزين.

(٤) تحضن: تحبس وتمنع: الدجن: الغيم، الصارم العضب: السيف القاطع، جفن: غمد، وكن: عش، العلق: التحفة الثمينة، الصوان والصيان: وعاء الصون والحفظ وفي نسخة (الصوار): وهو وعاء المسك.

يضـــيقُ بأنواع الصَّـــبَــابةِ مَـــذهبي
إلى كلّ رحب الصَّـــدرِ منكمْ مُـــهَـــذَّبِ
مُـــفَـــضَّضَ لألاءِ الأَســـارير مُـــذْهَبِ
يُنـافِسُ مـنـهُ الـبـــــدرُ غُـــــرّةَ كـــــوكبِ
دَرَى أنَّـهـــــا أبـهـى سنَـاءً وأَضْـــــوَأُ[1]

✡✡✡✡

أسِـــفْتُ، فـــمـــا أرتـاحُ ، والرَّاحُ تـعـــمـلُ
ولا أُسْـــــــعِفُ الأوتـارَ ، وَهْـيَ تَـرَسَّلُ
ولا أرعـــوي عن زفـــرةٍ ، حـين أُعْـــذَلُ
ولا لِيَ - مُـــذْ فـــارقـــتُكُمْ - مُـــتَـــعَلَّلُ
سِـــوى خـــبـــرٍ منكمْ - على النَّأيِ - يَطْرَأُ[2]

✡✡✡✡

حَـــمِـــدْتُمْ من الأيام لِينَ خِـــلالِهَـــا
وسَـــرَّتْكُمُ الدنيـــا بحُـــسْنِ دَلالِهَـــا
مُـــؤَمَّنَةً مِنْ عَـــتْـــبِـــهَـــا ومَـــلالِهَـــا
ولا زال مـنـكـم لابـسٌ مـن ظـلالـهـــــــــا
يُـسَـــــــــوَّغُ أبـكـارَ الـــمُـنَـى ويُـهَـنَّـأُ[3]

****

(١) الأسـارير: جمع أسـرار، وهي جمع سـرر بكسـر السين وفتح الراء، والأسـارير: الخطوط الظاهرة في الجبـهـة أو الكف، والمعنى: أن وجهه مضيء مشرق متلألىء.

(٢) المعنى: أنه يأسف لفراقهم، فلا يطرب للخمر حين يسرع دبيبها في الجسم، ولا يهتز للأوتار حين تأسر ألحانها القلوب، ولا يعدل عن الزفرات حين يلام، ولا يتعلل إلا بتسقط أخبارهم، وفي ت (من زفرة).

(٣) يسوغ: يهنأ. وسوغه الله النعمى: يسرها وسهلها.

مجالي الزهراء

«عاد الشاعر مستخفيًا إلى الزهراء بعد فراره من قرطبة، ومنها أرسل هذه القصيدة إلى حبيبته.

والزهراء ضاحية من ضواحي قرطبة، أنشأها الخليفة الناصر بسفح جبل العروس تخليدًا لذكرى حظية له، وسماها باسمها، ورصد لتشييدها ثلث جباية الدولة، وكانت تلك الجباية تناهز ٤٠ ألف ألف دينار، واستمر في بنائها عشرات الأعوام، وجلب إليها الرخام ومهرة الصناع من القسطنطينية، فجاءت آية من آيات العمارة في القرون الوسطى».

إني ذكرتُكِ (بالزهراء) مُشْتاقَا
والأفْقُ طَلْقٌ، ومَرأى الأرضِ قد راقا(١)
وللنَّسيم اعْتِلالٌ - في أَصائلهِ -
كأنه رَقَّ لي، فاعْتَلَّ إشْفاقا(٢)
والرَّوْضُ - عن مائِهِ الفِضّي - مبتسِمٌ،
كما شقَقْتَ - عن اللَّبَّاتِ - أطواقا(٣)
نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ
جال النَّدى فيه، حتّى مالَ أعناقا

(١) في تمام المتون (والجو طلق...)، وفي القلائد وبعض نسخ الذخيرة (ووجه الأرض....) وفي سرح العيون (وماء الروض..).
(٢) في بعض نسخ الذخيرة والنفح (كأنما رق لي.....).
(٣) في القلائد وبعض نسخ الذخيرة (كما حللت.....) واللبات جمع لبة: وهي أعلى الصدر أو موضع القلادة منه.

كـــــأنَّ أعـــــيُنَهُ - إذ عـــــايَنَتْ أَرقي -
بكت لما بي، فـــجـــالَ الدمعُ رَقْـــراقـــا
وردٌ تـألّـقَ فـي ضـــــــاحـي مَـنـابـتــــــهِ
فــازدادَ منـه الضُّـــحَى في العينِ إشــراقـا
سَـــرَى يُـنـافِـــحُـــهُ نَـيلوفَـــرٌ عَـــبِقٌ
وَسْنانُ، نَبَّـــهَ منهُ الصّـــبحُ أحـــداقـا[1]
كلٌّ يَهِـــــيجُ لنـا ذِكْـــــرَى تُـشَـــــوِّقُنا
إليكِ، لم يَعْـدُ عنهـا الصَّـدرُ أن ضــاقـا[2]
لا سَكَّنَ اللّـهُ قلبًـــــا، عنَّ ذِكْــــرِكُمُ
فلم يَطِرْ بجناحِ الشَّـــوقِ خَـــفّـــاقـا[3]
لو شـاءَ حَمْلي نسيمُ الصّبحِ - حينَ سَرَى -
وافـــاكُمُ بـفـــتًى أضنَـاهُ مَـــا لاقى[4]
يـومٌ، كـــــأيّـام لـذاتٍ لـنـا انْـصَـــــرَمَتْ
بِتْنَا لهـــا - حينَ نامَ الدهرُ - سُـــرّاقـــا
لوْ كـانَ وَفَّى المُنَى - في جـمــعنا بكمُ -
لـكـان من أكـــــرم الأيّـام أخـــــــلاقـــــا

☆☆☆☆

(١) النيلوفر: زهر كبير ينبت في المياه الراكدة تنطبق أوراقه في الليل وتتفتح في النهار.
(٢) المعنى: أن مجالي الطبيعة تهيج فينا الذكريات الماضية فتتوافد وتحتشد حتى يضيق الصدر عن استيعابها.
(٣) في الذخيرة (عق ذكركم...) بمعنى جحد ذكراكم، عنَّ: عرض، وفي تمام المتون (ولم يطر....).
(٤) في تمام المتون (حين هفا .....).

يا عِلْقِيَ الأخطرَ الأسْنَى الحَبيبَ إلى
نفسي، إذا ما اقْتَنَى الأحبابُ أعْلاقا[٥]

كان التَّجازي بمحض الوُدِّ - مُذ زمنٍ -
ميدانَ أُنْسٍ جَرَيْنا فيه أَطْلاقا[٦]

فالآنَ - أحمدَ ما كُنا لعهدكمُ -
سلوتمُ، وبَقِينا نحنُ عُشّاقا

****

(١) النيلوفر: زهر كبير ينبت في المياه الراكدة تنطبق أوراقه في الليل وتتفتح في النهار.
(٢) المعنى: أن مجالي الطبيعة تهيج فينا الذكريات الماضية فتتوافد وتحتشد حتى يضيق الصدر عن استيعابها.
(٣) في الذخيرة (عق ذكركم...) بمعنى جحد ذكراكم، عنَّ: عرض، وفي تمام المتون (ولم يطر....).
(٤) في تمام المتون (حين هفا .....).
(٥) العلق: الغالي النفيس، الأخطر: الرفيع، الأسنى: الأضوأ.
(٦) في النفح (من زمن....).

٣ - حنين الذكريات

«طوى الشاعر شطرًا من حياته، مشردًا عن وطنه، نائيًا عن أهله، مفارقًا أحبابه، فامتزج في فنه الحنين بالشجن، والتقى الألم بالأمل، وتزاحمت في نفسه الذكريات، مرددة هذه الأنات».

آمال وآلام

«فر الشاعر من سجنه بقرطبة إلى إشبيلية، ولكن قلبه جذبه إلى حبيبته بقرطبة، فأرسل إليها هذه القصيدة الخالدة التي نالت شهرة عظيمة، وثارت حولها الأساطير حتى قيل: (ما حفظها أحد إلا مات غريبًا) ولهج كثيرون بأن إنسانًا لا يتم له الظرف ما لم يحفظها.

وقد شغف بمعارضتها وتخميسها وتسديسها كثيرون، ولكنها ظلت سامقة في مكانها الرفيع»(١).

أضحى التَّنائي بديلاً من تَدانينا
ونابَ عن طِيبِ لُقيانا تجافينا(٢)
ألاّ - وقد حانَ صُبحُ البَيْنِ - صَبَّحنا
حَيْنٌ، فقام بنا لِلْحَيْنْ داعينا(٣)
من مُبلغُ المُلبسِينا بانتزاحِهِمُ
حُزْنًا معَ الدهرِ لا يَبْلى، ويُبلينا
أنَّ الزَّمانَ الذي ما زال يُضحكنا
أُنسًا بقربهمُ قد عاد يُبكينا؟(٤)

---

(١) وردت القصيدة في عدة مصادر قديمة، وفيها اختلاف في ترتيب بعض الأبيات وفي بعض العبارات، كما أن هناك خلافًا في مبدئها، فيقول ابن نباتة: «.... وله القصيدة النونية التي أولها : (بنتم وبنا ... البيت) وقد تداولتها الألسن وزيد فيها ما كانت في غنى عنه» فكأن الأحد عشر بيتاً الأولى ليست من القصيدة، ولكن الصفدي يقول «..... ومن ذلك قصيدته النونية التي أولها: (أضحى التنائي بديلاً... البيت). ولكل من الرأيين ما يزكيه، ونحن نرجح أن الشاعر صاغ قصيدته، ثم أعاد النظر فيها كعادته، فزاد فيها وحرص على جعل أولها مصرَّعًا.

(٢) في نسخة أ، ب (وبان) وفي ت، ز (وآن) وكذلك القلائد، وقد أخذنا برواية نفح الطيب. والمعنى أن الفراق حل محل الوصال، وأن الجفوة نابت عن طيب اللقاء.

(٣) في النفح (ناعينا) – ألا: هلا، الحين: الهلاك، والمعنى: أنه كان يتمنى أن يلاقي مصرعه قبل أن يحم الفراق.

(٤) رواية المغرب :(أن الزمان الذي كنا نسر به)، ورواية القلائد (بقريكمو).

غِـيظَ العِـدا من تَسـاقـينا الهَـوَى، فَـدَعَـوْا
بأنْ نَـغَصَّ، فـــقــــالَ الـدهرُ: آمــــينا
فـانحلَّ مـا كـانَ مـعـقـودًا بأنفـسنا
وانْبَتَّ مـــا كـــان مَـــوْصـــولاً بأيدينا[1]
وقـــد نكونُ، ومـــا يُخْـــشَى تَفَـــرُّقُنا
فـــاليـــومَ نحنُ، ومـــا يُرْجَى تَلاقـــينا[2]

✡✡✡✡

يا لَيْتَ شِـعْـري - ولمْ نُعْـتِبْ أعـاديَكُمْ -
هلْ نالَ حظّاً من العُـــتْــبى أعـــادينا[3]
لمْ نَعْـــتَـــقِـــدْ بَعْـــدَكُمْ إلا الوفـــاءَ لكمْ
رأيًـا، ولـم نـتـــقـلَّدْ غَـــيْـــرَهُ دِينا
مـــا حـــقُّنا أنْ تُقِـــرُّوا عَـــيْنَ ذي حَـسَـدٍ
بنا، ولا أنْ تَسُـــرُّوا كـــاشِـــحًـــا فِـــينا[4]

✡✡✡✡

كُنّا نَرَى اليَـــأْسَ تُسْلينا عَـــوارِضُـــهُ
وقـــدْ يئِـــسْنا، فـــمـــا لِلْيَـــأْسِ يُغْـــرِينا[5]
بِنْتُمْ وبِنَّا، فـــمـــا ابْتَلَّتْ جَـــوانِحُنا
شَـــوْقًـــا إليكمْ، ولا جَـــفَّتْ مـــآقِـــينا[6]

(١) انْبَتَّ: انقطع، والمعنى تفرق شملنا وانقطعت صلاتنا.
(٢) رواية المغرب (من قبل كنا .... فالآن.....) ورواية النفح (بالأمس كنا .... واليوم.....).
(٣) أعتب: أرضى وسَرَّ بعد الإساءة، والاسم منه العتبى.
(٤) الكاشح: المضمر للعداوة.
(٥) عوارضه: ظواهره أو بوادره، والمعنى: أنه كان ينتظر راحة في اليأس، ولكن يأسه زاده شوقًا على شوق وحنينًا إلى حنين.
(٦) بنتم وبنا: بعدتم وبعدنا.

نكادُ – حينُ تُناجيكمْ ضَمائرُنا –
يَقْضِي علينا الأسَى، لولا تَأسِّينَا[1]

حالتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا، فغَدَتْ
سُودًا، وكانتْ بكم بِيضًا ليالينا

إذْ جانبُ العَيْشِ طَلْقٌ من تألُّفِنَا
ومَربعُ اللَّهْوِ صافٍ من تَصافينا

وإذْ هَصَرْنا فنونَ الوَصْلِ دانيةً
قِطافُها، فَجَنَيْنَا منهُ ما شِينا[2]

٭٭٭٭

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرورِ، فما
كنتمْ لأرواحنا إلاّ رياحينا[3]

لا تَحْسَبوا نأيكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
إنْ طالما غَيَّرَ النَّأْيُ المُحبّينا[4]

واللّهِ ما طَلَبَتْ أهواؤُنا بدلاً
منكمْ، ولا انصرفتْ عنكمْ أمانينا[5]

ولا استفدنا خليلاً عنكِ يَشْغَلُنا
ولا اتَّخَذْنا بديلاً منكِ يُسْلِينَا[6]

٭٭٭٭

(١) المعنى: إذا ناجتكم قلوبنا – على البعاد – عصفت بنا الأحزان وكادت تقضي علينا لولا تعللنا بالآمال. وفي جذوة المقتبس وبغية الملتمس والمعجب والنفح (ومورد اللهو...).

(٢) رواية الذخيرة (غصون الوصل)، ورواية جذوة المقتبس وبغية الملتمس (فنون اللهو)، ورواية المعجب والقلائد والخريدة (غصون الأنس)، وفي الذخيرة والقلائد والنفح والمعجب (دانية قطوفها)، ما شينا: ما شئنا.

(٣) رواية الذخيرة (كنتم لأيامنا).

(٤) في إحدى نسخ الذخيرة (إذ طالما) وفي المغرب (أن طالما).

(٥) آثرنا في رواية البيت ما أثبتته الذخيرة والقلائد والمغرب والمعجب ونفح الطيب، أما في نسخة (أ) (والله ما أطرفت.... عنكم)، وفي نسخ ب، ت، ز (والله ما طرفت... عنكم)، وطرف وأطرف بمعنى استحدث.

(٦) لم يرد هذا البيت في نسخ الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد والخريدة.

يا ساريَ البَرْقِ غادِ القَصْرَ واسْقِ به
مَنْ كان صِرْفَ الهَوَى والوُدِّ يَسْقِينا[1]
واسْأَلْ هنالك: هل عَنَّى تَذَكُّرُنَا
إلْفًا، تذكُّرُهُ أمسى يُعَنِّينَا؟[2]
ويا نَسيمَ الصَّبا بَلِّغْ تَحِيَّتَنا
مَنْ لو على البُعْدِ حَيًّا كان يُحْيِينَا[3]
فهل أرى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُساعَفَةً
فيه، وإنْ لمْ يَكُنْ غِبًّا تَقاضِينا؟[4]

☆☆☆☆

رَبيبُ ملكٍ كأنَّ اللّهَ أنْشَأهُ
مِسكًا، وقَدَّرَ إنْشاءَ الوَرَى طِينا[5]
أو صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا، وتوّجَهُ
من ناصع التِّبْرِ إبداعًا وتحسينا[6]
إذا تأوَّدَ آدَتْهُ رفاهِيَةً
تومُ العُقودِ، وأدْمَتْهُ البُرَى لِينا[7]
كانتْ له الشَّمْسُ ظِئرًا في أَكِلَّتِهِ
بلْ ما تَجَلَّى لها إلاّ أحايينا[8]

---

(١) في الذخيرة والقلائد والمغرب والخريدة (فاسق به).

(٢) عنّى: آلم وأتعب.

(٣) في نسخ الديوان (على القرب) وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب ونفح الطيب لأنها أنسب للمعنى، فقد كان الشاعر بعيدًا عن حبيبته يتمنى منها تحية على البعد، ويأمل أن يظفر منها بخطاب كما في ختام القصيدة.

(٤) المعنى: طالما تقاضينا الوصال، فهل يسمح الدهر به بعد طول المطال؟ وفي النفح (من لا يرى الدهر... وإن لم يكن عنا يقاضينا).

(٥) المعنى: سليل بيت ملكي كأن الله خلق الورى من الطين وخلقه وحده من المسك، ورواية النفح (من بيت ملك... وقد أنشأ الله الورى طينا).

(٦) الورق: الدراهم الفضية، والمعنى: أنه أبيض الوجه ذهبي الشعر.

(٧) تأود: تمايل، آدته: أثقلته، توم العقود: عقود مزدوجة من اللؤلؤ، البرى: الخلاخيل، جمع برة، والمعنى: إذا تمايل لم يطق حمل الحلى الكثيرة لرقته ولينه.

(٨) الظئر: الحاضنة، أكلّة: جمع كلّة، وهي نسيج رقيق للوقاية من البعوض، وفي رواية النفح (تكلله).

كـــأنمـــا أُثْبِـــتَتْ في صَـــحْنِ وَجْنَتِـــهِ
زُهْرُ الـكـواكـبِ تَـعْـــــــويـذًا وتَـزْيـيـنـا[١]
مـــا ضَـــرَّ أنْ لـمْ نكنْ أكـــفـــاءَهُ شَـــرَفًـــا
وفي الــمَـــوَدَّةِ كـــافٍ من تكافـــينـا

✡✡✡✡

يـا رَوْضَـــــــةً طـالما أَجْنَـتْ لَـواحِـظَـنَـا
وَرْدًا حَـلاه الـصِّـبَـا غَـضّـاً ونِسْـرِيَنا[٢]
ويـا حـــــيـــــاةً تَـمَلَّيْـنا بزهـرتـهـــــا
مُنًـى ضُـــــرُوبًـا ولـذَّاتٍ أَفَـــــانِـيـنَـا[٣]
ويا نعـــيـــمًـــا خطرنا من غَـــضـــارتِهِ
في وَشْيِ نُعْـمَى سَـحَـبْنا ذَيْلَهُ حِـينَا[٤]
لَسْنـا نُسَـــمِّـــيكِ إجـــلالاً وتكْرِمَـــةً
وقـــدرُكِ الــمُـــعـــتِلي عن ذاكِ يُغْنِينَا
إذا انْفَـــرَدْتِ ومـــا شُـــورِكْتِ في صِـفَـــةٍ
فَـحَـسْبُنا الوصفُ إيضـاحًـا وتَبْـيـينا[٥]

✡✡✡✡

يـا جنّـةَ الخُلْدِ أُبْدِلْـنـا بسِـــــدْرَتِـهـــــا
والكوثَرِ الـعَـــذْبِ زَقُّـــومًـــا وغِـــسلينا[٦]

---

(١) المعنى: كأنما أشرقت النجوم في محياه لتقيه الحسد، وترد عنه العيون.

(٢) النسرين بكسر النون: زهر طيب الرائحة، وفي المغرب والوافي بالوفيات (جناه الصبا).

(٣) تملينا: تمتعنا، وفي المعجب (تملأنا)، ضروبًا: صنوفًا، والمعنى جنينا من نعيم الحياة شتى المتع واللذات.

(٤) الغضارة: السعة والخصب والنعمة، وفي القلائد والمغرب (سحبنا ذيلها).

(٥) معنى البيتين: إننا نصون اسمك عن التصريح به إكبارًا لك وإجلالاً، فإن انفرادك بالجمال والجلال لا يحوجنا إلا إلى أدنى إشارة، وقد أخذ هذا المعنى البهاء زهير فقال:

أشـر لي بوصف واحـد من صـفـاتهـا
تكن مــثل من ســمّى وكنّى ولقّــبــا
ســتكفــيك من ذاك المســمى إشــارةٌ
ودعــه مـصـونًا بالجـمـال مـحـجّـبـا

(٦) السدر: شجر النبق، والزقوم شجرة خبيثة: ذات ثمر مر، وقد ورد في التنزيل أنها ﴿شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ أما طعامها فهو ﴿طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾: وفي الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب والنفح والوافي بالوفيات (بسلسلها) وقد آثرنا رواية الديوان لأن السدر يقابل الزقوم.

إن كـــان قـــد عَـــزَّ في الدنْيـــا اللِّقـــاءُ فـــفي

مَـــواقِفِ الحَـــشْـــرِ نلقـــاكمْ، ويكفـــينا[1]

كـــــــأنـــنا لـــم نَـبِتْ، والـوَصْلُ ثـالـثُـنا

والسَّـــعْـــدُ قـــد غَضَّ من أجـــفـــانِ واشـــينا

سِـــرَّانِ في خـــاطر الظَّلْمـــاءِ يَكْتُـــمُنا

حـــتّى يكادَ لســـانُ الصُّـــبْحِ يُفْـــشـــينا

لا غَـــرْوَ في أنْ ذكَـــرْنا الحُـــزْنَ حين نَهَتْ

عنهُ النُّهَى، وتركنا الصَّـــبْـــرَ ناســـينا

إنّـا قـــرأنا الأسى يوم النَّوى سُـــوَرًا

مكتـــوبةً، وأخـــذنا الصَّـــبْـــرَ تَلْقـــينا[2]

أمَّـــــا هـــواكِ فلـم نَـعْـــــدِلْ بمَـنْـهَلِـهِ

شِـــرْبًا، وإن كـــان يُروينا فُـــيظْمِـــينا[3]

لم نَجْفُ أُفْقَ جَـــمَـــالٍ أنتِ كـــوكَـــبُـــهُ

سَـــالِينَ عنهُ، ولم نَهْـــجُـــرْهُ قَـــالِينا[4]

ولا اخـــتـــيـــارًا تَجَنَّبْناهُ عن كَـــثَبٍ

لكن عَـــدَتْنَا - على كُـــرْهٍ - عَـــوادينا[5]

☆☆☆☆☆

نَـأْسَى عليكِ إذا حُـــثَّتْ مُـــشَـــعْـــشَـــعَـــةً

فـــينا الشَّـــمُـــولُ، وغنَّانا مُـــغَنِّينا[6]

لا أكـــؤسُ الرَّاحِ تُبـــدي من شـــمـــائلنا

سِـــيـــمَـــا ارتيـــاحٍ، ولا الأوتارُ تُلْهِـــينَا

---

(١) لم يرد البيت في الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد، وإن كان موضعه في القلائد بعد البيت: (كأننا لم نبت..) وقد أثبتناه هنا لمناسبته للمقام.

(٢) في الوافي بالوفيات والكوكب الثاقب (واتخذنا).

(٣) في النفح (بمشربه) والمعنى: أننا نفضل منهلكم على أي منهل آخر، وإن كان يزيدنا عطشًا كلما ازددنا منه شربًا.

(٤) في نسخة ب، ت والقلائد (لم يخف) وهو تحريف، قالين: كارهين.

(٥) كثب: قرب، وفي القلائدوالخريدة (تجنبناك)، والمعنى: أنه اضطر إلى فراقها مرغمًا، على قرب دارها منه.

(٦) مشعشعة: ممزوجة، الشمول: الخمر، وفي الذخيرة والوافي بالوفيات (وقد حثت) وفي الكوكب الثاقب (إذا صُبت).

دُومِي على العَـهْـدِ - مـا دُمنَا - مُـحـافِظَةً

فــالحُــرُّ مَنْ دَانَ إنصـافًــا، كَـمَــا دِينَا

فـمـا اسْـتَـعَـضْنَا خليـلاً منكِ يَحْـبِـسُنا

ولا اسْـتَـفَـدْنا حـبـيـبًـا عنكِ يَثْنِينا[1]

ولوْ صَــبَــا نحــوَنا من عُلْوِ مَطْلَعِــهِ

بدرُ الدُّجَى لمْ يَكُنْ - حَـاشَـاكِ - يُصْـبِـينا[2]

أَوْلِي وَفــاءً - وإن لـم تَبْـذُلـي صِلَـةً -

فـالطيفُ يُقنعنا، والذِّكْــرُ يَكفــينا[3]

وفي الجـواب مَـتَــاعٌ إن شـفَـعتِ به

بِـيضَ الأيادي الـتي مــا زلْتِ تُولِينَـا[4]

عليكِ مِنَّا سَـلامُ اللّهِ مـا بَقِيَتْ

صَـبَـابةٌ بِكِ نُخْـفـيـهـا فَـتُـخْـفـينا[5]

****

---

(١) في ب، ت، ز (فما استضعنا) وهو تصحيف، وفي الذخيرة (فما استعدنا خليلاً عنك... يسلينا)، وفي القلائد:

(فـمـا ابتـغـينا خليـلاً منك يحـبـسنا

ولا اسـتـفـدنا حـبـيـبًـا عنك يغنينا)

وفي الخريدة (... ولا استفدنا حميمًا عنك يغنينا) وفي النفح (فما استعضنا خليلاً عنك) وفي بعض نسخ النفح (... حبيبًا عنك يغنينا) وفي الوافي بالوفيات:

فـمـا اسـتـعـضنا خليـلاً عنك يصرفنا

ولا اسـتـفـدنا حـبـيـبًـا عنك يسلينا

ومثل هذا رواية الكوكب الثاقب ما عدا «ولا استفدنا» فقد جعلتها و«لا اتخذنا».

(٢) صبا: مال، يصبينا: يثير صبوتنا ويبتعث أشواقنا.

(٣) في أصول الديوان (أبلي)، وفي إحدى نسخ الذخيرة والوافي (أبدي) وقد آثرنا رواية القلائد والمغرب. وفي الوافي (فالذكر يقنعنا، والطيف يكفينا).

(٤) في القلائد والكوكب (قناع) وفيهما وفي النفح والخريدة (لو شفعت).

(٥) في الذخيرة والقلائد والنفح والكوكب (عليك مني.....)، وفي القلائد والكوكب (صبابة منك).

(*) هكذا وردت في الأصل ولعل ترتيبها الصحيح: وفي بعض نسخ النفح وفي الوافي بالوفيات (... حبيبًا عنك يغنينا).

الأمل المنشود[1]

يا نازحًا وضميرُ القلب مثواهُ
أنْسَتْكَ دنياكَ عَبْدًا أنتَ دُنياهُ[2]

ألْهَتْكَ عنهُ فُكاهاتٌ تَلَذُّ بِهَا
فليس يجري ببالٍ منكَ ذكرَاهُ

عَلَّ اللّيالِيَ تُبْقينِي إلى أملٍ
الدَّهْرُ يَعْلَمُ والأيَّامُ مَعْنَاه[3]

****

(١) لم ترد الأبيات بالديوان، وقد نقلناها عن الذخيرة والقلائد والمغرب.
(٢) في الذخيرة (أنت مولاه).
(٣) في الذخيرة (إلى أجل)، وفي المغرب (إلى أمد)، وفيه (الله يعلم).

مقصوص الجناح

إليكِ - مِنَ الأنامِ - غدا ارْتِياحي
وأنتِ - على الزَّمانِ - مَدَى اقْتِراحِي[1]
وما اعترضتْ همومُ النفس إلاّ
- ومن ذكراكِ - رَيْحاني وراحِي
فَدَيْتُكِ: إنّ صَبْري عنك صَبْري
- لدى عَطَشي - على الماءِ القَراحِ
ولي أملٌ - لَوِ الواشونَ كَفُّوا -
لأَطْلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجاحِ
وأعْجَبُ كيف يغلبُني عدوٌّ
رِضاكِ عليه من أمْضَى سِلاحِ[2]
ولَمَّا أَنْ جلَتْكِ لِيَ - اختلاسًا -
أَكُفُّ الدهرِ لِلْحَيْنِ المُتَاحِ
رأيتُ الشَّمْسَ تطلعُ من نِقابٍ
وغُصْنَ البانِ يرفلُ في وِشَاحِ[3]
فَلَوْ أَسْتطيعُ طِرْتُ إليك شَوْقًا
وكيف يطيرُ مَقْصوصُ الجَناحِ؟

(١) في النفح (من الزمان).

(٢) هكذا في الأصول والنفح، لعله (رضاك عليه أمضى من سلاحي)، وقد يكون (من أمضى سلاح)، والمعنى المقصود: إنني أعجب كيف يغلبني عدو ولكن رضاك عنه أعطاه سلاحًا ماضيًا.

(٣) في النفح (في نقاب).

فـــؤادي – مِنْ أَسًى بكِ – غـــيـــرُ خَـــالٍ
وقلبي – عن هَوًى لكِ – غـــيـــرُ صَـــاحِ[1]
علـى حـــــالَيْ وِصَـــــالٍ واجْـــــتِنابٍ
وفــي يَــوْمَــيْ دُنُــوٍّ وانْــتِــــــــــــزاحِ
وحَـــــسْـــــبِي أنْ تُطـالِعَكِ الأمـــــاني
بـأُفْـــقِكِ – في مـــســـاءٍ أو صـــبـــاحِ –
وأَنْ تُـهـــدِي السَّـــلامَ إليَّ – غِـــبّـــاً –
ولـو فــي بَـعْـضِ أنْـفـــــــاسِ الـرِّيـاحِ[2]

****

(١) ورد هذا البيت في الديوان والنفح قبل البيت الأخير من القصيدة، ولعل موضعه هنا أنسب، ورواية النفح (من هوى).
(٢) هذه رواية النفح، وقد آثرنا إثباتها لأنها أنسب للمعنى، وفي الديوان (وأن تبدي)، وفي النفح (إلي شوقا).

راحة وعذاب

مـــــــــــتـى أَبُـثُّـكِ مَـــــــــا بِـي؟
يـا راحـــــــــتـي وعـــــــــذابـي[1]
مـــــــــــتـى يـنـوبُ لـســـــــانـي
- في شَـــــرْحِـــــهِ - عـن كـــتـــــابـي؟
ألــــــلَّـــــهُ يـــــعـــــلـــــم أنّـــــي
أصـــــبـــــحـــتُ فـــيـكِ لِـمــــا بـي[2]
فــــــــــــلا يـطـيـبُ مَـنـامـي
ولا يـســـــــوغُ شَـــــــــــرابـي[3]

☆☆☆☆

يـا فِـــــتْـنَـةَ الـمُـــتَـــــقَـــــرِّي
وحُــــجَّــــةَ الـمُــــتَــــصـــــابي:[4]
الـشَّـــــــــــــــمْـسُ أنـتِ، تـــوارتْ
- عـن نـاظـري - بـالحِـــــــجـــــــاب

☆☆☆☆

مـــــــــــا الـبَـــــــدْرُ - شَـفَّ سَـنـاهُ
عـلـى رقـــــيـقِ الـسَّـــــحـــــاب -
إلاَّ كَـــــــوجـــــــهـكِ، لـــمّـــــا
أضـــــــــــاءَ تحـت الـنِّـقـــــــــاب

****

---

(١) رواية النفح (متى أنبّيك).

(٢) رواية بعض نسخ النفح (كما بي).

(٣) رواية النفح (فما يلذ منامي).

(٤) المتقري: أصلها المتقرئ وهو الناسك المتعبد، ومثلها القارئ، والقراء بضم القاف وتشديد الراء.

مرأى ومستمَع

أسْـتَـوْدِعُ اللهَ مَنْ أُصْـفِي الودادَ لهُ
مَحْضًا، ولامَ به الواشي فلم أُطِعِ
إِلْفٌ أَلَذُّ غُرورَ الوَعْدِ، يصفحُ لي
عنه، ويُقنعُني التَّعليلُ بالخُدَعِ(١)
تجلو المُنَى شَخْصَهُ لي - وَهْوَ مُحْتَجِبٌ
عني - فما شئتَ من مَرأى ومُستَمَعِ
يا بَدْرَ تِمٍّ بدا في أُفْقِ مَمْلَكَةٍ
فِراقَ مُطَّلَعًا من خيرِ مُطَّلَعِ
أفدي بدائع شكلٍ منكِ مُبْصِرَةً
لقتلِ نفسيَ - عمدًا - أشنعَ البِدَعِ(٢)

☆☆☆☆

تاللهِ - أكْرَمِ ما أَمْضَى اليمينُ به
مَنْ دَانَ في حُبِّهِ بالصِّدْقِ والوَرَعِ -
ما لَذَّ لي قُرْبُ أُنْسٍ أنتِ نازحةٌ
عنه، ولا ساغَ عيشٌ لستِ فيه معي(٣)

****

(١) المعنى، إنني أقنع منه بوعوده المطولة التي يتنازل بمنحها لي، وأعزي النفس حين يدركها اليأس بالآمال الكواذب.

(١) مبصرة: موضحة مظهرة أو مضيئة، ومنه قوله تعالى (والنهار مبصرًا): (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة)، أو ناظرة. والمعنى أن جمالك الفتان مظهر أشنع البدع، لأنه قتلني متعمدًا.

(١) يقسم بالله - وإنه لقسم عظيم من رجل يؤمن في حبه بالورع والتقوى - أنه لا يطيب له عيش بدونها مهما طاب العيش ولذت الحياة.

عهد لا يحول

عَــــــذِيـري مـن خـلـيلٍ يســــــــتطـيلُ
يميـلُ - معَ الـزَّمـــانِ - كـــمـــا يمـيلُ
ويَرْضَى أن تضـــيعَ كــذا حـــقـــوقي،
وبـاعـي فـي الـهَـــــــــوَى بـاعٌ طـويـلُ
أشَــمْــسًــا أشــرقتْ من (عــبــد شـمسٍ)
أَمَــا لَـكِ - في سِــوى قلبـي - أُفُـــولُ؟
أمــــا يُمْــــحَى عـــتـــابُكِ كلَّ يومٍ؟
أمــــا يُرْجَى - إلـى وصلٍ - وُصُـــــولُ؟
ولو أجـــدُ السَّـــبـــيلَ لَطِرْتُ وَجْـــدًا،
ولـكنْ مــــا إلـى هـذا ســــبـــــيلُ
كـــــتـــــابـي - عـن وِدادِكِ - لا يـزولُ،
وعـــهـــدي - مِـــثْلَ عَـــهْـدِكِ - لا يَحُـولُ

****

عيون الحساد

لـو تُـرِكْنَا بـأن نَـعُـــــــوَدكِ عُـــــــدْنَـا
وقـــــضـــــينـا الذي علـينـا وَعُــــدْنَا[١]
غـــيــر أن الـهـــوى اســـتـــفـــاضَ حـــديثًـــا
فـــانْتَـــحَـــتْنَا الـعُـــيُـــونُ لـمَّـــا حُـــسِـــدْنَا[٢]
فَـلَـوَ انَّ الــنُّـفــــــوسَ تُـقْــــــبَـلُ مِـنَّـا،
لســـــمـــــحنا بـهـــــا - فِـــداءً - وَجُـــــدْنَـا

****

(١) عدنا: من العيادة وهي زيارة المريض، وعدنا (في آخر البيت) من العودة، وفي أ، ب، ز (وقضينا الذي علينا وزدنا).
(٢) المعنى: أن الهوى لما ذاع أمره أحاطت بنا العيون حسداً وحقداً.

معاهد صبوات[١]

على (الثَّـــغَبِ الشّـــهْـــدِيِّ) مِني تحـــيـــةٌ
زَكَتْ، وعلى (وادي الـعَـــقـــيقِ) سَـــلامُ[٢]
ولا زال نَوْرٌ (في الرُّصـــافـــةِ) ضـــاحكٌ
بأرجـــائهـــا يبكي عليـــه غَـــمـــامُ[٣]
مـــعـــاهدُ لَهْـــوٍ لم نزلْ في ظلالهـــا
تُدارُ علينا - للمُـــجـــونِ - مُـــدامُ[٤]
زمـــانَ: رِياضُ الـعـــيش خُـــضْـــرٌ نَواضِـــرٌ
تَرِفٌّ، وأَمْـــوَاهُ السُّـــرورِ جِـــمَـــامُ[٥]
فـــإن بانَ منِّي عَـــهْـــدُها، فَـــبِلَوْعَـــةٍ
يُشَبُّ لهـــا - بينَ الضلوعِ - ضِـــرَامُ
تذكّـــرتُ أيّامي بهـــا، فـــتـــبـــادرتْ
دمـــوعٌ، كـــمـــا خـــانَ الفـــريدَ نِظامُ[٦]
وصُـــحْـــبـــةَ قـــومٍ كـــالمصـــابيح، كُلُّهمْ
- إذا هُزَّ للخَطْب المُلِمِّ - حُـــسَـــامُ
إذا طافَ بالرَّاحِ المُـــديرُ عليْـــهـــمُ
أطافَ به بِيضُ الوجُـــوهِ، كِـــرَامُ

---

(١) صاغ الشاعر هذه القصيدة في الشوق إلى مراتع لهوه وملاعب هواه بقرطبة.

(٢) في الذخيرة (على دارة الشرقي).

(٣) النور: الزهر، وفي الذخيرة (روض).

(٤) في الذخيرة (للسرور).

(٥) في الذخيرة (خضر نواعم)، (أمواه النعيم)، جمام: غزيرة.

(٦) في الذخيرة (دموعي) والمعنى: تساقطت دموعي مع الذكريات كما تتساقط حبات العقد.

وَأَحْـوَرُ سَـاجي الطَّرفِ، حَـشْـوُ جُـفُـونِهِ

سَـقـامٌ، بَرَى الأجـسـامَ منه سِـقـامُ[1]

تخـال قـضـيبَ البـان - في طَيِّ بُردِهِ -

إذا اهْـتَـزَّ منه مِـعطفٌ وقَـوَامُ

يُديرُ - علىَ رغم العِـدا - من وِداده

سُـلافًـا، كـأنَّ المِسْكَ مِنْهُ خِـتَـامُ

فـمن أجْلِهِ أدعـو لقـرطبـةِ المُنَى

بسُـقْـيَـا ضَـعِـيفِ الطَّلِ وهْوَ رِهَامُ[2]

مَـحَلٌّ غَنِينَا بالتَّـصـابي خِـلالَهُ

فـأسْـعَـدَنا، والحـادثاتُ نِيـامُ

فـمـا لَـحِـقَتْ تلك الليـالي مـلامـةٌ

ولا ذُمَّ مـن ذاك الحَـبِـيبِ ذِمَـام[3]

****

(١) (في الأصل تري) ولعلها من ورَى النار: أي قدحها، ساجي الطرف ساكنه. سِقام (بكسر السين): جمع سقيم.

(٢) في الذخيرة (ومن أجلها)، الرهام: جمع رهمة، وهي المطر الخفيف الدائم الذي لا يؤذي.

(٣) في نسخة ت (زم..... زمام)، وفي الذخيرة (ولا ذم... حمام).

لوعة الغريب[1]

غَــريبٌ بأقــصى الـشّــرْقِ يشْكُرُ للصَّــبــا
تَـحَــمُّلَـهَـــا منهُ الـسَّـــلامَ إلـى الـغـــرْبِ[2]
ومــا ضَـرَّ أنفـاسَ الـصَّـبَـا في احْـتِـمـالِهـا
سَـــــلامَ هَـوًى يُـهْـــديهِ جِـــــسمٌ إلى قلْبِ[3]

****

(١) صاغ الشاعر هذين البيتين في طرطوشة من أعمال بلنسية قرب الساحل الشرقي للأندلس على البحر الأبيض المتوسط، وتقع على صخرة منبسطة في سفح جبل الكهف على نهر إبرة، وقد اشتهرت بوفرة سلعها فأمَّها التجار من كافة الأصقاع، وهي قلعة حصينة يقول فيها عبدالملك بن إدريس الجزيري حين سجنه بها المنصور بن أبي عامر من قصيدة:

في رأس أجــرد شــاهق عــالي الذرا
مـــا بعــده لمؤمل من مــبــصـــر
ويكاد من يرقى إليـــه مـــرة
من دهره يشكو انقطاع الأبهـــر

وتقع طرطوشة إلى الشرق من قرطبة.

(٢) في بعض نسخ الذخيرة (منى) وفي بعضها (منا).

(٣) في الذخيرة والقلائد (سلام فتى) وفي نسخة ب، ز (إلى القلب).

زفرة الشريد[١]

يا دمعُ صُبْ مــا شِــئْتَ أن تَصُــوبَا[٢]
ويــا فــــــــــؤادي آنَ أنْ تـذوبــا
إذِ الرزايا أصـــبــحتْ ضُـــروبا[٣]
لم أرَ لي – في أهلهـــا – ضَـــريبـــا
قـــد مـــلأ الشّـــوقُ الحَـــشـــا نُدوبا
في الغَـــرْبِ إذْ رحتُ بـه غَـــريبـــا[٤]
عَليلَ دَهْرٍ ســـامَني تَعْـــذيبـــا[٥]
أدنى الضَّنَى إذ أبْعَــدَ الطَّبـــيـــبـــا

☆☆☆☆

ليت القَـــبُـــولَ أحْـــدَثَتْ هُبـــوبا[٦]
ريحُ يروحُ عَـــهْـــدُها قَـــريبـــا[٧]
بالأُفُقِ الـمُـــهْـــدي إلينا طِيـــبـــا
تَعَطَّرتْ منه الصَّـــبَـــا جُـــيُـــوبَا
يَبْـــرُدُ حَـــرَّ الكَبِـــدِ الـمَـــشْـــبُـــوبا[٨]

☆☆☆☆

(١) صاغ الشاعر هذه الأرجوزة أثناء لجوئه إلى بطليوس قاعدة ملك بني الأفطس وتقع على نهر آنة في الشمال الغربي من قرطبة.

(٢) صاب المطر: انصب بغزارة.

(٣) في الذخيرة (إن) بتشديد النون.

(٤) في الذخيرة (أن) بفتح الهمزة وسكون النون.

(٥) في بعض نسخ الذخيرة (رامني) وفي بعضها (ضامني).

(٦) القبول: ريح الصبا، وهي ريح طيبة تهب من الشرق، والمعروف أن قرطبة تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس حيث لجأ الشاعر إليها.

(٧) العهد: المطر المتوالي، أو هو أوائل المطر، والمعنى ريح مؤذنة بالمطر، وأن عهد هذه الرياح بقرطبة قريب.

(٨) برده جعله باردًا، وأبرده لغة رديئة.

يا مُـتْـبِـعًـا إسَـادَهُ الـتَّـأويبـا[١]

مــشــرِّقًــا قــد سَــئِمَ الـتَّـغْـريبـا

أمــا سَـمِـعْـتَ الـمَـثَلَ الـمَـضْـروبا:

«أرسل حكيـمًـا، واسْـتَـشِـرْ لَبـيـبـا»

☆☆☆☆

إذا أتَيْتَ الوَطَنَ الحَـبـيـبـا

والجـانبَ الـمُـسْـتَـوْضَحَ العَـجـيـبـا

والحـاضـرَ الـمُنْـفَـسِحَ الرَّحـيـبـا

فَـحَـيٍّ منه مـا وَرَى الجُنوبا[٢]

☆☆☆☆

مـصـانـعٌ تُجَـاذِبُ القلوبا[٣]

حـيث ألِفْتُ الرشـأَ الرَّبيـبـا[٤]

مُـخـالفًـا في وَصْلِهِ الرقـيـبـا[٥]

كم باتَ يَدْري لَيْلَهُ الغِـربيـبـا[٦]

لما انْثَنَى في سُكْرِهِ قَـضـيـبـا

تَشْـدو حَـمَـامُ حَلْيِـهِ تَطْريبـا[٧]

---

(١) إسآده: مواصلته السفر ليلاً، التأويب: مواصلة السير بالنهار.

(٢) ورى: أوقد، والمعنى: حي من هذا الوطن ما أشعل جذوة الشوق بين الجوانح، وفي بعض نسخ الذخيرة (رأى) وعلى هذه الرواية تكون الجنوب بفتح الجيم، وحينئذ يصبح المعنى: حي من هذه المواطن ما جلعني أبصر الجنوب ماثلاً أمام عيني لشدة تعلقي به، والمعروف أن قرطبة تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس.

(٣) المصانع: القرى أو الحصون أو القصور.

(٤) الرشأ: الظبي الصغير حين يقوى على المشي والعدو خلف أمه، والربيب: الناشئ في النعمة.

(٥) في الذخيرة (مخالسًا).

(٦) يدري: يحتال، الغربيب: الشديد السواد، والمعنى أنه طالما خدع الرقباء وتحين الفرص تحت جنح الظلام للقائي، ولعله يشير بهذا إلى قول ولادة في خطابه:

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي

فإني رأيت الليل أكتم للسرِّ

(٧) المعنى أن وسوسة حليه ترن كما يغرد الحمام.

هَصَـــرْتُهُ حُلْوَ الجَنَى رطيـــبـــا
أَرْشُفُ منه الـمَــبْــسِمَ الشَّنيـــبَـــا[١]
حـــتَّى إذ مـــا اعْـــتَنَّ لي مُــريبـــا[٢]
شَــبـــابُ أُفْقٍ هَمَّ أنْ يشـــيــبَـــا
بـادرتُ سَـــعْــيًـــا، هلْ رأيتَ الذِّيبـــا؟[٣]
أهاجِـــري أم مُـــوسِـــعِي تأنيـــبـــا
مَنْ لـمْ أُسغْ من بَعْـــدِهِ مَـــشْـــروبَا؟
مـــا ضَـــرَّهُ لو قـــالَ: لا تَثْـــريبـــا
ولا مـــــــلامَ يَـلْحَـقُ الـقُـلـوبـا؟[٤]
قـــدْ طالَ مـــا تَجَـــرَّمَ الذُّنوبا؟[٥]
ولـم يَدَعْ في الـعُـــذرِ لي - نَصـــيـبـــا

✲✲✲✲✲

إن قَـــــــــرَّتِ الـعـينُ بـأنْ أَؤوبـا[٦]
لـمْ آلُ أنْ أسْـــتَـــرْضِيَ الـغَـــضُـــوبا[٧]
حَـــسْـــبِيَ أنْ أُحَـــرِّمَ الـمَـــغِـــيـــبَـــا
قـــدْ ينـفـعُ الـمُــــذنِبَ أنْ يَـتُـــوبا

✱✱✱✱

(١) الشنيب: من الشنب وهو عذوبة الأسنان وبردها.

(٢) اعتن: اعترض.

(٣) المعنى حتى إذا ما آذن الليل بالزوال، وسرت أشعة الضياء في غلس الظلام انسللت من مخدعها كما ينسل الذئب الحذر الحريص.

(٤) في بعض نسخ الذخيرة (فلا ملام لحق المغلوبا) وفي بعضها (لحق القلوبا).

(٥) تجرم: ادعى الذنوب. ومنه قول الشاعر:

تَعُـــدُّ علي الذنب إن ظفـــرتْ به
وإلا تجـــدْ ذنبًـــا عليَّ تَجَـــرَّمُ

(٦) أؤوب: أعود، يعني عودته إلى قرطبة.

(٧) في ب، ز (لم آن).

أنّة الطريد

عرج الشاعر على بطليوس أثناء هجرته من قرطبة إلى إشبيلية، فطوى بها بضعة أشهر داميَ القلب، مشرد اللب، وطالعه العيدان، فزاداه شجنًا على أشجان، وتذكر مواطن لهوه ومرابع أنسه بقرطبة، فهاجته الذكريات، وأرسل هذه الزفرات:

خليليَّ لا فِطرٌ يَسُرُّ ولا أَضْحَى
فما حالُ من أمسى مَشوقًا كما أضحى؟[١]
لئنْ شاقَني (شرقُ العُقابِ) فلم أزلْ
أَخُصُّ بمَمْحُوض الهَوَى ذلك السَّفحا[٢]
وما انْفَكَّ جُوفِيُّ (الرُّصَافَةِ) مُشْعِري
دَواعِيَ ذِكْرَى تُعْقِبُ الأَسَفَ البَرْحا[٣]
ويَهْتاجُ (قَصْرُ الفارسيِّ) صَبابةً
لقلبيَ، لا تألو زِنادَ الأَسَى قَدْحَا[٤]
وليس ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ ناصحٍ)
فأقْبَلُ في فَرْطِ الوَلوع به نُصْحَا

---

(١) المعنى: لا عيد الفطر يسرني، ولا عيد الأضحى يسعدني، فكيف ينعم قلب يؤرقه الشوق في المساء ويثيره في الصباح، وقريب من هذا قول المتنبي:

عيدٌ!! بأية حالٍ عدت يا عيد؟
بما مضى؟ أم لأمر فيك تجديد؟
أما الأحبة فالبيداءُ دونهم
فليت دونك بيدًا، دونها بيد

(١) في ب، ت (ولم أزل) وفي الذخيرة (بمخصوص الهوى) وفي القلائد (بممحوص) ومعنى الممحوص: الخالص، من (محص الصائغ الذهب بالنار: أخلصه مما يشوبه).

(١) جوفي الرصافة: شمالها حيث نشأ الشاعر، وفي الذخيرة والقلائد (دواعي بث) والبث: أشد الحزن أو الحال، والبرح: الشدة، والأسف البرح: الحزن المبرح العنيف.

(١) المعنى: أن ذكريات هذا القصر تبعث في النفس أشواقًا لا تفتأ تقدح فيها زناد الأسى، وتثير جذوة الأحزان.

كـــأنـيَ لمْ أشـــهَـــدْ لدى (عَـــيْنِ شُـــهْـــدَةٍ)
نِزالَ عِـتـــابٍ كـــان آخِــرُهُ الـفَــتْــحـــا[1]

وقـــائِعُ جـــانيـــهـــا التَّـــجَنِّي، فـإنْ مَـشَى
سـفـيـرُ خـضـوعٍ بيننا أكَّـدَ الصُّلْحَـا[2]

وأيَّامُ وصلٍ (بالعــقـيق) اقْـتَـضَيْـتُـهُ
فـإلاَّ يكنْ مـيـعـادُهُ العِـيـدَ فـالفِصْحَـا[3]

وآصـــالُ لَهْــــوٍ في (مُـــسَنَّـاةِ مـــالكٍ)
مُـعـاطاةَ نَدْمَـانٍ إذا شـئتُ أوْ سَـبْـحَـا[4]

لدى راكـدٍ تُصْـبِـيـكَ من صَـفَـحـاتِهِ
قَـواريرُ خُـضْـرٌ خِلْتَـهَـا مُـرِّدَتْ صَرْحـا[5]

مَــــعـــــاهِدُ لذَّاتٍ وأوطانُ صَـــبْـــوَةٍ
أجَلْتُ الـمُـعَلَّى في الأمــاني بـهـا قِـدْحـا[6]

✲✲✲✲

ألا هـــلْ إلـــى (الـــزَّهْـــراءِ) أَوْبَـــةُ نـــازحٍ
تَقَـضَّى تَنائيــهـــا مَـدامِـعُـهُ نَزْحَـا[7]

---

(١) المعنى: كم تعاتبنا في عين شهدة، ثم انتهى العتاب بالإعتاب، وانطوى الملام بالإنعام.

(٢) المعنى: كم جنى عليَّ تجنيها وادعاؤها ما لم أجترحه من الذنوب، فإذا توسلت إليها بالخشوع والتودد لان جانبها، ورق قلبها، وأنعمت بالرضى، وقريب منه قول الشاعر:

فـقـمت أفـرش خـدي في الطريق له
ذلاً، وأسـحـب أنيالي على الأثر

(٣) في الذخيرة (اقتضيتها)، والمعنى كم سعدت بالوصال سواء تم لي في عيد المسلمين أو عيد المسيحيين.

(٤) الآصال: جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب، مسناة مالك: اسم مكان، وأصل المسناة: السد المائي، وكان شاعرنا مولعًا بالغياض الشذية والجداول الندية، فكان يتعاطى بها الشراب مع ندمانه، أو يسبح بها مع خلانه.

(٥) راكد: ساكن، مردت: سويت، صرحًا: قصرًا، والمعنى: أنه طوى أوقاتًا سعيدة في مسناة مالك على جدول هادئ ساكن كأن صفحة مياهه من بلور مصقول، يخاله الناظر معداً ومهيأ لبناء قصر شامخ.

(٦) في ب، ز (أوطان صبوة)، المعلى: سابع سهام الميسر وهو أوفرها حظاً لأن الثلاثة الباقية من السهام العشرة لا نصيب لها. والقِدح بكسر القاف: السهم قبل أن يراش وينصل، وكان العرب في الجاهلية يستعملون هذه الأسهم في لعب الميسر فنهاهم عنه الإسلام.

(٧) أوبة. عودة، نازح: بعيد، تقصى: بلغ الغاية، تنائيها: بعدها، نزحًا: جفافًا (من نزح البئر: أخرج ماءها كله) والزهراء: من أجمل ضواحي قرطبة، تفنن الخليفة عبدالرحمن الناصر في تشييدها عشرات الأعوام، وأنفق عليها آلاف الآلاف حتَّى جاءت أعجوبة في فن البناء، وقد شيدها تخليدًا لحظيته وسماها باسمها، وجعلها حاضرة لخلافته، فتغنى بذكرها الشعراء والأدباء، وطالما ترنم شاعرنا بذكرها، وهو هنا يتمنى أن يعود إليها بعد أن برح به الشوق ونزفت مدامعه الذكريات. وفي القلائد (تقضت مبانيها)، وفي ت (نوبة نازح) ومعنى النوب: القرب.

مَـــقــاصِــيـــرُ مُلْكٍ أشْــرَقَتْ جَنَبــاتُهــا

فـخِلنا العِـشـاءَ الجَـوْنَ أثناءها صُـبـحـا[1]

يُمَـــثِّلُ قُـــرْطَيْـــهـــا لِيَ الوَهْمُ جَـــهْـــرَةً

فـقُـبَّـتَـهـا، فـالكوكبَ الرَّحْبَ، فـالسَّطْحـا[2]

مَـــحَلُّ ارتيـــاحٍ يُذْكِـــرُ الخُلْدَ طِيـــبُـــهُ

إذا عـزَّ أنْ يَصْـدَى الفَـتَى فـيـه أو يَضْـحَى[3]

هناك الجِـــمـــامُ الزُّرقُ تَنْدى حِـــفـــافُـــهـــا

ظلالٌ عَـهِـدْتُ الدهرَ فـيـهـا فَـتًى سَـمْـحـا[4]

تَعَـــوَّضْتُ من شَـدْوِ القِـيــانِ خِـــلالَهَـــا

صَـدَى فَلَواتٍ قـد أطارَ الكَرَى ضَـبْـحَـا[5]

ومن حَـــمْلِيَ الكأسَ الـمُـــفَـــدَّى مُـــديرُها

تَقَـــحُّمَ أهْوالٍ حَـــمَلْتُ لهـــا الرُّمْـــحـــا[6]

أجَـلْ إنَّ لَيْـلِـي فـــــوقَ شـــــاطئ نِيطَـةٍ

لأقْـــصَـــرُ من ليلي بـآنَـةَ فـــالبَطْحـــا[7]

****

---

(١) المعنى: هذه القصور الملكية الباذخة بالزهراء أضاءت رحابها وأشرقت سماؤها، فأحالت الليل المظلم إلى صباح وضاء، والجون: من أسماء الأضداد فتطلق على الأبيض والأسود، والمراد بها هنا السواد.

(٢) المعنى: إنني – على الرغم من البعاد – أراها بين الوهم، وأبصر ملاعبها ماثلة أمامي، فأرَى القرطين والقبة والكوكب الرحب والسفح فتبهج نفسي وتقر عيني.

(٣) في أصول الديوان (إذا عنَّ) بمعنى اعترض أو ظهر، وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد لأنها أنسب للمعنى.
يصدى: يظمأ: يضحى: يبرز للشمس. والمعنى: أن الزهراء تذكرنا بجنات الخلد حيث أكلها دائم وظلها، فلا يصيب المؤمنين فيها ظمأ ولا يتعرضون للفحات الشمس، والله تعالى يقول عنها لآدم عليه السلام (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى).

(٤) الجمام: المياه الغزيرة، وزرقتها ناجمة عن غزارتها وانعكاس زرقة السماء عليها، تندى: تجعل الشيء ندياً، الحفاف: الجانب، والمعنى أن هذه الربوع تتدفق فيها المياه، وتُندّي الظلال جوانبها، وقد أسعدنا الزمان بنفحاته فكأنه فتى سمح كريم.

(٥) شدو القيان: غناء الجواري، الصدى: رجع الصوت. فلوات: صحاري. الضبح: صوت الخيل في غير صهيل أو حمحمة، أو عدوها. والمعنى: أنني استبدلت بغناء الجواري أصواتًا مبهمة مخيفة تنبعث من جوف الصحراء تشبه عدو الخيل أطارت من عيني النوم.

(٦) المعنى: إنني حرمت من الائتناس بالنعيم ومعاقرة الشراب يديره غلام جميل تفديه الأرواح، وعرضت لاقتحام أخطار حملت لها الرمح بدلاً من الكأس.

(٧) المعنى: نعم كانت ليالي أنسي على شاطئ نيطة قصيرة لأنها حافلة بالنعيم، أما لياليّ في آنة والبطحاء فطويلة لأنها حافلة بالمتاعب والأخطار.

لا أهل ولا وطن[1]

حل العيد فأنس كل إلى أهله، وسعد بوطنه، ونظر الشاعر فرأى نفسه نازحًا عن وطنه، نائيًا عن أهله، فناجاهم على البعد بهذه الأبيات:

هل تذكــرون غَــريبًــا عــادَهُ شَـجَنُ
- مِنْ ذِكْـركمْ - وَجَـفَـا أجْـفَـانَهُ الوَسَنُ؟[2]
يُخْـفِي لَواعِـجَـهُ والشَّـوْقُ يَفْـضَـحُـهُ
فـقـد تَسَـاوى - لديهِ - السِّـرُّ والعَلَنُ
يا وَيْلَتــاهُ، أيَبْــقَى في جَــوانِحِــهِ
فُــؤادُهُ، وَهْوَ بالأطلالِ مُــرْتَهَنُ؟
وأرَّقَ العَـيْنَ - والظَّلمـاءُ عـاكِـفَـةٌ -
وَرْقَـاءُ، قـد شَـفَّـها - إذ شَـفَّني - حَـزَنُ[3]
فَـبِتُّ أشْكو وتَشْكو فـوقَ أيْكَتِـهـا
وباتَ يَهْـفُـو ارتيـاحًـا بيننا الغُـصُنُ[4]

☆☆☆☆

يا هلْ أُجالِسُ أقْـوامًـا أحِـبُّـهُمُ؟
كُنَّا وكـانوا - على عَـهْـدٍ - فـقـد ظَعَنوا[5]

---

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان، وقد أثبتناها عن المعجب.

(٢) الشجن: الحزن، الوسن. النوم.

(٣) ورقاء: حمامة، شفها الحزن: أضعفها وأنحلها.

(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة، أو الأجمة بجوار المياه، يهفو. يتحرك ويتمايل.

(٥) ظعنوا: رحلوا.

أوْ تَحْـفَظونَ عُـهـودًا لا أُضَـيِّـعُـهـا

إنّ الكرامَ - بحـفْظِ العَـهْـدِ - تُمـتَـحَنُ(١)

ومنها:

إنْ كـان عـادَكُمُ عـيـدٌ، فَـرُبَّ فَـتًى

بالشّـوْقِ قـد عـادَهُ - من ذكـرِكُمْ - حَـزَنُ

وأفْـرَدَتْهُ اللّيـالي من أحِـبَّـتِـهِ

فـبـاتَ يُنْشِـدها - ممّا جَنَى الزّمَنُ:

«بِـمَ الـتَّـعَـلُّـلُ؟ لا أهْـلٌ ولا وطـنٌ

ولا نـديمٌ ولا كـأسٌ ولا سـكـنُ»(٢)

****

(١) تمتحن: تختبر.

(٢) اقتبس الشاعر هذا البيت من مطلع قصيدة للمتنبي، والتعلل: التسلي والعزاء، السكن: ما يسكن إليه الإنسان من أهل ومال وغير ذلك، ويطلق في الغالب على الزوجة أو الحبيبة.

٤ – بين اليأس والأمل

«ترجح قلب الشـاعـر بين الرجـاء والقنوط، فناجى حـينًا، وعتب حينًا، وهو في نجواه أقرب إلى الشكاة، وفي عتابه أدنى إلى الغفران».

خطرات الظنون

باعَـــدْتِ بالإعـــراض غَـــيْـــرَ مُـــبَـــاعِـــدِ
وَزَهَــدْتِ في مــنْ لـيـس فــــــيـكِ بـزاهـدِ
وسَـــقَـــيْـــتِنِي منْ مـــاءِ هَـجْـــرِكِ مَـــا لَـهُ
أصــــبــــحـتُ أَشْـــرَقُ بـالـزُّلالِ الـبــــارِدِ
هـلاَّ جَـــعَـلْـتِ - فَـــدَتْكِ نَفْـــسي - غـــايـةً
لِـلـعَـــتْبِ، أبْلُغُـــهـــا بجَـــهْـــدِ الجـــاهدِ؟
لا تُفْـــســـدَنْ - مـــا قَـــدْ تـأكَّـــدَ بَيْنَنا
من صــــالـح - خَـطَـراتُ ظَـنٍّ فـــــاسِـــدِ
حـــاشـــاكِ مِنْ تَضْـــيـــيعِ أَلْفِ وَسِـــيـلـةٍ
- شَـــجِيَ الـعـــدوُّ لهـــا - بذنبٍ واحـــدِ
إنْ أجْنِهِ خطأً، فـــقـــد عـــاقَـــبْـــتِني
ظُلمًـــا، بأبلغَ من عِـــقـــابِ الـعـــامـــدِ

☆☆☆☆

عُـــودي لما أَصْـــفَـــيـــتِنيـــهِ منَ الـهَـــوَى
بَدْءًا، فَلَسْتُ - لِـمَـــا كَـــرَهْتِ - بعـــائد
وَضَـــعِي قِناعَ السُّـــخْطِ عن وجـــه الرِّضـــا
كَـــيْـــمَـــا أَخِـــرُّ إليْـــهِ أوَّلَ سَـــاجِـــدِ

****

النائي القريب

هَلْ لِداعيكَ مُجيبُ؟
أم لشاكيكَ طَبيبُ؟
يا قريبًا حينَ يَنْأى
حاضرًا حين يَغِيبُ
كيفَ يَسْلوكَ مُحِبٌّ
زانَهُ مِنْكَ حبيبُ؟
إنَّما أنتَ نَسيمٌ
تَتَلَقَّاهُ القُلوبُ
قد عَلِمْنا عِلْمَ ظنٍّ،
هُوَ - لا شكَّ - مُصيبُ
أَنَّ سِرَّ الحُسْنِ ممَّا
أَضْمَرَتْ تلكَ الجُيُوبُ[1]

****

(١) في نفح الطيب (تلك القلوب).

العهد المصون

أَنَّى أُضَــــــيِّعُ عَـــــــهْـــــدَكْ؟
أمْ كَـــــــيْــفَ أُخْــلِـفُ وَعْــــــــدَكْ؟
وقـــــــــــدَ رَأتْــكِ الأمَــــــــانـي
رِضَــىً، فـلـم تَـتَـــــــــعَــــــــدَّكْ

☼☼☼☼

يـــا لـــيــتَ مَــــــــــا لَــكِ عــنْـدي
- مِـنَ الـهَــــــــــوَى - لِـيَ عِـنْـدَكْ
فــطــالَ لَــيْــلُــكِ بَــعْــــــــــدي
كــطــول لَــيْــلِـيَ بــعْـــــــــــدَكْ[1]
سَلِي حَــــيـــاتي أَهَـبْـــهَـــا،
فَــــلَــــســـتُ أَمْـــلِـــكُ رَدَّكْ[2]
الــدَّهْــرُ عَـــــــبْـــــدِيَ، لــمَّـــــا
أصـــبــــحتُ - في الحُبِّ - عَــــبْـــدَكْ

****

(١) في الذخيرة (وطال) وقد ورد البيتان في نفح الطيب بهذه الرواية:
يا لـيت شـــــعـــــري، وعـنـدي
مــــــا لـيس فـي الحـب عـنـدك
هـل طـال لـيـلـك بـعــــــدي
كـطـول لـيـلـي بـعـــــــدك؟
(٢) في الأصل (سلني) وقد آثرنا رواية الذخيرة.

إرضاء الحبيب

لَمْ يَكُنْ هَجْـــرُ حَـــبِـــيـــبِي عنْ قِلَى
لا، ولا ذاكَ الـــتَّـــــــــــجَـنِـي مَـلَـلا[1]
سَــــــرَّهُ شُكْرِيَ - إذ عَـــــافَى - ولَمْ
يَدْرِ مـــا غـــايَةُ صَــبْـــرِي فَـــابْتَلَى[2]
أنـــا راضٍ بـــالـــذي يَـــرْضَـــى بــهِ
لـيَ، مَنْ لـو قـــالَ: (مُتْ) مـــا قلتُ: (لاَ)
مَـــثَلٌ في كُلِّ حُـــسْنٍ، مِـــثْلَمـــا
صـــار ذُلـيِّ، في هَـوَاهُ مَـــثَـــلا
يا فَـتِـيـتَ الـمِـسكِ، يا شَـمْسَ الضُّحَى
يا قَـضَـيـبَ البَـانِ، يا ريمَ الفَـلا:[3]
إنْ يكنْ لـي أمَلٌ غَـــيْـــرَ الرِّضـــا
مـنـكَ، لا بُـلِّـغْـتُ ذاكَ الأمَـــــلا!!

****

(١) القلى: البغض. الملل: السآمة.
(٢) رواية النفح (سره دعوى ادعائي، ولم)، ابتلى: اختبر.
(٣) الريم: الظبي الخالص البياض، ومثله الرئم وقد تخفف الهمزة فيصبح الريم. الفلا: جمع فلاة وهي البادية.

خداع الأماني

ثِقِي بي - يا مُعَذِّبَتِي - فإنيٍّ
سَأَحْفَظُ فيكِ ما ضَيَّعْتِ منّي
وإنْ أصبحتِ قد أرْضَيْتِ قَوْمًا
بسُخطي، لم يكنْ ذا فيكِ ظنّي
وهلْ قلبٌ كقلبكِ في ضُلوعي،
فأسْلو عنكِ حينَ سَلَوْتِ عنّي؟
تَمَنَّتْ - أنْ تَنالَ رضاكِ - نفسي،
فكان مَنِيَّةً ذاكَ التَّمَنِّي
ولم أَجْنِ الذُّنوبَ فَتَحْقِديها،
ولكنْ عادةٌ منكِ التَّجَنِّي (١)

****

(١) في أصول الديوان (ولم أجز) وقد تكون من الجزاء بمعنى أنني لم أقابل إساءتك إلي بمثلها، وقد تكون من الجواز بمعنى لم أبرر أخطائي في حقك.

الكوكب المستقيم

أنتِ مَـــعْنَى الضَّنَى وَسِـــرُّ الدُّمـــوعِ،
وســـبـيـلُ الـهَـوَى، وقَـــصْـــدُ الـوَلـوعِ[1]
أنـتِ والـشَّـــمْسُ ضَـــرَّتـانِ، ولـكِـنْ
لـكِ - عنـدَ الـغُـروبِ - فَـــضْـلُ الطُّلُوعِ
لَـيسَ بـالـمُـــؤْيسِي تَكَلُّفُكِ الـعَـــتْـ
ـبَ - دلالاً - مِـنَ الـرِّضـى الـمَـطـبُـــوعِ[2]
إنَّمـــا أنـتِ - والـحَـــسُـــودُ مُـــعَنًّى -
كـــوكبٌ يســـتـقـــيمُ بَعْـــدَ الرُّجـــوعِ

****

(١) في النفح (معنى الهوى) وفي ز (الضيا) وفي الذخيرة (وسر الضلوع.... وقصد الدموع).
(٢) في النفح (ليس يا مؤنسي... الرضى المطبوع) والمعنى: لا أيأس من عتبك ودلالك فإنك تتكلفين العتاب والدلال على حين ينطبع على حنايا قلبك حبك لي وشغفك بي، فدلالك تكلف وحبك طبع.

مرارة الوداع

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ
ذائعٌ مِن سِرِّهِ ما اسْتَوْدَعَكْ[١]
يَقْرَعُ السِّنَّ على أنْ لم يَكُنْ
زادَ في تلكَ الخُطا إذْ شَيَّعَكْ
يا أخا البَدْرِ سَناءً وسَناً
حفِظَ اللّهُ زمانًا أطْلَعَكْ[٢]
إنْ يَطُلْ بَعْدكَ لَيْلي فَلَكَمْ
بِتُّ أشْكو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

****

---

(١) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب وفي الديوان. (ودع الحسن... ضائعٌ من عهده....).
(٢) في بعض نسخ الذخيرة (رحم الله).

بعض الوصل

أَغَـــائبـــةً عنّي، وحَـــاضِـــرَةً مـــعي
أناديك – لـمَّـا عِـيلَ صَـبْـرِيَ – فـاسْـمَـعِي
أَفِي الحـقِّ أَنْ أشْــــقَى بحُـــــبِّكِ، أو أُرَى
حَـــرِيقًـــا بأنفـــاسي غَـــرِيقًـــا بأَدْمُـــعِي؟
ألا عَطْفَـــةٌ تَحْـــيَـــا بِهَـــا نَفْسُ عَـــاشِقٍ؟
جَـــعَلْتِ الرَّدَى منهُ بمَرْأَى وَمَــــسْــــمَعِ
صِلِينِيَ – بعضَ الوَصْلِ – حـــتَّى تَبَـــيَّنِي
حَـقِـيـقَـةَ حـالِي. ثُمَّ مـا شِـئْتِ فـاصْنَعِي

****

الروح والجسد

لَـمَّــا اتَّصلْتِ اتِّصـــالَ الخِلْبِ بالكَبِـــدِ
ثمَّ امْـتَــزَجْتِ امْـتِـزاجَ الرُّوحِ بالْـجَـسَـدِ[1]
ســـاءَ الوُشــــاةَ مكاني منكِ، واتّقَـــدَتْ
- في صَـدْرِ كُلِّ عَـدُوٍّ - جَـمْـرَةُ الحَـسَـدِ
فَلْيَـــسْـــخَطِ الناسُ لا أُهْدِ الرِّضى لهمُ،
ولا يَـضِعْ لكِ عـــــهْـــــدٌ آخِــــرَ الأبدِ
لَوِ اسْـــتَطَعْتُ - إذا مـــا كنتِ غـــائبـــةً -
غَـــضَـــضْتُ طرْفي، فلمْ أنظُرْ إلى أَحَـــدِ

****

(١) الخِلب: حجاب رقيق للكبد، أو شيء أبيض رقيق لازق بها.

غفلة الرقيب

لَـئِـنْ فَـــــــاتَـنِـي مـنـكِ حَـظُّ الـنَّـظَـرْ
لأَكْـــتَـــفِـــيَنْ بسَـــمـــاعِ الخَـــبَـــرْ
وإن عَـــــرَضَـتْ غَـــــفْـلَـةٌ لـلـرقـــــيـبِ
فَـــحَـــسْـــبيَ تَسْليـمَـــةٌ تُخْـــتَـــصَـــرْ
أُحَـــــــاذرُ أنْ تَـتَـظَـنـى الـوُشـــــــاةُ،
وقـــدْ يُسْـــتَـــدامُ الـهَـــوَى بالـحَـــذَرْ(١)
وأصْـــبِـــرُ مُـــسْـــتَـــيْـــقِنًا أنَّهُ:
سَـــيَـــحْظَى - بِنَيْلِ الـمُنَى - مَنْ صَـــبَـــرْ(٢)

****

---
(١) في النفح (أن يتجنى).
(٢) في النفح (فأصبر).

اختلاس النظر

سَأَقْنَعُ مِنْكِ بلَحْظِ البَصَرْ
وأَرْضَى بِتَسْليمِكِ المُخْتَصَرْ
ولا أتَخَطّى الْتماسَ المُنَى
ولا أتَعَدّى اخْتِلاسَ النَّظَرْ
أصونُكِ من لَحَظاتِ الظُّنُونِ
وأُعْلِيكِ عن خَطَراتِ الفِكَرْ
وَأَحْذَرُ من لَحَظاتِ الرَّقيبِ
وقدْ يُسْتَدام الهَوَى بالحَذَرْ

****

القلب الرحيب

لَـئِـنْ كـنـتَ - فـي الـسِّـنِّ - تِـرْبَ الـهـــــلالِ،
لـقَـــدْ فُـــقْتَ - بـالحُـــسْنِ - بَدْرَ الـكَـمـــالِ[1]
أمـــــــــــا والـــذي نَـــكَـدَ الحَـــظُّ فـــي
دُنُــوِّ الـــمَـكَـانِ بِـبُـــــعْــــــدِ الـــمَـنَـالِ
لـقـــــــدْ بَـلَّـغَـــــــتْـنِـي دواعـي هـواكَ
إلى غـــــايَـةٍ مـــــا جَـــــرَتْ لـي بِـبَـــالِ
فَــــقُلْ لـلـهَـــــوَى: (يَجْــــرِ مِلْءَ الـعِـنـانِ)
فَــمَـــيْــدانُ قلبي رَحِــيـبُ الـمَـــجَـــالِ[2]

****

(١) ترب الهلال: أي في سنه، والمعنى أنك بلغت أربعة عشر عامًا، وفي ب، ت، ز (في الحسن).

(٢) العنان: اللجام، وجرى ملء عنانه أي إلى أقصى ما يستطيع.

عتب وإعتاب

يا قَمَرًا مَطْلَعُهُ المَغْرِبُ
قد ضاقَ بي - في حُبِّكَ - المَذْهَبُ[1]
أُعْتِبُ - مِنْ ظُلْمِكَ لي - جاهدًا،
ويَغْلِبُ الشَّوْقُ فأسْتَعْتِبُ[2]
ألْزَمْتَنِي الذَّنْبَ الذي جِئْتَهُ
صَدَقْتَ!! فاصْفَحْ أيُّها المُذْنِبُ
وإنَّ مِنْ أَغْرَبِ ما مَرَّ بي
أنَّ عذابي فيكَ مُسْتَعْذَبُ[3]

****

(١) في المغرب (أطلعه المغرب).
(٢) أستعتب: أسترضي.
(٣) البيت ناقص في الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد والخريدة والمغرب، ورواية الخريدة (من أعجب).

السر المصون

بَيْني وبَيْنَكَ - مـــا لَوْ شِـــئْتَ لم يَضِعِ -
سِـــــرٌّ إذا ذاعَتِ الأسْـــــرارُ لـمْ يَذِعِ[1]
يـا بـائـعًــــا حَـظَّـهُ مـنّي، ولـو بُـذِلَـتْ
لِيَ الحَـــيـــاةُ - بحظّي منهُ - لـم أَبِعِ
يَكْفـــيكَ أنَّكَ إن حَـــمَّلتَ قلبيَ مَـــا
لمْ تَسْـتَطِعْـهُ قُلوبُ النّاسِ يَسْـتَطِعِ[2]
تِهْ أَحْـتَـمِلْ، واسْـتَطِلْ أَصْـبِـرْ، وَعِـزَّ أَهُنْ،
وَوَلِّ أُقْـبِلْ، وقُلْ أَسْـمَعْ، ومُـرْ أُطِعِ[3]

****

(١) في بعض نسخ الذخيرة (إذا ضاعت الأسرار).

(٢) في الجذوة (حسبي بأنك)، وفي الوافي وتمام المتون وسرح العيون (لو حملت) وفي الجذوة والذخيرة والمعجب وسرح العيون وتمام المتون (لاتستطيع قلوب الناس).

(٣) في ز (وامتطل أصبر).

عَلَّة العطشان(١)

أحبت جارية فتى قرشياً فألهمها حبُّها هذا البيت:

يا مُـــــعْطشي من وِصــــالٍ كنتُ واردَهُ
هـل منك لي عَـلَّةٌ إن صـــــحت واعطشي

ولـــم تستـطع أن تـــزيــد عليه، فلجــأت إلـــى الشـاعر تستزيده، وكان يعلم قصتها فأنشدها:

يا مُـــــعْطِشي من وصــــالٍ كنتُ واردَهُ
هل منك لي عَلَّةٌ إنْ صِـــحْتُ: (واعَطَشي)(٢)
كَسَوْتَنِي - منْ ثِيابِ السُقْم أسْبَغَها -
- ظُلْمًا - وصَيَّرْتَ من لُحُفِ الضَّنَى فُرُشي
أنَّى بصَرْفِ الهَوَى، عن مُقْلةٍ كُحِلَتْ
بالسِّحْرِ منكَ وَخَدٍّ بالجَمالِ وُشِي(٣)
لما بَدا الصُدْغُ مُسْوَدّاً بأحْمَرِهِ
أرى التَّسالُمَ بينَ الرُّومِ والحَبَشِ(٤)
أَوْفَى إلى الخَدِّ، ثمَّ انْصاعَ مُنْعَطِفًا
كالعُقْرُبانِ انْثَنَى من خَوْفِ مُحْتَرِشِ(٥)

---

(١) راجع قصة الفتاة والشاعر في نفح الطيب (طبع ليدن) جـ٢ ص١٩٤ .

(٢) علة: شربة ثانية، مأخوذة من العلل وهو الشرب الثاني ويقال: علل بعد نهل، وفي النفح (عن وصال).

(٣) المعنى: كيف أصرف قلبي المتعلق بك عن طرفك الساحر، وخدك المزين بالجمال؟

(٤) رواية النفح (أرى التشاكل)، الصدغ: ما بين العين والأذن: أو الشعر المتدلي عليه وهو المقصود هنا، يشبه انسدال الشعر الأسود على الخد الأحمر بمجاورة الحبشي الأسود للرومي الأصهب.

(٥) العقربان: ذكر العقرب. والمعنى: مالت خصلة شعره على خده ثم انعطفت مستديرة كما تستدير العقرب على نفسها إذا خشيت الأذى.

لـو شِيـــــئْتَ زُرْتَ - وسِلكُ الـنَّـجْمِ مُـنْـتَـظِمٌ،

والأفْقُ يَـخْـتـــالُ في ثوبٍ منَ الـغَـــبَشِ[1]

صَـبّــاً - إذا الْـتَـذَّتِ الأجْـفَــانُ طَعْمَ كَــرًى

جَـفَــا الـمَنامَ، وصــاحَ اللَّيْلَ: (يا قُــرَشي)[2]

هذا وإنْ تَـلِفَتْ نفـــــسي، فــــلا عَـــــجَبٌ

قد كـان مَـوْتِيَ - من تلك الجُـفـونِ - خُـشِي[3]

****

(١) رواية النفح (وسلك الليل)، الغبش: ظلمة اخر الليل.

(٢) رواية النفح (جفا إذا التذت.. جفني المنام).

(٣) رواية النفح (قتليَ).

فنون الحسن

يا غـــزالاً جُـــمِـــعَتْ فـــيـ
ـهِ - مـن الحـــــسن - فـنونُ
أنتَ في القُـــرْبِ وفي البُـــعْـ
ـــدِ - مِـنَ الـــنَّـفْـسِ - مَـكـــينُ
بـهــــــواك الـدَّهْـرَ ألْـهُـــــو،
وبـحُــــــــبِّــــــيـكَ أَديـنُ
مُـنـيَـــــةَ الصَّبِّ: أغِــــثْـني،
قـــــــد دَنَـتْ مِـنِّـي الــمَـنُـونُ
واحْــــفَظِ العَـــــهْـــدَ، فـــإنِّي
لـسـتُ - والـلـه - أخـــــــون
وارْحَـــمَنْ صَــبّــاً شَــجِـيّــاً
قـــد أذابَـتْـــهُ الشُّـــجـــونُ
لَـــــيْــــلُــــهُ هَـــمٌّ وغَــــمٌّ،
وسَــــــــــقــــــامٌ، وأنـينُ
شَــــفَّـــهُ الحُـبُّ فـــأمْـــسَى
- سَــقَـــمًـــا - لا يَسْـــتَــبينُ
صـــار - لـلأشْــواقِ - نَـهْـبًـــا -
فَـنَـبَـتْ عـنـهُ الـعُـــــيـــــونُ

****

المؤنس الوحيد

يا مَنْ غَـدَوْتُ بـه - في النّاسِ - مُـشْـتَـهِـرًا
قـلـبي عـلـيكَ يُقَـاسي الـهَـمَّ والـفِكَرا
إنْ غِـبْتَ لـمْ أَلْقَ إنسـانًا يُؤَنِّسُني
وإنْ حَـضَـرْتَ، فكلُّ النّاسِ قـدْ حَـضَـرا(١)

****

(١) في أ (يونسني) وهي بمعنى يؤنسني أي يزيل وحشتي.

الشكاة المأمولة

ألا ليتَ شِـــعْـــري هَلْ أُصـــادِفُ خَلَوةً
لَدَيْكِ، فـــأشكو بَعْضَ مــا أنا واجـــدُ؟
رَعَى اللّهُ يومًـا فـيـه أشكو صَـبـابتي
وأجْـفَـانُ عَـيْنِي - بالدُّمـوعِ - شَـواهِدُ

****

رِقُّ الغرام

يا سُؤْلَ نَفْسي - إنْ أُحَكَّمْ -
واخْتِياري إنْ أُخَيَّرْ
كم لامني فيك الحَسو
دُ، وفَنَّدَ الوَاشي فأكْثَرْ
قالوا: (تَغَيَّرَ بالسُّلوْ
وِ، وبالمَلامَةِ قد تَغَيَّرْ)[1]
وتَوَهَّموكَ جنيت ذَنْـ
ـبًا بالتَّجَنِّي ليسَ يُغفَرْ
وبزَعْمِهِمْ أن ليس مِثْـ
ـلي في الرِّضى بالدُّونِ يُعْذَرْ
لم يعلموا أنَّ الهَوَى
رِقٌّ، وأنَّ الحُسْنَ أحْمَرْ[2]

****

(١) تعير المتاع والقماش وتعوره: استعاره وعلى هذا يكون المعنى أنه تغير بالسلوان واستعار حبيبًا آخر نتيجة الملام، وربما كانت (قد تغير) أي تكدر صفاؤه، وربما كانت (تغير) بمعنى تبدل في الشطر الأول، ولحقته الغيرة في الشطر الثاني.

(٢) الحسن أحمر: قال ابن الأثير معناه شاق أي: من أحب الحسن احتمل المشقة، وقال ابن سيده معناه أن يلقى العاشق منه ما يلقى صاحب الحرب من الحرب، وقال ابن الأعرابي: يقال للرجل يميل إلى هواه ويختص بمن يحب، كما يقال الهوى غالب، وهذا ما عناه الشاعر هنا حيث يريد أن الهوى أسرٌ لا فكاك منه والحسن قهار غالب لا سبيل إلى مقاومته، وينسب إلى بشار:

فخذي محاسن زينة
ومعصفرات هن أفخر
فإذا بلغنا فادخلي
في الحسن، إن الحسن أحمر

ضحك وبكاء

مـــــا ضَـــــرَّ لـو أنَّـكَ لـي راحـمُ
وعِلَّتـي أنـتَ بـهـــــا عــــــالِمُ
يَهْنِيكَ - يا سُـؤْلِي ويا بُغْـيَـتي -
أنَّكَ ممَّا اشْــــتَكي ســـــالِمُ
تَضْـــحَكُ في الحُبِّ، وأبْكي أنا
اللّـهُ - في مـــا بيننا - حـــاكِمُ
أقــــولُ لَــمَّـــا طارَ عنِّي الكَرَى
قَــــوْلَ مُــــعَنَّىً قَلْـبُـــهُ هائِمُ:
«يا نـائمًـــا أيْـقَظَني حُــــبُّـــهُ
هَبْ لـي رُقـــادًا أيُّـهـــا الـنَّائِمُ»

****

المؤرق الكئيب(١)

كتبت ولادة إلى الشاعر:

ألا هلْ لنا من بَعْدِ هذا التَّفَرُّقِ
سبيلٌ، فَيَشْكو كُلُّ صَبٍّ بما لَقي؟
وقد كنتُ - أوقاتَ التَّزاوُرِ في الشِّتا -
أبيتُ على جَمرٍ منَ الشَّوْقِ مُحْرِقِ
فكيف؟ وقد أمْسَيْتُ في حالِ قَطْعَةٍ
لقد عَجَّلَ المِقْدارُ ما كنتُ أتَّقي
تَمُرُّ اللَّيالي: لا أرى البَيْنَ يَنْقَضي
ولا الصَّبْرَ من رِقِّ التَّشَوُّقِ مُعْتِقي
سَقَى اللَّهُ أرْضًا قد غَدَتْ لكَ منزلاً
بكلُّ سَكوبٍ هاطِلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله:

لَحَا اللَّه يومًا لستُ فيه بمُلْتَقٍ
مُحَيّاكِ من أجل النَّوَى والتَّفَرُّقِ
وكيفَ يطيبُ العَيْشُ دون مَسَرَّةٍ؟
وأيُّ سُرورٍ للكئيبِ المُؤَرَّقِ؟

****

(١) لم ترد الأبيات والرد عليها في الديوان. وقد أثبتناهما عن نفح الطيب ونزهة الجلساء.

الفتنة المحتومة

يا مُـــخْـــجِلَ الغُـــصُنِ الفَـــيْنانِ إنْ خطَرا
وفـــــاضحَ الـرشـــــإ الـوَسْنـانِ إنْ نَـظَـرا
يَفْـــديكَ منّي مُــــحِبٌّ شـــأنُهُ عَـــجَبٌ
مـــا جــئتَ بالذنب إلاّ جــاءَ فــاعْــتَــذرا
لمْ يُنْجنِي منكَ مــا اسْـتَـشْـعَـرْتُ من حَـذَرٍ
هيـهـاتَ!! كَـيْـدُ الهَـوَى يَسْـتَـهْلِكُ الحَـذَرا[1]
مـــا كـــان حُـــبُّكَ إلاّ فِـــتْنَةً قُـــدِرَتْ
هل يســـتطيعُ الفَـــتَى أن يَدْفَعَ القَـــدَرا

****

(١) في ز (من نظر).

الحبيب السّالي

يـا قــــاطِعًــــا حَــــبْلَ وُدّي
وواصـــــلاً حَــــبْلَ صَــــدّي
وســـــــاليًـــــا لـيس يَـدْري
بـطـول بَـثّـي وَوَجْــــــــــدي
لــو كـــــــــانَ عِـنْـدكَ مـنّـي
مــــــثـلُ الـذي مِـنْـكَ عـنـدي
لَـبِـتَّ - بَـعْـــــديَ - مِــــثْـلـي
وبِـتُّ - مــــــثلَكَ - بَـعْــــدي

****

في ثورة غضب(١)

أعجب الشاعر بغناء عتبة وصيفة ولادة، فاستعاد غناءها بغير استئذان حبيبته، فأدركتها الغيرة وضربت الوصيفة، فدافع عنها الشاعر ثم أنشد هذين البيتين:

ومـــا ضَـــرَبَتْ عُـــتْـــبَى لذنبٍ أَتَتَ بهِ
ولكنَّمـــا (ولاّدةٌ) تَشْـــتَـــهي ضَـــرْبي
فـــقـــامتْ تجـــرُ الذَّيْلَ عـــاثِرَةً بهِ
وتَمْـــسَـحُ طَلَّ الدَّمْعِ بالعَنَمِ الرَّطْبِ(٢)

****

(١) لم يرد البيتان بالديوان، وقد أثبتناهما عن الذخيرة.

(٢) العنم: شجر لين الأغصان تشبه به أصابع الحسان، والمعنى: أنها مسحت أصابعها بأطراف بنانها.

خطأ واعتذار

إن تكنْ نالَتْكِ - بالضَّرْبِ يدي -
وأصابَتْكِ بما لم أُرِدِ
فلقد كنتُ - لعمري - فاديًا
لكِ بالمال وبعضِ الولَدِ
فَثِقِي منّي بعهدٍ ثابتٍ
وضمير خالصِ المُعْتَقَدِ
ولئن ساءكِ يومٌ فاعْلَمي
أنْ سَيَتْلوهُ سُرورُ بِغَدِ

****

٥ – لوعة الهجران

«ذاق الشـاعـر مـرارة الـهـجـر، ولمس ضـيـق حـبـيـبـتـه به، وانـصـرافـهـا عنـه، ولكـن بـقـيـة من الأمل مـا زالت تراوده فيستجيب لها حينًا بعد حين».

موت ونشور[1]

أخَـذْتُ ثُلْثَ الهَـوَى غَـصْـبًـا، ولِيَ ثُـلثٌ،
وللمُـحِـبِّينَ - في مـا بيـنهمْ - ثُلُثُ
تاللّهِ، لو حَلَفَ العُـشّـاقُ: أنّـهمُ
مَـوْتَى من الوَجْـدِ - يومَ البَينِ - ما حَنَثُـوا
قـومٌ - إذا هُجِـروا من بَعْـدِ مـا وُصِلوا -
مـاتوا، فـإنْ عـاد مَنْ يَهْـوَوْنَهُ بُعِـثُـوا
تَرَى المحـبّينَ صَـرْعَى - في عِـراصِـهِمُ -
كـفِـتْـيَـةِ الكهفِ، مـا يَدْرونَ مـا لَبِـثُـوا

****

---

(١) لم ترد الأبيات بالديوان، وقد أثبتناها عن المعجب.

فنون المعاذير

وَضَحَ الحَقُّ المُبينُ ... ونَفَى الشكَّ اليَقينُ[1]
ورأى الأعداءُ ما غَرَّ ... تْهُمُ منه الظُّنونُ[2]
أمّلوا ما ليس يُمْنَى ... ورجَوْا ما لا يكونُ[3]
وتمنَّوْا أن يخونَ الـ ... ـعَهْدَ مَوْلًى لا يخونُ[4]
فإذا الغَيْبُ سليمٌ ... وإذا العَهْدُ مَصُونُ[5]

☆☆☆☆

قُلْ لِمَنْ دانَ بِهَجْري ... وهَواه ليَ دِينُ[6]
يا جَوادًا بيَ، إنّي ... بكَ واللهِ ضَنينُ
أرْخَصَ الحُبُّ فؤادي ... لكَ والعِلْقُ ثمينُ[7]

☆☆☆☆

يا هِلالاً تَتَراءا ... ه نفوسٌ لا عُيونُ
عَجَبًا للقلب يقْسو ... منكَ، والعِطْفُ يلينُ[8]
ما الذي ضَرَّكَ لو سُرْ ... رَ بمرآكَ الحزينُ؟
وتلطَّفْتَ لصبٍّ ... حَيْنُهُ فيكَ يَحينُ[9]
فوجوهُ اللفظِ شتّى ... والمَعاذيرُ - فُنونُ[10]

****

(١) في النفح (وضح الصبح).
(٢) في الذخيرة (ورأى الواشون) وفي النفح (منك الظنون).
(٣) يمنى: يقدر أي رجوا ما لا يمكن وقوعه.
(٤) في الذخيرة (العهد).
(٥) في الذخيرة (وإذا الود).
(٦) في النفح (وهو إني إذ يدين).
(٧) العلق: الغالي الثمين.
(٨) في الذخيرة (والقد يلين).
(٩) في بعض نسخ الذخيرة (وتلطفت بصب) الحين: الهلاك. يحين: يحل.
(١٠) آثرنا رواية الذخيرة وفي أصول الديوان: فوجوه اللطف شتى ... والمقادير فنون

الدلال القاتل

كـــــــم ذا أُريــــــــدُ ولا أُرادُ؟
يا ســـوءَ مـــا لَقِيَ الفــؤادُ[(١)]
أُصــــــفي الـوِداد مـــــــدلَّلاً،
لـم يَـصْـفُ لـي مـنـه الـوِدادُ[(٢)]
يـقـــــــــــضـي عـلـيَّ دلالُـهُ
- فــي كـلِّ حِــينٍ - أو يــكــادُ
كـــــــيـف الـسُّـلـوّ عـن الـذي
مَــثْـواهُ - من قلبي - السَّــوادُ؟[(٣)]
مَـلَـكَ الـقـلـوبَ بـحُـــــسْـنـهِ،
فلهـــا - إذا أَمَـــرَ - انْقِـــيـــادُ

✲✲✲✲

يا هاجـــري كم أسْـــتَـــفـــيـ
ـدُ الصَّـــبْـــرَ عنكَ، فـــلا أُفـــادُ
ألاَ رثَـيْـتَ لمـن يـبــــــــــيـ
ـتُ وحَـشْـوُ مَـقْلَتِـهِ السُّـهـادُ؟[(٤)]
إنْ أَجْـنِ ذَنْبًـــــا فـي الـهَـــوَى
خَـطَأً فـــقـــد يَكْبـــو الجَـــوادُ
كـــــان الـرِّضَـى، وأُعـــيـــذُهُ
أنْ يُعْـــقِبَ الكَوْنَ الـفَـــســـادُ

✲✲✲✲

(١) في النفح (لله ما لقي)
(٢) في النفح (أصفي الوداد إلى الندى).
(٣) سواد القلب: حبته.
(٤) في النفح (أفلا رثيت).

لقاء المكاره

أَأُسْلَبُ من وصالكِ ما كُسيتُ؟
وأُعْزَلُ - عن رضاك - وقد وَلِيتُ؟
وكيف؟ وفي سبيل هواكِ طَوْعًا
لقيتُ من المَكارهِ ما لَقيتُ
فَدَيْتُكِ!! ليس لي قلبٌ فأسلو
ولا نفسٌ فآنَفُ إن جُفِيتُ
فإن يكن الهَوَى داءً مُميتًا
لِمَنْ يَهْوَى فإنّي مُسْتَميتُ(١)
أُسِرُّ عليك عَتْبًا ليس يَبْقَى،
وأُضْمِرُ فيكِ غَيْظًا لا يبِيتُ
وما ردّي على الواشينَ، إلاّ:
(رضيتُ بجَوْرِ مالِكَتِي رَضِيتُ)

****

(١) لم يرد هذان البيتان في الديوان وقد أثبتناهما عن الذخيرة.

سوء الجزاء

جـــازَيْتَني - عن تَمـــادي الـوَصْلِ - هِجــرانا
وعـن تمـادي الأسَـى والـشّـــــوْقِ سُـلـوانـا
بالله هل كـــان قـــتلي في الـهَـــوَى خَطَأً
أم جِـــئْـــتَـــهُ عـــامـــدًا ظلمًـــا وعُـــدْوانا؟
عـــهـــدي كَـــعَـــهْـــدِكَ، مـــا الدُّنيـــا تُغـــيِّـــرُهُ
وإن تغَـــيَّـــرَ منكَ الـعـــهـــدُ ألوانا[1]
مـــــا صَحَّ وُدِّيَ إلاّ اعْـــــتَلَّ وُدُّكَ لـي،
ولا أطَعْـــتُكَ إلاّ زِدْتَ عِـــصـــيـــانا
يا أَلْيَنَ الناس أعْطافًـــا، وأفْـــتَـنَـهُمْ
لَـحْظًا، وأعْطَرَ أنفـــاسًـــا وأردانا
حَـسُنْتَ خَلقًـا، فـأحْـسِنْ لا تَسُـؤْ خُلُقًـا،
مـا خَـيْرُ ذي الحُـسْنِ إنْ لم يُولِ إحْسـانا؟[2]

****

(١) في ز (لا الدنيا).
(٢) في ز (إذ لم يدل).

الحكم الجائر

لو كانَ قَولُكَ: (مُتْ) ما كان ردّيَ: «لا»
يا جائرَ الحُكْمِ، أفْديهِ بِمَنْ عَدَلا

أبديتَ لي - من أفانينِ القِلى - عِبَرًا،
أَرْسَلْتَني - في أحاديثِ الهَوَى - مَثَلا

لم تُبْقِ جارحةً بالهجرِ من جَسَدي
إلا خَلَعْتَ عليها - للضَّنَى - حُلَلا

فَلْيُغْنِ كَفُّكَ أنّي بعضُ مَنْ مَلَكَتْ،
وَلْيَكْفِ طَرْفَكَ أنّي بعضُ مَنْ قَتَلا

وَلْتَقْضِ ما شئتَ من هجرٍ ومن صِلَةٍ
لا أقضِ ما عشتُ سُلوانًا ولا مَللا

سَقْيًا لعَهْدِكَ والأيّامُ تُقْبِلُني
وَجْهَ السّرورِ بهِ جَذْلانَ مُقْتَبِلا

إذِ الزَّمانُ بليغٌ في مُساعدتي
يُهْدي إليَّ تَفاريقَ المُنَى جُمَلا

إنْ كان لي أملٌ إلاّ رضاكَ، فلا
بُلِّغْتُ - يا أملي - مِنْ دَهْرِيَ الأَمَلا!!!

****

سوء العذاب

أتَهْـجُـرُني وتَغْـضِـبُني كـتـابي؟
وما في الحَقِّ غَضْبي واجْتِنابي
أيَجْـمُلُ أنْ أُبيـحكَ مَـحْضَ وُدِّي؟
وأنتَ تَسُـومُني سُـوءَ العَـذابِ[1]
فَـدَيْتُكَ، كم تَغُضُّ الطَّرفَ دوني
وكم أدعـوكَ من خلفِ الحِـجـابِ
وكم لي من فـؤادِكَ - بَعْـدَ قُـربٍ -
مكانَ الشَّـيْبِ في نفسِ الكَعـابِ[2]
أَعِـدْ - في عَـبْـدِكَ المظلومِ - رأيًا
تنالُ به الجـزيلَ مِنَ الثَّـوابِ
وإنْ تَبْـخَلْ عليـهِ فـرُبَّ دَهْرٍ
وَهَبْتَ له رضـاكَ بلا حِسـابِ

****

(١) المحض: الخالص، تسومني: توليني وتجشمني.

(٢) الكعاب: الفتاة التي برز ثديها، والمراد أنك أصبحتِ تنظرين إليَّ بجفاء كما تنظر الفتاة الغضة إلى الرجل الكهل، وطالما كنت قريبًا إلى فؤادك.

السر الذائع

أمَّـــا رضـــاكِ فَـــعِلقٌ مـــا لهُ ثَـمَنُ
لـو كـــان ســـامَـــحَني في وَصْلِهِ الزَّمَنُ[1]
تَـبـكي فِــــــراقَـكِ عـينٌ أنـتِ نـاظِـرُهـا
قــد لَجَّ في هَجْـرِها عن هَجْـــرِكِ الوَسَنُ[2]
إنَّ الزمـــانَ الـذي عَـــهْـــدي به حَـــسَنٌ
قـد حـال مُـذْ غـابَ عنّي وَجْـهُكِ الحَـسَنُ[3]
أنتِ الحـــيـــاةُ، فـــإن يُقــدَرْ فـــراقُكِ لي
فَلْيُـحْـفَـرِ القَـبْـرُ أو فليَـحْـضُـرِ الكَفَنُ
واللّهِ مـــا ســـاءني أنّي خَـــفِـــيتُ ضَنًى
بَلْ ســـاءني أنَّ سِـــرِّي بالضَّنَى عَلَنُ[4]
لو كـان أمـريَ - في كَـتْمِ الهَـوَى - بيَـدي
مـــا كـــانَ يَعْلَمُ - مـــا في قلبيَ - البَـــدَنُ

****

---

(١) العلق: النفيس، وفي الذخيرة ومسالك الأبصار وتمام المتون (فشيء)، وفي مسالك الأبصار (لو كان ساعفني في ملكه) وفي الذخيرة (سامحني في ملكه) وفي تمام المتون (ملكك).

(٢) الناظر: سواد العين وفي تمام المتون (من هجرك).

(٣) حال: تغير.

(٤) في الذخيرة وتمام المتون (أن سرى بالهوي)، وفي بعض نسخ الذخيرة (العلن).

يا ليتني

أرْخَـــصْـــتِنِي من بَعْـــدِ مـــا أغْلَيْـــتِنِي
وحَـطَـطْـتِـنـي، ولـطـالمـا أعْـلَـيْـــــــــتِـنِـي
بـادَرْتِنِي بـالـعَـــــــزْلِ عن خِطـطِ الـرِّضَـى،
ولـقـــد مَـــحَـــضْـتُ النُّصْـحَ إذْ ولَّيْـــتِنِي
هـلاً - وقـــد أعْـلَـقْـــتِنِي شَـــرَكَ الـهَـــوَى -
عَـلَّـلْـتِـنـي بـالـوَصْـلِ، أو سَـلَـيْـــــــتِـنـي؟[1]
الـصَّـــبْـــرُ شُـــهْــدٌ - عندمـــا جَـــرَّعْـــتِنِي -
والـنَّـارُ بَـرْدٌ، عـنـدمـــــــا أصْـلَـيْـــــــتِـنِـي
كنتِ الـمُنَى، فـــأذَقْـــتِنِي غُـــصَـصَ الأذى،
يا لـيـــتَـنـي مـــا فُـــهْـتُ فـــيكِ: بِـلَـيْـــتَنِي

****

(١) عللتني بالوصل: ألهيتني به.

الحبيب الظالم

سأُحِبُّ أعْدائي لأنَّكَ مِنْهُمُ
يا مَنْ يُصِحُّ - بمُقْلَتَيْهِ - ويُسْقِمُ
أصبحتَ تُسْخِطُني فأمْنَحُكَ الرِّضَى
- مَحْضًا - وتظلِمُني، فلا أتَظَلَّمُ[1]
يا مَنْ تَألَّفَ لَيْلُهُ ونَهارُهُ،
فالحُسْنُ بينَهما مُضِيءٌ مُظْلِمُ
قد كان في شكوى الصَّبابَةِ راحَةٌ،
لو أنَّني أشكو إلى مَنْ يَرْحَمُ

****

(١) في الذخيرة (وأمنحك.... ولا أتظلم).

غدر الحبيب

يـا لَـيْـلُ طُـلْ، لا أشْـتَـهـي
- إلا بِـوَصْـلٍ - قِـصَـرَكْ[1]
يـا لَـيْـلُ طُـلْ، أو لا تَـطُـلْ
لا بـدَّ لـي أنْ أسْـهَـرَكْ[2]
لـو بـاتَ عـنـدي قـمَـرِي،
مـا بـتُّ أرْعَـى قَـمَـرَكْ
يـا لَـيْـلُ خَـبِّـرْ، إنَّـنـي
ألْـتَـذُّ عـنـهُ خَـبَـرَكْ
بـالـلَّـهِ قُـلْ لـي: هَـلْ وَفَـى؟
فـقـالَ: «لا، بَـلْ غَـدَرَكْ»

****

(١) في بعض نسخ الذخيرة (إلا كعهد) وفي بعضها (كعمري).
(٢) البيت زيادة عن المغرب.

تباريح الدلال

أيُّهـا البَـدْرُ الذي يَمْـ
ـلأُ عَيْنَيْ مَنْ تَأمَّلْ

حُمِّلَ القَلْبُ تَباريـ
ـح التَّجنِّي فتحمَّلْ

ليس لي صَبْرٌ جَميلٌ،
غَيْرَ أنِّي أتَجَمَّلْ

ثُمَّ لا يأسَ!! فكمْ قد
نِيلَ أَمْرٌ لَمْ يُؤَمَّلْ

****

لوعة الجفاء

أَأُجْــــفَى بلا جُـــــرْمٍ، وأُقْـــــصَى بلا ذَنْبِ
سِــوى أنَّني مَــحْضُ الهَــوَى صــادقُ الحُبِّ
أُغـــاديكِ بالشَّكْوى، فــأُضْـــحي على القِلى
وأرجــوكِ للعُــتْــبَى، فــأظْفَــرُ بالعَــتْبِ[1]
فَـدَيْتُكِ، مــا للمــاءِ - عَــذْبًا على الصَّـدى -
وإن سُـمْـتِنـي خَـسـفًـا، مَـحَلُّكِ من قلبي[2]
ولولاكِ، مــا ضــافَتْ حَــشــايَ - صَــبــابةٌ -
جَــعَلْتُ قِــراها الدَّمْعَ سَكبًــا على سَكْبِ[3]

****

(١) القِلى: البغض، العتبى: الصفح والمغفرة.

(٢) سامه الخسف: أولاه الذل وأراده عليه.

(٣) ضاف الرجل: نزل به، المعنى: لولاك ما استقر الحب في أحشائي ولا عصف بجوانحي، وإذا كان قرى الضيف الشراب والطعام فإن هذاالغرام يتغذى بدمي ويروى بدموعي.

كواذب الآمال

قــد نالني منكَ مــا حَــسْــبي بهِ، وكَــفَى!!
يا مَنْ تَناهَيْتُ في إلْطافِـــهِ فَـــجَـــفَـــا
عَلَّلْتَنِي بالــمُنى، حــــتّى إذا عَلِقَتْ
بالنفس لم أُعْطَ من أسْــبــابهـــا طَرَفــا
غُــــيِّــــرْتَ عن خُلُقٍ قــــد لان لي زَمَنًا
لِينَ النســيم، فلمّــا لَذَّ لي عَــصَــفــا
لا يحْــبَطَنْ عَــمَلٌ أرضــاكَ صــالِحُــهُ!!
فــفي ســبــيلكَ أنْفَــقْتُ الـهَــوَى سَــرَفــا[1]

****

(١) حبط العمل: بطل ثوابه، السرف مجاوزة القصد، والمعنى: أنني أسلمت نفسي للهوى فجاوز بي الحد وأشفى بي على الضر، ولكنني غير آسف على هوى يرضيك، وإن لقيت منه الأهوال.

نقض العهود

أَجِدُّ، ومَنْ أهواهُ - في الحبِّ - عابثُ
وأُوفي له بالعَهْدِ، إذْ هُوَ ناكثُ
حبيبٌ نأى عنِّي - معَ القُرْبِ - والأسَى
مُقيمٌ له في مُضْمَرِ القَلْبِ ماكثُ[1]
جَفاني بإلْطافِ العِدا، وأزالَهُ
- عنِ الوَصْلِ - رأيٌ في القَطيعَةِ حادثُ
تَغَيَّرْتَ عن عَهْدي، وما زلتُ واثِقًا
بعَهْدِكَ، لكنْ غَيَّرتْكَ الحَوادِثُ
وما كنتُ - إذْ ملَّكْتُكَ القَلْبَ - عالِمًا
بأنِّيَ - عن حَتْفِي - بِكَفَيَّ باحِثُ
فَدَيتُكَ، إنَّ الشَّوْقَ لي - مُذْ هَجَرْتَني -
مُميتٌ، فهل لي - مِنْ وِصالِكَ - باعِثُ[2]
سَتَبْلَى اللَّيالي - والوِدادُ بحالِهِ
جديدٌ - وتَفْنَى، وَهْوَ للأرضِ وارثُ[3]
ولوْ أنَّني أقْسَمْتُ: أنَّكَ قاتِلي
وأنِّيَ مَقْتولٌ، لَمَا قِيلَ: (حانِثُ)[4]

****

(١) المعنى: كان حبيبي مخلصًا لي، ثم تحول عن حبي ومال إلى جانب الأعداء.

(٢) المعنى ما كنت أعلم حين أسلمتك زمام قلبي أنني أسعى بنفسي إلى إهلاك نفسي، وفي المثل (كالباحث عن حتفه بظلفه) يقال إن جزارًا أراد ذبح عنزة فافتقد المدية فلم يجدها، ثم فحصت العنزة برجلها الأرض فظهرت المدية.

(٣) في النفح (جديد وغض).

(٤) في النفح (وأني لمقتول).

قطع الصلات

يا ناسِـــيًـــا لي على عِـــرفـــانِهِ تَلَفِي
ذِكْـــرُكَ مِنِّـيَ بالأنْفـــاسِ مَـــوْصــــولُ[1]
وقـــاطِعًـــا صِلَتي من غَـــيْـــرِ مـــا سَـــبَبٍ
تـاللّـهِ إنَّكَ عن روحي لَــمَــــســـــؤولُ[2]
مـــا شِـئْتَ فـاصْنَعْـهُ، كُلٌّ منكَ مُـحْـتَـمَلٌ،
والذُّنْبُ مُـغْـتَـفَـرٌ، والعُـذْرُ مَـقْـبـولُ
لـو كـنـتَ حَـظِّـيَ، لـمْ أطـلُـبْ بـه بـدلاً،
أو نِلْتُ منكَ الرِّضـــا، لم يَبْقَ مَـــأمـــولُ

****

(١) في الأصول (ذكراك) ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) في النفح (بالله).

كما تشاء

كـــمـــا تشـــاءُ فكُنْ لي!! لَسْتُ مُنْتَـــقِــلا
لا تَـخْشَ مِنِّـيَ نِسـ ــــيــــانًا ولا بَـدلا
يَـنْســـــاكَ مَنْ لـم يَـدْرِ بَعْـــــدَكَ: مـــــا
طعمُ الحـــيـــاةِ، ولا بـالبُـــعْـــدِ عنكَ سَـــلا؟
أتْلَفْـــتَـني كلَفًـــا! أبْلَيْـــتَـني أسَـــفًـــا!
قَطَّعْـــتَـني شَـــغَـــفًـــا! أوْرَثْتَنِي عِلَـلا

☆☆☆☆

إنْ كنتُ خُنْتُ وأضْـــمَـــرْتُ السُلُوَّ فـــلا
بَلَـغْتُ - يا أملـي - من قُـــربِكَ الأمَــــلا!!
واللّـهِ لا عَلِـقَتْ نفــــسي بغَـــيْــــرِكُمُ
ولا اتَّـخَـــــذْتُ سِـــــواكُـمْ مـنكمُ بَـدَلا

****

وحشة الزمان

أيـوحِـــــشُـنـي الـزَّمـــــانُ وأنـتِ أُنْـسِـى؟
ويُظلِمِ لـي الـنَّهـــارُ وأنـتِ شَـــمـــسـي؟[1]
وأغْــــرِسُ في مَــــحَـــبَّــــتِكِ الأمـــاني
فَـــأَجْنِي الـمَــوْتَ من ثَـمَـــراتِ غَــرْسـي[2]
لقـــــد جَــــازَيْتِ غَــــدْرًا عن وفــــائي
وبِعْتِ مَـــــوَدَّتي ظُـلْـمًـــــا بِـبَـــــخْسِ[3]
ولـــوْ أنَّ الـــزَّمــــــــانَ أطـاعَ حُـكْـمِـي
فَـــــدَيْـتُـكِ - مِنْ مَـكـارِهِـهِ - بِـنَـفْـــــسـي

****

(١) في النفح (أيوحش لي) وفي الخريدة (ويظلم بي).
(٢) في النفح (وأجني).
(٣) في الذخيرة (جازيت هجرًا) وفيها وفي النفح (عن وفاء).

القلب الجماد

أحِـينَ عَـلِـمْـتَ حَـظَّـكَ مـن ودِادي
ولـمْ تَـجْـــهَلْ مَـــحَلَّكَ من فـــؤادي
وَقَـــادَنِيَ الـهَـوَى فـانْـقَـدْتُ طَوْعًـا
ومـــا مَكَّنْتُ غَــيْـــرَكَ من قِــيـــادي
رَضِـيتَ لِيَ السُّـقَـامَ لِبـاسَ جِـسْمٍ
كَـــحَلْتُ الطَّرْفَ منه بالسُّـــهـــادِ؟
أَجِلْ عَــيْنَيْكَ في أسْطارِ كُـــتْـــبِي
تَـجِـــدْ دَمْـــعي مِـــزاجًـــا للمِـــدادِ
فَـــدَيْتُكَ!!! إنَّني قـــــد ذابَ قلبي
مِنَ الشَّكْوى إلى قلبٍ جَـــمَـــــاد

****

في الوثاق

يا غَزالاً أصارني
مُوثَقًا في يَدِ المِحَنْ
إنّني - مُذْ هَجَرْتَني -
لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الوَسَنْ
ليت حظّي إشارةٌ
منكَ، أو لحظةٌ عَنَنْ[1]
شافعي يا مُعَذِّبي
في الهَوَى وَجْهُكَ الحَسَنْ
كنتُ خِلْوًا مِنَ الهَوَى
فأنا اليَوْمَ مُرتَهَنْ[2]
كان سِرّي مُكَتَّمًا
وَهُوَ الآنَ قد عَلَنْ
ليس لي عنكَ مَذْهَبٌ
فكما شِئْتَ لي فكُنْ!!!

****

(١) نظرة عنن: نظرة عارضة، وفي النفح (نظرة تعن).

(٢) في النفح (وأنا اليوم)، مرتهن: محبوس وموقوف على هذا الحب لا يستطيع الفكاك منه.

بذل الحياة

بالـلّهِ خَـــذْ مِنْ حَـــيـــاتي
يَوْمًـــا، وصِلْنِيَ ســـاعَـــهْ
كَــيْـــمـــا أنالَ بقَـــرْضٍ
مـــا لمْ أَنَلْ بشَـــفـــاعَـــهْ

****

ذوب النفس

لَعَـمْـري لَئِنْ قلَّتْ إليكَ رسـائلي
لأنتَ الذي نَفْسي عليهِ تَذوبُ
فلا تَحْسَبوا أنّي تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ
ولا أنّ قلبي مِنْ هَواكَ يَتُوبُ

****

٦ – مرارة الهجران

«غـمـر ظلام اليـأس صـفـحـة الرجـاء، وحـجـبت سـحـائب الحـرمـان أشـعـة الحنان، فـرتل الشـاعـر أشجى الألحان».

سلام الوداع

لئن قَصَّرَ اليَأسُ منكِ الأملْ
وحالَ تَجنِّيكِ دونَ الحِيَلْ[1]
وناجاكِ - بالإفكِ - فِيَّ الحَسودُ
فأعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - ما سألْ[2]
وراقَكِ سِحْرُ العِدا المُفْتَرَى
وغَرَّكِ زُوَرهُمُ المُفْتَعَلْ
وأَقْبَلْتِهِمْ فِيَّ وَجْهَ القَبولِ
وقابَلَهُمْ بِشْرُكِ المُقْتَبَلْ[3]
فإنّ ذِمامَ الهَوَى لن أزالَ
أَبُقِّيهِ حِفْظًا كما لم أزلْ[4]

☆☆☆☆

فَدَيْتُكِ!!! إنْ تَعْجَلي بالجَفا
فقد يَهَبُ الرَّيْثَ بَعْضُ العَجَلْ[5]
عَلامَ اطَّبَتْكِ دَواعي القِلَى؟
وفِيمَ ثَنَتْكِ نَواهي العَذَلْ؟[6]

---

(١) في الذخيرة (قهر اليأس فيك).

(٢) الإفك: الزور.

(٣) أقبله الشيء: قابله به، القبول: المحبة والرضا بالشيء وانجذاب النفس إليه.

(٤) في أصول الديوان (لم أزل أبكيه حفظًا)، وفي أصول الذخيرة (إن أزال أبليه حفظك) وفي ت (كما لم يزل) ولعل الصواب ما أثبتناه والمعنى، ما زلت ولن أزال محافظًا على عهود المودة والهيام.

(٥) في الذخيرة (إن تعجلي بالوفاء)، والمعنى لا تعجلي بالقطيعة فكثيرًا ما توقع العجلة في أخطار جسيمة تعوق الإنسان عن بلوغ أهدافه التي كان يتعجل بلوغها والمثل (رب عجلة تهب ريثا) والريث: البطء.

(٦) طباه عن الأمر: صرفه عنه، واطباه الشيء استماله إليه، وفي الذخيرة (علام أطعت... وفيم نهتك).

أَلَمْ أَلزمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أخِفَّ؟
أَلَمْ أُكْثِرِ الهَجْرَ كي لا أُمَلّ؟[1]
أَلَمْ أرض منكِ بغَيْرِ الرِّضى
وأبْدي السُّرورَ بما لم أنَلْ؟
ألم أغْتَفِرْ مُوبِقاتِ الذُّنو
ب؟ عَمْدًا أتَيْتِ بها أم زَلَلْ؟
وما ساءَ ظَنِّيَ في أن يُسيءَ
بِيَ الفِعْلَ حُسْنُكِ حتّى فَعَلْ
على حينِ أصبحتِ حَسْبَ الضَّميرِ
ولم تَبْغِ منكِ الأماني بَدَلْ
وصانَكِ منِّي وَفِيٌّ أَبِيٌّ
لِعِلْقِ العَلاقةِ أنْ يُبْتَذَلْ

✡✡✡✡

سَعَيْتِ لتكديرِ عَهْدٍ صَفَا
وحاولْتِ نقصَ ودادٍ كَمَلْ
فما عُوفِيَتْ مِقَتي من أذًى
ولا أُعْفِيَتْ ثِقَتي من خَجَلْ
ومَهْما هَزَزْتُ إليكِ العِتا
بَ، ظاهَرْتِ بين ضُروبِ العِلَلْ[2]
كأنَّكِ ناظَرْتِ أهْلَ الكَلامِ
وأوتيتِ فَهْمًا بعلم الجَدَلْ
ولو شئتِ راجعتِ حُرَّ الفَعالِ
وعُدْتِ لتلك السَّجايا الأُوَلْ[3]

---

(١) في الذخيرة (ألم أوثر الصبر).

(٢) في الذخيرة (صروف العلل).

(٣) الفعال: اسم للفعل الحسن والكرم، وقيل للخير والشر، ولا يكون إلا لفاعل واحد فإذا كان لجمع كسرت فاؤه يقال: هو حسن الفَعال وهم حسان الفِعال.

فـــلـــمْ يَـــكُ حَـــظِّـــيَ مـــنـــكِ الأَخَـــسَّ
ولا عُـــــدَّ سَـــــهْـــــمِيَ فـــيـكِ الأَقَلْ[1]

عـلـيـكِ الـسَّــــــلامُ!! سَـــــــلامُ الـوَداعِ
وداعَ هــوًى مـــــــاتَ قَـــــــــبْلَ الأجَـلْ

ومـــــا بـاخـــــتـــيـــــارٍ تَـسَلَّيْتُ عنكِ
ولــــكـــنَّــــنـــي مُـــكْـــرَهٌ لا بَـــطَــــلْ[2]

ولـم يَـدْرِ قـلـبـيَ كـــــــيـفَ الـنُّـزوعُ
إلى أن رأى سِـــيـــرةً فـــامْـــتَـــثَلْ[3]

ولـيـت الـذي قـــــاد عَـــــفْـــــوًا إلـيـكِ
أبـيَّ الـهَـــــوَى في عِنـانِ الـغَــــــزَلْ

يُـحـــــــيـلُ عُـــــــذوبـةَ ذاك الـلَّـمـى
ويَشْــفي مِنَ السُّـــقْمِ تلكَ الـمُـــقَلْ[4]

****

(١) في الذخيرة: (ولا عهد سهمي).

(٢) في الذخيرة (وما باختياري)، (مكره أخوك لا بطل) مثل لمن يرغم على القيام بأمر فيؤديه وهو كاره.

(٣) النزوع عن الشيء: الإقلاع عنه، امتثل الأمر: احتذاه وسلك سبيله، والمعنى لم يدر كيف يكف عن حبك حتى فجأته بالهجر فقلدك فيه.

(٤) يحيل: يغير، ومعنى البيتين: أتمنى على الله الذي جذب قلبي الأبي إلى حسنك الفتان، أن يشوه جمالك، فيغير ريقك العذب، ويبطل تأثير طرفك الساحر الوسنان.

شماتة الأعداء

أشْمَتِّ بي فيكِ العدا
وبلغتِ من ظُلمي المَدَى
لو كان يَمْلِكُ - فديةً
من حُبِّكِ - القلبُ افْتَدَى
كنتِ الحياةَ لعاشقٍ
- مذ حُلْتِ أيْقَنَ بالرَّدَى
لم يَسْلُ عنكِ، ولو سلا
لَعَذَرْتُهُ؟ فبكِ اقْتَدَى
ضَيَّعْتِ عَهْدَ مَحَبَّةٍ
كالوَرْدِ سامَرَهُ النَّدى
أين ادِّعاؤكِ للوَفَا
ء؟ وما عدا مِمَّا بدا؟[1]

****

(١) المعنى: كيف تدعين الوفاء مع تبدلك وتحولك؟ وما تحول هو عن عهدك، ولا تبدل عما بدأه من حبك، وهو يشير بهذا إلى قول الإمام علي رضي الله عنه لطلحة يوم الجمل (عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟) وذلك أنه كان قد بايعه بالمدينة، وجاء يقاتله بالبصرة، أي ما الذي صرفك عني وحملك على التخلف بعد ما ظهر منك من التقدم في الطاعة والمتابعة؟ وقيل معناه: ما بدا لك فصرفك عني؟ وقيل معناه: ما عداك مما كان بدا لنا من نصرك؟ أي ما شغلك؟

الادعاء الكاذب

يا مُـسْـتَـخِـفّـاً بعـاشـقِـيـهِ
ومُـسْـتَـغِـشّـاً لناصِـحِـيـهِ
ومَنْ أطاعَ الـوُشـاةَ فـيـنا
حـتّى أطَعْنا السُّلُوَّ فـيـهِ
الحَـمْـدُ لـلّـهِ إذْ أراني
تَكْذيبَ مـا كُنْتَ تدَّعـيـهِ[1]
مِنْ قَـبْلِ أنْ يَعْـرُمَ التَّـسَلِّي
ويَغْلِبَ الشّـوْقُ مـا يليـهِ[2]

****

(١) في المغرب (قد بدا لي تكذيب).

(٢) يعرم: يشتد ويشرس، والمعنى يحمد الله أنه أظهر له تلونها وخداعها قبل أن يسيطر الحب على قلبه فلا يستطيع منه فكاكًا، ويفر منه السلوان فلا يجد إليه سبيلاً، وفي القلائد والنفح (من قبل أن يهزم).

دعوة المظلوم

إن ســـــاء فِـــعْلُكِ بي، فـــمـــــا ذَنْبي أنا؟
حَـــسْبُ الـمُـــتَــيَّم أنَّهُ قـــد أحْـــسَنَنا
لـم أَسْلُ حـــتَّى كــــان عُـــذْرُكِ - في الـذي
أبْدَيْتِـــــهِ - أَخْـــــفَى، وعُـــــذْرِيَ أبْيَـنـا
ولقــد شَكَوْتُكِ - بالـضَّـمـيـر - إلى الـهَـوَى،
ودَعَــــوْتُ - مِنْ حَـنَـقٍ - عـليـكِ فــــأمَّنـا
مَنَّيْتُ نَـفْـــسـي - مِنْ وَفـــائِكِ - ضَـلَّةً
ولـقـــد تَـغُـــرُّ الـمَـــرْءَ بـارِقَـــةُ الـمُنَى[1]

****

(١) في الذخيرة (من هواك بضلة)، وفي القلائد والخريدة والوافي والسالك (من صفائك ضلة).

جسم عليل

عَـلامَ صَـرَمْتَ حَـبْلَكَ مِنْ وَصـولٍ
فَـدَيْتُكَ واعْـتَـزَزْتَ على ذليلِ؟
وفِـيـمَ أَنِفْتَ من تَـعْلـيلِ صَبٍّ
صـحـيحِ الوُدِّ ذي جِـسْمٍ عليلِ
فَـهَـلاَّ عُـدْتَني - إذْ لم تَعَـوَّدْ
بشَخْصِكَ - بالكتابِ أو الرَّسولِ[1]
لقـد أعْـيَـا تَلَوُّنُكَ احْـتِـيـالي
وهلْ يُغْنِي احْـتِـيـالٌ في مَلولِ؟

****

(١) تعوَّد: أصلها تتعود ومعناها الاعتياد أو عيادة المريض، والمعنى: إذا كنت لم تعتد زيارتي أو عيادتي بشخصك فهلا أرسلت إلي خطابًا أو رسولاً؟

غبن الزمان

خُنْتَ عَـــــهْــــــدي ولـم أَخُـنْ
بِـــغْـــتَ وُدّي بـــلا ثَـــمَـــنْ
قــــــائـلاً: «هـل مُــــــزايـدٌ
رابـحًـــــــــا؟ ثُـم مَـنْ يَـزِنْ»؟
عُــــــدَّتـي كُـنْـتَ لـلـزَّمـــــا
ن، فـــــقـــــد حُـلْتَ والـزَّمَـنْ
أرْخِـصِ الـبَـــيْعَ كــــيف شـــئـ
ـــتَ، وَذُدْنـــي لَــتَــنْــدَمَــنْ[1]
ســـــوف تُبْلَـى بغـــــيـــــرنا
جَــــرِّبِ الـنَّاسَ وامْـــتَـــحِنْ

****

(١) ذدني: اطردني، وفي أصـول الديوان (ردّني) والرود هو الطلب، ويكون المعنى على هذا: يعني بما شئت ثم اطلبني فلن تحصل عليَّ بأي ثمن. وحينئذٍ يدركك الندم، ولعل الصواب ما أثبتناه.

٧ - كيد وعناد

«صارحته بالعداء، واستبدلت به سواه، فثارت ثائرته، واندفع محاولاً تحطيمها ومن يحيط بها، معلنًا أنه استعاض حبّاً بحب وسلوانًا بسلوان، ولكن هيهات هيهات!!! فلن يخفى الغرام، وإن أغلظ الأقسام».

حب جديد

عــاوَدْتُ ذِكْـرَى الـهَـوَى - مِنْ بَعْـدِ نِسـيــانِ
واسْـتَـحْـدَثَ القلبُ شَـوْقًـا بَعْـدَ سُلوانِ[١]
من حُبِّ جــــاريةٍ، يبــــدو بهــــا صَنَمٌ
من اللُّجَـيْنِ، عليــه تاجُ عِـقْــيــانِ[٢]
غَــريرةٌ لم تُفـارِقْـــهـــا تَمــائِمُـــهـــا
تَسْـبي العُـقـولَ بسـاجي الطَّرْفِ وَسْنانِ[٣]
لأَسْـتَـجِـدَّنَّ - في عِـشـقِي لهــا - زمنًا
يُنسـي سَـــوالِفَ أيّامـي وأزْمَـــانـي[٤]
حــتّى تكونَ لِـمَنْ أحْــبَــبْتُ خــاتِمــةً،
نَسَـخْتُ - في حُـبِّـهــا - كُـفْـرًا بإيمانِ[٥]

****

(١) في النفح (نسياني.. سلواني).

(٢) في النفح (عليها)، اللجين: الفضة، العقيان: الذهب الخالص، والمعنى: لقد تيمني حب جارية حسناء مصقولة كالدمية الفنية المنحوتة من الفضة المتوجة بتاج ذهبي، والمقصود أنها ناصعة البياض صفراء الشعر.

(٣) غريرة: ساذجة، لم تفارقها تمائمها: لم تزل في دور الطفولة تحمل الرقى والتعاويذ، ساجي: هادئ، وديع، والمراد: تسبي العقول بنظراتها الوادعة الحالمة، وفي النفح (تسبي القلوب).

(٤) المعنى: لأستحدثن في حبها عهدًا جديدًا يفوق عهد حبي القديم حتى يطفئه ببريقه ولألائه، وفي النفح (يحيي).

(٥) ستكون هذه الفتاة الغريرة آخر من شغفت بهن من الحسان، وسأمحو بحبي لها جميع ما سبق من صبوات، فهي بالقياس إليهن كالإيمان بعد الجحود والكفران.

اختيار البديل[١]

....

وغـــــــرّكَ مـن عـــــــهـــــــدِ (ولّادةٍ)

ســــــــــــرابٌ، تــراءى وبــرقٌ وَمَــضْ[٢]

تَـظُـنُّ الـوفــــــــاءَ بــهــــــا، والـظـنـو

نُ فــيــــهـــا تقــولُ على من فـــرضْ:[٣]

(هــيَ المـاءُ يـأبـى عـلـى قـــــــابـضٍ

ويمـنـعُ زبـدَتـه مَـنْ مـــــــــــــخـضْ)[٤]

ونُبِّــئْــتُـهـــا بعــديَ اسْــتَـحْــمَـدَتْ

بســــــــري إلـيـكَ لمـعـنًـى غــــــمضْ[٥]

✡✡✡✡

وأنــذِرْ خـلـيـلَـكَ مِـنْ مـــــــــــاهـرٍ

بـطـبِّ الجـنـونِ إذا مــــــا عـــــــرضْ

وأشْـــعِـــرْهُ أنّي انتــخــبتُ البـــديلَ

وأعلِمْــــهُ أنّي اسْـــتَـــجَـــدْتُ العِـــوَضْ

---

(١) سترد القصيدة بتمامها في فن الهجاء، ولكننا اخترنا منها هذه الأبيات لمناسبتها للمقام.

(٢) في الديوان (عهد فعالة) وقد آثرنا رواية الذخيرة.

(٣) في ب، ت (تعول).

(٤) المعنى: أنها خداعة لا وفاء لها، فهي كالماء لا تستطيع اليد أن تمسكه، ولا أن تستخرج منه زبداً.

(٥) في الذخيرة (بسير إليك) وفي ب، ت، ز (بسر)، والمعنى: أنها أذاعت سري إليك لتظفر بالثناء منك، وهي بهذا ترمي إلى هدف خاص تحاول كتمانه.

فـــــلا مــــــشــــــربي - لقـــــلاه - أمــــــرٌّ
ولا مَـــــضْـــــجَـــــعي - لِنَـواهُ - أقضْ[1]

وأنَّ يَـدَ الـبَـــــــيْـنِ مــــــــشـكـورةٌ
لـعــــــــارٍ أمـــــــــاطَ ووَصْـمٍ رَحَـضْ[2]

وحــــــــســــــــبيَ أنّـي أطـبْتُ الجَـنَى
لإبَّـــــانــــهِ، وأبـــحــــتُ الـــنَّـــفَـــضْ[3]

ويَـهْـنِـيـكَ أنـك يـا ســــــــــيِّـــــــــدي
غَــــــدَوْتَ مُــــــقـــــــارِنَ ذاك الـرَّبَـضْ[4]

****

(١) يقول: أنبئ صاحبك (المخاطب ابن عبدوس، والحديث عن شخص ولادة) أنني اصطفيت بنفسي حبيبًا خيراً منه، ووجدت لها خليلاً حج عنه، فما تكدَّر صفائي لبعده ولم يخشن مضجعي لصده.

(٢) أماط العار: أزاله، رحض الوصم: غسل العيب ومحا العار، فهو يشكر للفراق أنه أزال الغشاوة عن عينيه، فأبراه من حب دنس وهوى ذميم.

(٣) الجنى: الثمر، النفض: ما تساقط من الورق والثمر، والمعنى أنه تمتع من حبيبته بأطايب الثمر ثم ترك هشيمها لغيره ممن يقنعون بالتوافه.

(٤) الربض: مأوى الماشية، أو أحشاء الناقة أو ما تحويه البطن والمصارين، والشاعر هنا يسخر من خصمه فيهنئه بما تركه له من فضلات.

لذة التبديل[١]

مَنْ مُــــبلغٌ عنّيَ البــــدر الذي كـــــمُـــــلا
– في مطلع الحسن – والغُصنَ الذي اعـتـدلا:

أنّ الـزمـــــــــان الـذي أَهـدى مـــــــــوّدتَـهُ
إلـيَّ مُــــــرتـهِنٌ شكري بما فــــعــــــلا؟[٢]

أمـــا الحــبــيبُ الذي أبدى الجــفــاءَ لنا،
فـــــمـــــا رأينا قِــــلاه حـــــادثًا جَلَلا[٣]

ولـم نـزِدْ أنْ ظفِـــــرنـا مـلءَ أعـــــيُننـا
بـالمشــــتــري، فـــتـــجنَّبْنا لـه زُحَــــلا[٤]

أنتَ الحــبــيبُ الذي مـــا زلتُ أُلحِــفُـــهُ
ظِلّ الهَـــوَى، وأُسَـــقِّـــيـــهِ الرِّضـــا عَلَلا

هذي الحــقــيــقــةُ، لا قــولي مُـخــادعــةً:
لـو كـــان قــولُكَ (مُتْ) مـــا كـــان رَدّيَ (لا)[٥]

****

(١) سترد القصيدة بتمامها في فن الهجاء، ولكننا اخترنا منها هذه الأبيات لمناسبتها للمقام.

(٢) مرتهن: مستحق، والمعنى: إن حبيبي الجديد الذي كملت محاسنه، وأسعدتني مودته جدير بأن يطلق لساني بالثناء على مساعفة الزمان لي بحبه وحسنه.

(٣) في تمام المتون (أبدى الجمال).

(٤) والمعنى أما الحبيب الذي هجرنا فإننا لم نحفل بهجره، ولم نهتم بإعراضه، فقد استبدلنا به خيرًا، مثل من انصرف عن زحل ونحسه إلى المشترى في لألائه ويمنه.

(٥) معنى البيتين: أنه يؤكد لحبيبه الجديد أنه ملك عليه قلبه كلّه، فمنحه حبه الصادق، وفرش له ظلال مودته، وسقاه عذب محبته، أما نسيبه في الحبيب القديم فقد كان ضربًا من الخداع.

نبذ القديم(١)

قـــد عَلِقْنا ســـواكِ عِلْقًـــا نفـــيـــسَـــا
وصـــــرفنا إليـــــه عنكِ النُّفـــوســـــا(٢)
ولَبِـــــسْنا الجَـــــديدَ من خِلَعِ الحُـ
ـبِّ، ولم نألُ أنْ خَلَعْنا اللَّبـــيـــســـا(٣)
لـيس مـنكِ الـهَـــــوَى، ولا أنتِ مـنهُ
اهْبِطي مِـــصْـــرَ، أنتِ من قَـــوْمِ مـــوسى(٤)

****

(١) هذه الأبيات ليست بالديوان، وقد نقلناها عن (الكوكب الثاقب).

(١) علق بالشيء: أحبه. العلق: النفيس.

(١) اللبيس: الثوب الذي كثر لبسه حتى أخلق.

(١) أشار إلى قول أبي نواس:

ومظهـــــرةٍ لخلق الله نسكًا
وتلقـــاني بدلٍّ وابتـــســـامِ
أتيتُ فـــؤادها أشكو إليـــه
فلم أخلص إليـــه من الزحـــام
فـــيـــا من ليس يكفـــيـــهـــا خليلٌ
ولا ألفَـــا خليلٍ كل عـــام
أظنك من بقـــيـــة قـــوم مـــوسَى
فـــهم لا يصـــبـــرون على طعـــام

وهو يرمز بهذا إلى ما حكاه القرآن الكريم عن بني إسرائيل: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحدٍ.....﴾ سورة البقرة ٦١.

نفاية الطعام[1]

أكـــــرم بولاّدةٍ ذُخْـــــرًا لِـمُــــدَّخِـــــرِ
لـو فَـــــــرَّقَـتْ بـين بَـيْـطـارٍ وعَـطّـارِ[2]
قـــالوا: أبو عـــامـــرٍ أضـــحى يُلِمُّ بـهـــا
قلتُ: الـفَـــراشَـــةُ قـــد تدنو مِنَ النّارِ
عَـــيَّـــرْتُمـــونا بأنْ قـــد صـــار يَخْلُفُنا
في من نُحِبُّ، ومـــــا في ذاكَ من عـــــارِ
أَكْلٌ شَـــــهِيٌّ أَصَـــبْنا من أطايبِـــــهِ
بَعْـضًـا، وبعَـضًـا صَـفَـحْنا عنه للفـارِ

****

(١) انصرفت ولادة عن الشاعر إلى خصمه ابن عبدوس، وكان يلقب بالفار، فوجه الشاعر إليه هذه الأبيات، ولم ترد هذه المقطوعة بالديوان، وقد أثبتناها عن (تمام المتون) و(سرح العيون).

(٢) البيطار: طبيب الدواب، والعطار: تاجر العطر.

١ – المطارحات

«داعب الشاعر أصدقاءه وداعبوه، وتلقى رسائلهم وأجاب عنها ملتزمًا أوزانهم وقوافيهم، وهو في ردّه يؤثر البديهة والارتجال».

الإخوانيات

«كما خفق قلب الشاعر بحبه الغلّاب، ولهج بجمال الطبيعة الخلّاب، شغف بعذوبة الصداقة وحلاوة الإخاء، وتدور إخوانياته حول أربعة أغراض».

حسن العقاب

أرسل الشاعر هذه الأبيات إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر عابثًا بصديقهما أبي صفوان:

قُلْ لأبي حَفْصٍ ولم تَكْذِبِ:
يا قَمَرَ الدِّيوانِ والمَوكبِ
ما لأبي صَفْوانَ مألوفِنا
أبْرَقَ في الأُلْفَةِ عن خُلَّبِ؟[1]
ولم يَعُدْ إلاّ كما يتَّقي
مُسْتَرِقُ السَّمْعِ مِنَ الكَوْكَبِ[2]

✡✡✡✡

عَنِّفْه باللّهِ على فِعْلِهِ،
واشْتُمْ، وإنْ لم يَسْتَقِمْ فاضْربِ
وعاطِهِ صَهْباءَ مَشْمولَةً
يَرَى بها المَشْرِقَ في المَغْربِ[3]
ولْيَشْرَبِ الأكْثَرَ من كأسهِ
واعْمِدْ - إلى فَضْلَتِهِ - فاشْرَبِ
عُقوبةٌ، أَحسِنْ بها سُنَّةً
- في مِثْلِهِ - من حَسَنٍ مُذْنِبِ
وباكِرَا الطِّيبَ، ورُوحَا لهُ،
فأنتما في زَمَنٍ طَيِّبِ

****

(١) الخلب: السحاب لا مطر فيه، أبرق عن خلب: أظهر برقًا لا مطر بعده، بمعنى أنه تكشف عن وعود زائفة.

(٢) المعنى: قلّما يتصل بنا إلا خلسة في خوف ورقبة وعلى عجل، كما تفعل الشياطين حينما تحاول استراق السمع من الكواكب فتتوقع أن يصيبها شهاب راصد يحيلها إلى رماد.

(٣) الصهباء: الخمر أو المعصورة من عنب أبيض، مشمولة: خمر باردة.

دعابة بريئة

داعب الشاعر صديقه الوزير أبا العباس بن حاتم بن ذكوان بهذه الأبيات، وكان ابن جهور قد أمر بإراقة الخمر ومنع شربها:

لستَ من بابَةِ المُلوك أبا العبْـ
ـباسِ دَعْهُمْ، فشأنُهُمْ غيرُ شانِكْ[1]
ما جزاء الوزير منك - إذا اخْتَصْـ
ـصَكَ - أنْ تَسْتَمِرَّ في إدمانِكْ
أتُراهُ لا يَسْتَريبُ لإمسا
كِكَ سُعْدَ العِراقِ تحتَ لِسانِكْ[2]
مُذْ نَهانا عنِ المُدامِ انْتَهَيْنا
مَعَ أنَّا نُعَدُّ مِنْ صِبْيانِكْ

****

(١) البابة: الحدود أو الغاية، ويقال هذا بابته أي يصلح له، أو هو شرطه، والمعنى: لست ممن يصلح لمجالسة الملوك أو تتوافر فيه شروطهم، فلا تتوهّم أنك غاية لهم.

(٢) سعد العراق: نبات طيب الريح يطيب رائحة الفم من الثوم والبصل والكراث والشراب. والمعنى: ألا تظن أن الوزير يشك في أمرك حينما يراك واضعًا سعد العراق تحت لسانك فيعلم أنك تستر به رائحة الخمر وفي ب، ت، ز (لا يستعد).

عتب وإخاء

كتب الوزير أبو بكر بن الطُّبني إلى شاعرنا هذه الأبيات:

[أبا الوليـــدِ، ومـــا شَطَّتْ بنا الدّارُ
وقَلَّ منّا ومنكَ اليَـــــــوْمَ زُوّارُ

وبيننا كلُّ مـــــا تُدْريهِ من ذِمَمٍ
وللصِّـــبا وَرَقٌ خُـــضْـــرٌ ونُوّارُ

وكُلُّ عَـــتْبٍ وإعْـــتـــابٍ جـــرى فَلَهُ
مَـــــــواقِعُ حُلْوَةٌ عندي وآثارُ[1]

فاذكرْ أخاكَ بخيرٍ كيفما لَعِبَتْ
به اللَّيـــــالي، فـــإنَّ الدَّهْرَ دَوّارُ]

فأجابه الشاعر على البديهة في ظهر رقعته:

لو أنَّني لك في الأهواء مُـــخْـــتـــارُ
لَمَـــا جَـــرَتْ بالذي تَشْكوهُ أقْـــدارُ

لكنَّها فِـتَنٌ في مِـثْلِ غَـيْـهَـبِـهـا
تَعْـمَى البَـصـائِرُ إنْ لم تَعْمَ أبْصـارُ

فـأحْـسِنِ الظَّنَّ لا تَرْتَبْ بعـهـد فَـتًى
تَعْـفُـو العُـهـودُ وتَبْـقَى منه آثارُ

لو كـان يُعطَى المُنَى في الأمْـرِ يُمْكِنُهُ
لَـمَـا أَغَـبَّكَ - يَوْمًـا - منه زَوّار[2]

(لا يُكثِرُ العـتْب) في ذِكْـرِ الصَّـديق بهِ
مَنْ ليس يَجْـــهَلُ أنَّ الدَّهْـرَ دَوّارُ

****

(١) العتب: اللوم. الإعتاب: الصفح والرضاء.

(٢) ما بين القوسين غير موجود بالأصول، وقد أكملناه بما يناسب السياق، والمعنى: لا يكثر لوم الأصدقاء من يعرف قسوة الدهر وتقلباته وإرغامه الناس على مخالفة ما يحبون.

ذكريات بلنسية[1]

جاشت بنفس الشاعر أطياف أيّامه ولياليه الحلوة ببلنسية مع صديقه الوفي أبي عبدالله بن عبدالعزيز فكتب إليه:

راحَتْ فَــراحَ بِهــا السَّــقــيمْ
ريحُ مُـــعَطَّرةُ النَّســـيمْ[2]
مَـــقْـــبـــولَةٌ هَبَّتْ قَـــبـــو
لاً، فَــهْيَ تَعْــبَقُ في الشَّــمــيمْ[3]
أَفَـــضِـــيضُ مِـــسْكٍ أم بَلَنْـ
ـسِـــيَـــةٌ لِرَيَّاها نَمـــيْم[4]
بَلَدٌ حَـــبِـــيبٌ أُفْـــقُـــهُ
لِفَـــتًى يَحُلُّ به كـــريمْ

☆☆☆☆

إيهٍ أيا عَـــبْـــدِ الإلـــ
ـهِ، دُعــاءَ مَــغْلوبِ العَــزيمْ[5]
إنْ عِـــيلَ صَـــبْـــري من فِـــرا
قِكَ، فـــالعَـــذابُ بِـهِ ألـيمْ

---

(١) بلنسية: مدينة على الساحل الشرقي للأندلس على بعد ثلاثة أميال من البحر الأبيض المتوسط، وتقع على نهر جار تدخل إليه السفن البحرية، فهي برية بحرية تحيط بها الحدائق الغناء والمروج الناضرة، وكانت حاضرة ملك بني عبدالعزيز. وقد تفنن في وصفها الشعراء.

(٢) راحت: طابت، راح السقيم: أخذته خفة، وفي الذخيرة (صحّت فصحّ) وفي القلائد والمغرب والنفح (راحت فصحّ).

(٣) القبول: ريح الصبا وتهب من الشرق، تعبق: تفوح، وفي ت (في النسيم).

(٤) ريّاها: رائحتها الطيبة، نميم: انتشار وذيوع.

(٥) هذا البيت ناقص من نسختي ب، ت، إيه يا فلان: زدنا من أي حديث تشاء، وقد آثرنا رواية القلائد والمغرب والنفح، وفي أصول الديوان والذخيرة (إيهًا) ومعناها: اسكت وكفَّ أو (أيها) بمعنى هيهات، وفي المسالك (أبا عبدالكريم) وفي النفح (نداء مغلوب)، مغلوب العزيم: مغلوب على أمره. وفي المسالك (العريم) ولعلها (مفلول العزيم).

أو أَتْبَــــعَــــتْكَ حَنينَهـــا
نَفْـسي فـأنتَ لهــا قَــسـيمْ[1]
ذِكْـــرَى لِعَــهْــدِكَ كـــالعِــدا
دِ، سَـــرَى فَـــبَـــرَّحَ بالسَّليمْ[2]
مَـــهْــمـــا ذَمَـــمْتُ فـمـــا زمـــا
نـي، فـي ذِمـــامِكَ بـالذَّمـــيـمْ

☆☆☆☆☆

زَمَنٌ - كـــمـــألوفِ الرِّضـــا
عِ -، تَشُـــوقُ ذِكْـــراهُ الفطيمْ[3]
أيَّام أَعْـــــقِـــــدُ نـاظريْ
يَ، بذلك المَـــرْأى الوَســـيمْ[4]
فـــأرى الفُـــتُـــوَّةَ غَـــضَّـــةً
فـــي ثَـــوْبِ أوّاهٍ حَـــلـــيـــمْ[5]

☆☆☆☆☆

الــلَّـهُ يَـعْـلَـمُ أنَّ حُـــــــبْـ
ـبَكَ، من فـؤادي بالصَّــمـيمْ[6]

---

(١) القسيم: الشطر، والمراد أنك شطر نفسي.

(٢) العِداد: مس من الجنون أو وقت الموت، أو اهتياج وجع اللديغ بعد سنة. قال الشاعر:

ألاقـي مـن تـذكـــــــر آل لـيـلـى
كـمـــا يلقى السليم من العِـــداد

والمعنى: إن حنيني إلى ذكرياتك العذبة يعتادني حينًا بعد حين، ويثير آثار هواجس ملحة في عقلي تكاد تدفعني من شدة الوجد إلى الجنون. وفي القلائد والمغرب (كالسهاد).

(٣) في المسالك (عهد).

(٤) في بعض نسخ النفح (أعقد ناظري في...).

(٥) في النفح (وأرى الفتوة..).

(٦) في القلائد والمغرب (في الصميم).

ولَـئِـنْ تَـحَـــــــــمَّـلَ عنـكَ لـي
جِـــسْمٌ فَـــعَنْ قلبٍ مُـــقـــيـمْ[1]

✩✩✩✩

قُـلْ لـي بـأيِّ خِـــــلالِ سَـــــرْ
وِكَ، قَـــبْلُ أُفْـــتَنُ أو أَهـيـمْ؟[2]
أبِمَـجْـــــدِكَ الـعَـــــمَـمِ الـذي
نَسَقَ الـحـــديثَ مع القـــديمْ؟[3]
أم ظَـــرْفِـــكَ الحُـــلْـــوِ الجَـــنَـــى
أم عِـــرْضِكَ الـصَّـــافي الأديمْ؟[4]
أم بِرِّكَ الـعَـــذْبِ الجِـــمـــا
مِ، وبِشْــرِكَ الـغَضِّ الجـــمـــيـمْ؟[5]
إنْ أَشْـــمَـــسَتْ تـلـك الطَّـلا
قَـــةُ، فـــالنَّدَى منهـــا مَـــغـــيـمْ
أمْ بـالـبـــــدائـعِ كـــــالـلآ
لِئِ من نَـثْـــــيــــرٍ أو نـظيـمْ؟
لـبـــــلاغَـــــةٍ إن عُـــــدَّ أهْلُوها
فـــــأنـتَ لـهـمْ زعـــــــيـمْ[6]
فِـــقَـــرٌ تَسُـــوغُ بـهـــا الـمُـــدا
مُ إذا تَـــكَـــرَّرَهَـــا الـــنَّـــديمْ[7]

✩✩✩✩

(١) في القلائد والمغرب (عنك بي).
(٢) في النفح (فيك أفتن).
(٣) في النفح (ألمجدك...).
(٤) في النفح (الغض الجنى).
(٥) الجمام: المياه المجتمعة، الجميم: الغزير أو النبات الكثير.
(٦) في النفح (فأنت بها).
(٧) في النفح (يكررها) والمعنى: جمل عذبة تستلذ مقارعة الكؤوس عليها كالنقل مع الشراب.

إنَّ الـذي قَـــــــسَمَ الحُـظـو
ظَ حَـــبــــاكَ بـالخُلُقِ العَظيمْ
لا أسْــــتَـــــزيـدُ الـلَّـهَ نُـعْـ
ـمَى فـــيكَ، لا بَلْ أسْـــتَـــديمْ
فلقـــــدْ أَقَـــرُّ العَــــيْنَ أنْـ
ـنَكَ، غُـــرَّةُ الزَّمَنِ البَـــهـــيمْ
حَــسْــبي الثَّناءُ لِحُـسْنِ بَرْ
قِكَ، مـــا بدا بَرْقٌ فَـــشِـــيمْ[1]
ثُـمَّ الـدُّعـــــــاءُ بـأن تَـهَـنْـ
ـنَأَ، طُولَ عَــيْــشِكَ في نعـــيمْ
ثـمَّ الـسَّـــــــلامُ تُـبَـلِّـغَـنْـ
ـهُ، فَـــغَـيْبُ مُـــهـــديهِ سَليمْ[2]

****

(١) البرق: اللمعان، برقت المرأة تحسنت وتزينت، شام الرجل البرق: تشوف ببصره وتطلع إليه مرتقبًا المطر. والمعنى: يكفيني أن ألهج بالثناء على مظهرك الوضاء ما دام الناس يتطلعون إلى البروق ويرتقبون نزول الغيث، في النفح (... وشيمْ).

(٢) في القلائد (بقلب مهديه السليم).

قرب وابتعاد

كتب ذو الوزارتين أبو عامر بن مسلمة إلى صديقه ابن زيدون معاتبًا متوددًا:

[تُبـــاعِـــدُنا على قُـــرْبِ الجِـــوارِ
كـــأنّا صَـــدُّنا شَـــحْطُ الـمَـــزارِ[1]
تـطَلَّـعَ لـي هـلالُ الـهَـــجْـــر بـدرًا
وصـــار هِلالُ وَصْلِكَ في سَـــرارِ[2]
وشـــاعَ شنيعُ وَصْلِكَ لـي وهَجْـــري
فـــهـــلاَّ كـــان ذلكَ في اسْـــتِـــتـــارِ
أَيَجْـــمُلُ أنْ تُرى عنّي صَـــبـــورًا
وأصْـــبِحُ مُـــولَعًـــا دونَ اصْطِبـــارِ؟[3]

✡✡✡✡

ولـمّـــا أنْ هَجَـــرْتَ وطالَ غَـــفْـــري
عَـقَـــرْتُ هُمُـــومَ نفـسي بالعُـــقـــارِ[4]
وكنتُ أزيدُ سَـــمْـــعَكَ من عِـــتـــابي
ولكنْ عـــاقَني قُـــرْبُ الخُـــمـــارِ[5]

---

(١) في النفح (شط المزار).

(٢) السرار: آخر الشهر، والمعنى: أن هجرك كامل ووصالك ناقص.

(٣) في النفح: (فأصبح).

(٤) الغفر: الستر أو انتكاس المرض أو استثارة الشوق، يقال غفر العاشق: عاد عيده بعد سلوان، ومنه قول الشاعر:

لعـمـرك إن الدار غـفـر لذي الهـوى
كـمـا يغـفـر المحـمـوم أو صـاحب الكَلْمِ

والمعنى لما طال هجرك لي واستبد بي الشوق إليك لم أجد لنفسي مسليًّا عنك إلا معاقرتي للشراب.

(٥) الخُمار: صداع الخمر أو أذاها.

فَـــراعِ مـــودّتي، واحـــفظْ جِـــواري

فــــــإنَّ الـلّـهَ أوْصَـى بـالجِـــــوارِ

وزُرني مُنعِــمًـــا من غَـــيْــرِ أَمْـــرٍ

وآنِسْ مُــوحَـــشًـــا من عُــقْـــرِ دارِ]

فأجابه ابن زيدون:

هَــوايَ - وإنْ تَــنـــاءَتْ عَــنْــكَ داري -

كَــمِـــثْلِ هَوايَ في حـــالِ الجِـــوارِ

مُـــقـــيمٌ لا تُـغَـــيِّــــرُهُ عَـــوادٍ

تُبـــاعِــدُ بين أحْــيـــانِ الـمَـــزارِ

رأَيْـتُـكَ قُلْتَ: «إنَّ الـهَــــجْـــــر بَدْرٌ»

مـــتى خَلَتِ البُـــدور من السِّـــرارِ؟(١)

ورابَـكَ أنَّـني جَـلْـدٌ صَـــــبُــــــورٌ

وكم صَـــبْــــرٍ يكون عنِ اصْطبـــارِ(٢)

ولـم أَهْـجُـــرْ لِعَـــتْبٍ غَـــيْـــرَ أنيّ

أَضَـــرَّتْ بي مُــعـــاقَـــرَةُ العُـــقـــارِ

وأنَّ الخَـــمْـــرَ ليس لـهـــا خُـــمـــارٌ

تُبَــــرِّحُ بـي، فكيفَ مَـعَ الخُـــمــــارِ؟(٣)

✲✲✲✲

وهـلْ أنْسَـى لديـكَ نَـعـــــيمَ عَـــــيْشٍ

كَـــــوَشْيِ الخَـــــدِّ طُرِزٌ بالـعِـــــذارِ؟

---

(١) في الأصول (إن الوصل بدر) وقد آثرنا رواية النفح لاتفاقها مع بيت ابن مسلمة (تطلع لي هلال الهجر بدرا..).
والمعنى إنك تقول: إن الهجر صار بدرًا مكتملاً، والبدور لا بدّ أن تتعرض للنقصان في أواخر الشهر، ولكنها تعود بعد ذلك إلى كمالها.

(٢) اصطبار: تجلد وتكلف للصبر.

(٣) المعنى: إذا كانت الخمر دون صداع تؤثر فيّ، فكيف إذا كانت مع الصداع.

وســـاعـــاتٍ يَجُـــولُ اللَّهْـــوُ فـــيـــهـــا

مَـــجـــالَ الطَّلِّ في حَـــدَقِ البَـــهـــارِ؟[1]

وإنْ يَكُ قَـــرَّ عنكَ اليَـــوْمَ جـــســـمي

- فُـــدِيتَ - فـــمـــا لقلبي من قَـــرارِ[2]

وكنتَ علـى البِـــــعـــــادِ أجَلَّ عِلْقٍ

لَدَيَّ، فكيفَ إذْ أصـــبـــحتَ جـــاري؟[3]

****

(١) في النفح (مجال الظل في حدق النهار)، والبهار: عين البقر وهو زهر أصفر لنبات طيب الريح ويسمى العرار.

(٢) في النفح ونسخة ز (فرّ عنك.. من فرار).

(٣) في النفح (أجلّ شيء) والعلق: النفيس.

باقة أشعار

وفد أبو العطاف بن حي إلى إشبيلية، فرغب إلى الشاعر أن يريه طائفة من شعره، فمطله، فتوّسل إليه بابن المعتمد عبّاد في رسالة شعرية، فأجاب الشاعر على رويٍّ أبياته ووزنها بهذه القصيدة:

أفَـــــدْتَـنِـي مـن نَـفــــــائسِ الـدُّررِ
مــــــا أبْـرَزَتْـهُ غَـــــــوائِـصُ الـفِـكَـرِ
من لـفظـةٍ قــــــارنَـتْ نَظيــــرَتَـهـــــا
قِــــرانَ سُـــقْمِ الجُـــفـــونِ للـحَـــوَرِ
أبْدَعـــــهـــــا خــــاطِـرٌ، بَدائعُـــــهُ
- في الـنُّظْمِ - حـــازَتْ جَـــلالَـةَ الـخَـطَرِ
أعْطَرُ - مَـــهْـــمـــا سَـــرَى له نَفسٌ -
من نفَس الرّوضِ رَقَّ في السَّـــحَـــرِ[1]

✡✡✡✡

يـــا راقِـمَ الـوَشْـي زانَـهُ الـذَّهَـبُ الـرْ
ـرَقْـــــــــــراقِ إذ رفّ مـنـه فـي الـطّررِ[2]
وَنـاظِمَ الـعِـــقْـــدِ نَظْمَ مُـــقْـــتَـــدِرٍ
يَفْـــصِلُ بـينَ العُـــيـــونِ بـالـغُـــرَرَ[3]

---

(١) المعنى: إن خاطرك يسحّ بالنفحات العطرية، فأثره أعطر من نفحات الروض في مستهل الصباح، ومهما كان للروض من أريج فإنه لا يفوق ما أبدعته من روائع القصائد.

(٢) راقم الوشي: مزخرف النقش. الرقراق: الشديد اللمعان. الطرر: الحواشي، والمعنى: أنك تزين كلامك وتزخرفه كما يزخرف النساج الثوب بالنقوش البديعة ويطرّز حواشيه بالذهب الوهّاج المتلألئ.

(٣) عيون الشيء: خياره، أو الذهب المضروب، الغرة: البياض في الجبهة، والمراد: أنه يؤلف عقد الكلام فيجمع فيه بين الذهب والدرر.

لـي بـالـنِّـضـــــــالِ الـذي نَـشِـطْـتَ لـهُ

عَـــهْـدٌ قـــديمٌ مُـــسْـــتَـــعْـــجِمُ الأَثَرِ[1]

هلْ أُنْصِلُ السَّـــهْمَ في الجَـــفِـــيـــرِ وقَـــدْ

تَـعَـطَّـلَـتْ فُـــــــوقُـــــــهُ مِنَ الـوَتَـرِ؟[2]

☆☆☆☆☆

مـــا الشِّـــعْـــرُ إلاّ لِـمَنْ قَـــريحَـــتُـــهُ

غَـــريضَـــةُ النَّوْرِ غَـــضَّـــةُ الثَّـــمَـــرِ[3]

تَـبْـــــــــــــــسِـمُ عـــن كـلِّ زاهِـرٍ أرِجٍ

مِـــثْلَ الكِمـــامِ ابْتَـــسَـــمْنَ عن زَهَرِ[4]

إنَّ الشَّـــفِـــيـعَ الـهُـــمـــامَ سَـــوَّغَـــهُ اللَّـ

ـهُ اتِّصـــــالَ الـتَّـــأيـيـــدِ بـالـظَّـفَـــــرِ

الـفـــــاضلَ الحِـــــبـــــرَ في الملوكِ إذا

قَـــصَّـــرَ خُـــبْـــرٌ عن غـــايَةِ الخَـــبَـــرِ[5]

نَجْلُ الـذي نُـصْـــــحُـــــهُ وطاعَـــــتُـــــهُ

كـــــالحَـجِّ تَتْلـوهُ بَرَّةُ الـعُـــــمَـــــرِ[6]

شـــاهِدُ عَـــهْـدي لكَ الصَّـــحِـــيحِ وإخْـ

ـلاصٍ نَـأَى صَـــــفْـــــوُهُ عنِ الكَدَرِ[7]

☆☆☆☆☆

---

(١) مستعجم الأثر: مبهم غير واضح.

(٢) نصل الرجل السهم وأنصله: جعل فيه نصلاً، الجفير: الجعبة، الفوق: مشق رأس السهم التي تثبت في الوتر قبل جذبه. والمعنى: لقد بعد عهدي بصياغة الكلام البليغ حتى قلّت دربتي على المصاولة فيه، فكيف أعد سهمًا للرمي به، وأضعه في جعبته، وليس هناك وتر ولا قوس للرماية؟

(٣) غريض: غض طريء، والمعنى: لا يصوغ الشعر إلا من كانت قريحته خصبة قوية.

(٤) أرج: ذو رائحة ذكية، الكمام: جمع كم، وهو الغلاف المحيط بالزهرة.

(٥) الحبر: الرجل الصالح من العلماء، والخبر: العلم بالشيء أو التجربة أو الاختبار. والمعنى: الفاضل الفذ من الملوك تسمع عنه أفضل النعوت، فإذا خبرته صدق الخُبْرُ الخَبَرَ.

(٦) العمر: جمع عمرة، والعمرة: الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة وتسمى الحج الأصغر، والمعنى: إن النصح والطاعة للملك الذي أنجب هذا الأمير واجبان مقدّسان مثل الحج والعمرة.

(٧) معنى البيت والأبيات السابقة: إن الشفيع الهمام الفاضل الحبر نجل الملك... شاهد لي عندك بالعهد الصحيح والإخلاص النقي مما يكدره.

مَشَيْتَ في عَذْلِيَ البَرازَ لِمَنْ
لم يَرْضَ في العُذْرِ مِشْيَةَ الخَمَرِ[1]

وقلتَ: مَطْلُ الغَنِيِّ وِرْدٌ مِنَ الـ
ـظلمِ يُلَقَّى مَلاوِمَ الصَّدَرِ[2]

ولي مَعاذيرُ لو تَطَلَّعُ في
لَيْلِ سَرارٍ أغنتْ عنِ القَمَرِ[3]

منها اتِّقائي لأن أكونَ أنا الـ
ـجالبَ، ما قلتُهُ إلى هَجَرِ[4]

لكنْ سَيَأتيكَ ما يُجَوِّزُهُ
سَرْوُك دَأْبَ المُسامِحِ اليَسَرِ[5]

فاكْتَفِ منه بنظرةٍ عَنَنٍ
لا حَظَّ فيهِ لكَرَّةِ النَّظَرِ[6]

****

(١) البراز: الأرض الفضاء الفسيحة الخلية من الشجر. الخمر: ما يواري الصيد من شجر وغيره. والمعنى: لقد وجهت إليّ اللوم صريحًا، وأنا أوضحت عذري لك صريحًا لأنني لا أرضى التستر وراء المعاذير الكاذبة.

(٢) المطل: التسويف، وفي الأثر «مطل الغنيّ ظلم»، الورد: مورد الماء، والصدر: الصدور عنه، الملاوم: جمع ملامة أو ملومة، والمعنى: إنك لمتني لأنك أحسنت بموهبتي الظن وحسبتني مثل الغني المماطل وأنني لهذا جدير بالعتاب على حين أن لي شتى المعاذير.

(٣) المعنى إن لي معاذير جمة في التقصير عن إجابة طلبك، وهي معاذير ظاهرة واضحة لو برزت في الليالي المظلمة آخر الشهر لأضاءت إضاءة القمر.

(٤) من معاذيري الواضحة أنني أخجل أن أقدم إليك بعض ما تمتاز به أنت مثل جالب التمر إلى (هجر) المشتهرة بتمرها الجيد، وفي المثل «كمستبضع التمر إلى هجر».

(٥) السرو: الفضل والسخاء في المروءة، اليسر: السهل.

(٦) نظرة عنن: نظرة عارضة غير فاحصة، أي أرجو أن تكتفي بإلقاء نظرة عارضة على شعري ولا تدقق في نقده فإنه لا يحتمل النقد.

دواء وشفاء

كتب الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة إلى الشاعر حينما بلغه مرضه وتناوله الدواء:

[مـــولاي نفـــسي إلى مُطالَعَـــةِ الـ
ـحُـسْنَى بعُــقْــبَى الدَّواءِ مُطَّلِعَـــهْ

وكـــــيف ذاك الحِسُّ الـذكيُّ، وقـــــد
باشَــرَ تلك الـمَــذاقَــةِ البَــشِــعَــةْ؟[1]

وبِدْتُ لَوْ أنَّني خُـــصِـــصْتُ بما اسْـ
ـتَـبْـشَـعْتَ منه، وحُـزْتَ مُنْتَـفَـعَـهْ[2]

أَعْـــقَـــبَكَ اللّهُ من فَظاعَـــتِـــهِ
أَسْـــوَغَ صُنْعٍ في مِـــثْلِهِ صنَعَـــهْ

مَـصَـحَّـةً تَصْـحَبُ الزَّمـانَ فَـتُـبْـ
ـليـهِ، وتَبْـقَى جـديدةً نَصَـعَـــهْ[3]

فـــأنتَ روحُ العَـــلاءِ نسَّـــأَهُ اللّـ
ـهُ، وشَـمْلُ الوَفـاءِ، لا صَـدَعَـــهْ][4]

فأجابه ابن زيدون:

قـــد أحْـــسَنَ اللّهُ في الذي صَنَعَـــهْ
عـــارِضُ كَـــرْبٍ بلُطْفِـــهِ رَفَـــعَـــهْ

---

(١) معنى البيتين: يا سيدي إنني مترقب في إشفاق لحسن عاقبة هذا الدواء، فكيف يطيق حسك المرهف الرقيق مذاق الدواء الكريه؟

(٢) المعنى: تمنيت أن أحتمل عنك مرارة الدواء، وأن تفوز أنت بعاقبته الطيبة.

(٣) مصحّة: مجلبة للصحة وحافظة لها، ومنه «الصوم مصحة»، والنصع: ثوب شديد البياض، أو جلد أبيض. ومعنى البيتين: أسأل الله أن يعقبك من مرارة الدواء أحسن عاقبة الشفاء، ويمدك بصحة قشيبة تبلي الزمان وتظل جديدة ناصعة البياض.

(٤) نسأه: أبقاه ومدّ في أجله.

تَبـــــارَكَ اللّـهُ، إنّ عــــــادةَ حُـــــسـْـ
ـناهُ – مَعَ الشُّكْرِ – غَـــيْــرُ مُنْتَــزَعَــةْ

✡✡✡✡✡

يا سَـيِّـدي الـمُـسْـتَـبِـدٌ من مِـقَـتِي
بخِطَّةٍ فــاتتِ الحِـســابَ سَــعَـــةْ[1]
وافــــانِيَ الـعِـــقْـــدُ – زِينَ ناظِمُـــهُ –
والوَشْـيُ لا راعَ حــــادِثٌ صَنَـعَــــــةْ[2]
بَثَــثْتَ فــيــه البَــديعَ مُنْتَــقَـيًــا
كــالرَّوضِ إذْ بَثَّ – في الرُّبا – قِطَعَـــةْ
أزاحَ كَـــــــرْبَ الـدواء مَـطـلـعُـــــــهُ
لـمَّـــا بدا طـالِعُ الـسُّـــرورِ مَــــعَـــةْ
كم دَعْــوَةٍ – قــد حَــواهُ – صــالحـــةٍ
مِنْ أمَلي أن تكونَ مُـــســـتَــمَـعَـــةْ
جُـــمْـلَـةُ مــــا نَفْــسُكَ السَّـــرِيّةُ مِنْ
حـــــالي إلـى علـمِ كُنْهِـــــهِ طُلَعَـــــةْ
أنَّ الـدَّواءَ الـتــــــذَّتْ عَـــواقِـــبَـــــهُ
مِنِّيَ نـفسٌ تَبَــشَّــعَتْ جُــــرَعَـــةْ
فــــالحـــــمــــدُ للّـهِ لا شَــــريكَ لـهُ
إنْ بَدَأَ الطَّوْلَ مُنْعِـمًـــا شَــفَــعَـــةْ[3]

****

(١) المقة: الحب، الخطة: الأرض التي تنزلها ولم ينزلها أحد قبلك، والمعنى لقد استوليت من قلبي على مكان فسيح غير محدود لم يحتله أحد من قبلك ولك فيه الحكم وحدك.

(٢) رجل صنع اليدين: حاذق، وصنع اللسان: بليغ. المعنى: وافاني شعرك المنضد كالعقد النظيم، أسأل الله أن يجمل ناظمه، وأن يقي من الأحداث صانعه.

(٣) معنى الأبيات الثلاثة: إن ما كانت نفسك تتطلع إلى معرفته وتأمل أن تكون، قد تم على أحسن حال، فقد كانت عاقبة الدواء المرّ طيبة حسنة، فشكرًا لله فإنه إذا بدأ الخير أتمه.

سخرية الأقدار[1]

قصد ابن زيدون وابن عمّار وابن وهبون إلى متنزه لبني عبّاد خارج إشبيلية ناوين قضاء يومهم في اللهو والطرب والمسرات، وأرسلوا صاحبًا لهم اسمه خليفة لإحضار النبيذ، فلما عاد إليهم خفّوا إلى لقائه، ولكن فارسًا عابرًا صدمه فهشم أعظمه وكسر آنية النبيذ وفر هارباً فتبدد سرورهم، وضاقت صدورهم، فتطارحوا هذه الأبيات:

ابن زيدون:

أَنَلْهو، والحَتوفُ بنا مُطيفَةْ؟
ونأمَنُ والمَنونُ لنا مُخيفَةْ؟

ابن خلدون:

وفي يومٍ، وما أدراكَ يومٌ؟
مضى قُمْعُولُنا، ومَضَى خَليفَةْ[2]

ابن عمار:

هما فَخَّارتا راحٍ ورَوْحٍ
تكسَّرتا، فأشْقافٌ وجِيفَةْ

****

(١) لم ترد هذه المحاورة بالديوان، وقد أوردناها نقلاً عن بدائع البدائه ونفح الطيب، وإن كان صاحب فوات الوفيات نسبها إلى المعتمد وابن عمار وابن وهبون.

(٢) القمعول والقمعل: القدح الضخم أو قعب صغير، وفي الأصلين القمعال، وهو تحريف لأن القمعال هو سيد القوم أو رئيس الرعاء.

مجلس رفيع

أمر المعتضد بن عباد أن يكون مجلس ابنه وولي عهده المعتمد مرتفعًا عن مجلس كبير وزرائه ابن زيدون، فكتب المعتمد إليه معتذرًا:

أيُّها المُنْحَطُّ عنّي مَجْلِسًا
وله في القلبِ أعلى مَجْلِسِ[1]
بفؤادي لك حبٌّ يَقْتَضي
أن تُرى تُحْمَلُ فوقَ الأرؤسِ

فأجابه ابن زيدون:

أسَقيطُ الطَّلِّ فوقَ النَّرْجِسِ
أم نسيمُ الرَّوضِ تحتَ الحِنْدِسِ؟[2]
أم نظامٌ لِلآلٍ نَسَقٍ
جامعٍ كلَّ خطيرٍ مُنْفِسِ؟[3]
أم قريضٌ جاءني عن مَلِكٍ
مالكٍ بالبِرِّ رِقَّ الأنْفُسِ؟
دَلَّهَتْ فِكْرِيَ من إبداعه
حَيْرَةٌ في مَنْطِقٍ لي مُخْرِسِ
بِتُّ منه بينَ سَهْلٍ مُطْمِعٍ
خادعٍ يُتْلَى بِجَزْءٍ مُوئِسِ[4]

✡✡✡✡✡

(١) في المطرب «وله في النفس».

(٢) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٣) أم هو عقد منظوم يضم لآلئ منسقة أبدع تنسيق من كل غال نفيس.

(٤) الجَزْء: البعض ومثله الجزء، ومعنى البيتين: لقد استبدت بفكري الدهشة من هذا المنطق البليغ الذي أفحمني، وبت أنظر فيه فتروعني سلاسته السهلة التي تطمعني في تقليده، ثم تطالعني منه عبارات جزلة تؤيسني من محاكاتها، وهو ينظر في هذا إلى تعريف الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع. وفي ب، ت، ز (بث منه...) والمعنى: أن الشاعر بث في ثنايا كلامه السهل المطمع والجزل الموئس. ولعلها (يتلى بحزن مؤنس) والحزن هو ما غلظ من الأرض.

يا نَدَى يُمنَى «أبي القــــــاسمِ» غِمْ
يا سَنا شـمس المُـحـيَّـا أَشْـمِسِ[1]

يا بهـــيجَ الخُلُقِ العَــذْبِ ابْتَـــسِمْ
يا مُــهـيجَ الآنفِ الصَّــعْبِ اعْــبِسِ[2]

يا جَـــــمـــالَ الموكبِ الغــــادي إذا
ســار فــيــه، يا بَهــاءَ المَــجْلِسِ

أنتَ لم يُقْنِعْكَ أنْ ألْبَـــسْـــتَني
نِعْــمَـــةً تُذْكِــرُ عَـــهْــدَ السُّنْدُسِ

فَــــــتَـلَطَّفتْ لأنْ حَلَّـيْــــــتَـني
مُـــوليًـــا طُولَى مُـــحَلٍّ مُلْبِسِ[3]

ذاك تَنْويهُ ثَناني فَــــخْــــرُهُ
ســـامِيَ اللَّحْظِ أَشَمُّ المَـــعْطِسِ

☆☆☆☆☆

شَـــرُفَتْ بِكْرَ المعـــالي خِطْبَـــةٌ
منكَ، فـانْعَمْ بسُـرورِ المُـعْـرِسِ[4]

تُمْنَحُ التَّـــأييـــدَ يُجْلَى لكَ عَنْ
ظَفَـــــرٍ حُلْوٍ وعِـــزٍّ أَقْــــعَسِ

وارتشِفْ مَــعْــسـولَ نَصْــرٍ أشنبٍ
تَجْــتَنيــهِ من عَـــجــاجٍ أَلْعَسِ[5]

---

(١) في النفح «بشر المحيا».

(٢) في ت «الخلق العزم»، والآنف: ذو الأنفة والحمية.

(٣) معنى البيتين: لم تكتف أيها الأمير بما ألبستني من حلل نعماك السابغة حتى حليتني بدرر شعرك الغالية، فأكرم بك من مُحَلٍّ ملبس.

(٤) المعرس: المتزوج (ويظهر أن الأمير فتح حصناً فهنأه الشاعر به وجعله بمنزلة الحليلة يملك الزوج أمرها، أو لعله تزوج حقيقة فهنأه بالزواج» فاختلاف الروايات في الأبيات الآتية يحتمل المعنيين)، وفي المطرب:
(شَــرُفَتْ بكر المعـــالي خطبـــة
بك فـــانعم بســـرور المغـــرس).

(٥) الشنب: بياض الأسنان أو رقتها أو عذوبتها. وفي القلائد (من مُجاح اللعس) المجاج: الريق، اللعس: الشفة تضرب حمرتها إلى السواد قليلاً، وهو مستملح.

وارتفِقْ بالسَّعْدِ في دَسْتِ المُنَى

يصبحُ الصُّنْعُ دِهاقَ الأكؤسِ[1]

فاعْتِراضُ الدَّهْرِ في ما شئْتَه

مُرْتَقًى في صَدْرِهِ لم يَهْجِسِ[2]

****

(١) الدست: صدر المجلس أو الوسادة، الصنع: المعروف والإحسان [ولعلها الصبغ بمعنى البسر، وكان العرب يتخذون منه الخمر] دهاق الأكؤس: تتابعها أو امتلاؤها، المعنى: اعتل أيها الأمير عرش الآمال يصبح إحسانك متواليًا كما تتوالى الكؤوس أو فائضًا كما تفيض، أو يتسنى الطرب فتفيض الكؤوس من عصير البسر وتتوالى تباعًا.

(٢) المعنى: لا يستطيع الدهر أن يرقى إلى منزلة يعترض فيها مشيئتك، ولم يهجس له هذا الاعتراض في خاطر.

مطل واعتذار

كتب المعتمد بن عباد إلى الشاعر بعد أن فكَّ مُعمّى تلقّاه منه:

[العَيْنُ بَعْدكَ تَقْذَى
بكلِّ شيءٍ تَراهُ
فَلْيُجْلِ شَخْصُكَ عنها
ما بالمغيبِ جَناهُ]

وأبطأ الشاعر في الرد، فكتب إليه المعتمد:

وَعَدْتَ وأخْلَفْتَني الموعدا
وخالفتَ بالمُنْتَهى المُبْتَدا
وأطْمَعْتَني، ثمَّ أيْأَسْتَني
ويَمْنَعُني الوُدُّ أن أحْقِدا
وأضْعَفْتَ بالمَطْلِ حَبْلَ الرَّجاءِ
فَرَثٌّ، وأعهَدُهُ مُحْصَدا[1]
وعادَ ضِياءُ ارتقابي ظلامًا
وأصبحَ مِصْباحُهُ أرمَدا
وكان فَعالُكَ قبل المَقالِ
فماذا عدا الآنَ في ما بَدا؟[2]

(١) حبل محصد: مفتول فتلا جيدًا.

(٢) المعنى: كان فعلك يسبق قولك، فماذا جد حتى تغيرت الأوضاع؟ وهو ينظر في هذا إلى قول الإمام علي بن أبي طالب لطلحة رضي الله عنهما يوم الجمل: «عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟».

وقــــد كـــــان ظَنِّيَ في مـــــا رَأيْتُ

بـهِ أنّـهُ الـشَّـيْءُ بـلّ الـيَـــــــــدا[1]

وكم قــد توكّــفْـتُـهـــا روضـــةً

تُقَـــــرِّبُ لـي الأمَلَ الأبْـعَـــــــدا[2]

يُـنَـوِّرُ عِـلْـمُـكَ أرجــــــــــاءَهـا

ويَقْطُرُ طَبْــعُكَ فـــيـــهـــا نَدَى

تَوَكَّـــــفَـــــهـــــا زَمَنًا نـاظِري

إذا مَـــــرَّ يومٌ تَـمَـــــادَى غَـــــدا

على ذاك أفْـــديكَ من مـــاجـــدٍ

تَشَـبَّثَ بالظَّرْفِ فــيـــه الهُــدَى

فَــــحِـــــينًا أزورُ بهِ روضــــــةً

وحِـــينًا أُحَــيِّي بهِ مَــسْــجِــدا

☆☆☆☆

لكَ العِلْمُ مَـــهْــمَـــا أَرِدْ بَحْــرَهُ

لأروَى به أَحْـــــمَــــدُ الـمَـــوردا

وفـــيكَ تَجَـــمَّـــعَتِ المَـــأثُرا

تُ طُرّاً، فَـصِـرْتَ بهـــا مُـفْـرَدا

شَـمـائلُ تَنْثُـرُ شـضـمْلَ الهُـمُـو

م، نَثْـــرِكَ بالرّأي شَـــمْلَ العِــدا

فَـــمَــتَّـــعَني اللّهُ بالحظِّ منكَ

ولا زلتَ لي مُـــؤْنِسًـــا سَــرْمَــدا

---

(١) هكذا بالأصل ولعله (النتح بل اليدا) والنتح هو العرق أو خروجه من الجلد، أو لعلها السِّقْي أي الحظ من الشرب، أو الحِسْيُ أي منقع الماء، والمعنى: لقد أوليتني جميلاً أطمعني في الزيادة فاعتقدت أن ما تلقيته منك قطرةٌ سيعقبها المطر الغزير.

(٢) توكفتها: توقعتها.

ودُمتَ ودُمْنا على حـالنا
كما يَصْحَبُ الفَرْقَدُ الفَرْقَدا[1]
فلولاكَ كانتْ ربوعُ السُّرو
ر، منيٍّ تَجَاوَبَ فيها الصَّدى]

فأجابه ابن زيدون:

أفاضَ سَماحُك بَحْرَ النّدى
وأقْبَسَ هَدْيُكَ نورَ الهُدَى
وَرَدَّ الشَّبابَ اعْتِلاقيكَ بعدَ
مفارقتي ظِلَّهُ الأبْرَدا[2]
وما زال رأيُكَ فِيَّ الجَميلُ
يُفتِّحُ لي الأمَلَ المُوصَدا
وحَسْبِيَ من خالدِ الفَخْرِ أنْ
رضيتَ قَبولِيَ مُسْتَعْبَدا
ويا فَرْطَ بَأْوِي إذا ما طَلَعَتَ
فَقُمْتُ أُقَبِّلُ تلكَ اليَدا[3]
ورَدَّدْتُ لَحْظِيَ في غُرَّةٍ
إذا اجتُلِيَتْ شَفَتِ الأرمدا

☆☆☆☆

وطاعةُ أمْرِكَ فَرضٌ أرا
هُ من كلِّ مُفْتَرَضٍ أوْكَدَا

(١) في الأصول (ودمت ودمت) ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) اعتلاقيك: اعتلاقي إياك أي حبي لك، ومنه: اعتلق المرأة وتعلقها وتعلق بها: أحبها.

(٣) البأو: الفخر، والمعنى ما أكثر فخري بتقبيل يدك حينما تهل عليّ بطلعتك الوضاءة.

هِيَ الشَّرْعُ أصبح دِينَ الضَّميرِ
فلو قد عَصاكَ لقد ألْحَدا
وحاشايَ من أنْ أضِلَّ الصِّراطَ
فَيَعْدُوَنِي الكُفْرُ عَمَّا بَدا[1]
وأُخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لا أرى
لِدَهْرِيَ إلاّ بِهِ مَوْعِدا

✡✡✡✡

أتاني عِتابٌ متى أدَّكِرْ
هُ، في نَشَواتِ الكَرَى أسْهَدا[2]
وإنْ كان أعْقَبَهُ ما اقْتَضَى
شِفاءَ السَّقامِ ونَقْعَ الصَّدى[3]
ثَناءٌ ثَنَى في سَناءِ المَحَلْ
لِ زُهْرَ الكواكب لِي حُسَّدا
قَريضٌ متى أبْغِ للقَرْضِ منهُ
أداءً أجِدْ شَأْوَهُ أبْعَدا
لوِ الشَّمْسُ من نَظْمِهِ حُلِّيَتْ
أو البَدْرُ قامَ له مُنْشِدا
لَضَاعَفَ من شَرَفِ النيِّرَيْ
نِ، حظّاً بِهِ قارنَ الأسْعَدا

✡✡✡✡

فَدَيْتُكَ مَوْلًى: إذا ما عَثَرْتُ
أقالَ، ومَهْمَا أزِغْ أرْشَدا

---

(١) فيعدوني: فيصرفني، بدا: ظهر من صحة إيماني بك واعتقادي فيك.

(٢) ادكره: أتذكره، والمعنى: كلما تذكرت عتابك جلب عليّ الأرق لشدة ألمي وخجلي منه.

(٣) المعنى: سهل عليّ عتابك أنك أعقبته بالثناء عليّ مما خفف ألمي ونقع غلتي.

رَكَنْتُ إلى كَـــرمِ الصَّـــفْحِ منهُ
فـــأمَّنَنِي ذاكَ أنْ يَحْـــقِـــدا
وآنَسْتُ سُــوقَ احْــتِـمــالٍ أَبَى
لِمُسْتَبْضِعِ العُذْرِ أنْ يَكْسَدا[1]
شَـفِـيـعِي إليـهِ هَوًى مُـخْلِصٌ
كمـا أخلصَ السَّابِكُ العَسْجَدا
وَمِنْ وُصَلِي هِجْـــرَةٌ لا أعُـــدُّ
لِحـالي سِوَى يَوْمِـهـا مَـوْلِدا[2]
ونُعْـــمَى تَفَـــيَّـــأتُهـــا أيْكَةً
فـشُكري حَـمَــامٌ بهـــا غَــرَّدا
تَبـارك مَنْ جَـمَّعَ الخَـيْـرَ فـيكَ
وأشْـــعَـــرَكَ الخُلُقَ الأمْـــجَـــدا
مَـضـاءَ الجَنان، وطرْفَ اللِّسـانِ
وجـــودَ البَنانِ بِسَكْبِ الجَـــدا
رأى شِيـمَـتَـيْكَ لِـمَـا تَسْـتَـحِقُّ
وَفّـــقُى فـــأظْفَـــرَ إذْ أيَّدا[3]
لِيَـــهْـنِكَ أنَّكَ أزْكَى المـلوكِ
بِفَيءٍ وأشْـــرَفُـــهُمْ سُـــؤْدَدا
سِـوى ناجلٍ لكَ سـامي الهُـمـو
مِ، داني الفَـواضِلِ نائي المَـدى[4]

(١) مستبضع العذر: جالبه، والمعنى وجدت عنده صدرًا رحبًا يأبى أن يرد عذر معتذر.

(٢) المعنى إنني هجرت وطني هجرة وصلتني بك فبدأت بهذه الهجرة عمرًا جديدًا كأنما ولدت يوم تم اتصالي بك.

(٣) من ألقاب أبي القاسم محمد المعتمد على الله: الظافر بحول الله، والمؤيد بالله.

(٤) معنى البيتين: هنيئًا لك ما اتصفت به من طهارة اليد في ما تغنمه من فتوحاتك، وما اتسمت به من الشرف والرفعة، ففقت الملوك جميعًا عدا والدك العظيم البعيد الهمة الجزيل العطايا السامي المطامح.

هُمـــامٍ أغَـــرٌ وَجَـــدْنا الفَـــخَـــارَ
حَـــديثًـــا إلى سَـــرْوِهِ مُـــسْنَدا(1)
سَلَكْتَ إلى المجـــدِ مِنْهـــاجَـــهُ
فـــقـــد طابَقَ الأَطْرَفُ الأَتْلَدا(2)
هُوَ اللَّيْثُ قَلَّدَ منكَ النِّجـــادَ
ليـــومِ الوَغَى شِـــبلَهُ الأَنْجَـــدا(3)
يُعِـــدُّكَ صـــارِمَ عَـــزْمٍ ورأيٍ
فـــتُـرضـيـــهِ جُـــرِّدَ أو أُغْـمِـدا(4)
ومـا اسْـتَبْـهَمَ القُفْلُ في الحـادثا
تِ إلاّ راكَ لـهُ مِـــــقْـلَـدا(5)
فَـــأَمْطاكَ مَنْكِبَ طَرْفِ النُّجـــومِ
وأوْطَأَ إخْـــمَـــصَكَ الفَـــرْقَـــدا(6)
فـــلا زلتـــمـــا يَرْفَعُ الأوليـــا
ءَ، مُلْكُكُمـــا ويَحُطُّ العِـــدا
ونَفْـسي لِنَفْـسَـيْكُمـا البَـرَّتَيـ
ـنِ مِنْ كل مـــا يُتَـــوَقَّى الفِـــدا
فـمن قـال: «أنْ لسـتـمـا أوحَـدَيْـ
ـنِ في الصّالحـات» فـمـا وَحَّـدا

****

(1) السرو: المروءة والشرف، حديث مسند: متصل بقائله.
(2) الأطرف: الأحدث، الأتلد: الأقدم، والمعنى طابق مجده التليد مجدك الطريف.
(3) النجاد: حمائل السيف، الأنجد: الأشجع، والنجد هو الشجاع الماضي في ما يعجز غيره، والشبل: ولد الأسد.
(4) يستعين برأيك كما يستعين بقوتك فيرى منك ما يرضيه في الحالين.
(5) المقلد والمقلاد والإقليد: المفتاح، والمعنى أن فيك تفريجًا لكل كرب وحلاً لكل إشكال.
(6) المنكب: مجمع عظم الكتف والعضد، الأخمص: تجويف باطن القدم، والمعنى أنك سموت فوق النجوم.

٢ – إهداء واستهداء

«بعث الشاعر إلى خلاّنه بالهدايا، وتقبّل هداياهم، وبادلهم تحية بتحية، وقارضهم ثناء بثناء، في عبارات رقيقة تنبض بالود وتشعّ بالوفاء».

ريق العذارى

أهدى الشاعر صنفًا من العنب اسمه «أطراف العذارى» إلى جده الوزير صاحب الأحكام أبي بكر محمد بن محمد بن إبراهيم، وكتب معه:

أتاك محيِّيًا عني اعْتبارًا
عَذارَى دُونَهُ ريقُ العَذارى[1]
تَخالُ الشُّهْدَ منه مُسْتَمَدّاً
ونَفْحَ المِسْكِ منه مُسْتَعارا
يَرُوقُ العينَ منه جسمُ ماءٍ
غدا ثوبُ الهواءِ له شِعارا[2]
ولولا أنَّني قد نِلْتُ منهُ
- ولمْ أسْكَرْ - لَخِلْتُ به عُقارا[3]
بَعَثْتُ بهِ، ولو أهْدَيْتُ نَفْسي
إليكَ لكان من بِرّي اقْتِصارا
فأَنعِمِ بالقَبولِ، فرُبَّ نُعْمَى
أعَدْتَ بها دُجَى لَيْلي نَهارا

****

(١) الاعتبار: الاعتداد بالشيء في ترتيب الحكم مثل «والعبرة بالعقب، أي: والاعتداد في التقدم بالعقب». والمعنى قدمت لك هذا الصنف من العنب فتقدم إليك بالتحية نائبًا عني معتزاً بك مقدمًا لك، وهو أعذب من ريق العذارى.

(٢) المعنى: هذا العنب رقيق الجلد شفاف المنظر كأنه قطرات ماء مغلفة بالهواء وقد ورد هذا المعنى في بيت لأبي تمام:

يخفي الزجاجة لونها فكأنها
في الكف قائمة بغير إناء

(٣) المعنى: مذاق هذا العنب يبعث في النفس نشوة، ولولا أنني لم أسكر منه لحسبته خمرًا.

غذاء ودواء(١)

أهدى الشاعر هدية أخرى إلى جده وكتب معها:

قـــد بَعَــثْناه ينفعُ الأعــضـــاءَ
حين يَجْلُو – بلُطفِـهِ – السَّحْناءَ(٢)

جـــاء يُزهَى بمُسْــتَــشَفٍّ رقـيقٍ
يخـدعُ العينَ رِقَّـــةً وصَـفــاءَ(٣)

تَـنْـفُــذُ الـعينُ منـهُ في ظَرْفِ نورٍ
مَــلأَتْهُ أيدي الشُّــمــوسِ ضِـيـاءَ

أكْـسَـبَـتْـهُ الأيَّامُ بَرْدَ هواءٍ
فَـهْـوَ جِـسمٌ قـد صِيـغَ نارًا ومـاءَ

مَنْظَرٌ يُبْـهِـجُ القُـلوبَ، وطَـعْمٌ
تَشْكُرُ النَّفْسُ عَـهْـدَهُ اسْـتِـمـراءَ(٤)

لـذَّةُ الـوَصْلِ نالَـهُ – بَـعْـدَ يأسٍ –
كَلِفٌ طالما تَشَكَّى الجَـفـاءَ

---

(١) في الأصول المخطوطة «وكتب إليه في مثل ذلك» وربما كانت الهدية صنفًا آخر من العنب.

(٢) السحناء: الهيئة أو اللون أو النعمة أو لين البشرة، والمعنى: هذه الهدية غذاء ودواء فهي تنفع الأعضاء وتصقل البشرة وتزين هيئة الإنسان.

(٣) المعنى جلد هذا العنب رقيق شفاف حتى تظن العين أنه هواء، وقريب من هذا قول الصاحب بن عبّاد:

رقّ الزجـــاج وراقت الخـــمـــر
وتشـابهـا فـتـشـاكل الأمـرُ
فكأنما خـمـرٌ ولا قـدحٌ
وكـأنما قـدحٌ ولا خـمـرُ

(٤) المعنى: منظره يمنح القلوب بهجة، ومذاقه الحلو يهب القلوب لذة، فتهتف بالثناء عليه، وهي لفتة دقيقة من الشاعر أناب فيها القلوب عن العيون، والنفوس عن المذاق.

يَفْـضَحُ الشُّـهْـدَ طعـمُـهُ - كلّمـا قِـيـ
ـسَ إليـهِ - ويُخـجِلُ الصَّـهـبـاءَ
فَـضَلَ السَّـابِقَ الـمُـقَـدَّمَ - في النُّضـ
ـجِ - فَـأَزْرَى بـطـعـمِـهِ إزْراءَ
غَـيْـرَ أنّيَ بَعَـثْتُ هذا غـذاءً
- يَشْـتَـهـيـهِ الفَـتَى - وذاكَ دَواءَ
مُلْطِفٌ يُبْـرِدُ الـمِـزاجَ إذا جـا
شَ الْتِـهـابًا، ويَقْـمَعُ الصَّـفْـراءَ(1)
ومُـعِينٌ لواصِلِ الصَّـوْمِ، يَسْـري
بَردُهُ في الحَـشـا فَـيُـرْوِي الظَّمـاءَ(2)
[فَـتَـقَـبّلْهُ] شـافِـعًـا لأيادِيـ
ـكَ، التي بَعْـضُـهـا يفـوتُ الثَّناءَ(3)

****

(1) مزاج الجسم: طبيعته واستعداده. جاش: اضطرب، الصفراء: مرض يصيب الكبد فيكسو البشرة لونًا أصفر، والمعنى: إنه يهدئ التهاب المزاج ويشفي حدّة الصفراء.

(2) الظماء: الظمأ.

(3) ورد البيت ناقصًا في أوله، فأكملناه بين القوسين بما يناسب المقام.

ذوب المُـــدام

أهدَى الشاعر إلى المعتضد بن عباد هدية من التفّاح وكتب معها:

يـــا مَـــنْ تَـــزَيَّـــنَـــتِ الـــرِّيـــا
سَـــــــةُ حـينَ أُلـبِسَ ثَـوْبَـهـــــــا
ولَـهُ يَـدٌ يَـئِسَ الـغَـــــمـــــــا
مُ مِنْ انْ يُعـــارِضَ صَـــوْبَـهـــا[1]
جـــــاءتْكَ جـــامِـــدَةُ الـمُـــدا
مِ فَـــخُـــذْ عليـــهـــا ذَوْبَـهـــا[2]

****

(١) الصوب: نزول المطر. والمراد به هنا الكرم، ولعل الأوفق من حيث الصياغة أن يصير البيت:
ولـه يـد يـئـس الحـــــــيـــــــا
مـن أن يـعـــــارض صـــــــوبـهــــا

(٢) المقصود بجامدة المدام: التفاح، وبذوبها: الخمر.

نفحات الراح

أهدى المعتضد إلى الشاعر هدية من الراح والفاكهة، وبعث معها بأبيات أجاب عنها الشاعر بقوله:

أمَــــــوْلايَ بُلِّـغْـتَ أقــــــصـى الأمـلْ
وسُــــــوِّغْتَ دأبًا نَـسَـــــاءَ الأجـلْ(١)

وعُــــمِّـــرْتَ - مـــا شــئـتَ - في دولـةٍ
تُـقَـــــصِّـــــرُ عنـهـــــا طِوالُ الـدولْ

فـــــأنتَ الـذي غُـــــرُّ أفـــعـــــالـهِ
تَـحَلَّـى بـهـــــا الـدهـرُ بـعــــــد الـعَطَلْ

لَشَــرَّفَ مَـــمْلوكَكَ الـمُـــســــتـرِقْـ
ـقَ نَظْمٌ مـنَ الـكَلِـم الـمُنْتَـــــــخَلْ(٢)

وراحٌ تُـعــــــيــــــدُ إلـى مـن أسـنْـ
ـنَ طيبَ زمــان الـصِّـبــا الـمُـقْـتَـبَلْ

أتَتْ مـع أَمْـــــرَأِ مـــا يُـغْـــتَـــذَى
وأغــــربِ بـاكـــــورةٍ تُـنْـتَـــــفَلْ(٣)

فـــــأخْـــجَلَـني الـبِـــرُّ من فَـــرْطِهِ
وإنَّ الجـــوابَ لـيُــبْــدي الخَـــجَلْ

وقـــد يَقْــبَلُ - الـدهرَ - مَـــوْلَى الأنـا
مِ، جُــهْـدَ الـعــبـيــدِ إذا مـــا أقَلْ

سَــعِـدْتَ كـمـا سَـعِـدَ الـمُـشْـتَـري
ونِلْـتَ عُــــــلاً لـم يَـنَـلْهـــــا زُحَلْ

****

(١) نَساء الأجل: امتداد العمر.

(٢) المنتخل: المفضل المختار.

(٣) أمرأ ما يغتذى: أعذب غذاء وألذه وأطيبه، الباكورة. أول ما يدرك من الفاكهة: تنتقل: تطلب.

نعمة سائغة

أجاب الشاعر عن رسالة المعتضد شاكرًا:

هل يَشْكُرَنَّ «أبو الوليــــدْ»
إدْناءَكَ الأمَلَ البَــعيــدْ[1]
أوْ أنْ تُسَـــوِّغَ نِعْمَـــةً
للدَّهْرِ أسْـهَـرَتِ الحَسُــودْ
إن لم يَدِنْ بنصيـحَـــةٍ
تُرضِيكَ فَهْوَ مِنَ اليَهُـودْ
لا زِلْتَ رافِـعَ رايَـــةٍ
تُضحي السُّعُودُ لها جُنُودْ

****

(١) أبو الوليد: كنية ابن زيدون.

روح المدام

استهدى الشاعر المعتضد خمرًا فكتب إليه:

يـا بانِيًـــا كلَّ مَـــجْـــدِ
وهـادمًـــا كلَّ وَجْـــدِ[1]
جِـــسْمُ الـسُّـــرورِ سَـــوِيٌّ
مِنْ صَـــوْغِ نُعْـــمـــاكَ عندي
فَـــهَـبْ لـهُ رُوحَ راحٍ
يَنْطِقْ بأحْـــفَلَ حَـــمْـــدِ[2]

****

(١) الوجد: الحزن.

(٢) معنى البيتين: لقد تم جسم السرور، واستوى بفضل نعمك السابقة عليّ، فإذا نفخت في هذا الجسم من روح الخمر فإنه يصبح حيًا ناطقًا يترنم بالثناء عليك.

عطر وطهور

دعا المعتضد الشاعر إلى حمّام قصره، وبعث إليه بطيب وبخور فكتب إليه شاكرًا:

رِضَــاكَ لنا - قَـبْلَ الطُّهـورِ - مُطَهِّـرُ
وقُـرْبُكَ - من دون البَخـورِ - مُعَطِّرُ
فلوْ عَـزَّ حَمَّـامٌ لأدْفَـأَنا ذَرًا
يَفِـيضُ به مـاءُ النَّدَى المُتَفَجِّرُ(١)
ولوْ لمْ يَكُنْ طِيبٌ لأغْنَتْ حَفَاوَةٌ
تُمَسِّكُ منهـا حالُنا وتُعَنْبَرُ(٢)
فـلا فارقَ الدنيـا سَناءٌ مُقَدَّسٌ
بِعَـيْشِكَ فيهـا أو ثَناءٌ مُجَمَّرُ(٣)
ودُمْتَ مُلَقَّى - كلَّ يومٍ - صَبِيحَةً
يُغاديكَ فيهـا بالفُتُوحِ مُبَشِّرُ

****

(١) الذرا: كل ما استذريت به فتقول أنا في ذرا فلان، أي في ظله وكنفه وستره.

(٢) في ب، ز «تمسك منه» والمعنى: حفاوة الأمير تغنينا عن كل طيب من مسك وعنبر.

(٣) السناء: الرفعة، مجمرّ: مجمعٌ.

وافدة الشمول

أهدى الشاعر إلى المعتمد هديّة وكتب معها:

دُونَك الـرّاحَ جــامِـدَهْ
وَفَـدَتْ خَـيْـرَ وافِـدِهْ[1]
وَجَـدَتْ سُـوقَ ذَوْبِهـا
- عند تَقْـواكَ - كـاسِـدَه[2]
فـاسْـتَـحـالتْ إلى الجُـمـو
دِ، وجـاءتْ مُـكـايِـدَه[3]

ثم عدل عن الأبيات السابقة وكتب الأبيات الآتية:

جـاءتْكَ وافِـدةُ الشَّـمُـولْ
في الـمَنْظَرِ الحَـسَنِ الجَـمِـيلْ[4]
لـم تَـحْـظَ ذائـبَـةً لَـدَيْـ
ـكَ، ولـم تَـنَـلْ حَظَّ الـقَـبُـول
فـتـجـامَـدَتْ مُـحْـتـالةً
والمرءُ يَعْـجِـزُ لا الحَـوِيلْ[5]

(١) في ت «غير وافدة».

(٢) في النفح «عندك اليوم كاسدة».

(٣) في الأصول «الجموم» والتصويب عن النفح.

(٤) الشمول: الخمر. وفي نسخة ت «البهج الجميل».

(٥) الحويل: الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف، والاسم من حاول، والمعنى: المرء عاجز بقدرته وحدها، ولكنه بحيلته وحذقه يستطيع بلوغ أهدافه، ولما رأت الخمر أنها لا تستطيع الحظوة عندك لتقواك وورعك استحالت من السيولة إلى الجمود فصارت تفاحًا، وفي المثل: المرء يعجز لا المحالة أو لا محالة، ومنه قول دؤاد(*) لزوجه:

حاولت حينَ صَرَمتَني   وَالـمَرءُ يعجزُ لا الـمَحاَله

(❖) هكذا ورد في الأصل، وقد ورد البيت ضمن أبيات لأبي الأسود الدؤلي على هذا النحو:

فاحتَلتَ حينَ صَرَمتَني   وَالـمَرءُ يعجزُ لا الـمَحاَله   «المراجع».

لـولا انقـــــلابُ الـعـينِ سُـــــدْ
دَتْ - دون بُغْـيَـتِـهـا - السَّـبـيلُ[1]
لَهَـــجَــــرْتَهـــا صــــفــــراءَ في
بيــــضـــــاءَ، هـاجــــرُها قـليل
الـكـأسُ مـن رأْدِ الـضُّـــــــحَـى
والـرَّاحُ مـن طَـفَـلِ الأصــــــيـل[2]
آثَـرْتَ عـــــــائِـدَةَ الـتُّــــــقَـى
ورَغِـــبْتَ في الأجْـــرِ الجَـــزيل

☆☆☆☆

يـأيّـهـــــــا الـــمَـلِـكُ الـذي
مـــــا فـي الـمُلوكِ لـه عَـــــديل
يا مـــاءَ مُـــزْنٍ، يا شِـــهـــا
ب دُجُـنَّـةٍ، يا لَـيْـثَ غِـــــــيل[3]
يا مَـنْ عَـــجِــــبْنا أن يَجُــــو
دَ، بمـثـلِـهِ الـزَّمَـنُ الـبَــــخـــــيل
بُشْـــــراكَ دنـيـــا غَــــضَّـــــةٌ
فـي ظِـلِّ إقْـــــــبــــــالٍ ظَـلـيل
رَقَّـتْ كـــــمــــا ســـــالَ الـعِـــذا
رُ، بجــــانبِ الخَـــــدّ الأسـيـــــل
وتَـأَوَّدَتْ كـــــالـغُـــــصنِ قــــا
بَلَ عِطْفَـــهُ نَفَسُ القَـــبُـــول[4]

(١) العـين: الذات، والمعنى: لو لا انقـلاب طبيعـة الخمـر من سائلة إلى جامـدة لانسـدت في وجـهـا الطرق فلم تصل إليك لورعك وزهدك.

(٢) رأد الضحى ورائدهُ: ارتفـاعه، والطَّفَل: احمرار الشمس عند الغروب، الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب، والمعنى: زجاج الكأس وضاء شفاف، والخمر حمراء مائلة للصفرة.

(٣) دجنة: ظلام. ليث غيل: أسد غابة.

(٤) تأودت: مالت، عطفه: جانبه، القبول: ريح الصبا.

يُصْــبِي مُــقَــبَّلُهــا الشَّــهــيـ
ـيُ وَلَـحْظُهــا الـسّــادي العليل[1]
فَــــتَــــمَلَّهــــا في الـعِـــزَّةِ الـ
ـقَـعْـســاءِ والـعُــمُــرِ الطَّويـل[2]

****

(١) السادي: مأخوذ من سَدِي البُسر أي استرخت تفاريقه، والمعنى: اللحظ المسترخي الفاتر، وفي الأصول «الشاذي» ومعناها المؤذي، ولعل الصواب ما ذكرناه، أو لعله الساجي بمعنى الهادي الوادع.

(٢) تملّها: استمتع بها، القعساء: الثابتة، وفي ت، ز «بالعزة».

٣ – مجالس الشراب

«طوى شاعرنا مع أصدقائه أيَّامًا باسمة، وليالي حالمة، يعاقرون فيها الصهباء، ويسمعون الغناء، بين الزهر والماء، فتجاوبت ألحانه مع الأوتار والعقار، مرتلة أعذب الأشعار».

ضيف كريم

لما وفد الشاعر على إشبيلية نزل بدار صديقه ذي الوزارتين أبي عامر بن مسلمة(١) وهو يبني فيها مجلسًا، فصنع هذه الأبيات لتكتب فيه:

عُمِّرَ من يَعْمُرُ ذا المَجْلِسَا
أطْوَلَ عُمْرٍ يُبهِجُ الأنْفُسَا

وبَعْدَ ذا عُوِّضَ عن دارِهِ
عَدْنًا، ومن ديباجِهِ السُّنْدُسا

ووُقِّيَ الفَوْزَ بها والرِّضا
ووُقِّيَ الأسْواءَ والأَبْؤُسا(٢)

ودامَ عَبَّادٌ لعهد الهدى
يَحْرُسُ حتّى يُفْنِيَ الأَحْرُسا(٣)

✡✡✡✡

مُعْتَضِدٌ باللّه، إحْسانُهُ
جَمٌّ، إذا ما الدهرُ يَوْمًا أَسَا(٤)

المَلِكُ الغَمْرُ النَّدَى، المُقْتَني
من كلِّ حَمْدٍ عِلْقَةُ الأَنْفَسَا(٥)

إنْ رامَ يومًا وَصْفَ عَلْيائِهِ
مُفَوَّهٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرِسا

لا زال بدرًا طالعًا نيِّرًا
يكشِفُ عن آمالنا الحِنْدِسَا(٦)

✱✱✱✱

(١) في الأصول «أبي علي بن جبلة» ولكنها عادت في المقطوعات التالية فكتته بأبي عامر، وقد صححنا الاسم من نفح الطيب.

(٢) في النفح «ولُقِّي النور».

(٣) في النفح «لعضد الهدى» أي لمعونة الهدى. الأحرس: جمع حرس وهو الدهر، والمعنى: عاش عبّاد يحرس الهدى مدى الزمان.

(٤) المعنى: إذا أساء الزمان يومًا فإن إحسان الأمير جم متصل.

(٥) المعنى: الملك الكثير الجود الذي يحرز من كل مجد أنفسه وأغلاه.

(٦) الحندس: الظلام، وفي الأصول «من آمالنا»، والتصحيح عن نفح الطيب.

حث الكؤوس

طاب للشاعر الشراب في المجلس السابق فأنشد:

أَدِرْها فــقــد حَــسُنَ الـمَــجْلِسُ
وقـــد آنَ أنْ تُـنْـــزَعَ الأَكْـــؤُسُ
ولا بـأسَ إنْ كـــان وَلَّى الـرَّبـيـعُ
إذا لـمْ تَـجِـــدْ فَـــقْـــدَهُ الأنْفُسُ[1]
فـــإنَّ خِــلالَ أبـي عـــامـــرٍ
بهـا يَـحْـضُــرُ الـوردُ والنَّرجسُ[2]

****

(١) في بعض نسخ النفح «ولا تتس أن أوان الربيع...» وفي بعضها الآخر «ولا نفس إن أوان الربيع...».

(٢) في النفح «بها يحقر».

دعوة كريمة[1]

دعا الشاعر صديقه أبا عامر بن مسلمة لقضاء ليلة ممتعة:

طابَتْ لنا لَيْلَتُنا الخاليَهْ
فلْتُنْسِناها هذهِ التّاليهْ[2]

أبا المَعالي نحنُ في راحةٍ
فانقُلْ إلينا القَدَمَ العاليهْ[3]

لَيْلَتُنا عاطِلَةٌ إنْ تَغِبْ
عنّا، فزُرنا كي تُرى حاليَهْ[4]

أنتَ الذي لو تُشْتَرَى ساعةٌ
منه بدَهْرٍ لم تَكُنْ غاليَهْ[5]

****

(١) وردت هذه المقطوعة مرتين في نفح الطيب، وقد وردت في الموضع الأول مصدرة بهذه العبارة «وكتب إلى الوزير أبي العالي المهلب بن عامر» وفي الموضع الثاني مصدرة بهذه العبارة «وكتب إلى أبي عامر يستدعيه» والمقصود هو أبو عامر بن مسلمة كما ذكرنا سابقًا.

(٢) في بعض نسخ النفح «فلتتبعها هذه الثانية» وفي بعضها الآخر «فلّنتبعنها».

(٣) في إحدى روايتي النفح «في راحة» وفي الرواية الثانية «في روضة»، وفي الخريدة «القدم الغالية».

(٤) في النفح «لأنها عاطلة».

(٥) في إحدى روايتي النفح «لو تُشْتَرى» وفي الرواية الثانية «لو نشتري».

بين الرياض

قضى الشاعر فترة صفاء مع المعتضد بن عباد بين المياه الجارية والأزهار العاطرة فرَتّل هذه الأبيات:

يـا أيّـهـــــــا الـــمَـلِـكُ الجَـلـيــ
ــلُ، يُكِلُّ اَلْسِنَـتَـنـا جَـــــــلالُـكْ[1]
انْـظُـرْ إلـى مُـــــــحْـــــــتَـلِّـنـا
قـــد زانَ ســـاحَـــتَــــهُ احْـــتِـــلالُـكْ
نَــهْـــــــــــرٌ ورَوْضٌ نــحــنُ بــيْــ
ــنَـهُـــــمـــــا تُـؤَلِّـفُـنـا ظِـلالُـكْ
قــــــد فـــــاضَ فـي هـذا نَـدا
كَ، ونَـعَّـــــــمَـتْ هـذا خِـــــــلالُـكْ

****

(١) يكلُّ: يضعف، والمعنى: إن جلالك يخرس ألسنتنا في الثناء عليك.

٤ – لذة المناجاة

«رق العتاب فأصبح مناجاة، وطابت المناجاة فصارت نسيبًا، ولا عجب!! فالصداقة عند شاعرنا يمتزج فيها الود بالهيام».

خلع العذار

كتب الشاعر هذه القصيدة في معاتبة أو مناجاة صديقه أبي القاسم بن رفق، ولعلها شخصية رمزية يكمن وراءها مصدر حب وإلهام:

عُـــذْرِي - إنْ عَـــذَلْتَ في خلع عُــذري -
غُـــــصُنٌ أثمــــــرتْ ذُراهُ ببـــــدْرِ[1]

هَزَّ منه الصِّــــبـــــا فـــقـــوَّمَ شطرًا
وتَجَـــافَى - عن الوِشَـــاحِ - بشَطْرِ[2]

رَشَـــأٌ أقْـــصَـــدَ الجَـــوانِحَ قَـــصْـــدًا
عن جُـفُـونٍ كُـحِلْنَ - عَـمْـدًا - بسِـحْـرِ[3]

كُـــسِيَ الحُـــسْنَ فَـــهْـــوَ يَفْـتَنُّ فـيـــهِ
ســاحـــبًــا ذَيْلَ بُردِهِ الـمُـــسْـــبَكِرِ[4]

تحت ظِلٍّ - مِنَ الـغَــــرارةِ - فَـــــيْنا
نَ، ورَوْقٍ من الشَّـــبـــيـــبَـــةِ نَضْـــرِ[5]

أبْرَزَ الجِـــــيـــــدَ فـي غَــــلائلَ بـيضٍ
وَجَــلا الخَــدَّ في مَــجـاسِـدَ حُـمْـرِ[6]

---

(١) العذُر: العذْر، وهو ما يحتج به الإنسان في الدفاع عن نفسه، خلع عذري: خلع حيائي واستهتاري، وأصله: عذر: جمع عذار بمعنى الحياء يقال خلع فلان عذاره: ترك حياءه واستهتر في تصرفاته كما يخلع الفرس لجامه ويجمح.

(٢) المعنى: أبرز الشباب منه بعض الأعضاء وأضمر بعضها، ومن مقاييس الجمال عند العرب أن يبرز الصدر والردف ويدق الخصر، وفي هذا يقول الشاعر:

أبت الروادف والثُّـدِيُّ لقـمـصـهـا
مسَّ البطون وأن تمسَّ ظهـورا

(٣) أقصد: أصاب المقتل.

(٤) المسبكر: المسترسل الممتد.

(٥) الغرارة: قلة الخبرة، الروق: الفسطاط، وروق الشباب أوله، والمعنى: إنها تعيش في سذاجة حلوة محببة، وتخطر في شبيبة ناضرة.

(٦) الجيد: العنق، المجاسد: جمع مجسد، وهو الثوب المصبوغ بالجساد أي الزعفران.

وتَـثَـنَّـتْ بـعِـطـفِــــــهِ - إذْ تَـهَـــــادَى -
خَــطْـرَةٌ تمــزجُ الــدَّلالَ بــكِـبْــــــــــرِ

☆☆☆☆☆

زارني بَعْـــدَ هَجْــعَـــةٍ، والـثُّــــرَيّا
راحَــــةٌ تَقْـــدِرُ الظَّلامُ بشِــبْـــرِ[1]
والدُّجَى من نجـــومـــه في عُـــقـــودِ
يتــــلألأنَ من سِـــــمـــــاكٍ ونَسْـــرِ
تَـحْـــــسَبُ الأفْقَ بـينَـهـــــا لا زَوَرْدًا
نُثِــرَتْ - فــوقَـــهُ - دنانيـــرُ تِبْـــرِ[2]
فـــرشـــفتُ الرُّضـــابَ أعْـــذَبَ رَشْفٍ
وهَصَــرْتُ القَــضــيَب ألْطَفَ هَصْــرِ[3]
ونَعِـــمْنا بلفٍّ جِـــسمٍ بجـــسمٍ
للـتَّــصـــافي، وقَـــرْعِ ثَغْـــرٍ بثَـــغْـــرِ
يـالَـهــــا لـيلـةً تجَلَّى دُجـــاهـا
- من سَنا وجْنَتَـيْــهِ - عن ضــوءِ فَــجْـرِ
قَــصُّـــرَ الوصلُ عُـــمْـــرَها، وبودّي
أن يطولَ القـصــيـرُ منهــا بعُــمْــري[4]

☆☆☆☆☆

مَنْ عَـــذيري مـن رَيْبِ دهرٍ خـــؤونٍ؟
- كـلَّ يـومٍ - أُراعُ مـنـهُ بـغَــــــــدْرِ[5]

---

(١) راحة: كف، تقدر: تقيس.

(٢) تظن الأفق بساطًا أزرق نثرت فوقه دنانير ذهبية.

(٣) الرضاب: الريق، هصر: جذب أو أمال، القضيب: المقصود به القدّ المشوق.

(٤) المعنى: إن الوصل جعل ليلتي قصيرة، وإنني لأتمنى أن أطيلها بشطر من عمري.

(٥) من عذيري: من يعذرني منه؟ أي من يلومه على فعله وينحي عليه باللائمة؟

كلّمـــا قلتُ: «حـــاكَ فـــيـــهِ مَـــلامي»
نَهَـــسَـــتْني منه عَـــقــارِبُ تَسْـــري[1]
وتَـرَتْـنِـي خُـطـوبُـهُ فـي صَـــــــفيٍّ
فــــــاضلٍ نـابـهٍ - مِـنَ الـدهـر - وِتْـرِ[2]
بـانَ عنّـي - وكـــان روضـــةَ عـــيني
فـــغـــدا الـيـــومَ وَهْوَ روضـــةُ فكري[3]
فَكِهٌ يُـبـــــهـجُ الخـلـيلَ بـوجـــــهٍ
تَـرِدُ الـعينُ مـنـه يَـنْبـــــوعَ بِـشْـــــرِ
لَـوذعَيٌّ - إن يَبْلُـهُ الخُـــبْـــرُ يومًـــا -
أَخْـــجَـلَ الـوَرْدَ عن خِــــلائِـقَ زُهْرِ[4]
وإذا غـــــازلَـتْـــــهُ مُـــــقْلَـةُ طَـرفٍ
كــاد - من رقّـــةٍ يذوبُ - فَـيَـــجْـــري[5]

☆☆☆☆☆

يا «أبـا الـقــــاسمِ» الـذي كـــان رِدْئي
وظَـهـــيـري - عـلى الزّمــانِ - وذُخْـــري[6]
يا أحـقَّ الـوَرَى بـمَمْـــحــوضِ إخـــلا
صـي، وأوْلاهُـمُ بـغـــــايَـةِ شُـكـري[7]
طرقَ الـدهـرُ ســـــاحَـــتي من تـنـائـيـ
ـكَ بِـجَـــــهْمٍ مِـنَ الحَـــــوادِثِ نُـكْرِ

☆☆☆☆☆

(١) حاك القول في القلب: أخذ، وحاك السيف: أثر، والشفرة، قطعت، نهس: عض، أو أخذ الشيء بمقدم أسنانه.

(٢) وترتني: ظلمتني وأصابتني بما يستدعي الثأر، وتر: مفرد لا نظير له.

(٣) بان عني: فارقني، والمعنى: كان ماثلاً أمام عيني، فأصبح ماثلاً في خواطري.

(٤) لوذعي: ظريف أو شجاع، والمعنى: إنه نابه شجاع إذا جربته تكشفت طباعه عن شمائل رقيقة تخجل الورود.

(٥) المعنى: يكاد يسيل رقة وعذوبة إذا غازلته العيون. وفي نسخ ب، ت، ز «فإذا غازلته مقلة طرفي».

(٦) الردء: العون، الظهير: المساعد والمعين، وفي ت «كان ردفي».

(٧) ممحوض: خالص، وفي نسخة (أ) «ممحوص»: من محص الذهب بالنار: أخلصه.

ليت شِعْري! والنَّفْسُ تعلمُ أنْ ليْـ
ـسَ بمُجْدٍ على الفَتَى: «ليت شِعْري»[١]
هلْ لِحَالِي زمانِنا من رُجوعٍ؟
أم لماضي زمانِنا من مَكَرٍّ؟[٢]

☆☆☆☆☆

أينَ أيَّامُنا؟ وأينَ ليالٍ
كرياضٍ لَبِسْنَ أفْوافَ زَهْرِ؟
وزمانٌ كأنَّما دَبَّ فيهِ
وَسَنٌ، أو هَفَا بهِ فَرْطُ سُكْرِ[٣]؟
حينَ نَغْدُو إلى جَداولَ زُرقٍ
يَتَغَلْغَلْنَ في حدائقَ خُضْرِ[٤]
في هِضابٍ مَجْلُوَّةِ الحُسْنِ حُمْرٍ
وبَراثٍ مصقولَةِ النَّبْتِ عُفْرِ[٥]
نَتَعاطى الشَّمولَ مُذْهَبَةَ السِّرْ
بالِ، والجَوُّ في مَطارِفَ غُبْرِ[٦]

---

(١) ليت شعري: ليتني أعلم، ومثله قول ابن الرومي:

يا ليت شعري، وليت غير مجدية
إلا استراحة قلب وهو أسوان
لأي أمر مراد بالفتى جمعت
تلك الفنون فضمتهن أفنان؟

(٢) مكَّر: رجوع، والمعنى: هل تعود أيامنا الحلوة؟ وهل ترجع ليالينا السالفة؟

(٣) وسن: نوم، هفا: مال.

(٤) في ب، ت، ز «غلائل زرق».

(٥) براث: جمع برث وهي الأرض السهلة اللينة من غير بلل، أو أسهل الأرض وأحسنها، وفي الأساس: حبذا تلك البراث الحمر والدماث العفر: أي الأراضي السهلة الحمر والبقاع ذات الرمال البيض، عفر: مائلات للبياض، وفي أصول الديوان (بداة مصقولة) والبداة هي البادية، ولا يتفق معناها مع البيت السابق، ولعل الصواب ما أثبتناه، وقد تكون (غداة) وهي الأرض الطيبة التربة، الكريمة النبت، البعيدة عن الوباء.

(٦) المطارف: أردية من خز مربعة لها أعلام، والمعنى: نتعاطى الخمر المذهبة في اليوم المطير.

في فُـــتُـــوٍّ تَوَشَّـــحـــوا بالمعـــالي
وترَدَّوْا بكلِّ مـــجـــدٍ وفَـــخْـــرِ[1]

وُضَّحٍ تَنْجَلي الغَـــيـــاهِبُ منهمْ
عن وجـوهٍ - مـثلِ المصـابيحِ - غُـرِّ[2]

كلُّ خِـــرْقٍ يكادُ يَـنْـهَلُ ظَرْفًـــا
زانَ مِـــرآتَهُ بأكـــرَمِ خُـــبْـــرِ[3]

[ذي سـمِـاتٍ تَشِفُّ عن] مَـحْضِ خـالٍ
نَفَحَ المسكَ عَـرْفُـهـا طِيبَ نَشْـرِ[4]

وسَـــجَـــايا كـــأنَّهُنَّ كـــؤوسٌ
أو رياضٌ قـد جـادَها صَـوْبُ قَطْرِ[5]

يَتَلَقَّى القَـــبـــولَ منِّي قَـــبـــولٌ
كلّمـا راحَ نَفْـحُـهـا ارْتاحَ صَـدْري[6]

فَـهْـوَ يَسْـري مُـحَـمَّـلاً - من سَـجـايا
كَ - نَسـيـمًـا يُزْهَى بأفْـوَحِ عِطْرِ[7]

✵✵✵✵

يا خَليلي، وواحِـــدي، والـمُـــعَلَّى
من قِـداحي، والمُـسْـتَـبِـدُّ بِبِـرِّي[8]

لا يَضِـعْ وُدِّيَ الصَّـــــريحُ الذي أرْ
ضـاكَ منه اسـتـواءُ سِـرِّي وجَـهْـري

(١) فتوّ: فتيان. والمعنى: نلهو مع فتيان يرتدون أثواب العلا والمجد والفخار.

(٢) المعنى: هم فتيان مشرقو الوجوه، لا تنال منهم الأحداث بل تتكشف عن شبان متهللي الأسارير مثل المصابيح.

(٣) خرق: سخي ظريف، أو حسن الوجه كريم الخليقة، ينهلّ: يسيل، مرآته: منظره الجميل، وفي ب، ت، ز «مرأى به».

(٤) المحض: الخالص، الخال: الرجل الذي يتوسم فيه الخير، والمعنى: إنه يتسم بملامح تشف عن شمائل طيبة يستعير المسك منها رائحته الذكية، وقد ورد البيت ناقصًا بأصول الديوان، فأكملناه بما يناسب المقام بين القوسين.

(٥) في ب. ت. ز «طيب قطر».

(٦) القبول: ريح الصبا، قبول: موافقة، راح نفحها: طاب ريحها.

(٧) في ب. ت. ز «يزهو...»، ومعنى البيتين: إنني أتلقى ريح القبول ببشر وارتياح، لأنها تهب من جهتك حاملة نفحاتك الطيبات.

(٨) المعلى: سابع سهام الميسر، وهو أوفرها حظاً.

وتَـوالـي أَذِمَّـــــــةِ نَـظَـمَـــــــتْـنـا
نَظْمَ عِـقْـدِ الجُـمـانِ في نَحْــرِ بِكْرِ[1]
لا يَكُنْ قَــصْـــرُكَ الجَــفــاءَ، فــإن الـ
ـودَّ - إن ساعَـدَتْ حـيـاتِيَ - قَـصْري[2]
وأَعِـــــدْ - بالجَـــــواب - دولةَ أُنسٍ
قَـــد تَقَــضَّتْ إلا عُــلالةَ ذِكْــــرِ[3]
واكْسُ مَــتْنَ القِــرطاس ديبـــاجَ لفظٍ
يبـــهَـــرُ الفكْرَ من نَظيمٍ ونَـثْـــرِ
غُـــــــــرَرٌ من بدائـعٍ لا يَشُـكُّ الـدْ
ـدَهْرُ في أنَّهـــــا قَــــــلائِدُ دُرِّ
تَتَـــوالى على النفـــوس دِراكًـــا
عن فتًى مُوسِرٍ من الطَّبْعِ مُـثْـري[4]
شَـــدَّ في حَلْبَـــةِ البـــلاغـــةِ حـــتَّى
بانَ فيها عن شَـأْوِ «سَهْلٍ» و«عَمْرو»[5]
وإذا أنتَ لم تُـعَــــجِّلْ جَـــوابي
كـان هذا الكتـابُ بَيْـضَــةَ عُـقْــرِ[6]
فــابْقَ في ذِمَّــةِ السَّــلامَــةِ مــا انْجــا
بَ، عنِ الأفْقِ عــارضٌ مُــتَــسَـــرِّي[7]
وعليكَ السَّـــــلامَ مــــا غَنَّتِ الوُرْ
قُ ومـــالَتْ بهـــا ذَوائِبُ سِـــدْرِ[8]

****

(١) أذمة: حقوق وحرمات، وفي ت «أزمة».

(٢) قصرك وقصاراك: غاية جهدك، والمعنى: لا تحرص على جفائي فإنني حريص على مودتك.

(٣) علالة ذكر: ذكريات يتعزى بها.

(٤) دراكًا: متوالية متتابعة، موسر من الطبع: ذو موهبة خصيبة غنية.

(٥) سهل بن هارون: من أشهر كتاب الدولة العباسية. وكان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته ويروي عنه، وقد ضاعت آثاره ولم يبق منها إلا بعض آثار رواها الجاحظ في كتبه، وأوسعها رسالة في تفضيل البخل والاحتجاج له وقد رواها الجاحظ في كتابه البخلاء. وعمرو: هو عمرو بن بحر الجاحظ شيخ كتاب العربية، وما بقي من آثاره يغني عن التنويه.

(٦) بيضة عقر: آخر بيضة للدجاجة، أو بيضة الديك، يزعمون أنه يبيضها في السنة مرة، والمراد إن أنت لم تعجل بالردّ على كتابي كانت هذه القصيدة آخر رسالة مني إليك.

(٧) عارض: سحاب، متسر: ملقح الأرض بمطره مأخوذ من تسرّى الرجل الجارية: عاشرها.

(٨) الورق: الحمائم، سدر: شجر النبق.

الذكرى الباقية[١]

كتب الشاعر الأبيات الآتية على لسان المعتضد بن عباد في الشوق إلى صهره أبي الجيش الموفق مجاهد بن عبدالله العامري أمير دانية[٢]:

عــرفتُ عَــرْفَ الصِّــبـا إذ هَبَّ عــاطرُهُ
من أفْقِ مَنْ أنا في قلبي أُشــاطرُهُ[٣]
أرادَ تَجْــديدَ ذِكْــراهُ على شَــحَطٍ
ومــا تَيَــقَّنَ أنّي الدَّهْرَ ذاكِــرُهُ[٤]
يَنْأَى الـمَــزارُ بهِ، والدَّارُ «دانيــةٌ»
يا حبّذا الفَألُ لو صَحَّتْ زَواجِرُهُ!![٥]

✲✲✲✲✲

نُخْرِي أبا الجَيْشِ هلْ يَقْضِي اللقاءُ لنا
فَـيَـشْـتَـفي منكَ طرفٌ أنت ناظرُهُ؟[٦]
قُـصارُهُ قَـيصـرٌ إن قـام مـفـتـخـراً
للّهِ أوّلُهُ مَــجْــدًا وآخِــرُهُ[٧]

✱✱✱✱

---

(١) لم ترد هذه المقطوعة بالديوان، وإنما وردت بذيله منسوبة إلى المعتضد بن عباد، وقد نسبها صاحب القلائد إلى الشاعر، كما نسبتها الذخيرة في موضع إلى الشاعر أيضًا وفي موضع آخر إلى المعتضد، ونسبها صاحب المطرب إلى المعتضد، ونرجح أنها كانت ضمن رسالة كتبها الشاعر على لسان المعتضد إلى صهره. ومن المناصب التي تولاها أخيرًا الكتابة للمعتضد في هجرته الثانية إليه.

(٢) دانية: مدينة بشرقي الأندلس على البحر الأبيض المتوسط، وهي حاضرة إمارة أبي الجيش الموفق مجاهد العامري، وتحيط بها البساتين ويجود بها التين والكروم، وبها مصانع لبناء السفن «ترسانة» وكان الأسطول الإسلامي يخرج منها لغزو شواطئ فرنسا وإيطاليا وجزر البحر الأبيض، وكانت فرضة تجارية هامة في أوقات السلام، ودانية: تقع إلى الشرق من إشبيلية.

(٣) العرف: الرائحة الذكية، أو الرائحة مطلقًا، الصبا: ريح عليلة تهبّ من الشرق.

(٤) في القلائد «أرى تجدد ذكراه»، على شحط: على بعد.

(٥) المعنى: بعد عهدي بزيارته مع دنو داره، وأرجو أن يتحقق الفأل الحسن بوجوده في دانية، وفي «دانية» تورية بديعة فهي علم للمدينة، وتأتي بمعنى قريبة. وفي الذخيرة «نأى المزار..»، وفي المطرب «شط المزار».

(٦) في الذخيرة والطرب والقلائد «خليٍّ أبا الجيش...» وفي بعض نسخ الذخيرة «فيشتفي منك قلب أنت هاجره».

(٧) لم يرد البيت بالذخيرة، وورد بالديوان والقلائد.

الوصف

«أحبّ الشاعر الطبيعة ممتزجة بذكريات هواه، كما شغف بحبيبته بين مجالي الطبيعة الباسمة، فامتزج الوصف عنده بالنسيب، ولهذا أوردنا باقة يانعة من شعره الوصفي في فن النسيب، ونورد هنا باقة أخرى خالصة للوصف وحده، وإن كانت وثيقة الصلة بفن المديح».

تمثال رائع

أباح المعتضد للشاعر النزهة مع بعض نسائه في إحدى حدائقه، فوقع نظر الشاعر على حمّام رخامي مفعم بالماء الحار، وإلى جانبه تمثال مصقول لغادة هيفاء، فراعه المنظر، فصاغ فيه هذه القصيدة:

غَمَرَتْني لكَ الأيادي البيضُ:
نَشَبٌ وافرٌ، وجاهٌ عريضُ[1]
كلَّ يوم يجِدُّ منكَ اهْتِبالٌ
عَهْدُ شكري عليه غَضٌّ غَريضُ[2]
بَوَّأْتَنِي نُعْماكَ جَنَّةَ عَدْنٍ
جالَ في وَصْفِها فَضَلَّ القريضُ[3]
مُجتَنًى مُدَّنٍ، وظِلٌّ بَرُودٌ،
ونسيمٌ - يشفي النفوسَ - مريضُ[4]
ومِياهٌ قد أخجلَ الوردَ أنْ عا
رَضَ، تَذْهيبَهُ لها تَفْضيضُ
كلّما غَنَّتِ الحَمائمُ قلنا:
«مَعْبَدٌ - إذْ شَدا - أجابَ الغَريضُ»[5]

---

(١) الأيادي: الإنعام والإحسان. النشب: المال.

(٢) اهتبال: اغتنام، وفي الحديث «من اهتبل جوعة مؤمن كان له كيت وكيت» أي من تحيّنها واغتنمها كان له أجر عظيم، والمعنى يتكرر إنعامك عليَّ كل يوم، فيتجدد شكري بتجدد النعم.

(٣) المعنى: أدخلتني جنة عدن فأردت شكرك فعجز القريض عن أن يفيك حقك من الثناء. وفي ت، ز «فضل العريض».

(٤) مجتنى مدن: ثمر غض قريب المتناول، برود: رطب طيب.

(٥) معبد والغريض: من أعلام الغناء في الدولة الأموية كانا متعاصرين ومعظم إقامتهما بالحجاز.

جـــاورتْ حَــمَّـــةً مُــشَـنَــيَّـــدَةَ المبْـ
ـنَى لبــرق الرُّخَـــامِ فــيـــه وَمِــيضُ[1]

مَـــرْمَـــرٌ أوْقَـــدَ الفِـــرِنْدَ عـليـــهِ
سَلْسَلٌ بحـــــرُهُ الزُّلالُ يَـفـــيـضُ[2]

وسْطَهـــا دُمــيَـــةٌ يروقُ اجْـــتِـلاءُ الـ
ـكلِّ منهـــا ويَفْـــتِنُ التَّـــبْــعــيضُ[3]

بَشَـــرٌ نـاصِعٌ، وخَـــدٌّ أســـيـلٌ
ومُــحَــيًّـا طَلْقٌ، وطرفٌ غَــضِــيضُ[4]

وقَــوامٌ كــمـــا اسْـتَــقـامَ قَــضِــيبُ الـ
ـبـــــــان إذ عَــلَّــهُ ثَـراهُ الأَريـضُ[5]

وابْتِــســامٌ لو أنَّهـا اسْـتَـغْـرَبَتْ فـيـ
ـهِ، أراكَ اتِّســـاقَـــهُ الإغـــريضُ[6]

والْتِـــفَـــاتٌ كـــأنَّمـــا هُوَ بـالـ
إيحــاءِ - من فَـرْطِ لُطْفِـهِ - تَعْـريضُ[7]

✲✲✲✲

لُـمَعٌ طَلَّةٌ مِنَ العَـــيْشِ مـــا إنْ
للهَـــوَى عن مَـــحلِّهـــا تَقْـــويضُ[8]

---

(١) الحمة: العين الحارة الماء يستشفي بها المرضى.

(٢) الفرند: صفحة السيف أو وشيه أو جوهره، أو الورد الأحمر، أو حب الرمان، والمعنى: إن هذا الحوض مصنوع من المرمر المصقول ينصب عليه إناء الزلال فينعكس له بريق ولألاء مثل لمعان الحسام.

(٣) وسط هذه البركة يقوم تمثال رائع فتان في جملته وفي تفصيلاته.

(٤) بشرة ناصعة البياض وخد أملس ناعم ووجه طلق بسام وعين فاترة متكسرة.

(٥) وقوام معتدل اعتدال غصن أنبتته تربة طيبة زكته وسقته مرارًا حتى استوى واستقام.

(٦) استغرب «بالبناء للمعلوم أو المجهول» بالغ في الضحك، الإغريض: الطلع أو كل أبيض طري، والمعنى: تفترّ عن ابتسامة لو بالغت فيها لتكشف ثغرها عن أسنان لؤلؤية متسقة بيضاء كالطلع.

(٧) لها لفتات رقيقة توحي إلى النفس بمعان لطيفة كأنها تعرّض بأمور لا تستطيع التصريح بها.

(٨) اللمع: جمع لمعة، وهي القليل من الطعام، أو بريق لون الجسد، تقويض: هدم وارتحال. والمعنى: لمحات ندية طيبة ظفرت بها تحت ظلاله مقرونة دائمًا بنفحات الهوى ولذات الهيام.

سَـوَّغَـتْني نَعـيـمَـهـا نَفَـحـاتٌ

للمُنَى - من سـحـابهـا - تَرْويضُ(١)

تابَعَـتْـهـا يَدُ الهُـمـام أبي عَـمْـ

ـروٍ فـمـا غَـمْـرُها لَدَيَّ مَـغـيضُ(٢)

مَلِكٌ ذادَ عن حِـمَـى الدِّيـن منـهُ

مَنْ إليـهِ في نَصْـرِهِ التَّـفـويضُ(٣)

وسَـمَـا ناظِرٌ من المجـدِ في دنـ

ـياه، قـد كـان كَـفَّـهُ التَّـغـمـيضُ(٤)

إنْ أسـاءَ الـزّمـانُ أحْـسَنَ دأبًا

مـثلَمـا باينَ النَّقـيضَ النَّقـيضُ(٥)

☆☆☆☆

يا مُـعـزَّ الهُـدَى الذي مـا لِـمَـسـعـا

هُ، إلى غـيـر سَـمْـتِـهِ تَغْـريضُ(٦)

يا مُـحِلِّي يَفـاعَ حـالٍ، مكانُ النْـ

ـنَجْمِ - مَـهْـمـا يُقَسْ إليـهِ - حَـضـيضُ(٧)

إنْ أنَلْ أيْسَـرَ الرَّغـائب فِـيـهِ

يَرْضَ فَـوْزَ القِـداحِ منِّي مُـفـيضُ(٨)

(١) ترويض: من روّض المطر الأرض جعلها كالروض، والمعنى: نفحتني بهذه النعم يد الأمير، فازدهرت آمالي وأينعت من فيض سحابها المطير.

(٢) في ت «لديه»، والمعنى: تابعت يد الأمير هذه النعم عليَّ، وسيظل إنعامها متواصلاً لا نقص فيه.

(٣) المعنى: فوض الله إليه نصرة دينه فدافع عن حماه.

(٤) المعنى: استيقظ المجد على يديه، وتفتح ناظره بعد أن اغتمض طويلاً.

(٥) «كلما أساء الزمان بادر بالإحسان، كما يفعل المتناقضان».

(٦) السمت: الطريق أو السير عليه أو الاتجاه إلى الشيء. التغريض: أخذ الشيء أو اجتناؤه طريّاً، والمعنى: يا ناصر الدين الذي قصر مسعاه على الاتجاه إلى إعلاء شأنه.

(٧) اليفاع: ما ارتفع من الأرض، والمعنى: يا من سموت بحالي إلى مكان رفيع ينحط النجم إلى الخفيض إذا قيس به.

(٨) أفاض القداح: ضرب بها، والمعنى: إنك رفعتني إلى مكان إذا ظفرت بأقل متعة منه كانت غاية الرضى، مثلما يسعد الحظ ناثر قداح الميسر فيظفر منها بنصيب موفور.

لو يَفاعُ المَجَرّةِ اعْتَضْتُ منهُ
راحَ يدعو ثُبورَهُ المُسْتَعيضُ(1)

حظُّ سِنٍّ امْرِىءٍ نأى منكَ قَرْعٌ
وقُصارَى بَنانِهِ تَعْضيضُ(2)

✡✡✡✡

حَسْبِيَ النُّصْحُ والوِدادُ وشُكْرٌ
عَطَّرَ الدَّهْرَ منه مِسْكٌ فَضيضُ

دُمْ مُوَقّىً، وَلِيُّكَ الدهرُ، مَجْبو
رٌ، مَساعيكَ، والعدوُّ مَهيضُ(3)

فاعْترافُ الملوكِ أنَّكَ مَوْلا
هُمْ حديثٌ ما بينهمْ مُسْتَفيضُ

****

(1) لم يرد هذا البيت في نسخة ت، والمعنى لو اعتضت من هذا المكان أعلى مكان في المجرة لكنت خاسرًا، فإن المكان الذي أحلني به لا يدانيه مكان.

(2) كل امرئ بعد عنك سيقرع سنه ويعض بنانه على ما فاته منك من آمال.

(3) جمل دعائية: دمت محفوظًا، والدهر ناصرك، ومساعيك محققة، وعدوك مكسور الجناح.

وصيفة وكأس

أنا ظَرْفٌ لِلَهْوِ كُلِّ ظَرِيفِ
أنا مُسْتَودَعٌ لعِلْقٍ شَرِيفِ[1]
أنا كالصّدر في الإحاطَةِ بالرَّا
حِ، إذِ الرَّاحُ كالضَّمِيرِ اللَّطيفِ[2]
سَلْ عنِ الطَّيِّباتِ فَهْيَ فُنونٌ
أُلِّفَتْ فِيَّ أحْسَنَ التَّأليفِ
أيُّ حُسْنٍ يَفِي بحُسْنِيَ مَحْو
لاً، بكفَّيْ وصِيفَةٍ أو وصِيفٍ؟[3]

****

(١) الحديث على لسان الكأس، والمعنى: أنا وعاء جامع للهو الظرفاء، ومستودع حاوٍ لكل غالٍ ثمين.

(٢) المعنى: أنا مثل الصدر، والخمر في داخلي كالروح الخفي الرقيق.

(٣) في ز «يقي بحسنك».

لهو وشفاء[1]

أهدى الشاعر إلى صديقه الأمير أبي الوليد بن جهور هدية تفاح، وكتب معها هذه القصيدة التي زاوجت بين الأوصاف الحسية والمعنوية، وأبرزت المؤثرات الجمالية في جميع الحواس الإنسانية:

أَتَتْكَ بلونِ الحبيبِ الخَجِلْ
تُخالطُ لونَ المُحِبِّ الوَجِلْ[2]

ثِمارٌ تَضَمَّنَ إدراكَها
هواءٌ أحاطَ بها مُعْتَدِلْ[3]

تَأتَّى لإلْطافِ تدريجِها
فَمِنْ حَرِّ شمسٍ إلى بَردِ ظِلْ[4]

إلى أنْ تناهَتْ شِفاءَ العليلِ
وأنسَ المَشوقِ ولَهْوَ الغَزِلْ[5]

فلو تجمُدُ الراحُ لم تَعْدُها
وإن هِيَ ذابتْ فخمرٌ تَحِلْ[6]

لها منظرٌ حسنٌ في العيونِ
كدنياكَ لكنَّهُ مُنْتَقِلْ[7]

---

(١) كان موضع هذه القصيدة جديرًا بأن يكون مع طاقة «إهداء واستهداء» من باب الإخوانيات، ولكن ما فيها من وصف رائع جعلها أجدر بهذا المكان.

(٢) اجتمعت في هذا التفاح الحمرة بالصفرة، فحمرتها مثل خد الحبيب إذا ضرّجه الحياء، وصفرتها مثل لون المحب إذا برح به الوجد واستبد به الخوف.

(٣) أنضج الهواء المعتدل هذه الثمار فجاءت غضة الجنى عذبة المذاق.

(٤) تأتّى: ترفق وتهيأ، والمعنى إن الهواء حنا عليها وتعهّدها في درجات نموها بعناية ورفق، فأمدّها حينًا بحرارة الشمس وحينًا ببرد الظل.

(٥) مازال الجو المناسب يتعهدها بحنوه حتى نضجت واستوت، فأصبحت شفاء للمريض، وبهجة للمشتاق، ولهوًا للمحب الغزل.

(٦) إذا تجمدت الخمر فهي التفاح، وإذا ذاب التفاح كان خمرًا، ولكنها حلال.

(٧) منظر هذا التفاح جميل يشبه منظر دنياك الرائعة، ولكنه زائل وهي باقية.

وطَـعْـمٌ يَـلَـذُّ لمـن ذاقَــــــــــــــهُ
كـلـذَّةِ ذكـــــــــــراكَ لـوْ لـمْ يُـمَـلْ[١]

وريّـا إذا نَـفَـــــحَـتْ خِـلْـتُــــهـــــا
تُـمِلُ ثـنـاءَكَ أو تَـسْــــــتَــــــهِلْ[٢]

يُـمَـــــثِّلُ مَلْـمَـــــسُــــهـــــا لـلأكــــفـ
ـفِ لـينَ زمــــــانِكَ أو يَـمْــــتَـــــثِلْ[٣]

صَـــفَـــوْتُ فـــأدْلَلْتُ في عَـــرْضِــهـــا
ومَنْ يَـصْفُ منهُ الـهَـــــوَى فَلْيُــــدِلْ[٤]

قَـــبُـــولُكَهَـــا نـعـــمـــةٌ غَـــضَّـــةٌ
وفـــضلٌ - بـمـا قـــبلـهُ - مُـــتَّـــصِلْ

ولـو كنتُ أهْدَيْتُ نفـــسي اخْـــتَـــصَـــرْ
تُ، على أنَّهـــا غـــايةُ الـمُـــحْــتَـــفِلْ[٥]

****

(١) هذا التفاح لذيذ المذاق يشبه ذكراك العذبة الحلوة، ولكنّ حلاوته تمل بعد حين، أما ذكراك فعذوبتها مشتهاة على الدوام.

(٢) رائحته الشذية تهب فتحسبها قد اكتسبت طيبها من الثناء عليك، فهي تمليه أو ترتله.

(٣) امتثل أمره: احتذاه، والمعنى: ملمسه الناعم المصقول يشبه زمنك الرقيق الندي أو يقلده.

(٤) المعنى: لقد صفا لك ودي وعظم لك حبي فحملني الإدلال عليك على أن أقدم هذه الهدية إليك، مع أن قدرك فوقها بكثير، ولا عجب فالحب يتبعه الدلال.

(٥) هذه الهدية متواضعة، بل إن حياتي أقل من أن تهدى إليك، ولكنني بذلت غاية الجهد وأقصى الاحتفال.

نهر وزهر[١]

كــأنَّا - عَــشِيَّ الـقَطرِ في شــاطئِ الـنَّهْــرِ
وقـــد زَهَرَتْ فـــيـــه الأزاهِرُ كـــالزُّهْرِ [٢]
نُـرَشُّ بمــاءِ الـوردِ رَشّـــــــاً، ونَـنْـثَـنـي
لـتــغـليفِ أفْــواهٍ بطيِّــبَــةِ الخَــمْــرِ[٣]

****

(١) هذان البيتان لم يردا بالديوان وقد أثبتناهما عن القلائد والمغرب.

(٢) زهرت: أخرجت زهرها أو لمعت وتلألأت، الأزاهر: الأزهار (لم نجد في كتب اللغة هذا الجمع وإنما وجدنا الزهرة جمعها زهر وأزهار وجمع الجمع أزاهير) الزُّهر جمع زهراء وهي المرأة المشرقة الوجه، أو صفة للنجوم يقال: «كأن زهر النجوم زُهر النجوم» أي زهر النبات يشبه النجوم المضيئة، أو الزِّهر بكسر الزاي: الوطر.

(٣) معنى البيتين: نعمنا في المجلس الندي على شاطئ النهر الذي أينعت أزهاره كأننا في هذا المجلس نستقبل رذاذ الندى المعطر بماء الورد، ونغلف أفواهنا بالخمر الطيبة.

ليلة حافلة[1]

طوى الشاعر ليلة حافلة بالمسرات في إحدى جنات إشبيلية وسجّل وصفها في هذه الأبيات:

وليلٍ أدَمْنا فيهِ شُرْبَ مُدامَةٍ
إلى أن بَدا للصُّبْحِ - في اللَّيلِ - تأشيرُ[2]
وجاءتْ نجومُ الصبحِ - تضربُ في الدُّجى
- فولّتْ نجومُ الليلِ، والليلُ مَقْهورُ[3]
فحُزْنا مِنَ اللذّاتِ أطيَبَ طِيبِها
ولم يَعْرُنا هَمٌّ، ولا عاقَ تكديرُ[4]
خَلا أنَّهُ لوْ طالَ دامتْ مَسَرَّتي،
ولكنْ ليالي الوَصْلِ فيهنَّ تَقْصيرُ[5]

****

(١) لم ترد هذه المقطوعة بالديوان، وإنما وردت بذيله منسوبة إلى المعتضد، وقد صححنا نسبتها نقلاً عن القلائد والمطرب ومسالك الأبصار.

(٢) التأشير: التحزيز في الأسنان وحدّة أطرافها.

(٣) في مسالك الأبصار «جاءت بوادي... مغمور».

(٤) في ز «ولم يعدنا».

(٥) في ز «دامت مسرة».

١ – في عهد أبي الحزم بن جهور

الشكوى والعتاب

أسهم الشاعر في تأسيس الدولة الجهورية بقرطبة، ونال فيها أسنى المناصب، ولكن الدسائس أفسدت ما بينه وبين رئيسها أبي الحزم بن جهور، فسجنه، وأصم أذنيه عن توسلاته، ثم فر الشاعر من سجنه وظفر أخيرًا بالعفو عنه.

ولم تسكت الدسائس عن الشاعر في عهد الحاكم الجديد أبي الوليد بن جهور، ولا في عهد المعتضد بن عباد، ولا في عهد ابنه المعتمد. على الرغم من صداقة الشاعر لهؤلاء الحكام وصلاته الوثيقة بهم.

وهكذا يكون العظماء دائمًا أهدافًا للحقد والبغضاء.

وسنذكر أنات الشاعر مرتبة بحسب الترتيب الزمني لهذه النفثات.

ضراعة وتوسلات

أمَا وألحاظٍ مِراضٍ صِحاحْ
تُصْبي، وأعطافٍ نَشاوَى صَواحْ[1]
لِبائِنٍ بالحُسْنِ، في خَدِّهِ
وردٌ، وأثناءَ ثَنايَاهُ راحْ[2]
لم أنْسَ إذْ باتتْ يدي ليلةً
وِشاحَةُ اللاصِقَ دونَ الوِشاحْ
ألَمَمْتُ بالألْطَفِ منهُ، ولم
أجنحْ إلى ما فيه بعضُ الجُناحْ[3]
لأُصْفِيَنَّ المصْطَفَى «جَهْورًا»
عَهْدًا لِرَوْضِ الحسن عنه افْتِضاحْ[4]
جزاءَ ما رَفَّهَ شُرْبَ المُنَى
وأَذَّنَ السَّعْيَ بوَشْكِ النجاحْ[5]
يَسَّرتُ آمالي بتأميلهِ
فما عَداني منه فَوْزُ القِداحْ[6]

---

(١) في بعض نسخ الذخيرة «تسبي»، والشاعر يقسم بالعيون الفاترة المثيرة للصبوة، والقدود المتمايلة كأنها سكرى، وما هي بسكرى، ولكنها مترنحة من الدلال.

(٢) بائن: فائق في الفضل والمزية من بان يبون أو ناء بعيد من بان يبين، وفي بعض نسخ الذخيرة «لفاتن».

(٣) الجناح: الإثم، والمعنى: تمتعت متعة يسيرة بحسنه الفتان، وتعففت عن الآثام.

(٤) افتضاح: ظهور، ومنه افتضح الصبح: ظهر، وفي الذخيرة «المرتضى جهورًا»، وفي أصول الديوان «لروض الحزن عنه انتضاح» والحزن: ما غلظ من الأرض أو موضع لبني يربوع فيه رياض وقيعان، وقيل من تربع بالحزن، وتشتى بالصمان. وتقيظ الشرف فقد أخصب، وانتضاح: تفتح، ومنه نضح الشجر: تفتح ليخرج ورقه، وتفتح الزرع: ابتدأ الدقيق في حبه: وقد آثرنا رواية الذخيرة لسلاستها.

(٥) رفّه الإبل: أوردها الماء متى شاءت.

(٦) يسر: لعب بالقداح، والمعنى: خاطرت بتأميله ففزت بأحسن الحظوظ.

لم أَشِمِ البرقَ جَهامًا، ولمْ

أقْتَدِحِ الصُّمَّ ببِيضِ الصِّفاحْ[1]

مَنْ مِثْلُهُ؟ لا مِثْلَ يُلفَى له

إنْ فَسَدَتْ حالٌ فعزٌّ الصَّلاحْ[2]

يا مُرشدي جَهْلاً إلى غيرِهِ

أغْنَى عن المصباحِ ضَوْءُ الصَّباحْ

رَكينُ ما تُثْنَى عليه الحُبَا

يَهْفو بهِ نَحْوَ الثَّناءِ ارْتِياحْ[3]

ذو باطنٍ أُقْبِسَ نورَ التُّقَى

وظاهرٍ أُشْرِبَ ماءَ السَّماحْ[4]

انظُر تَرَ البَدْرَ سَنًا، واخْتَبِرْ

تَجِدْهُ كالمسكِ إذا مِيثَ فاحْ[5]

✲✲✲✲✲

إيه «أبا الحَزْمِ» اهْتَبِلْ غِرّةً

ألسنةُ الشكرِ عليها فِصاحْ[6]

لا طارَ لي حَظٌّ إلى غايةٍ

إنْ لمْ أكنْ منكَ مَريشَ الجَناحْ[7]

---

(١) المعنى: لم أتطلع إلى البرق الخالي من المطر، ولا حاولت قرع الحجارة الصماء بالسيوف لاقتباس جذوة نار، لم أتعلق بهذا العبث لأنك حققت آمالي فيك، وفي الذخيرة وتمام المتون «أقتدح النار بزند شحاح».

(٢) المعنى: أين مثله في الناس؟ هيهات إيجاد نظير له في وقت الشدائد والمحن.

(٣) المعنى: إنه إذا عقد حبوته فقلّما تحركه الأحداث لرزانته ووقاره، ولكنه يهتز للشعر ويطرب للثناء.

(٤) المعنى: لقد امتلأ قلبه بالتقوى والصلاح، وأشع وجهه نور السماح.

(٥) ماث المسك: دعكه بأصابعه، والمعنى إذا نظرته بهرك ضوؤه وسناه، وإذا اختبرته تضوع شذاه.

(٦) اهتبل: اغتنم، غرّة: غفلة «والمقصود هنا فرصة» ومنه «الغرة تجلب الدرة» أي اغتنام الفرص يجلب الرزق، والمعنى: اغتنم أيها الامير فرصة تطلق لساني عليك بأعذب الثناء.

(٧) في تمام المتون «لا طار بي... ما لم أكن»، والمعنى: إن لم أستمد منك القوة فلا كانت لي قوة، وإن لم أظفر منك بأمنية فلا كانت الأمنيات.

عُــتْــبــاكَ - بَعْــدَ العَــتْــبِ - أمْنِيَّــةٌ
مــا لي على الدهرِ سِــواها اقْــتِــراحْ[1]

لـم يَـثْـنِـنـي عـن أمـلٍ مــــا جَــــرَى
قـــد يُرقَعُ الخَـــرْقُ وتُؤسَى الجِــراحْ

فــاشْــحَــذْ بحــسنِ الرأي عِــزمي يَرُعْ
- منّي العِـدا - أَلْيَسُ شــاكي السِّــلاحْ[2]

واشْــــفَعْ فَـلـلـشّـــــافعِ نُـعْــــمَـى بما
سنَّاهُ من عَـــــقْـــــدٍ وثيقِ النَّواحْ[3]

إنَّ ســــحـــابَ الأفْقِ منهـــا الحَـــيَــا
والحَــمْــدُ في تأليــفــهـــا للرِّياحْ[4]

وَقَــــاكَ مــــا تَـخْــشَى مِنَ الدهر مَنْ
تَـعِــبْتَ في تـأمــينهِ واسْــتَــرَاحْ[5]

****

(١) العتبى: الرضا، يُقال أعطاه العتبىَ أي أرضاه، والمعنى: إذا تحقق رضاك عني - بعد عتابي لك - فقد تحقق لي أمل عظيم هو أقصى ما أرجو من الدهر تحقيقه.

(٢) الأليس: الشجاع الذي لا يبالي هولاً، ولا يردعه شيء، أو الأسد، والمعنى: قوّ بحسن رأيك عزمي حتى يصبح مرهفًا بتارًا، فيباغت العدو مني بفارس جبار لا يخشى هولاً ولا يرهب أمرًا، مستعد لأعدائه بأكمل عدة وأمضى سلاح، وفي الذخيرة «يرع.. منه العدا بكل شاكي السلاح».

(٣) في الذخيرة «بما ... تِمرّ...» أي بما تحكمه، وفي تمام المتون «بما ... بناه من عهد ..»، سنّى: يسرّ، ومنه:

وأعلم علمًّـــــا ليس بالظن أنه
إذا الله سنّى عــقـــد أمـــر تيـــســـرا

والمعنى: أرجو منك الشفاعة، فللشافع أكبر الفضل بما يدبره من وسائل الصفح والغفران. بقي أن تعرف عند من يشفع الأمير؟ إن الذي يبدو لنا من دراسة تاريخ الشاعر أنه يطلب من الأمير أن يتوسط في الصلح بينه وبين خصمه الذين لفقوا له تهمة اغتصاب عقار، واستصدروا حكمًا من القاضي بسجنه «راجع المقدمة ص ٣٧، ٣٨».

(٤) في الخريدة «سحاب الجو»، الحيا: النبات أو الخصب أو المطر، والمعنى: إذا تم الصلح بيني وبين خصمي وترتب على هذا خلاصي من محنتي فإنك أنت صاحب الفضل الأول في تفريج كربتي كما أن الرياح هي صاحبة الفضل في تكوين السحاب المنتج للخصب والنماء.

(٥) المعنى: أسأل الله أن يجعلني وقاية لك من كل سوء، فقد سعيت في أمني وكفلت لي سبل الراحة من كل عناء.

في غيابة السِّجن

مـا جـالَ بَعْـدَكِ لَـحْظي في سَنا الـقَـمَـرِ
إلا ذكــــرتُكِ ذِكـــرَ الـعَـينِ بـالأثـرِ[١]

ولا اسْــتَطَلْتُ ذَمــاءَ الـليل من أسفٍ
إلا عـلـى لـيـلـةٍ سَـــرّتْ مـع الـقِـصَــرِ[٢]

[في نشــوةٍ من سِناتِ الـوَصْلِ مُـوهِمَـةٍ
ألاّ مــسـافـةَ بين الـوَهْنِ والـسَّـحَـرِ][٣]

نـاهـيـكِ مـن سَــهَــرٍ بَرْحٍ تـألَّفَـــهُ
شـوقٌ إلى مـا انْقَـضَى من ذلك السَّمَـرِ[٤]

فليت ذاك الـسَّــوادَ الـجَــوْنَ مُــتَّــصِلٌ
لوِ اسْـتـعـارَ سـوادَ القلبِ والبَـصَـرِ[٥]

☆☆☆☆☆

أمَّـــا الـضَّنَى فَـــجَنَـتْــهُ لحظةٌ عَنَنٌ
كـــأنَّهـــا والـرّدى جــاءا على قَـــدَرِ[٦]

---

(١) المعنى: ما تطلعت إلى وجه القمر إلا ذكرتك، لأن فيه ملامح من طلعتك الوضاءة، فكل غائب عن العين تجلبه إلى الذاكرة آثاره.

(٢) الذماء: بقية الروح، والمعنَى: ما تمنيت أن تطول البقية اليسيرة من الليل إلا لأنها تذكرني بليلة باسمة سعدت فيه بوصل الحبيب وإن كانت مرت مسرعة كلمح البصر، وفي نسخة ت «دماء العين» وفي ذ «دماء الليل» وفي سرح العيون «ليلة مرت».

(٣) هذا البيت زيادة من الذخيرة وتمام المتون وقلائد العقيان، الوهن: منتصف الليل، والمعنى: مرت ليلة الوصال قصيرة كأنها سنة من النوم قضيناها في نشوة أوهمتنا أن الليل في منتصفه قد اتصل بالصباح فانعدمت بينهما المسافات.

(٤) ناهيك: حسبك، برح: شدة، والمعنى: حسبك بما لقيته من سهر مضن أثاره الشوق إلى ما انطوى من السمر اللذيذ في ليلة الوصال.

(٥) في الذخيرة والقلائد وتمام المتون وسرح العيون «ياليت ذاك السواد.. قد استعار» الجون: الأبيض أو الأسود وهو من الأضداد، والمعنى: تمنيت أن يدوم سواد ليلة الوصال ولو أمددتها بسواد قلبي وبصري.

(٦) لحظة عنن: نظرة عارضة، والمعنى: إن هذا الهوى المبرح جنته عليّ نظرة عارضة. كأنها صحبت معها المنية فنزلا بي على قدر محتوم.

فـهـمـتُ مَـعْـنَـى الـهَـوَى من وَحْيِ طَرفكِ بي
إنَّ الحِــوارَ لَـمَــفْــهــومٌ من الحَــوَرِ(١)
والـصَّـدرُ مـــذ وَرَدَتْ رِفْــهًــا نـواحـيَـــهُ
تُومُ القَـــلائدِ لـم تَـجْـنَـحْ إلـى صَــــدَرِ(٢)
حُـــسنٌ أفـــانـينُ، لـم تَـسْـتَـوفِ أعْـيُـنُنا
غـــــاياتِـهِ بـأفـــــانـينٍ مـن الـنَّـظَـرِ(٣)
واهًـا لـثَـــــغْـــــرِكِ ثَـغْـــرًا بـات يـكـلـؤُهُ
غَـيْـرَانُ تَـسْـري عـواليـهِ إلـى الـثُّـغَـرِ(٤)
يـقظانُ لـم يكتـحِلْ غَـمْـضًـا مُـراقَـبَـةً
لِرابط الجــأشِ مِـقْــدامٍ على الـغِــرَرِ(٥)
لا لَـهْــــوُ أيّامِــــهِ الخـــــالي بمُرتَـجَعِ
ولا نـعـــــيـمُ لـيـــاليــــه بمُـنْـتَـظَرِ(٦)
إذ لا الـتَّـــحِـــيَّـــةُ إيماءٌ مـــخـــالَـسَـــةً
ولا الـــزيـــارةُ إلمـــامٌ عـــلـــى خَــطَـــرِ(٧)
مُـنًـى كــــــأنْ لـم يـكـنْ إلا تـذكُّـــــــرُهـا
إنّ الـغَـــرامَ لَـمُـــعْـــتـــادٌ مـعَ الـذِّكَـــرِ(٨)

✡✡✡✡

(١) في سرح العيون «جمعت معنى الهوى»، وفي الذخيرة «وحي طرفك لي»، والمعنى: أدركت سر الهوى من لمحات طرفك، فما بعينيك من الحور يغني عن حوار الكلمات.

(٢) في نسخ ب، ت، ز «لم تحتج إلى الصدر»، الرفه: أن ترد الإبل الماء متى شاءت، توم القلائد: العقود المزدوجة، لم تجنح: لم تمل، الصدر: الرجوع عن الماء بعد الريّ، والمعنى: لقد تعلقت هذه القلائد بصدرك الجميل فلم تشأ مبارحته لأنها لن تجد أجمل منه موضعًا ولا أفتن موقعًا.

(٣) المعنى: حسنك رائع متعدد المشاهد متجدد المفاتن، كلما تعددت نظراتنا إليه كشفت فيه ألوانًا جديدة من الجمال لا يستطيع النظر ملاحقتها، وهو في هذا ينظر إلى قول أبي نواس:

يـزيـدك وجـــــهـــــه حـــــسـنـا
إذا مـــــــــــــا زدتــه نــظــرا

(٤) يكلؤه: يحفظه ويرعاه، غيران: شديد الغيرة، العوالي: صدور الرماح، الثغر: جمع ثغرة وهي النقرة التي في النحر، والمعنى: واهًا لثغرك العذب يحرسه محب شديد الغيرة يسرع إلى الفتك بمن يتطلع إليك، فما أروع الخطر حول جمالك الفتان.

(٥) الغرر، الغرر: جمع غرّة وهي الفرصة، والمعنى الأول أنسب للمقام، والمعنى: هذا الرقيب متيقظ حذر لا يغفل عن مراقبتك لأنه يعلم أن لك محباً رابط الجأش مولعًا باقتحام الأخطار أو بانتهاز الفرص السانحة للوصول إليك.

(٦) المعنى: لقد أدركه اليأس من رجوع ماضيه الحافل بالمسرات، وانقطع أمله من المستقبل المنشود.

(٧) كانت أيامنا حافلة بالسعادة والنعيم، نتلاقى في علانية دون رقيب أو غيور، أما اليوم فتحياتنا مخالسة في رقبة وعلى خوف، وزيارتنا مخاطرة غير مأمونة العواقب.

(٨) المعنى: مضت هذه الآمال سراعًا، ولم تبق منها إلا ذكريات مثيرة تبعث في النفس أعنف البث وأشجى الهيام.

من يســألُ الـناسَ عن حــالي فــشــاهدُها
مَـحضُ العِـيـان الـذي يُنبي عن الـخَـبَـرِ[1]
لـم تَطْوِ بُردَ شـــبـــابي كَـــبْـــرةٌ، وأرى
برقَ المشيبِ اعْـتلَى في عـارِضِ الشَّـعَـرِ[2]
قَـبْلَ الـثـلاثـينَ، إذْ عَـهْـدُ الصِّـبـا كَـثَبٌ
ولـلـشـبـيـبـةِ غُـصْنٌ غـيـرُ مُـهْـتَـصَـرِ[3]
ها إنّهـــا لَـوْعَــةٌ في الصَّـــدْرِ قـــادِحَـــةٌ
نــارَ الأسى، ومَــشــيــبي طائرُ الشَّــرَرِ[4]
[يا للرزايا!! لقـــد شـــافَـــهْتُ مَنْهَلَهـــا
غَـمْـرًا، فــمــا أشـربُ المكروهَ بالـغُـمَـرِ][5]
حــوادثٌ اسْـتَــعْـرَضَـتْني، مــا نَذِرتُ بـهــا
غـــــرارةً [ثـم نالـتـنـي عـلـى غِـــــرَرِ][6]

✲✲✲✲

لا يُـهـنِئِ الـشَّـــــامـتَ المرتـاحَ خـــــاطرُهُ
أنِّي مُـــعَـنَّـى الأمـــاني ضـــائـعُ الخَطَرِ[7]
هلِ الـرِّيـاحُ بنَجـمِ الأرضِ عـــاصـــفـــةٌ؟
أمِ الكُسـوفُ لغـيـر الـشَّـمْسِ والـقَـمَـرِ؟[8]

(١) في الذخيرة «يُغنى» والمعنى: لا داعي لاستطلاع أنبائي، فإن حالي الحاضرة بما تحمله من آلام وأشجان تغني السائل عن السؤال وتطالعه بالأنباء.

(٢) المعنى: ما زلت شابًا لم يلحقني الكبر، وعلى الرغم من هذا فقد وخط الشيب عارضيَّ.

(٣) المعنى: لحقني الشيب قبل سن الثلاثين، وأنا غض الشبيبة بض الإهاب قريب العهد بالشباب.

(٤) المعنى: اشتعلت نار الأسى في صدري فطار الشرر إلى رأسي فاشتعلت بالمشيب.

(٥) البيت زيادة من الذخيرة وإعتاب الكُتَّاب وتمام المتون، شافه: وافى وقارب، الغَمر: الماء الكثير، الغُمر: القدح الصغير، والمعنى لقد غمرتني الرزايا وجرعتني غصصها بالأقداح الكبار لا بالصغار.

(٦) ورد البيت ناقصًا في الديوان، وقد أكملناه بما بين القوسين ورأيناه مناسبًا للمقام، استعرض القائد القوم: قتلهم ولم يسأل عن حال أحد منهم، ونذر بالشيء: علمه فحذره. الغرر: جمع غرّة وهي الغفلة، والمعنى: دهمتني الحادثات دون ارتقاب، ونالتني فحطمتني وأنا في غفلات الدهر آمن قرير.

(٧) في إعتاب الكتاب «لا يهنأ» وفي سرح العيون «المرتاح ناظره»، والمعنى: على الشامت الهانئ ألا يسعد إذا رآني مبدّد الآمال ضائع المكانة، فإنها أقدار تبدل الأوضاع والأحوال.

(٨) النجم: ما لا ساق له من النبات، والمعنى: إن الحوادث لا تعصف إلا بالعظماء كما أن الرياح تتجاوز النبات اللاصق بالأرض وتحطم الأشجار الضخمة، والكسوف يعتري الشمس والقمر ولا يعتري النجوم.

إن طال في السِّجنِ إيداعي فلا عَجَبٌ
قد يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصَّارمِ الذَكَرِ(١)
وإن يُثَبِّطْ - «أبا الحزم» الرِّضى - قَدَرٌ
عن كشفِ ضُرّي فلا عَتْبٌ على القَدَرِ(٢)

☆☆☆☆☆

ما للذُّنوبِ - التي جاني كبائِرِها
غَيْري - يُحَمِّلُني أوزارَها وَزَري؟(٣)
مَنْ لمْ أزلْ منْ تأتِّيهِ على ثِقَةٍ
ولم أبِتْ من تجنِّيهِ على حَذَرِ(٤)
[الكاظمُ الغيظِ ينسابُ الضَّميرُ له
لولا الأناةُ سقاهُ من دَمٍ هَدَرِ](٥)
ذو الشِيمَةِ الرَّسْلِ إنْ - هِيجَتْ حَفيظتُهُ -
والجانبِ السَّهلِ والمُسْتَعْتَبِ اليَسَرِ(٦)
من فيه للمُجْتَلي والمُبْتَلي نسَقًا
جمالِ مَرْأى عليهِ سَرْوُ مُخْتَبَرِ(٧)
مُذَلِّلٌ للمَساعي، حُكْمَها شَطَطٌ
عليهِ، وهْوَ العزيزُ النَّفْسِ والنَّفَرِ(٨)

(١) المعنى: إذا طال مكثي في السجن فلا داعي للعجب فإنني كالحسام الصقيل يقر في غمده حينا، ثم لا يلبث أن يسل عند الشدائد والأهوال.
(٢) المعنى: إذا أخر القدر أبا الحزم بن جهور عن إنقاذي من محنتي فلست عاتبًا على القدر، فقد يشتد الخطب ثم يهون.
(٣) الأوزار: الأعباء الثقيلة، الوزر: الظهير والمعين، والمعنى: ما بال ناصري ومعيني ينقلب عليّ ويحملني أخطاء لم أجنها، فيهمل الجناة ويبادرني أنا بالعقاب؟
(٤) تأنّى: ترفق أو تثبت أو انتظر، وتأتّى له: ترفق وأتاه من وجهه. فيجوز أن يكون: من تأنيه أو تأتيه، وفي سرح العيون «من تداعيه»، المعنى: على الرغم من أن الأمير حمّلني أوزارًا لم أجنها فإنني ما زلت واثقًا من رفقه، آمنًا من عقابه.
(٥) هذا البيت زائد من الخريدة، ومعناه: إن الأمير يكظم غيظه لأن له ضميرًا يقظًا يحميه من الظلم، ولو انقاد الأمير لغضبه لأهدر الدماء وسلب الأرواح.
(٦) الشيمة الرّسل: الخلق السمح، الحفيظة: الغضب أو الحمية، اليسر: اللين والانقياد، والمعنى: إنه سمح الأخلاق لا ينقاد للغضب، سهل الرضا سريع الصفح والغفران.
(٧) المجتلي: الناظر، المبتلي: المختبر، النسق: النظام، والنسقان: كوكبان، السرو: المروءة والسخاء، والمعنى: يرى الناظر فيه جمال مظهر ويلمس المختبر فيه أكرم طبع وأشرف خلال.
(٨) المساعي: المآثر والمكرمات، شطط: جائر مجاوز للحد، والمعنى: إنه خاضع للمجد سهل الانقياد للمكارم، مع أنه أبيّ النفس عزيز العشيرة.

وزيرُ سِلْمٍ كفاهُ يُمْنُ طائرِهِ
شُؤمَ الحُروبِ ورأيٌ مُحْصَدُ المِرَرِ(١)

أغْنَتْ قريحَتُهُ مَغْنَى تجاربِهِ
ونابَتِ اللَّمْحَةُ العَجْلَى عنِ الفِكَرِ(٢)

كمِ اشْتَرى - بكَرى عَيْنَيْهِ - من سَهَرٍ
هدوءَ عينِ الهُدَى في ذلك السَّهَرِ(٣)

في حضرةٍ غابَ صَرْفُ الدهرِ - خَشْيَتَهُ -
عنها، ونام القَطا فيها فلم يَثُرِ(٤)

مُمَتَّعٍ بالرَّبيعِ الطَّلْقِ نازلُها
يُلْهيهِ عن طيبِ آصالٍ نَدَى بُكَرِ(٥)

ما إنْ يزالُ يَبُثُّ النَّبْتَ في جَلَدٍ
- مذ ساسَها - ويُفيضُ الماءَ من حَجَرِ(٦)

*****

(١) محصد: محكم، المرر: جمع مرة وهي القوة أو حدة الذكاء، والمعنى: إنه وزير مسالم أغناه حظه السعيد ورأيه الحكيم الحازم عن خوض الحروب وما تجلبه من نحس وشؤم وتدمير.

(٢) المعنى: أغناه ذكاؤه الوقاد عن الاتعاظ بالتجارب، وأغنته بديهته اللماحة عن إدمان الفكر وتقليب النظر في الأمور.

(٣) في تمام المتون «عين الورى»، والمعنى: كم كابد السهر ليريح أمته، وكم أذبل السهد عينيه لينام الهدى قرير العين مثلوج الفؤاد.

(٤) المعنى: سهر الأمير لينام قومه وتعب ليرتاحوا. فلم تحاول صروف الدهر أن تمسهم، ونام القطا مطمئنًا في حمايته فلم يثر من مكامنه، وفي نسخ ب، ت، ز، والذخيرة (ولم يثر).

(٥) المعنى: تمتع قومه بالرفاهية والنعيم تحت ظلاله، فكأن أيامهم كلها ربيع دائم يسعدون فيها ما بين رقة الأصيل ونفحات البكور، فينصرفون عن هذا إلى ذاك في غبطة وسرور.

(٦) الجلد: الأرض الصلبة المستوية المتن، ومنه قول النابغة الذبياني:

إلا الأواريّ لأيًا ما أبينها
والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

أي عفت الديار وخفيت آثارها فلا تظهر معالمها إلا بعد جهد وعناء. والمعنى: ما زال يجهد في إسعاد قومه حتى أنبت الزرع في الجلد وفجر الماء من الحجر.

[حُــــــرِمْتُ منـهُ، وحُظُّ النَّـاسُ كلُّـهُمُ
لهــذه الـعِـبْــرَةِ الكُبْــرَى منَ الـعِـبَــرِ][1]

قــد كنتُ أحْــسَــبُني والنَّجْمَ في قَــرَنٍ
فــفـيمَ أصــبــحتُ مُنْحَطّاً إلى العَـفَـرِ؟[2]

أحــينَ رَفَّ عـلــى الآفــــــــــاقِ مـن أدبـي
غَـــرْسٌ لـه من جَناهُ يانِعُ الثَّـــمَـــرِ؟[3]

وســيلةٌ سَـبَــبًـا - إلاّ تكنْ نَسَــبًـا -
فَـهْـوَ الوِدادُ صَـفـا من غـيـر مــا كَـدَرِ[4]

☆☆☆☆

وبـائِنٍ من ثَـنـاءٍ حُــــــسْنُـهُ مَــــــثَلٌ
وَشْـيُ الـمَــحــاسِنِ منهُ مُـعْلَمُ الطُّرَرِ[5]

يُسْـتَـوْدَعُ الصُّـحْفَ لا تَخْـفَى نوافحُـهُ
إلاّ خَـفـاءَ نَسـيمِ الـمِـسكِ في الصُّـرَرِ[6]

مِنْ كلِّ مُــخْــتــالَةٍ بالحِــبْــرِ رافلةٍ
فـيـه اخـتـيـالَ الكعـابِ الرُّؤْدِ بالحِبَـرِ[7]

(١) البيت زيادة من الذخيرة، ومعناه: ما بالي شقيت في ظل الأمير على حين سعد به جميع الناس؟ أليست هذه كبرى العجائب؟

(٢) القرن: البعير المقرون بآخر، أو حبل يجمع به البعيران، العفر: وجه الأرض، وفي الذخيرة «وكنت أحسبني»، والمعنى: كنت أحسبني في أوج العلا تحت رعايته، فما بالي أصبحت ملتصقًا بالتراب؟

(٣) في تمام المتون «أحين رفت... غرائس من جناها»، والمعنى: كيف أقاسي الجحود والنكران بعد أن أينع أدبي وازدهر وأتى بأطيب الثمرات؟

(٤) المعنى: إن لم تجمعني بالأمير صلات النسب فقد جمعتني به صلات الأدب وعلاقات الحب النقي الخالص من الشوائب والأكدار.

(٥) بائن: فائق في الحسن والزينة، مأخوذة من بانه يبونه: فاقه في الفضل والمزية، الوشي: الثوب الملون المنقوش، الطرر: الأطراف أو النواصي أو عصائب الرؤوس، والمعنى: من وسائلي إليه ثناء فائق ممتاز تضرب بروعته الأمثال، وترفل المحاسن منه في برود موشاة الأطراف أو الذيول.

(٦) المعنى: يستقر ثنائي عليه في بطون الصفحات فتنبعث نفحاته الذكية كما يتضوع شذا أنسك من خلال الصرر، ولعلها «نوافجه» جمع نافجة: وعاء المسك.

(٧) الحبر: البهاء والحسن أو الوشي أو المداد، وفي الأصول «الخبر» ومعناه العلم بالشيء، ولعل ما أثبتناه هو الصحيح، الكعاب: الفتاة الناهد، الرود: الشابة الحسنة، الحبر: ثياب موشاة من برود اليمن، والمعنى: أسطر في مدح الأمير كل قصيدة تختال في مدادها أو حسنها وبهائها كما تختال الناهد الحسناء في غلائلها الموشاة.

تُجْفَى لها الروضةُ الغَنّاءُ أَضْحَكَها
مَجالُ دمعِ النَّدى في أعْيُنِ الزَّهَرِ(١)

يا بهجةَ الدهر حيّاً وهْوَ - إن فَنِيَتْ
حياتُهُ - زينةُ الآثارِ والسِّيَرِ(٢)

لي في اعْتِمادِكَ بالتأميل سابقةٌ
وهِجرةٌ في الهَوَى أَوْلَى مِنَ الهِجَرِ(٣)

فَفِيمَ غَضَّتْ هُمومي من عُلا هِمَمِي؟
وحاصَ بي مَطْلَبي عن وِجْهَةِ الظَّفَرِ؟(٤)

هل من سبيلٍ - فماءُ العَتْبِ لي أَسِنٌ -
إلى العذوبَةِ من عُتْباكَ والخَصَرِ؟(٥)

نَذَرْتُ شكرك - لا أَنْسَى الوفاءَ بهِ -
إنْ أسْفَرَتْ لِيَ عنها أَوْجُهُ البُشَرِ(٦)

☆☆☆☆

لا تَلْهُ عنّي، فلم أسألْكَ مُعْتَسِفًا
رَدَّ الصِّبا بَعْدَ إيفاءٍ على الكِبَرِ(٧)

واسْتَوْفِرِ الحَظَّ من نُصحٍ وصاغِيَةٍ
كلاهما العِلْقُ لم يُوهَبْ ولم يُعَرِ(٨)

(١) المعنى: ينصرف الناظر إليها قانعًا بجمالها عن جمال الروضة المتفتحة التي يفتر حسنها ابتسامًا من قطرات الطل المتحدرة من عيون الزهر.

(٢) في الذخيرة «يا زهرة الدهر»، والمعنى: أنت بهجة الدهر في حياتك، وحديث طيب وذكر عاطر بعد مماتك.

(٣) المعنى: لقد تحققت آمالي فيك أولاً، فأولى أن تتحقق ثانياً، وقد هاجر قلبي إليك متعلقًا بك، وهجرة القلوب أحق بالرعاية من هجرة الجسوم، وفي الذخيرة «في التأميل».

(٤) حاص: مال وحاد، والمعنى: ما للهموم العاتية أصابت همتي العالية؟ وما لآمالي الفسيحة انحرفت بي عن الظفر؟

(٥) أسن: آجن راكد، العتبى: الرضا، الخصر: البرد، والمعنى: هل من سبيل إلى أن أتذوق رضاك العذب السائغ بعد أن تكدر صفو العتاب؟

(٦) المعنى: لله علي نذر أن أقوم بشكرك والثناء عليك إذا جاءني البشير بصفحك عني وإقبالك عليّ.

(٧) في تمام المتون «ممتنعا، رد الصبا غب إشفاء» وفي الذخيرة والخريدة وإعتاب الكتاب «غب إيفاء»، والمعنى: لا تتشاغل عني فإنني لا أطلب مستحيلاً أو شبه مستحيل مثل رد الشباب بعد الإشراف على الهرم.

(٨) الصاغية: الحاشية أو الميل، العلق: النفيس، والمعنى: بادر بالصفح والمغفرة لتستكثر من نصحي لك وميلي إليك، فالنصح الخالص والود المتين كلاهما ثمين لا يوهب ولا يعار.

هَبْني جَـــهِلتُ فكان العِلْقُ سـيِّـــئَـــةً
لا عــذرَ منهــا ســوى أنّي مِنَ الـبَـشَـــرِ[1]
إنَّ السِّـــيـــادةَ بالإغــضـــاءِ لابِسَـــةٌ
بهـــاءَها، وبهـــاءُ الحُـسْنِ في الخَــفَــرِ[2]
لكَ الشَّـــفــاعَـــةُ، لا تُثْنَى أَعِنَّـتُـــهـــا
دونَ القَــبـــولِ بمَقْـــبـــولٍ مِنَ العُــذُرِ[3]
[فـــاشْـــفَعْ أَكُنْ مِـــثْلَ مَــمْطورٍ ببلدتـهِ
جَـــــذْلانَ بـالـوطـنِ المألـوفِ والـوَطَرِ][4]
والبَسْ مِنَ النِّعْـمَــةِ الخـضـراءِ أيْكَتَــهـا
ظِلاً حَــرامًــا على [الإرْمــاضِ والخَــدَرِ][5]
نعــــيمَ جَنَّةِ دُنْيـــا، إنْ هِيَ انْصَــــرَمَتْ
نَعِـــمْتَ بالخُلْدِ في الجنّاتِ والنَّهَـــرِ[6]

****

(١) في الخريدة «وكان الجهل سيئة» ومعناها ظاهر، العلق: الميل والحب، ومنه علقه وعلق به، والعلق أيضًا: الشتم، ومنه علقه بلسانه، والمعنى: هبني أخطأت فإن عذري في جهالتي أنني من البشر، أو إن عذري عن هيامي وحبي «ولعل في هذا إشارة لاستهتاره، بحب ولادة» أنني بشر مرهف الإحساس، أو إن عذري في إنزلاق لساني بالذم «ولعل في هذا إشارة إلى ما نسب إليه من هجاء ابن جهور» أنني بشر عرضة للأخطاء.

(٢) في الخريدة «وبهاء الخود»، الخود: الشابة الناعمة، الخفر: الحياء. والمعنى: إن السيادة تزدان بالصفح والغفران، كما يزدان الحسن بالحياء.

(٣) العُذُر والعُذْر بمعنى، والمعنى: لك أيها الأمير الشفاعة المطلقة التي لا يقف في سبيلها أي سبب من الأعذار.

(٤) البيت زيادة في الذخيرة وتمام المتون، والمعنى. شفاعتك ستجلب عليَّ الأمان، فأكون مثل من يأتيه الخصب والنماء في وطنه دون اغتراب، فيسعد بالإقامة في وطنه والثروة السابغة فيه، ولعله ينظر في هذا إلى قول ابن الرومي:

أيعــزب عنك الرأي في أن تثــيــبني
مــقــيــمًــا مـصــونًا من عناء المطالب؟
وأحــسن عــرفًــا مــوقــعًــا مــا تناله
يدى، وغـــرابي بالنوى غـــيـــر ناعب

(٥) ورد عجز البيت ناقصًا ومحرفًا في أصول الديوان هكذا (ظلا حرامًا على الأرمات..) وقد أكملناه بما يناسب المعنى، الإرماض. اشتداد الحر ومنه أرمض الحر الخشب: أحرقه، والخدر: اشتداد البرد، أو البرد مع المطر، والمعنى: تمتع بظلال النعيم آمنًا من لفحات الحر ولذعات البرد.

(٦) المعنى: أتمنى لك النعيم في الدنيا حتى إذا رحلت عنها نعمت بجنة الخلد.

مرارة الاعتقال

أَلـمْ يَأْنِ أنْ يبكي الـغَـمــامُ على مِــثلـي؟
ويطلبَ ثاري البــرقُ مُنْصَلِتَ النَّصلِ؟[1]

وهلاّ أقــــامـتْ أنجمُ الـليـلِ مــــأتمًا
لِتَنْدُبَ في الآفــاقِ مــا ضــاعَ من تَتْلـي[2]

ولو أنْصَـفَـتْني - وَهْيَ أشكالُ هِمَّــتي -
لأَلْـقَتْ بـأيـدي الذلِّ لــمَّـــــا رأتْ ذُلّـي[3]

ولافْــتَــرَقَتْ سَــبْعُ الثُّــريّا وغــاضَــهــا
بمطلعــهــا مــا فـرّق الدهرُ من شَــمْلـي[4]

✡✡✡✡

لَعَــمْــرُ الليــالي إنْ يكنْ طالَ نَزعُــهـــا
لقـد قَـرْطَسَتْ بالنَّبلِ في مَـوْضعِ النُّبل[5]

---

(١) في أصـول الديوان «يبكي الحـمام على قتلي» وقـد آثرنا رواية الذخيـرة وتمام المتـون والوافي لأن البكاء يناسب الغمـام والبرق يوائمه، والمعنى: لقد حان للغمام أن يندبني، وللبرق أن يسل سيفه مطالبا بثأري، والشاعر يهيب بالطبيعة - ناطقة وصامتة، حية وجامدة - أن تشاركه في نكبته وتهتم بمصيره.

(٢) التتل: ضرب من الطيب، وفي الفعل «ضاع» تورية لطيفة، فإنه يأتي بمعنى هلك، أو فاح عبيره، والمعنى: هلا أقامت النجوم مأتمًا تندب فيه ذكري الحسن وآثاري الطيبة التي بددتها الأحداث؟ وفي نسختي أ، ت والذخيرة وتمام المتون «ضاع من نبلي» ويوهن هذه الرواية أن كلمة «النبل» وردت في القافية بعد هذا ببيتين، ولا يمكن لشاعرنا أن يقع في هذا العيب الذي يسميه العروضيون الإيطاء، وهو إعادة اللفظة بنطقها ومعناها في القافية قبل مرور سبعة أبيات على الأقل، وفي نسختي ب، ز «ضاع من تبلي»، والتبل: العداوة أو الثأر أو الأسقام، ولا تتسق مع المعنى في هذا المقام.

(٣) المعنى: لو أنصفتني النجوم - وهي عالية مثل همتي - لهوت ذليلة حينما أبصرت ذلي وهواني. وفي الذخيرة «فلو أنصفتني».

(٤) غاض: نقص وقل، والمعنى: لو أنصفتني نجوم الثريا السبع لتفرقت بعد ائتلافها، ونقصت بعد تمامها، حزنًا على ما فرقه الدهر من شملي، وفي بعض نسخ الذخيرة «وغاظها بمجمعها».

(٥) النَّبل: السهام، النُّبل: الفضل والمروءة، النزع: جذب وتر القوس للرمي، قرطستْ: أصابت، والمعنى: لقد بالغت الحادثات في رميي فأصابت مقتل النبل مني بسهامها.

تحلّت بآدابي، وإنّ مـــــــــآربي
لسانِحَـةٌ في عَـرْضِ أُمْنِيَّـةٍ عُطْلِ[1]
أُخَصُّ لِفَهْـمي بالقِلى، وكـأنّما
يبيتُ لذي الفَهْمِ الزمانُ على ذَحْلِ[2]
وأُجْفَى على نَظْمي لكلِّ قِلادةٍ
مُفَصَّلةِ السِّمْطَيْنِ بالمنطقِ الفَصْلِ[3]
ولو أنّني أسطيعُ كي أرضِيَ العِدا
شَرَيْتُ ببعضِ الحِلمِ حظّاً مِنَ الجَهْلِ[4]

☆☆☆☆☆

أمَقْتولَةَ الأجْفانِ ما لكِ والهًا؟
ألم تُرِكِ الأيّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلي؟[5]
أَقِلِّي بُكاءً، لستِ أوّلَ حُرّةٍ
طَوَتْ بالأسى كَشحًا على مَضَضِ الثُّكْلِ[6]
وفي «أمِّ موسى» عِبْرَةٌ إذْ رَمَتْ بهِ
إلى اليَمِّ في التّابوتِ، فاعْتَبري واسْلي[7]

---

(١) في إعتاب الكتاب «تجلت بآدابي»، والمعنى: لقد تزينت الليالي بآدابي ولكنها حاربت مواهبي، فكلما اتسعت مطامحي صادفت آمالاً مخيبة للرجاء قاتلة للذكاء.

(٢) القلى: الكره، الذحل: الثأر، وفي إعتاب الكتاب «على دخل» والدّخل: العيب أو الريبة، والمعنى، لقد كان ذكائي حربًا عليّ، فإن الدهر مولع بحرب الأكفاء، كأن بينه وبينهم ثأرًا مبيتًا.

(٣) السمط: الخيط ما دام فيه الخرز، وإلا فهو السلك، والمعنى ما زالت البغضاء تلاحقني حقدًا عليَّ لإبداعي في نظم قلائد الشعر المنسقة بالآراء الحكيمة التي تحسم معضل المشكلات.

(٤) المعنى: أبغضني الأعداء، وحقدوا عليّ لغزارة علمي، ولو استطعت أن أتنازل عن قسط من علمي وأشتري به جهلاً – لأبدّد بذلك غيظهم وأنال رضاءهم – لفعلت.

(٥) مقتولة الأجفان: واهية الجفون كأنها قد نضبت فيها الحياة لغزارة ما ذرفته من الدموع، الوله: ذهاب العقل أو الحيرة من شدة الوجد. والشاعر هنا يناجي أمه داعيًا إياها إلى الصبر، مناشدًا لها أن تتأسَّى بما أصاب غيره من أرزاء.

(٦) الكشح: الجانب ما بين الخاصرة إلى الضلع، وطوى كشحه على الأمر: أضمره وستره، المضض: الوجع، الثكل: فقد الولد، والمعنى: قللي يا أماه من بكائك، فلست أول أم ضمت جوانحها على آلام الثكل.

(٧) آثرنا رواية الذخيرة والوافي وتمام المتون، وفي الأصول «أن رمت»، والمعنى: لك أسوة بأم النبي موسى عليه السلام حينما قذفت به في اليم امتثالاً لأمر الله جل شأنه.

لعلّ المليكَ المُجْمِلِ الصُّنع قادرًا
له بعد يأسٍ سوف يُجْمِلُ صُنعًا لي[(١)]
ولله فينا علمُ غَيبٍ، وحَسْبُنا
به - عند جَوْرِ الدهرِ - من حَكَمٍ عَدْلْ[(٢)]

✡✡✡✡

[وإنَّ رجائي في الهُمامِ ابنِ جَهْوَرٍ
لَمُسْتَحْكِمُ الأسبابِ مُسْتَحْصِدُ الحَبْلْ][(٣)]
همامٌ عريقٌ في الكرام، وقلّما
ترى الفَرْعَ إلاّ مُسْتَمِدّاً منَ الأصْلْ[(٤)]
نَهُوضٌ بأعباءِ المروءةِ والتُّقَى
سَحُوبٌ لأذيالِ السِّيادةِ والفَضْلْ[(٥)]
إذا أشْكَلَ الخَطبُ المُلِمُّ فإنّهُ
وآراءهُ كالخطّ يوضَحُ بالشَّكْلْ[(٦)]

✡✡✡✡

وذو تُدْرَأٍ، للعزمِ تحتَ أَناتِهِ
كُمونُ الرّدى في فَترةِ الأعْيُنِ النُّجْلْ[(٧)]

---

(١) المعنى: إنني لآمل في أن المليك الصفوح الحليم القادر للصنيعة سيشملني بعطفه ويسدي إليّ أياديه.

(٢) المعنى: لله تعالى حكمة في ما يقضيه من أحداث قد يتكشف عيبها عن خير عميم، وحسبنا عدالته وإنصافه إذا عضنا الدهر بنابه وجار علينا في أحكامه.

(٣) البيت زيادة في الذخيرة، وفي بعض نسخها «مستحصد الفتل»، الأسباب: الحبال أو الوسائل الموصلة إلى غاية، استحصد الحبل: فتل فتلاً محكمًا، والمعنى: إن آمالي في الأمير قوية الوسائل متينة الصلات.

(٤) المعنى: ينحدر الأمير من أصل كريم، والفرع قلّما يشذ عن الأصل، ومن المعروف أن ابن جهور ينحدر من سلالة وزراء وشعراء كبار، وإن كان أصله غير عربي «من الموالي».

(٥) المعنى: يبادر الأمير بالأفعال النبيلة متصفًا بالتقوى والصلاح، ويحتل مكانة سامية يجرر فيها ذيول السيادة والمروءة.

(٦) المعنى: إذا أبهمت الأمور واستعصى كشفها فإن آراءه تبدد غموضها، وتوضح مشكلاتها، كما تتضح معاني الكتابة بوضع الشكل على الحروف.

(٧) التدرأ والتدرأة: العزة والمنعة، والمعنى: الأمير ذو همة عالية وعظمة سامية، يكمن العزم والحزم تحت هدوئه واتزانه كما يكمن التأثير النافذ في انكسار العيون الساحرة.

يَرِفُّ على التـــأمــــيلِ لألاءُ بِشْــــرِهِ

كـمـا رفّ لألاءُ الحُـسـامِ على الصَّـقْلِ[1]

مــحـــاسنُ مـــا للحُـسْنِ في البـدرِ عِلّةٌ

ســوى أنّهـا باتتْ تُملُّ فـيَـسْـتَـمْلي[2]

تُغِصُّ ثَنائي مِـــثْلَمـــا غصّ جـــاهدًا

سِوارُ الفـتـاة الرُّؤْد بالـمِـعْـصَمِ الخَدْلِ[3]

وتَغْنَى عن المدحِ - اكـتـفـاءً بسَـرْوِها -

غِنَى الـمُـقْلَةِ الكحــلاءِ عن زينةِ الكُحْلِ[4]

✲✲✲✲

«أبا الحــزمِ» إنّي - في عِـتـابِكَ - مــائلٌ

على جانبٍ - تأوي إليـه العُـلا - سَـهْلِ[5]

حـــمـــائمُ شكوَى صَـــبٍّ ـحْنَكَ هَوادلاً

تُنـاديك مـن أفنـانِ آدابـيَ الـهُـــــدْلِ[6]

جـــوادٌ إذا استنّ الجـــيـــادُ إلى مَــدًى

تمطرّ فـاسْـتَـوْلَى على أَمَـدِ الخَـصْلِ[7]

---

(١) رفّ: يلمع ويتلألأ، والمعنى: إذا قصد العفاة الأمير ارتاحت نفسه وتلألأت قسماتُ وجهه كما يلمع السيف القاطع عند صقله.

(٢) أملَّ الكتاب: أملاه، والمعنى: إن محاسن الأمير تمدّ البدر بالحسن والبهاء، ولا عيب في البدر إلا أنه يقتبس جماله من بهاء الأمير.

(٣) الرؤد: الشابة الحسناء، الخدل: ممتلئ، والمعنى: يضيق ثنائي عن استيعاب محامده كما يضيق السوار بالمعصم الممتلئ من الغادة الحسناء.

(٤) السرو: السخاء والمروءة، والمعنى: مآثر الأمير ليست بحاجة إلى الثناء، فإن محامده في غنى عن مدائح الشعراء، بما تحمله من مروءة وسخاء، كما تستغني المقلة الكحلاء بزينتها الطبيعية عن زينة الكحل، وفي الذخيرة «ويغني عن المدح اكتفاء بسروه».

(٥) في القلائد «إلى جانب...»، وفي إعتاب الكتاب «على جانب.. مثل»، والمعنى: أيها الأمير إنني في عتابك معتمد على حظ منك سهل الخليقة سمح الجانب.

(٦) في القلائد «.. من أفنانها داني الهدل»، وفي إعتاب الكتاب «أفنان آدابي الهزل»، الهديل: صوت الحمام، الأفنان الهدل: الأغصان المتدلية، والمعنى لقد ضج شعري بالشكوى إليك نادبًا كما تندب الحمام، هاتفًا بك من أيكة آدابي متطلعًا إلى ما أحرزته من مروءة وسماح.

(٧) استنت الجياد: أمعنت في الجري في حلبة السباق، المدى: الغاية، تَمطَّر: أسرع، الخصل: بلوغ الهدف، المعنى: إنني سباق إلى الغايات أبذ غيري من الشعراء، وأحوز قبلهم قصب الرهان.

ثَوَى صـــافنًا في مَـرْبَطِ الهُـونِ يشـــتكي
بتَــصنْـــهــالـهِ مـــا نالـهُ من أذى الشُكْل(١)

✲✲✲✲✲

أفي الـعــدلِ أنْ وافَــتْكَ تَتْــرَى رســـائلي
فلـم تَتَّـركْ وَضْــعًـا لـهـا في يَدَيْ عَـدل؟(٢)
أُعِـــــــــــدُّك لـــلـجُـلّــى، وآمـلُ أنْ أُرى
بنُـعـمـاكَ مَـوْسـومًـا، ومـا أنا بالـغُـفل(٣)
ومـــا زال وَعْـــدُ النفسِ لي منكَ بالـمُنَى
كـــأنّي به قـــد شِـيمْتُ بارِقَـــةَ الـمَـحـل(٤)

✲✲✲✲✲

أئِنْ زعمَ الـواشُــونَ مـــا ليس مَـــزْعَـــمًــا
تُعَــذِّرُ في نصــري وتَعْــذِرُ في خَـــذْلي؟(٥)
وأصْـدَى إلـى إسـعـافِكَ الـسـائغِ الجَنى؟
وأَضْـحَـى لدى إنصـافكَ السَّـابغِ الظِّلّ؟(٦)

---

(١) الصافن: القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر، الهون: الذل، شكل الدابة: شدّ قوائمها بالحبل، والمعنى: إنني مثل الجواد المربوط في مكان ضنك وقد شدّت قوائمه بالأغلال فشكا بصهيله ما أصابته به القيود والأغلال، وفي مثل هذا يقول عنترة:

لو كـان يدري مـا المحـاورة اشـتكى
ولـكـان لـو عـلـم الـكـلام مـكـلـمـي

(٢) المعنى: أفي شريعة العدل أن أفزع إليك متوسلاً بالرسائل المتوالية فتصم أذنيك عن سماعها، وتضعها في يد ظالمة؟ ولعله يقصد بهذا ابن المكوى الذي حاكمه فظلمه وزج به في السجن.

(٣) الجلى: الأمر العظيم، موسومًا: معلمًا أي مميزًا، الغفل: الذي لا علامة أو ميزة فيه، والمعنى: إنني أدخرك للأمور الجليلة آملاً أن أتميز عن الجميع بآثار نعمتك عليّ، وإن كنت ممتازًا بمواهبي وآثاري.

(٤) المعنى: لا أزال متعلقًا بآمالي فيك، على الرغم من إعراضك عني، كأني متعلق بالسراب الخادع والسحاب الكاذب.

(٥) في نسختي ب، ز (وإن زعم الواشون) وفي ت (لأن) وفي أ (أئن زعم) وفي الذخيرة ومسالك الأبصار «أأن زعم»، زعم: قال حقًا أو قال باطلاً ضد، وأكثر ما يقال في ما يشك فيه أو يعتقد إنه كذب، وقد ورد في كل موضع من القرآن ذمًا، المزعم: الزعم أو الطمع، ومنه زعم فلان في غير مطمع، عذّر في الأمر: قصر فيه، أعذر: التمس عذرًا، والمعنى، ما بالك أيها الأمير تصغي لأكاذيب الوشاة الواضحة البطلان فتقصر في شد أزري؟ وما لك تلتمس الأعذار في التخلي عني؟

(٦) أصدى: أظمأ، السائغ: السهل الحلو، الجنى: الثمار، أضحى: من الفعل ضحا يضحى إذا برز للشمس، السابغ: الواسع الممتدّ، والمعنى: كيف أظمأ وعندك أعذب الري؟ وكيف تلفحني الشمس وعندك أسبغ الظل؟.

[وغـــيــرك] رامَ الـعُــذْرُ إبلاغَ سَــمْــعِــهِ
فـصَمٌ [وأصْـغَى للوقــيــعــةِ والعَـذْلِ][1]
ولـو أنني واقَـــعْتُ عَـــمْـــدًا خطيـــئـــةً
لما كـــان بِدْعًـــا من سـجـــاياكَ أن تُمْلي[2]
فلم أسْـتَـثِـرْ حـربَ «الفِـجـار» ولـم أُطِعْ
«مُـسَـيْلَمَـــةً» إذ قـــال: إنّي من الرُسل[3]
ومِـثْليَ قــد تهـفـو به نشـوةُ الصِّـبـا
ومِـثلُكَ من يعـفـو، ومــا لك من مِـثْل[4]
وإني لـتنهـــــانِي نُهــــاي عن الـتي
أشــاد بهـا الواشي، ويعــقِلُني عـقلي[5]

☆☆☆☆☆

أأنكُثُ فـــيكَ المدحَ من بعـــد قُـــوّةٍ
ولا أقْـــتَـــدي إلا بناقِــضَـــةِ الغَـــزل؟[6]

---

(١) ورد البيت في الأصول محرفا وناقصا هكذا:

وحــاشــاك رام الـعـذر إبلاغ ســمــعــه
فــــصم ....

وقد أكملنا، بما يناسب المقام، والمعنى إن غيرك هو الذي يصم أذنيه عن الأعذار ويستمع للوشاة والحساد، وأما مثلك في منزلتك ومروءتك فهو فوق هذا بكثير.

(٢) أملى: أطال، وأملَى الله له: أمهله وطوّل له، وأملاه عمره متعه به، والمعنى: لو كنت مخطئًا حقا لما كان غريبًا من سجاياك الحميدة أن ترجئ عقوبتي أو لا بمتعتي بعفوك.

(٣) حرب الفجار: حرب فجر فيها العرب لأنهم قاتلوا فيها في الأشهر الحرم وقد حدث هذا أربع مرات في الجاهلية آخرها حرب الفجار بين قريش وكنانة من جانب وقيس عيلان من جانب آخر، وشهدها النبي صلوات الله عليه في مستهل شبابه قبل البعثة، مسيلمة: زعيم بني حنيفة ادّعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وزعم أنه شريك له في الولاية على الأمة، وقد استفحل شره في بدء خلافة أبي بكر حتى قضى عليه بعد معركة دامية قادها خالد بن الوليد. والمعنى: مهما كان لي من ذنب فإنه موضع للعفو لأنني لم أثر حرب الفجار، ولم أتابع مسيلمة الكذاب في دعواه، وفي الذخيرة وإعتاب الكتاب «ولم أستثر».

(٤) إذا دفعتني نزوة الصبا إلى الهفوات فإن مثلك جدير بالعفو والغفران، وإن كنت في السمو والمروءة فوق المثيل والنظير.

(٥) في الذخيرة (أشار بها)، وفي إعتاب الكتاب (الذي... أشاد به). النهى: العقل، يعقلني: يمسكني، والمعنى: إن عقلي ليمنعني من الاندفاع إلى الأخطاء التي اخترعها عليّ الوشاة.

(٦) في الذخيرة والمسالك (أأنقض فيك المدح.. فلا) وفي المسالك (فلا أفتضي)، أنكث: أحل ما أبرمته، ناقضة الغزل: هي ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم القرشية كانت خرقاء تحل ما غزلته، وقد أشارت إليها الآية الكريمة (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا). ومعنى البيت: كيفت أهجوك بعد المدح فأكون مثل ناقضة الغزل الحمقاء؟

ذَمَمْتُ إذًا عَهْدَ الحياة، ولا يزلْ
مُمِراً على الأيامِ طَعْمُهُمَا المُحْلي[1]

وما كنتُ بالمُهدي إلى السُّودَدِ الخَنا
ولا بالمسيءِ القولَ في الحَسَنِ الفِعْلِ[2]

وما لِيَ لا أُثني بآلاءِ مُنْعِمٍ
إذا الروضُ أثنى بالنسيم على الطَّلِّ؟[3]

هِيَ النَّعْلُ زلّتْ بي، فهل أنتَ مُكْذِبُ
لقِيل الأعادي إنّها زلّةُ الحَسْلِ[4]

وهل لكَ في أنْ تشفعَ الطَّوْلَ شافعًا
فتُنْجِحَ ميمونَ النقيبَةِ أو تُبْلي[5]

أَجِرْ أعْدِ امِنْ احْسِنِ ابدأ عُدِ اكْفِ حُطْ
تَحَفَّ ابسُطِ استألفْ صُنِ احْمِ اصْطَنِعْ أَعْلِ[6]

---

(١) أمر الشيء: صار مرًا، أحلى الشي: جعله حلوًا، والمعنى: إذا كنت قد هجرتك فإنني أستحق أن يجعل الله حياتي الحميدة ذميمة، وطعم إياديك الحلوة مرًا، وفي أصول الديوان (طعمها المحلي) ولعل الصواب ما أثبتناه. لأن الضمير لا يستقيم مع رواية الديوان.

(٢) السؤدد والسودد: المجد والسيادة، الخنا: الفحش، والمعنى: ما كنت لأهجوك فأسب المجد والكرم فيك، وما كنت لأسيء القول في صاحب الفعال الطيبات ومانح المكرمات.

(٣) الآلاء: النعم، والمعنى: كيف أسكت عن شكر أياديك ذات الطول والإحسان؟ وكيف لا أقتدي بالروض حينما يثني على الطل بنفحات النسيم؟

(٤) الحسل: الرذل الخسيس، أو السوَّق الشديد، والحسل: ولد الضب، ويقال إن الضبّ تأكل صغارها، ومن الممكن توجيه المعنى على هذه الوجوه الثلاثة:

أ – لقد زللت رغمًا عني، وعثرات الكرام قليلة وهي أهل للغفران، فلا تستمع لقيل حسادي إنها زلة خسيس لئيم، وهو لهذا جدير بالعقاب.

ب – لقد زللت مع احتراسي، فلا تصدق قول خصمي: إنها زلة مندفع متهور لا قيام له من سقطته.

ج – لقد زللت وإنني لأرجو النهوض من عثرتي، وأعدائي يزعمون أنها سقطة قاتلة لا نجاة منها كما يسقط الحسل فتلتهمه أمه، فلا تصدّقهم في ما يزعمون.

(٥) الطول: الإنعام والإحسان، ميمون النقيبة: مبارك النفس أو الأمر، أبلاه عذرا: أداه إليه فقبله، والمعنى: أتمنى أن تضم إلى أفضالك السابقة فضل الشفاعة لي فتسل أحقاد خصمي، أو تبلي عذرًا بما بذلته من مساعيك الحميدة.

(٦) أجر: ابسط حمايتك على من يستجير بك، أعد: أعن، اكف: أعط كفاية، حط: تعهد، تحفًّ: رحب، اصطنع: اتخذ الصنائع التي تجذب بها القلوب إليك، أعل: ارفع من تشاء.

وقد تنافس بعض الشعراء في حشد أكبر مقدار من الأفعال في البيت الواحد فأسفّوا كما فعل شاعرنا ابن زيدون في هذا البيت، ولعله ينظر فيه إلى قول المتنبي:

أقل، أنِل، أقطع، احمل، علّ، سلّ، أعد
زد، هش، بش، تفضل أدن، سُرًّ، صل

ولعل المتنبي نظر فيه إلى قول أبي العميثل في عبدالله بن ظاهر:

أصدق وعف وجد وأنصف واحتمل
واصفح وكاف ودار واحلم واشجع

مُنًى - لو تَسَنَّى عَـقْـدُها بيـد الرِّضـا -

تَيَـسَّـرَ منهـا كلُّ مُـسْـتَـصْـعَب الحَلّ[1]

☆☆☆☆

ألا إن ظنـّي - بـين فِـــعْـلَـيْكَ - واقفٌ

وُقوفَ الـهَـوى بينَ القطيـعـةِ والوَصْل[2]

فـإن تُمْنَ لـي منكَ الأمـاني فَـشِـيـمَـةٌ

لذاك الـفَـعـالِ القَـصْـدِ والخُلُقِ الرَّسْل[3]

وإلاّ جَنَيْتُ الأُنْسَ من وَحْـشَـةِ النَّوَى

وهَوْلِ الـسُّـرى بـينَ المطيَّـةِ والرَّحْل[4]

☆☆☆☆

سَـيُـغْنَى بما ضَـيَّـعْتَ منِّي حـافظٌ

ويُلفى لِمَـا أرخَـصْتَ من خَطَري مُـغْلي[5]

وأين جـــوابٌ منك تَرضى بـه الـعُـلا؟

إذا سَـأَلَـتْني عنك أَلْسِنَةُ الحَـفْل[6]

****

(١) تسنى: تيسر، والمعنى: هذه الآمال لو تيسر وصلها بأسباب القبول لسهلت تيسير كل أمر عسير.

(٢) المعنى: إنني واقف مترقب ما تفعله عن عقاب أو صفح جميل، كما يقف المحب المغرم مترقبا من حبيبته الصد أو الإقبال.

(٣) تُمنى: تقدرُ، مأخوذ من منى له، أي قدر، الفعال: الكرم، القصد: العدل، الرسل: السير اللين السهل، والرسل: الرفق والتؤدة، والمعنى، إذا حققت آمالي فيك فهذا جدير بمآثرك القائمة على العدل، وأخلاقك المتسمة بالرفق والفضل.

(٤) السرى: السير ليلاً، المطية: الركوبة المسرعة، الرحل: مسكن الرجل أو ما يستصحبه من الأثاث، أو رحل البعير وهو أصغر من القتب، والمعنى: إذا لم أحظ منك بالصفح الجميل فسوف أرحل، وأحتمل مرارة الفراق لأظفر بحلاوة الأمان، وأكابد مشقة الأسفار في وحشة الظلام لأظفر بالسكينة والاستقرار بعيدًا عن الذل والهوان.

(٥) في نسخ ب، ت، ز «بما أرخصت»، والمعنى: إذا ضيعتني فسأجد من يحفظني، وإذا أرخصت مكاني فسأجد من يعرفه، ويقدره حق قدره.

(٦) آثرنا رواية القلائد والذخيرة، وفي أصول الديوان.

وأيـن جـــــــــوابٌ عـنـك....

إذا ســـــألـتـنـي بـعــــــد.....

والمعنى: إذا سألني الناس عنك فبماذا أجيب؟ وهل من سبيل لأن أذكر لهم ما يتسق مع مجدك وعلاك؟

طبائع النفوس(1)

«أرسل الشاعر هذه النفثة الحارة من سجنه إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر»:

مـــــــــا علـى ظَـنِّـيَ بـاسُ
يجـــــرحُ الدهرُ وياســـــو(2)
رُبّمـــــا أشـــــرفَ بالـمَـــــرْ
ءِ علـى الآمـــــــالِ يـاسُ(3)
ولَقـــــدْ يُنجـــيكَ إغـــفـــا
لٌ ويُرديكَ احْـــــتِـــــراسُ(4)
والـمَـــحـــــاذيرُ سِـــهـــــامٌ
والمقـــــاديرُ قِـــــيـــــاسُ(5)
ولَكَمْ أَجْـــــدَى قُـــعـــــودٌ
ولكمْ أكْـــدَى الْتِـــمـــــاسُ(6)

(1) وردت هذه القصيدة في الذخيرة والقلائد مع حذف بعض الأبيات واختلاف في ترتيب الباقي منها، وقد التزمنا رواية أصول الديوان.

(2) باس: بأس سهلت همزته، ياسو: يأسو أي يداوي، والمعنى: لا بأس عليّ إن أصابني الدهر، فمن شيمته أن يجرح ثم يداوي الجراح.

(3) المعنى: قد يفتح اليأس أبواب الرجاء، فإذا اشتد الخطب هان. وشبيه به قول الشاعر:

قـــد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبـــتلي الله بعض القـــوم بالنعم

(4) في الذخيرة والقلائد وتمام المتون «ويؤذيك احتراس»، والمعنى: قد يكون قعود المرء سببًا في نجاته، وقد يكون احتراسه سببًا في هلاكه.

(5) البيت زيادة من الذخيرة، المحاذير: الأمور المخيفة المفزعة، قياس: جمع قوس، والمعنى: إن المقادير هي التي تسبب النكبات كما ترسل الأقواس السهام.

(6) أكدى الرجل: قلّ خيره أو قطع عطاءه، والمعنى: ربما نفع القعود وربما ضر السعي، فالأقدار بيد الله يصرّفها كيف شاء.

وكـــــــذا الـدهـرُ، إذا مـــــــا
عَـــــــــزَّ نـاسٌ ذلَّ نـاسُ[١]
وبـنـو الأيَّـام أخْـــــيـــــــا
فٌ: سَــــراةٌ وخِـــســـــاسُ[٢]
نَـلْـبَـسُ الـدنـيــــــــا، ولـكـنْ
مـــتـــعـــةٌ ذاكَ اللِّبــــاسُ[٣]

☆☆☆☆

يا أبـا حَـــفْصٍ ومـــا ســـا
واكَ فــي فـــــــهــمٍ إيـاسُ[٤]
مِـــن سَــنــا رَأْيِـــكَ لـــي فـــي
غَــسَقِ الخَطْبِ اقْــتِــبــاسُ[٥]
وودِادي لـــــــكَ نـــــصٌّ
لـم يُخــالِـفْـــهُ القِــيـــاسُ[٦]

---

(١) في القلائد والخريدة «وكذا الحكم»، والمعنى: من شيمة الدهر أن يرفع اقوامًا ليذلّ آخرين، وقد نظر في هذا إلى قول البحتري:

إذا مــا نســبت الحــادثات وجــدتهــا
بنات زمـــان أرصــــدت لبنيــــه
مـــتى أرت الدنيـــا نبـــاهة خـــامل
فـــلا ترتقب إلا خـــمـــول نبـــيـــه

(٢) أخياف: مختلفون، وإخوة أخياف: إذا كانت أمهم واحدة والآباء شتّى، سراة: جمع سريّ وهو الماجد السخي، والمعنى: طباع الناس – على تشابههم في الخلقة – متباينة، فمنهم الأشراف، ومنهم السفلة والأوغاد.

(٣) المعنى: نلبس الدنيا ولكن إلى حين، فهي متعة إلى زوال.

(٤) إياس بن معاوية تولّى قضاء البصرة في زمن عمر بن عبدالعزيز وكان مضرب المثل في الذكاء، وقد عناه أبو تمام في قصيدته التي مدح بها أحمد بن المعتصم بقوله:

إقـدام عـمـرو في سـمـاحـة حـاتم
في حـلـم أحـنـف في ذكـــــاء إيـاس

(٥) سناء: ضوء، غسق: ظلام، وفي بعض نسخ الذخيرة «ظلم الخطب».

(٦) النص: القول المحكم من قرآن كريم أو حديث شريف، ولا مجال للرأي معه، فإذا لم يوجد نص قاطع استعمل الفقهاء القياس، وهو أن يقيسوا المشكلة الحاضرة إلى مثيلاتها مما ورد فيها نص صريح، والمعنى: حبي لك توافرت عليه الأدلة النقلية والعقلية، وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وفي الأصول «قياس».

أنـا حَـــــــيْـــــــرانُ، ولــلأمْــ

ــر وضـــــوحٌ والْـتِــــبـــــاسُ

مـــا تـرى في مَــــعْــشَــــرٍ حــا

لـوا عنِ الـعَـــهْــدِ وخَـــاســوا[1]

ورَأَوْنِــي ســــــــامِـــــــريّـاً

يُـتَّـــقَى منه الــمِـــســـــاسُ[2]

أذْؤبٌ هــامَـتْ بــلــحــــــــمـي

فــانْـتِــهـــاشٌ وانْـتِــهـــاسُ[3]

كـلُّـهُـمْ يَـسْــــــألُ عـن حـــــا

لـي، ولـلـذئـبِ اعْـــتِـــســــاسُ[4]

☆☆☆☆

إنْ قَـــــسَـــا الـدهـرُ فـلـلـمـــا

ءِ منَ الـصَّــخْــرِ انْـبِــجـــاسُ[5]

ولـئـنْ أمْـــسَــيْـتُ مــحــبــو

سًـــا، فـلـلـغَــيثِ احْـتِـبـــاسُ[6]

---

(١) خاس: غدر ونكث.

(٢) السامري: أحد زعماء بني إسرائيل، لما ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه أضلّ السامري بني إسرائيل ودعاهم إلى الشرك بالله، فعاقبه الله بالوحشة والانفراد فلا يمسّ إنسانًا إلا أدركتهما الحمّى معًا، فكان يتحاشى الناس ويناديهم إذا رآهم «لا مساس»، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإنّ لك موعدًا لن تخلفه﴾.

(٣) في الذخيرة «فالتهام وانتهاس»، وفي القلائد والخريدة «فانتهاب» الانتهاش: القضم بالأضراس، الانتهاس: القضم بأطراف الأسنان.

(٤) اعتساس: تسلل في الظلام، والمعنى: إن الناس ذئاب تحاول أن تفترسني وتتسلل لتنتهز فرصة لالتهامي كما ينسلّ الذئبُ لفريسته في الظلام.

(٥) انبجس: تفجّر، والمعنى: إذا قسا الدهر فقد ينجم عن قسوته النعيم كما يتفجر من الصخر الماء الزلال.

(٦) في الذخيرة «إن أكن أمسيت..»، والمعنى: لا عجب إن كنت مطروحًا في السجن، فالغيث قد يحتبسُ حينًا عن السقوط، ثم لا يلبث أن يهطل فيسقي النبات.

يَلْبَـــــدُ الـوَرْدُ السَّـــــبَنْتَى
ولـهُ بَعْـــــدُ افْـــــتِـــــراس(١)

☆☆☆☆

فَـــــتَـــــأمَّلْ كـــيف يَغْـــشَى
مُـــــقلةَ المجـــــد النُّعـــــاسُ
ويُـفَـتُّ المسكُ في الـتُّـــــــرْ
بِ فـــــيـــــوطَا ويُداس(٢)

☆☆☆☆

لا يـكـنْ عـــــهـــــدُكَ وردًا
إنَّ عـــــهـــــدي لـكَ آسُ
وأَدِرْ ذِكْـــرِيَ كـــأسًـــا
مـــا امْـــتَطَتْ كـــفُّكَ كـــاس(٣)
واغْـــتَنِمْ صَـــفْـــوَ الليـــالي
إنَّمـــا الـعـــيشُ اخْـــتِـــلاسُ
وعـــسى أن يَسْـــمَحَ الدهـ
ـرُ، فـــقـــد طالَ الشِّـــمـــاس(٤)

****

(١) يلبد: يقيم بمكانه لا يبرحه، الورد: من أسماء الأسد، السبنتى: الأسد او النمر أو الجريء، والمعنى: يسكن الأسد حينًا ثم يثب على فريسته، ومثله قول ابن الرومي:

سكنت سكونًا كـــان رهنًا لوثبـــة
عـــمـــاس، كـذاك الليث للوثب يلبـد

(٢) معنى البيتين: انظر كيف أغلق الدهر عين المجد بالنعاس؟ وكيف أصبح المسك مطروحًا في التراب تحت النعال؟ وكيف هان مثلي بعد إعزاز؟ الورد مشهور بسرعة الذبول، والآس مشهور بطول احتماله، والمعنى: أرجو أن يكون ودك ثابتًا دائمًا مثل ودي، ومثل هذا قول العباس بن الأحنف:

لا تجـعلي ودنا كـالورد حين مـضى
ذا طلعـــة، وأديمي الود كـــالآس

(٣) المعنى: تذكرني كلما صفت لك الحياة، وطاب لك الشراب.

(٤) سمح الرجل وأسمح: اتصف بالجود والسهولة واليسر، الشماس: الجماح والعصيان، وفي الذخيرة والقلائد «فعسى أن يسمح».

عتب ورجاء[1]

«كتب الشاعر في أخريات أيام سجنه رسالته الجدّية وأودعها ما أودعها من عتب وشكوى ورجاء، ثم شفعها بهذه القصيدة الضارعة»:

الـهَـــــوَى في طُـلوعِ تـلكَ الـنُّـجـــــومِ
والـمُـنَى في هـبــــوبِ ذاكَ الـنَّـســــيمِ[2]
ســــرَّنا عَـــيْــشُـنا الرقـــيقُ الحـــواشي
لـو يـدومُ الـسُّـــــرورُ لـلـمُــــسْـــتَــــديمِ

ومنها[3]:

وَطَـرٌ مــــا انْـقَــــضَى إلى أن تَقَــــضَّى
زمـنٌ مــــا ذِمــــامُــــهُ بـالـذَّمــــيمِ[4]
إذ خِـتـــامُ الرِّضـــا الـمُــسَــوَّغِ مِـسْـكٌ
ومِــــــزاجُ الـوِصـــــــالِ من تَـسْـنيمِ[5]

✵✵✵✵

وغَــــريضِ الـدلالِ غضٍّ جَـنَى الصَّـــــبـ
ـوَةِ نَشْـــوانَ من سُـــلافِ الـنَّعـــيمِ[6]

---

(١) يظهر أن القصيدة لم تصلنا بتمامها كما نفهم من الذخيرة.

(٢) المعنى: الهوى معقود بظهور هؤلاء الغيد الحسان المضيئات إضاءة النجوم. والآمال منوطة بهبوب النسيم الذي يحمل إلينا نفحاتهن العطرات.

(٣) وردت هذه الكلمة بالذخيرة مما يوحي بأن هناك أبياتًا محذوفة.

(٤) وطر: أمل مرتقب، الذمام: العهد، والمعنى: لم نظفر بآمالنا حتى انطوى عهدنا السعيد، ومثل هذا قولنا من قصيدة:

حلم هنيء مــــرحنا تحت أيكتـــــه
ومــــا ظفـــرنا به حـــتى فـــقـــدناه

(٥) المسوغ: الهنيء، التسنيم: عين في الجنة، وفي البيت إشارة إلى الآية الكريمة ﴿يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينًا يشرب بها المقربون﴾.

(٦) الغريض: كل أبيض لين الملمس، غض: ناضر طري، الجنى: الثمر، الصبوة: غرة الشباب، نشوان: سكران، السلاف: ما تحلّب وسال قبل العصر، وهو أفضل الخمر، والمعنى: هذا الحبيب رفيق لعوب ناضر الصبا غض الإهاب سكران من حياته المترفة وعيشه اللذيذ الخصيب.

طالما نـافَـــــرَ الـهَـــــوَى منه غِـــــرٌّ
لـم يَطُلْ عــهـــدُ جِــيـــدِهِ بالتَّـــمــيـم(١)

[زار مُـسْـتَــخْـفِـيًـا، وهيـهـاتَ أن يَخْـ
ـفَى سَنا البـــدرِ في الظَّلامِ البَــهــيـمِ](٢)

[فَـــوَشَى الحَلْيُ إذْ مَـشَى، وهفـــا الطِيـ
ـبُ إلـى حِسٍّ كـــــاشـحٍ بـالنَّمـــــيـمِ](٣)

✵✵✵✵

أيّهـــــا الـمُـــــؤْذِني بظُلـمِ اللَّيـــالي
لـيـس يَـوْمِـي بـواحــــــــــدٍ من ظَـلـومِ(٤)

مـــا ترى البـــدرَ - إن تـأمّلْتَ - والشَّـــمْـ
ـسَ هـمـــا يُكسَــفـــانِ دونَ النُّجـــومِ(٥)

وَهُـوَ الـدَّهْـرُ لـيـس يَـنْـفَـكُّ يَـنْـحــــــو
بـالـمُـــصــابِ الـعظيـمِ نَحْـــوَ الـعظيـمِ(٦)

✵✵✵✵

(١) غرّ: ساذج، التميم: مأخوذة من تممت الوالدة المولود إذا علقت عليه التميمة وهي عوذة تعلق على الصبيّ مخافة العين، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في رثاء بنيه:

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفـــارها
ألفـــيت كلّ تميـــمـــة لا تنفع

والمعنى: هذا الحبيب اللعوب الذي ما زال قريب العهد بالطفولة طالما تأبّى وتدلل في هواه فأثار القلوب وألهب الوجدان.

(٢) هذا البيت والتالي له زيادة من الذخيرة وتمام المتون ونهاية الأرب، وفي الذخيرة «سرى البدر» وفي نهاية الأرب «يختفي البدر»، البهيم: الشديد الظلمة، والمعنى: زارني الحبيب متسترا تحت أذيال الظلام، ولكن أضواء وجهه كشفته للعيان، فمن العسير أن يتخفّى البدر في ألفاف الظلام.

(٣) الكاشح: العدو الحاقد، والمعنى: أراد الحبيب أن يزورني مستخفيا ولكن وسواس حليه، ونفحات طيبه نمت عليه، ونبهت الرقيب إليه، وفي نهاية الأرب «إلى حيث كاشح».

(٤) في تمام المتون «ليس دهري»، والمعنى: ليست هذه الكارثة بفريدة عندي فلدي من أمثالها الكثير، وهو في هذا ينظر إلى قول العباس بن الأحنف:

لـيـس يـومـي بـواحــــد من ظـلـوم
وابتــــلائِي من حــــادث وقــــديم
ليـــتــهـــا تشكر النحـــول لمثلي
جـــســدي مـــبــتلى بقلب مـــشـــوم

وفي رواية تمام المتون «ليس يستكثر النحول لمثلي».

(٥) آثرنا رواية الذخيرة وتمام المتون. وفي أصول الديوان «قمر الأفق إن تأملت» والمعنى: إن الأحداث لا تصيب إلا العظماء، كما أن الكسوف لا يصيب النجوم، وإنما ينال الشمس والقمر.

(٦) المعنى: لا يفتأ الدهر يرمي العظماء بأحداثه العظام.

بوّأ اللّهُ «جَـــهْـــوَرًا» أشـــرفَ السُّـــو
دَد في السَّـــرْوِ واللُّبـــابِ الصَّـــمـــيمِ(١)

واحــــدٌ سلّمَ الجــــمــــيعُ له الأمْـ
ـرَ، فكان الخُـــصـــوصُ وَفْقَ الـعُـــمـــومِ(٢)

قلد الغُـــمْــرُ ذا التَّـــجـــارب فـــيـــه
واكْــــتَــــفَى جـــاهلٌ بعلمِ العليمِ(٣)

خَطَر يَقْـــتَـــضي الكمـــالَ بنوعَيْ
خُلُقٍ بـارع وخَلْقٍ وســـــــيـمِ(٤)

[أُسْـــوَةُ الرّوضِ تَطّبـــيك بحظَّيْ
نظرٍ - مـا اعْـتَـمَـرْتَهُ - وشَـمـيمِ](٥)

☆☆☆☆☆

أيُّـهــــــذا الـوزيـرُ هـا أنـا أشكـو
والعَـصـا بدءُ قَـرْعِـهـا للحليمِ(٦)

---

(١) في نسخة ب والذخيرة «شرف السؤدد»، وفي الذخيرة وتمام المتون «في السر»، والمعنى: وهب الله الأمير أعز مكان في المجد والمروءة وأنبته من أصل كريم.

(٢) في بعض نسخ الذخيرة «فوق العموم» وفي نهاية الأرب «له الفضل» والمعنى ألقى إليه الجميع زمام أمورهم، واعتمدوا عليه في تدبير شؤونهم، خاصتهم وعامتهم على السواء.

(٣) الغمر «بضم الغين وفتحها وكسرها»: الساذج الجاهل، والمعنى: اعتمد الجميع على الأمير فبايعه الخاصة عن خبرة وتجربة، وتابعهم العامة في هذا التقليد.

(٤) خطر: شرف وفخار، وسيم: جميل، والمعنى: إن الأمير بلغ أقصى غايات المجد وفاق الجميع بأخلاقه السامية وتكوينه الجميل. وفي تمام المتون «بارع باهر».

(٥) هذا البيت زيادة من تمام المتون، أسوة: قدوة ومثال، تطبيك: تدعوك، اعتمر المكان: قصده، والمعنى: فقت الناس بجلالك وجمالك مثل الروض يدعو قاصديه ومنحهم متعة المنظر الجميل والنفح الطيب العبير.

(٦) في البيت إشارة إلى المثل «إن العصا قرعت لذي الحلم» ومنه قول المتلمس:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا
ومـــا علم الإنســـان إلا ليـــعلمـــا

وذو الحلم: هو عامر بن الظرب كان من حكماء العرب لا تعدل بفهمه فهمًا، فلما تقدمت به السن أنكر من عقله شيئًا، فقال لبنيه: قد كبرت سنيّ فإذا رأيتموني خرجت عن كلامي فاقرعوا لي المجن بالعصا، وقيل: إن ذا الحلم هو عمرو بن حُممة الدوسي الذي عناه الحارث بن وعلة بقوله:

وزعـــــمـــــتُم ألا حلـوم لنـا
إن العـــصـــا قـــرعت لذي الحلم

وقيل هو قيس بن خالد الشيباني، والمثل يضرب لمن يتنبه إذا نبه. والمعنى: أيها الوزير لقد ضرعت إليك بالشكوى لأنبهك إلى ما وقع عليّ من ظلم، وآمل أن تتنبه إليه فتزيله.

مـــا عَـــسِيٌّ أنْ يـألفَ السَّـــابقُ الـمَــرْ

بَطَ في الـعِـــتْقِ منـه والتَّطْهـــــيمِ[1]

وبقـــاءُ الـحُــســـامِ في الجَـــفْنِ يَثْنِي

منه بـعـد الـمَـضـاءِ والتَّـصـمـيمِ[2]

أفَــصَـــبْــرٌ مِـــئِينَ خَـــمْـــسًـــا من الأيّا

مِ، نـاهـيـكَ مـن عـــــــــــذابٍ ألـيـمِ!![3]

ومُـــــــــعَـنًّـى مِـنَ الـضَّـنَـى بـهَـنـاتٍ

نـكـأتْ بـالـكُـلـومِ قَـــــــرْحَ الـكُـلـومِ[4]

سَـــقَمٌ لا أُعـــادُ فـــيـــه، وفي الـعـــا

ئدِ أُنْسٌ يـفي ببُـــرءِ السَّـــقـــيمِ[5]

نـارُ بَـغْـيٍ سَــــــــرَى إلـى جـنَّـة الأمْـ

ـنِ لظاها، فـأصــبــحتْ كـالصَّــريمِ[6]

✵✵✵✵

(١) ورد البيت ناقصًا في نسخة أ (.. يأنف المربط في العتق منه والتطهيم) وفي تمام المتون (ما غناء أن..) وفي نسخة ب «أن يأنف..» وقد اعتمدنا روايتي نسختي ت، ز، عسي: جدير، السابق: الجواد، العتق: الحسن، التطهيم: الجمال البارع، والمعنى: إن الجواد السابق المطهم غير جدير بالحبس والتقييد في مربطه، ومثل هذا قول المتنبي:

يقــول لي الطبـيب: أكلت شـيـئًـا
وداؤك في شـــرابك والطعـــام

ومـــا في طبـــه أني جـــواد
أضـــر بجـــســـمـــه طول الجـــمـــام

والجمام: الراحة.

(٢) في تمام المتون «وثواء الحسام»، والمعنى: إن بقاء الحسام في جفنه يوهيه بعد أن كان مرهفًا بتارًا.

(٣) المعنى: لقد صبرت على محنتي خمسمائة يوم، وحسبك بما أصابني من عذاب أليم.

(٤) معنى: متعب، الضنى: المرض، هنات: دواهي، الكلوم: الجروح، والمعنى: وأنا مصاب من الأمراض بنكبات أدمت جروحي قبل أن تلتئم. وفي ت «قلب الكلوم».

(٥) في الذخيرة وتمام المتون ونهاية الأرب ونسخة ز «لا أعاد منه»، والمعنى: اجتمع عليّ المرض والوحشة فما يجرؤ زائر على عيادتي، وطالما خفف العائد آلام المريض.

(٦) الصريم: الزرع المحصود أو الليل المظلم، والمعنى: إن نار الظلم أصابت جنة أمني واطمئناني فأحالتها إلى هشيم، وفي البيت إشارة إلى قصة أصحاب الجنة الأشحاء الواردة في سورة (نون) وقد حاولوا الاستئثار بثمار جنتهم ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾. وفي تمام المتون «نار بغي سعى...» وفي نهاية الأرب «سرت إلى جنة الأرض بياتا» وفي الذخيرة «نار بغي سرت.. الأمن بياتا ...».

بـأبـي أنـت!! إنْ تَـشَـــــــــأْ تَـكُ بَـردًا
وســـــــــلامًـــــــا كـنـار إبـراهـيـمِ[1]

للشّــفــيعِ الثّناءُ، والحَـمْـدُ في صَـوْ
بِ الحــيـــا للرياح، لا للغُـــيـــومِ[2]

وزَعـــــيـمٌ بـأن يُـذلِّلَ لِـي الصّـــــعـ
ـبَ، مَــثــابـي إلى الهُــمـــامِ الزّعــيـمِ[3]

[أمـلٌ يَـرْعَـمُ الجَـــــفـــــاءُ إلـيــــه
وَهْوَ ثَبتُ الـمَـقـــامِ مــاضي العــزيمِ][4]

ووِدادٌ يُغـــيِّـــرُ الدهرَ مـــا شـــا
ءَ ويَبْــقَى بقـــاءَ عــــهـــدِ الكريمِ[5]

وثـنـاءٌ أرْسَـلْـتُـــــــــهُ سَـلْـوَةَ الـظـا
عِنِ عن شَـــوْقِـــه ولَـهْـــوَ الـمُــقــيـمِ[6]

فَـــهْـــوَ ريحـــانـةُ الجليسِ - ولا فَـــخْـ
ـرَ - وفــيـــه مِـــزاجُ كـــأسِ النديمِ[7]

(١) المعنى: أفديك بأبي، إن شئت الإحسان إليّ استطعت أن تحول نكبتي إلى جنة وارفة الظلال، وفي هذا إشارة إلى الآية الكريمة ﴿قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾.

(٢) المعنى: إن شفعت لي فأنت جدير بالحمد، حريٌّ بالثناء، فالشافع هو أصل النعمة وسببها، كما أن الرياح هي باعثة السحاب وحاملته من مكان إلى مكان، وفي الذخيرة و ت «للشفيع الغناء».

(٣) المعنى: إن لجوئي إلى الهمام الزعيم كفيل بأن يذلل أمامي العقبات، وأن ينيلني أطيب الأمنيات وفي تمام المتون «يذل لي الصعب».

(٤) رعم الشيء رعمًا: رعاه وراقبه، ورعم الشمس: رقب مغيبها، العزيم: العزم والتصميم، والمعنى: إن رجائي فيك ثابت لا يتغير وإن تطلع الجفاء إليه ارتكانًا على إبطائك في نصرتي.

(٥) المعنى: حبي لك باق على الدهر مهما تغيرت القلوب وتبدلت الأحوال وفي تمام المتون «ووِدادي يغير الدهر».

(٦) المعنى: إن ثنائي عليك يتسلى به عن شوقه الراحل ويسعد به المقيم.

(٧) المعنى: مدائحي فيك يتسامر بها السامرون، فهي ريحان للأصدقاء ومزاج لكؤوس الندماء، وفي تمام المتون «ومنه مزاج».

لم يزل مُـغْـضِـيًـا على هَفْـوَةِ الجـا
ني مُـصـيـخًـا إلى اعـتـذارِ الكريمِ[1]
ومـتى تبـدأِ الصَّنيـعَـةَ يُولِعْـ
ـكَ تَمَـامُ الخِـصـالِ بالتَّـتْـمـيمِ[2]

****

(١) أغضى على هفوته: أعرض عن زلته، مصيخًا: مستمعًا، والمعنى: لم تزل أيها الأمير صفوحًا عن زلات العاثرين، مصغيًا إلى اعتذار الكرماء، وفي تمام المتون اعتذار «المليم» والمليم من ألام الرجل: أتى ما يلام عليه، أو المليم: الملوم: الذي وقع عليه اللوم.

(٢) الصنيعة: الإحسان، والمعنى: متى بدأت الإحسان فإن مروءتك توجب عليك أن تتمم ما بدأت به، ومثله قول أبي تمام في مدح محمد بن أبي ربعي:

هذا سـحـاب أنت سـقت غـمـامـه
فـعليك بعـد الله فـيض غـمـامـه
إن ابتـداء العـرف مـجـد باسق
والمجـد كل المجـد في استـتـمـامـه

شفاعة مَرجوّة

«فرّ الشاعر من سجنه بقرطبة لاجئًا إلى إشبيلية، ولكن هواه إلى حبيبته وحنينه إلى وطنه جذباه إلى قرطبة فرجع إليها مستخفيًا بضاحيتها «الزهراء». ومنها كتب إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي رسالة مسهبة شرح فيها حالته. ثم أتبعها بهذه القصيدة ملتمسًا شفاعته».

شَـحَطْنا، ومـا للدار نأيٌ ولا شَـحْطُ
وشَطَّ بمن نَهْوى المَزارُ، وما شطّوا[1]

أأحْبابَنا ألْوَتْ بحادثِ عَهْدِنا
حوادثُ لا عَقدٌ عليها ولا شَرْطُ[2]

لَعَمْرُكمُ إنّ الزمان الذي قَضَى
بِشَتِّ جميعِ الشَّمْلِ منّا لَمُشْتَطُّ[3]

وأما الكَرى مُذْ لم أزركمْ فهاجِرٌ
زيارتُهُ غِبٌّ، وإلمامُهُ فَرْط[4]

وما شوقُ مقتولِ الجَوانحِ بالصَّدى
إلى نُطفةٍ زرقاءَ أضْمَرَها وَقْط[5]

---

(١) في القلائد والخريدة وتمام المتون «وما بالدار»، شحطنا: بعدنا، نأي: بعد، وفي نسخة ت «وشط بما نهوى» وفي الخريدة «وشط بمن أهوى»، والمعنى: نأينا عن أحبابنا وإن كانت ديارهم قريبة منا، وتعسر مزارهم وإن لم يبعدوا عنا.

(٢) ألوت بحادث عهدنا: ذهبت به، العقد: العهد الوثيق، والمعنى أيها الأحباب لقد بدد الزمان عهد نعيمنا القريب، وما لأحكام الدهر عقد تلتزمه ولا شرط ترعاه. وفي الذخيرة «أأحبابنا ولّت...» وفي الذخيرة والقلائد «لا عهد عليها».

(٣) شت الشمل: تفريق الجمع، مشتط: موغل في الجور، والمعنى: وحقك إن الزمان الذي فرق شملنا لغاشم ظلوم.

(٤) الكرى: النوم، زيارته غب: متفرقة قليلة، ومنه «زر غبًا تزدد حبًا»، الإلمام: الزيارة الخفيفة ومنه قول. جعفر بن علبة الحارثي:

ألمت فحيّت، ثم قامت فودّعت
فلما تولت كادت النفس تزهق

الفرط: التقصير، أو الحين، أو ألا تزور إنسانًا إلا بعد أيام لا تزيد عن خمسة عشر يومًا ولا تقل عن ثلاثة، والمعنى: لقد هجرني النوم منذ هجرتكم فما يزورني إلا لمامًا.

(٥) في تمام المتون «بالظما»، نطفة: ماء صاف قليل أو كثير، وقط: حفرة في الصخر يجتمع فيها ماء المطر، والمعنى مرتبط بالبيت التالي.

بـأبـرحَ مـن شـَـــوْقـي إلـيـكـمْ، ودُونَ مـــا
أُديرُ الـمُنى عنه القَـــتــادَةُ والـخَـــرْط[1]
وفـي الـرَّبْرَبِ الإنـسـيِّ أَحْــوَى، كِـنـاسُـــهُ
نَـواحي ضـمـيـري، لا الكثـيبُ ولا السَّقط[2]
غـــريبُ فنونِ الـحُـــسْنِ يـرتـاحُ دِرعُـــهُ
مـتـى ضـاق ذَرْعًـا بالذي حـازهُ الـمِـرْط[3]
كـــأن فـــؤادي يـومَ أهْوَى مـــودِّعًـــا
هوى خـافِـقًـا منه بـحـيثُ هَوَى القُـرْط[4]
إذا مـــا كـــتـــابُ الـوَجْـــدِ أشْكَلَ سَطْرُهُ
فـمـن زَفْـرتـي شَكَلٌ ومـن عَـبـرتي نَقط[5]
ألا هل أتـى الفـــتـــيـــانَ أنَّ فـــتـــاهـمُ
فـريسـةُ مَنْ يـعـدو ونُـهـزَةُ مـن يسطو؟[6]
وأنَّ الـجـــوادَ الـفـــائـتَ الـشَّـــأْوِ صـــافـنٌ
تَـخَـــــــوَّنَـهُ شَـكـلٌ وأزرى بـــه رَبْـط؟[7]

(١) بأبرح: بأشد إيلامًا، القتادة: شجرة متشابكة الأغصان مليئة بالأشواك الحادة، وخرط القتاد: جذب شوكه بالأيدي وهو عسير مؤذ، وفي المثل «دونه خرط القتاد»، ومعنى البيتين، إن شوقي إليكم أعنف من شوق الصادي الذي برح به الظمأ إلى نهلة من الماء العذب النمير، ولكن بيني وبين تحقيق آمالي فيكم أهوال وأهوال، ودونها جني الأشواك، وفي الذخيرة «أريد المنى عنه» وفي تمام المتون «شوك القتادة والخرط».

(٢) في القلائد «أهوى كناسه. نواجي»، وفي تمام المتون «ظبي كناسه...» الربرب: سرب البقر الوحشي، أحوى: في شفتيه حمرة ضاربة للسواد، كناس الظبي: مأواه في الشجر يكتن فيه ويستتر، الكثيب: الرمل المكدس، السقط: رقة الرمل حتى ينقطع، والمعنى: في هذا السرب من الأناسي ظبي لا يحتل البيداء وإنما يحتل جوانب قلبي الرحيب.

(٣) في الخريدة «فنون السحر»، درع المرأة: قميصها، المرط: كساء من صوف أو خز تأتزر به النساء، وهو ما نسميه الآن «جونلة» ويشمل الجزء الأسفل من الجسم، والمعنى: لقد رق خصره فجال فوقه القميص، وثقل ردفه فضاق به الإزار.

(٤) المعنى: سقط قلبي خافقًا مضطربًا كما يضطرب قرطه حينما مال عليّ للوداع.

(٥) أشكل: التبس، والمعنى: إذا كان كتاب الحب عسير القراءة فإن حالتي توضحه كل الوضوح فإن لحروفه من زفراتي شكلا يوضح حركاتها ونقطًا تميز الحروف المعجمة عن المهملة فيها.

(٦) يعدو: يعتدي، نهزة: فرصة، والمعنى: أيعلم الفتيان أن الفتى المرموق فيهم أصبح فريسة لكل معتد أثيم؟

(٧) الشأو: الغاية والأمد، صافن: قائم على ثلاثة قوائم ولامس بحرف الرابعة الأرض، تخونه: ذمه وعابه، الشكل: القيد، من شكل الدابة إذا شد قوائمها، والمعنى: وهل عرفوا أن الجواد السباق كبلته القيود وأذلته الأغلال؟

وأن الحُســـام العَـضْبَ ثـاوٍ بجَـــفْنهِ
ومـــا ذُمّ من غَـــرْبَيْـــهِ قَـــدٌّ ولا قَطُّ[١]؟

☆☆☆☆☆

عليك (أبـا بكر) بَكَرْتُ بهـــــمّـــــةٍ
لهــا الخَطرُ العــالي، وإنْ نـالهــا حَطُّ[٢]
أبي بَعْـــدَ مـــا هِيلَ التُّـــرابُ على أبي
ورهْطِيَ فـــذّاً حـــيثُ لم يبقَ لي رَهطُ[٣]
لك النّعـمــةُ الخَـضــراءُ تَنْدى ظلالُـهـــا
عليَّ، ولا جَـــحْـــدٌ لديَّ ولا غَـــمْطُ[٤]
ولولاك لم تثـــقُبْ زِنادُ قـــريحـــتي
فَـيَنْتَـهِبُ الظلمــاءَ من نارها سِـقْطُ[٥]
ولا ألّـفَـتْ أيـدي الـربـيـعِ بَـدائـعـي
فـمن خـاطري نَثْـرٌ ومن رَوْضِـهِ لَقْطُ[٦]
هرِمتُ ومـــا للشَّـيْبِ وَخْطٌ بِمَـفْـرِقي
ولكنْ لشَـيْبِ الهمّ في كَـبِـدي وَخْطُ[٧]

---

(١) العضب: القاطع، ثاو: مستقر، غربيه: حديه، قد: قطع طولي، قط: قطع عرضي، والمعنى: وهل علموا أن الحسام المرهف مستقر في غمده مع أنه قاطع بتار، والمراد: إنه جواد سباق، لكن لا ينتفع به في الميدان، وسيف بتار ولكن لا ينتضى في القتال. وفي الخريدة «ولا ذم».

(٢) المعنى: لقد قصدتك يا أبا بكر متجهًا إليك بهمة عالية رفيعة، وإن هوت بها الأحداث الجسام، وفي تمام المتون «لها الخطر الغالي».

(٣) آثرنا رواية الذخيرة والخريدة والقلائد وتمام المتون، وفي أصول الديوان «ورهطي مدًا حين لم يهوني» والمد: هو المدد، وفي الذخيرة والقلائد «حين لم يبق لي» وفي أصول الديوان «حين لم يهوني رهط»، والمعنى: أنت أبي بعد وفاة أبي وأنت أهلي حين فقدت أهلي.

(٤) الجحد: الإنكار، الغمط كفران النعمة واحتقارها، والمعنى: لك أياد سابغة ونعم عديدة ترف ظلالها عليّ فلا أستطيع إنكارها أو بخسها حقها، فإنني أهل للإحسان وجدير بأن أشكر مسديه.

(٥) في الذخيرة «تقدح زناد» ثقب: اتقد، سقط: شرر، والمعنى: لولاك ما ذكت قريحتي فبددت غواشي الجهل وهتك نورها أستار الظلام.

(٦) في الخريدة « ... الربيع بدائعي» وفي القلائد «فمن خاطري نظم»، لقط: تناول الشيء بلا مشقة، والمعنى: لولاك ما أبدعت آثارًا فاضت بها خواطري فالتقطها الربيع فأبرزها للأعين نوارًا وأزهارًا.

(٧) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وتمام المتون، وفي الأصول «وكائن لشيب الهم»، الوخط: انتشار المشيب: المفرق «بفتح الراء وكسرها»: وسط الراس الذي يفرق منه الشعر، والمعنى: لقد ضعفت ولحق الشيب قلبي، وإن لم يلحق بشعري.

وطاولَ سوءُ الحال نفسي فأذكرتْ
مَنَى الروضةِ الغنّاءِ طاولها القَحْطُ[1]

مئينٌ من الأيام خمسٌ قطعتُها
أسيرًا، وإن لم يَبْدُ شَدٌّ ولا قَمْطُ[2]

أتتْ بي كما مِيصَ الإناءُ منَ الأذى
وأذهب ما بالثَّوْبِ من دَرَنٍ مَسْطُ[3]

أتدنو قُطوفُ الجنَّتَين لِمَعْشَرٍ
وغايتي السِّدْرُ القليلُ أوِ الخَمْطُ؟[4]

وما كان ظنّي أن تُغَرِّرَ بي المُنَى
وللغِرِّ في العَشْواءِ من ظنّهِ خَبْطُ[5]

أمَا وأرتْنِي النجمَ موطئَ أخْمَصِي
لقد وطَّأتْ خدّي لأخْمَصِ من يخطو[6]

ومُستَبْطِإِ العُتْبَى إذا قلتُ قد أنَى
رِضاهُ تَمادى العَتْبُ واتَّصَلَ السُّخْطُ[7]

---

(١) في الخريدة « .. نفسي فأدركت»، المنى: الموت أو القدر. والمعنى: لقد طالت المصائب عليّ فذكرتني هلاك الروضة الغناء إذا طال عليها القحط، وفي الأصول «من الروضة الغناء» ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) في القلائد والخريدة «مئون» ومع أنها تعرب إعراب المذكر السالم فقد أجاز النحويون إعرابها بالحركات مع التزام الياء، وأجاز المبرد التزام الواو، وفي القلائد «عن الأذى... شد ولا ربط» وفي الخريدة «سر ولا نشط»، القمط: ربط يدي الأسير ورجليه، والقمط: حبل تشد به قوائم الشاة للذبح، والمعنى: طويت خمسمائة يوم أسيرًا بالسجن وإن لم تلتف حولي القيود والأغلال.

(٣) في القلائد والخريدة «كما ميط الإناء» وفي الخريدة «من دنس»، ميص: غسل برفق، ميط: أبعد، الدرن: الوسخ، مسط: بلّ الثوب وعصره لتنظيفه، والمعنى: لقد نقتني هذه المحن وأخلصت نفسي من شوائبها كما ينقى الوعاء من القذى والثوب من الأقذار. ولعل صحة البيت « .. كما ميص الإناء من القذى».

(٤) قطوف: ثمار. السدر: النبق، الخمط: المرّ أو الحامض أو شجر كالسدر، والمعنى: أيظفر بالثمار اليانعة الحلوة قوم لا يستحقونها، ولا أظفر إلا بالنبق أو بكل مر حامض من الثمار؟.

(٥) في أصول الديوان والقلائد «أن تغرّ بيَ المنى» وفي الخريدة «أن تغرنيَ المنى» ولعل الأصح ما أثبتناه، غرّر فلان بنفسه وماله: عرّضهما للهلاك، الغر: الأحمق أو قليل التجربة، العشواء الناقة التي لا تبصر فتتخبط في سيرها، والمعنى: ما كنت أظنني أنخدع بالآمال الكاذبة، وأتخبط في شؤوني كما يتخبط الأعمى في الظلام.

(٦) في الخريدة «أوطأت»، الأخمص: باطن القدم، وطأت: مهدت وهيّأت، والمعنى: لقد خدعتني الآمال فحلقت بي في عنان السماء ثم هبطت بي إلى الحضيض، فجعلت خدّي موطئًا للأقدام.

(٧) في القلائد «أتى رضاه» العتبَى: الرضى، أنى: حان، المعنى: إن صفح الأمير بطيء القدوم، وكلما توقعت حدوثه أمعن في البعاد فاتصل عتابي وتمادى غضبه.

ومـــا زال يُدنيني ويُنْئِي قَـــبـــولَهُ

هَوًى سَـرَفٌ منه وصـاغِـيَـةٌ فَـرْطُ[1]

ونَــظْــمُ ثَــنــاءٍ فـي نِـظـام وَلائِـهِ

تَحَلَّتْ بـه الدنيـــا، لآلِـئُـــهُ وَسْط[2]

على خَـصْـرها منه وِشـاحٌ مُـفَـصَّلٌ

وفي رأسـهـا تـاجٌ، وفي جـيـدها سِـمْط[3]

عـدا سَـمْـعَـهُ عنّي، وأصْـغَى إلى عِـدًا

لـهم في أديمي كلّمـا اسْـتَـمْكنوا عَطُّ[4]

بلغتُ الـمَـدَى - إذ قـصّـروا - فـقلوبُهُمْ

مَكامِنُ أضْـغـانٍ أَسـاوِدُها رُقْط[5]

يُولُّونَنِي عُـرْضَ الكراهَـةِ والقِلى

ومـا دهرُهُمْ إلا النَّفـاسَـةُ والغَـمْط[6]

وقـد وَسَـمُوني بالتي لستُ أهْلَهـا

ولـم يُمْنَ أمْـثـالي بأمْـثالِهـا قَطُّ[7]

---

(١) في القلائد «فينئي قبوله»، وفي الخريدة «فيأبى قبوله»، سرف: مبالغ، صاغية: حاشية وبطانة، فرط: مجاوز الحد، والمعنى: حب الأمير يقربني منه ويطمعني فيه، ولكن حاشية الأمير وبطانته يدسون لي عنده فيتنكر لي ويبادرني بالعقاب.

(٢) في أصول الديوان «ولاية» وقد آثرنا رواية القلائد، وفي نسخة ز والخريدة «تجلت به الدنيا»، لآلائه وسط: كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد أو خير ما فيه، المعنى: أبعدني الأمير عنه استجابة للوشاة والحساد مع أنني نظمت أبدع القصائد منسقة في ولائي له، فكانت حلية على جيد الزمان.

(٣) وشاح: قلادة مرصعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها وكشحها، سمط: عقد، والمعنى: تحلت الدنيا بقصائدي في مدحه، فهي وشاح يضم خصرها وتاج يزين رأسها وعقد يحلي عنقها.

(٤) الأديم: الجلد، عط: تمزيق، والمعنى: أصم سمعه عن عتابي وأصغَى إلى وشايات الأعداء الذين يمزقون سمعتي كلما وجدوا إليها سبيلاً.

(٥) المدى: الغاية، الأضغان: الأحقاد، الأساود: جمع أسود وهو الحية العظيمة، رقط: جمع رقطاء وهي الحية المختلطة السواد بالبياض وتعد من أخبث الحيات.

(٦) القلى: الكره، الغبط: الحسد، وقيل أن يتمنى الإنسان الحصول على مثل نعمة غيره دون أن تزول عن صاحبها، والمعنى: أولاني الحاسدون جانب البغض، ولا عجب فإن حياتهم قائمة على الحقد والحسد.

(٧) في الذخيرة والقلائد والخريدة وتمام المتون «ولما انتموني بالتي...»، لم يمن: لم يختبر، والمعنى: وقد نعتوني بالخيانة ولستُ لها أهلاً، وليس من شأن أمثالي أن يرموا بهذا الخلق الذميم.

فَـــرَرْتُ، فـــإن قـــالوا الـفِـــرارُ إرابَـةٌ
فـقـد فـرّ مـوسى حين همَّ به القِـبْطُ[1]
وإنّي لـراجٍ أنْ تعـــودَ كَـــبَـــدْئِهـــا
لِيَ الشّـيـمَـةُ الزهراءُ والخُلُقُ السَّـبْطُ[2]
وحلمُ امـــرئٍ تعـــفـــو الـذنوبُ بعَـــفْـــوِهِ
وتُمْـحَى الخطايا مِـثْلَ مـا مُـحِيَ الخَطُّ[3]
فـمـا لـكَ لا تَخْـتَـصُّني بشَـفـاعَـةٍ
يلوحُ على دهري لِمَـيْـسَـمِـهـا عَلْطُ؟[4]
يَفِي بنسـيمِ العَنْبَـرِ الوَرِدِ نَفْـحُـهـا
إذا شَـعْـشَعَ المسكَ الأحَمُّ بـهِ خَلْطُ[5]
فـإن يُسْـعِفِ المولى فَنُعْـمى هنيـئَـةٌ
تُنفِّسُ عن نفسٍ أَلَظَّ بـهـا ضَـغْطُ[6]
وإنْ يَأْبَ إلاّ قَـبْضَ مَـبْـسـوطِ فَـضلِهِ
ففي يدِ مَوْلًى فَوْقَهُ القَبْضُ والبَسْطُ[7]

****

(١) في تمام المتون «فإن قيل.. أرابه»، وفي الخريدة «أرى به»، إرابة: اتهام وشك، والمعنى: فررت مضطراً، فإن جعلوا فراري مثبتا للشك في أمري فقد وهموا لأن سيدنا موسى عليه السلام فرّ من مصر خوفاً من فتك الأقباط.

(٢) السبط: السهل أو الحسن أو الكريم، المعنى: إنني أتمنى أن أسترد مكانتي عنده فتزدهرَ طباعي وتكرم خلائقي.

(٣) في القلائد «تعفى الذنوب» وفي الخريدة «وحكم... بعفوه»، وفي الأصول «لعفوه»، تعفو: تزول، المعنى: أرجو أن يشملني الأمير بعفوه فيمحو ذنوبي كما تمحى من الصحف.

(٤) الميسم: المكواة، علط: كيٌّ في العنق، وفي الخريدة «بميسمها غبط»، والمعنى: ما بالك أيها الأمير لا تشملني بشفاعة تردّ عني غوائل الدهر، وتذل لي قياده وتسمه بسمة الذل والهوان؟.

(٥) في الخريدة «... الورد ريحها»، العنبر: الطيب المعروف، أو الزعفران، الورد: الأحمر، شعشع: مزج، الأحمّ: الأسود، والمعنى: أتمنى أن تخصني بشفاعة يفوح أريجها كما يفوح أريج العنبر إذا اختلط به المسك الأسود.

(٦) في القلائد «فنعمى كريمة» وفي الخريدة «لنفسي عن نفس»، وفي نسخة ز «ألطّ بها ضغط»، ألطّ بالأمر: لزمه، وألظ: دام وأقام ومنه قول المعري:

ألظّوا بالقـــبـــيح وتابعـــوه
ولو أمـــروا به لتـــجنبـــوه
نـهـــــاهم عن طلاب المال زهدٌ
ونادى الحـــرص: ويبكم اطلبـــوه

ضغط: ضيق، والمعنى: إذا أسعفني المولى بشفاعته، فهي نعمى كريمة منه تفرج عن نفسي ما لازمها وبرح بها من ضيق.

(٧) المعنى: أما إذا أصرّ، الأمير على أن يبخل عليّ بالشفاعة - وهو الجواد الكريم - فإنني سأسلم أمري إلى خالقي فهو الذي بيده الضر والنفع.

٢ – في عهد أبي الوليد بن جهور

إعراض بعد إقبال[1]

ذهب الشاعر إلى إدريس الثاني الملقب بالعالي سفيرًا لابن جهور، فأطال المكث عنده، وخف على نفسه، وأحضره مجالس أنسه، واستحث الأمير سفيره على العودة فمطله، فعزله الأمير، وأعرض عنه عند عودته، فتزلف إليه الشاعر بهذه الأبيات:

بَنَيْتَ فلا تهدِمْ، ورِشْتَ فلا تَبْرِي
وأمْرَضْتَ حُسّادي، وحاشاك أن تُبْري[2]

أرى نَبوةً لم أدرِ سِرَّ اعْتِراضِها
وقد كان يجلو عارضَ الهمِّ أنْ أدري[3]

جفاءٌ هُوَ الليلُ ادلهمَّ ظلامُهُ
فلا كوكبٌ للعُذرِ في أُفْقِهِ يَسْري[4]

هَبِ العَزْلَ أضحى للولايةِ غايةً
كما غايةُ المُوفي مِنَ الظلِّ أن يُكري[5]

---

(١) هذه القصيدة ساقطة في نسخة ب.

(٢) راش الصديق: أطعمه وكساه وأصلح حاله، وراش السهم: ركب عليه الريش، وبراه: حدّده ونحته، براه السفر: أهزله وأنحله، وحاشاك أن تبري: أنزهك أن تبرئ حسادي وتشفيهم من مرض الحقد عليّ، والمعنى: لقد بنيت مجدي فلا تهدمه، وأصلحت حالي فلا تفسده، وأشقيت حسادي بعطفك عليّ فلا تسعدهم بالإساءة إليّ، ومثله قول عمير بن حباب:

فرِشني بخير طالما قد بريتني
وخير الموالي من يريش ولا يبري

(٣) نبوة: جفوة وبعد، عارض: سحاب معترض في الأفق، والمعنى: أرى منك جفاءً لا أعرف له سببًا، ولو عرفت سببه لاسترحت من الهواجس والظنون.

(٤) في الأصل «حياء هو الليل...» وقد تكون محرفة عن «خفاء» بمعنى غموض موقف الأمير. وقد يكون الصواب ما ذكرناه، والمعنى: إعراضك عنّي جعل حياتي مظلمة كالليل ولا مجال للعذر أن يشرق في هذا الظلام كما تشرق النجوم فتبدد الظلمات.

(٥) يكري: ينقص أو يزيد ضد، والمقصود هنا هو المعنى الأول، والمعنى: إذا كانت الولاية تنتهي بالعزل فهذا أمر متوقع، ولكن ما بال ظلال نعمك السابقة تنحسر عني دون ذنب أو تقصير؟

فَـــــفِــــيمَ أرى رَدَّ الـسّـــلامِ إشـــــارةً

تُسَـــوِّغُ بي إزراءَ من شــــاءَ أنْ يُزري؟[1]

أناسٌ همُ أَخْـــشَى لِلَذعَـــةِ مِــــقْـــوَلِي

إذا لم يكن ممّا فـــعلتَ لهم مُـــضْـــرِ[2]

فـــإن عـــاقتِ الأقـــدارُ فـــالنفسُ حُـــرّةٌ

وإن تَكُنِ العُـــتْــبَى فـأحْــرِ بهـا أَحْــرِ[3]

****

(1) في الأصول «تسوّغ بي الإزراء» ولعل الصواب ما أثبتناه، تسوّغ: تجيز، والمعنى، أراك تتثاقل في رد تحيتي فتتيح بهذا لخصومي أن يتناولوني بالزراية والاستخفاف.

(2) في نسخة ت «فيما فعلت»، مضّري: مغري مأخوذة من أضراه بالصيد إذا أغراه به، والمعنى: لقد أغريت بي حسادي وأتحت لهم فرصة النيل مني، مع أنهم يرهبون بأسي ويخشون لذعات لساني.

(3) العتبَى: الرضاء، أحر بها: أجدر بها، والمعنى: إذا أصررت أيها الأمير على موقفك مني فإنني لن أقبل الضيم والإذلال لأنني حرٌ أبيٌ، وإذا بادرت بالصفح والغفران فأنت أجدر بهما من كل إنسان.

رجاء وإشفاق

ثارت بقرطبة فتنة ضد أبي الوليد بن جهور سنة ٤٤٠هـ تولى كبرها أحمد بن محمد ابن ذكوان وأسرته وابن حذام، وقد لفحت جذوتها ابن زيدون، ففزع إلى الأمير متبرئًا من هذه الفتنة معلنًا ما يضمره له بنو ذكوان من البغض والشنآن.

هَلِ النداءُ - الذي أعلنتُ - مُستَمَعُ؟
أم في المئات التي قَدَّمْتُ مُنْتَفَعُ؟(١)

إنّي - لأعْجَبُ من حظٍّ يُسَوِّفُ بي
كاليأس مِن نَيْلِهِ أن يَجْذِبَ الطَّمع(٢)

تأبَى السُّكونَ إلى تَعْليلِ دَهْرِيَ لي
نفسٌ - إذا خودِعَتْ - لم تُرضِها الخُدَع(٣)

ليس الركونُ إلى الدنيا دليلَ حِجًا
فإنّها دولٌ أيامُها مُتَع(٤)

تأتي الرزايا نِظامًا من حوادثها
إذِ الفَوائدُ في أثنائها لُمَع(٥)

---

(١) المعنى: هل تصغي أيها الأمير إلى ندائي فتستجيب له؟ وهلا ترى نفعًا لي في مئات الأبيات التي صغتها في الثناء عليك أو في مئات الخدمات التي قدمتها لك؟

(٢) المعنى: حظي من رضاء الأمير مضطرب مبهم لا يكاد يجذبني الطمع إليه حتى يصدّني اليأس عنه، فلا أجد راحة اليأس ولا برد الرجاء.

(٣) في نسخة ت «تعليل دهريَ بي»، والمعنى: إنني لا أغتر بالآمال الكاذبة، ولا تنخدع نفسي بما ينخدع به غيري من معسول الوعود.

(٤) المعنى: لا ينخدع العاقل الحكيم بإقبال الأيام عليه، فإنها لا تلبث أن تدبر عنه، فلكل زمان دولة ورجال، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

(٥) المعنى: تأتي الرّزايا متوالية متتابعة وتأتي النعم في أثنائها كالومضات الخاطفة في سواد الليل البهيم، ومثله قول الشاعر:

تأتي المصائب - حين تأتي - جملةً
وأرى السرور يجيء في الفلتات

أهلُ النَّبـــاهـةِ أمـــثـــالي لـدهـرهـمُ
بِقَـصْـرهِمْ دون غـــاياتِ الـمُنَى وَلَـعُ(١)

☆☆☆☆☆

لولا بنو «جَـهْـوَرٍ» مـا أشْـرَقَتْ هِمَـمي
غِـيـدَ السّـوالِفِ، في أجْـيـادِها تَلَـعُ(٢)

هُـمُ المـلـوكُ، مـلـوكُ الأرض دونـهـمُ
كـمـثلِ بيض الليـالي دُونَـهـا الدُّرَعُ(٣)

مِنَ الوَرى، إن يفـوقـوهـمْ فـلا عَـجَبٌ
لِذلك الشَّـهْـرُ من أيّامِـهِ الجُـمَعُ(٤)

قـومٌ مـتى يُحـتـفَلْ في وصف سُـؤدُدِهِمْ
لا يأخُـذِ الوصفُ إلاّ بَعْضَ مـا يَدَعُ(٥)

تَجَـهَّمَ الدهرُ فـانصـاتَت لهمْ غُـرَرٌ
مـاءُ الطلاقـة في أسْـرارها دُفَعُ(٦)

---

(١) بقصرهم: بحبسهم ومنعهم، والمعنى: لقد شغف الدهر بأن يحول بين النابهين وبين بلوغ ما يحبون.

(٢) ورد هذا البيت والبيت التالي له في أصول الديوان بهذا الترتيب:

لولا بنو جـهـور مـا أشـرقت همـمي
كـمـثل بيض الليـالي دونهـا الدرع
هـم الملوك ملوك الأرض دونهـمـو
غـيـد السـوالف في أجـيـادها تلـع

وبهذا الوضع يضطرب المعنى، وقد أصلحنا ترتيبهما بما ينتظم به السياق، وقد ورد البيت الأول في الذخيرة كما أصلحناه، أما البيت الثاني فلم يرد بها، وفي الذخيرة «ما أشرقت همم»، غيد: جمع غيداء وهي الوسنى المائلة العنق، السالفة: جانب العنق من موضع القرط إلى الترقوة، التلع: طول العنق، المعنى: لولا بنو جهور ما ظهرت آثاري رائعة فتانة مختالة كما تختال الغيداء بجيدها الطويل، وتميل بعنقها في تيه ودلال.

(٣) الدرع: سواد الليلة حتى يطلع القمر في أخرياتها، والمعنى: يمتاز بنو جهور عن ملوك الأرض كما تمتاز الليالي المقمرة من أولها إلى آخرها على ليالي السرار التي لا يظهر القمر إلا في أخرياتها.

(٤) المعنى: لقد فاقوا البشر وإن كانوا منهم، كما تفوق أيام الجمع باقي أيام الشهر، ومثل هذا قول المتنبي:

فـإن تـفـق الأنـام وأنـت مـنـهـم
فـإنّ المسك بعض دم الغـزال

(٥) في الذخيرة «متى تحتفل»، والمعنى: مهما تفنن الواصفون في الثناء عليهم فإنهم لا يستطيعون أن يتناولوا إلا بعض ما يستحقونه من حمد وثناء.

(٦) في الأصول «فانصاتت لهم غدر» ولعل الصواب ما أثبتناه، تجهم: عبس، انصات: أجاب وأقبل، الغرر: جمع غرّة وهي الجبين، أسرار: جمع سر وهو الخط بالكف أو الجبهة وجمع الجمع أسارير، دفع: جمع دفعة أي دفقة من الماء أو المطر، والمعنى: تجهم الدهر فتبلجت أسارير وجوهم وترقرق فيها ماء السماحة والجود.

باهَتْ وجـوهُـهمُ الأعـراضَ من كـرمٍ
فكُلّمـا راقَ مَـرْأى طابَ مُـسْـتَـمَعُ[1]

سَـرْوٌ تَـزاحـمَ فـي نَـظْـم المـديـحِ لـهُ
مَـحـاسِنُ الشّـعْـرِ، حـتّـى بينهـا قُـرَعُ[2]

☆☆☆☆☆

«أبو الـولـيـد» قـد اسْـتَـوْفَى مناقـبَـهُمْ
فللتـفـاريق منهـا فـيـه مُـجْـتَـمَعُ[3]

هُـوَ الـكـريمُ الـذي سَـنَّ الـكـرامُ لـهُ
زُهْرَ المسـاعي فلم تَسْـتَـهْـوِهِ البِـدَعُ[4]

من عِـتْـرَةٍ أوْهَمَـتْـهُ في تَـعـاقُـبِـهـا
أنّ المكارمَ إيـصـاءً بـهـا شِـرَعُ[5]

مُـهَـذَّبٌ أخْلَصَـتْـهُ أوّلِيَّـتُـهُ
كـالسَّـيْفِ بالغَ في إخـلاصِـهِ الصَّنَعُ[6]

إنَّ السُّـيـوفَ إذا مـا طابَ جَـوْهَرُها
في أولِ الـطَّبعِ لـمْ يَـعْلَقْ بـهـا طَـبَعُ[7]

(١) المعنى: طابت أخلاقهم كما ازدانت وجوههم، فزكت أخبارهم في المسامع وراقت مشاهدهم للأبصار.

(٢) سرو: شرف، قُرع: جمع قرعة، وهي السهمة التي يقترع عليها لاستخراج النصيب في الميسر وأمثاله، والمعنى: تتزاحم القصائد في الثناء على مكارمه، فإذا اشتد بينها الزحام اقترعت فيما بينها على من يفوز به.

(٣) في الذخيرة «استوفى مناقبه»، والمعنى: إن المكارم المتفرقة في شتى الملوك قد اجتمعت فيه وحده فاستوفى جميع المكرمات.

(٤) البدع: المستحدثات المخالفة للتقاليد، وفي الحديث الشريف «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، والمعنى: لقد تابع الأمير – في الحرص على المآثر والمكرمات – ما سنّه له اباؤه السابقون، فلم يندفع وراء المستحدثات التي تستهوي بمظاهرها السطحيين.

(٥) العترة: الأهل الأقربون، شِرع: جمع شرعة أي مذهب أو منهج، والمعنى: لقد انحدر هذا الأمير من سلالة كريمة لقنته أن أداء المكرمات واجب لا يقل عن أداء مناسك الدين.

(٦) الصنع: الماهر الحاذق، والمعنى: إن آباءه هذبوه وربوه على أنبل الطباع وأجمل السجايا كما يتفنن الصانع الماهر في صياغة السيف نقيًا من الشوائب والعيوب.

(٧) الطبع: الصنع مأخوذ من طبع الصانع السيف والدرهم وعملهما، الطبَع: الصدأ أو العيب والشين، والمعنى: إن ابن جهور كريم الأصل عريق النسب، لا تلحق به شائبة، كالسيوف النقية العنصر، تأتي عند تمام صناعتها بديعة الجوهر صقيلة الحد، وفي الذخيرة «متى ما طاب».

جـــذلانُ يَسْــتَــضْــحِكُ الأيّامَ عن شِـيَـمٍ
كـــالرَّوض تضـحـكُ منه في الرُّبا قِطَعُ[١]

كـــالبــــاردِ العَـــذْبِ لذّتْ من مَـــواردِهِ
لشـاربٍ - غِبٌّ تَبْـريحِ الصَّـدى - جُـرَعُ[٢]

✲✲✲✲✲

قُلْ لـلوزيـر الـذي تـأمـــــيـلُـهُ وَزَري
إنْ ضـــاقَ مُـــضْطَرَبٌ أو هـالَ مُطَّلَعُ[٣]

أصِخْ لِهَـمْسِ عِـتــاب تَحْـتَـهُ مِـقَـةٌ
تُكَلِّفُ النفسُ منه فـــوق مــــا تَسَعُ[٤]

مـا للمَـتـابِ - الـذي أحْـصَـفْتَ عُـقْـدَتَهُ -
قد خـامَرَ القلبَ من تضـيـيـعـهِ جَزَعُ؟[٥]

لـي في الـمُـــوالاة أتْبـــاعٌ يســـرّهمُ
أنـي لـهـم - في الـذي نُجْــزَى بـه - تَبَعُ[٦]

ألستُ أهلَ اخـتــصــاصٍ منكَ يُلْبِـسُني
جـمـالَ سـيـمـاهُ؟ أم مـا فِيَّ مُـصْطَنَعُ؟[٧]

---

(١) المعنى: متهلل الوجه ضاحك الأسارير يهزّ الأيام بأريحيته فتفتر عن خلائق باسمة كما تفتر الربا عن أزهار الرياض.

(٢) غب: عقب، الصدى: الظمأ، المعنى: أفضال الأمير تشارف النفوس الوالهة فتسعدها كما ينقع الماء العذب الزلال غلة العطشان.

(٣) الوزر: الملجأ، مضطرب: مكان السير في الأرض، مطلع: مكان الصعود أو موضع عال، المعنى: إن الوزير هو ملجئي ومفزعي إذا اكتفتني الأحداث وروعتني الخطوب.

(٤) أصخ: أصغ، مقة: حب، في الأصول «وكلف النفس منها» وقد آثرنا رواية الذخيرة، وفي بعض نسخ الذخيرة «تكلف النفس فيه»، والمعنى: آمل أن تستمع أيها الأمير إلى عتابي المنبعث عن حبي لك وإعجابي بك هذا الحب الذي يجعلني أحتمل في سبيلك فوق ما أطيق من كيد الحاسدين.

(٥) في الذخيرة «ما للمتات...» المتات: الرابطة أو الصلة أو النسبة، أحصف: أحكم، والمعنى: لقد عقدت توبتي على يديك فتوثقت بيننا العهود، ولكنني أصبحت أشفق من أن تفصم ما بيننا من صلات.

(٦) المعنى: لقد سبقت كثيرين في خدمتك والولاء لك، وهم يجدون السرور البالغ في أن يسبقوني في نيل برك والظفر بنعمائك فيكيدون لي عندك لتصرف عني إليهم.

(٧) السيما والسيمياء: المظهر والعلامة، مصطنع: موضع للإحسان، المعنى: كيف تتصرف عني إلى هؤلاء الحاسدين؟ ألست من خاصتك المتميزين بجمال موالاتك؟ أم أنا غير جدير منك بالرعاية والإحسان؟

لم أُوتَ في الحالِ - من سعيي لديك - وَنًى
بل بالجُـــدود تَطيــرُ الحـــالُ أو تَقَعُ[١]
لا تَسْــتَـجِـزْ وَضْعَ قَـدْري بعـد رَفْـعِكَهُ
فــــاللّهُ لا يرفعُ الـقَــــدْرَ الـذي تَضَعُ[٢]
تـقــــــدّمَتْ لـك نُعْــــــمَى رادَهـا أملـي
في جــــانبٍ هُوَ لـلإنسـانِ مُنْتَــجَعُ[٣]
مــا زال يُونِقُ شُكري في مــواقــعــهـا
كــالـمُــزْنِ تُونِقُ في آثارِهِ التُّـــرَعُ[٤]
شُكْرٌ يروقُ ويُرضي طيبُ طُعْــمَــتِــهِ
في طَيِّـــهِ نَفَــحــاتٌ بينَهـــا خِلَعُ[٥]
ظنّ العــدا - إذْ أَغَـبَّتْ - أنّهــا انقطعتْ،
هيــهــاتَ ليس لِمَــدِّ البــحــرِ مُنْقَطَعُ[٦]
لا بأسَ بالأمــر - إنْ ســاءتْ مــبــادئُهُ
نَفْسَ الشَّـقـيقِ - إذا مـا سَـرَّتِ الرُّجَعُ[٧]

☆☆☆☆

(١) الونى: الفتور أو التواني أو الكلال، الجدود: الحظوظ، المعنى: لم أقصر في سعي إليك ولا توانيت في خدماتك، ولكن الحظوظ ترفع من ترفع وتخفض من تخفض دون تقدير أو حساب.

(٢) المعنى: لقد رفعتني إليك وقربتني منك فلا تبدل إحسانك إليّ، فإن الله لا يرفع من تخفضه ولا يقرب من تبعده.

(٣) رادها: تقدمها مأخوذة من راد المكان حاول كشفه ومعرفة ما به من الكلأ، منتجع: مكان النجعة وهي المرعى، والمعنى: لقد قادني أملي إليك فصادفت عندك مكانًا مأهولاً ومرتعًا خصيبًا.

(٤) يونق: يعجب، المزن: السحاب أو المطر، الترع: جمع ترعة وهي الروضة في المكان العالي، أو فوهة الجدول، والمعنى: كلما غمرني إحسانك أينع شعري في الثناء عليك كما تونق الرياض في أعقاب الأمطار.

(٥) المعنى: رق شكري وراق لأفضالك السابغة عليّ، فأصبح طيب المذاق عذب النفحات، يخلع على الممدوح حللاً فاخرة من الثناء لا يبليها الزمان.

(٦) أغبّت: تأخرت حينًا، المعنى: إذا أعرضت عني حينًا فلا يظنن الأعداء أنها جفوة منك، فإن إحسانك إليّ سيتصل كما يتصل المدّ بعد الجزر على ساحل البحار.

(٧) المعنى: قد تسوء المبادئ ثم تحسن الخواتم، ولا بأس في هذا فالعبرة بحسن الخواتيم.

إنّ الأُلى كنتُ – من قَـبْلِ افْـتِـضـاحِـهِمُ –
مِـثْلَ الشَّـجَى في لُهـاهُـمْ ليس يُنْتَـزَعُ[1]

لـم أحْظَ – إذ هم عِـدًا بادٍ نفـاقُـهـمُ –
إلاّ كـمـا كنتُ أحْظَى إذ هـمُ شِـيَـعُ[2]

مـا غـاظهم غـيـر مـا سَـيَّـرْتُ من مِـدَحٍ
في صـائِكِ المسكِ من أنفـاسِـهـا كَنَعُ[3]

كم غُـرَّةٍ لي تَلـقَّـثْـهـا قلوبُهُمُ
كـمـا تلقّى شِـهـابَ المُـوقِـدِ الشَّـمَعُ[4]

إذا تـأمَّلْتَ [نصـحي] غِبَّ غِـشِّـهِمُ
لم يَخْفَ من فَلَقِ الإصْـبـاحِ مُنصَـدِعُ[5]

تلك العَـرانـينُ لم يصلُحْ لـهـا شَـمَمُ
فكان أهْوَنَ مـا نِيلَتْ بهِ الجَـدَعُ[6]

أوْدَعْتَ نُعْـمَـاكَ منهمْ شَـرَّ مُـغْـتَـرَسٍ
لـن يَكْرُمَ الغَـرْسُ حـتى تَكْرُمَ البُـقَـعُ[7]

---

(١) يعرض في هذا البيت ببني ذكوان ويذكر أنه كان موضع عداوتهم أو كالغصة في حلوقهم قبل أن يفتضح أمرهم ويجاهروا الأمير بالعداء.

(٢) المعنى: مالي لا أظفر بالحظوة عندك بعد انكشاف أمر بني ذكوان؟ فإن حظي منك بعد افتضاح أمرهم هو حظي منك قبل تظاهرهم لك بالمحبة والولاء.

(٣) صائك: لاصق، كنع المسك بالثوب: لزق به، والمعنى: إن بني ذكوان يحسدونني على ما أبدعت في مدحك من قصائد طيبة النفحات تنفح أنفاسها المسك فتمنحه أذكى العبير.

(٤) المعنى: إن قلوبهم تتلظى بالحقد عليّ فكلما أبصروا طلعتي ذابت قلوبهم حسدًا وضغينة كما يذوب الشمع في النار.

(٥) المعنى: إذا تأملت ولائي لك بعد انكشاف نفاقهم وغشهم أدركت من هو الجدير بالرعاية والتكريم، فهيهات يخفى انبلاج الصباح، وكلمة «نصحي» وردت ناقصة في الأصول.

(٦) العرانين: جمع عرنين، وهو أعلى الأنف أو ما صلب منه، الشمم: ارتفاع قصبة الأنف، الجدع: القطع، والمعنى: إن أنوفهم لم تخلق لترتفع في شمم وإباء، فإذا حاولوا هذا فإن أخف عقاب يستحقونه هو قطع هذه الأنوف.

(٧) مغترس: مكان الغرس، المعنى: لقد غرست جميلك منهم في أرض خبيثة غير صالحة للإنبات، ولن يثمر الغرس إلا إذا طابت التربة والمناخ.

لقـــد جَـــزتْهُمْ جَـــوازي الدَّهْرِ عن مِنَنٍ

عَــفَتْ، فلم يثنِهمْ عن غَـــمْطِهـــا وَرَعُ[1]

لا زال جَـــدُّكَ بالأعــــداءِ يَصْـــرَعُـــهُمْ

إنْ كـــان بـينَ جُـــدودِ النَّاسِ مُـــصْطَرَعُ[2]

****

(١) عفت: كثرت وطالت، أو درست وبليت، والمقصود هنا هو المعنى الأول، غمطها: بخسها، والمعنى: لقد استحقوا شر الجزاء لأنهم كفروا بأنعمك السابغة عليهم، ولم يحجزهم عن جحود إحسانك إليهم ورع أو تقوى أو ضمير.

(٢) جدك: حظك، المعنى: أسأل الله أن ينصرك على أعدائك ويرفع حظك فوق جميع الحظوظ.

٣ – في عهد المعتضد بن عباد

نفي وإعراض

على الرغم من مكانة الشاعر عند المعتضد فقد لفحته إحدى نزواته، فأقصاه إلى مكان مقفر، فعاتبه الشاعر بقصيدة ضاع معظمها، ولم يبق منها إلا هذه الأبيات:

ولما قَضَيْنا من «دُوَيْرٍ» إجازةً
تَحَدَّرَ دمعُ المُقْلَةِ المُتَرَقْرِقِ[١]

ومنها:

أعَبَّادُ حتَّى من هِباتِكَ مُخْلِصٌ
وَدودٌ؟ ومِنْ عافيكَ بَيْداءُ سَمْلَقُ؟[٢]
تَعَوَّدْتَ بَذْلَ المُنْفِساتِ فجُدْتَ بي
وإنّي بصَوْنٍ منكَ أَحْرَى وأخْلَقُ[٣]

ومنها:

وما كان ظنّي أن أُرى مُتَقَحِّمًا
مُسَنَّاةَ مَحْمومٍ أَخُبُّ وأُعْنِقُ[٤]

****

(١) المعنى: حينما اجتزنا دويرا – لعله النهير الصغير الموجود بالشمال الغربي لشبه جزيرة إيبيريا – فاضت دموعي.

(٢) العافي: الفقير السائل، بيداء سملق: صحراء مقفرة، والمعنى: لقد تعوّدت أيها الأمير الكرم والسخاء، ولكن أيبلغ بك السخاء أن تجود بتابعك المخلص الوفيّ على الصحارى المجدبة؟

(٣) المعنى: لقد اعتدت أن تهب كل غال ثمين، وجريت على عادتك فجدت بي على الصحراء مع أنني جدير منك بالحفظ والصيان.

(٤) التقحم: الدخول في الأمر دون رويّة أو تفكير، المسناة: السد المائي، الخبب والإعناق ضربان من السيرّ السريع، والمعنى: ما كنت أتوقع أن تبعدني عنك فأجد نفسي أتخبط في البوادي منتقلاً منها إلى «مسناة محموم» مسرعًا في السير في عجلة وإشفاق.

٤ - في عهد المعتمد بن عباد

انتهز حساد الشاعر فرصة موت المعتضد بن عباد وولاية ابنه المعتمد الحكم، فنسبوا إلى الشاعر بيتين في هجاء المعتضد، ثم قدموا إلى المعتمد رقعة حرضوه فيها على الفتك بشاعره ووزيره وكانت الرقعة تحمل هذه الأبيات:

(يـأيـهـــــــــا المـلـكُ الـعـلـيُّ الأعـظـمُ
إقــطَـــعْ وريـــدَيْ كــلِّ بـــاغٍ يَــنْـــئِـــمُ[١]
واحِــــسمْ بـســــــيــــفكَ داءَ كلِّ منافقٍ
يُبْـــدي الجـــمـــيلَ، وضِـــدٌّ ذلك يَكْتُمُ[٢]

٭٭٭٭

لا تحــــــــقِــــــــرنَّ منَ الـكـلامِ قـلـيـلَـهُ
إنَّ الـكـلامَ لـه ســــــيـــــــوفٌ تَـكْـلِمُ[٣]
والـــمَلْكُ يـحـــــــمي مُلـكـهُ مـن لـفـظـةٍ
تســـري فـــتُـــجلَى عن دواهٍ تَعْظُمُ[٤]
فــضـــلاً عنِ الكلِم الذي قـــد أصـــبــحتْ
غـــــوغــــاؤنا جـــــهـــــرًا بـه تتكلَّمُ[٥]

---

(١) في الإحاطة «الأعز الأعظم»، الوريدان: عرقان من العنق، باغ: ظالم، ينم وينأم: يئن أو يصوّت، والمعنى: أيها الملك السامي الرفيع اضرب عنق كل ظالم دساس.

(٢) احسم: اقطع، والمعنى: عالج بسيفك أمراض المنافقين الذين يظهرون الود ويخفون ألد العداء.

(٣) تكلم: تجرح، والمعنى: لا تستخفن بالكلام اليسير، فمن الكلام ما يقود إلى الهلاك والوبال.

(٤) المعنى: إن الملك الحصيف العاقل هو الذي يحمي عرشه من كلمة تذاع وتنتشر بين الرعية فتتكشف عن أخطار جسيمة لم تكن في الحسبان، وفي الإحاطة «عن لفظة».

(٥) يشيرون بهذا إلى ما نسبه الرواة إلى ابن زيدون في هجاء المعتضد إذ يقول:

لقـــد ســـــرّنـا أن النـعـيّ مـــــوكَّلٌ
بطاغـــيـــة قـــد حُمَّ منه حِــمـــامُ
تجـانف صـوب الغـيث عن ذلك الصـدى
ومـــرّ عليـــه البـــرق وهو جـــهـــام

ويذكـرون أن هذا الهـجاء ذاع على ألسنة العامـة والغوغاء، والكلم: جـمع كلمـة ولا يقل عن ثلاث كلمـات، ويجـوز فيـه التذكير والتأنيث.

فـــــالـلـهُ يـعـلـمُ أنَّ كـلَّ مُــــــؤمِّلٍ
مــــثلي على حـــذَرٍ وخـــوفٍ منهمُ[1]
فـــالدمعُ من أجـــفـــاننا مـــتـــهلّلٌ
والنارُ في أحـــشـــائنا تَتَـــضَـــرَّمُ[2]

☆☆☆☆

ولقـــد علمتَ - ولن نبـــصِّـــرك الهُـــدَى
فـــلأنتَ أهْدَى في الأمـــورِ وأحْـــزَمُ[3]
أنَّ الملوكَ تـخـــــافُ من أبـنـائـهــــا
فـتُـحِلُّ من مُـهْـجـاتِهِمْ مـا يَحْـرُمُ[4]
ولذاك قـــيل: «الـمُلْكُ أعـــقمُ، لم يزلْ
فــيـــه الوليُّ يدير حـــربًا تُضـــرَمُ»[5]
فـــاحـــسِمْ دواعِيَ كلِّ شـــرٍّ دونهُ
فـــالداءُ يســـري إن غـــدا لا يُحـــسَمُ[6]
كم سَـــقْطِ زندٍ قـــد نما حـــتى غـــدا
بُـركـــانَ نـارٍ كـلَّ شـيءٍ يَـحْـطِـمُ[7]

(١) المعنى: يعلم الله أنَّ كل محب لكم أصبح يشفق من تداول هذا الهجاء على ألسنة الغوغاء.

(٢) المعنى. لقد فاضت أجفاننا بالدموع والتهبت قلوبنا بالآلام حذرًا على هذا الملك الشامخ وغيظًا من الشاعر الجاحد للجميل.

(٣) في القلائد والإحاطة «أهدى في الأمور وأعلم».

(٤) المعنى: كثيرًا ما يبطش الملوك بأبنائهم إذا رأوا في بقائهم خطرًا على عروشهم، وهم في هذا يعرضون بفتكة المعتضد بابنه وولي عهده إسماعيل بن عباد.

(٥) في القلائد «يثير حربا»، الملك أعقم: في الأمثال «الملك عقيم» أي لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل في طلبه الأب والولد والأخ والعم، والمعنى: لا ترع في المحافظة على ملكك روابط الصداقة والمودة، فإن حماية الملك تستدعي أن يتنكر الإنسان في سبيلها لأقرب المقربين إليه من ولده وعشيرته، فكيف بالأصدقاء؟

(٦) احسم: اقطع، والمعنى: بادر بحسم الداء قبل أن يستحكم ويستشري فيعز الدواء.

(٧) السقط: ما يتطاير من الشرر، الزند: العود الذي تقدح به النار، والمعنى كم تنبعث النيران اللافحة من شرارة صغيرة يستهين بشأنها الإنسان، «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

وكـــذلك السَّـــيلُ الجُـــحــــافُ، فـــإنما
أُولاه طـلٌّ ثـمَّ وَبـلٌ يُـثْـــــجِـمُ(١)

والمـالُ يُخْـــرِجُ أهلَه عـن حـــدِّهـمْ
فـــافـــهـمْ فـــإنك بالبـــواطنِ أفْـــهَمُ(٢)

واذكُـــرْ صـنـيـعَ أبـيـك أوّلَ أمــــرِهِ
في كلِّ مـــتَّـــهَمٍ فـــإنـك تَـعْـلَمُ(٣)

لـم يُبْـقِ مـنـهـمْ مـن تـوقّـعَ شــــرَّهُ
فـــصـــفتْ لـه الـدنـيـــا، ولَـذَّ الـمَطعمُ(٤)

فـــعـــلامَ تنكُلُ عـن صنيـعِ مـــثلِهِ
ولأنت أمـــضى في الخطوب وأشْـــهَمُ(٥)

وَجَـنـانُـكَ الـثَّـــبْتُ الـذي لا يـنـثـني
وحُـــســـامُكَ الـعَـــضْبُ الذي لا يَكهَمُ(٦)

والحـــالُ أوسعُ، والعـــوالي جـــمّـــةٌ
والمجـدُ أشـــمخُ، والصَّـريمةُ ضَـيْـغَمُ(٧)

لا تـتـــركَنْ للناس مـــوضعَ شـــبـــهـــةٍ
واحـــزِمْ، فـــمِـــثلُكَ في العظائم أحْـــزَمُ(٨)

---

(١) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفي الأصول «ولذلك السيل»، السيل الجحاف: الذي يجرف في سبيله كل شيء، الطلّ: أضعف المطر، الويل والوابل: المطر الشديد، أنجمت السماء: أسرع مطرها ودام، وفي القلائد والإحاطة «وبل يسجم» من سجم الدمع أو السحاب إذا سال، والمعنى: إن المطر الخفيف إذا دام أصبح سيلاً جارفًا، وكذلك المطر يبدأ خفيفًا ثم يهطل غزيرًا، فلا تستهن بكلمات قليلة تجر بلاء كثيرًا.

(٢) المعنى: لقد غمرت الشاعر بنعمائك فكفر بها، ولا عجب فوفرة الأموال تدفع الإنسان إلى الغرور وتغيّر طبائعه فتورده موارد الهلاك.

(٣) في القلائد «أول مرة»، والمعنى: اقتد بأبيك في فتكه بحاشيته في بدء ولايته، فقد فتك بوزير أبيه حبيب كما قضى على كثير من بطانته وأقاربه، وأخبار فتكاته مشهورة «راجع كتابنا: ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه ص ٤١ - ٤٣».

(٤) المعنى: لم يترك أبوك أحدًا من حوله يخشى انتقاضه عليه، ولهذا صفت له الدنيا واستقرّ السلطان.

(٥) تنكل: تجبن أو تتأخر، والمعنى: كيف تتأخر عن الاقتداء بأبيك؟ مع أنك أمضى عزمًا وأشجع قلبًا.

(٦) الجنان: القلب، العضب: القاطع، يكهم: يكل، والمعنى: كيف يفلت منك هذا الجاحد؟ مع أن قلبك شجاع لا ينثني، وسيفك قاطع بتار لا يكل ولا ينثني ولا يلين.

(٧) العوالي: جمع عالية وهي أعلى القناة أو رأسها أو النصف الذي يلي السنان، أشمخ: أعلى، الصريمة: العزيمة، الضيغم: الأسد، والمعنى: كيف تقرّ هذا وملكك أوسع مدى، وسلاحك أكثر عددا، ومجدك أرفع منزلة، وعزيمتك كعزيمة الأسد في المضاء؟

(٨) في الذخيرة «لا تتركن للنشء»، وفي القلائد «موضع تهمة»، وفيها وفي الإحاطة «مثلك في العظائم يحزم»، والمعنى: لا تبق للنفوس مجالاً للشك في عزمك ومضائك، وخذ الأمور بالحزم فأنت بالحزم جدير.

قــد قـــال شـــاعِــرُ كندةٍ في مـــا مــضـى

بيـــتًـــا علـى مــــرّ الليــــالي يُعلَمُ[1]

«لا يسلمُ الشَّـــــرفُ الرفـــــيعُ من الأذى

حـــتى يراقَ علـى جــــوانِبِــــهِ الدمُ»[2]

فـــأجـــعلـه قُـــدوتَكَ التي تعــتـــادها

في كلِّ من يـبـــــــغي، ورأيُكَ أحْـكَمُ[3]

واسلـم علـى الأيَّامِ، إنَّك زَيْـنُـهـــــــا

وجـــمـــالُهـــا، والدهرُ دونَكَ مـــأتمُ[4]

☆☆☆☆

لا زلت بالـنصـــر الـعـــزيز مُـــهَنَّأً

والدِينُ عن مَـحْـمـودِ سَـعْـيِكَ يَبْـسِمُ[5]

وعَـــــدَتْ علـى الاعـــــداء منك رزيّـةٌ

لا يُسْــتَـــقَلُّ بهـــا، وخطبٌ صَـيْلَمُ[6]

وُوقـــيتَ مكروهَ الحـــوادثِ، واغْـتَـدَتْ

طيـــرُ السُّــعـــود بأيْكِكُمْ تَتَـرَنّمُ[7]

---

(١) في الذخيرة «إذ قال شاعر كندة» وفي الإحاطة «قولاً على مرّ الليالي»، وشاعر كندة هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، منسوب إلى المحلة التي ولد بها «كندة» قرب الكوفة.

(٢) البيت من قصيدة للمتنبي، في هجاء ابن كيغلغ ومدح أبي العشائر، ومعناه: لا يسلم الشريف من ملاحاة الأعداء حتى يريق منهم في سبيل المحافظة على شرفه الدماء.

(٣) المعنى: اقتد بهذا البيت الحكيم، واتبعه في تأديب كل باغ أثيم.

(٤) المأتم كل مجتمع في حزن أو فرح، أو خاص بالنساء أو الثواب، وقد أصبح يستعمل في المناحات، والمعنى: نرجو لك السلامة من الفتن والدسائس مدى الحياة فإنك بهجتها وجمالها، والدهر مثل المأتم إذا خلا منك.

(٥) آثرنا رواية القلائد وفي الأصول «فالدين عن محمود سعيك»، المعنى: ندعو لك بأن تظلّ أبدًا مهنأ بالنصر على الأعداء، حاميًا للدين معزًا له حتى يزدهر في عهدك السعيد.

(٦) في القلائد: لا تستقل بها، الصيلم: الداهية أو الأمر الشديد، والمعنى: نسأل الله أن يجعلك نكبة على الأعداء لا يستطيعون النهوض بعدها، وأن يرميهم منك بداهية تقضي عليهم كل القضاء.

(٧) الأيك: الشجر الكثير الملتفّ، والمعنى: ندعو الله أن يحميك من الحوادث الكريهة، وأن يجعل طيور السعادة تشدو في رياضك الفيحاء.

فلما قرأها المعتمد أبى عليه نبله ووفاؤه لشاعره وأستاذه ووزيره أن يتأثر بهذه الدسيسة، ووقع على ظهر الرقعة بهذه الأبيات:

[كذبتْ مُناكمْ، صَرِّحوا أو جَمْجِموا
الدِينُ أمتنُ، والسجيّةُ أكرم(١)
خُنتُمْ، ورُمْتُمْ أن أخونَ، وإنما
حاولتمو أن يُستخَفَّ يَلَمْلَمُ(٢)
وأردتمو تضييقَ صدرٍ لم يضقْ
والسُمْرُ في ثُغَرِ الصُدور تُحَطَّمُ(٣)
وزحفتمو بمِحالِكُمْ لمجرِّبٍ
ما زال يثبتُ للمِحالِ فَيَهْزِمُ(٤)
أنَّى رجوتمْ غدرَ من جرّبتمو
منه الوفاءَ. وظلمَ من لا يظلِمُ؟(٥)
أنا ذلكم، لا البَغْيُ يُثمرُ غرسُهُ
عندي، ولا مَبْنَى الصّنيعَةِ يُثلمُ(٦)
كُفّوا، وإلا فارقبوا ليَ بطشةً
يُلقَى السَّفيهُ بمثلها فَيُحَلَّمُ](٧)

---

(١) في بعض نسخ الذخيرة «والمروءة أكرم»، وفي الإحاطة «فالدين أمتن»، جمجم الكلام، لم يبينه، المعنى: لقد خابت آمالكم في حملي على الغدر بالصديق سواء صرحتم بأهدافكم أو أخفيتموها، فإن لي دينا يعصمني من الظلم ومروءة تحميني من الغدر.

(٢) في القلائد «وربما .. حاولتمو»، يلملم: جبل على مرحلتين من مكة، المعنى: جاهرتم بالخيانة، وحاولتم حملي عليها دون جدوى فهيهات أن تخف الجبال الراسيات.

(٣) القلائد والإحاطة «والسمر في ثغر النحور»، السمر: الرماح، المعنى: حاولتم إثارتي مع أن صدري واسع وحلمي راسخ وجناني ثابت إذا قامت الحروب وأزهقت فيها النفوس.

(٤) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفي الأصول «وزحفتم، بمجالكم»، في الذخيرة «ورجعتمو بمجالكم.. في المجال فيهزم» المحال: الكيد والمكر والدسّ، أو القوة والشدة، المعنى: لقد حشدتم كيدكم وحاولتم التأثير فيّ بمكركم ودسائسكم، وفاتكم أنني خبرت الدهر وتمرست بالشدائد فلا تؤثر في نفسي المكائد والوشايات.

(٥) في الذخيرة «وجور من لا يظلم»، المعنى: لقد جربتم وفائي وعدلي فكيف تحاولون حملي على الغدر والظلم وأنا منهما بعيد؟

(٦) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفي الأصول «أنا ذاكم» وفي بعض نسخ الذخيرة والقلائد والإحاطة «ولا مبنى الصنيعة يهدم»، الصنيعة: الإحسان، المعنى: أنا الوفي العادل لا أصغي للدسائس ولا أهدم ما شيدت من إحسان.

(٧) في الإحاطة «يبقى السفيه بمثلها يتحلم»، المعنى: كفوا عن دسائسكم وإلا فترقبوا مني عقابا صارما يردع عن غيه كل جاهل غشوم.

فلما علم ابن زيدون بهذا الموقف النبيل من صديقه وأميره اهتزت نفسه لهذه الاريحية العظيمة وصاغ فيه هذه القصيدة:

الدهر - إنْ أمْلَى - فصيحٌ أعجمُ
يُعطي اعتباري ما جهلتُ فأعلمُ[(١)]
إن الذي قدَر الحوادثَ قَدْرَها
ساوى لديه الشُّهدَ منها العَلقمُ[(٢)]
ولقد نظرتُ فلا اغترارٌ يقتضي
كَدَرَ المالِ ولا توقٍّ يَعْصِمِ[(٣)]
كم قاعدٍ يحظى تَعَجُّبُ حالُهُ
من جاهدٍ يصلُ الدؤوبَ فيُحْرَم[(٤)]
وأرى المساعي كالسيوف تبادرتْ
شأوَ المَضاء، فمُنْثَنٍ ومُصَمِّم[(٥)]
ولَكَمْ تَسَامى بالرفيع نِصابُهُ
خطرٌ فناصبَهُ الوضيعُ الألأم[(٦)]
وأشدُّ فاجئةِ الدواهي محسنٌ
يسعى ليُعْلِقَهُ الجريمةَ مُجرمُ[(٧)]

---

(١) الاعتبار: الاتعاظ أو القياس العقلي، المعنى: الدهر أبلغ الحكماء وإن كان صامتا، فإن أحداثه وعظاته تنير أمامي السبل وتعلمني ما لم أكن أعلم، وفي القلائد «الدهر إن أسأل...».

(٢) المعنى: إن الذي يتعمق في فهم الأمور ويدقق النظر في فلسفة الحياة يجد الحلو فيها مثل المرّ، والشقاء كالنعيم، فكثيرا ما تتكشف بواطن الأمور عما يناقض ظواهرها، فمن الحكمة ألا يغتر الإنسان بالظواهر، وفي القلائد «وإذا الفتى...».

(٣) الاغترار: عدم الاحتراس، المعنى: لقد تدبرت الأمور فوجدت أنّ عدم الحذر لا يجلب العطب، وأن الاحتراس لا يكفل السلامة ولا يعصم من الأقدار، وفي القلائد «وإذا نظرت... كنه المال».

(٤) في القلائد «.. تعجل حظه... يصل الدروب»، والمعنى: كم قاعد ينال أوفر الحظوظ، وكم مكافح مجاهد تكون نتيجة سعيه الحرمان.

(٥) المعنى: قد تصيب المساعي الحثيثة، وقد تخيب، شأنها في هذا شأن السيوف المرهفة، فمنها ما ينفذ في الجسوم ومنها ما ينثني أو يصيبه الكلال.

(٦) الخطر: الشرف وارتفاع القدر، والمعنى: كم ارتفع شأن الرجل الخطير فنافسه الوضيع اللئيم، وربما امتاز عنه لاختلال موازين الحظوظ.

(٧) في القلائد «فيعلقه الجريمة»، والمعنى: أفدح المصائب المباغتة هي التي يرمي المجرم فيها المحسن بأشنع الجرائم زورًا وبهتانًا.

تَلْقَى الحَسُودَ أصمَّ عن جَرْسِ الوفا

ولقد يُصيخُ - إلى الرُّقاةِ - الأرقمُ[(١)]

☆☆☆☆☆

قُلْ للبُغاةِ المُنبضينَ قِسِيَّهُمْ

سَتَرَوْنَ مَنْ تُصْمِيهِ تلك الأسهم[(٢)]

أسْرَرْتُمُ فرأى نَجِيَّ غيوبكمْ

شَيْحانُ مدلولٌ عليها مُلهَم[(٣)]

وعبأتمُ للفِسق ظُفْرَ سِعايةٍ

لم يعْدُكُمْ أن رُدَّ وَهْوَ مُقَلَّم[(٤)]

ونبذتم التَّقوى وراء ظهوركمْ

فغدا نقيضَكمُ التقيُّ الأكرم[(٥)]

ما كان حِلم «محمّدٍ» ليُحيلَهُ

عن عهده دَغِلُ الضَّمير مُذَمَّم[(٦)]

مَلِكٌ تطلّع للخواطرِ غُرّةً

زهراءَ يبديها الزّمانُ الأدهمُ[(٧)]

---

(١) في القلائد «جرس الرقى»، يصيخ: يستمع، الرقاة: الذين يتلون التعاويذ ويعلقون التمائم، الأرقم: حية في جلدها بياض وسواد، وهي أخبث الحيات، والمعنى: قد تستمع الحيات إلى صاحب التعاويذ، ولكن الحسود يصم أذنيه عن الاستماع إلى أصوات الوفاء.

(٢) أنبض الرامي القوس وعن القوس: جذب وترها لتصوّت، تصميه: ترميه رمية قاتلة، وفي الذخيرة «المنتضين قسيهم» مأخوذة من انتضى السيف: سلّه، والمعنى: قل للذين يعدون أسهمهم لقتلي سترون كيف ترتد إليكم سهامكم.

(٣) في الأصول «أمررتمُ فرأى... عيوبكم» وقد آثرنا رواية القلائد، وفي الذخيرة «رأى نجيًّ عيونكم» أي مناجاة لحاظكم، وفي القلائد «ملموم عليها»، الشيحان: الحازم، والمعنى: أخفيتم مكركم ودبرتم المكايد فكشفها الأمير بفطرته الملهمة وتدبيره الحكيم.

(٤) في القلائد «إذ ردّ»، والمعنى: أعددتم للفجور مخلب كيد ودسائس ولم يلبث الأمير أن قطع هذا المخلب الغدار.

(٥) في نسخة ز «فغدا بغيضكم»، وفي القلائد «التقيّ المسلم»، والمعنى: طرحتم التقوى وراء ظهوركم وناقضتم الأتقياء الكرماء.

(٦) دغل الضمير: فاسد القلب حقود النفس، والمعنى: ما كان حلم الأمير ليتغير نتيجة لسعاية حاقد لئيم.

(٧) في القلائد «زين بها الزمان الأدهم»، والمعنى: لقد طلع الأمير غرة زهراء في وجه الزمان الأدهم.

يَغْشى النواظر من جَهيرِ رُوائهِ

خَلْقٌ - يُرى مِلءَ الصدور - مُطَهَّمُ(١)

وسنا جبينٍ يستطيرُ شعاعُهُ

يُغني - عن القمرَينِ - مَنْ يتوسّم(٢)

صَلتٌ تودُّ الشمسُ لو صيغتْ له

تاجًا تُرصِّعُ جانِبَيْهِ الأَنْجُم(٣)

فَضَحَتْ مَحاسِنُهُ الرياضَ بكى الحَيا

وَهْنًا عليها فاغْتَدَتْ تَتَبَسَّم(٤)

بالقَدْرِ يَبْعُدُ، والتواضعُ يَدْني

والبِشْرُ يُشمِسُ، والنّدى يَتَغَيَّم(٥)

جذلانُ - في يوم الوغى - مُتَطَلِّقٌ

وَجْهًا إليها، والرَّدى مُتَجَهِّم(٦)

بأسٌ كما صالَ الهِزَبْرُ، إزاءَهُ

جُودٌ، كما جاشَ الخِضَمُّ الخِضْرِمُ(٧)

٭٭٭٭

(١) الجهير: الجميل، الرواء: ماء الوجه أو حسن المنظر، المطهّم: التام من كل شيء أو البارع الجمال، والمعنى: يطالع الأمير الأنظار بجماله الرائع فيملأ العيون والصدور.

(٢) في القلائد «يستبين شعاعه»، يستطير: ينتشر، يتوسم: يتطلب ويتعرف، والمعنى: للأمير وجه طلق وضاء تنتشر أشعته فتغني الناظرين عن ضوء الشمس والقمر.

(٣) في القلائد «خلق تود الشمس...»، الصلت: الجبين الواضح البارز، المعنى: للأمير جبين مشرق وضّاح تتمنى الشمس أن تكلّله بتاج منها مزين بدراري النجوم.

(٤) في القلائد «وهمى عليها»، الحيا: المطر، الوهن: نحو نصف الليل أو بعد ساعة منه، وقال الأصمعي: هو حين يدبر الليل، والمعنى: محاسن الأمير تفوق الرياض التي سقاها المطر في ظلام الليل وطلعت عليها الشمس فنعشتها بأشعتها الدافئة فأزهرت وأينعت وجادت بالثمار.

(٥) في القلائد «فالقدر يبعد»، والمعنى: ترتفع مكانة الأمير فلا يلحقه إنسان، ولكنه بتواضعه يهبط إلى مستوى الناس فيقترب منهم، ويشرق وجهه كالشمس، ويفيض جوده كالسحاب.

(٦) المعنى: يتهلل وجه الأمير بالبشر في أحرج ساعات القتال على الرغم من تكشير الموت عن أنيابه وعصفه بالجسوم.

(٧) الهزبر: الأسد أو الغليظ الضخم أو الشديد الصلب، جاش: هاج واضطرب، الخضم: البحر أو الجمع الكثير، الخضرم، البحر العظيم أو البئر الكثيرة الماء أو الكثير من كل شيء، والمعنى: يصول الأمير في شجاعة كالأسد ويجود في غزارة كالبحر المتلاطم الأمواج.

نفـــسي فـــداؤُكَ أيّهـــا الملكُ الذي
كـلُّ الملـوك لـه الـعَـــــــلاءَ تُـسَلّـمُ(١)

سُــدْتَ الجــمـــيعَ، فليس منهم مُنكِرٌ
أنْ صِبـــرْتَ فَــذّهـمُ الذي لا يُتــأَم(٢)

لا غَــرَوَ أنَّ المجــدَ - في حكم الحِجــا
من أن يُضـــافَ إليك صِنوٌ - أعْـــقَم(٣)

مـــا إن لهم كـــخِـصــالِكَ الزُّهرِ التي
منهـــا على زُهْرِ الكواكبِ مِـــيـسَم(٤)

الـمَحْتِدِ الزاكي الثَّرى، والسُّؤدُد السا
مي الذوائب، والفـــخـــار الأعظم(٥)

والحِلم يَرْسَخُ هَضْــبُـــهُ، والعلم يز
خَــرُ بَحْــرُهُ، ولَظَى الذَّكَـا يَتَـضَــرَّم(٦)

✲✲✲✲

دَعْ ذِكْــرَ صَــخْـــرٍ وابنَ صــخــرٍ قَــبْلَنا
أنت الحليمُ وغَـــيــرُكَ الـمُــتَــحَلِّم(٧)

لك عـــفـــوُ شَــهْمٍ لا يَضـيعُ حَــزامــةً
ولئن بطشتَ فـــبطش من لا يَظْلِم(٨)

(١) المعنى: أفديك بنفسي أيها الملك العظيم الذي ينقاد له الملوك جميعهم ويسلمون إليه مقاليد الزعامة والفخار.

(٢) الفذ: الفرد القليل النظير، يتأم: يكون له نظير أو عديل، والمعنى: أقرّ لك جميع الملوك بالسيادة واعترفوا بألا نظير لك بينهم في المجد والفخار.

(٣) آثرنا رواية القلائد، وفي الأصول «أم المجد في بكر الحجا» وفي نسخة ت «... صنف أعقم» والصنو: الأخ الشقيق أو الابن، والمعنى: لاعجب في أن يعقم المجد فلا يجد لك نظيرًا في شريعة العقول.

(٤) في القلائد «ما إن يُرى....»، والمعنى: ليس لهؤلاء الملوك أخلاق وضاءة كأخلاقك التي لها آثار على النجوم الساطعة الضياء.

(٥) المحتد: الأصل أو الطبع، الزاكي: الطاهر، وزكت التربة: صلحت وأخصبت، والمعنى: ينتمي الأمير إلى أصل عريق، ويتصف بأمجاد رفيعة سامية، ويتسم بفخار لا يدانيه فخار.

(٦) المعنى: وهو إلى هذا راسخ الحلم رحب الأناة، كما أنه واسع الثقافة غزير العلم، وفيه ذكاء وقاد يكاد يلتهب من حدة التفكير.

(٧) في القلائد «وابن صخر بعده»، صخر: هو الأحنف بن قيس سيد من سادات بني تميم، وابن صخر: هو معاوية بن أبي سفيان (صخر) بن حرب وكان يضرب به وبالأحنف المثل في الحلم، والمعنى: لقد حزت أشرف غاية في الحلم لم يبلغها أحد سواك ممن اشتهروا بالصفح والغفران، فأنت الجدير بوصف الحليم وغيرك متكلف متصنع لا يصدر عن طبع أصيل.

(٨) الحزم والحزامة: ضبط الأمور وإحكام التدبير، والمعنى: إنك تعفو عفو مقتدر حازم يصدر في حلمه عن حكمة لا عن ضعف، وإذا حقّ العقاب فإنك تعاقب بقدر لا تتجاوز فيه الحد إلى الظلم والإجحاف.

إنّ الكمالَ شَرَحْتَ مَعْنَى لفظِهِ
ولَكان وهْو المُشكِلُ المُستَبْهَمُ(١)

☆☆☆☆☆

اللّهُ قد أرضاه منكَ تَحَرُّجٌ
ثَقْفٌ، وَعَقْدٌ في التُّقى مُستَحْكِمِ(٢)
لمّا اعْتَمَدْتَ عليه كان بنَصْرِهِ
دأْبًا مؤيِّدكَ الذي لا يُسْلِم(٣)

☆☆☆☆☆

أنّى أؤدي فَرْضَ أنعُمِكَ التي
وَبَلَتْ كما وَبَل السَّحابُ المُثْجِمِ؟(٤)
أمْطَيْتَني ثَبَجَ السِّماك برتبةٍ
علياءَ. مَنْكِبُ عِزّها لا يُزحَم(٥)
وتركتَ حُسّادي عليكَ، وكُلّهم
شاكي حَشًا يَدْوَى وأنفٍ يُرْغَم(٦)

(١) المشكل المستبهم: الغامض الملتبس، والمعنى: كان معنى الكمال خافيًا على الناس حتى أبرزته أنت للعيان فشرحت معناه بفضائلك المجيدة شرحاً عمليًا يحسمه للناظرين.

(٢) التحرج: التأثم، ثقف: حاذق فطن، والمعنى: لقد أرضيت ربك بتصونك عن مقارفة الذنوب، وكان تصونك قائمًا على الفهم ودقة الفطنة لا على النظر السطحي أو الفهم الضيق للأمور، كما أطعت الله بالمحافظة على عهدك الوثيق بمراعاة التقوى والتمسك بالصلاح.

(٣) من ألقاب الأمير: المعتمد على الله، والمؤيد بالله، والمعنى: لما اعتمدت على الله في كل شؤونك أيدك على الأعداء ولم يخذلك في مواقف الضنك والشدائد والملمات.

(٤) في القلائد «فمتى أؤدي... يبل السحاب المسجم»، وبل: أمطر، المثجم: السريع المطر، والمعنى: كيف أقوم بشكر أياديك الكريمة التي غمرتني بالنعم كما يغمر السحاب الأرض بالمطر؟

(٥) الثبج: الوسط، السماك: أحد نجمين نيرين هما السماك الرامح والسماك الأعزل، المنكب: مجمع عظم العضد والكتف، والمعنى: لقد رفعت قدري فوق النجوم بما منحتني من رتبة لا تساميها في عزتها الرتب والألقاب، وفي القلائد «أمطيتني متن السماك».

(٦) دَوِي: مرض، يرغم: يلتصق بالتراب، والمعنى: تركت حسادي أذلاء تتفطر قلوبهم من الحقد والحسد وأنوفهم معفرة بالتراب.

نَصَحَ العِـدا في زَعْـمِـهم، فَـوَقَـمْـتَـهُمْ

والـغِشُّ في بـعض النّصـائحِ مُـدْغَمُ[1]

وثـنـاهـمـو ثَـبْتٌ، قـنـاةُ أنـاتِـهِ

خلقـاءُ، يصلبُ مَـتْنُهـا إذْ يُعْـجَم[2]

وَزَهاهُمـو نظمُ الهُـراء، فكفُّـهمْ

نظمٌ عُـقـودُ السِّـحْـرِ منه تُنظَم[3]

أشـرعتَ منـه إلى الـغُـواةِ أسنـةً

نفـذتْ، وقـد ينبـو الطَّريرُ اللُّهْـذَم[4]

☆☆☆☆

فِـرَقٌ عَـوَتْ، فـزأرتَ زأرةَ زاجـرٍ

راعَ الكُلَيْبَ بهـا السَّـبَنْتَى الضَّـيْـغَم[5]

يا ليت شِـعْـري هل يعـودُ سـفـيـهُـهمْ؟

أم قـد حَـمـاهُ النَّبْحَ ذاك المُكعِمُ[6]

---

(١) وقم الرجل عدوّه: قهره وأذله، أو ردّه أقبح الرد، وحزنه أشد الحزن، مدغم: مختلط، والمعنى: حاول العدا الظهور أمامك بمظهر الناصحين فرددتهم أعنف الرد لأنهم مخادعون غدارون يبطنون الغش وإن أظهروا الإخلاص والوفاء.

(٢) الثبت: الشجاع الثابت في مواقف البأس، ومنه قول العجاج «ثبت إذا ما صيح بالقوم وقر» أو عاقل متماسك، أو الحجة الثقة في روايته، الخلقاء: المصمتة الملساء الخالية من الكسور أو الشقوق، المتن: الظهر أو ما برز من الأداة، عجم العود: اختبره بأسنانه ليعرف مدى صلابته، والمعنى: لقد رددت الحاسدين عني، ورأوا فيك رجلاً حازمًا متثبّتا في أموره لا تلين قناته لغامز ولا يستجيب عقله لحاسد أو حقود.

(٣) زهاهم: استخفهم، والمعنى: لقد نظموا في إثارتك شعرًا تافهًا ركيكًا فصددتهم بشعرك الرائع الساحر.

(٤) الطرير: المحدد المسنون أو ذو المنظر الجميل: اللهذم: الحاد القاطع من السيوف أو الأسنة أو الأنياب، والمعنى: سددت من شعرك أسنة حادة نفذت فيهم، وقد يرتد الرمح المسنون ولكن شعرك لا ترتد له سهام.

(٥) السبنتى: الجريء المقدام، أو النمر، أو الأسد، والمعنى: لقد عوى الحاسدون كالذئاب فزأرت فيهم كالأسد الكاسر يرهب بزئيره الكلاب.

(٦) كعم البعير: شد فاه لئلا يعض أو يأكل، وكعمه الخوف: أسكته، قال ذو الرمة:

بين الرجا والرجا من جيب واصيةٍ

يهماء، خابطها بالخوف مكعومُ

«أي بين الناحية والناحية من مداخل هذه الصحراء الواسعة مفازة لا يهتدي فيها السائر، ويخرس الخوف فيها المسافرين»، والمعنى: لست أدري أيعود هؤلاء الحاقدون إلى الوقيعة والدسائس أم أنهم أخذوا على يديك درسًا قاسيًا يشل ألسنتهم ويخرس أفواههم مدى الحياة؟

لي منكَ - فليذُبِ الحسودُ تلظّيًا -
لطفُ المكانةِ والمحلُّ الأكرمُ(١)

وشُفوفُ حظٍّ ليس يفتأُ يُجْتلَى
غضُّ الشبابِ، وكلُّ حظٍّ يَهْرَمُ(٢)

لمْ تُلفَ صاغِيَتي لديك مُضاعَةً
كلا، ولا خفيَ اصْطِناعي الأقْدَمُ(٣)

بل أوْسَعْتَ حِفظًا وصدقَ رعايةٍ
ذِممٌ مُوَثَّقَةُ العُرا لا تُفصَمُ(٤)

فَلْيَخْرِقَنَّ الأرضَ شكرٌ مُنْجِدٌ
منّي تناقَلُهُ المَحافلُ مُتْهِمُ(٥)

عَطِرٌ - هَوَ المسكُ السَّطوعُ - يطيبُ في
شَمِّ العُقولِ أريجُهُ المُتَنَسَّمُ(٦)

وإذا غُصونُ المكرماتِ تهدَّلت
كان الثناءَ هديلُها المُتَرنِّمُ(٧)

الفخرُ ثَغْرٌ - عن حفاظكَ - باسمٌ
والمجدُ بُردٌ - من وفائكَ - مُعْلَمُ(٨)

فاسْلَمْ مَدَى الدنيا، فأنتَ جمالُها
وتَسوَّغِ النُّعْمَى، فإنَّكَ مُنعِمُ(٩)

****

(١) المعنى: لي عندك مكانة غالية ومنزلة كريمة، فليذب الحاسدون وليموتوا بغيظهم.

(٢) الشفوف: الأستار أو الثياب الرقيقة التي تظهر ما وراءها، أو الأرباح، أو الفضل، والمعنى: حظي لديك وافر متجدد مثل الشباب الغض مع أن كل حظ يدركه الشيب أو الفناء، وفي القلائد «وكل غض يهرم».

(٣) صاغية الرجل: قومه الذين يميلون إليه، والمعنى: لمَ تضيع صلاتي الوثيقة بك منذ كنت في حاشيتك، ولمَ تغفل إخلاصي لك وحبك لي، وفي الذخيرة «ضاع اصطناعي» وفي القلائد «حق اصطناعي».

(٤) المعنى: لم تتأثر بكلام الحاقدين بل رعيت الصداقة الوثيقة وحفظت الذمام الوثيق الذي لا تنفصم عراه.

(٥) خرق المفازة: قطعها، منجد: أتى نجدًا، متهم: أتى تهامة (وهي مكة أو شمالي الحجاز)، والمعنى: سأصوغ فيه قصائد إطراء تجوب الأرض في شتى الأقطار، وتتحدث بها جميع محافل الأدباء.

(٦) المعنى: قصائدي فيك يفوح شذاها مثل المسك فتنتشي بنسيمه العقول.

(٧) في الخريدة «كان الهديل»، والمعنى: إذا ازدهرت مكارمك كالروضة الفيحاء ترنمت قصائدي بالثناء عليها كما يسجع الحمام على الأغصان.

(٨) في الخريدة «الفجر ثغر..»، الحفاظ: الحمية والأنفة، برد معلم ثوب مزين مرقم، والمعنى: يبتسم الفخر مزدهيًا بعزتك وحميتك، ويتزين المجد بوفائك ومودتك.

(٩) المعنى: دم على الأيام فإنك جمالها وزينتها، وتهنأ بالسعادة والنعيم فإنك مصدر للسعادة والنعيم.

١ – مع أبي الحزم بن جهور بقرطبة

المــدائــح

طوى الشاعـر جلَّ حيـاته سـفيـرًا أو وزيرًا أو كبـيـرًا للوزراء، فلم يمدح إلا الملوك الذين خالطوه فصادقوه «فجاء من القول بسحر، وقلده أبهى نحر، لم يصرفه إلا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلا في سـمـاء مـؤانسـات وأفـراح، ولا تعـدّى به الرؤسـاء والملوك، ولا تردى منه إلا حظوة كالشمس عند الدلوك» كما قال ابن خاقان.

ثناء وعتاب

هذا الصبـــاحُ على سُــراكِ رقــيــبــا
فــصلِي بفَــرعِكِ ليلَكِ الغِــربيــبـــا[١]
ولديك - أمـــثـــالَ النجـــوم - قـــلائدٌ
ألفتْ ســـمـــاءك لَبّـــةً وتَـريبـــا[٢]
لِيَنُبْ عنِ الجـــوزاءِ قُـــرطُكِ كلّمـــا
جنحتْ تحثُّ جناحَـــهـــا تغــريبـــا[٣]
وإذا الـوِشـــــاحُ تـعـــــرّضـتْ أثـنـاؤه
طلعتْ ثُريّا لم تكن لتـــغـــيــبـــا[٤]
ولطالما أبديتِ إذ حَـــيَّـــيْـــتِنا
كفّاً - هي الكفُّ الخضيبُ - خضيبا[٥]

✡✡✡✡

أظنينةً، دَعْـــوَى البـــراءة شـــأنُهـــا
أنتِ العـــدوُّ فلِمْ دُعــيتِ حــبــيــبـــا[٦]

---

(١) السرى: السير ليلا، الفرع: الشعر التام، الغربيب: الشديد السواد، والمعنى: كاد الصباح يفضح سراك في الظلام، فصلي سواد الليل بسواد شعرك الحالك حتى يطمس الظلام صفحة الضياء.

(٢) اللّبة: النحر أو موضع القلادة في الصدر، التريب: مكان القلادة جمعها ترائب، والمعنى: عندك قلائد مضيئة كالنجوم تجول فوق صدرك كما تجول النجوم في صفحة السماء.

(٣) الجوزاء: نجم أو برج في السماء، جنحت: مالت، والمعنى: ينوب قرطك الوضاء مناب الجوزاء إذا مالت للغروب.

(٤) الوشاح: نسيج عريض مزين بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها كالوسام، تعرضت: تثنت، أثناؤه: طياته (جمع ثنيٍ)، والمعنى: إذا تثنى الوشاح على صدرك أبرز منك كوكبا وضاءً لا يغرب ضوؤه إذا غربت النجوم.

(٥) الكف الخضيب: نجم، والمعنى: طالما حييتنا بيد خضيب وضيئة كالنجم اللامع، وفي بعض نسخ الذخيرة «ولطالما حييّت».

(٦) ظنينة: متهمة، ومنه أظنه وأطنه: اتهمه، والمعنى: أيتها المتهمة بسفك دماء العاشقين مع أن مظهرك بريء وديع مثل الأطفال، لقد دعوناك حبيبًا وكان الأولى أن نحشرك في زمرة الأعداء. وفي بعض نسخ الذخيرة «أضنينة».

مــــا بالُ خـــدِّكِ لا يزال مُـــضَــرَّجًـــا

بدمٍ، ولحظُكِ لا يـزال مُــــــريـبـــــا؟[1]

لو شــئتِ مــا عــذّبتِ مــهــجــةَ عــاشقٍ

مُـسْـتَـعْـذِبٍ في حـبّكِ التَّـعـذيبـا[2]

ولـزُرْتِـهِ بـلْ عُــــــدْتِـهِ، إنَّ الـهَــــــوى

مــرضٌ يكون لـه الوصـــالُ طبـيــبـــا[3]

مــــا الـهــــجـــــرُ إلا الـبَـيْنُ، لـولا أنَّـهُ

لـم يَشْحُ فــاهُ بـه الـغــرابُ نـعــيــبـــا[4]

ولـقــد قــضـى فــيكِ الـتــجلُّدُ نَحْــبَـهُ

فَــثَــوَى، وأعْــقَبَ زفــرةً ونَحــيــبـــا[5]

وأرى دمـــوعَ الـعينِ ليس لفَــيْــضِــهـــا

غَــيْضٌ إذا مـــا الـقلبُ كــان قليــبـــا[6]

✡✡✡✡

مــــا لـي ولـلأيَّام؟ لَجَّ مـعَ الـصِّـــــبـــــا

عُـدوانُهـا فكســا الـعِـذار مــشـيــبـا[7]

---

(١) المعنى: لا يزال خدك مضرجًا بدماء العشاق، ولا يزال لحظك يدعو إلى الريبة في فتكه بالقلوب، ومثله قول الحصري:

يا مـن جــــحـــــدت عـــيناه دمي
وعـلـى خـــــــــــدَّيـه تـورّده
خــدّاك قـــد اعـــتـــرفـــا بدمي
فــعــــلام جــفــونك تجــحــــده؟

(٢) المعنى: لو شئتِ الإنصاف لرحمت مهجة عاشق يستلذ العذاب في سبيل هواك.

(٣) في نسخة ت «أوعدته»، والمعنى: لو رحمته لبادرت بزيارته أو على الأصح بعيادته لأنه مريض بحبك وأنت له الطبيب الآسي.

(٤) في الذخيرة «إلا أنه»، شحا فمه: فتحه، النعيب: صوت الغراب، والمعنى: ليس الهجر إلا الفراق، ولا فرق بينهما إلا أن الغراب ينذر بالفراق ولا ينذر بالهجران.

(٥) المعنى: لقد تجلدت في هواك حتى وهى جلدي وفني صبري وأعقب لي البكاء والزفرات.

(٦) غيض: نضوب، القليب: البئر، والمعنى: لا تجف دموع العين إذا كان القلب يمدها بفيضه العميم.

(٧) لجّ: تمادى في العناد، العذار: منبت شعر اللحية، والمعنى: ما لي وللدنيا أسرفت في الإساءة إليّ فعجلت بالشيب عليّ؟

مَــحَـــقَتْ هلالَ الـسّنِّ قَــبْلَ تَمــامـــهِ

وذوى بهــا غُــصنُ الشّــبــاب رطيـبــا[1]

لأَلَـمَّ بـي مــــــا لـوْ ألـمَّ بـشـــــاهـقٍ

لانهـالَ جــانبُــهُ فـصــار كــثــيــبــا[2]

فلئن تَسُــمْني الحـــادثاتُ فــقـد أَرى

للجَـفْنِ في العَـضْبِ «الصَّـقيلِ نُدوبا»[3]

ولئن عـــجـــبتُ لأنْ أُضــامَ «وجَـــهْــوَرٌ»

نِعْمَ النَّصــيــرُ لقـد رأيتُ عـجــيـبــا[4]

من لا تَـعَـــدَّى النائبـــاتُ لجـــاره

زَحْــفًــا، ولا تمشي الضَّــراءَ دبيــبــا[5]

مـلـكٌ أطـاع الـلـهَ مـنـه مـــــــوفَّـقٌ

مــــا زال أوّابًا إلـيــــه مُنيـــبـــــا[6]

يـأتي رضـــاه مُـــعـــاديًا ومُـــواليًـــا

ويكون فـيـــه مُـعــاقِبًــا ومُــثـيـبــا[7]

مُــتَــمَـــرِّسٌ بالدهرِ، يَقْــعُــدُ صَــرْفُــهُ

إن قـــام في نادي الخطُوب خطيـبـــا[8]

---

(١) المعنى: أساءت إليّ الدنيا فجنت على شبيبتي قبل استوائها فأذبلت غصنها الرطيب.

(٢) المعنى: لقد نزل بي من الآلام ما لو نزل بجبل عال أشم لانهدم وتحول إلى كثيب مهيل.

(٣) ورد آخر البيت ناقصًا في الأصول وقد أكملناه بما يناسب المقام، والمعنى: إذا أساءت إليّ الحادثات وأصابتني بالوهن فلا عجب، فكثيرًا ما يترك الجفن آثارًا في صفحة السيف البتار.

(٤) المعنى: إذا عجبت من إساءة الدهر إليّ وأنا في حماية ابن جهور فقد حق لي العجب.

(٥) الضراء: الاستخفاء، ويمشي الضراء: يسير مستخفيًا في ما يواريه من الشجر، ويقال لمن يخدع صاحبه: هو يدب له الضراء ويمشي له الخَمر، والخَمر: الشجر الكثيف، والمعنى: لا تصيب النائبات جار ابن جهور ولا تدبر له الكيد والخصام.

(٦) أوّاب: تائب، ومنه قوله تعالى «إنه كان للأوابين غفورا»، مُنيب إلى الله: مقبل عليه وراجع إليه.

(٧) المعنى: لا يعادي الأمير أحدًا ولا يصادق أحدًا إلا في سبيل الله كما أنه لا يعاقب ولا يثيب إلا في الله.

(٨) تمرس بالشيء: احتك به أو درسه وخبره، والمعنى: الأمير محنك خبير يرد ببأسه صروف الدهر مفلولة السلاح.

لا يُوسَمُ الرأيُ الفَطيـرُ به، ولا
يعتادُ إرسالَ الكلامِ قَضيبا[1]

تأبَى ضرائبُهُ الضُّروبَ نفاسةً
من أنْ تقيسَ به النفوسُ ضَريبا[2]

بسّام ثَغْرِ البِشْرِ إنْ عَقَدَ الحُبا
فرأيت وضّاحًا هناك مَهيبا[3]

ملأ النُّواظِرَ صامِتًا، ولربما
ملأ المسامع سائلاً ومجيبا[4]

☆☆☆☆

[إن الجَهاوِرَةَ الملوكَ تَبَوّءُوا
شَرَفًا جَرَى مَعَهُ السِّماكُ جَنيبا][5]

عِقْدٌ تَألَّفَ في نظام رياسةٍ
نَسَقَ اللآلئِ مُنْجِبًا ونَجيبا[6]

يَغْشَى التجاربَ كهلُهُمْ مُسْتَغْنِيًا
بقريحةٍ هي حَسْبُهُ تجريبا[7]

---

(١) الرأي الفطير: الذي يرسل على البديهة دون رؤية أو تمحيص.

(٢) الضرائب: الطبائع، الضروب: الأشباه والأمثال جمع ضرب، الضريب: الشبيه والمثيل، والمعنى: تأبى طبائعه السامية أن يكون لها مثيل أو شبيه في السموّ والجلال.

(٣) عقد حبوته: ضم رجليه إلى بطنه في جلوسه وجمعهما مع ظهره بثوب يلفه حوله، وقد يكتفي عن الثوب بيديه، ويكنون بهذه الجلسة عن الوقار والهيبة، والمعنى: يتهلّل وجه الأمير بالسماحة فإذا عقد حبوته لمحت فيه الجلال ممزوجًا بالجمال.

(٤) في الأصول «سامعاً ومجيبا» وقد آثرنا رواية الذخيرة، والمعنى: إن الأمير يملأ النواظر بهيْبَتِه ووضاءته إذا صمت، كما يملأ المسامع ببلاغته إذا تحدث سائلاً أو مجيباً.

(٥) البيت زيادة في الذخيرة، تبوءوا: احتلوا، السماك: أحد نجمين نيّرين: الأعزل والرامح، جنيبًا: تابعًا من جَنَبه إذا قاده إلى جنبه، والمعنى: إن بني جهور احتلوا مكانة سامية تحتذيهم فيها النجوم.

(٦) المعنى: لقد تابع الأبناء في السؤدد والرياسة الآباء، كما تتسق عقود اللآلئ المنظومة في نسق متساوق بديع.

(٧) المعنى: للكهول في هذه الأسرة أذهان متوقدة تغنيهم عن التجارب في معالجة مشكلات الأمور.

وإذا دعـــوتَ وليـــدَهُمْ لـعظيـــمـــةٍ
لبّـــاكَ رقـــراقَ السَّـــمـــاح أريبـــا(١)

هِمَمٌ تُنافِـسُـهـا النجـومُ، وقـد تَلا
في سُؤدَدٍ منهـا الـعـقـيبُ عـقـيـبـا(٢)

ومـــحـــاسنٌ تَنْدَى رقـــائقُ ذِكْـــرها
فـــتكاد تُوهِمُكَ المديحَ نَســـيـــبـــا(٣)

كـــالآسِ أخـــضَـــرَ نَضْـــرَةً، والوردِ أحـ
ـمَـرَ بَهْـجَـــةً، والمسكِ أذْفَـرَ طيـبـــا(٤)

وإذا تَـفَنَّـنَ في الـلـســـــــان ثنـاؤهُ
فـــافْـــتَنٌ لم يكنِ المرادُ غَـــريبـــا(٥)

غـــالَى بما فـــيـــه فَـــغَـــيْـــرُ مُـــواقعٍ
ســـرَفًـــا، ولا مُـــتَـــوقِّعٍ تكذيبـــا(٦)

✡✡✡✡

كـــان الـوشـــاةُ - وقـــد مُنيتُ بإفكهْم -
أســـبـــاطَ يـعـــقـــوبٍ وكنتُ الـذيبـــا(٧)

---

(١) في الذخيرة «فإذا دعوت..»، وقد آثرنا روايتي سرح العيون والوافي، أما الأصول فتروى «رقراق السماح أديبا»، الرقراق: المتلألئ الوضاء، والمعنى: إذا دعوت الناشئ في هذه الأسرة المجيدة لأمر خطير بادر بالإجابة متهللاً في حكمة واتزان.

(٢) المعنى: لأفراد هذه الأسرة المجيدة همم عالية تتنافس النجوم في سبيل بلوغها يتوارثها الآباء عن الأجداد ويورثونها الأبناء.

(٣) في سرح العيون «تندى دقائق»، المعنى: ولهم محاسن عظيمة يطيب ذكرها على الأفواه وفي الآذان فإذا رتلنا مدائحهم توهم السامع أننا نرتل آيات النسيب. وشبيه بهذا قول أبي تمام:

طاب فـــيك المديح والتـــذَّ حـــتى
فـــاق وصفَ الديار والتـــشـــبـــيـــبـــا

(٤) مسك أذفر: شديد الطيب، والمعنى: بلغت محاسنهم أبعد الغايات فهي تشبه الآس في نضرته ورقته، والورد في حمرته وبهجته، والمسك في عبيره الفواح.

(٥) المعنى: إذا افتنَّ اللسان في الثناء على الأمير وجد مجال القول واسعًا وميدان الثناء رحيب المجال.

(٦) المعنى: بالغ اللسان في مدحه ما وسعته المبالغة آمنًا أن يكون مسرفًا في مدحه أو متهمًا فيه، فمآثر الأمير فوق المغالاة والإسراف.

(٧) منيت بكذا: ابتليت به، الإفك: الكذب، السبط: ولد الولد أو إحدى قبائل اليهود الاثنتي عشرة، وفيهم يقول الله تعالى ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمما﴾ ، والمراد هنا أبناء يعقوب لا أسباطه كما ذكر الشاعر، والمعنى لقد اتهمني الوشاة ظلمًا وبهتاناً كما اتهم أبناء يعقوب الذئب بافتراس أخيهم يوسف عليه السلام وجاءوا على قميصه بدم كذب.

وإذا الـمُنى بقَـبـولِكَ الغَضُّ الجَنَى

هُزَّتْ ذوائبُـهـا فـلا تثـريبـا[1]

أنا سَيْـفُكَ الصَّدِئُ الذي مـهـمـا تشـأ

تُعِـدِ الصِّـقـالَ إليـه والتَّـذريبـا[2]

كم ضـاقَ بي من مَـذهبٍ في مطلبٍ

فَـثَنَيـتَـهُ فُـسُحَ المجـالِ رحـيـبـا[3]

«وزكـا» جنـابُ الشكرِ - حـينَ مَطَرْتَهُ

بسحـائبِ النُّعْمى - فَرِدْهُ خصيبـا[4]

✡✡✡✡

وَتَـهَنَّأِ الأعـيـادَ عـادةَ لابسٍ

يُبلي الدَّريسَ فيستجدُّ قَشيبـا[5]

ومـتى سَـعَـيْتَ لنازحٍ مُـتَـعَـذِّرٍ

فـوجـدتَه سـهلَ الـمَـرامِ قـريبـا[6]

وأراد فـيكَ مُـرادَكَ القَـدَرُ الذي

لا نسـتطيعُ لحكمـهِ تَعْـقـيـبـا[7]

✱✱✱✱

(١) الغض: الطريّ، الجنى: الثمار، الذوائب: الأعالي أو الأطراف، التثريب: اللوم، والمعنى: إذا جادت الآمال برضاك عني واهتزت أريحيتك بالسماح فلن أخشى ملامًا أو عقابًا، وهو ينظر في هذا إلى الآية الكريمة ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾.

(٢) الصقال: الجلاء، التذريب: التحديد والإرهاف، والمعنى: أنا سيف من سيوفك أهملته حينًا فعلاه الصدأ واعتراه الكلال، فإذا شئت صقله وسنّه وجدت فيه لألاءً ومضاء،

(٣) فُسُح: فسيح أي واسع منبسط، والمعنى: كم ضاقت في وجهي سبل، وتعذرت المسالك، حتى فتحت أمامي كل طريق وذللت كل صعب فاتسعت مسالكي وزالت صعابي.

(٤) ورد أول البيت ناقصًا في الأصول فأكملناه بما يناسب المقام، زكا: نما، الجناب: الناحية، فرِده خصيبًا: أي فاطلب فيه الخصب والنماء، والمعنى: قد أمطرتني بسحائب جودك فنما شكري وأزهر فأنشد فيه الروعة والازدهار.

(٥) الدريس: الخلق البالي، القشيب: الجديد، والمعنى: اهنأ بالأعياد متوالية العديدة تودع عيدًا وتستقبل عيدًا كما يخلع اللابس الأثواب البالية ويلبس الجديدة.

(٦) نازح: بعيد، المرام: المطلب، والمعنى: إذا أردت مطلبًا بعيدًا متعذرًا اسأل الله أن يسهله لك وأن يقربه منك.

(٧) المعنى: وأدعو الله أن يجري القدر في أمورك قبل نفاذه بما تحبه وتشتهيه فإن الأقدار لا يمكن تغيير أحكامها بعد إمضائها.

شكاة ورجاء

«إبائي» في جواركم الذليلُ
وحَدّي في رجائكم الكليلُ[1]
لَمُخْتَلِفانِ من حاليَّ، مهما
أجال الفكرَ بينهما مُجيلُ[2]
نصيبٌ من وِلايتكم كثيرٌ
وحظٌّ من عنايتكم قليلُ![3]
أتحيا أنفسُ الآمالِ فيكم
ولي - أثناءها - أملٌ قتيلُ؟[4]
وأعجَب حادثٍ نظري لديكمْ
إلىَ غَلَلِ النجاحِ وبي غليلُ![5]
وقِدْحي في وِدادكمُ مُعَلّىً
وباعي في اعتمادكمُ طويلُ[6]

---

(١) ورد أول البيت ناقصًا في الأصول وقد أكملناه بما يناسب المقام. والمعنى: ما لي اعتراني الذل على الرغم من إبائي واعتصامي بجواركم؟ وما بال مضائي أصابه الكلال مع تعلق آمالي بكم؟

(٢) المعنى: مهما تأمل المتدبرون فإنهم سيجدون تناقضًا في موقفكم مني يدعو إلى الدهشة والعجب.

(٣) المعنى: مما يثير الغرابة في نظرتكم إليّ أنكم تحملونني أعباء مرهقة من ولايتكم، ومع هذا فإن حظي من عطفكم نزر قليل.

(٤) المعنى: ما بال آمال الناس تحيا في ظلالكم وتزدهر على حين تذبل آمالي ويعتريها الفناء؟

(٥) الغلل: الماء الجاري بين الأشجار، الغليل: العطش، المعنى: ومن أعجب الأمور أنني شديد الظمأ وأتطلع إلى منهلكم العذب الزلال، فلا أنال منه ما يشفي الغليل.

(٦) القدح: السهم، المعلى: أوفر الأسهم نصيبًا في الميسر، والمعنى: أعجب لحرماني من عطفكم مع أن حبي لكم عظيم وجهدي في خدمتكم كبير.

وكـــــــــائـنْ لـي ثـنـاءً راحَ يَـثْـنـي
إلـيــــه الـعِـطـفَ مـــــجـــــدُكـمُ الأثـيـلُ(١)

تُـنـافِــــــسُـــــــــهُ الـرّيـاضُ مُـنَـوِّراتٍ
تَـنـفّسَ عن نَـوافِــــحِــــهـــا الأصــــيـلُ(٢)

☆☆☆☆☆

«أبـا الـحَــــــزْم» الـزَّمـــــانُ - بـأنْ تُـثَـنَّـى
إذا عُــــــدَّتْ فَـــــواضِـلُـكُـمْ - بـخــــيـلُ(٣)

عـلـوتَ الـنَّـجْـمَ إذ مـلَّ الـمُـــــســـــاعـي
وحُـــزتَ الـخَـــصْـلَ إذ كَـلَّ الـرَّســــيـلُ(٤)

رأيتُ الـنَّـاسَ - مـــا أصــبــحـتَ فــيـــهـمْ -
بـلاءُ الـلّـهِ عـنـدهـمُ جـــــــمـــــــــيـلُ(٥)

ومـــــاءُ الـعـــيْـشِ بـيـنـهـمُ فَـــضــيـضٌ
وظِـلُّ الأمـن فــــــوقـــــــهـمُ ظـلـيـلُ(٦)

ولـو فَــقَـــدوكَ - لا فــقَـــدوا - حَـــواهُـمْ
مَـــــــرادٌ مـن - زمــــــــانـهـمُ وبـيـلُ(٧)

---

(١) كائن بمعنى كم الخبرية وهي مركبة من كاف التشبيه وأيٍّ المنونة، وفيها عدة لغات، ويندر ورودها للاستفهام، ومميزها مجرور بمن في الغالب وبه ورد القرآن الكريم، وزعم ابن عصفور أنه لازم، وإن كان سيبويه أجاز نصبه على ندرة ومنه قول الشاعر:

وكـــائن لنا فـــضـــلاً عليكم ومنة
قـــــديماً، ولا تدرون مــــا مـنَّ مُنْعِمُ

وقد جرى ابن زيدون على هذا الرأي النادر فنصب كلمة ثناء، العطف: الجانب، وثنى إليه عطفه: مال إليه، وثنى عنه عطفه: أعرض عنه، الأثيل: الأصيل، والمعنى: كم من القصائد البارعة صغتها في الثناء عليكم فاهتز طربًا لها مجدكم الأصيل.

(٢) النوافح: جمع نافحة وهي الهبّة الذكية التي يحملها النسيم، ولعلها «نوافجه» والنافجة: وعاء المسك، والمعنى: إن الرياض المزدهرة الشذية التي تهبّ أنسامها العطرة في الأصيل تنافس قصائدي في التنويه بمآثركم والإشادة بأمجادكم.

(٣) الفواضل: النعم الجسيمة، المعنى: أيها الأمير إن الزمان بخيل بأن يأتي لكم بمشابه أو نظير في مآثركم الباهرة ونعمكم العظيمة.

(٤) المساعي: المغالب مأخوذ من ساعاني فلان فسعيته أي غلبته، الخصل: إصابة الهدف أو نيل الرهان، الرسيل: المرافق في السباق، والمعنى: سبقت جميع المنافسين ونلت هدفك بأيسر سبيل.

(٥) المعنى: إن الناس يستعذبون جميع الآلام ما دمت مقيمًا بينهم، فإن بقاءك فيهم يعوضهم عن كل مصاب.

(٦) الفضيض: الماء العذب، والمعنى: تبتسم الدنيا لهم ما دمت قائمًا فيهم فتعذب لهم الموارد ويستقر فيهم الأمن والاطمئنان.

(٧) المراد: مكان الارتياد وهو الطلب، والمعنى: ولو فقدوك - لا قدر الله - لحلّوا في مرتع وخيم وعاشوا في زمن مليء بالمتاعب والهموم.

وشـــاقَ نفـــوسَـــهمْ رسمٌ مَـــحـــيلٌ
- من الـدنيــا - وعَــهْــدٌ مــســتــحــيلُ[1]
فَـــخـــاصِـــرْ دولـةً تَفنى الـلـيـــالي
ولـم يُلمِمْ بـســـاحـــتـــهـــا مُـــديل[2]
ولا زالـتِ نِبـــالُ الـدَّهْـرِ تُـصْـــمـي
عُـــداتَكَ أيُـهـــا المـلكُ النُّبـــيـل[3]
أأيْئِسُ مـن مُـــســـاعَـــفَـــةِ الـلـيـــالي
وأنـتَ - إلى نـهـــايـتِـــهـــا - ســـبـــيلُ؟[4]

****

(١) الرسم المحيل: الأثر البالي القديم، عهد مستحيل: زمن متغير معوج، والمعنى: لو فقدوك لتنكرت لهم الحياة فتعلقوا بالأطلال الدّارسة والعهود السيئة المنكرة.

(٢) خاصر إنسانا: أخذ بيده في المشي، يلمم: ينزل، مديل: قاهر متغلب، والمعنى: أسأل الله أن تصاحب هذه الدولة القوية التي تطوي الليالي ولا يطويها الزمان.

(٣) المعنى: أتمنى أن تصيب سهام الدهر أعداءك فتصرعهم أيها الملك الجليل.

(٤) المعنى: كيف أيئس من نعيم الحياة وأنت سبيلي إلى هذا النعيم ووسيلتي إليه؟ والبيت ناقص في نسخة ت.

وفادة موفقة[1]

«وردت هذه القصيدة بالديوان في مدح أبي الوليد بن جهور، ولكنّ روح القصيدة توحي بأن الشاعر صاغها في مدح أبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد حينما أوفد أبو الحزم ابنه أبا الوليد إلى باديس بن حبوس أمير البربر بغرناطة ليتعاقدا على صدّ بني عباد عن قرطبة».

سَلِ المَعشَرَ الأعداءَ - إنْ رُمْتَ صَرفَهُمْ -
عنِ القَصْدِ، إنْ أعياكَ منه مَرامُ[2]
أتَوْكَ كآسادِ الشَّرى فرددتَهمْ
كما أجفلتْ وَسْطَ الفَلاةِ نَعامُ[3]
مَضَوْا يسألونَ النّاسَ عمّا وراءهم
فيُخبرهمْ - بالمُبكياتِ - عِصامُ[4]
وما ضاقَ عنهمْ جانبُ العذر إنّهمْ
كمثْلِ القَطا، لو يُترَكُونَ لناموا[5]

☆☆☆☆☆

(١) وردت القصيدة ناقصة كما يفهم من العنوان الذي صدرت به القصيدة في أصول الديوان «وقال من قصيدة طويلة يمدحه بها».

(٢) المعنى: سل الأعداء عن هدفهم الغامض من حروبهم، فقد ينصرفون إذا عجزوا عن معرفة مصلحتهم من هذه الحروب الطاحنة التي يساقون إليها كالأغنام.

(٣) الشرى: طريق كثيرة الأسود، أجفل: هرب مسرعًا في ذعر، والمعنى: توافد الأعداء متنمرينَ كالآساد فصددتهم ففروا مذعورين كالنعام.

(٤) في نسخة ز «فخبرهم بالمبكيات»، عصام: سيدة عاقلة أرسلها الحارث بن عمرو ملك كندة لتستطلع شأن بنت عوف بن محلم الشيباني تمهيدًا لخطبتها فلما عادت إليه بادرها بقوله: ما وراءكِ يا عصام؟ فذهبت مثلاً. راجع القصة بتمامها في الجزء الثاني من كتاب مجمع الامثال للميداني ص ١٨٠، ١٨١، والمعنى: مضوا يتساءلون عما ينتظرهم فينبئهم المخبر الصادق بما سوف يلقونه من أحداث جسام.

(٥) يشير إلى المثل «لو ترك القطا ليلاً لنام» بمعنى أن يحمل الانسان على المكروه مضطرًا، ومثله «مكره أخوك لا بطل»، والمعنى: إن جيوش الأعداء مسوقة إلى القتال مكرهة مضطرة ولولا ذلك ما باشرت القتال.

فــــداءٌ «لـبـــاديسَ» الـنُّفـــوسُ، وجـــادَهُ
من الـشـُكرِ - في أفْقِ الـوَفــاءِ - غَــمــام(١)

فــمـــا لَـحِــقَتْ تلك الـعـــهــودَ مَــلامــةٌ
ولا ذُمٌّ - من ذاك الـحِـــفـــاظِ - ذِمـــام(٢)

ومِـــثْلُكَ والَى مِـــثْلَهُ فَــتَــصــافَــيــا
كــمـــا صـــافَتِ - الماءَ الـقَــراحَ - مُــدام(٣)

رَســيلُكَ في شَــأْوِ الـمَــعــالي، كــلاكُــمــا
بـعـيـدُ الـمَـدَى صَـعْبُ الـهـمـوم هُـمـام(٤)

✡✡✡✡✡

لَعَــمْــري لقـــد أحْظَيْــتَـــهُ بوِفـــادةٍ
لأسْنَى كـــريمٍ أنجـــبَـــتْـــهُ كِـــرام(٥)

فــمـــا ابنُك إلا عِـــدْلُ نَفْــسِك، إن يَسِـــرْ
فللجــــسم لا للنفس منكَ مُــــقـــام(٦)

حُــســامُكَ مــهــمـــا تَخْــتَـرِطْه لِمِـثلِها
فـــقلَّ غَناءُ الـسَّـــيْفِ حين يُشـــام(٧)

****

(١) المعنى: إنّ باديس أمير البربر جدير بأن تفديه النفوس وأن يزف الوفاء إليه آيات الثناء.

(٢) المعنى: إن بيننا وبينه عهودًا مرعية لا يلحقها الملام وأذمة محفوظة لا يعتريها عتاب.

(٣) المعنى: إن ما بينك أيها الأمير وبين باديس من مودة وصفاء أصبح مثلاً في الولاء كما يمتزج الخمر بالماء الزلال.

(٤) في نسخة ت «وسلمك في شأو المعالي»، الرسيل: المقارن في النضال، الشأو: الغاية أو المساقة، والمعنى: شبيهك في السمو إلى غايات المعالي فكلاكما بعيد الآمال عظيم الهمم سخيٌّ شجاع.

(٥) المعنى: لقد أكرمت ابنك بأن أوفدته إلى باديس الكريم المنحدر من سلالة كرماء.

(٦) في ب، ز «فما ابنك إلا عدٌّ نفسك» والعدّ: القرين، والعدل: المماثل والنظير، قال مهلهل بن ربيعة التغلبي في رثائه لأخيه كليب من قصيدة:

علـى أن لـيس عِــــــدلاً مـن كـلـيب
إذا مـــا ضـــيم جـــيـــران المجـــيـــر

علـى أن لـيس عِــــــدلاً مـن كـلـيب
إذا برزت مـــخـــبّـــأة الخـــدور

والمعنى: ليس ابنك إلا مماثلا لك، فإذا سار عنك فإن نفسك تُتابعه وتسير خلفه وإن كان جسمك مقيمًا.

(٧) اخترط السيف: استله، شام الشيء. تطلع إليه، والمعنى: ابنك هو سيفك أعددته لمثل هذه الأمور الجسيمة، فهو يغني فيها مالا يغني في مثلها الحسام.

٢ – إلى أبي الوليد بن جهور

«صاغ الشاعر قصائده في مدح صديقه الأمير أبي الوليد بن جهور قبل ولايته للحكم وبعدها».

شكر وثناء

هل عَـهِـدنا الشَّـمْسَ تعـتـادُ الكِلَلْ؟
أم شَـهِـدنا البـدرَ يجـتـابُ الحُلَلْ؟[1]
أم قـضـيبَ البـانِ يعنيـه الهَـوَى؟
أم غـزالَ القَـفْـرِ يُصـبـيـه الغَـزل؟[2]
خـرَقَ العـاداتِ مُـبـدي صـورةٍ
حَـشـد الحُـسْنُ عليـهـا فـاحْـتَـفل[3]
مُـشْـرِبُ الصَّـفْـحَـةِ من مـاء الصِّـبـا
مُـشْـبَعُ الوَجنةِ من صـبغ الخـجل[4]
مَنْ عـذيري منه؟ إن أغْـبَـبْـتُـه
نسِيَ العَـهْـدَ، وإنْ عـاودتُ ملْ[5]

(١) الكلل: جمع كلَّه وهي نسيج رقيق يسمح بدخول الهواء ويمنع الحشرات ينصب فوق الأسرة ويسميه العامة (ناموسية)، يجتاب: يلبس، والمعنى: هي مشرقة كالشمس وضّاءة كالقمر، وإن كنّا لا نعهد الشمس تستتر خلف الكلل، ولا القمر يرتدي الحلل.

(٢) يعنيه: يسترعي اهتمامه، يصبيه: يثير صبوته وهيامه، والمعنى: هي ممشوقة القد كقضيب البان. رشيقة القوام كالغزال الشارد في الصحراء، وإن كنا لم نشاهد قضيبًا يجذبه الهوى، ولا غزالاً يستميلُه الغزل، وفي نسخ ب، ت، ز «يعليه الهوى».

(٣) خرق العادات: تجاوزها ونقضها، ولهذا تدعى المعجزات بالخوارق، حشد: جمع، احتفل القوم: اجتمعوا، والمعنى: هذا الحبيب الجميل تجاوز الحدّ في حسنه بإبدائه صورة رائعة فتانة وفد عليها الجمال من كل صوب فاجتمع فيها من أفانينه ما لم يجتمع لإنسان. وفي نسخ ب، ت، ز «حسد الحسن».

(٤) المعنى: ترقرق ماء الصبا في صفحة وجهه، وصبغ الخجل وجنتيه بحمرة الورود.

(٥) العذير: النصير، أغبّ الزائرُ القومَ: جاءهم يومًا وترك يومًا، والمعنى: من يعينني ويرشدني في معاملة هذا الحبيب؟ فقد حرت في أمره، فإنني إذا قللت زيارته نسيني، وإذا وصلته ملني.

قـــــاتـلٌ لـي بـالـتــــــجنّي خــــــالُـهُ
لـيت شِــعْــري أحَــلالٌ مــا اسْــتَــحَلْ؟[1]

☆☆☆☆☆

أيّهـــا الـمُـــــخْـــــتـــــالُ في زينَـتِـــهِ
أنتَ أوْلَـى الـناس بـالـخـــــالِ فَـــــخَلْ[2]
لــك إن أدلـــلـــتَ عُـــــــــــــــذرٌ واضــحٌ
كلُّ مـن ســـاعَـــفَـــه الحُـــسْنُ أدلْ[3]
ســـــبَـبُ الـسُّـــــــقمِ الـذي بَـرَّحَ بـي
صِـحَّــةٌ كــالسُّـقْمِ فِي تلك الـمُـقَلْ[4]
إنّ مـن أضــــــحى أبـاه «جَـــــهْــــوَرٌ»
قـــالـتِ الآمـــالُ عنـه فـــفـــعلْ[5]
مَـلِـكٌ لـذّ جَـنَـى الـعــــــــيش بـه
حــــيثُ وِرْدُ الأمنِ لـلـصّـــادي عَلَلْ[6]
أحـــسَنَ الـمُـــحـــسِنُ منّا فـــجَـــزَى
مـــثلمـــا لَجَّ مـــسيءٌ فـــاحْـــتَـــمَلْ[7]

---

(١) في الأصول «قاتل لي بالتجني ماله» ولعل الصواب ما أثبتناه، ويرجحه البيت التالي، التجني: افتعال التهم، ليت شعري: ليتني أعلم، الخال: الكبر والتيه، والمعنى: غرور هذا الحبيب وإعجابه بنفسه حمله على أن يتدلّل عليّ ويتصيد التهم الكاذبة ليلصقها بي تبريرًا لهجره لي، فمن ذا أحلّ له قتل المحبين؟

(٢) المختال: المتكبر، الخال: الإعجاب بالنفس، خال الرجل: تكبر وتاه على غيره فهو خائل، ومنه قول الشاعر الحماسي:

فـــإن كنت ســـيـــدنا ســـدتنا
وإن كنت للخـــال فـــاذهب فـــخل

والمعنى: أيها المعجب بنفسه المزهو بزينته أنت أحق الناس بالاختيال والفخر بما أحرزته من جمال فاختل ما شاء لك الحسن الاختيال.

(٣) أدلّ على صديقه أو حبيبه: وثق بمحبته فتجنّى عليه، ومنه المثل: «أدل فأمل»، والمعنى: لك عذرك في الدلال على أحبابك، ولا عجب فكل موسوم بالجمال خليق بالدلال.

(٤) المعنى: إن المرض الذي نهكني ناشئ عن فتور لحاظ هذا الغزال الساحر الفتان.

(٥) المعنى: إن من ينتسب إلى جهور لجدير بالفخار، وحري بأن يحقق فيه أكبر الآمال.

(٦) الجنى: الثمر الغض، الصادي: الظمآن، العلل: تكرار الشراب، والمعنى: طابت الحياة في ظل الأمير حيث استقر الأمان وتعدّدت موارد السعادة والنعيم.

(٧) المعنى: كافأ الأمير المحسنين على إحسانهم كما قابل إساءة المسيئين بالصفح والغفران.

سَـــعْـــيُــــهُ في كلِّ برٍّ مَــــثَـلٌ
إذ مـــســـاعي مَنْ يُناويـهِ مَـــثَلْ[1]
لا يَـزَلْ من حـــاســـديـه مُكْثِـــرٌ
أو مُـــقِلٌّ، سَـــبَقَ الـسَّـــيْفُ الـعَـــذَلْ[2]

☆☆☆☆

«يا بـني جَـــهْـــوَرٍ» الـدنيــا بـكمْ
حَلِيتْ أيّامُـــهـــا بـعـــد الـعطَلْ[3]
إنّـمـــــــــا دولـتـكُـم واسـطَـةٌ
أهدتِ الحُـــسْنَ إلـى عِـــقْـــدِ الـدُّوَلْ[4]
نـحـن مـن نَـعـــمـــائكمْ فـي زَهْـرةٍ
جَـدَّدت عـهـد الـربـيـع الـمُـقْـتَـبَلْ[5]
طـابَ كـــانـونٌ لـنـا أثـنـاءهـا
فكأن الشـــمس حَلّتْ بـالحَـــمَلْ[6]
زَهَرَتْ أخـــلاقُكُمْ فـــابتـــســـمتْ
كـــابتـــســـامِ الوردِ عن لـولـؤِ طَلْ[7]

☆☆☆☆

(١) مثل (الأولى): مثال مضروب للقدوة والاحتذاء، ناوأ: عادى، مثل (الثانية): جمع مائل (مثل: خادم وخدم) والماثل هو اللاصق بالأرض، والمعنى: إن فعال الأمير أصبحت مثالاً للاقتداء في السمو والجلال أما أفعال أعدائه فهي وضيعة لاصقة بالتراب.

(٢) «سبق السيف العذل» مثل يضرب لما فات تداركه ولا سبيل لتعديله، والمعنى: للحساد والحاقدين أن يكثروا من ذم الأمير أو يقللوا، فقد تم له الكمال ولن يضيره ذم حاقد أو حسود.

(٣) حليت: تزينت، العطل: التجرد من الزينة، والمعنى: لقد ازدانت بكم الدنيا بعد أن تجرّدت من الزينة في ما سلف من العصور.

(٤) واسطة العقد: هي الدرة التي تتوسطه وهي في العادة أنفس ما فيه، والمعنى: دولتكم يا بني جهور بين الدول كالجوهرة الثمينة التي تمتاز عن غيرها من الجواهر.

(٥) زهرة الدنيا: غضارتها وحسنها، والمعنى: نعيش من نعمكم في حياة مزدهرة ناعمة تذكرنا بعهود الربيع الجميلة المقبلة.

(٦) كانون الأول والثاني شهران من شهور الشتاء يقابلان ديسمبر ويناير، الحمل: برج من أبراج السماء الربيعية يطيب فيه الهواء. والمعنى: طابت الحياة في ظلالكم حتى إن جو الشتاء القارس تحول إلى جوّ معتدل محبوب.

(٧) زهرت: أضاءت، والمعنى: أضاءت أخلاقكم وطابت وابتسمت كما تفتر الورود مبتسمة عن الطلّ المنثور كاللؤلؤ الثمين.

أيّها البحر الذي مهما نَقِسْ
بالنّدى يُمْناهُ فالبحرُ وَشَلْ[1]

مَنْ لنا فيكَ بعَيبٍ واحدٍ؟
تُحْذَرُ العينُ إذا الفضلُ كَمَل[2]

شَرَفٌ تَغْنَى عن المدحِ بهِ
مثلما يَغْنَى عن الكُحْلِ الكَحَل[3]

☆☆☆☆

أنا غَرْسٌ في ثرى العَلْياء، لوْ
أبطأتْ سُقْيَاكَ عنه لذَبُلْ[4]

لِيَ ذِكْرٌ بالذي أسْدَيْتَهُ
نابهٌ، ودَّ حسودٌ لو خَمَل[5]

فليمُتْ بالداء مِنْ حالِ فَتًى
أدّبَتْه سِيَرُ الناسِ الأُوَل[6]

فَوَعَى الحكمةَ عن قائلهمْ:
«إلزَمِ الصِحّةَ يَلزمْكَ العَمل»[7]

أقبلتْ نُعماكَ تُهْدي نفسَها
لم أُرِغْ حظّيَ منها بالحِيَلْ[8]

---

(١) في الأصول «نقص» ولعل الصواب ما أثبتناه، الندى: الكرم، وشل: ماء قليل ينحدر من صخرة أو جبل، والمعنى: لقد بلغت الغاية في السخاء، فالبحر ضحل صغير إذا قِسناه إلى فيضك الغزير.

(٢) المعنى: حاولنا أن نجد فيك عيبًا واحدًا يرد عنك عيون الحاسدين، فإن الكمال مجلبة للحساد.

(٣) الكحل: سواد طبيعيّ في العين يغنيها عن التزين بالكحل، والمعنى: إن ما أحرزته من مجد وفخار يغنيك عن المديح والإطراء، مثلما يغني الحسن الطبيعي عن الحسن المجلوب.

(٤) المعنى: إنني نبات يانع في روضة العلياء يرتوي من منهلك العذب ولو أبطأ عنه ريك لأدركه الذبول.

(٥) أسديت: أعطيت، نابه: مشهور، خمل: أدركه النسيان أو لم يلتفت إليه إنسان، والمعنى: لقد طار ذكري بإحسانك إليّ حتى تمنى الحساد أن يقطع إحسانك عني فيدركني الخمول ويطويني النسيان.

(٦) المعنى: ليمت الحاقدون الحاسدون بغيظهم من سمو مكاني وارتفاع شأني، فإنني مقتد بأخلاق السابقين العالية وحكمهم الغالية.

(٧) اقتنعت بحكمة السابقين القائلة: «إلزم الصحة يلزمك العمل» وهو مثل معناه. راع الصواب والتزمه تجد أحسن تقدير من الحكام وتتفتح أمامك أبواب الأعمال.

(٨) لم أرغ: لم أطلب، والمعنى: لم أطلب منك نعمًا، وإنما هطلت عليَّ منك دون طلب أو رجاء.

فَـــــقَـــــبلتُ اليـــــدَ من بطنِ يدٍ
ظَهْـــرُها - الدهرَ - مَـــحَلٌّ للقُـــبَل[1]

كلُّـنا بُـلِّـغَ مـــــــــــا أمَّـلَـهُ
فـــــابْلُغِ الغَـــــايَةَ من كلِّ أمل[2]

وإذا مـــــــا رامَكَ الدهرُ فَـــــفُتْ
وإذا رُمْـتَ الأمـــــــــــــانيَّ فنَلْ[3]

****

(١) اليد: النعمة والإحسان، والمعنى: تقبلت الإحسان الصادر إلي من يدك السخية التي خلقت للتقبيل على مدى الأيام.

(٢) المعنى: لقد بلغنا بك أسمى آمالنا ونسأل الله أن يبلغك أقصى غاياتك من الآمال.

(٣) المعنى: نسأل الله أن ينجيك من غدرات الزمان وأن ينيلك أكرم الآمال.

آمال عريضة

«هذه القصيدة توحي بأن الشاعر صاغها في تهنئة أبي الوليد بن جهور بولايته الحكم».

ما للمُدامِ تديرها عيناكِ
فيميل في سُكر الصِّبا عِطفاكِ؟[1]
هلاّ مَزَجْتِ لعاشقيكِ سُلافَها
بَبَرودِ ظَلمكِ أو بعَذْبِ لَماكِ؟[2]
بل ما عليكِ - وقد مَحَضْتُ لكِ الهوى -
في أن أفوزَ بحُظوةِ المِسواكِ؟[3]
ناهيكَ ظُلمًا أن أضَرَّ بِيَ الصّدى
بَرْحًا، ونال الرِّيَّ عودُ أراكِ[4]

☆☆☆☆☆

واهًا لعَطفِكِ!! والزمانُ كأنَّما
صُبِغتْ غَضارتُهُ ببُرْدِ صِباكِ[5]

---

(١) في الخريدة «فيميل في نشواتها»، المدام: الخمر، عطفاك: جانباك، والمعنى: ما بال عينيك تفيضان بالنشوة المؤثرة تأثير الخمر فيهتز من تأثيرها جانباك في نشوة الصبا كما يهتز السكران؟

(٢) السلاف: ما تحلّب وسال قبل عصر الثمار وهو أجود الخمر، البرود: العذب البارد، الظلم: ماء الأسنان أو بريقها، اللّمى: سمرة الشفه ولعلها ناشئة من شدة الاحمرار، والمعنى: أتمنى أن تمزجي لعاشقيك كؤوس الراح بريقك العذب البرود.

(٣) محض: أخلص، الحظوة: المنزلة القريبة الطيبة، المعنى: ماذا يضيرك في أن أفوز من ريقك العذب بما يفوز به المسواك، وقد أخلصت لك الحب والهيام؟

(٤) آثرنا رواية الخريدة وفي الأصول «ونال البرء»، ناهيك: حسبك، برحًا: جهدًا ومشقة، الأراك: شجر تُتخذ منه المساويك، والمعنى: حسبك في وصف ما ألاقيه من عذاب أنني ظمآن إلى رشفة من ريقك العذب فلا أظفر بها على حين يظفر بها عود الأراك.

(٥) واهًا: كلمة تلهف أو تعجب، تقول واهًا على ما فات!! أي أسف عليه، وواهًا له أو به!! أي ما أطيبه، الغضارة: الخصب والنعمة، البرد: ثوب مخطط، والمعنى: أتحسر على ما مضى من أيام وصالك حين أقبل علينا الدهر وخلع علينا من السعادة حللاً كأنها مصبوغة من شبابك النضير.

والليلُ مهما طالَ قصَّرَ طولَهُ

هاتي وقد - غَفَلَ الرقيبُ - وهاكِ[1]

ولطالما اعْتَلَّ النَّسيمُ، فخلتُهُ

شكوايَ رَقَّتْ فاقْتَضَتْ شكواك[2]

إن تَأْلَفي سِنَةَ النؤوم خَلِيَّةً

فلطالما نافرتِ فيَّ كراك[3]

أو تَحْتَبي بالهَجْرِ في نادي القِلى

فلكمْ حَلَلْتُ إلى الوِصالِ حُبَاك[4]

✲✲✲✲

أمَّا مُنَى نفسي فأنتِ جميعُها

يا ليتني أصبحتُ بعضَ مُناك!![5]

يدنو بوصلِكِ حين شَطَّ مَزارُهُ

وَهْمٌ أكاد به أقبِّلُ فاك[6]

ولئن تجنَّبتُ الرشادَ بغَدرةٍ

لم يَهْوِ بي في الغَيِّ غَيْرُ هَواكِ[7]

✲✲✲✲

---

(١) المعنى: مهما طال ليل الوصال فإنه قصير، وقد طويناه في مقارعة الأكواب، أسقيك وتسقينني الراح، وأناولك وأتناول منك الكؤوس.

(٢) المعنى: طاب ليل اللقاء، وصفت فيه المتعة ورق النسيم، حتى حسبته شكوى رقيقة سرت مني إليك فقابلتِ رقتها بالرقة والحنان.

(٣) في الخريدة «فلطالما نافرت في ذكراك» أي ناضلت في سبيلك، المعنى: إذا كنت الآن هاجرة لي خالية من محبتي ناعمة بالرقاد فطالما مرت عليك ليال كابدت فيها السهر ودافعت عن عينيك الكرى من الشوق إليّ والهيام بي.

(٤) احتبى بالثوب: لفّه حوله وهو جالس ضام فخذيه إلى بطنه، وحلَّ حبوته: فكّ ثوبه ونهض قائمًا، القلى: الكره، والمعنى: إذا كنت الآن منصرفة عني كارهة لي فطالما جذبتك إلى لقائي فلبيت دعوة الوصال.

(٥) في تمام المتون «أما منى قلبي فأنت جميعه»، وفي سرح العيون «أما رجا نفسي.... بعض رجاك»، المعنى: إن جميع ما تشتهيه نفسي من الآمال يحوم حولك، ولا أتمنى إلا أن أكون أنا بعض ما يجوس بخاطرك من الآمال.

(٦) في تمام المتون «يدني مزارك حين شطّ به النوى»، والمعنى: إن شدة تعلقي بك توهمني بقربك فأراك على بعد الديار دانية مني، حتى أوشك أن أقبل فاك وإن كنت نائية المزار.

(٧) المعنى: إذا كنت قد غدرت بي وتنكرتِ لعهودي، فإنك سبب شقوتي وبلائي، وأنت التي شغلتني بك عن معالي الأمور وأوقعتني في الغيّ بعد الرشاد.

لِلْجَـــهْـــوَرِيِّ أبي الـولـيـــد خَــــلائقٌ
كــالرّوض أضْــحَـكَهُ الـغَــمــام الـبــاكي(١)

مَلِكٌ يســـــوسُ الـدهـرَ منه مـــــهـــــذَّبٌ
تـدبيـــــرُهُ لـلـمُلْكِ خَـــــيْـــــرُ مِـــــلاك(٢)

جـــارَى أبـاه بَعْـــدَ مـــا فـــات الـمَـــدَى
فـــــتـــــلاه بـيـن الـفَـــــوت والإدراك(٣)

شـــمسُ الـنّـهـــار وبَدْرُهُ ونُجـــومُـــهُ
أبـنـاؤه مـن فَـــرْقَـــدٍ وسِـــمـــاك(٤)

يَسْـتَـــوْضِحُ السّـــارون زُهْرَ كـــواكبٍ
منهمْ تنيــــرُ غـــيـــاهِبُ الأحــــلاك(٥)

بُشْـــراكِ يا دنيـــا، وبشـــرانا مـــعًـــا
هذا الـوزيرُ أبـو الـولـيـــدِ فَـــتَـــاك(٦)

[يَنَعَتْ جِنانُكِ تحت صَـــوْبِ غـــمـــامِـــهِ]
وَصَـــفَتْ جِـــمَـــامُكِ واســـتُلِذَّ جَناك(٧)

☆☆☆☆☆

تُلْفَى السِّـــيـــادةُ ثَمَّ إنْ أضْلَلْتَـــهـــا
ومــتـى فَـقَـدْتِ الـسَّــرْوَ فَــهْــوَ هُناكِ(٨)

---

(١) المعنى: شمائل الأمير رقيقة عذبة طيبة كأنها الروض يفترّ عن أطيب الجنى وأينع الأزهار حينما ينسكب عليه الغمام.

(٢) مِلاك الأمر (بفتح الميم وكسرها): قوامه الذي ينهض عليه، والمعنى: إنه ملك مهذب حكيم يستقر الملك بإحكام تدبيره وحسن سياسته.

(٣) المعنى: سما أبوه لمعالي الأمور فنال أقصى غاياتها، وتلاه الأمير فأدركه وكاد يفوته في السباق.

(٤) المعنى: وكما أن الأمير تابع أباه في أمجاده فإن أبناء الأمير تابعوه وأشرقوا في سمائه إشراق القمرين والنجوم.

(٥) الغياهب: الظلمات، الأحلاك: السواد، والمعنى: يقتدي السائرون في الظلمات بالكواكب الوضاءة من هذه الأسرة المجيدة فتنير لهم حوالك الظلمات.

(٦) المعنى: هنيئًا لك أيتها الدنيا بالأمير وهنيئًا لنابه، فهو فتاك الفتي وأميرنا المحبوب.

(٧) ورد البيت في الأصول ناقصًا شطره الأول وقد أكملناه بما يناسب المعنى. صوب الغمام: هطول المطر، الجمام: المياه الغزيرة، الجنَى: الثمار الغضة الناضجة، والمعنى: لقد ارتويت أيتها الدنيا من سحبه الهاطلة فازدهرت خمائلك وصفت مواردك وطاب ثمرك الحلو اللذيذ.

(٨) في الأصول «تلق» هو تحريف، ثم: هناك، السرو: الشرف والمروءة، والمعنى: إذا افتقدت أيتها الدنيا شمائل السيادة وإذا أعوزتك خلائق السؤدد والمروءة فإنك تجدينها متمثلة فيه وحده.

وإذا سَـــمِـــعْتِ بـواحــدٍ جُـــمِـــعَتْ لـه

فِــــرَقُ المحـــــاسنِ في الأنـام فــــذاكِ[(١)]

صَـــــمْـــــصَـــــامُ بادرةٍ، وطَـودُ سكينـةٍ

وجــــــواد غـــــاياتٍ، وجِـــــذْلُ حِكاك[(٢)]

طَلْقٌ يُفنِّدُ في السَّـــمــــاح، وجـــــاهلٌ

مَنْ يَسْـــتَـــشِفُّ الـنـار بـالـمِـــحـــراك[(٣)]

✵✵✵✵

صَنَعُ الضَّـــمـــيـــرِ، إذا أجـــالَ بمُـهـــرَقٍ

يُـمـنـاهُ في مَـــــــهَـلٍ وفي إيـشـــــــاك[(٤)]

نَظَمَ البـــــلاغــــةَ في خـــــلال سُطورِهِ

نَظْمَ اللآلِي الـتُّـــــومِ في الأســــــلاك[(٥)]

نادى مـــســـاعِـيَـــهُ الزّمـــانُ منافِـسًـا:

أحــــرزتِ كلَّ فـــضـــيـلةٍ، فكفـــاكِ[(٦)]

مــــا الوردُ في مَـــجناهُ ســـامَـــرَهُ النَّدى

مُــــتــــحلّيًـــــا إلا ببـــعضِ حُـــلاكِ[(٧)]

---

(١) المعنى: إذا كان هناك إنسان تجمعت فيه أشتات المحاسن فهو الأمير.

(٢) الصمصام: السيف الصارم الذي لا ينثني، البادرة: الحدّة، الطود: الجبل، جذل حكاك: غصن شجر تحتك به الإبل الجربى لتبرأ، ولعل فيه مادة كبريتية، ومنه: قول الحباب بن المنذر الأنصاري يوم سقيفة بني ساعدة: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجّب أي أنا شفاء للمرض وغذاء للصحة، ومنه قول الشاعر:

وإني لأقـــــوام جـــــذيلٌ مـــــحككٌ

وإني لأقـــــوام عــــــذيقٌ مـــــرجّب

العذيق المرجب: الغصن الحامل للثمار الذي يشد ويسند لئلا يكسره حمله، والمعنى: الأمير كالسيف البتار في الشدة، والجبل الراسخ في الوقار، والجواد السباق في حلبة الرهان، والشفاء الشافي من كل داء.

(٣) الطلق: المتهلل السمح، يفنّد: يلوم، يستشف الشيء: يستطلع ما وراءه، والمعنى: إن الأمير كريم يهتز للسماح ويتهلل للجود، ولا يزيده اللوم إلا إمعانًا في الكرم كما تزداد النار اشتعالاً عند تحريكها.

(٤) صنع: حاذق ماهر، مهرق: صحيفة، إيشاك: إسراع.

(٥) التوم: المزدوجة، ومعنى البيتين: إن الأمير فطن حاذق، إذا أجال قلمه في صحيفة فاضت بلاغته وتدفقت معانيه فنظمها كما ينظم الصائغ اللآلئ المزدوجة في الأسلاك.

(٦) المعنى: صاح الزمان هاتفًا بمآثر الأمير: لقد نلت كل الفضائل، فحسبك ما أحرزت من أمجاد.

(٧) المعنى: إن الورد اليانع تحت قطرات الندى لا يتحلى إلا ببعض ما يتحلّى به الأمير من آلاء.

كــــلاَّ ولا الــمِــــسْكُ النَّمُــــومُ أريـجُـــــهُ

مـــــــتــــــــعطّرًا إلا بـوَسْمِ ثَـنـاكِ(١)

اللَّـهْــــــوُ ذِكْـــــرُكِ، لا غِـنـاءُ مُـــــرَجِّعٍ

يَفْــــتَنُّ في الإطـلاقِ والإمـــــســـــاك(٢)

طـارتْ إلـيـكِ بـأولـيــــــــــــائـكِ هِـزّةٌ

تَـهْــفــو لهـــا أسَــفًـــا قلوب عِـــداك(٣)

✡✡✡✡

يـأيّهــــا الـقَــــــمَـــــرُ الذي لـسَنـائِهِ

وسَنـاهُ تـعْـنو الـسَّــــبْعُ في الأفـــــلاك(٤)

فَـــــرَحُ الـريّاســــةِ إذ ملـكتَ عنانَـهـــــا

فـــرحُ الـعـــــروس بصــحّـــةِ الإمـــلاك(٥)

من قــــال: إنك لستَ أوْحَـــــدَ في النُّهى

والـصـــــالحــــاتِ فَــــدَانَ بالإشـــــراك(٦)

قَلِّدْنِيَ الـرأيَ الجـــــــمـــــيلَ، فــــــإنَّهُ

حَــــسْــــبي ليَـــوْمَيْ زينـةٍ وعِــــراكِ(٧)

---

(١) النموم: المذيع الناقل الإشاعات، الأريج: توّهج ريح الطيب، الوسم: العلامة والصفة، الثنا: مقصور الثناء وهو المديح، وقد يكون «نثاك» والنثا: ذكر الصفات حميدة أو ذميمة: والمعنى: لا يطيب عبير المسك إلا متعطرًا يسرد محاسنك والثناء عليك.

(٢) الترجيع: ترديد الصوت في التلحين، والمعنى: إن ذكرك يشيع فينا الطرب، فيغنينا عن تفنن المغنين في الترجيع والتنغيم والوقوف والانطلاق.

(٣) الهزة: النشاط والارتياح، تعنو: تخفق وتضطرب، والمعنى: خف إليك أنصارك في بشر وارتياح، فذابت قلوب الأعداء من الآلام والأشجان.

(٤) السناء: الرفعة، السنا: الضوء، تعفر. تذل وتخضع، والمعنى: أيها الأمير الجليل بزغت في آفاقنا كالبدر فدانت لرفعتك وأضوائك الكواكب السبع السيارة.

(٥) العنان: اللجام، الإملاك: عقد الزواج، والمعنى: فرحت الرياسة بإسنادها إليك كما تفرح العروس بالزواج.

(٦) دان بكذا: اعتقده، والمعنى: من اعتقد وجود شريك لك في ذكائك الوقاد فقد أشرك في الرأي وأصبح كالمشرك في العقائد.

(٧) المعنى: وَلِّني وزارة الرأي (المشورة) فإنّ هذا المنصب يرضيني في أيام الحروب والسلام.

وإذا تحـــــــدّثَتِ الحـــــــوادثُ بـالـرّنـا

شَـــــزرًا إلـيّ فَـــــقُلْ لـهــــا: إياكِ!![1]

هُوَ في ضَـمـانِ الـعـزمِ يَـعْـبِس وجـهُـهُ

للـخطبِ والخُلُق النّدي الضّـــحّـــاك[2]

✡✡✡✡

وأَحَمَّ داريٍّ تَـضَـــــــاعَفَ عِـــــــزُّهُ

لـمّـــا أُهِـينَ بِـمِـــسْـــحَقٍ ومَـــداك[3]

والـدَّجْنُ للشّـــمس المنيـــرةِ حـــاجبٌ

والجَـفنُ مَـثْـوَى الصّــارم الفَـتّــاك[4]

هَنأتْكَ صِـــحّـــتُكَ التي لـو أنّهــــا

شـــخـصٌ أحــــاوِرُهُ لـقلتُ: هـنَاك!![5]

دامتْ حـــيــاتُكَ مـــا اسْـتُـدِمْتَ، فلم تزل

تَحْـــيــــا بكَ الأخـطارُ بَعْـــدَ هَـلاكِ[6]

****

(١) رنا: أدام النظر، نظر إليه شـزرًا: نظر إليه بمؤخر عينه في غضب، والمعنى: إذا تجهمت لي الأحداث فازجرها وادفعها قبل أن تنالني بسوء.

(٢) المعنى: قل للحوادث إنني في ظل حمايتك وعزمك الدافع للخطوب، وتحت رعاية كرمك السخي المتهلل العطوف.

(٣) أحم: أسـود، داريّ: عطار منسـوب إلى دارين، وهـي فرضـة بالبحـرين فيـهـا سـوق للمسـك الوارد إليـهـا من الهند، وفي الحديث «مثل الجليس الصالح مثل الداريّ، إن لم يحذك (أي يعطيك) من عطره علقك من ريحه»، مسحق: آلة لسحق المسك، المداك: حجـر يسحق عليه الطيب، والمعنى: إذا كانت الأحداث قد أساءت إليّ حتى بسطت حمايتك عليّ فإن الشدائد تظهر عـزمات الرجال وتكشف عن معادنهم النقية، شأنهم في هذا شأن المسك يفوح أريجه وينتشر عبيره حينما يدقه ويفته العطار.

(٤) يشير الشاعر في هذا البيت والبيت السابق لأيام محنته، والمعنى إذا كنت قد سجنت فالشمس يحجبها السحاب، والسيف يحويه القراب.

(٥) المعنى: هنيئًا لك أيها الأمير بالصحة ولو أنها تمثلت إنسانًا لهنّأتها بك.

(٦) الخطر: المنزلة والقدر، والمعنى: أسأل الله أن يطيل حياتك ما دمنا نطلب دوامها، فلن نكف عن هذا الطلب مدى الحياة، فإنك تقدر أخطار الناس وتعرف منازلهم وترجعها لنضرتها بعد الذبول، وفي نسخة أ «فإنها تحيا بك».

يد مشكورة

أصدر الأمير أمرًا بكسر دنان الخمر، ولعله أراد بهذا أن يقضي على ما شاع عنه وعن أصدقائه من تورط في الشراب أيام الشباب، فمدحه الشاعر بهذه القصيدة:

أجل، إن ليَلى حيث أحياؤها الأَسْدُ
مهاةٌ حَمَتْها - في مراتعها - أُسْدُ[١]
يمانيّةٌ تدنو، وينأى مَزارُها
فَسِيّانِ منها في الهَوَى القربُ والبعدُ[٢]
إذا نحن زرناها تمرّد «ماردٌ»
وعزّ - فلم نظفرْ به - «الأبلقُ الفردُ»[٣]

---

(١) الأسْد أو الأزد بن الغوث: أبو حيّ باليمن، ومن أولاده الأنصار، ويقال أزد شنوءة وأزد عمان، المهاة: البقرة الوحشية، أُسْد: جمع أسد، والمعنى: إن هذه الفتاة التي تنتمي لأسد هي ظبية يحيط بها من قومها الأسود الكواسر.

(٢) المعنى: تنتمي إلى اليمن وهي على قربها بعيدة المنال، لا سبيل للوصول، إليها، فيستوي منها القرب والبعاد، ومثله قوله من قصيدة سابقة (ص ٢٨٥):

شحطنا، وما للدار نأي ولا شحط
وشط بمن نهوى المزار، وما شطوا

والنسبة إلى اليمن، يمني، وكذلك يماني على غير قياس.

(٣) تمرّد: عتا وتجبر، مارد: حصن بدومة الجندل، الأبلق: حصن بتيماء، قصدتهما الزباء ملكة تدمر فعجزت عن فتحهما فقيل: «تمرّد مارد، وعزّ الأبلق»، وهو حصن السموءل الذي يقول فيه:

لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يردّ الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره
يعزّ على من رامه ويطول

وفيه يقول الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزلة
حصن حصين وجار غير غدار

والمعنى: إن هذه الغادة في مكان منيع لا سبيل إلى اقتحامه.

تَحــولُ رمــاحُ الخَطِّ دونَ اعــتــيــادها
وخــيلٌ تمطَّى نحــو غــاياتهــا جُــرْدُ(١)

لحيٍّ لَقـــــاحٍ، تأنَفُ الضَّـــــيْمَ منهمُ
جَـحــاجِـحَـةٌ شِيبٌ وصُـيَّـابةٌ مُـرد(٢)

أبٌ ذو اعــــتـــزامٍ، أو أخٌ ذو تَسَــــرُّعٍ
فشَيْحـانُ مـاضي الهمِّ، أو فـاتكٌ جَلْدُ(٣)

فما شِيمَ - من ذي الهبّةِ الصارمِ - الشبا
ولا حُطَّ عن ذي الـمَيْعَـةِ السّابحُ اللُّبْدُ(٤)

٭٭٭٭٭

وفي الكِلَّة الحــمــراءِ وسْطَ قِــبــابهمْ
فـتـاةٌ كـمـثْلِ البـدر قـابَلَهُ السَّـعْـدُ(٥)

عَـــقـــيلَـةُ سِـــربٍ لا الأراكُ مَـــرادُهُ
ولا قـــمِنٌ منه البَـــريرُ ولا الـمَـــرْدُ(٦)

---

(١) الخط (بفتح الخاء وكسرها): موضع باليمامة تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من الهند فتقوّم فيه، الخيل الجرد: التي قصر شعرها ورق، والمعنى: من العقبات التي تحول دون الوصول إلى هذه الفتاة الكتائب الملتفة حول خبائها حاملة الرماح الخطية مستعدة بالجياد المطهمة.

(٢) حيٌّ لقاح: لا يخضعون لحاكم أو أمير، جحاجحة: سادة كرماء، صيّابة وصوّابة القوم: خلاصتهم ولبابهم، مرد: جمع أمرد وهو الذي لم تنبت لحيته، والمعنى: إن حول هذه الفتاة عشيرة عزيزة أبت أن تخضع لحاكم أو أمير، وهي مكوّنة من شيوخ سادة حكماء كرماء وشبان من صفوة الشبان المتصفين بالعزة والإباء.

(٣) شيحان: غيور أو طويل، ماضي الهم: صارم العزم، فاتك: مقدام جسور، جلد: صلب متين، والمعنى: هذه العشيرة تتكون من أب قوي العزيمة شديد الغيرة أو أخ قويّ الشكيمة صلب العود مندفع إلى النضال.

(٤) شام الشيء: تطلع نحوه ببصره منتظرًا له، وشام البرق: نظر إلى سحابته أين تُمطر، الهبة (بفتح الهاء وكسرها): مضاء السيف، الصارم: القاطع المرهف، الشبا: الحدّ، الميعة: الجري، السابح: الجواد المسرع كأنه يسبحُ في الهواء، اللّبد: الجلد أو الشعر المصنوع منه السرج، والمعنى: لم تحتج هذه العشيرة إلى سلّ سيوفها لأنها مرهوبة الجانب، ولكنها مع هذا متهيئة مستعدّة، فخيولها مسرجة ملجمة متأهبّة للجلاد.

(٥) الكلّة: الستر الرقيق الذي يسمح بدخول الهواء ويمنع الهوام ويتخذ وقاية للأسرّة عند النوم، السعد أحد نجوم كثيرة تبلغ العشرة، والمعنى: هذه الفتاة مصونة بين عشيرتها وضاءة كالبدر المنير.

(٦) العقيلة: الكريمة المخدّرة، الأراك: شجر تتخذ من أغصانه المساويك، المراد: مكان الارتياد وهو طلب الكلأ، قمن: خليق أو جدير، البرير: أول ثمار الأراك، المرد: الناضج من ثمر الأراك، والمعنى: هي فتاة كريمة مصونة نشأت في مهاد الترف والنعيم، فليست بحاجة إلى جني الثمار، ولا السعي في سبيل نيلها، لا هي ولا أسرتها، بل تحصل على ما تشاء دون مشقة أو عناء.

تَهادى فيُضْنيها الوشاحُ غريرةً
تأوّهُ مهما ناسَ في جِيدها العِقْدُ[1]
إذا استُحفِظتْ سِرَّ السُّرى جُنْحَ لَيْلِها
تَنَاثَى النَّمومانِ: الألُوَّةُ، والنَّدُ[2]
لها عِدَةٌ بالوصل، يوعِدُ غِبَّها
مصاليتُ، يُنْسى - في وعيدهمُ - الوَعْدُ[3]
عزيزٌ عليهمْ أن يعودَ خيالُها
فيُسعِفَ منها نائلٌ في الكرى ثَمْدُ[4]
كفى لَوْعَةً أنَّ الوِصالَ نسيئةٌ
يُطيل عَناءَ المُقْتَضي، والهَوَى نَقدُ[5]
ستُبلِغُها عنّا الشَّمالُ تحيّةً
نوافحَ أنفاسِ الجنوبِ لها رَدُّ[6]
فما نُسِيَ الإلف الذي كان بيننا
- لطول تنائينا - ولا ضُيِّعَ العَهْدُ[7]

☆☆☆☆

---

(١) الوشاح: وسام من نسيج محلى بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها، ناس: تحرّك واضطرب، والمعنى: تتمايل في سيرها في رقة وسذاجة فيثقلها حمل الوشاح المرصع بالحليّ، وإذا تحرّك العقد حول جيدها تأوهت لرقة بشرتها ونعومة أديمها.

(٢) تناثى: تحدّث من نثا الحديث أي حدّث به وأشاعه، وتناثوا الحديث: تذاكروه، الألوّة: عود يتبخر به، النّدّ: ضرب من الطيب، والمعنى: إذا سرت متخفية للقائي تحت أستار الظلام نمّ عليها عبيرها الطيب.

(٣) غبّها: بعدها، مصاليت: ذوو عزم ومضاء، الوعد يستعمل في الخير، والوعيد في الشر، والمعنى: قد تعدني بالوصال ولكنّ وعيد أهلها أولي العزم والمضاء يقضي على وعدها المنشود.

(٤) يعود: يزور، نائل: عطاء، الثمد والثمد: الماء القليل، والمعنى: يعز على أهلها أن ترسل إلينا طيفها في المنام فتسعفنا بالقليل من الوصال، ولو في عالم الخيال.

(٥) بيع النسيئة: ما تأجل فيه دفع الثمن، وضدّه بيع النقد، المقتضِي المطالب بالثمن، والمعنى: كفانا ألمًا وحزنًا أننا لا نظفر من الوصال إلا بوعود آجلة مع أننا نمنحها الهوى عاجلين.

(٦) الشمال: الريح التي تهبّ منها، والجنوب: الريح المقابلة للشمال، النوافح: جمع نافحة وهي النسمة الهابة، وقد تكون النوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك، والمعنى: ستبلغها عنا الرياح الشمالية أنباء لوعتنا وهيامنا فتردّ عليها نفحات الرياح الجنوبية.

(٧) الإلف: الأنس والمحبة، تنائينا: تباعدنا، والمعنى: على الرغم من طول البعاد وشدة الرقابة فإننا ما زلنا منطوين على الحب متمسكين بالعهد.

لئنْ قـيلَ: «في الجِّـدِ النَّجاحُ لطالبٍ»
لَقلَّ غَناء الجِـدِّ مـا لـم يكن جَـدُّ(١)
ينالُ الأمـاني بالحظيـرة وادعٌ
كـمـا أنه يُكدي الذي شـأنُهُ الكدُّ(٢)

☆☆☆☆☆

هُوَ الدهرُ مـهـمـا أحـسنَ الفعلَ مـرّةً
فـعن خطأٍ، لكنْ إسـاءتُهُ عَـمْـدُ(٣)
حِـذارَك أن تغـتـرَّ منه بجـانبٍ
فـفي كلِّ وادٍ من نوائبـهِ «سَـعْـد»(٤)
ولولا السُّراةُ الصِّيدُ من آل «جَـهْـوَرٍ»
لأعْـوَزَ من يُعـدي عليـه مـتى يَعـدو(٥)
ملوكٌ لبـسنا الدهـرَ في جنبـاتهمْ
رقـيقَ الحـواشي مـثلمـا فُـوِّفَ البُـرْد(٦)
بحـيثُ مَـقـيلُ الأمنِ ضـافٍ ظِلالُه
وفي مَنْهَلِ العـيشِ العـذوبةُ والبَـرْدُ(٧)

---

(١) الجِد: الكدح والاجتهاد، الجَد: الحظ، المعنى: إذا كان النجاح في الأمور مرتبطًا بالسعي والكد في سبيله فقلَّما يغني السعي إذا لم يصادف الحظ الحسن كل كادح مجاهد.

(٢) الحظيرة: الأموال المقصورة على صاحبها المحظورة على غيره، وفي هذا يقول العرب للرجل القليل الخير: إنه لنكد الحظيرة، أكدى: أخفق ولم يظفر بحاجته، والمعنى: قد يظفر الوادع الهادئ بما يتمناه من آمال مجموعة وأموال محشودة دون مشقة أو عناء، وقد يبوء بالخيبة والفشل من يضنيه الجسد والكفاح.

(٣) المعنى: من شيمة الدهر الإساءة، فالشر طبيعة فيه يجري فيه على فطرته، أما إذا أحسن فإن إحسانه عارض غير مقصود.

(٤) «في كل واد سعد بن زيد»: مثل يضرب في أن الشر منتشر في كل مكان وأصله أن الأضبط بن قريع بن عوف بن سعد بن زيد مناة رأى من أهله وقومه أمورًا كرهها ففارقهم، فرأى من غيرهم مثلما رأى منهم، فقال: «في كل أرض سعد بن زيد»، والمعنى: احترس أن تغتر بجانب من جوانب الدهر فكل جانب من جوانبه مصدر للأذى والشرور.

(٥) أعدى فلانًا على فلان: نصره وأعانه وقوّاه، المعنى: لولا السادة الأشراف من بني جهور لأعوزنا من ينصرنا على عدوان الزمان.

(٦) برد مفوّف: ثوب رقيق أو فيه خطوط بيض، الحواشي: الذيول أو الأطراف، والمعنى: عشنا في ظل هؤلاء الملوك فصفت لنا الحياة وطاب العيش وازدانت الدنيا كأنما لبست أرق الغلائل وأثمن الأبراد.

(٧) المعنى: استقر لنا الأمن في ظلالهم السابغة، وطاب لنا منهل العيش في عذوبة وصفاء.

هُمُ النَّفَـــرُ البِـــيضُ الذين وجـــوهُـهمْ
تروقُ فـتـسـتـشـفي بـهـا الأعـينُ الرُّمـدُ[1]
كـــرامٌ يَمُـــدُّ الراغـــبـــون أكـــفَّـــهمْ
إلى أبحُـــرٍ منهم لـهـــا باللُّهَـــا مَـــدُّ[2]
فـــلا يُنْـعَ منـهم هالكٌ، فَـــهْـــوَ خـــالدٌ
بـآثـاره، إن الـــثَّـــنـــاء هـــو الخُـــلـــدُ[3]
«أقِلّوا عـلـيــــــهمْ - لا أبـا لأبـيـكـمُ!! -
من اللومِ، أو سُـدّوا المكانَ الـذي سَـدّوا[4]»
أولئك إن نِمْنا سَـــــرَى في صـــــلاحنا
سِجـاحٌ علينا كُـحْلُ أجْـفـانِهم سُـهْـدُ[5]

☆☆☆☆☆

ألـيس «أبـو الحـــزم» الذي غِبُّ سَـعْـــيِـــهِ
تَبَـصُّــرَ غـــاوينا فـبـــانَ لـه الرُّشْـــدُ[6]
أغَـــرُّ تَمَـــهَّـــدْنا به الخَـــفْضَ بـعـــدمـــا
أقَضَّ علينا مَـــضْـــجَـعٌ ونَبـــا مَـــهْـــدُ[7]

---

(١) المعنى: إنهم يشرقون علينا بوجوههم المتبلجة البيضاء فيزيلون عن العيون ما يصيبها من رمد أو عياء.

(٢) اللها: جمع لهية ولهوة وهي العطية أو أفضل العطايا وأجزلها، والمعنى: هم في السخاء كالبحار الزاخرة تمتد أيدي الراغبين إلى مدّها الغزير الحافل بالعطايا والهبات.

(٣) المعنى: ينبغي ألا ننعى أحدهم إذا هلك، فإن آثاره الباقية وما صيغ فيه من آيات الثناء يكفل له الخلود.

(٤) ورد البيت مضطربًا ناقصًا في الأصول، وهو بيت للحطيئة في مدح آل شماس بن لأي، اقتبسه ابن زيدون، وقد أصلحناه بالرجوع إلى أصله ويليه هذا البيت:

أولئك قـــوم إن بنوا أحـــسنوا البنى
وإن عـاهدوا أوفـوا، وإن عـقـدوا شـدوا

والمعنى: أيها اللائمون كفوا عن لومهم أو انهضوا بأمجادهم إذا استطعتم.

(٥) رجل سجح: لين سهل حسن الخلق، وقد جمعه الشاعر على سجاح والأفصح سجح، والمعنى: إذا نمنا سهر على مصالحنا هؤلاء الملوك الأسخياء فإن مصالح الرعية تؤرق أجفانهم.

(٦) غبّ: عقب، الغاوي: الضال، والمعنى: إن مآثر أبي الحزم بن جهور أنارت لنا الطريق، فاهتدى بها الضالون واحتذاها المحتذون.

(٧) أغرّ: شريف أو أبيض، تمهّد: تهيأ، الخفض: الدعة، أقض المضجع: خشن، نبا المهد: تجافى ولم يلن للراقد، والمعنى: إنه ملك شريف مهّد لنا العيش الرغد بعد أن اضطربت الأمور وساءت الأحوال.

لَشَـمَّـرَ حـتّى انْجـابَ عـارضُ فِـتنةٍ

تـألّق منهـا البَـرقُ واصطخبَ الرَّعْـدُ(١)

فـسـالمَ من كـانتْ لـه الحـربُ عـادةً

ووافقَ مـن لا شكّ فـي أنـه ضِـدُّ(٢)

هـو الأثرُ المحـمـودُ، إنْ عـادَ ذِكْـرُهُ

تطلّعتِ العَلْيـاءُ واسْـتَـشْـرَفَ المجـد(٣)

تولّـى، فلولا أن تـلاه «مُـحَـمَّـدٌ»

لأوطأ خـدَّ الحُـرِّ أَخْـمَـصَـهُ العَـبْـد(٤)

☆☆☆☆

مَـليكٌ يسـوسُ الـمُلْكَ منه مُـقَلَّدٌ

روى عن أبيـه فـيـه مـا سَنَّهُ الجَـدُّ(٥)

سـجيّـتُـهُ الحُسْنَى، وشِيمـتُـهُ الرضى،

وسيـرتُهُ المُـثلَى، ومـذهبُـهُ القَصْد(٦)

هُمـامٌ إذا زانَ النَّديَّ بحَـبْـوةٍ

تَرَجَّحَ في أثنائهـا الحَسَبُ العِـدُّ(٧)

---

(١) انجاب: زال، العارض: السحاب المعترض الأفق، والمعنى: شمّر الأمير عن ساعديه في مقاومة الفتن والثورات حتى صفا الجوّ لرعيته بعد اضطراب.

(٢) المعنى: كانت خطة الأمير أن تنعم رعيته تحت ظلال السلام، فسالمه الملوك الذين اعتادوا الحرب، وتعاهد معه من كانوا له ضدًا.

(٣) استشرف الشيء: رفع البصر ناظرًا إليه، والمعنى: إن آثار أبي الحزم فينا خالدة، كلما عاد ذكرها تطلعت إليها المعالي ورنت إليها الأمجاد.

(٤) الأخمص: مالم يمس الأرض من باطن القدم، والمعنى: مضى أبو الحزم ولولا أن ابنه محمدا أبا الوليد وليَ الأمر من بعده لفسدت أحوال الرعية وانتكست أمورها فداس العبيد بأقدامهم وجوه الأحرار.

(٥) المعنى: إنه ملك عظيم يسير في أمجاده متبعًا ما سنّه له آباؤه وأجداده السابقون.

(٦) سجيته: طبيعته، المثلى: الفضلى، القصد: العدل أو الاعتدال.

(٧) النديّ: مجلس القوم أو مكان حديثهم ومثله الندوة والنادي والمنتدى والـمُتندّى، الحبوة: جلسة يجمع الجالس فيها فخذيه إلى بطنه ويلف حوله ثوبًا أو يسندهما بيديه ويكنى بها عن الوقار، الحسب: الفخر الموروث، العدّ: العديد، والمعنى: إذا زان الأمير المجالس محتبيًا فيها ظهرت فيه مآثر آبائه وأجداده.

زعـــــيمٌ لأبـنـاء الـسّــــــيـــــادة بـارعٌ
علـيــهمْ، بـه تُثْنَى الـخـناصِـرُ إن عــدّوا(١)
بـعـــيـــدُ مـنـالِ الحـــالِ، داني جَـنَـى النَّدى
إذا ذُكِـــرتْ أخـــلاقُـــهُ خَـــجِـلَ الـوَرْدُ(٢)
تَـهَـلَّلَ فـــــانْـهلَّتْ ســـــمـــــاءُ يـمينـهِ
عطايا، ثَرى الآمالِ - من صَوْبِها - جَعْدُ(٣)
مُـــمِـــرٌّ لمن عـــاداه، إذ أولـيـــاؤهُ
يلذُّ لـهم كـــالمـاء شِــيبَ بـه الـشُّـــهْـــدُ(٤)
إذا اعْـتَـرَفَ الجـاني عـفـا عَـفْـوَ قـادرٍ
عـــلا قَـــدْرُهُ عن أن يَلِجٌ بـه حِـــقْـــدُ(٥)
ومُـــتّـــئِـــدٌ لـو زاحم الطَّوْدَ حِلمُـــهُ
لحـــاجَـــزَهُ ركنٌ مِنَ الـطّود مُنْـهَـــدُّ(٦)
لـه عـــــزمـــــةٌ مـطويّةٌ في سـكـينـةٍ
كـمـا لانَ مـتنُ السَّيْفِ واخْشَـوْشَنَ الحَـدُّ(٧)

(١) المعنى: هو زعيم السادة الأشراف لتفوّقه عليهم بمآثره، وإذا عددناهم كان هو أول المعدودين «والمعروف أن الإنسان إذا عدّ شيئًا بأصابعه ثنى خنصره أولاً».

(٢) الحال: الصفة، الجنى: الثمر الغض، والمعنى: لا يستطيع أحد أن يرتفع إلى صفاته، فهو سامي الشمائل، وهو مع هذا قريب السخاء، ترق سجاياه حتى يخجل الورد إن قسناه به.

(٣) الصوب: نزول المطر، جعد: ند، والمعنى: تهلل وجه الأمير بالسماح، ففاضت يمينه بالعطايا حتى أصبح الأمل به خصيب التربة يانع الثمار.

(٤) ممر: مر من أمر الشيء: صار مرًّا، شيب: مزج، والمعنى: الأمير مر على أعدائه حلو لأوليائه كحلاوة الشهد الممزوج بالماء العذب الزلال.

(٥) المعنى: الأمير قوي قادر، ولكنه يعفو عن المسيء إذا اعترف بذنبه، فهو أرحب صدرًا وأوسع عفوًا من أن يسيطر عليه الحقد فيدفعه إلى التمادي في العقاب.

(٦) متئد: متمهل، الطود: الجبل العظيم، حاجزه: مانعه، والمعنى: الأمير وقور مهيب كالطود الراسخ، ولو حاول الطود أن يجاري حلمه لانهار جانبه أمام حلم الأمير.

(٧) المعنى: للأمير عزمات قوية رهيبة، ولكنها محجوبة بهدوئه وسكينته ووداعته مثل السيف البتار تلين صفحته ويقطع حدّه.

يُوكِّلُ بالتدبيرِ خاطرَ فكرةٍ
إنِ اقْتَدَحَتْ في خاطرٍ أثْقَبَ الزَّنْدُ[(١)]

ذِراعٌ - لما يأتي به الدهرُ - واسعٌ
وباعٌ - إلى ما يُحرِزُ الفخرَ - مُمْتَدُّ[(٢)]

إذا أسْهَبَ المُثْنونَ فيه شَأتْهُمُ
مراتب عُليا كَلَّ عن عَفْوِها الجَهْدُ[(٣)]

هُوَ المَلِكُ المَشْفوعُ بالنُّسْكِ مُلكُهُ
فيا فضلَ ما يَخْفَى ويا سَرْوَ ما يبدو[(٤)]

إلى اللّهِ أوّابٌ، ولِلّهِ خائفٌ
وباللّهِ مُعْتَدٌّ، وفي اللّهِ مُشْتَدُّ[(٥)]

☆☆☆☆

لقد أوْسَعَ الإسلامَ بالأمس حِسْبَةً
نَحَتْ غَرَضَ الأجْرِ الجزيلِ فلم تَعْدُ[(٦)]

أباحَ حِمَى الخمرِ الخبيثةِ، حائطًا
حِمَى الدينِ منْ أنْ يُسْتَباحَ له حَدُّ[(٧)]

---

(١) المعنى: للأمير بديهة لماحة يكل إليها تدبير الحلول للمشكلات، فتحكم تدبيرها وتكاد تقدح في الأذهان من توقدها نارا كما يقدح الزناد.

(٢) المعنى: للأمير ذراع واسعة في مقابلة أحداث الزمان، وله يد طويلة ممتدة إلى المفاخر والأمجاد.

(٣) شأى: سبق، كلّ: عجز وضعف، العفو: ما يأتي بسهولة دون مشقة ومنه أعطيته عفوًا أي بدون سؤال، أو هو خيار الشيء وأجوده، أو الفضل، والمعنى: إذا أطال المادحون في إطراء مناقبه لم يستطيعوا إدراكها، فإن مآثره السامية يعجز الفكر عن حصر ما تأتي به عفوًا دون مشقة أو مجهود.

(٤) في بعض نسخ الذخيرة «... قلبه فلله ما يخفَى ولله ما يبدو»، السرو: المروءة والسخاء، والمعنى: مزج الأمير حزمه في حكمه بالتقوى والصلاح، فما أعظم ما يخفيه من مساعيه الحميدة!! وما أشرف ما يظهره من نعمه الجسام!!

(٥) أوّاب: تائب، ومنه قوله تعالى ﴿فإنه كان للأوّابين غفورا﴾، معتدّ: معدود، وقد تأتي بمعنى مهيأ، ولعله معتز، والمعنى: الأمير تواب من الذنوب خائف من عقاب الله معتز بتأييده قويّ بنصرته، يلين في الله ويشتد فيه.

(٦) الحسبة: الأجر والثواب أو التدبير، نحت: اتجهت، لم تعد: لم تتجاوز، والمعنى: لقد أسدى الأمير إلى الإسلام يدا بيضاء اتجهت إلى إرضاء الله ونيل ثوابه فلم تتجاوزه.

(٧) المعنى: اقتحم الأمير حصن الخمر فهدمه حافظًا لحرمة الدين القويم، مانعًا أن يستبيح حرمته الفساقُ الماجنون.

فطوّق باسـتـئـصـالـهـا الـمِـصْـرَ مِنّةً
يكاد يؤدّي شكرَها الحَـــجَـــرُ الصَّلْدُ[١]

هِيَ الـرِّجْسُ، إن يُذْهِبْــهُ عنه فـمُـحْـسنٌ
شـــهـــيـــرُ الأيادي مـــا لآلائهِ جَــحْــد[٢]

مَـظِـنَّـةُ آثـامٍ، وأمُّ كـــــــــبـــــــائـرٍ
يُقَــصِّــرُ عن أدنى مَــعـــايِبِــهـــا العَــدُّ[٣]

رأى نَقْصَ مـــا يَـجـــبـــيـــه منـهـــا زيادةً
إذِ الـعِـوَضُ الـمَـــرْضِيُّ إلاَّ يَرُحْ يغـــدو[٤]

☆☆☆☆☆

غنيٌّ، فــــحُـــــسْنُ الظنِّ بالله مــــالُهُ
عـــزيزٌ، فـــصُنْعُ اللّهِ من حَـــوْلـهِ جُند[٥]

لنِعْمَ حـــديثُ الـبِـــرِّ أوْضَـــعَتِ الـصَّـــبـــا
تبثُّ نَـثَـــاهُ حـــيـثُ لا تُوضِعُ البُـــرْد[٦]

تَـغَـلْـغَـلَ في سَــــــمْـعِ الـرَّبـابِ، وطـالـعـتْ
لـه صـورةً لم يَعْمَ - عن حُسْنِها - الخُلْدُ[٧]

---

(١) المعنى: طوّق الأمير عنق العاصمة بمكرمة عظيمة هي استئصال شرب الخمر فيها، فاستحقّ أن يشكره الجميع حتى الحجارة الصماء.

(٢) المعنى: الخمر رجس وآثام، والأمير جدير بالقضاء عليها، فإن آلاءه وآثاره في خدمة الدين لا يستطع إنكارها الجاحدون.

(٣) مظنّة: موضع الظن، ومنه إنه لظنة خير، والمعنى: إن الخمر مجلبة للذنوب وهي أم الكبائر يقصر العدد عن إحصاء عيوبها.

(٤) المعنى: رأى الأمير أن النقص في الضريبة التي كانت تجبَى على الخمر هي زيادة له في الأجر والثواب عند الله، فإذا نقصت الجباية في الدنيا فستزيد الحسنات في الآخرة، فما ينقص في الروحات يزيد في الغدوات.

(٥) ورد البيت في الذخيرة هكذا:

عـــزيز بحـــسن الظن بالله، مـــاله
عـــرين، فـــصنع الله من حـــوله جند

والمعنى: إن الأمير غني، ولكن أمواله الكثيرة هي حسن ظنه بالله، وهو عزيز الجانب، ولكن عزته قائمة على أن حوله من تأييد الله ونصره جيشًا كثيفًا.

(٦) آثرنا رواية الذخيرة وفي الأصول «توضعه الصبا»، أوضع: أسرع، النثا: الخبر المنقول عن إنسان حسنًا كان أم سيئًا، البرد: جمع بريد، والمقصود به هنا حملة الرسائل، والمعنى: ما أطيب حديث بره وعطفه تنشره الصبا في كل مكان، وتنقله إلى حيث يتعذر وصول البريد.

(٧) الرَّباب: السحاب المرئيّ أو السحاب الأبيض القريب، أو آلة موسيقية، والرِّباب: العهد أو الأصحاب، والرُّباب: الإحسان أو النعمة أو الحاجة، الخلد: الخلود أو الجنة، والمعنى: إن أحاديث بره وسماحته نقلتها الصبا إلى مسامع السحاب، وطالعتها جنة الخلد فقدّرت حسنها، أو سجّل الخلود صورتها على صفحات الزمان.

مَـســاعٍ أجــدَّتْ زينـةَ الأرضِ، فـالـحَـصَى
لآلِئُ نَثْــــرٌ، والـثَّــــرى عنبـــــرٌ وِرْدُ[1]
لـدى زَهَراتِ الروضِ - عنهـــا - بِشــارةٌ
وفي نَفَحات المسكِ - من طِيبِها - وَفد[2]

☆☆☆☆

فـــديتُكَ، إنـي قــــائلٌ فــــمــعـــرِّضٌ
بأوطار نفسٍ منكَ لم تَقْـضِـهـا بَعْـدُ[3]
مُنًى كـالشَّـجـا دون اللَّهــاة تعـرَّضتْ
فلـم يكُ للمَـصْـدورِ - من نَفْـثِـهـا - بُدُّ[4]
أمـــثليَ غُــفْلٌ خــاملُ الذكــر ضــائعٌ
ضَياعَ الحُسام العَضْبِ أصْدَأَهُ الغِمْدُ؟[5]
أَبَى ذاك أنَّ الدهر قـــد ذلَّ صَـــعْـــبُـــهُ
فَسنَّيَ منهُ - بالذي نَشْـتَـهي - الـعَقْـدُ[6]

☆☆☆☆

أنـا السَّـــيفُ لا ينبـــو معَ الـهـــزِّ غَــرْبُهُ
إذا مـــا نبـــا السَّـــيْفُ الذي تَطْبَعُ الهِندُ[7]

---

(١) العنبر الورد: الزعفران، أو العنبر المائل للحمرة، والمعنى: إن آثارها المجيدة زينت الأرض فأصبح حصاها كاللآلئ المنثورة وثراها كالعنبر المورّد المسحوق.

(٢) في نسخ ب، ت، ز «... عنا بشارة»، البشارة: الجمال، البشارة والبشارة: البشرَى أو الهدية المقدمة للمبشرين، والمعنى: مساعيه جعلت الدنيا مزدهرة فتانة تقتبس الأزهار منها نضرتها وينقل المسك عنها أطيب النفحات.

(٣) التعريض: التلميح، أوطار: آمال، والمعنى: أيها الأمير إن لي فيك آمالاً كبيرة أترقبها، وأكتفي الآن بالتلميح إليها دون التصريح.

(٤) المنى: الآمال، الشجا: الغصة أو ما يتعرض الحلق من عظم وغيره، اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق أو أول المريء، المصدور: الذي يشكو ألما في الصدر، والمعنى: إن آمالي فيك ظلت عالقة بصدري مثيرة لنفسي كأنها غصة معترضة في حلقي أحاول أن أكتمها فلا أطيق، فلم يكن هناك بد من أن أنفس عن نفسي بنفثها إليك.

(٥) غفل: مهمل متروك لا ميزة له، الخامل: الساقط الذي لا نباهة له، العضب: الحاد القاطع، والمعنى: أمثلي على سمو نفسه ونباهة شأنه وحدة ذكائه يُترك مهملاً منبوذًا ضائعًا كما يضيع الحسام الصدئ إذا طال لبثه في القراب؟

(٦) سني العقد: تيسر الصعب، والمعنى: بقائي ضائعًا في ظلالك يأباه عليك مجدك وأن الدهر قد أسلم إليك أمره ودان لك صعبُه وسهل أمامك عسيره.

(٧) في الخريدة «لا ينبو مع الهز ضربه»، نبا السيف: ارتدّ ولم يقطع، غربه: حدّه، والمعنى: إنني سيف ماض بتّار لا يرتد حدّه عن الضريبة إذا نبت السيوف الهندية عن الضرائب.

بدأتَ بنُعْـمَى غـضـَّـةٍ، إنْ تُوالِهــا

فــحُـسْنُ اللآلي أنْ يـواليَــهــا سَــرْدُ[(١)]

لعَــمْــرُكَ مــا للمــال أسْـعَـى، فــإنما

يَرَى المالَ أسْنَى حَظِّهِ الطَّبِعُ الوَغْـــدُ[(٢)]

ولكنْ لحــالٍ - إن لَبِـسْتُ جَـمــالَهــا -

كَسَـوْتُكَ ثوبَ النُّصْحِ أعـلامُـهُ الحَـمْـدُ[(٣)]

*****

أتَتْكَ القَــوافي شــاهداتٍ بما صَــفَــا

منَ الغَـيْب، فاقـبَلْها فمـا غَـرَكَ الشـُّهْدُ[(٤)]

لِيَـــحْظَى وليٌّ سِــرُّهُ وَفْقَ جَـــهْـــرِهِ

فــظــاهــرُهُ شـكـرٌ، وبــاطِـنُـــهُ وُدُّ[(٥)]

يُمَـــيِّـــزُهُ مِـــمَّنْ سِـــواهُ وفـــاؤُهُ

وإخـــلاصُـــهُ، إذْ كلُّ غـــانِيَـــةٍ هِنْدُ[(٦)]

****

(١) المعنى: بدأت بنعمى شهية لذيذة، فأتبعها بأمثالها من النعم فإن اللآلئ يجمل منظرها إذا اتسقت وانتظمت في عقدها النظيم.

(٢) في الخريدة «الطمع الوغد»، الطبع: الدنس، الوغد: الدنيء الذي يخدم بطعام بطنه، والمعنى: وحقك ما أسعى إلى مال أكسبه، فإنّ المال هو أقصى غايات السفلة الأوغاد.

(٣) المعنى: لا أسعى لكسب مال وإنما أسعى إلى بلوغ منزلة سامية إذا نلتها أخلصت لك النصيحة وخلعت عليك حلل الثناء، ولعله يقصد أن يكون وزيرًا للرأي والمشورة.

(٤) الشهد: جمع شاهد، والمعنى: وافتك قصائدي في الثناء عليك والتنويه بك شاهدة بما أكنه لك في قلبي من حب وولاء فاقبل شهادتها فهي أعدل الشهود.

(٥) المعنى: اقبل شهادة شعري في تقديري لك وتعلقي بك، فإنه ينطق بولائي لك وأنّ سري مثل جهري في محبتك، فظاهرهُ إطراء لك وباطنه معبر عن هيامي بك وإخلاصي لك.

(٦) كل غانية هند: مثل يضرب للتساوي في الشر، والمعنى: لا تغتر بالمظاهر، ولا تعتقد أن الجميع متساوون في فساد الضمائر، فإنني أمتاز عن الجميع بالإخلاص والوفاء.

مودة وعتاب

«أحاطت الفتن والدسائس بالشاعر ففزع إلى الأمير راجيًا ضارعًا مهنئًا إياه بعيد الفطر».

أمـــا عِلمتْ أنَّ الشّــفــيَع شـــبـــابُ؟
فَـيَـقْـصُـرَ عن لوم الـمُحبِّ عِـتَــابُ[1]
عـــــلام الصِّــــبــــا غَـضٌّ يَرِفُّ رُواؤهُ
إذا عنَّ من وَصْلِ الحِـــســـان ذَهابُ؟[2]
وفــيمَ الهــوى مَــحْضٌ يشفُّ صــفــاؤهُ
إذا لــم يـكـنْ مـنـهـنَّ عـنـهُ ثَـوابُ؟[3]

☆☆☆☆☆

ومُـسـعـفـةٍ بالوصل إذ مَـرْبَعُ الحِـمَى
لـهـــا - كلّمـــا قِظنا الجَناب - جنابُ[4]

---

(١) المعنى: ألا تعلم هذه الغادة الحسناء أن شفيعي إليها الشباب؟ وهو شفيع تغتفر له هفواته وتستجاب رغباته وتفتح أمامه الأبواب، فلا مبرر للوم أو عتاب، وقد ردّد الشاعر هذا المعنى في قصيدة أخرى فقال:

أيام إن عــتب الحــبــيب لهــفــوة
شــفع الشــبــاب فكان أكــرم شــافع

(٢) غض: ناعم، يرف: يهتزّ ويلمع، الرواء: المنظر الجميل، عنّ: عرض، والمعنى: ما قيمة الشباب الغض الإهاب الرائع الجمال إذا لم يجذب بفتنته الحسان؟

(٣) المحض: الخالص الصافي، يشفّ: يظهر ما خلفه، والمعنى: ما قيمة الإخلاص في الحب إذا لم ينل عنه صاحبه أحسن الجزاء؟

(٤) قاظ اليوم: اشتد حرّه، وقاظ بالمكان أقام به صيفًا، وقد عدَّى الشاعرُ الفعل دون حرف جر فقال «قظنا الجناب» وتعدية الفعل اللازم بغير حرف الجر سماعيٌّ لا يقاس عليه، ومنه قوله تعالى «واختار موسى قومه» أي من قومه: وقولهم دخلت الدار أي فيها، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

أمــرتك الخـيــر فـافـعل مــا أمــرت به
فـــقـــد تركـــتك ذا مـــال وذا نشب

أي أمرتك بالخير، وليس لابن زيدون أن يقيس على السماع «راجع شرح المفصّل لابن يعيش ج ٨ ص ٥٠، ٥١»، الجناب: جبل على مرحلة من الطائف أو موضع في أرض كلب بين العراق والشام، وفيه يقول ابن دارة:

خليليّ إن حـــانت بحـــمص منيـــتي
فـــلا تدفناني وارفـــعـــاني إلى نجـــد
وسُـــــرّا على أهل الجناب بأعظمي
وإن لم يكن أهل الجناب على القـصـد

وكنا عنهم جنابا: كنا متنحيّن عنهم، والمعنى: تسعفنا الحبيبة بالوصال فتتنحى عن حماها وتهجره وتقبل إلينا في مصطافنا بالجناب في شوق ولهفة وإسراع.

تظنّ النَّوى تعــدو الهَــوى عن مَــزارها

وداعي الـهـوى نحـو البـعـيـدِ مُـجـابُ[(١)]

وقلّ لـهـا نِضْـوٌ بَرى نحْـضَـهُ السُّـرى

ويَهْـمـاءُ غُـفْلُ الصَّـحْـصَـحـانِ تُجـاب[(٢)]

إذا مـا أحبَّ الركبُ وَجْـهًـا مَـضَـوْا لهُ

فـــهـــانَ عليـــهمْ أن تَخُبَّ رِكـــاب[(٣)]

عَـــروبٌ ألاحَتْ مـن أعـــاريـبِ حِلّةٍ

تَجـاوَبُ فـيـهـا بالصَّـهـيلِ عِـراب[(٤)]

غَـيـارى منَ الطَّيفِ الـمُـعـاودِ في الكَرى

مُـشـيـحـونَ من رَجْمِ الظنونِ غِـضـاب[(٥)]

ومـــاذا عليـــهـــا أن يُسَنِّيَ وَصْلَـهـــا

طِعـــانٌ، فـــإنْ لم يُغْنِنا فَـــضِـــرابُ[(٦)]

---

(١) النوى: البعد، تعدو عنه: تنصرف عنه، والمعنى: تتوهم أن الفراق يحول بيننا وبين زيارتها، وفاتها أن البعد يلهب الشوق ويزيد اللهفة ويشعل الرغبة في الزيارات.

(٢) النضو: الهزيل، النحض: اللحم، السرى: السفر ليلًا، اليهماء: البادية التي لا يهتدي السائر فيها إلى قصده، غفل: مجهولة غير متميزة بعلامات أو آثار: الصحصحان: الصحراء المستوية الجرداء، تجاب: تقطع، والمعنى: كل مجهود يبذل في سبيل الوصول إليها سهل قليل، ولو قطعنا الصحارى المجدبة المخيفة على ظهر بعير أنحله السير في الظلام وأذاب لحمه السفر في البيداء، فإن الهدف العظيم يهون في سبيله كل مشقة أو عناء.

(٣) تخب الركاب: تسرع، والمعنى: إذا أحب المسافر الغاية التي يسعى إليها هان عليه أن يجهد نفسه ومطيته ليحظى بالأمل المنشود.

(٤) العَرُوبُ: المتحببة لزوجها المطيعة له، وجمعها عُرُبٌ، ومنه قوله تعالى ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فيجعلناهن أبكاراً عُرُبًا أترابا﴾، لاحت وألاحت: ظهرت لامعة مُتلألِئة، الأعاريب: البدو من الأعراب ومنه قول المتنبي:

مَنِ الجـــآذرُ في زيِّ الأعـــاريبِ

حـــمـــر الحلى والمطايا، والجـــلابيبِ؟

العراب: الخيل المنحدرة من سلالة أصيلة بعيدة عن الهجنة، والمعنى: هذه الفتاة الحسناء منطوية على المودّة والوفاء، نبتت في قبيلة بدوية محافظة شديدة البأس ذات عدة وسلاح وخيل مطهمة معدة للقتال.

(٥) مشيحون: حذرون متأهبون للنضال، رجم الظنون: خطرات الهواجس والشكوك، والمعنى: إن أهلها شديدو الغيرة حتى من الخيالات الطائفة في الأحلام، وهم متحفزون للنضال تلبية للهواجس والشكوك.

(٦) يُسنِي: يسهّل وييسر، المعنى: وماذا يضيرها أن يسهل لنا الوصول إليها جهادنا لعشيرتها طعنًا بالرماح، فإن لم تُجّدنا فضربًا بالسيوف؟

ألَـمْ تَـدْرِ أنّـا لا نَـراحُ لـريـبـــة
إذا لـم يُلمَّعْ بالنَّجــيع خِــضــابُ؟[1]

ولا نَنْشَقُ العِطر النَّمــومَ أريجُــهُ
إذا لـم يُشَــعْـشَعْ بالعَـجـاج مَـلابُ؟[2]

وكم راسل الـغَـيْـرَانُ يُهْـدي وعــيــدَهُ
فــمـــا راعَـــهُ إلا الطُّروقَ جَـــوابُ[3]

ولـم يَثْنِنـا أنَّ الرّبـابَ عـــقــيـلةٌ
تَســانَدُ سَـــعْـــدٌ دونَهـــا ورِبابُ[4]

وأنْ رُكِّـــزَتْ حَـــوْلَ الخُـــدور أسِنَّةٌ
وحُــفَّتْ بقُبٍّ الســابحــات قِـبــابُ[5]

ولـو نذر الحـــيّــانِ غبَّ الـسُّـــرَى بنا
لكرّتْ «عُـظالَـى» أو لـعــــاد «كُـــلابُ»[6]

---

(١) راحت يده لكذا: خفت إليه ومضارعها يراح، وراح لأمر: ارتاح إليه، النجيع: الدم الضارب إلى السواد، وقال الأصمعي: هو دم الجوف خاصة، والمعنى: ألا تعرف هذه الفتاة أننا لا نطمئن إلى الريب، أو لا نخف إلى مواضع الخطر حتى نبادرها بالنضال وسفك الدماء؟

(٢) النموم: مذيع الأخبار للوقيعة بين الناس، والغرض هنا المسك الساطع الرائحة، الأريج: الرائحة الطيبة، يشعشع: يختلط ويمتزج، العجاج: غبار الحروب، الملاب: طيب أو الزعفران، والمعنى: إننا لا نفرغ للمتاع بالعطور المنبعثة من هؤلاء الفتيات الناعمات ما لم نقم في سبيلهن الحروب الطاحنة التي يختلط فيها الطيب بالغبار.

(٣) الغيران: شديد الغيرة، الوعيد: التهديد، الطروق: القدوم المباغت ليلاً، والمعنى: كم هدّدني وليٌّ هذه الفتاة الجسور وتوعدني بالموت إذا حاولت زيارتها، فما راعه إلا أنني باغتّه بالقدوم تحت أستار الظلام.

(٤) العقيلة: كريمة الحي، سعد: تطلق على عدة قبائل منها سعد تميم وسعد قيس وسعد هذيل وسعد بكر... الخ، رباب: أحياء ضبة سموا بهذا لأنهم أدخلوا أيديهم في رُبٍّ وتعاقدوا، والرب هو عصير الفاكهة المطبوخ «ونسميه الآن مُرَبَّى»، والمعنى: لم يحل بيننا وبين الوصول إلى الرباب أنها كريمة منيعة في قومها، وأن قبيلتي سعد والرباب تساندتا في حفظها وصونها والذود عنها في حمية وإباء.

(٥) السابحات القب: الخيل الضامرة السريعة العدو كأنها تسبح في الهواء، والمعنى: لم تصدنا عن الوصول إليها أسنة الرماح المشرعة ولا الخيل المطهمة التي تحيط بقبتها وتحميها من طمع الطامعين.

(٦) نذر القوم بالعدو: علموا بمسيره إليهم، غب السرى: عقب السير ليلا، لكرت: لعادت، عظالى: يوم من أيام العرب لبني تميم ضد بكر بن وائل يقول العوام بن شوذب الشيباني فيه وفي يوم الغبيط (بين تميم وشيبان):

فــإن يك في يوم الغــبــيط مــلامــة
فــيــوم العظالى كــان أخــزى وألومــا

وكُلاب: يومان من أيام العرب في الجاهلية بين بني تميم وملوك كندة، ويقول السفاح بن خالد التغلبي فيه وفي ماء ساجر «ماء باليمامة»:

إن الكُلاب مــــاؤنـا فــــخلّوه
وســــاجــــرًا والـلـه لـن تحلّوه

والمعنى: لو شعر الحيان بمباغتتنا لهم في الظلام لقامت بيننا وبينهم حروب طاحنة تعيد ذكرى حروب القبائل في عظالى وكُلاب.

وليلَةَ وافَـــتْنا تَهـــادَى، فَنَمْـــتَـــري:

أيَسْـمـو حَـبـابٌ أو يَسـيبُ حُـبـابُ؟[1]

يُعَـــذِّبُهـــا عَضُّ السِّـــوارِ بمعـــصمٍ

أبانَ لـهـــا أن الـنَّعــــيمَ عـــذابُ[2]

لأبْرَحْتُ من شَــيْـحَـانَ حُطَّ لِثـامُـــهُ

إلى خَـــفِـــرٍ مـــا حُطَّ عنهُ نِقـــابُ[3]

ثَوَى منهـــمـــا ثِنْيَ النِّجـــاد مُـشــيَّعٌ

نَجـيـدٌ، ومَـيْـلاءُ الـوِشـاحِ كَـعــابُ[4]

يُعَلِّلُ من إغـــــريضِ ثَغْـــرٍ، يَعُلُّـهُ

غـريضٌ كـمـاء الـمُـزنِ وَهْوَ رُضـابُ[5]

إلى أن بَدَتْ في دُهمَـــةِ الأفْقِ غُـــرّةٌ

ونُفِّـــرَ من جُنْحِ الظلام غُـــرابُ[6]

(١) تهادى: تتمايل: نمتري: نشك، حباب الماء: نفاخاته التي تعلوه أو صفحاته المتموّجة، الحُباب: الحيّة، والمعنى: زارتنا في الظلام متهادية تتساب خطواتها في رفق ولين فتساءلنا: أهي صفحات ماء تمرّ عليها يد النسيم في رفق وهوادة؟ أم هي حية تتساب فوق الرمال إلينا كما تتساب الحيات؟ ويجوز أن يكون المعنى مجازيًا مغزاه حينما زارتنا ليلاً تساءلنا: أنقضي ليلنا معها في سعادة وصفاء نتقارع كؤوس الصهباء؟ أم نطوي ليلنا في حرب ونضال مع قومها إذا تنبهوا لزيارتنا.

(٢) المعنى: هي فتاة رقيقة ناعمة بضة الجسم ممتلئة الذراعين، يؤلمها التصاق السوار بمعصمها ويثبت لها أنّ من النعم نقمًا ومن المتع عذابًا.

(٣) أبرح: بالغ، ومنه أبرحت كرمًا أي أفرطت، ومنه قول الأعشى:

أقـــول لهـــا حين جَـــدَّ الرحـــيـــ

ـــلُ: أبرحت ربّاً وأَبْرَحْتِ جـــــارا

أي أعجبت وبالغت، أبرح: آذى بالإلحاح، وأبرح: أعجب وعظّم، الشيحان: الحازم أو الطويل أو المسرع أو شديد الغيرة، خفر وخفرة: شديد الحياء، اللثام ما يضعه الفارس على أسفل وجهه ليتنكر أو ليثير الرعب، وقد قامت دولة الملثمين بالمغرب وسميت بهذا الإسم لأنهم التزموا وضع اللثام، النقاب: البرقع، والمعنى: لقد عجبت من فارس مغوار رفع لثامه مسرعًا إلى فتاة حييَّة لم تتعود رفع نقابها، ويقصد هنا نفسه وحبيبته، ويعجب من كيفية التقائهما.

(٤) ثوى: أقام، الثني: ثني الوادي منعطفه، وثني الثوب طي بعضه على بعض، النجاد: حمائل السيف، المشيع: الشجاع أو العجول، النجيد والنجد والنجد: الشجاع الماضي في ما يعجز غيره، ميلاء الوشاح: المنحدرة الوشاح لبروز صدرها وضمور خصرها، والوشاح: نسيج مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها كالوسام، كعاب: فتاة بدأ ثديها يظهر، والمعنى: التقى الحبيبان: هو شجاع باسل ينهض بما يعجز غيره عن النهوض به، مال على حبيبته فانثنت عليها حمائل سيفه، وهي فتاة كاعب حسناء انثنى وشاحها حينما مالت عليه.

(٥) يعلل: يجني الثمر مرة بعد مرة، الإغريض: الطلع أو كل ثمر أبيض طري، يعلّه: يسقيه مرة ثانية، الغريض: الطريّ، أو ماء المطر، الرضاب: الريق، والمعنى: يلثم حبيبته مرة بعد مرة، ويرشف من فيها رضابًا عذبًا صافيًا كماء السحاب.

(٦) الدهمة: السواد، الغرة: بياض في الجبهة، جنح الظلام: طائفة منه، والمعنى: طوَى الليلَ مع حبيبته متمتعًا بها حتى انبثق الصباح كالغرة البيضاء في سواد الظلام، وولّى الدجى كما يطير الغراب الأسود عن مجثمه.

وقـد كـادت الجَـوزاءُ تَهْـوي، فـخِلْـتُـهـا
ثناها منَ الشِّـعْـرَى العَـبُـورِ جِـذابُ[1]

كـــأنَّ الـثُّـــريّا رايةٌ مُـــشْـــرِعُ لـهـــا
جَــبــــانٌ، يريدُ الطَّعنَ ثمَّ يَهـــابُ[2]

كـــأنَّ سُـــهــيــلاً في رَباوةِ أفْـــقِـــهِ
مُـــســيمُ نجـــومٍ حـــانَ منه إيابُ[3]

كـأنَّ السُّـهـا فـاني الحُـشـاشَـةِ، شَـفَّـهُ
ضَنًى، فَـــخُـــفـــاتٌ مـــرّةً ومَـــثـــابُ[4]

كأنَّ الصباحَ اسْتَقْبَسَ الشمسَ ضَوْءَها
فـــجـاء لـه من مُـشـــتـريـهِ شِـهـــابُ[5]

كـأنَّ أياةَ الشَّـمسِ بِشْـرُ ابنِ «جَـهْـوَرٍ»
إذا بـذلَ الأمــــوالَ وهْـيَ رِغــــابُ[6]

☆☆☆☆

(١) الجوزاء: برج في السماء، تهوي: تسقط، ثناها: ردها، الشعرى العبور: كوكب يعبر السماء عرضًا، ومثلها الشعرَى الغميصاء، وتزعم العرب أنهما أختا سهيل، والمعنى: كادت الثريا تسقط فجاذبتها الشعرى العبور وردتها، والغرض: أن النجوم أوشكت أن تغيب حينما دنا الصباح.

(٢) الثريا: مجموعة كواكب متجاورة، أشرع الفارس رمحه: أماله للطعن، والمعنى: كأن الثريا حينما مالت للغروب جبان يهم بالطعن ثم يتردد ويخاف.

(٣) سهيل: نجم، رباوة: مرتفع، مسيم: راعي ماشية، إياب: عودة، والمعنى: كأن سهيلاً – في علوه وارتفاعه – راع للنجوم وقد أزمع العودة بها إلى حظائرها.

(٤) السُّها: كوكب خفيّ يمتحن الناس به أبصارهم، الحشاشة: بقية الحياة، شفه الضنى: أنحله المرض، خفت خفوتًا: سكن وسكت، وخفاتًا: مات فجاءة، المثاب: الرجوع، والمعنى: كأن نجم السُّها في بعده، وخفائه مريض يعالج سكرات الموت وتتجاذبه المنيّة والحياة، فهو يموت مرارًا ويحيى مرارًا، كقولنا من قصيدة:

فـلـسـتُ بـحـيّ أو بمَـيْـتٍ، وإنمـا
أمـــــوتُ مـــــرارًا كل يـوم وأُبْـعَـثُ

(٥) المشتري: أحد الكواكب السيارة، استقبس: طلب جذوة من النار، الشهاب: شعلة نار ساطعة، والمعنى: كأن الصباح طلب من الشمس قبسًا من نار فأعارته كوكب المشتري قبل بزوغها.

(٦) إياة الشمس وأياتها وإياها وأياؤها: نورها وحسنها، رغاب: كثيرة وفي الحديث «أفضل الأعمال منح الرغاب» قال ابن الأثير: هي الإبل الواسعة الدَّر الكثيرة النفع، والمعنى: كأن ضوء الشمس وحسنها وجه الأمير حينما يتهلل للجود بالأموال الكثيرة، ومثله قول محمد بن وهيب في مدح المأمون:

وبدا الـصـــبـــاح كــأن غــرّته
وجـــه الخليـــفـــة حين يمتـــدح

هو البِشْر شِمْنا منه برقَ غمامةٍ
لها باللُّها في المُعتفينَ مَصابُ[1]

جوادٌ متى استعجلتَ أولى هباتهِ
كفاك من البَحْرِ الخِضَمِّ عُبابُ[2]

غنيٌّ عنِ الإبساس دَرُّ نوالهِ
إذا استنزل الدرَّ البكِيءَ عِصابُ[3]

إذا حسَبَ النَّيْلَ الزهيدَ مُنيلُهُ
فما لعطاياهُ الجِسابِ حسابُ[4]

عطايا يُصَبُّ الحاسدون بحمده
عليها، ولم يَحْبُوا بها فيُحابوا[5]

موطأ أكناف السَّماح، دنتْ بهِ
خلائقُ زُهرٌ إذ أنافَ نِصابُ[6]

فَزُرْهُ تَزُرْ أكنافَ غنَّاءَ طَلَّةٍ
أربَّتْ بها للمَكرُماتِ رَبابُ[7]

---

(١) شام الشيء: تطلّع إليه، وشام البرق: نظر إلى سحابته أين تمطر، اللها جمع لهوة ولهية وهي العطية نقودًا أو غير نقود، المعتفون: طلاب الإحسان، مصاب اسم مكان من الفعل «صاب» وصابه المطر: هطل عليه، والمعنى: حينما يتهلل وجه الأمير بالعطاء نتوقع منه وفرة الهبات، ونرى فيه برقًا ساطعًا يتلوه سحاب هاطل للمحتاجين بأجزل العطاء.

(٢) جواد: سخيّ، هباته: عطاياه، الخضم: كثير العطاء أو البحر أو الجمع الكثير، العباب: أول الشيء أو ارتفاع السيل أو الموج، والمعنى: الأمير كريم سخيّ، إذا تعجلت أولى عطاياه كفتك وأغنتك كما يبعث البحر الزاخر بالأمواج.

(٣) الإبساس: الطلب والجهد أو التلطف أو زجر الإبل بقولنا لها: «بس بس» والشاعر يقول في رسالته الجدية: «فما أبسست لك إلا لتدرّ» أي ما لاطفتك إلا لتصفح، الدَّرّ: اللبن، البكيء: الناقة القليلة اللبن، العصاب: شد فخذي الناقة لتدرّ لبنها، والمعنى: يجود الأمير دون سؤال أو إلحاق فلا يحتاج لأن نحركه كما تحتاج الناقة القليلة اللبن للملاطفة أو الزجر أو شد فخذيها حتى تجود باللبن.

(٤) حسب: عدّ، مُنيل: باذل النوال وهو العطاء، عطاياه الحساب: عطاياه الكثيرة الكافية، ومنه قوله تعالى ﴿جزاءً من ربك عطاء حسابا﴾، حساب: عد، والمعنى: إذا كان بعض الواهبين يعد ويحصر ما يبذله من عطاء وما يهبه من أموال قليلة فإن الأمير يعطي الجزيل ولا يحصيه بعد أو حساب.

(٥) صُبَّ: مُحِق، يحبوه: يهبه، حابى: جامل وسامح، والمعنى: عطايا الأمير تطلق ألسنة الشعراء بالثناء عليه، فكلما سمع حاسدوه هذا الإطراء كادوا يهلكون لأنهم لا يظفرون بمديح أو إطراء، فهم لم يتعودوا بذل العطاء حتى يحابيهم الشعراء.

(٦) وطّأ الموضع: هيأه ودّمثه وسهّله، الأكناف الجوانب، ورجل موطّأ الأكناف: دمث كريم مضياف، السماح: الجود الفطري، زهر: مشرقة وضاءة، أناف: أشرف وسما، النصاب: الأصل أو المنصب، والمعنى: الأمير سمح الجناب سهل المزار تواضعت به أخلاقه وإن سمت به أحسابُه.

(٧) الروضة الغناء: الكثيرة العشب، الأكناف: الجوانب، طلّة: مبللة بالندى، أربّ بالمكان: لزمه وأقام به، وأربت السحابة: دام مطرها، الرباب: السحاب الأبيض، الرباب: الجماعات والأصحاب، والمعنى: إذا زرت الأمير وجدت فيه روضة غناء ظلت سحائب المكرمات هاطلة بها، أو تزاحمت فيها طرائف الهبات.

زعـــيُم المســـــاعي أنْ تَـلـينَ شـــــدائدٌ
يُمـــارسُـــهـــا، أو أنْ تلـينَ صِـعـــابُ[1]
مَـــــــهِـــــيـبٌ يـغـضّ الطَّـرف منـه لآذنٍ
مَـــهـــابَـتُـــهُ دون الحِـجـــابِ حـــجـــابُ[2]
لأبـلَـجَ مَـــوْفـــورِ الجـــلال، إذا احْـــتَـــبَـى
عـــــلا نَـظَـرٌ مـنـه وعَـــــــزَّ خِـطـابُ[3]
وذي تُـدْرَأٍ يَـعْـــدو الـعـــدا عن قِـــراعـــه
غِـــلابٌ، فـــمـــهـــمـــا عـــزّه فـــخِـــلابُ[4]
إذا هُـوَ أمْـــضَـى الـعَـــزْمَ لـم يكُ هـفـــوةً
يـؤَثِّـرُ عـنـهـــــــا فـي الأنـامـل نـابُ[5]
عـــزائمُ يَـنْـصـــاعُ الـعـــدا عن مُـــمِـــرّها
كـــمـــا رُهِـبَـتْ يـومَ الـنِّـضـــال رِهـابُ[6]

(١) المعنى: تكفل الأمير أن يسهل كل عسير وأن يذلل كل صعب.

(٢) آذن: مستمع، والمعنى: للأمير هيبة ووقار، يغض طرفه لجليسه حتى لا يحرجه، وهو بغير حاجة للحجاب لأن مهابته تغنيه عن الحراس والحجاب.

(٣) الأبلج: المضيء المشرق، احتبى: اشتمل بثوبه أو ذراعيه وضمّ بهما فخذيه إلى بطنه وجلس في تؤدة ووقار، والمعنى: الأمير متهلل الوجه وضاح الأسارير يجلس في جلال ووقار ويسمو بطرفه فيعز على مجالسيه أن يبادئوه بالخطاب.

(٤) في نسختي ب، ت «خلاب فمهما عزه فغلاب» ذو تدرأ: صاحب قوة وسطوة وقهر للأعداء، يعدو: يصرف، القراع: النضال، عزه: غالبه، خلاب: خداع باللسان والمثل «إذا لم تغلب فاخلب»، والمعنى: الأمير قاهر غلاب ينصرف الأعداء عن مناضلته لأنهم يدركون مدى شجاعته وبأسه، فإن تعذر القتال فإن له من حسن سياسته وتدبيره وحيلته ما يكفل له النصر في النضال.

(٥) المعنى: إذا فكر الأمير وصمم فإنه سيصيب الهدف لا محالة، ولن يعض بنان الندم لأنه لا يفشل له رأي ولا يطيش له تدبير.

(٦) انصاع: انفتل راجعًا مسرعًا، المرة: الإحكام أو قوة الخلق وشدته أو العقل أو القدرة، والعزائم المِمَرّة: المحكمة، الرهاب: النصال الرقيقة، والمعنى: للأمير عزمات قوية وآراء محكمة يتحاماها الأعداء كما يتحامون الأسلحة الفتاكة يوم القتال، وفي نسختي ت، ز «ينصاح العدا» والمنصاح: الماء الفائض الجاري على الأرض.

صــوائبُ، ريشُ النَّصــر في جنَبــاتهــا
لُؤامٌ، وريشُ الطائـشـــــات لُـغــــــابُ[١]

حـلـيـمٌ تـلافـى الجــــــــاهـلـينَ أنـاتُـهُ
إذا الحلم عن بعض الذنوب عــــقـــاب[٢]

إذا عَـثَــرَ الجـاني عـفـا عَـفْـوَ حــافظٍ
بنُعـــــمى لهــــا في المذنـبين ذِنـاب[٣]

شــهــامــةُ نفسٍ في ســلامــةِ مَــذهبٍ
كــمـــا الماءُ للرّاح الشُّــمــــولِ قِطاب[٤]

«بني جَــهْـوَرٍ» مــهـمــا فـخــرتمْ بأوّلٍ
فــسِــرٌّ من المجــدِ التّليــدِ لُبــاب[٥]

حَطَطْتُمْ بحـيثُ اسْلَنْطَحَتْ ساحـةُ العُـلا
وأوفتْ لأخطـار السَّنـاءِ هِضــــــــاب[٦]

بكمْ باهتِ الأرضُ الســمـــاءَ، فــأوْجُـــهٌ
شُـمـوسٌ، وأيدٍ في المُـحـول سَـحـاب[٧]

☆☆☆☆

(١) اللؤام: الريش الحديدي المجتمع حول السهم في اتساق ليجعل الجرح واسعًا غائرًا، والريش اللغاب: الريش الفاسد حول السهم، والمعنى: عزائم الأمير صائبة كالسهام المزودة بريش حديدي والمصنوعة بإحكام وعناية لتفتك بالأعداء. على حين أن عزمات غيره ليست مصنوعة بإحكام.

(٢) المعنى: الأمير - على شجاعته وبأسه - حليم، تردُّ أناته ورفقه جهل الجاهلين، وقد يكون العفو عن المذنبين عقابًا لهم، وفي مثل هذا يقول المتنبي:

وما قتل الأحرار كالعفو عنهمو
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا؟

(٣) الذناب: جمع ذنوب وهو الحظ والنصيب، والمعنى: إذا عثر المذنبون فإن الأمير يقابل هفواتهم بالعطايا ويغمرهم منها بأوفى حظ وأوفر نصيب.

(٤) الشمول: الخمر الباردة، القطاب: المزاج، والمعنى: الأمير شهم شجاع، وله رأي صائب ومذهب سليم، وقد امتزجت هذه الصفات فيه كما تمتزج الخمر بالماء الزلال.

(٥) السر: محض النسب أو أفضله أو الخالص من كل شيء أو لبّه، التليد: القديم ضد الطريف، أو ما ولد ببلاد العجم ثم حمل إلى بلاد العرب «والمعروف أن جد بني جهور الأعلى من الموالي»، اللباب: الخالص، والمعنى: مهما كانت لكم يا بني جهور من أمجاد قديمة فإن الأمير هو خلاصة أمجادكم ولب أحسابكم.

(٦) اسلنطح الوادي: اتسع، والمعنى: حللتم مكانة سامية فسيحة اتسعت بها ساحة المجد والفخار، وأشرفت بها للسمو والرفعة أشمخ الهضبات.

(٧) المعنى: افتخرت الأرض على السماء بكم فباهت بوجوهكم الشموس، وفاخرت بأياديكم السحاب.

أشـــارحَ مَــعْنَى المجـد، وَهْوَ مُـعَـمَّسٌ

وعـامـرَ مَـغْنَى الحـمـد، وَهْوَ خَـرابُ(١)

مُــــحــــيّـــاكَ بـدرٌ، والبـــــدورُ أهـلّةٌ

ويمناك بحــرٌ، والبـــحــــورُ ثِغــــابُ(٢)

رأيتُكَ جــــاراك الـورى فــــغلبــــتَـــهُمْ

لذلك جَــرْيُ الـمُـــذْكِــيـــاتِ غِــلابُ(٣)

فَـــقَــرَّتْ بـهـــا مـن أولـيـــائكَ أعْــيُـنٌ

وذلّتْ لـهـــا مـن حـــاســـديكَ رِقـــابُ(٤)

✡✡✡✡✡

فَـتَـحتَ الـمُنَى من بعـد إلهـامِنا بهـا

وقـــــد ضـــاعَ إقـليـــــدٌ وأُبْـهِمَ باب(٥)

مَـدَدْتَ ظلالَ الأمنِ تَخْـضَـرُّ تحـتَـهـا

منَ الـعـيشِ في أعْـذَى البِـقـاعِ شِعـابُ(٦)

---

(١) معمس: مظلم ملتبس غامض، والمعنى: أيها الأمير لقد أوضحت ما غمض من المجد، وأضأت ما أظلم من معالمه، كما أطلقت الألسنة بالثناء عليك والحمد لك، فازدهرت مغاني الشعر بعد البلى والدثور.

(٢) الثغاب والأثغاب: جمع ثغب وهو الغدير في ظل جبل لا تناله الشمس فيبرد ماؤه، فليس شيء أصفى منه ولا أبرد، قال عبيد:

ولقـد نحلُّ بهـا كـأن مـجـاجـهـا

ثغبٌ يصـــفق صـــفـــوه بمدام

وقد يجمع على ثغبان قال الأخطل:

وثالثـــة من العـــسل المصـــفّى

مـشـعـشـعـة بثـغـبـان البطاح

والمعنى: وجهك قمر كامل، والأقمار بالقياس إليه أهلّة لم تكتمل، ويمينك بحر زخار، والبحور بالنسبة إليه جداول وغدران.

(٣) المذكيات والمذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان، والقارح هو الذي انتهت أسنانه عند إكماله خمس سنوات، ومعنى هذا أن تكون قد بلغت تمام نضجها، قال ابن الجوزي: الذكاة في اللغة تمام الشيء ومنه الذكاء في الفهم، ومن الأمثال «جري المذكيات غلاب» أي الغالبة أي أنها تغالب مجاريها فتغلبه لقوتها، أو أن جريها الثاني أكثر من جريها الأول، والثالث أكثر من الثاني، فجريها أبدًا غلاب، وهذا معنى قول أبي عبيد: فهي يحتمل أن تغالب الجري غلابا، والمعنى: باراك الناس فغلبتهم وسابقوك فسبقتهم.

(٤) المعنى: امتيازك على منافسيك وسبقك لمناضليك أقرّ عيون أصدقائك وأخزى قلوب أعدائك وأذل منهم الرقاب.

(٥) الإقليد: المفتاح، أبهم: أغلق، والمعنى: حققت لنا الآمال بعد أن أوحيت الينا الرجاء بوعدك بها، وقد كاد يدركنا اليأس وتوصد في وجوهنا الأبواب.

(٦) العذاة والعذية: الأرض الطيبة البعيدة من الماء والوخم، عذا البلد يعذو: طاب هواؤه، وأعذى البقاع: أطيب الأماكن مناخًا وتربة، الشعاب: جمع شعب وهو الطريق في الجبل أو مسيل الماء أو ما انفرج بين الجبلين، والمعنى: بسطت علينا ظلال الأمن فطابت لنا الحياة وأخصبت البقاع.

حِـمًى سـالمتْ فـيـه البُـغـاثَ جـوارحٌ

وكــفّتْ عن البَــهْم الرِّتـاع ذئابُ(١)

فـلا زِلتَ تَسْـعَى سـعي من حَظُّ سـعـيـه

نجـاحٌ، وحظُّ الشّـانئـيـه تبـابُ(٢)

فـإنَّكَ لـلدينِ الشَّـعـيبِ لمُـلئِمٌ

وإنَّـكَ لـلـمُـلْـك الـثَّـئِي لَـرِئـابُ(٣)

إذا مـعـشـرٌ ألهـاهُمُ جُلسـاؤُهمْ

فَلَهْـوُكَ ذِكـرٌ، والجليسُ كـتـابُ(٤)

نُعـزِّيكَ عن شـهـر الصِّيـام الذي انْقَـضَى

فـإنَّكَ مَـفْـجـوعٌ بـه فـمُـصـابُ(٥)

هُوَ الزَّوْرُ، لو تُعْطَى الـمُنَى وَضَعَ العصـا

لـيـزدادَ من حُـسْنِ الثَّـوابِ مُـثـابُ(٦)

---

(١) البغاث (بفتح الباء وكسرها وضمها): جمع بغاثة وهو الطائر الضعيف لا يصيد، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، الجوارح: الطيور المفترسة، البهم: جمع بهمة وهي ولد الضأن ذكرًا كان أم أنثى، والسخال: ولد المعز، فإذا اجتمعت البهم والسخال معًا قيل لها جميعًا بهمٌ، وجمع البهم بهام (بفتح الباء وكسرها)، الرتاع: جمع راتعة وهي الماشية التي ترعى العشب، والمعنى: بسط الأمير حمايته على الرعية فاستقر الأمن وعم السلام، فسالمت الطيور الكاسرة ضعاف الطير وكفت الذئاب الضارية عن افتراس الماشية.

(٢) الشانئ: المبغض، وشنئه شنأ «بفتح الشين وكسرها وضمها»: كرهه أشد الكره، التباب: الهلاك، والمعنى: نسأل الله أن يكلل مساعيك بالنجاح وأن يحبط مساعي أعدائك ويهدم ما قاموا به من أعمال.

(٣) الشعيب: المتفرق أو المنصدع، الملئم: المصلح من الأم الصدع ولأمه أي أصلحه وضمه، الثأى والثأي: الإفساد، أو الأمر العظيم يقع بين القوم، وتصف السيدة عائشة رضي الله عنها أباها فتقول «ورأب الثأي» أي أصلح الفساد، ويقول جرير:

هـو الوافـد الميـمـون والراتق الثـأى

إذا النعل يومًـا بالعـشـيـرة زلت

رئاب: صلاح، والمعنى: إنك مؤلف لما تشتت من شمل الدين جامع لما تفرق من جموع أصحابه، كما أنك مصلح لشؤون الرعية والسلطان.

(٤) المعنى: إذا انصرف الملوك مع جلسائهم إلى اللهو والشراب فإن لذتك، تكمل بذكر الله تعالى، وصحبتك تتم بمدارسة العلوم وصحبة الكتب.

(٥) المعنى: نعزيك في شهر رمضان فقد أنست به أنسًا عظيمًا، وفقدته فحزنت عليه أعظم الحزن وأبرحه.

(٦) الزَّور: الزائر (يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع)، وضع العصا: أقام، والمعنى: إن شهر الصيام زائر كريم لو تحققت آمالك في قربه لامتدّ طول العام لتزداد فيه ثوابًا إلى ثواب.

شَـــهِـــدْتُ لأَدَّى منكَ واجبَ فـــرضـــه
علـيمٌ بما يُـرضـي الإلـه نِـقـــــــابُ[١]
وجـــاورتَ بيتَ اللّهِ أُنْسًـــا بمعـــشـــرٍ
خَـــشَـــوْهُ فــخـــرّوا رُكَّـــعًـــا وأنابوا[٢]
لقـــد جـــدّ إخْـــبـــاتٌ، وحقّ تَبَـــتُّلٌ
وبالغَ إخـــــلاصٌ، وصَحَّ مَـــتـــــابُ[٣]
سَـــيَـــخْلُدُ في الدنيـــا بـه لك مَـــفْـــخَـــرٌ
ويَحْـــــسُنُ في دار الخلـودِ مَـــــآبُ[٤]
وبُشْـــراكَ أعـــيـــادٌ سَـــيَنْمي اطِّرادُها
كـمـا اطّردَتْ في السَّـمْـهَـرِيِّ كِـعـابُ[٥]
ترى منكَ سَـــرْوَ الـمُلْكِ في قَـشَفِ التُّـقَى
فَـيُـبْـرِقُـهـا مَـرْأى هناكَ عُـجـابُ[٦]

(١) النقاب: الرجل العلامة، قال أوس بن حجر:

نجـــيح جـــواد أخـــو مـــأقط
نقـــاب يحـــدّث بالغـــائب

والمأقط: موضع القتال، وقيل المضيق في الحرب، المعنى: أشهد أنك أديت فرض الصيام حق الأداء، فإنك بحاثة في شؤون الدين عليم بما يرضي الله.

(٢) أنابوا: أقبلوا على الله تائبين، والمعنى: لزمت المسجد مؤتنسًا بالعاكفين فيه على عبادة الله راكعين ساجدين.

(٣) الإخبات لله: الخشوع والخضوع له، التبتل: الانقطاع عن الدنيا اتجاهًا إلى الله تعالى، والمعنى: لقد جد منك خضوع وخشوع لله تعالى، وانصراف إليه عن كل شيء، وإخلاص له في كل عمل، وتوبة من جميع الآثام.

(٤) المعنى: مآثرك الصالحات الباقيات ستخلد ذكراك في الدنيا وتجزل ثوابك عند الله في الآخرة حين أوبتك إلى حماه.

(٥) السمهري: الرمح الصلب، وقيل المنسوب إلى سمهر زوج ردينة وكانا مشتهرين بتثقيف الرماح، وقيل ينسب إلى قرية بالحبشة، كعاب الرمح: عقده، أو عقد القصب بين الأنابيب، والمعنى: هنيئًا لك بالأعياد التي ستتوالى وتطّرد كما تطرد العقد المتساوية في الرماح.

(٦) السرو: المروءة والسخاء والشرف، القشف: خشونة العيش وشدته، أبرق، أدهش، وبرق بصره: دهش فلم يبصر، وقيل تحيّر فلم يطرف، قال ذو الرمة:

ولو أنّ لقـــمـــانَ الحكيمَ تعـــرَّضَتْ
لعـــينيْـــه مَيٌّ سَـــافـــرًا كـــاد يُبْـــرِقُ

والمعنى: ترى الأعياد فيك بهاء الملك وجلاله مجتمعين إلى التقشف والزهد والعبادة، فتبصر منظرًا غريبًا يدعو إلى الدهشة والإعجاب.

فـــــأَبْلِ وأخْلِـفْ، إنّمــــــا أنت لابسٌ

لهــذي الليــالي الغُــرِّ، وَهْيَ ثيــابُ[1]

☆☆☆☆☆

فَــدَيْتُكَ!! كم ألقى الفَــواقِــرَ من عــدا

قِـراهُمْ - لنيــرانِ الفــســادِ - ثِقـابُ[2]

عــفـا عنهمُ قَــدْرِي الرفــيعُ فــأَهْجَــروا

وبايَنَهُمْ خُلْقي الجــمــيلُ فــعــابوا[3]

وقـد تُسـمِعُ الليثَ الجحـاشُ نَهيـقَـها

وتُعلي إلى البــدر النُّبــاحَ كِــلابُ[4]

إذا راقَ حــسنُ الروضِ أو فــاحَ طِيــبُــهُ

فــمــا ضَــرَّهُ أنْ طَنَّ فــيــه ذُبابُ[5]

فــلا بَرِحَتْ تلك الضــغــائنُ!! إنّهــا

أفــاعٍ لهـــا بينَ الضّلوعِ لِصــابُ[6]

تقــولونَ: شــرِّقْ أو فــغــرِّبْ صَــريمةً

إلى حــيثُ آمــالُ النفــوسِ نِهــابُ[7]

---

(١) المعنى: ودع الأعياد واستقبل غيرها كما يبدل اللابس ملابسه الخلقة بأخرى جديدة قشيبة، ودُمّ على الأيام تفنيها وتستجد غيرها في أمن وسلام.

(٢) في «الأصول ألقى الفواغر» ولعل الصواب ما أثبتناه، الفواقر: جمع فاقرة وهي الداهية، قال تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة، ووجوه يومئذٍ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة﴾، القرى: إطعام الطعام، الثقاب والثقوب: ما توقد به النار، والمعنى: نفسي فداؤك أيها الملك العظيم، كم أقاسي من أعداء غادرين إذا أكرمتهم أمعنوا في الفساد والطغيان وعضوا اليد التي أطعمتهم فأشعلوا نار البغي والآثام.

(٣) عفا: زاد، أهجروا: أفحشوا في المقال أو سخروا في الكلام، باينهم: ناقضهم، والمعنى: ارتفع قدري عنهم فأقذعوا في هجائي، وناقضت أخلاقي السامية أخلاقهم الوضيعة فعابوها.

(٤) المعنى: لا عجب إذا نالوني بألسنتهم فربما نهقت الحمير على الآساد، وربما نبحت الكلاب على الأقمار.

(٥) المعنى: إذا أينع الروض وازدهر فلن يضيره أن يطنّ فيه الذباب.

(٦) أفاع: ثعابين، لصاب: التصاق من لصب الجلد باللحم إذا لزق به هزالاً، ولصب السيف في الغمد: نشب، والمعنى: أتمنى أن يدوم حقدهم عليّ فإنه يجوس بين ضلوعهم فيضنيهم ويوسعهم غما ونحولاً.

(٧) الصريمة: العزيمة، النهاب: جمع نهب وهو الغنيمة، والمعنى: يشير عليّ الناصحون بالهجرة عن هذا البلد حيث أجد التكريم والحفاوة وأظفر بتحقيق الآمال.

فـأنت الحــسـامُ العَـضْبُ أُصـدئَ مَــتْنُهُ
وعُـطِّلَ مـنـه مَــــــضْـــــــرِبٌ وذُبـابُ[(١)]

ومــا الـسَّـيْفُ ممـا يُسْـتـبـانُ مــضــاؤه
إذا حــــاز جَـــفْنٌ حـــدَّهُ وقِـــراب[(٢)]

وإن الـذي أمَّـلْتَ كُــــدِّر صَـــفْــــوُهُ
فـأضـحـى الـرضى بالسّـخط منه يُشـاب[(٣)]

وقـــد أخـلـفتْ ممـا ظننتَ مـــخـــايلٌ
وقـــد صـــفِـــرَتْ مما رَجَــوْتَ وِطاب[(٤)]

فَــــمَنْ لـي بسلـطانٍ مـــبينٍ علـيــــهمُ
إذا لـجّ بـالـخـــــصم الألـدّ شِــــغـــــاب؟[(٥)]

ليُـــــخْـــــزِهـمُ أنْ لـم تُـرِدْنـي بِنَبْـــوَةٍ
يـســـاءُ الـفَـــتَى من مـــثلهـــا ويُراب[(٦)]

فــقــد تَتَــغَــشّى صَـــفْــحَـــةَ المـاءِ كُـدرةٌ
ويغطو على ضَـــوءِ النهـــارِ ضَـبـــابُ[(٧)]

---

(١) الحسـام العضب: السيف القاطع، المتن: الصفحة، مضرب السيف: حده، وذبابه: طرفه المدبب، والمعنى: يزهدني الناصحون في الإقامة بهذا البلد الذي ألقى فيه الإهمال – على الرغم من مضائي وحدتي – كما يهمل السيف البتار في غمده.

(٢) الجفن: غلاف السيف، القراب: الغمد، والمعنى: إذا ظللت مقيما فقد يخفى فضلك وتضيع مواهبك فإن السيف لا يظهر مضاؤه إذا ظل مغمدًا في جفنه.

(٣) يشاب: يمتزج، والمعنَى: إن آمالك في الأمير لحقها الكدر والتنغيص، وأصبحت حلاوة الأماني فيه ممزوجة بمرارة السخط والإخفاق.

(٤) المخايل: السحب التي توحي بالمطر، صفرت: خلت، الأوطاب: جمع وطب وهو سقاء اللبن، أو الثدي العظيم، وصفرت وطابه: مات أو قتل، والمعنى: فيم بقاؤك في هذا البلد وقد خابت فيه آمالك وتبدّدت أوطارك؟

(٥) السلطان: الحجة والبرهان، لجّ: تمادى في الخصومة، الألد: الشديد الخصومة، الشغب: الخلاف وتهييج الشر أو الفتنة أو الخصام ومثله الشغاب، قال الفرزدق:

يـرئّون الحـلـوم إلـى جـــــبـــــال
وإن شـــاغـــبـــتـــهم وجـــدوا شـــغـــابا

والمعنى: من لي بدليل قوي أرد به على حججهم إذا تمادوا في المخاصمة والجدال؟

(٦) نبوة: نفور أو جفوة، يراب: يوجه إليه الشك أو الاتهام، والمعنى: هؤلاء المجادلون جديرون بالخزي، فإنك لم تتعود معاملتي بجفاء يدعو إلى الألم أو الارتياب، وإذا كانت هناك جفوة غير مقصودة فإنما هي من قبيل المصادفات.

(٧) كذا في نسخة أ، وفي نسخ ب ، ت ، ز «صفوة الماء» والصفوة: هي الخلاصة المختارة، يغطو الليل ويغطي: يظلم، ويغطي على الشيء: يستره، والمعنى: إذا انصرف عني الأمير فهو انصراف مؤقت غير مقصود، فقد تتعكر صفحة الماء ثم تصفو، وقد يستر الضباب ضوء النهار ثم تشرق الشمس فيتبدد الضباب.

سـرورُ الغِنَى - مـالم يكنْ منكَ - حـسـرةٌ
وَأرْيُ الـمُنَـى - مـا لـم تُنَلْ بك - صـــابُ(١)

وإن يَـكُ في أهـل الـزمــــــان مـــــؤمَّلٌ
فـأنت الـشَّـراب الـعــذب وهو سَــراب(٢)

أَيُعْــورُ من جــارِ الـسِّـــمــاكين جــانبٌ
ويُمْـــــعِـــــزُ في ظلّ الـربـيـع جـنـاب(٣)

فـــأين ثـنـاءٌ يَـهْـــرَمُ الـدهرُ كِـــبْـــرَةً
وحِلِيـــتُـــهُ في الـغـــابرين شــبـــاب؟(٤)

ســـأبكي على حظّي لديك، كـــمـــا بكى
«ربيـــعـــةُ» لـمَّـــا ضلّ عنه «ذُؤاب»(٥)

وأشكو نُبُـــوَّ الجَنْب عن كلِّ مَـــضْـــجَعٍ
كـــمـــا يَتَـــجـافى بالأسـيــر ظِراب(٦)

---

(١) الأريُ: عسل النحل، الصاب: عصارة شجر مُرّ، والمعنى: يشيرعليّ كثيرون بالهجرة عنك في طلب الجاه والمال، ولكنني أعد الثروة مالم تكن منك نكبة، وأعتبر الحلو مالم تبذله أنت مرًا.

(٢) المعنى: إذا كان هناك موضع للآمال في هذه الدنيا فأنت أنت محط الآمال، فكأنك الشراب العذب وغيرك سراب خدّاع.

(٣) يعور: يظهر فيه موضع خلل أو ضعف، السماكان (الأعزل والرامح): نجمان نيّران، يمعز: يصلب ويشتدّ، ويقال للأرض الصلبة معزاء، وما أمعزه من رجل!!: ما أشده!!، الجناب: الفناء، والمعنى: أينهار جانب ممن كان في جوار رفيع كجوارك؟ ويجدب من كان في ظل ظليل كظلك؟

(٤) المعنى: كيف يضيع إطرائي لك وثنائي عليك بشعر يشيب الدهر وهو شباب غض لا يشيب، يردده الزمان جيلاً بعد جيل.

(٥) قتل ذؤاب بن رُبيّعة (خفف الشاعر الاسم لضرورة الوزن) عتيبةَ بن الحارث اليربوعي في إحدى الحروب ثم أسر الربيع بن عتيبة اليربوعي ذؤاباً دون أن يعرف أنه قاتل أبيه فأتاه ربيعة (أبو ذؤاب) فافتداه بفدية يوفيها في سوق عكاظ، فلما دخلت الأشهر الحرم وأتى ربيعة الموسم وتخلف الربيع لعذر قاهر ظنّ ربيعة أن الربيع عرف شخصية أسيره وقتله، فرثاه بأبيات منها:

أذؤاب: إنـــي لـــم أهــبـك، ولـــم أقـــم
للبـــيع عند تحـــضّـــر الأجـــلاب
إن يقـــتلوك فـــقـــد ثللت عـــروشـــهم
بعـــتـــيـــبـــة بن الحـــارث بن شـــهـــاب
بأشــــدهم كلبًـــا على أعـــدائهم
وأعـــزهم فـــقـــدًا على الأصـــحـــاب

وسارت هذه الأبيات عنه فبلغت بني يربوع فعلموا شخصية أسيرهم فقتلوه، فظل أبوه يبكيه ويندبه، وبخاصة بعد أن علم أنه سبب مصرعه. (راجع شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ج٢ ص ٨٤٣ - ٨٤٦ والأمالي ج ٢ ص ٧٢، ٧٣).

(٦) الظراب: جمع ظرب وهو ما نتأ من من الحجارة أو حدّ طرفها، والمعنى: سأبكي على حظي لديك وأشكو خشونة موضعي عندك وأندب سوء طالعي تحت ظلالك كما يشكو الأسير من إلقائه على الأحجار الحادة عند المنام.

فـثِقْ بـهِـزبرِ الشِّـعْـرِ، واصْـفَحْ عنِ الوَرى
فـــــــــإنَّــهــمُ - إلا الأقــلَّ - ذُبــابُ[1]

ولا تـعــــدِلِ الـمُــــثنينَ بي، فـــأنا الـذي
إذا حَـــضَــرَ الـعُــقْمُ الشَّـــواردُ غـــابوا[2]

يـنوبُ عـنِ الــمُـــــدَّاحِ منِّيَ واحــــــدٌ
جــمـــيعُ الخِــصـــال ليس عنه مَناب[3]

وَرَدْتُ مَــــــــعِينَ الـطـبـع إذْ ذِيـدَ دونَـهُ
أناسٌ لـهـمْ في حَـــــجْــــرَتَيْـــــهِ لُؤاب[4]

وأنْـجَـــــــــــدَني عِـلْـمٌ تـوالـتْ فُـنونُـهُ
كـــمـــا يَتَـــوالى في النظام سِــخـــاب[5]

(١) الهزبر: الأسد القوى الضخم، اصفح: أعرض واترك، والمعنى: هب لي ثقتك فإنني كالأسد الكاسر في عالم الشعر، وغيري يطن فيه كالذباب.

(٢) كلمات عقم: كلمات عويصة، قال زهير:

هـمُ جـــــددوا أحكام كل مُــــضِلَّةٍ
من العــقم لا يُلفى لأمــثـــالهـــا فــصل

والمعنى: لا تعدل بي أحدًا من مادحيك فإن القوافي الصعبة الشاردة - التي لا تنتج لها مثيلاً - إذا حضرت فرّ هؤلاء المادحون وثبتٌّ أنالها، فإنني بها كفيل.

(٣) جميع الخصال: مجتمع الفضائل، والمعنى: إنني أعدل المادحين جميعا وأنوب عنهم فأنهض بما لا ينهضون به، فإنني جمعت فضائل البلغاء جميعًا، ولا يستطيع أحد أن يبدع إبداعي في الثناء.

(٤) معن الماء: جرى فهو معين، قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين؟﴾، ذيد: منع ولعلها «رد دونه»، حجرتيه: جانبيه، اللؤاب: العطش، والمعنى: نهلت من نبع شعري فياض حتى ارتويت، ومنع غيري من هذا المورد العذب فبرّح بهم الظمأ وكاد يشفي بهم على الهلاك.

(٥) أنجد: أجاب أو أعان، السخاب: قلادة من سُكٍّ وقرنفل ومحلب بلا جوهر «والسكّ مادة من الطيب تطبخ مع المسك وتجفف في هيئة حبوب تثقب وتتخذ منها القلائد، وهي طيبة الريح وكلما قدم عهدها زادت طيبًا»، والمعنى: أسعف مواهبي وأعلنها علم تتابعت فنونه فانتظمت في قريحتي كما ينتظم العقد في سمطه.

فـعُـدْ بِيَـدٍ بيـضـاءَ يَصْـدَعُ صِـدْقُـهـا
فـــإنّ أراجـــيفَ الـعُـــداةِ كِـــذابُ[1]
وحـــاشـــاكَ من أن تُسْـــتَـــذَمَّ مـــريرةٌ
لـعـــهـــدكَ، أو يَخْـــفَى عليك صَـــواب[2]

****

(١) يصدع: يظهر أو يشق أو يجهر أو يفصل، ومنه قوله تعالى ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ أي شق جماعتهم بالتوحيد أو اجهر بالقرآن أو أظهر شريعتك أو احكم بالحق وافصل في الأمر، الأراجيف: اختلاق الأخبار السيئة، والمعنى: عد إلى سابق مودتي وأسد إليّ يدًا بيضاء تفصل بيني وبين خصومي فإنهم دأبوا على اختلاق الأخبار السيئة وإلصاقها بي زورًا وبهتانًا.

(٢) في الأصول «تسترم مريرة» ولعل الصواب ما أثبتناه. المَريرة: الحبل الشديد الفتل أو الطويل الدقيق أو عزة النفس أو العزيمة، والمعنى: إنك أكرم وأنبل من أن تقبل الذم في أصحاب النفوس الأبية والعزائم الفتية، وأعقل من أن يخفى عليك الصواب.

فواضل وفضائل

مَـــرَادُهُمُ حـــيثُ السِّـــلاحُ خَـــمـــائلُ
ومَـــوردهـم حـــيثُ الـدِّمـــاءُ مَناهـلُ(١)
ودون الـمُنَى فـــيـــهـمْ جِـيـــادٌ صـــوافنٌ
ومـــأثورةٌ بيضٌ وسُـــمـــرٌ عـــوامـل(٢)
لكل نَجـــيـــد في النِّجـــاد، كـــأنَّمـــا
تنـاط بمـتن الرّمـح منـه الحَـــمـــائل(٣)
طويـلٌ علـينا لَيْلُـهُ من حـــفـــيظةٍ
كـــأنَّ صَـــبـــاباتِ النُّفـــوس طَوائل(٤)
كِنـاسٌ دنـا منـه الشَّـــرى في مَـــحَلّةٍ
بهـــا الليثُ يعـــدو، والغـــزالُ يُغـــازلُ(٥)

(١) المراد: مكان طلب النجعة، الخمائل: الأشجار الكثيفة المتشابكة، المورد: مكان الورود إلى الماء، مناهل: مشارب، والمعنى: هذه الفتاة من أسرة قوية الجانب مرهوبة البأس، تشرع أسلحتها كالغابة الكثيفة الأشجار، وتريق حول مناهلها دماء الأعداء.

(٢) الصوافن: جمع صافن وهو الجواد الذي يقوم على ثلاث قوائم ويمس بطرف الحافر الرابع الأرض، مأثورة: سيوف في متونها آثار زخرفة، ويزعم بعضهم أنها من صنع الجن، السمر: الرماح، العوامل: صدور الرماح، ولعلها «وسمر عواسل» والعواسل: الرماح المرنة الشديدة الاهتزاز، والمعنى: دون الوصول إلى حبيبتي بين عشيرتها جياد مطهمة معدة للقتال، وسيوف مشهورة، ورماح مركوزة.

(٣) النجيد: الشجاع الماضي في ما يعجز غيره، أو الأسد، النجاد: حمائل السيف أو الفرش والوسائد، متن الرمح: صدره أو ظهره، تناط: تعلق، والمعنى: عشيرتها مكونة من كل شجاع باسل كالأسد الكاسر، سيفه مشدود إلى وسطه، وقد تعلّق السيفُ منه بقامة كالرمح.

(٤) الحفيظة: الغضب والحمية، يقال أحفظه أي أغضبه، الصبابات: جمع صبابة وهو الشوق أو رقته، طوائل: جمع طائلة وهي الثأر أو العداوة، والمعنى: وليُّ هذه الفتاة قويّ البأس شديد الغيرة، يسهر الليل غيظًا منا وغضبًا علينا كأن شعورنا بحبها جريمة أو ثأر قائم بيننا وبينه يفكر في الاقتصاص به منا.

(٥) الكناس: مأوى الظباء ويقر الوحش بين الأشجار، الشرى: طريق مليئة بالأسود، محلّة: مكان الحلول، والمعنى: هذه الفتاة ظبية تحيط بها الأسود، كأنها في كناس محفوف بالشرى، فالآساد تفترس، والغزلان تثير الصبابة والهيام.

لَعَمْرُ القِبابِ الحُمْرِ وسْطَ عَرينهم
لقد قُصِرتْ فيها السُّروبُ العقائل(١)
أمَحْجوبةٌ ليلى ولم تُخضَبِ القَنا
ولا حَجَبَتْ شمسَ الضُّحاءِ القساطل؟(٢)
أناةٌ عليها من سَنا البَدْرِ مِيسَم
وفيها من الغُصْنِ النَّضيرِ شَمائل(٣)
يجولُ وِشاحاها على خيزُرانةٍ
وتُشرقُ في بَرْدِيَّتَينِ الخَلاخل(٤)

☆☆☆☆☆

وليلةَ وافَتْنا الكثيبَ لموعدٍ
كما رِيعَ وَسْنانُ العَشِيَّاتِ خاذل(٥)

---

(١) القباب الحمر: لعلها القباب المذهبة. أو المطيبة بالزعفران «الأحمر: الذهب أو الزعفران» وفي الحديث الشريف عن النساء: «أهلكهن الأحمران» قال ابن الأثير: الذهب والزعفران، والقباب: السيوف القاطعة، عرين الأسد: مأواه، قصرت: حبست أو حجبت، ومنه قوله تعالى ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ أي مخدرات محجبات إلا على أزواجهن، والمعنى: وحق القباب العالية المذهبة التي أقيمت بين عرين الأسود لقد اشتملت على أسراب من الفتيات الفاتنات المخدرات في مقاصيرهن المنيعة.

(لم نجد كلمة السروب جمعا للسرب في ما رجعنا إليه من كتب اللغة).

(٢) الضحاء: ارتفاع الشمس قبل الظهر، القساطل: جمع قسطل وهو الغبار، والمعنى: كيف تحجب ليلى عنا ولا نقتحم مقاصيرها بحرب عنيفة بيننا وبين قومها تختضب فيها الرماح بالدماء، وتحتجب الشمس فيها من وفرة الغبار المتطاير من سنابك الخيل؟

(٣) الأناة: المرأة الفاترة المتكسرة عند قيامها، سنا: ضوء، ميسم: علامة وأثر، الشمائل: جمع شمال وهو الطبع، والمعنى: هي فتاة وضاءة الوجه، فيها من أضواء البدر علامات مميزة، وفيها من الغصن – في نضرته ولدونته واهتزازه – طبائع، ونظيره قول بشار:

إذا قامت لحاجتها تثنت
كأن عظامها من خيزران

(٤) الوشاح: وسام تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها محلى بالجواهر، شرق: غصّ، برديتين: مثنى بردية: منسوبة إلى البردي وهو نبات مائي يؤخذ لبابه فيصنع ورقًا، والمعنى: لهذه الفتاة قوام لين ممشوق كالخيزران يجول فوقه وشاحاها أما الخلخالان فيغصان بساقيها الملتفين البيضاوين كأنهما من الورق الأبيض المصقول.

(٥) ريع: فزع، الخاذل: الظبية المتخلفة عن صواحبها، أو المنهزمة، والمعنى: ما زلت أذكر الليلة التي وافتنا فيها على الكثيب إنجازًا لموعدنا معها فأقبلت مرتاعة خائفة كما ترتاع الفتاة المترفة الناعمة التي اعتادت أن تنام بالعشيات، أو كما ترتاع الظبية التي تخلفت وحدها عن بقية الظبيات: وفي ت «وسنان العشية».

تَهـادى - انْسِيـابَ الأيمِ - يعـفـو أثُورَها

منَ الـوَشْـيِ مَـــرْقـــومُ الـعِطافينِ ذابِلُ(١)

قَـــعــــيـــدكِ! أنّى زُرتِ ضــــوؤُكِ ســـاطع

وطِيــــــبُكِ نفّــــــاحٌ، وحَلْـيُكِ هـادل(٢)

هـبــيكِ اغــــتـررتِ الحيَّ: واشِـيكِ هاجعٌ

وفـــــــرعُكِ غِــــــربيبٌ، وليـلُكِ لائل(٣)

فـأنّى اعْـتَـسَفْتِ الـهَـوْلَ؟ خَـصْرُكِ مُـدمَجٌ

وردْفُكِ رَجْــــــراجٌ، وعِطْفُكِ مــــــائل(٤)

✡✡✡✡

---

(١) تهادى: تتهادى أي تتمايل، الأيم: الحيّة، يعفو: يمحو، الأثور الآثار: جمع الأثر وهو بقية الشيء، وفي الأصول (آثارها) وهو جمع لم يرد في كتب اللغة، ولعل الصواب ما أثبتناه، الوشي: ثياب منقوشة، مرقوم: مخطط، العطاف والمعطف: الإزار لأنه ملابس العطفين أي الجانبين، ذابل: متبختر من تذبلت، أي تبخترت في مشيها، ولعلها (مرقوم العطافين دائل أو ذائل) والدائل: المتقلب الدائر، والذائل: المسرع أو المنساب في خفة واختيال من ذال أي أسرع، والمعنى: أسرعت هذه الفتاة إلى موعدنا تنساب في خفة ورشاقة كما تنساب الحية فوق الرمال، ويمحو آثارها ثوب مزين منقوش الجوانب يتقلب ذيله على آثارها في خفة واختيال.

(٢) وقعيدك!! وقعيدك الله!!: سألت الله حفظك أو ناشدتك الله، ومنه قول متمم:

قــعــيــدك ألاّ تســمــعــيني مــلامــة

ولا تنكئي جـرح الفـؤاد فـيـيـجـعــا

هادل: مترنم من هدل القمري هديلاً إذا غرد، والمعنى: ناشدتك الله كيف استطعت زيارتي وحولك العيون والأرصاد، ووجهك مشرق وضاء يجذب الأبصار، وطيبك فواح يلفت الناشقين وحليك موسوس رنان ينبه الأسماع؟

(٣) اغتررت الحيَّ: خدعتهم وحضرت إلينا على غرة منهم، فرعك: شعرك الغزير، غربيب: شديد السواد، ليل لائل وأليل: أشد ليالي الشهر ظلمة وطولاً، والمعنى: إذا كنت قد استطعت أن تخدعي قومك وكان الوشاة هاجعين وشعرك ساتر لك بسواده الحالك والليل شديد الظلمة (جواب الشرط في البيت التالي).

(٤) وأنّى: كيف؟ اعتسف الطريق: اقتحمه بقوة من غير روية أو معرفة دروبه ومسالكه، والمعنى: إذا تحاميت العيون، وتسترت بشعرك والظلام، وسريت إلينا، فكيف استطعت اقتحام الأهوال مع أن خصرك ضامر ضعيف، وردفك ثقيل مضطرب، وجانبك مائل مترنح؟ وقد نظر الشاعر في بيتيه هذين إلى قول عبدالوهاب بن أحمد بن حزم المتوفّى سنة ٤٢٠هـ من قصيدة:

هبـيك ســريت الليل، فـرعُكِ أســحمٌ

وثـغــــــرك بسّـــــام، ولحـظك أوطفُ

فــــأنّى أطقتِ المشـي؟ قـــدّك مـــائدٌ

وردفك رجــــراجٌ، وخـــصـــرك أهيفُ

وقد كرر ابن زيدون هذين البيتين بتغيير طفيف في قصيدته الفائية في مدح المعتضد.

خليلَّي!! مـــالي كلّمـــا رُمْتُ سَلوةً
تعـــرّض شـــوقٌ دونَ ذلك حـــائلُ؟[1]
أَراحُ إذا راحَ النّســـيمُ شـــآمـــيًـــا
كـــأن شَــمــولاً مـــا تُديرُ الشّــمـــائل[2]
ضــلالاً تمادى الحبُّ في المعـشـرِ العـدى
ولَجَّ الهـوَى في حـيثُ تُخْشَى الغـوائل[3]
كـأنَّ ليس في نُعْـمَى الهُـمـامِ «مـحـمـدٍ»
مُـسلٍ، وفي مَـثْنَى أياديهِ شـاغل[4]
أغـــرُّ، إذا شِـمْنا سَـحـائِبَ جُـودِهِ
تَهَلَّلَ وَجْـهُ، واسْـتَـهَلَّتْ أنامل[5]
يُبَـشِّـرُنا بالنائلِ الغَـمْـرِ «خـاله»
وقَـبْل الحَـيـا مـا تَسْتَطيـرُ المَـخـايلُ[6]

---

(١) المعنى: يا صاحبيّ ما بالي كلما حاولتُ السلوان وقف الشوق حائلاً بيني وبين النسيان؟

(٢) راح وأراح العبير: وجد ريحه، ومنه الحديث الشريف «من قتل نفسًا معاهدة لم يرح رائحة الجنة» وأراح: ارتاح، الشمول: الخمر الباردة، الشمائل: جمع شمال وهي الريح التي تهب من ناحية الشمال، والمعنى: أجد هزة ارتياح وشوق إذا هب النسيم من جهة الأحباب، كأنّ نسائم الشمال تدير عليّ أطيب وأعذب الراح.

(٣) لجّ: ألح، الغوائل: المصائب، والمعنى: لقد تمادى الحب ضلالاً في عقيلة قوم عدو لي، وقذف بي الهوى إلى حيث المخاطر والهلاك، وقد كرّر الشاعر هذا البيت بتغيير طفيف في قصيدته الفائية في مدح المعتضد فقال:

لجـاج تمادى الحب في مـعـشـر العـدا
وأمّ الهـوى الأفق الذي فـيـه نشنف

(٤) مثنى الأيادي: إعادة المعروف مرتين: ومنه قول الشاعر من قصيدة أخرى في رثاء أبي الحزم بن جهور وتهنئة ابنه أبي الوليد بالحكم:

لك الخـيـر!! إني واثق بك شـاكـر
لمثنى أياديك التي كـفـرها الكفـر

والمعنى: كيف أخضع لعاطفة حب تقودني إلى الهلاك بين الأعداء؟ على حين تغمرني نعم الأمير وفيها تسلية لي عن كل عاطفة، وتشملني أياديه المتوالية وفيها شغل لي عن كل اللذات.

(٥) شام البرق: تتبعه لينظر أين يمطر، استهل المطر وهل وانهل: اشتد انصبابه، والمعنى: الأمير أبيض الوجه، إذا راقبنا سحائب جوده تهلّل وجهه وفاضت أنامله بالخير العميم.

(٦) ورد البيت ناقصًا وقد اخترنا كلمة (خاله) لمناسبتها للمقام، النائل الغمر: العطاء الجزيل، الخال: ما يتوقعه الإنسان من خير، وأخال فيه خالاً من الخير: وجد فيه بشيرًا بالخير، والخال أيضًا البرق أو سحاب لا يخلف المطر، الحيا: المطر، تستطير: تنتشر، المخايل: جمع مخيلة وهي السحابة المبشرة بالمطر، والمعنى: تهلل وجهه يبشرنا بجوده الوافر، كما نتوقع المطر من السحاب المجتمع فيصدقنا وعده بالمطر الغزير.

لَدَيْهِ رياضٌ للسّــجــايا أنيــقــةٌ
تَغْلغَلُ فـيــهــا للعطايا جــداول[١]
أَتِيٌّ، فــمــا تلك السَّــمــاحــةُ نُهْــزَةٌ
وَفِيٌّ، فـمــا تلك الحِـبــالُ حــبــائل[٢]
زعــيـمُ الدهاءِ أنْ تُصــيـبَ منَ العــدى
مَكايدُهُ مــالا تُصــيـبُ الجــحــافل[٣]
فـمـا سـيف ذاك العـزم فـيـهم بمِعْـضَـدٍ
ولا سَــهْمُ ذاك الرأيِ أفْــوَقُ ناصل[٤]

✡✡✡✡

بني «جَــهْــوَرٍ» عـشــتُم بأوفَــرِ غِـبْطَةٍ
فلولاكمُ مــا كــان في العَــيْشِ طائل[٥]
تفَــاضَلَ في السَّــرْوِ الملوك، فــخلتُــهُمْ
أنابيبَ رُمْحٍ أنتمُ فــيــه عــامِلُ[٦]

---

(١) السجايا: الطبائع، والمعنى: شمائله طيبة وأخلاقه ندية مونقة كالرياحين اليانعة تنساب منها جداول الهبات فتروي الظامئين.

(٢) الأتي: الجدول أو السيل الغريب، نهزة: فرصة، الحبال: جمع حبل وهو الرباط أو العهد والذمة أو الأمانة أو الوصال، الحبائل: جمع حبالة وهي الشرك الذي ينصب للصيد، والمعنى: الأمير كريم بطبعه كالسيل المتدفق، فليس كرمه فلتة عارضة أو صدفة طارئة، وهو مع هذا وفي لأوليائه فروابطه الوثيقة بهم ناشئة عن الحب والوفاء لا عن الكيد والاحتيال.

(٣) المعنى: الأمير سديد الرأي صائب التدبير ينال بحسن رأيه وحيلته من العدو ما لا تستطيع أن تناله الجيوش الزاحفة بالعدد والعديد.

(٤) المعضد: سيف يمتهن في قطع الشجر، سهم أفوق: سهم مكسور فوقه (والفوق موضع الوتر من رأس السهم)، ناصل: فاقد لنصله، وفي الأصول «ناضل» والناضل هو الهزيل، ولعل الصواب ما أثبتناه، والمعنى: إذا عزم الأمير فعزيمته مرهفة ماضية كالسيف البتار لا كالمعضد، وإذا دبر أمرًا فإن تدبيره نافذ محكم كالسهم النافذ لا كالسهم المكسور. وفي نسخة ت «أفوف نابل».

(٥) الطائل: المزية أو الغَناء، يقال لا طائل فيه أي لافائدة منه، والمعنى: يا بني جهور أسأل الله أن تعيشوا في أتم سعادة وأوفر نعيم فلولاكم ما كان في العيش غناء.

(٦) السرو: السخاء والمروءة، عامل الرمح: صدره، والمعنى: تفاضل الملوك في الشرف والسخاء، فكانوا مثل أنابيب الرمح وكنتم أنتم الصدر فيه.

لئن قَلَّ في أهلِ الزَّمانِ عَديدكُمْ
فإنَّ دراريَّ النُّجُومِ قلائلُ[1]
فِداؤكُمُ من إنِ تَعِدْهُ ظُنونُهُ
لَحاقَكُمُ في المجد فالدهرُ ماطلُ[2]
مَناكيدُ!! فِعْلُ الخَيْرِ منهمْ تكلُّفٌ
إذ الشَّرُّ طَبْعٌ ما لَهُمْ عنه ناقلُ[3]
فإن سُتِرَتْ أخلاقُهُمْ بتَخَلُّقٍ
فكلُّ خَضيبٍ لا محالةَ ناصلُ[4]
لَكَ الخيرُ! إني قائلٌ غيرُ مُقْصِرٍ
فمن ليَ باستيفاءِ ما أنتَ فاعلُ؟[5]
لَعَمْرُ سَراةِ الثَّغْرِ وافاكَ وَفْدُهُمْ
لَمَا ذَمَّ منهمْ ذلك النُّزْلَ نازلُ[6]
لأعْذَرْتَ لمّا لمْ يُمِلَّكَ مُكثُهُمْ
إذا عَذَرَ المُسْتَثْقِلُ المُتَثاقِلُ[7]

(١) الدراري: جمع دريّ وهو النجم الوضاء، والمعنى: إذا كان عددكم قليلاً فإن آثاركم كثيرة، ولا عجب!! فإن النجوم الوضاءة قليلة العدد بالغة الأثر.

(٢) المعنى: يفديكم كل منافس لكم يتخيل أنه سيلحقكم في المجد والشرف فيكذب الدهر ظنونه.

(٣) مناكيد: جمع نكد أي عسر مشؤوم، ونكد عيشه: اشتد، ونكد الرجل: كثر سؤاله وقلّ نائله، والمعنى: إن منافسيكم مشؤومون إذا فعلوا خيرا فعلوه عن تكلف وجهد ومشقة، فالشر طبيعة متأصلة فيهم لا يستطيعون تركه أو الانتقال عنه.

(٤) المعنى: إذا ستروا أخلاقهم الشريرة بستار متكلف من الأخلاق الحميدة فلا بد أن تتكشف طبيعتهم الأصيلة للأنظار، كما أن كل خضاب للشيب لابد أن يزول.

(٥) أقصر عنه: كف ونزع مع القدرة عليه، والمعنى: سأصوغ فيك آيات المدح والثناء ولن أكف عن الإطراء، ولكن هل أستطيع أن أفيك حقك من الثناء وأن أحيط بجميع فعالك الغراء؟

(٦) السراة: جمع سريّ وهو الشريف أو الرئيس أو السخي ذو المروءة، النزول والنزل: المنزل أو ما هيئ للضيف أن ينزل عليه أو ريع ما يزرع أو زكاؤه ونماؤه، والمعنى: وحق أشراف الثغر لقد نزلوا عليك فأحمدوا منازلهم (الثغر هو البلد القائم على الحدود ويخاف هجوم الأعداء منه).

(٧) أعذرت: ثبت لك عذر أو أحدثت عذرًا، أملّه: أسأمه وأضجره، المستثقل: المتضجر السؤوم، المتثاقل: الثقيل المسئم، المعنى: إذا طال مكث هذه الوفود حتى أثقلوا وأملّوا فلك عذرك في الضجر منهم، وهم أنفسهم يعذرونك في ضيقك بهم، ولكنك مع هذا لم تظهر ضيقًا أو تبرمًا بطول مكثهم بل بالغت في الحفاوة بهم.

نَضَدْتَ رياحينَ الطَّلاقَةِ غَضَّةً

وَرَقْرَقْتَ ماءَ البِرِّ وَهْوَ سُلاسِلُ[١]

فما منهُمُ إلا شديدٌ نِزاعُهُ

إليك، مقيمُ القلبِ والجسمُ راحلُ[٢]

ضَمانٌ عليهم أن سيُؤْثَرُ عنهُمُ

عليكَ ثَناءٌ في المَحافِلِ حافِلُ[٣]

مَساعٍ هِيَ العِقْدُ انتظامَ مَحاسِنٍ

تَحَلَّى بها جِيدٌ منَ الدَّهْرِ عاطلُ[٤]

تُنيرُ بها الآمالُ، والليلُ واكِدٌ

وتُخْصِبُ منها الأرضُ، والأُفْقُ ماحلُ[٥]

☆☆☆☆

هنيئًا لكَ العيدُ الذي بِكَ أَصْبَحَتْ

تَرُوقُ الضُّحا منه، وتَنْدَى الأصائلُ[٦]

تلقَّاكَ بالبُشْرَى، وحيَّاكَ بالمُنَى

فبُشْراكَ أَلْفٌ بَعْدَ عامِكَ قابِلُ[٧]

---

(١) نضد: وضع بعض الشيء على بعض في نسق وانتظام، الرياحين: جمع ريحان وهو كل نبات طيب الريح أو نبات خاص لأوراقه رائحة طيبة أو الرحمة والرزق، غضة: طرية ناعمة، رقرق الماء: صبّه، السلاسل: الماء العذب البارد، والمعنى: لم تسأم لطول مكث هذا الوفد، بل تهللت لمقامهم وغمرتهم بالبشر والإيناس المتجدِدَيْن، وأوصلت إليهم برك العميم في رفق وأناة.

(٢) النزاع: الشوق، نزع إلى أهله: اشتاق إليهم، والمعنى: هذا الوفد تعلق بك وهفا إليك في شوق ووله، فإذا رحل عنك أقام قلبه لديك.

(٣) المعنى: لقد تكفل هذا الوفد بإذاعة محامدك والتنويه بمكارمك في كل محفل يضمهم أو مكان يجمعهم.

(٤) جيد: عنق، والمعنى: مآثرك أيها الأمير أصبحت حلية يتحلّى بها جيد الزمان بعد أن كان عاطلاً.

(٥) في الأصول «والليل والد» ولعل الصواب ما أثبتناه، واكد: قائم، ماحل: مقفر جديب، والمعنى: مناقبك الحميدة تضيء لنا الآمال، والليل مخيم على البسيطة حالك الظلام، وتخصب لنا الأرض والجو خال من السحاب.

(٦) المعنى: نهنئك بالعيد الذي أشرقت فيه فراق لنا ضحاه وطاب الأصيل.

(٧) المعنى: استقبلك العيد مبشرًا لك بالنعيم، وحيّاك مهنئًا بالرجاء، وندعو الله لك أن تستقبل ألف عيد وافدة مثله بالسعادة والنعيم.

لَئِنْ يَنْصَرِمْ شَهْرُ الصِّيام لَبَعْدَهُ
شَأَى صالحَ الأعْمالِ ما أنتَ عامِلُ[(١)]

رأيتَ أداءَ الفَرْضِ ضَرْبَةَ لازمٍ
فلم تَرْضَ حتى شَيَّعَتْهُ النَّوافل[(٢)]

سَدِكْتَ ببيتِ اللّهِ حُبَّ جِواره،
لكَ اللّهُ بالأجْرِ المُضاعفِ كافل[(٣)]

هَجَرْتَ له الدارَ التي أنت آلفٌ
لِيَعتادَهُ مَحْضُ الهَوَى منكَ واصل[(٤)]

فإن تَتَناقَلْكَ الدِّيارُ فطالما
تناقَلَتِ البدرَ المُنيرَ المَنازِلُ[(٥)]

ألا كلُّ رَجْوٍ - في سواكَ - عُلالَةٌ
وكلُّ مديحٍ - لم يكن فيك - باطل[(٦)]

فما لعِماد الدين - حاشاكَ - رافعٌ
ولا لِلِواءِ المُلكِ - غيرُكَ - حامِلُ[(٧)]

☆☆☆☆

(١) في نسخة أ «شأى صالح الأعمال» وفي ز «لبعد ما شأى» وفي ب، ت، «نثا صالح»، شأى: سبق، نثا الحديث: حدّث به وأشاعه، والنثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ، والمعنى: إذا انصرم شهر الصيام فقد أديت فيه أعمالاً صالحات فاقت كل ما قام به غيرك من أعمال.

(٢) ضربة لازم أو لازب: أمر واجب مفروض، شيعته: أتبعته، وشيعت رمضان بست من شوال: أتبعته بها، النوافل: جمع نافلة وهي ما يتطوع به الإنسان من عبادات الفريضة مثل السنن، والمعنى: رأيت أداء الفرائض أمرًا واجبًا محتومًا فلم تقنع به حتى أتبعته بكثير من النوافل مبالغة منك في العبادة والصلاح.

(٣) سدك بالمكان: لزمه، كافل: ضامن، والمعنى: لزمت بيت الله حبّاً لجواره وسيثيبك بالأجر المضاعف الجزيل، وفي نسخة ت «سلكت ببيت الله» وفي ز «سكنت» وهذه الكلمة ناقصة في نسخة ت.

(٤) المعنى: اعتكفت بالمسجد وهجرت منزلك الذي ألفته وتيسرت لك فيه سبل الراحة، لأنك متعلق بالله مخلص له الحب والولاء «المعروف أن الاعتكاف بالمساجد في العشر الأواخر من رمضان سنة مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعند المالكية – مذهب أهل الأندلس – أنه مستحب في رمضان وغيره، ويتأكد في رمضان مطلقًا، وفي العشر الأواخر منه آكد».

(٥) المعنى: إذا انتقلت من مكان إلى مكان آخر فإنك مثل البدر الذي ينتقل من منزل إلى منزل، ومنازل القمر معروفة عند الفلكيين.

(٦) في الأصول «كل رَجْوَى» ولم نجد كلمة رجوى في كتب اللغة، الرجو والرجاة: الرجاء، علالة: ما يتعلل الإنسان ويتشاغل به للتسلية عن أمر داهم، قال الطغرائي:

أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

والمعنى: كل رجاء في غيرك إنما هو علالة لا تغني ولا تفيد، وكل مديح في غيرك باطل، فما يصدق المديح إلا فيك.

(٧) المعنى: ليسَ لعماد الدين رافع سواك، وليس لعلم الملك حامل غيرك، فبك وحدك يستقر الدين ويرتفع شأن السلطان.

لأمَّنْتَنِي الخَطْبَ الذي أنا خائفٌ

وبَلَّغْتَني الحَظُّ الذي أنا آمِلُ[1]

[وأسْدَيْتَ عُرْفًا منك] ألْهَمَ هِمَّتي

فما أَنا لا غُفْلٌ، ولا أنتَ غافل[2]

أرى خاطري كالصَّارمِ العَضْبِ، لم يَزَلْ

له شاحِذٌ من حُسْنِ رأيِكَ صاقل[3]

وما الشِّعْرُ مما أدّعيهِ فضيلةً

تَزِينُ، ولكن أنْطَقَتْني الفَواضل[4]

بقيتَ كما تَبْقَى مَعاليك! إنَّها

خَوالِدُ، حينَ العَيْشُ كالظِّلِّ زائل[5]

فما نَسْتَزيدُ الله بعدُ نهايةً

لنفسكَ غَيْرَ الخُلد، إذْ أنتَ كامِلُ[6]

****

(١) المعنى: لقد أمنتني من النكبة التي كنت أخشاها، وبلغتني الآمال التي كنت أرجوها وأترقبها.

(٢) ورد أول البيت ناقصًا في الأصول، وقد أكملناه بما يناسب المقام، أسديت: أهديت وقدّمت، العرف: الجميل والمعروف، الغفل: ما لا علامة فيه تميزه من القداح أو الطريق، أو ما لا عمارة فيه من الأرض، أو من لا يرجى خيره ولا يخشى شره، والمعنى: قدمت إليَّ جميلاً أثار همتي وأيقظ مشاعري فأصبحتُ عَلما يشار إليه، فلست أنا مهملا منبوذًا، ولستَ أنتَ غافلاً عن التنويه بي ورفع مكاني.

(٣) الصارم العضب: السيف القاطع، شاحذ: سانٌ مرهف، صاقل للسيف: مزيل للصدأ عنه مزين له، والمعنى: إن ذكائي كالسيف القاطع لم تزل تجلوه وتصقله بحسن رأيك وجميل صنعك حتى أصبح قويَّ الأثر حادّ المضاء.

(٤) الفواضل: الأيادي الجسيمة والمنن العظيمة، وفواضل المال: ما يأتيك من غلته ومرافقه، والمعنى: لا أدعي أن الشعر فضيلة طبيعية فيّ، ولكن هباتك السامية ومننك العظيمة هي التي أوحت إليّ بهذا الشعر الرائع.

(٥) المعنى: أدعو الله أن يمد في عمرك وأن يطيل حياتك فتخلد حياتك كما خلدت آثارك، وتبقى أيامك كما بقيت معاليك، فإنها خالدة على حين أن العيش زائل كما تزول الظلال.

(٦) المعنى: لقد كملت في كل شيء فلا ندعو الله لك بزيادة في أمر من الأمور لأنه لا زيادة لما نلت، وإنما ندعوه لك بالخلود.

العيش المونق

مـــــا طـولُ عَـــــذلكِ لـلـمُــــحبٍّ بـنـافـعِ
وَهَبَ الـفــؤادَ، فليس فـــيـــه براجـعِ[1]
فُـنِّـدْتِ حـين طـمــــــعـتِ فـي سُـلـوانـهِ
هـيــــهـــاتَ!! لا ظَـفَــــرٌ هـنـاك لطامـع[2]
فَـدَعـيــهِ حـيثُ يطولُ مَـيـدانُ الصِّـبـا
كَــيْـــمـــا يَجُــــرَّ بهِ عِنانَ الخـــالـع[3]
مـــاذا يَريبك من فـــتًى عـــزَّ الـهـــوى
فَـــعَـنَـا لِـنَخْـــوَتِـهِ بذِلَّـةِ خـــاضعِ؟[4]
هل غَـــيْـــرَ أن مَــحَضَ الوفـــاءَ لِغـــادرٍ؟
أو غَــيْـرَ أنْ صَــدَقَ الوِصـــالَ لقـــاطعِ؟[5]

---

(١) المعنى: ليست مبالغتك في لوم المحب بنافعة، فقد منح فؤاده لحبيبته وهو غير راجع في ما وهب.

(٢) التفنيد: اللوم وتضعيف الرأي أو التكذيب والتخطيء، والمعنى: حين حاولت أن تغريه بالسلوان كنت على خطأ عظيم، فليست هناك فائدة من هذه المحاولة المستحيلة.

(٣) العنان: اللجام، الخالع: الفرس الذي خلع لجامه وانطلق عاديا، والمعنى: دعيه ينطلق في عواطفه كما شاء له الهيام واتسع له المجال حرًا طليقًا من اللائمين والعذال.

(٤) الريب: الظنّ والشك أو الاتهام، ويُروَى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «مكسبة فيها بعض الريبة خير من مسألة الناس»، رابني الشيء: استيقنت الريبة، وأرابني ظننت فيه الريبة ولم أتيقن منها، عز: غلب واشتدّ، عنا: خضع، النخوة: العظمة والكبرياء، والمعنى: ما الذي يحملك على اتهام فتى قابل عزّ الهوى بالخضوع لسلطانه المطلق، وفي هذا المعنى يقول الخليفة سليمان بن الحكم المستعين بالله:

لا تعـــــذلوا ملكًا تذلّلَ للهـــــوى
ذلُّ الهــــــوى عــــــزٌّ ومُلْكٌ ثاني
مـــا ضَـــرَّ أني عـــبـــدهن صـــبـــابةً
وبنو الزمـــــان وهن من عـــــبـــــداني

(٥) محض: أخلص، والمعنى: ماذا فعل غير أنه منح وده الخالص ووفاءه المحض لحبيب غدّار، وصدق في وصاله لحبيب هاجر؟

لـمْ يَـهْــــوَ مَـنْ لَـمْ يُـمْـسِ قُــــرَّةَ عَــــيْـنِـهِ
سَـــهَـــرُ الـصَّـــبَـــابـةِ فـي خَـلِـيٍّ هـاجـعِ[1]

☆☆☆☆☆

واهًـا لأيّـامٍ خَـلَـتْ!! مـــــا عَـــــهْـــــدُهـا
- فـي حـيـنِ ضَـيَّـعْـتِ الـعُـهـودَ - بـضـائـع[2]

زمـنٌ كـــمـــا راقَ الـسَّـــقـــيـطُ مـنَ الـنّـدى
يَـسْـــتَـنُّ فـي صَـــفَـــحـــاتِ وَرْدٍ يـانـع[3]

أيّـامَ إنْ عَــــتَـبَ الـحـــبـــيـبُ لـهـــفـــوةٍ
شـــفَـع الـشَّـــبـــابُ فـكـان أكـــرمَ شـــافـع[4]

مـــــا لـي ولـلـدُّنـيــــا؟ غُـــــرِرْتُ مـن الـمُـنـى
فـــيـــهـــا بِـبَـــارِقَـــةِ الـسَّـــرابِ الـخـــادع[5]

مــــــا إنْ أزالُ أرومُ شُـــــهْـــــدَةَ عــــــاسـلٍ
أُحْـــمَـى مُـجَـــاجـــتَـــهـــا بـإبـرةِ لاسِـعِ[6]

☆☆☆☆☆

مَـنْ مُـــــبْـلِـغٌ عـنّـي الـبـــــلادَ - إذا نَـبَـتْ -
أنْ لـسـتُ لـلـنـفـسِ الأَلـوفِ بـبـــــــاخِـعِ[7]

---

(١) المعنى: لم يذق طعم الحب من لم يستعذب فيه السهر والآلام شغفًا بحبيب ناء خليّ البال من لواعج الأشواق والأشجان.

(٢) واهًا: كلمة تعجب من حسن أو شجن، والمعنى: ما أعجب أيام الوصال التي سعدنا بها في غفلات الزمان!! وإذا كنت قد تنكرت لهذه الأيام فإني لها حافظ وعليها أمين.

(٣) راق: سرّ وأعجب، السقيط: المتساقط من النّدى، استن السراب: اضطرب، والمعنى: قضينا زمنًا ناعمًا سعيدًا طاب كما يطيب الندى المتساقط المترقرق فوق أوراق الورد المتفتح النضير.

(٤) المعنى: طوينا هذه الأيام في نشوة ناعمة، فإذا حدث أن عتب الحبيب علينا لهفوة لم يطل عتبه، لأن شبابنا الغض يغفر لنا كل الهفوات ويشفع لنا في كل الذنوب.

(٥) المعنى: ما لي وللزمان غشني بأكاذيبه ولوّح لي بالأماني الخداعة كلمع السراب؟ فانخدعت بآماله حتى سفرت الحقائق لي عن وجهها الرهيب.

(٦) الشهدة: العسل في شمعه، عاسل: جامع للعسل، المجاج والمجاجة: الريق الذي تمجه من فيك، يقال: المطر مجاج المزن، والعسل مجاج النحل، والمعنى: ما زلت أحاول أن أحظى بالعسل فلا أنال غير اللسع بالإبر.

(٧) نبا: تجافى وتباعد، بخع نفسه: قتلها غمّاً، ومنه قوله تعالى ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾، والمعنى: فليعلم عني أهل الوطن إذا تنكروا لي أنني لن أقتل نفسي حزنًا عليهم، فإنّ لي من عزة نفسي وإبائي حصنًا منيعًا.

أمَّــا الـهـــوانُ فَـصُنْتُ عنه صَـفْـحَـةً
أغـشى بهــا حَـدُّ الـزّمـانِ الشّـارعِ[1]
فَلْيُـرْغِمِ الحَظُّ الـمُـوَلِّيَ أنَّهُ
ولّى فلمْ أُتْبِعْـهُ خُطْوَةَ تابعِ[2]
إنّ الغِنَى لَهُوَ القناعـةُ، لا الذي
يَشْتَفُّ نُطْفَةَ مـاءِ وَجْـهِ القـانعِ[3]

☆☆☆☆☆

اللّـهُ جـارُ «الجَـهْـوَرِيِّ»!! فطالما
مُنِيَتْ صَـفَـاةُ الدهرِ منه بقـارعِ[4]
مَلِكٌ دَرى أنَّ المسـاعيَ سُـمْـعَـةٌ
فَسَـعَى، فطابَ حَـديثُـهُ للسـامعِ[5]
شِيَمٌ هِيَ الزَّهرُ الجَنيُّ، تَبَسَّمَتْ
عنه الكمـائِمُ في الضَّحـاءِ الماتِعِ[6]

---

(١) غشي فلانًا بالسوط، ضربه به، غشِيَ فلانًا: أتاه، ومثلها غشاه يغشوه، الشارع: الشاهر سيفه أو رمحه، والمعنى: لقد صنت صفحة وجهي عن الذل والهوان، وآثرت أن ألقى بها سلاح الزمن البتار على أن أرغمها في التراب.

(٢) المعنى: إذا كان الحظ الحسن قد انصرف عني فإنني لم أقتف خطواته في ضراعة وذل، بل صنت كرامتي وتركته رغمًا عنه وأنا مليء بالعزة والإباء.

(٣) يشتفّ ويتشافّ ما في الإناء: يشرب كل ما فيه، النطفة والنطافة: الماء الصافي جمعه نطاف ونطف، القانع: السائل الذليل، أو الراضي بالنصيب، والأول نقيصة والثاني فضيلة، وورد في الدعاء «نسأل الله القناعة ونعوذ به من القنوع» قال تعالى ﴿وأطعموا القانع والمعتر﴾ فالقانع هو السائل والمعتر هو الذي يطيف ولا يسأل، والمعنى: إن الغِنى في القناعة بالقليل، وليس في جمع الكثير عن طريق إراقة ماء الوجه، ومثله قول الشاعر:

غني - بلا مـال - عن الناس كلهم
وليس الغِنى إلا عن الشيء، لا به

(٤) جار: مجير، منيت: ابتليت، الصفاة: الصخرة الملساء، قارع: ضارب، والمعنى: نصر الله ابن جهور!! فكم صدم الدهر بقوته ورد صرفه عن رعيته ببأسه القوي المتين.

(٥) المساعي: جمع مسعاة وهي المكرمة والسمو في المجد، السَّمعة والسُّمعة إطراء صفة والتنويه بها في الندوات، والمعنى: عرف الأمير أن المكارم محمدة على الأفواه والأسماع، فبذل المكرمات، فطاب ذكره على الألسنة وفي الآذان.

(٦) شيم، طبائع، الجنيّ: اليانع، الكم والكمامة: وعاء الطلع أو غطاء نوار الزهر، وجمعه أكمام وكمام وأكمة، أما الكمائم فجمع كمامة وهي كيس يوضع على منخر الفصيل لئلا يؤذيه الذباب، ولم تستعمل في غلاف الزهر كما استعملها الشاعر، قال الفرزوق:

يُعلِّقُ لما أعـجـبَـتْـه أتانُه
بأرآد لحـيـيـهـا جـيـادَ الكمـائم

الضحاء: ارتفاع الشمس قبيل الظهر، متع النهار: ارتفع قبل الزوال، ومتع الضحى: بلغ آخرَ غايته، والمعنى، أخلاق الأمير كالزهر اليانع الذي تفتحت عنه أكمامه تحت أشعة الشمس قبل الزوال، فذاع عبيره الفواح.

أجْـــرَى مُنافِـــسَـــهُ ليُـــدْرِكَ شـــأوَهُ

فَـــشَـــآهُ بالبـــاعِ الطُّويلِ الواسعِ(١)

ثَبْتُ السَّكينةِ في النَّدِيِّ، كـــأنَّمـــا

تلكَ الحُـبَـا لِيـثَـتْ بهَـضْبِ مُـتـالعِ(٢)

عَـــذْبُ الجَنى للأوليـــاءِ، فـــإن يَهِجْ

فـــالسّمُّ يأبَى أنْ يســـوغ لجـــارع(٣)

✲✲✲✲

يأيّهـــا الملكُ الذي حـــاطَ الهُـــدَى

لـولاكَ كـــان حِـــمًى قليل المانع(٤)

أَنِسَ الأنامُ إليكَ فـــيـــه، فـــهمْ بهِ

من قـــائمٍ أو ســـاجـــدٍ أو راكِعِ(٥)

---

(١) أجراه وجاراه: سابقه، الشأو: الغاية والأمد، شآه: سبقه، والمعنى: جارى الأمير منافسيه فبذهم، وحاولوا إدراك غايته فعجزوا، لأن له باعًا طويلاً وذرعًا واسعًا في المكرمات لا يطاوله فيهما مطاول.

(٢) النديّ: مجلس يجتمع فيه القوم للحديث، الحبا: جمع حبوة وهي جلسة خاصة يضم الجالس فيها فخذيه إلى بطنه ويشتملهما بيديه أو بثوب يلفه حوله، وهي جلسة يكنون بها عن الوقار، ليثت: لفت وطويت، ومنها يلوث عمامته أي يلفها، قال ابن خفاجة في وصف جبل:

يلوث عليـه الغـيم سـود عـمـائم

لهـا من وميض البـرق حـمـر ذوائب

الهضب: الجبل المنبسط، متالع: مسايل الماء فوق الجبال إلى الوديان، ومتالع: ماء في شرقي الظهران عند الفوّارة، وهضب متالع: موضع انحدار الماء في سفح هذا الجبل، قال كثير عزة:

بكى ســـائب لما رأى رمل عـــالج

أتى دونه، والهـضب هضب مـتـالع

المعنى: الأمير وقور جليل، إذا احتبى في مجلسه فإنه لا يستفزه أمر – وإن عظم – كأن حبوته لفت حول هضب متالع، ومن ذا يحرك الجبال؟

(٣) الجنى: الثمر، يسوغ: يسهل دخوله في الحلق، والمعنى: الأمير وفي لأصدقائه يمنحهم أعذب الهبات، فإذا ثار كان سمّاً ناقعًا يغص به الشاربون.

(٤) حاطه: كلأه ورعاه، الحمى: المكان المحظور قربه، وفي الحديث «لا حمى إلا لله ولرسوله»، والمعنى: يأيها الملك الذي حرس الدين ورعى حوزته وحماه ولولاه لقل حماته وحافظوه، وفي ب، ز «يهيج لجارع».

(٥) المعنى: اطمأن الأنام إلى رعايتك للدين فتابعوك في رعايته وحفظه، فهم مقبلون على أنواع العبادات من قيام وسجود وركوع.

مُـــتَـــبَـــوِّئونَ جَنابَ عَـــيْشٍ مُـــونِقٍ
مُـــتـــفـــيّـــئـــونَ ظلالَ أمْنٍ شـــائعِ[1]

فَلَتَـــضْـــرِبَنْ مَـــعَـــهُمْ بأوفـــرِ شِـــرْكَـــةٍ
في أجـــــرهِـمْ من مُـــــوتِرٍ أو شـــــافعِ[2]

خَـيْرُ الشّـهـورِ اخْـتَـرْتَ - عند طلوعِـهِ -
خَـــيْـــرَ البـــقـــاعِ له بأسْـــعَـــدِ طالِعِ[3]

****

(١) متبوئون: نازلون، الجناب: الفِناء، مونق، عجيب رائع، متفيئون: مستظلون، والمعنى: ارتاح الأنام في ظلك فهم يتمتعون بأعذب عيش وينزلون في أكرم مكان ويستظلون بالأمن والسكينة والاطمئنان.

(٢) في ب، ت، ز «من أجرهم»، المعنى: سوف تنال أيها الأمير ثواب عملك وسوف تشاركهم بنصيب كبير من أجورهم وثواب أعمالهم سواء كانت فردية أو زوجية.

(٣) المعنى: في خير الشهور «لعله شهر رمضان» اخترت أطيب مكان «لعله الاعتكاف بالمسجد» في أسعد الحالات.

٣ – لدى المظفر بن الأفطس أمير بطليوس

فصل الخطاب

أرسل الشاعر رسالة مسهبة إلى المظفر بن الأفطس في الشفاعة لصديق، وأتبعها بهذه القصيدة، ولعل الشاعر اتخذ من هذا الصديق ستارًا لنفسه حينما عزله أبو الوليد بن جهور من السفارة له:

لِبيضِ الطُّلَى ولسُود اللِّمَمْ
بعَقْلِيَ – مُذْ بِنَّ عنّي – لَمَمْ[1]

ففي ناظري – عن رشادٍ – عَمًى
وفي أُذني – عن ملامٍ – صَمم[2]

قَضَتْ بشِماسي على العاذلينَ
شُموسٌ مُكَلَّلَةٌ بالظُّلَم[3]

فما سَقِمتْ لَحَظاتُ العيونِ
إلا لتُعْدِيَني بالسَّقَم[4]

يلومُ الخَلِيُّ على أن أَحِنَّ
وقد مَزَجَ الشَّوْقُ دمعي بدَمْ[5]

(١) الطُّلى: الأعناق واحدتها طُلية أو طلاة، اللمم واللمام: جمع لمّة وهي الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهو جمة، بنّ: بعدن، اللمم: نوع من الجنون أو مس من الجن كما كان بعض العرب يزعمون، والمعنى: إن الحسناوات الرائعات ذوات الأجياد البيضاء والغدائر السوداء افترقن عني فاعتراني مس من الجنون لما قاسيته من لواعج الفراق.

(٢) المعنى: لا فائدة من توجيه اللوم إليّ على حبي العنيف، فقد أعمى الهوى ناظري وأصمّ أذني، فلا أرى ولا أسمع إلاَّ الحب القاهر الغلاب، أخذه شاعرنا من قول ابن هانئ:

ففي ناظري عن سواكم عمًى
وفي أذني عن سواكم صممْ

(٣) شمس الفرس شماسًا: منع ظهره، ورجل شموس: صعب الخلق، مكلّلة: متوجة، والمعنى: هؤلاء الفتيات المشرقات كالشموس المسبلات شعورهن كالدياجي سلبن لبي وقلبي، فنفرت من لوم العاذلين وقابلت نصحهم بالإعراض.

(٤) المعنى: إن فتور عيونهن وانكسارها هو الذي ابتلاني بالأسقام والأشجان، وفي الذخيرة «وما سقمت» وفي أ، ب «لتغريني بالسقم».

(٥) آثرنا رواية الذخيرة، وفي الأصول «أن أجنّ»، والمعنى: يلومني الخليون من الحب على لهفتي وحنيني، ولم يرثوا لما أقاسيه من أشجان أسالت دموعي ممزوجة بالدماء.

ومـــــا ذُو الـتَّـــذَكُّـــر مِـــمَّـنْ يُـلامُ
ولا كَـــــرَمُ الـعَــــهْـــــدِ ممّا يُـذَمْ[١]

☆☆☆☆☆

وإنــي أَراحُ إذا مـــــــــا الـجُـنـو
بُ راحَـتْ بـريًّـا جَـنـوبِ الـعَـلَـم[٢]
وأصـبـو لـعِـرفـانِ عَـرْفِ الصَّـبـا
وأُهـدي الـسّـــلامَ إلـى «ذي سَـلَـم»[٣]
ومِنْ طَرَبٍ عـــادَ نَحْـــوَ الـبِـــرا
قِ أجْـهَـشْتُ للبَـرْقِ حـينَ ابْتَـسَم[٤]
أمَـــا وزمـــانٍ مـــضى عـــهـــدُهُ
حَـمـيـدًا، لقـد جـارَ لـمَّـا حكَم[٥]
قَــضَى بـالصّـبـابـةِ ثـم انْقَـضَى
ومـــا اتصَلَ الأُنْسُ حــتّى انْصَـرم[٦]
لـيـــاليَ نامَتْ عـــيـــونُ الـوشـــا
ةِ عـنّـا، وعـينُ الـرِّضـى لـم تـنَـم[٧]

---

(١) المعنى: ليس صاحب الذكريات بأهل للملام، وليس الوفي بعهده موضعًا للذم والتشهير.

(٢) أراح: أرتاح، الجنوب: الريح التي تهب منها، راحت: هبت راجعة، الريّا: الرائحة العذبة، والمعنى: إذا هبت رياح الجنوب حاملة إليّ أنفاس الحبيب المعطرة اهتززت هزة الارتياح والحبور، ومن المعروف أن قرطبة تقع إلى الجنوب الشرقي من «بطليوس».

(٣) أصبو: أميل، العرفان: العلم، العرف: الرائحة الذكية، الصبا: ريح تهب من الشرق، ذو سلم: واد بالحجاز، قال الشريف الرضي:

يا ظبـيــة الإنس هل أنس ألذُّ به
من الغـداة فـأشـفى من جـوى الألم؟
وهـل أراك عـلـى وادي الأراك؟ وهـل
يعـود تسليـمنا يومًـا بذي سلم؟

والمعنى: إنني أهتز شوقا إذا ميزت عبير الريح الشرقية، وأبعث بالسلام إلى أحبابي في «ذي سلم».

(٤) البراق: قرية بحلب بينهما فرسخ «وقد أطلق الأندلسيون أسماء كثير من مدن الشام وقراه على مدنهم وقراهم»، جهش وأجهش إليه: فزع إليه وهو يريد البكاء كالصبيّ حين يفزع إلى أمه، وفي الحديث الشريف «أصابنا عطش فجهشنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم»، والمعنى: حينما لجّ بي الشوق إلى قرية البراق ورأيت البرق مبتسمًا فزعت إليه جاهشًا بالبكاء لأن فيه سمات من مواطن الأحباب.

(٥) المعنى: وحق الزمان الماضي الذي سعدنا تحت ظلاله لقد تنكر لنا بعد عرفان وأدبر عنا بعد إقبال وجار علينا في أحكامه.

(٦) في الذخيرة «لما انقضى»، انصرم: انقطع، والمعنى: قضى الزمان علينا بالحب وأسعدنا به ثم انقضى سريعًا، فما كاد يسعدنا بالوصال حتى باغتنا بالهجران.

(٧) المعنى: هي ليال سعدنا فيها باللقاء وقد نامت عنا عيون العاذلين وتيقظت عيون النعيم.

ومـــالت علينا غُـــصـــونُ الـهَـــوَى
فــــأَجْنَتْ ثِمـــــارَ الــمُنى من أَمَمْ[1]

وأيّامُنـا مُـــــذهَبَـــــاتُ البُـــــرودِ
رقِـــاقُ الحَـــواشي صَـــوافِي الأَدَم[2]

كــــــــأن «أبـا بـكـر» الأَسْـلَـمِـ
ـيَّ أجْـــرَى عليـــهـــا فِـــرِنْدَ الكرم[3]

ووشَّـحَ زَهْـرَةَ ذاك الـزَّمـــــــانِ
بما حـــاز من زُهْرِ تلك الشِّـــيَم[4]

هُوَ الحـــاجِبُ الـمُـــعْـــتَلي للعُـــلا
شــــمــــاريخَ كلِّ مُنيفٍ أَشَـمْ[5]

مَليكٌ، إذا ســــابَقَـــتْـــهُ الملوكُ
حَـوَى الخَـصْلَ، أو سـاهَمَـتْـهُ سَـهَمْ[6]

---

(١) جنى الثمرة واجتناها: التقطها من غصنها، وأجنيته إياها مكنته من جنيها، وأجنت الأرض: كثر جناها، الأمم: القرب، والمعنى: سعدنا في روضة الوصال فمالت علينا أغصانها ومنحتنا أطيب الجنى وأعذب الثمار في يسر وقرب وسماح.

(٢) مذهبات ومذهبات: مموّهات بالذهب، البرود والأبراد: جمع برد وهو ثوب مخطط، الحواشي: جمع حاشية ومن معانيها الظل، وعيش رقيق الحواشي: رغد ناعم الظلال، الأَدم والأُدم: الجلد، والأَدْم: الألفة والصلح، وفي الحديث الشريف عن خطبة المرأة «لو نظرت إليها!! فهو أحرى أن يؤدم بينكما» أي يدوم الصلح والألفة، وأديم النهار: عامته أو بياضه جمعه أُدْم وأُدُم، والمعنى: كانت أيام الوصال ناعمة سعيدة مرفهة كأنها أبراد مذهبة رقيقة الحاشية رائقة الصفحات.

(٣) في الذخيرة «أبا بكر المسلميّ»، وفي نسخة ب، ت، ز «فريد الكرم» ولافريد: الشذر يفصل بين اللؤلؤ والذهب أو الجوهرة النفيسة أو الدر إذا نظم، وسيف فريد وفرند: لا نظير له، والفرند: جوهر السيف ووشيه، والمعنى: كانت أيامنا سعيدة ناعمة كأن الأمير أبا بكر الأسلميّ أجرى عليها صفحة يده الوضاءة كاللآلئ أو السيوف.

(٤) وشح: قلد ولعلها «وشع»، زهرة الدنيا: غضارتها وحسنها، الشيم الزُّهر: الأخلاق الوضاءة كالنجوم، والمعنى: كأنّ الأمير أفاض على حسن الدنيا ومضات من أخلاقه الوضاءة.

(٥) شماريخ الجبال: أعاليها، منيف: عال مشرف على غيره، جبل أشم: طويل القمة، والحاجب: من أعظم ألقاب التشريف في الأندلس وبخاصة بعد الحاجب المنصور، وهو الحاكم الفعليّ للبلاد، أما الملك في أخريات أيام الدولة الأموية بالأندلس فكان محجوبًا في قصره بين الولائد والوصائف، والمعنى: الأمير هو الحاجب الذي تبوأ ذروة المجد فكأنه اقتعد قمة كل شامخ منيف.

(٦) الخصل: إصابة الهدف في الرهان، حوى الخصل: غلب في الرهان، ساهم: قارع، سهم: غلب، ومنه ساهمته فسهمته أي قارعته فغلبته، والمعنى: إذا سابق الملوك الأمير فإنه يبذهم في السباق وينال دونهم قصب الرهان.

فَـــــــــأَطْـوَلُـهُـمْ - بـالأيـادي - يَـدًا
وأثْبَـــتُـــهُـمْ - في المعـــالـي - قَـــدَمْ[1]

☆☆☆☆☆

وأرْوَعَ لا مُــــبْـــــتَـــــغي رِفْـــــدِهِ
يخـــــيبُ، ولا جـــــارهُ يُهْـــــتَـــــضَـم[2]
ذَلـولُ الـدَّمـــــــاثةِ، صـــــــعبُ الإبـاءِ
ثَقـــيفُ العَـــزيم، إذا مـــــا اعْـــتَـــزَم[3]
سَـــمَــــا لـلمَـــجـــرّةِ في أُفـــقْـــهـــا
فَـــجَـــرَّ عليـــــهـــا ذُيولَ الـهِـــمَـم[4]
ونـاصَتْ مَـــســـاعـــيـــهِ زُهْرَ الـنجـــوم
وبـــارتْ عَـــطـــايـــاهُ وُطْـــفَ الـــدِّيَم[5]
نَهـــــيكٌ إذا جـنٌ لـيل الـعَـــــجـــــاج
سَــــــرى منـه في جُـنحـــــــه بـدرُ تِمْ[6]
فــشـــامَ الـســيـــوفَ بِهـــامِ الكُمـــاةِ
ورَوَّى القنا في نُحـــــورِ البُـــــهَمْ[7]

---

(١) المعنى: الأمير أبسط الملوك يدًا بالعطايا والهبات، وأثبتهم قدمًا في المجد والفخار.

(٢) الأروع والرائع: من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته، الرفد: العطاء، يهتضم: يظلم أو ينتقص من حقه قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا﴾، والمعنى: الأمير رائع المنظر بارع الشجاعة لا يخيب سائله ولا يذّل جاره.

(٣) ذلول: سهل لين، الدماثة: سماحة الخلق، الثقيف والثقف: الحاذق الفطن اللبيب، العزيم والعزيمة: الإرادة القوية والتصميم، والمعنى: الأمير سمح الخلق كريم السجية، وهو مع هذا قويّ الإرادة أبيّ النفس راسخ التصميم.

(٤) المجرة: مجموعة نجوم تعترض السماء من الأفق إلى الأفق «ومنها المجموعة الشمسية» والعرب يسمونها نهر المجرة، والمعنى: سما الأمير إلى النجوم وسحب فوقها ذيول همته العالية وعزيمته السامية.

(٥) ناصَى فلانًا: أخذ كلاهما بناصية صاحبه في المباراة، وفي حديث عائشة رضي الله عنها «لم تكن واحدة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تناصيني غير زينب» أي تنازعني وتباريني، سحابة وطفاء: منهمرة المطر، والمعنى: سامى الأمير بمساعيه النجوم الزهراء، وبارَى بعطاياه السحب الوطفاء.

(٦) النهيك والنهوك: الشجاع أو السيف القاطع أو الحسن الأخلاق، جنّ: ستر، العجاج: الغبار أو الدخان، جنح الليل: قطعة منه، بَدْرُ تِم: قمر كامل، والمعنى: الأمير شجاع قوي كريم الأخلاق، إذا ثارت الحروب نهض إليها متهللاً كالقمر عند التمام.

(٧) شام السيف: أغمده أو سلّه ضد، والمقصود هنا هو المعنى الأول، الهام: جمع هامة وهي الرأس، الكماة: جمع كميّ وهو الشجاع المدجج بالسلاح، البَهمْ والبَهمَ: جمع بهمة وهي أولاد الضأن والمعز والبقر، والبهم: جمع بهمة وهو الشجاع الذي لا يهُتدى من أين يؤتى، أو الجيش، والمعنى: الأمير شجاع قهار يغمد سيوفه في رؤوس الكماة، وهو كريم جواد ينحر الأنعام للضيفان (باعتبار البهم: أولاد الماشية) أو يُروي الرماح من نحور الشجعان أو الجيوش الجرارة (باعتبار البهم: الشجعان أو الجيوش).

جَـــــوادٌ ذَراهُ مَطافُ الـعُـــــفَـــــاةِ
ويُمناهُ ركنُ النَّدَى الـمُــــسْـــتَـلَمْ[1]

يَـهـــــيجُ الـنـزالُ بـه والـســـــؤا
لُ لَيْـثًـــا هصُــورًا وبحــرًا خِــضَـم[2]

شَــــهِـــدْنا لأُوتِيَ فَـــصْلَ الخطابِ
وخُصَّ بفـــــضلِ النُّهَـى والحِكم[3]

وهـل فــــاتَ شيءٌ منَ المكرمـــــاتِ
جَــرَى السَّـــيفُ يطلبُـــهُ والقَلم؟[4]

*****

ومُــسْــتَــحْــمَــدٍ بكريم الفَــعـا
لِ - عـفـوًا - إذا مـا اللئـيمُ اسـتَـذَم[5]

شــمـــائلُ تُهــجَـرُ عنهـا الشَّـــمولُ
وتُجْـفَى لهـا مُـشـجِـيَـاتُ النَّغم[6]

---

(١) جواد: سخي كريم، الذرى: الكنف، يقال: أنا في ذرى فلان أي في كنفه وستره ودفئه، والذرى: أعالي الأشياء جمع ذروة، مطاف: مكان الطواف، العفاة: جمع عاف وهو طالب الفضل أو الرزق كالمعتفي، الندى: السخاء، المستلم: الذي يتناول باليد أو بالتقبيل، ومنه استلم الحاج الحجر: لمسه إما بالقبلة أو اليد، والمعنى: يطوف السائلون والقاصدون بفناء الأمير طالبين حمايته أو عطاءه، ويتسابقون إلى تقبيل يمينه كما يتسابق الحجاج لتقبيل الحجر الأسود.

(٢) الليث الهصور: الأسد الكاسر، الخضم: الكثير العطاء أو البحر الممتلئ، والمعنى: إذا هاجته الحرب اندفع إليها كالأسد الكاسر، وإذا هزه السؤال جاد كالبحر الزاخر.

(٣) فصل الخطاب: القول المحكم الحاسم ببلاغته ومنطقه، وصف كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه «فصل لا نزر ولا هذر» قال تعالى في شأن داود عليه السلام ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وذهب المفسرون إلى أنه الحكم بالبينة أو اليمين، أو الفقه في القضاء، أو النطق بعبارة: أما بعد «كناية عن بلاغته الخطابية، أو الكلام الواضح الخالي من اللبس، النهى: جمع نُهية وهي العقل، والمعنى: نشهد أن الله منح الأمير القول المحكم البليغ وخصه بالعقل الراجح والنظر الصائب السديد.

(٤) المعنى: الأمير شجاع حازم بليغ حكيم نال بسيفه وقلمه أقصى المكرمات، ولن تستعصي المكرمات على حملة السيوف والأقلام.

(٥) الفعال: المحاسن والمكرمات، استذم: فعل ما يُذمُّ عليه أو طلب المذمة، والمعنى: الأمير محمود بما يبذله من المكرمات عفوًا دون تكلف وإنما جريًا على سجيته، على حين أن اللئيم حريص على الأذى لا يردعه ذم أو ملام، ويمكن أن نروي البيت هكذا:

ومـــســـتـــحـــمـــد بكريم الفـــعـــال
عـــفـــوٌ إذا مـــا اللئـــيم اســـتـــذم

فيزيد المعنى وصف الأمير بالعفو والغفران.

(٦) شمائل: طبائع وأخلاق، الشمول: الخمر الباردة، تجفى: تكره، والمعنى: للأمير أخلاق عذبه رضية تثير في النفوس النشوة والارتياح فتصرفها عن معاقرة الراح وعن سماع الأغاني والألحان.

علـى الـرّوضِ منـهـــــــا رُواءٌ يـروقُ
وفـــي المـسـكِ طِـيــبُ أريــجٍ يُـشَــمْ[1]

☆☆☆☆☆

أبـوه الـذي فَـلَّ غَـــــرْبَ الـضّـــــلالِ
ولاءمَ شَــــعْـبَ الـهُــــدَى فــالْـتَــأَم[2]
ولاذ بـه الـدِينُ مُـــسْـــتَـــعْـــصِـمًـــا
بـذمّـــــــــةِ أبْـلَـجَ وافـي الـذِّمم[3]
وجــــاهـدَ - في الـلّـهِ - حـقَّ الجـــهـــا
دِ مَــنْ دانَ - مــن دونِـهِ - بــالـصَّــنَـم[4]
فــــــلا ســـــــامِيَ الـطَّـرف إلا أذلّ
ولا شــــــــامـخَ الأنْـفِ إلا رَغَـم[5]
تَـقَــيَّلَ في الـعِــزِّ - من حِـمْــيَــرٍ -
مَــقــاوِلَ عـــزُّوا جـــمـــيـعَ الأمم[6]
هُـمُ نَعَــشُــوا الـمُـلْكَ حـــتـى اســتَـقلّ
وهـمْ أظلمــــوا الخَـطْـبَ حــــتَّى اظَّلَـمْ[7]

---

(١) الرواء: حسن المنظر، يروق: يعجب، أريج: عبير، والمعنى: كأن شمائل الأمير خلعت على الرياض حسنها ومنحت المسك أطيب العبير.

(٢) فلّ: كسر أو ثلم، غرب: حدّ، لاءم: أصلح أو جمع، التأم: انضم أو انصلح، والمعنى: لقد تابعت أباك الذي ثلم حدّ الضلال وكسر سيفه البتار وأصلح ما انشعب من الهدى فعزت به الأخلاق وقوي به الدين.

(٣) استعصم بالله: تقوّى به وامتنع، قال تعالى على لسان امرأة العزيز في شأن يوسف عليه السلام: ﴿أنا راودته عن نفسه فاستعصم﴾، الذمة: الأمان أو الحرمة، الأبلج: المضيء المشرق، وفي حديث أم معبد أن النبي صلى الله عليه وسلم «أبلج الوجه»، والمعنى: لقد لاذ الدين بأبيه طالبًا حمايته عائذًا بحرمته فهو كريم العهود راع للحرمات.

(٤) المعنى: ناضل الأمير المشركين عبّاد الأصنام، وبذل ما بذل في سبيل الله وجاهد فيه حق الجهاد، وفي الذخيرة «من دان من دونه بالظلم».

(٥) المعنى: قمع الأمير الكفار فأذل منهم كل عزيز، وألصق أنف كل آثم منهم بالتراب.

(٦) تقيل أباه: أشبهه، مقاول وأقيال وأقوال: جمع مقول أو قيل وهو لقب لملوك حمير، والمعنى: شابه الأمير في العز والمجد أجداده من ملوك حمير الذين فاقوا جميع الأمم.

(٧) نعشوا: رفعوا أو جبروا بعد فقر، استقلّ: نهض، الخطب: الأمر الشديد الداهم جمعه خطوب: أو الشأن مطلقًا صغيرًا كان أو كبيرًا تقول: ماخطبك؟ وتقول: هذا خطب جليل أو خطب يسير، اظّلم: أصلها اظتلم على وزن افتعل، واظَّلَمَ وانظلم: احتمل الظلم، والمعنى: أقاموا الملك حتى رسخ وارتقع ودافعوا الظلم حتى انهار، وفي الذخيرة «وهم ظلموا».

نجـــــومُ هُدًى، والمعـــــالي بُـروجٌ
وأُسْــــدُ وغًى، والعــــوالي أَجَمْ[١]

☆☆☆☆

«أبـا بـكـرٍ» اسْلَـمْ علـى الحــــادثـاتِ
ولا زلتَ مـن رَيْبِــــهــــا في حَــــرَمْ[٢]
أنـاديـكَ - عن ثِقَــــةٍ - عَـــهْــــدُها
كـــمـــا وَشَّتِ الرَّوْضَ أيـدي الرِّهَمْ[٣]
وإن يَـعْــــدُني عـنكَ شَـــحْطُ الـنَّوَى
فَـــحَظِّي أَخَسُّ ونفـــــسي ظَلَمْ[٤]
وإنِّي لأُصْـــفـــيكَ مَـــحْضَ الـهَـــوَى
وأخْـــفي لـبُــــعْــــدِكَ بَرْحَ الألـمْ[٥]
وغـــيـــرُكَ أَخْـــفَـــرَ عَـــهْـــدَ الذِّمَـــامِ
إذا حُـــــسْنُ ظنِّي علـيـــــهِ أَذَمْ[٦]

☆☆☆☆

ومُـــسْـــتَـــشْـــفِعٍ بِيَ بشَّـــرتُهُ
- علـى ثِقَـــةٍ - بـالـنَّجــــاحِ الأَتَـمْ[٧]

---

(١) البـروج: منازل الكواكب، العـوالي: رؤوس الرمـاح أو أعـاليهـا أو مـا فـوق السنان، أجم: جمع أجـمـة وهي الشـجـر الكثيف الملتف، والمعنى: هم نجوم الهداية الوضاءة، ولكنهم يحتلون المعالي، وهم أسود كاسرة مأواها بين الرماح لا الأدغال.

(٢) ريب الزمان: حوادثه، الحرم: ما يحميه الإنسـان ويدافع عنه، ومنه حرم مكة وهو حـرم الله وحرم رسوله، والحـرمان: مكة والمدينة، قـال تعالى: ﴿أو لم يروا أنـا جعلنا حـرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حـولهم﴾، والمعنى: أسـأل الله لك السلامـة من الأحداث وأن تظل من حوادثها في أمن وسلام.

(٣) في الذخيرة «أناديك عن مقة» والمقة: الحب، وشى: زين وزخرف، الرهم: جمع رهمة وهي المطر الضعيف الدائم، والمعنى: أناديك أيها الأمير نداء واثق بك ثقة قائمة على الحب والمودة والعرفان بالجميل، كما تعرف الرياض جميل السحب التي تزخرفها وتوشيها بأطيب الجنى وأينع الأزهار.

(٤) يعدوه: يصرفه، الشحط: البعد، النوى: الغربة، والمعنى: إذا كنت بعيدًا عنك فإني سيئ الحظ منكود الطالع.

(٥) أصفـاه الـود : أخلصه له، مـحض الهوى: خـالصـه ولبـابه، برح الألم: شـدته، والمعنى: إنني على البعـاد أخلص لـك مـودتي وأمنحك حبي وأنطوي على الآلام المبرحة لبعدك.

(٦) أخفر الذمـام: نقض العهد، أذم: أخذ العهد، والمعنى: لقـد وفيت لي ورعيت مودتي على حين نقض غيـرك العهد مع أن لي عليه حرمة وذمامًا.

(٧) المعنى: لقد تشفع بي إليك أحد الأصدقاء، فبشرته بالنجاح الكامل عن ثقة بالإنجاز.

وقِـــدْمًـــا أقَلْتَ الـمُـــسيءَ العِـــثــــارَ
وأحْـسَنْتَ بالصَّـفحِ عـمّـا اجْـتَـرَمْ[١]

وعنـدي - لِشُكْرِكَ - نَظْمُ العُـــقــــودِ
تناسَقُ فــيــــهـــا اللآلي التُّــــؤَم[٢]

تُجِـــــدُّ لِفَــــخْــــرِكَ بُرْدَ الشّــــبــــابِ
إذا لـبِـسَ الـدَّهـرُ بُـرْدَ الـهَــــــــــرَم[٣]

فـعِشْ مُـعْـصِـمًـا بيَـفـاعِ السُّـعــودِ
ودُم نـاعــــمًـــــا فـي ظلالِ الـنِّعـم[٤]

ولا يَـــزَلِ الــدهــرُ أيـامُـــــــــــــهُ
لكمْ حَــــشَمٌ واللَّيـــالي خَـــــدَمْ[٥]

****

(١) في الذخيرة «أقلت مسيء العثار»، أقال عثرته: أنهضه من كبوته أو صفح عن زلته، اجترم وأجرم: أذنب، والمعنى: اعتدت من قديم أن تجبر الكسير وتعفو عن المسيء.

(٢) تناسق: تتناسق أي تنتظم في نسق بديع، اللآلئ التؤم: اللآلئ المزدوجة، والمعنى: سأصوغ في إطرائك شعرًا منسقًا متسقًا كأنه الجواهر الفريدة واللآلئ المزدوجة اليتيمة.

(٣) أجدّ: جدّد. قال أبو بكر الزهري:

ولمـا نـزلـنـا مـنـزلاً طـلّـه الـنّـدى
أنيـقًـا، وبسـتـانًا من النَّوْرِ حـاليَـا
أجـــدَّ لنا طيبُ المكان وحـــسنُه
مُنًى، فـتـمنينا، فكنتِ الأمـانيـا

البرد: ثوب مخطط، والمعنى: قصائدي في الثناء عليك تخلع على أمجادك العظيمة غلائل الشباب فيظهر مجدك غضّاً يافعًا إذا ما هرم الدهر وتحيفته السنون.

(٤) في نسخة ب، ز «ببقاع السعود» وفي ت «ببقاء السعود»، أعصم فلانًا: هيأ له ما يعتصم به، معصمًا: ممتنعًا متحصنًا، اليفاع: ما ارتفع من الأرض، والمعنى: أدعو الله لك أن تعيش آمنا في أسمى مكان، وأن تحيا سعيدًا متمتعًا في ظلال النعيم.

(٥) الحشم: حاشية الرجل أو عبيده أو عياله أو قرابته أو من يغضب لغضبه، قال ابن السكيت هي كلمة في معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها، والمعنى: أسأل الله أن يظل الدهر بأيامه ولياليه قائمًا على خدمتكم وتلبية رغائبكم.

شكر جزيل

اتصل الشاعر بالمظفر بن الأفطس أمير بطليوس، ولقي منه حفاوة وتقديرًا، فصاغ فيه هذه القصيدة:

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُها في الكِلَلْ
ومطلَعُها من جُيوبِ الحُلَلْ[١]

وغُصنٌ ترشّفَ ماءَ الشَّبابِ
ثَراهُ الهَوَى، وجَناه الأمل[٢]

تَهادَى لطِيفَةَ طَيِّ الوِشاحِ
وترنو ضعيفةَ كَرِّ المُقَل[٣]

وتبرزُ خَلْفَ حِجابِ العَفافِ
وتَسْفِرُ تحتَ نِقابِ الخَجَلْ[٤]

✲✲✲✲

(١) الكلل: جمع كلّة وهي ستارة رقيقة تسدل على السرير لوقاية النائم من الحشرات (ناموسية)، الجيوب: جمع جيب وهو طوق القميص ونحوه، قال تعالى لسيدنا موسى عليه السلام ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾، والمعنى: هذه الحبيبة شمس مشرقة ولكنها تبزغ من أطواق الحلل، وتغرب فوق الأسرة داخل الكلل.

(٢) ترشف: امتصّ، الجنى: الثمر الغض اليانع، والمعنى: وهي غصن نضير ارتوى من ماء الشباب ونبت في مغرس الحب فأثمر أعذب الآمال.

(٣) تهادى: تتهادى أي تتثنى في تؤدة ودلال، الوشاح: وسام مرصع بالجواهر تضعه المرأة بين عاتقيها وكشحيها، ترنو: تديم النظر بطرف ساكن، والمعنى: تتمايل في مشيتها وتتثّى في رشاقة ودلال فقد ضمّ وشاحها غصنًا ميّادًا رقيقًا، وتنظر في فتور واسترخاء أو كما قال الشاعر [النابغة الذبياني]:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها
نظر السقيم إلى وجوه العُوَّدِ

(٤) المعنى: تظهر للأبصار ولكنها في حجاب من عفافها يقيها فضول الناظرين، وتكشف عن وجهها فيصبغه الخجل بلثام من الحياء، وفي الأصول (تحت النقاب).

بدتْ في لِداتٍ - كزُهر النُّجومِ -
حِسانِ التَّحلّي مِلاحِ العطَلْ[1]

مَشَيْنَ يُباهِينَ رَوْضَ الرُّبا
بيانعِ روضِ الصِّبا المُقْتَبَلْ[2]

فمن قُضُبٍ تَتَثَنَّى بريحٍ
ومن قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِدَلْ[3]

ومن زَهَراتٍ تُنَدَّى بمِسكٍ
ومن زَهَراتٍ تُنَدَّى بِطَلْ[4]

✲✲✲✲✲

تَعاهَدَ صَوْبُ العِهاد الحِمَى
ولا حَلَّ مَربَعُها في مَلَلْ[5]

مَرادٌ - من الحُبِّ - غضُّ الجَنَى،
لديهِ - منَ الوَصْلِ - ورْدٌ عَلَلْ[6]

لَيالِيَ ما انْفَكَّ يُهدي السّرورَ
حبيبٌ سَرَى، ورقيبٌ غَفَلْ[7]

---

(١) لدات: جمع لدة وهي المشابهة، والمعنى: برزت هذه الفتاة الرائعة بين أتراب حسناوات وضاءات كالنجوم المتلألئة، فاتنات سواء كن حاليات أو عاطلات من الزينة والحلى.

(٢) يباهين: يفاخرن، الرُّبا: جمع ربوة وهي المرتفع من الأرض، والمعنى: تهادين في مشيتهن مفاخرات للورود اليانعة بشبابهنّ الغض النضير.

(٣) المعنى: هؤلاء الفتيات يخطرن بين أشجار الحديقة فيلوح لنا منظر عجب يضمّ أغصانًا رطيبة يحركها الهواء وقدودًا مياسة يرنحها الدلال.

(٤) المعنى: وفي هذا المنظر المونق زهرات ترصعها قطرات الندى وزهرات من الفتيات المتعطرات بالمسك الفواح.

(٥) في الأصول «ولا مل مربعها» ولعل الصواب ما أثبتناه، تعاهد: تفقد الشيء لتحسينه، صوب العهاد: هطول المطر، المربع: منزل القوم في الربيع، الملل: السآمة، والمعنى: أسأل الله أن يظل حمى هؤلاء الفتيات معمورًا خصيبًا ترويه السحب الهاطلات فتتضره في غير سآمة أو ملال.

(٦) المراد: مكان الارتياد والنجمة، أو موضع الجيئة والذهاب، غض الجنى: يانع الثمار، ورد علل: منهل مطروق، والمعنى: تحل هؤلاء الفتيات في منزل محفوف بالحب الفتي الذي يترشف أعذب كؤوس الوصال.

(٧) المعنى: كانت لنا في هذا الحمى ليلات حافلات بالأنس واللذات يسري إلينا فيها الحبيب ويغفل عنا فيها الرقيب.

زمـــانٌ كـــأنّ الفَـــتَى المَـــسْلَمِيَّ
تَكَنَّفَـــهُ عَـــدْلُهُ فـــاعْـــتَـــدَلْ[١]

تَبـــارَكَ مَنْ حُكْمُـــهُ أنْ يُعـــيـــدَ
بـــهِ عِـــــــــزّةَ الـدِّيـنِ أيـامَ ذَلْ[٢]

ويُوضِحَ رَسْمَ التُّـــقَى - إذ عَـــفَـــا -
ويُطلِعَ نَجْمَ الـهُـــــدَى إذ أفَـلْ[٣]

٭٭٭٭

حَـــمِـــدْنا «الـمُظفَّـــر» لـمَّـــا رأى
«لِمَنصـورِنا» سِيـرَةً فـامْـتَـثَلْ[٤]

مَـلـيـكٌ تَـجَـلَّـى لـه غُـــــــــرّةٌ
تـأمُّلُـهـــا غُـــرّةٌ تُهْـــتَـــبَـلْ[٥]

أَشَفُّ الـوَرَى - في النُّـهى - رتـبـــةً،
وأشْـــهَـــرُهُمْ - في المعـــالي - مَـــثَلْ[٦]

وأحْـــــــرَى الأنـامِ بـأمـــــرٍ ونَـهْـيٍ
وأدْرَى الملـوكِ بـعَـــــقْــــــدٍ وَحَلْ[٧]

---

(١) تكنفه وكنفه واكتنفه: أحاط به، والمعنى طاب الزمان لنا ورق كأنه استمد طيبه واعتداله من عدل الأمير.

(٢) الحكم: القضاء أو المعرفة والحكمة، والمعنى: تبارك الله في حكمته وقضائه أن يعيد الدين عزيزًا بعد إذلال على يد الأمير العظيم.

(٣) الرسم: الأثر، عفا: بلي أو امّحى، أفل: غاب أو غرب، والمعنى: وأعاد الله به معالم الدين جديدة بعد دثورها، وأطلع به نجم الهداية بعد أفوله.

(٤) امتثل: احتذى، والمعنى: احتذى المظفر سيرة أبيه المنصور في المجد والمكرمات فحمدنا له متابعته إياه.

(٥) الغرة: بياض الجبهة ويكنّون بها عن التهلل والكرم أو السيادة والشرف، يقال: رجل أغر أي شريف أو أبيض وفلان غرة قومه أي سيدهم، وغرة كل شيء: أوله وأكرمه، أو خيار المتاع أو طلعة الهلال أو أنفس شيء يملك وأفضله، تهتبل: تنتهز، والمعنى: إن الأمير تتجلى غرته البيضاء فتنبئ عن سيادته وكرمه، فنجد في النظر إليها نعيمًا ننتهزه وغنمًا ثمينًا نظفر به.

(٦) شفّ: زاد أو نقص ضد، وفضل أو نقص ضد أيضًا، والمراد هنا الزيادة أو الفضل، النهى: جمع نهية وهي العقل، والمعنى: الأمير أفضل الجميع منزلة في عقله وأشهر الناس مثلاً في نيل المعالي، وفي نسخة ت «أشفّ الورى في السهى».

(٧) أحرى: أجدر، والمعنى: وهو أجدر الناس بتدبير أمور الرعية من أمر ونهي، وهو أعلم الملوك بشؤون السياسة من نقض وإبرام.

يَمــــــانٍ لـه الـتّـــــاجُ مـن بـيـنـهـمْ
بما أوْرَثَ «الـتُّــــبَّـــــعــــونَ» الأُوَلْ[1]

سَنامٌ – مِنَ المجـــــدِ – عـــــالي الذُّرا
يظلُّ الـعــــــــدا منه تحت الأظلْ[2]

تَـقَـــــيَّلَ – في المهــــدِ – ظِلَّ اللواءِ
وسِـيـمَ النُّهــوضَ به فـاسـتـقلْ[3]

ونِيطَتْ حَــمــــائلُهُ الوافــيــــاتُ
– مكانَ تَمـــائمِـــهِ – فــاحْـتَمَلْ[4]

ومــــا بَلَّتِ البُــــرْدَ تلك الدمُــــو
عُ إلا وفـي الـبُــــــرْدِ لَـيْـثٌ أَبَـلْ[5]

عَـــهِــدْنا المَكارمَ فــيـــه مَــعــاني
فَـبَـشَّــرَنا فــيـــه منهــا الجُــمَلْ[6]

---

(١) التبابعة: ملوك اليمن مفرده تبَّع، والمعنى: يرجع نسب الأمير إلى التبابعة ملوك اليمن قبل الإسلام، وقد انفرد بالتاج بين من ينتسبون إلى اليمن من معاصريه، ونلاحظ هنا ملاحظتين:

أولاً: جعل الشاعر المظفر منفردًا دون الملوك بالتاج الذي ورثه عن التبابعة من ملوك اليمن الأقدمين، مع أنّ بني عباد ملوك إشبيلية المعاصرين ينتمون إلى لخم القبيلة اليمنية، وقد ملك أجدادهم الحيرة زمنًا طويلاً في الجاهلية.

ثانيًا: ليس المظفر من أصل يمني كما يذكر الشاعر، ولكنه من أصل بربري كما يؤيد ثقاة المؤرخين، وفي هذا يقول ابن حيان المؤرخ الكبير المعاصر للمظفر: ومن الغريب انتماؤه في تجيب، وبهذه النسبة مدحته الشعراء آخر وقته إذ يقول ابن شرف القيرواني:

«يا ملكًا أمــــست «تُجـــيبُ» بـه
تحـســدُ قـحطانَه عليـهـــا نزارُ»

راجع أعمال الأعلام ج٣ ص ١٨٢، (وتُجيبُ بطن من كندةَ تنتمي إلى قحطان اليمنية).

(٢) الأظل: باطن خف البعير، والمعنى: الأمير قمة عالية من قمم المجد يطأ أعداءه بقدمه فيلصقهم بالرغام.

(٣) تقيل: استظل، وتقيّل أباه: أشبهه، سيم: كلف، والمعنى: استظل الأمير في مهده بلواء القيادة وكلف بحمله فاستطاع أن ينهض به ويقود الجيوش وهو ما زال في المهد صبياً.

(٤) حمائل السيف: ما تشد به إلى وسط الفارس جمع حمالة، التمائم: العوذات التي تعلق على الصبيّ لتقيه من الحسد جمع تميمة، قال أبو ذؤيب الهذلي:

وإذا المنيــــة أنشـــبت أظفـــارها
ألفــــيت كل تميــــمـــــة لا تنفع

والمعنى: علقت على الأمير وهو طفل حمائل السيف بدل التمائم فحمل السيف وأجاد استعماله.

(٥) أَبَلَ وأَبَلَّ: غلب وامتنع، والبل والأبل: الألد الجدل أو الشديد اللوم، والمعنى: ما كادت دموع الأمير وهو طفل رضيع تبل ثيابه حتى استوى فيها أسدًا غلابًا، أي أن شجاعة الأمير ظهرت وهو في المهد.

(٦) الجُمل: جمع جملة، وهي الكلام المفيد، والجُمَّل والجُمَل: حساب طالع الإنسان بحروف اسمه واسم أمه للنظر في مستقبله، والمعنى: عهدنا المكارم في الأمير – وهو طفل – معاني كامنة فيه بشرتنا بها مظاهره وسماته كما تدل الجمل على المعاني والأفكار أو بشرنا بمستقبله حساب طالعه الفلكي.

ثُرى بَعْـــدَ بِشْــــرٍ يُريك الـغـــمـــــامَ
تَهَلُّلَ بـارِقُـــــهُ فـــــاسْـــــتَـــــهَلْ[1]

يُصَـــدِّقُ مـــا حَـــدَّثَتْنَا «عـــسى»
بـه عنـه، أو أنْـبَـــــــأَتْـنـا «لَـعَـل»[2]

فـــــمـــــا وَعَـــــدَ الـظَّنُّ إلا وفَـى
ولا قــــالَـتِ الـنـفسُ إلا فَـــــعَـل[3]

فـلَـقَّـى مُـنـاوِئَـهُ مـــــا اتَّـقَـى
وأعْطَى مُـــؤَمِّلَـهُ مـــــا ســــأَل[4]

✡✡✡✡✡

كمِ اسْـــتَـــوفَتِ الشُّكرَ نعـــمـــاؤُهُ
فـــأقـــبلَ يُـنعِمُ من ذي قَـــبَـل[5]

غَــمـــامٌ يُظلُّ، وشـــمسٌ تنيــرُ،
وبحـــرٌ يفـــيضُ، وســيفٌ يُسَل[6]

قـسيمُ الـمُـحـيّـا، ضَـحـوكُ السَّمـاحِ،
لـطيفُ الحِـــوارِ، أديبُ الجَـــدَلْ[7]

---

(١) استهل المطر وهلَّ وانهلَّ: اشتد انصبابه، والمعنى: يتهل وجه الأمير فنتوقع مكارمه فيصدق ما توقعناه، كما نتوقع المطر عند لمعان البروق.

(٢) المعنى: لقد صدَّق الأمير ما ترقبناه منه، وتحققت آمالنا فيه، و«عسى» و«لعل» من أدوات الرجاء.

(٣) المعنى: ما ظننا فيه خيرًا إلا تحقق ما ظنناه، ولا خطرت في نفوسنا مكرمة إلا فعلها، فكأنه ملهم بأهواء النفوس أو هو مستوف لجميع المكرمات.

(٤) لقّاه الشيء: ألقاه إليه، قال تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ أي يلقى إليك وحيًا من الله تعالى: المناوئ: المعادي المحارب، اتقى: خاف واحترس، والمعنى: أصاب الأمير أعداءه بما كانوا يحذرون أن يصيبهم منه، وأعطى آمليه ما سألوه إياه من هبات، فأوقع بالأعداء وأحسن إلى الأولياء.

(٥) من ذي قَبَل ومن ذي قِبل: في ما يستجد من المستقبل ويشاهد فيه، والمعنى: كلما استوفت عطاياه شكرنا استأنف العطاء من جديد.

(٦) المعنى: استوفى الأمير مناقب المجد والشرف فهو كريم كالغمام، وضيء كالشمس فياض كالبحر ماض كالحسام.

(٧) القسامة والقسمة والقسام: الحسن، وقسيم المحيا: جميل الوجه، الحِوار والحَوار: الجواب والمراجعة، والمعنى: الأمير جميل الوجه متهلل في طلعته، أريحي في سماحته، لطيف في إجابته، مهذب في مناقشته.

تُوَشِّي البـــلاغـــةُ أقـــلامَــــهُ

إذا مـــا الـضّـمـــيـــرُ عليـــهـــا أمَلْ(١)

بيـــانٌ يُبَـــيِّنُ - للسّـــامـــعـــيـ

ـنَ - أنَّ منَ السِّـحْـرِ مـــا يُسْـتَـحَلْ(٢)

ألا هل ســـبـــيلٌ إلى العَـيْبِ فــيــه؟

فكم عِينَ - من قَـــبْلِهِ - مـــا كَـــمَلْ(٣)

✡✡✡✡

لـئـن لَـبِسَ الـمُلْكَ رَحْبَ الـمُـــــلا

ءِ فـــاخــــتـــالَ منـه بذَيـلٍ رِفَلْ(٤)

فـــإنّ تَـزوُّدَهُ لـلـمَــــعـــــالي

وإنّ تـأهُّـبَـــــــــهُ لـلأجَـلْ(٥)

فـــأخْـــبَـــرُ سُـــوّاسِ هذي الأمـــورِ

ونـــاسِـــكُ - أربـــابِ هـــذي الـــدُّوَلْ(٦)

✡✡✡✡

وَلِيتَ الثُّـــغـــورَ، فلم تَـعْـــدُ أنْ

رأبْتَ الثُّـــأى وسَـــدَدْتَ الخَـلَلْ(٧)

---

(١) توشّي: تزين، أملّ عليه الكتاب: أملاه، والمعنى: تدبج أقلامه فنون الكلام البليغ إذا أملاها وجدانه المرهف وذكاؤه اللماح.

(٢) المعنى: بيان الأمير الرائع يظهر لكل سامع أن من السحر ما هو حلال، نظر في هذا إلى الحديث الشريف «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة».

(٣) عين: أصيب بالعين أي الحسد، المعنى: ألا سبيل إلى وجود عيب فيه حتى نقيه حسد العيون؟ فإن الكمال مجلبة للحساد.

(٤) الملاء: جمع ملاءة وهي رداء من قطعة واحدة أو كل ثوب لين رقيق، رفل في ثيابه: أطالها وجرها متبخترًا، والمعنى: إذا كان الأمير قد وَلِيَ الملك وهو فتى يختال في ردائه الرقيق ويسحب ذيل التيه (جواب الشرط في البيت التالي).

(٥) المعنى: إذا كان الأمير قد تولّى الملك فتيًّا يتيه في صباه، فإنه كان منذ نشأته يتهيأ للمعالي ويتأهب للأمور الخطيرة التي نيطت به.

(٦) المعنى: والأمير أكبر الساسة وأخبرهم بتدبير شؤون الملك، وهو إلى هذا تقي ورع نعدّه أزهد النساك في هذه الدول.

(٧) الثغور: جمع ثغر وهو البلد أو المكان القائم على الحدود ويخاف أن يقتحمه الأعداء، رأب الصدع: أصلحه، الثأي والثأى: الإفساد أو الجراح أو القتل، الخلل: الفرجة بين شيئين أو الفساد في الأمور، والمعنى: توليت الدفاع عن الثغور فحصنت ما فيها من ضعف، وسددت ما بها من نقص، وأصلحت ما فيها من فساد.

سِـــــواكَ - إذا قُلِّدَ الأمـــــرَ - جـــــارَ
وغــــــيـــــرُكَ - إن مُلِّكَ الفَـيْءَ - غَلّ(1)
حِـــــــــــــــمًـى لا يـزالُ لِمَـن حَـلَّـهُ
أمــــــانـانِ: مـن عَــــــدَمٍ، أو وَجَـل(2)
فـــــــأنْـجُـمُ دهْـرِهِـمُ أسْـــــــعُـــــدٌ
وشـــــمسُ زمـــــانهمُ في الحَـــــمَل(3)

٭٭٭٭٭

«أبـا بكـر» اسْـــــمَـعْ أحـــــاديثَ، لَـوْ
تُـبَـثُّ بِـسَـــــــــمعِ عَـلـيـلٍ أبَـل(4)
ســـــــأشكـرُ أنَّـكَ أعْـلَـيْـــــتَـنـي
بـأحْظَـى مكـانٍ وأدْنَـى مَـــــــحـل(5)
وأنِّـيَ إنْ زُرْتُ لـم تحـــتَـــــجِـبْ
وإن طـالَ بـي مَــــجْلِسـي لـم تَـمل(6)
تبــــسَّـــمْتَ، ثم ثَـنَـيْتَ الوِســـادَ
فَـــحَـــسْــبِيَ من خَطَرٍ مـــا أجل(7)

(1) الفيء: ما ربحه المسلمون من عدوهم بلا قتال إما بالجلاء أو الصلح، والغنيمة: ما نالوه من عدوهم عنوة، والنفل: ما أخذه الغازي زيادة عن سهمه، غل وأغل: خان أو هو خاص بالفيء، قال تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾، والمعنى: غيرك من الملوك يجور في حكمه ويخون في أمانته.

(2) العدم والعدم: الفقر، الوجل: الخوف، والمعنى: مملكة الأمير أصبحت حمى يغتني فيه المعدمون ويأمن فيه الخائفون.

(3) سعود النجوم: عشرة نجوم مميزة هي سعد الذابح وسعد السعود وسعد مطر... الخ، والحمل: برج من أبراج السماء الربيعية، والمعنى: لقيت الرعية في حماه السعادة والنعيم، فزمانهم طيب، وطوالعهم سعيدة، وأيامهم حاليات كأيام الربيع.

(4) بلَّ وأبلَّ: عوفيَ من مرضه، والمعنى: أرجو أن تستمع أيها الأمير إليّ فسأفضي إليك بأحاديث تبرئ العليل وتشفي السقيم.

(5) المعنى: سأشكر لك أيها الأمير حفاوتك بي، وأنك أنزلتني أكرم منزل ومنحتني منك أقرب مكان.

(6) المعنى: وسأقدر لك أنك لم تحتجب عني إذا زرتك، ولم تملّ مجلسي إذا أطلت الجلوس إليك.

(7) الوساد (بفتح الواو وكسرها وضمها) المتكأ أو المخدة، الخطر: القدر الخطير والمنزلة الرفيعة، ما أجلّ: ما أعظم، والمعنى: حينما أشرف بزيارتك تلقاني متهلل الوجه بسام الثغر وتعد لي متكأ مريحًا دانيًا منك، فما أعظم منزلتي بقربك!! ما أكرم مكاني تحت ظلك!!

فلو صافح التُّربَ خَدّي لَهانَ
ولو كاثَرَ القَطْرَ شُكري لقل[1]

بأمثالها يُستَرَقُّ الكريمُ
إذا مَطْمَعٌ بسواهُ أخَل[2]

☆☆☆☆

فلا تَعْدَمَنْكَ المساعي التي
لأُمِّ المُناويكَ فيها الهَبَل[3]

فأنت الجريءُ، إذا الشِّبْلُ هابَ
وأنت الدليلُ، إذا النَّجْمُ ضَل[4]

وما ابنُكَ إلا جِلاءُ العُيونِ
إذا ناظرٌ - بسواهُ - اكْتَحَل[5]

ربيبُ السِّيادةِ - في حِجْرِها -
تُدِرُّ له ثَدْيَها إذْ حَفَل[6]

تَمَكَّنَ يَتْلُوكَ في الصّالحاتِ
فلمّا تَفُتْهُ، ولمّا يَنَلْ[7]

****

(١) القطر: المطر، والمعنى: لو حاولت مجازاة الأمير على إحسانه إليّ فوضعت خدي في التراب لكان هينًا بالنسبة لأفضاله عليّ، ولو حاولت شكره فأكثرت الثناء عليه كما يكثر الإغداق لقل شكري عن الوفاء بما أسداه إليّ من تبجيل وتكريم.

(٢) يسترق: يستعبد، والمعنى: يستعبد الأمير أولياءه بأمثال هذه الحفاوة والإكرام، على حين يطمع غيره من الملوك في الرعية، فيهدمون أركان الحكم، ويضعفون السلطان.

(٣) المناوئ: المعادي أو المناضل، الهبل: الثكل، ومنه قول الشاعر:

والناس من يلق خيرًا قائلون له
ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل

يقال هبلته أمه أي ثكلته، هذا هو الأصل، ويستعمل كثيرًا في معنى المدح والإعجاب، يعني ما أعلمه وما أصوب رأيه، والمعنى: عشت أيها الأمير للمكرمات تسديها وللأمجاد تعليها، أما من ينازعك في مجدك فإنه حريٌّ بأن تثكله أمه.

(٤) الشبل: ولد الأسد إذا أدرك الصيد، وفي الأصول «السيل» ولعل الصواب ما أثبتاه، والمعنى: إنك جريء في مواقف الهول التي تشعر الأسود الفتية فيها بالخوف، وأنت الدليل الهادي في المشكلات إذا ضل النجم الهادي طريقه في الظلمات.

(٥) المعنى: إن ابنك يسرّ العيون بمنظره، على حين أن غيره يُقذِي العيون ويطمس الأبصار.

(٦) الربيب: المربَّى، يقال: ربب الصبيّ وهو أبلغ من رباه، ومنه حديث ابن ذي يزن «أسد تربب في الغيضات أشبالا»، حفل: امتلأ، والمعنى: شبّ الأمير في حجر السيادة والمجد ورضع لبانها صغيرًا حتى ارتوى، فلا عجب إذا بلغ الكمال.

(٧) المعنى: تمكن ابنك في مكانه من السيادة، وسار يقتفي خطواتك في المعالي، فلم تسبقه ولم يلحقك، أي كان قريبًا منك وأنت منه قريب.

٤ – في ظل المعتضد بن عباد بإشبيلية

زمان ندي

نرجح أنّ الشاعر صاغ هذه القصيدة في رحلته الأولى إلى إشبيلية:

أعَـــــــرْفُكِ راحَ فـي عُـــــــرْفِ الـريـاحِ
فــهــزَّ منَ الهَــوى عِطفَ ارتيـــاحي[(١)]
وذكــــرُكِ مـــــا تـعـــــرَّضَ أم عِـــــدادٌ؟
غَــصِـصْتُ عليــه بـالـعَــذْبِ القَــراحِ[(٢)]
وهل أنـا منـكِ في نـشــــوات شـــــوقٍ
- هَفَتْ بـالـعـــقلِ - أو نشَـــواتِ راحِ[(٣)]؟
لَـعَـــــمْــــــرُ هواكِ مــــــا وَرِيَتْ زِنـادٌ
لـوصلٍ منك طال لـهـــا اقْـــتِـــداحي[(٤)]
وكم أسْـــقَــمْتِ من قلبٍ صـــحـــيحٍ
بسُـقْمِ جـفـونِكِ الـمَـرضَى الصِّحـاحِ[(٥)]

☆☆☆☆☆

مــتى أُخْفِ الـغَـرامَ يَصِـفْــهُ جِــســمي
بألسنةِ الضَّنى الخُــرْسِ الفِــصـــاحِ[(٦)]

---

(١) العَرف: الريح طيبة أو خبيثة وأكثر استعماله في الطيبة، العُرف: موج البحر أو شعر عنق الفرس أو التتابع، ومنه قوله تعالى ﴿والمرسلات عرفا﴾، العطف: الجانب، والمعنى: لقد طابت الريح فبعثت فيّ نشوة وارتياحًا، فهل انتقل عبيرك الفواح إلى أمواج الرياح؟

(٢) العداد: هياج الوجع بعد سنة أو من حين إلى حين أو مس من جنون، الماء القراح: الصافي الذي لا تشوبه شائبة، والمعنى: لقد هاجت ذكراك في نفسي أشجانًا، لأنها ذكرتني بصدك وهجرك، فهل هي ذكرى عارضة؟ أو هي مرض يعتادني حينًا بعد حين، فيكدر صفوي ويجعلني أغص بالماء العذب النمير؟

(٣) النشوات: جمع نشوة وهي السكر، هفا: ذهب أو مال، والمعنى: ماذا أصابني في حبك؟ أذهب الهوى بعقلي أم ذهبت به كؤوس السلاف؟

(٤) لعمرك: وحقك، ورى الزند ووري: خرجت ناره، والمعنى: وحق هواك الغلاب لقد جلبت عليّ الآلام والأحزان، وكم حاولت أن أنال عطفك وأفوز بحبك فلم يقدح زندك، ولم يعطف قلبك.

(٥) المعنى: كم أمرضت بالحب من قلب سليم جلبت عليه السقام بلحظات عينيك الفاترتين الناعستين كأنّ بهما داء وما بهما من داء.

(٦) المعنى: إذا حاولت إخفاء هيامي بك وحنيني إليك أظهر نحولي وذبول جسمي ما أخفيه، ودلّ عليه بوضوح وجلاد، وإن كانت ألسنته خرساء.

فـلـو أن الـثِّــــــيــــــابَ نُـزِعْـنَ عـنّـي

خَـفِيتُ خَـفَـاءَ خَـصْـرِكِ في الوِشَـاحِ[1]

لَـلُـقِّــــــيـنَـا مِـنَ الـواشـيـنَ حــــتّـى

رضِــــيـنـا الـرُّسْـلَ أنـفــــاسَ الـرِّيـاحِ[2]

ورُبَّ ظــلامِ لـيـلٍ جَـنَّ فَــــــــــوْقـي

فَنُبْتِ عنِ الصَّـبـاحِ إلى الصَّـبـاحِ[3]

فــهلْ عَــدَتِ العَــفـافَ هناك نفــسي

- فَــــدَيْـتُـكِ - أو جَـنَـحْـتُ إلى الجُـنـاحِ؟[4]

☆☆☆☆☆

وكــــــــيـف أَلِـجُّ لا يَـثْـنـي عِـنـانـي

رشــادُ الـعــزمِ عن غَـيِّ الجِـمــاحِ[5]

ومـن سِـــرِّ ابـنِ «عــــبّـــادٍ» دَلـيـلٌ

بـه بـانَ الـفــســادُ من الصّـلاحِ[6]

---

(١) آثرنا رواية الخريدة ونفح الطيب وفي نسخة أ «فحصن عني» وفي ب ، ت «فُصِحّن عني»، الوشاح: وسام محلى بالجواهر تشده المرأة بين كتفيها وجانبيها، والمعنى: لقد أنحلني الحب وأضناني الهيام، فلو خلعت ثيابي لخفي جسمي الذابل كما يخفى خصرك النحيل تحت الوشاح.

(٢) المعنى: كم قاسينا من ملاحقة الوشاة والرقباء فاكتفينا بأن نحمل أشواقنا لأنفاس الرياح لعلها تبلغها للأحباب، وشبيه بهذا قول الشاعر:

حـــجـــبـــوها عن الرياح لأني

قلت: ياريح بلغـيـهـا السـلامـا

(٣) جنّ الليل: ستر وأظلم قال تعالى: ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبًا﴾، والمعنى: إذا كنت أقاسي الآن من هجرك ما أقاسيه فكم ليال طويتها معك في أنس ونعيم أضأت لنا الظلام فيها حتى الصباح.

(٤) جنح إلى كذا: مال إليه، قال تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾، الجناح: الإثم، والمعنى: كم خلوت بك في لهفة واشتياق، ولكنني لم أتخل عن العفاف، ولم أنحرف إلى الآثام.

(٥) ألج: أديم الإلحاح، يثني عناني: يردّني، الغي: الضلال، الجماح والجموح: الاندفاع في عناد وإصرار دون ريث أو روية، والمعنى: كيف أندفع في الغواية جامحًا لا يردني عقل ولا يردعني رشاد؟

(٦) السر: الأصل أو اللب أو محض النسب، والمعنى: لا يمكن أن أسير في طريق الغي بعد أن اهتديت إلى الرشاد مستنيرًا بحسب ابن عباد .

هُوَ المَلِكُ الذي بَرَّتْ فَسَرَّتْ
خِلالٌ منه طاهِرةُ النواحي[1]
هُمامٌ خَطَّ - بالهِمم السَّوامي -
مِنَ العَلياءِ في الخِطَطِ الفِساحِ[2]
أغَرُّ إذا تَجَهَّمَ وجهُ دهرٍ
تبلَّجَ فيه كالقمرِ اللِّياحِ[3]
سميعُ النُّصْرِ لاستعداءِ جارٍ
أصمُّ الجودِ عن تفنيدِ لاحي[4]
ضَرائِبُ جَهْمَةٌ - في العَتب - تُتْلَى
بأخلاقٍ لدى العُتْبَى مِلاحِ[5]
إذا أرِجَ الثَّناءُ الرَّدْعُ منها
فكم للمسك عنه مِنَ افْتِضاحِ[6]
هُوَ المُبقي ملوكَ الأرضِ تَدْمَى
قلوبهمُ كأفْواهِ الجِراحِ[7]

---

(١) المعنى: هو الملك العظيم الذي زكت خلاله وطابت أياديه فمنحتنا السرور والنعيم.

(٢) الهمام: الملك العظيم الهمة، أو السيد الشجاع السخي خاص بالرجال، الخطة والخط: الأرض التي يختطها الرجل لنفسه ويضع عليها خطوطًا للدلالة على أنه امتلكها، وتكون غير مملوكة لأحد من قبله، يقال خطها واختطها، ومنها خطط البصرة والكوفة، والمعنى: حاز الأمير ما لم يحزه أحد قبله فنال أعلى مكان وأسمى منزلة من معالي الأمور بما له من حزم وإقدام.

(٣) الأغر: الأبيض أو الكريم أو الشريف، تجهم: عبس، تبلج: أشرق أو ضحك وهشّ، اللياح (بكسر اللام وفتحها) الصبح أو الأبيض من كل شيء، وأبيض لياح: ناصع البياض، والمعنى: الأمير سخي شريف، يتهلل وجهه بالبشر والسماح كالقمر المنير إذا كشر الدهر عن نابيه وأنذر بالأحداث الجسام.

(٤) الاستعداء: الاستغاثة والاستعانة، التفنيد: اللوم، اللاحي: اللائم، والمعنى: يهب الأمير لنصرة جاره، ويعرض عمن يلومه على سخائه وكرمه.

(٥) الضرائب: الطبائع أو أصناف الشيء، جهمة: عابسة، العتب: اللوم في رقة ورجاء وإدلال، العتبَى: الإرضاء بعد اللوم، والمعنى: إذا أعرض الأمير وساءنا إعراضه فعتبنا عليه تهلل وجهه ورق قلبه فشملنا بالعطف والرضاء.

(٦) في نسخة أ «الثناء الردع»، والردع هو الزعفران أو أثر الطيّب في الجسد، وفي ب، ت، ز «أرج الثاء العتب»، ولعله «الثناء الروح» أي الشكر الطيب، أرج الطيب: فاح، والمعنى: رضاء الأمير يطلق ألسننا بشكره فإذا فاح عبير ثنائنا عليه فإنه يفوق المسك في الطيب. أو إذا بدّد رضاه عتبنا فاح عبير الشكر أطيب من المسك الفواح.

(٧) المعنى: ملوك الأرض يحسدون الأمير على أمجاده وآلائه فقلوبهم دامية من الحقد كأفواه الجراح.

رآه اللهُ أجْوَدَ بالعَطايا
وأطْعَنَ بالمَكايدِ والرِّماحِ[1]

وأفْرَسَ للمنابرِ والمَذاكي
وأبْهَى في البُرودِ وفي السِّلاحِ[2]

وأمنَعَهُم حِمَى عِرْضٍ مَصُونٍ
وأوْسَعَهُمْ ذَرا مالٍ مُباحِ[3]

فراضَ له الوَرَى حتى تأدَّتْ
إليه إتاوةُ الحَيِّ اللَّقاحِ[4]

«لِمُعْتَضِدٍ» به أرضاهُ سَعْيًا
فأقْبَلَ وَجْهُهُ وَجْهَ الفلاحِ[5]

فمن قاسَ الملوكَ إليه جَهْلاً
كمن قاسَ النُّجومَ إلى بَراحِ[6]

ومُعْتَقِدُ الرياسةِ في سِواهُ
كمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ في سَجاحِ[7]

☼☼☼☼

---

(١) المعنى: رأى الله الأمير أجود الملوك عطاءً وأشجعهم قلبًا وأحسنهم حيلة ومكيدة.

(٢) في نسخة ت «وأفرس في المنابر»، المذاكي: الخيل التي بلغت السادسة أو السابعة من عمرها فتكون قد نضجت وبلغت منتهى قوتها، البرود: الثياب المخططة، والمعنى: جمع الأمير بين الفصاحة والشجاعة فهو فارس إذا ركب المنابر أو امتطى الجياد، وهو أبهى من يخطر في الثياب أو السلاح.

(٣) الذَّرى: كل ما لجأت إليه تقول أنا في ذرى فلان أي في ظله وكنفه وستره، المعنى: وهو أمنع الملوك حمى وأصونهم عرضًا وأوسعهم كنف مال مبذول للراغبين.

(٤) راض المهر: ذلله، تأدّت: انتهت، الإوتاوة: الخراج، حي لقاح: لا يخضعون لحاكم أو أمير لأنهم أعزاء، والمعنى: رأى الله في الأمير هذه المزايا فسهل له حكم الورى، وأخضع له الناس حتى المتمردين الذين لا يخضعون لحاكم أو أمير، فقد بادروا بدفع خراجهم إليه.

(٥) معتضد بالله: مستعين به، أقبل فلانًا الشيء: جعله قبالته، والمعنى استعان الأمير بالله واعتمد عليه فجعل الفلاح حليفه والنجاح موازيًا له.

(٦) براح: متسع من الأرض لا زرع به ولا شجر، أو الرأي المنكر، والمعنى: من شبه الملوك به فهو جاهل مخدوع مثل من شبه السماء بالأرض البراح.

(٧) سجاح: فتاة مسيحية نشأت في بلاد النهرين عند أخوالها من قبيلة تغلب، ولما ارتد كثير من العرب عن الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وادعى بعضهم النبوة ادّعت هي أيضًا النبوة ودخلت في حروب مع المسلمين وتزوجت مسيلمة الكذاب (مدعي النبوة): ويقال إنها أسلمت في زمن معاوية هي وقومها، والمعنى: من يعتقد الرياسة في غيره من الملوك فهو كالمرتد عن الإسلام المؤمن بنبوة سجاح.

أبَحْرَ الجودِ - في يومِ العَطايا -
وليثَ البأسِ في يومِ الكفاحِ[١]
لقد سَفَرَتْ بعِلَّتِكَ الليالي
لنا عن وَجْهِ حادثةٍ وَقاحِ[٢]
ألستَ مُصحِّها من كلِّ داءٍ؟
ومُبدي حُسْنِ أوْجُهِهَا القِباحِ؟[٣]
ولو كشفتْ - عن الصَّفَحات - شامَتْ
بروقَ الموتِ من بيضِ الصِّفاحِ[٤]

✡✡✡✡

وقاكَ اللّهُ ما تَخْشَى وَوَالَى
عليك بصُنْعِهِ المُغْدَى المُراحِ!![٥]
فلو أنَّ السَّعادةَ سَوَّغَتْنا
تِجارَتَها المَليَّةَ بالرَّباحِ[٦]
تَجافَيْنا - عَبِيدَكَ - عن نفوسٍ
- عليكَ من الضَّنى - حَرَّى شِحاحِ[٧]

---

(١) المعنى: أيها الأمير إنك سخي كريم في يوم العطاء كالبحر الزاخر، وأنت أسد كاسر في يوم النضال.

(٢) سفرت المرأة: كشفت عن وجهها، وقاح: قليلة الحياء، والمعنى: حينما أمرضتك الليالي أيها الأمير تكشفت لنا عن وجه وقح بإساءتها إلى أعظم الملوك.

(٣) المعنى: كيف تمرضك الليالي وأنت شفاؤها من كل مرض؟ وكيف تجحد فضلك وقد أزلت قبحها وأظهرت زينتها وحسنها الوضاء؟.

(٤) شام البرق: تطلّع إليه، بيض الصفاح: السيوف اللامعة، والمعنى: لو سفرت هذه الدنيا عن حقيقتها الكالحة في الأذى والإساءة لرددتها عن شرورها بقوة السلاح.

(٥) المعنى: حفظك الله من كل سوء تخشاه، ووالى عليك آلاءه ونعمه في غدوك ورواحك، وفي صباحك ومسائك.

(٦) في نسخة أ «الملثة بالرباح» من ألث بالمكان: أقام به، وفي الحديث الشريف «لا تلثوا بدار معجزة» أي بدار تعجزون فيها عن الكسب، وألث السحاب: دام، قال الشاعر:

في روضــــة من رياض القطا
ألثَّ بها عــــارضٌ ممطرُ

وفي نسخ ب، ت، ز «الملية بالرباح» والمليّ هو الزمن الطويل ومنه قوله تعالى ﴿واهجرني مليا﴾ وهو ملي بكذا ومليء به: ثقة فيه جدير بأدائه أو هو ثري واسع الثراء، الرباح والربح: المكسب، «والمعنى: مرتبط بالبيت التالي».

(٧) تجافَى: لم يلزم مكانه ومال من جانب إلى جانب أو تنحى عن الشيء، ومنه قوله تعالى ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾، الضنى: السقام، حرى: عطشى، شحاح: جمع شحيح وهو الحريص، ومعنى البيتين: لو سوّغتنا السعادة ربحها الدائم المتواصل لضحينا في سبيلك بنفوسنا المستعبدة لك، الحريصة على إبلالك، الظمأى إلى شفائك «ونصب عبيد هنا على الاختصاص».

تَـهَـنَّـأُ فــــيك بـالـبُــــرء الــمُــــوَفَّى
وَتـبــــهـجُ مـنـك بـالألـم الــمُــــزاحِ(1)

✡✡✡✡✡

فـــديـتُكَ كـم لِعَــــيْني مـن سُـــمُـــوٍّ
- لَدَيْكَ - وكم لـنفــسي من طِمــاحٍ(2)
ألا هـل جـــاءَ مَـنْ فــــارقـتُ أنِّـي
بـســاحـــات الـمُنى رَفِلُ الـمِـــراحِ؟(3)
وأنِّـي - مـن ظـلالـك - فـي زمـــــانٍ
نَدِي الآصـــالِ رقـــراقِ الـضَّـــواحي(4)
تُـحَــيِّـيـني بـريـحـــانِ الـتَّــحَـــفِّي
وتُـصْـبِـحُـني مُـعَـتَّـقَـةَ الـسَّـمـاحِ(5)
فـــهـــا أنـا قـــد ثَـمِلْـتُ مِـنَ الأيـادي
إذِ اتَّصَلَ اغْـتِـبـاقي في اصْطِبـاحي(6)

(1) المعنى: إن نفوسنا الحريصة على شفائك تتلقى التهنئة بمعافاتك وتبتهج بإزاحة الآلام عنك.

(2) الطماح والطموح: التطلع إلى أمر عال من طمح بصره إلى الشيء وطمح ببصره إليه: استشرف له وارتفع، والمعنى: أفديك أيها الملك العظيم، إن بصري يتعلق لديك بمعالي الأمور ونفسي تتطلع عندك للمجد الأثيل.

(3) رفل رفلاً: جرّ ذيله وتبختر أو خطر بيده، ورجل رفل: يجر ذيله تيهًا، وعيشة رفلة: واسعة سابغة، في نسخة أ، ب «رفل البراح» والبراح: هي الأرض الواسعة أو المكان المكشوف دون شجر أو بناء، أو الأمر الواضح. وفي نسخة ت، ز «رفل المراح» والمراح والمرح: شدّة الفرح والنشاط، والمعنى: أيعلم من فارقته ورحلت عنه أني وجدت خيرًا منه، وأنني أجر ذيول التيه والغبطة في أرحب مكان تحت ظلال ملك كريم؟ «والشاعر يعرض هنا بأبي الحزم بن جهور».

(4) ندي الشيء: ابتل فهو ندٍ، الآصال: جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب، رقراق: لألاء ولمعان، الضواحي: جمع ضاحية وهي السماء أو النجوم وليلة ضحياء وضحيا: مضيئة، والمعنى: أيعرف من هجرته إليك أنني حللت لديك في مكان رحب فسيح؟ وعشت في زمان طيب لطيف الآصال وضاء العشيات؟

(5) الريحان: نبات طيب الريح أو كل نبات عطري، التحفي: المبالغة في الإكرام، صبحه: سقاه الخمر في الصباح، المعتقة: الخمر القديمة الجيدة، السماح: الجود، والمعنى: لقدد غمرتني بحفاوتك وإحسانك فحييتني بأزهار مودّتك، وأدرت عليّ من جودك كؤوسًا معتقة تنعش الأرواح والأجسام.

(6) ثمل: سكر، الأيادي: المنن، الاغتباق: شرب الراح في المساء، والاصطباح: شربها في الصباح، والمعنى: لقد أسديت إليّ أكرم الأيادي وأرويتني بآلائك سواء في الصباح أو المساء حتى انتشيت من سلاف جودك الغزير.

فـــإنْ أعـــجِـــزْ فـــإنّ النُّصْحَ ثَقْفٌ

وإنْ أسكرْ فـــإن الشُّكر صـــاحي[١]

لِـمَـــا أكـــســـبتَ قَـــدْري من سَناءٍ

ومـــا لقَّـــيْتَ سَـــعْـــيي من نَجـــاحِ[٢]

☆☆☆☆☆

لقـــد أنْفَـــذْتَ - في الآمـــال - حُكْمي

وأجـــريتَ الزّمـــانَ على اقْـــتِـــراحي[٣]

وهل أخـــشى وُقـــوعًـــا - دونَ حظٍّ -

إذا مـــــا أثَّ ريشُكَ في جـنــاحي[٤]

فـمـا اسْـتَـسْـقَـيْتُ من غَـيْمٍ جَـهـامٍ

ولا اسْـتَـــوْرَيْتُ من زَنْدٍ شَـــحـــاحِ[٥]

وواصَلَني جَـمـيلُكَ - في مَـغـيـبي -

وطالَعَني نَداكَ مَعَ انْتِـــــزاحي[٦]

---

(١) ثقف: حاذق خفيف، وثقفه: ظفر به أو أدركه فهو ثقف، قال تعالى: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم﴾ أي إذا صادفتهم وظفرت بهم فاجعلهم عبرة لغيرهم، والمعنى: إذا عجزت عن العمل فإن فكري وحذقي لن يعجزا عن تقديم النصيحة، أو فإن النصيحة يمكن إدراكها والظفر بها لتقديمها إليك، وإذا سكرت من كؤوس نعمائك فإن شكري لك لن يعجزه السكر أو تضعفه نشوة الراح، وفي ب، ت، ز «فإن السكر صاحي».

(٢) السناء: الرفعة، لقّاه الشيء: ألقاه إليه، قال تعالى ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾، والمعنى: سأقدم لك نصيحتي وشكري لما أعليت من شأني وما أنجحت من سعيي.

(٣) في ب، ت، ز «على اقتراح»، والمعنى: لقد حققت لي ما أشتهيه من الآمال، وأنزلت على حكمي تصاريف الزمان.

(٤) في الأصول «من جناحي» ولعل الصواب ما أثبتناه، أث النبات: كثر والتف، الريش: ما يكسو جسم الطائر، ومن معانيه: اللباس الفاخر أو الخصب أو المعاش، والمعنى: كيف أهوي من علياء سمائك قبل الوصول إلى ما أتمناه؟ وقد قوّيت جناحي بريشك وحليتني بحلية إيناسك فأخصب ربعي بعد إجداب.

(٥) في ب، ت، ز «غيث جهام» والغيث هو المطر، والغيم هو السحاب، الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه، أستورى: طلب النار، الزند: العود الذي يقدح به النار وهو الأعلى، شحاح: بخيل، وزند شحاح: لا يقدح النار، والمعنَى: أملت في الملك آمالاً واسعة فصدقت آمالي فيه، لأنني رجوت سحابًا ممطرًا لاجهامًا، وزندًا واريًا لا ضنينًا.

(٦) المعنى: لقد أحسنت إليّ أيها الملك سواء كنت قريبًا منك أو نازحًا عنك، فما زلت تواصل إحسانك إليّ وأنا نائي الدار بعيد المزار.

ولـم أنْفَكَّ - إذْ عَـــدَتِ الـعَــــوادي -

إلـيكَ رهـينَ شَـــوْقٍ والْتِـــيـــاحِ[1]

فَــحَــسْــبي أنتَ - من مُــسْـدٍ لِنُعْـمَى -

وحَـــسْـــبُكَ بي بشُكْرٍ وامْــتِـــداحِ[2]

****

---

(١) في ت «إن عدت العوادي»، الالتياح: الظمأ، والمعنى: ما زلت على رغم العوادي ظامئًا إلى وردك، متعلقًا بك، مؤملاً فيك.

(٢) المعنى: ما أكرمك من مانح للنعم جواد بالهبات!! وما أعظم شأني من قائم بالشكر مدبج للثناء!!.

صهر كريم

في خلال هجرة الشاعر الأولى إلى إشبيلية صاهر المعتضد مجاهدًا أبا الجيش الموفق أمير دانية[1] فهنأ الشاعر المعتضد بهذه القصيدة:

اخْطُبْ فمُلكك يَفْقِدُ الإملاكا
واطلبْ فسَعدُكَ يَضْمَنُ الإدراكا[2]
وَصِلِ النُّجومَ بحظٍّ من لو رامَها
هَجرتْ إليه زُهْرُها الأفلاكا[3]
(واسْتَهْوِ مَنْ أَحْمَى) مراتعَها المَها
فالصَّعبُ يُسْمِحُ في عِنانِ هَواكا[4]

☆☆☆☆☆

(١) دانية: فرضة بشاطئ الأندلس الشرقي على البحر الأبيض المتوسط حصينة الموقع يحفها التين والكروم واللوز، وبها مصنع لبناء السفن «ترسانة» ومنها كانت الأساطيل تخرج للتجارة أو للجهاد، وتتبعها جزر مينورقة وميورقة ويابسة، وأميرها مجاهد العامري كان فقيهًا ورعًا ويعد من أفقه الدارسين لقراءات القرآن الكريم وتفسيره وعلوم العربية، وقد ضم بلاطه نخبة من أعلام القراء والفقهاء والأدباء، وهو إلى هذا قائد بحري عظيم غزا سردينية في مائة وعشرين سفينة فاقتحمها وفرض عليها الجزية إلى حين، وملك كثيرًا من الجزر شرقيّ شاطئ الأندلس وهدّد شواطئ فرنسا وإيطاليا وتوفي سنة ٤٣٦هـ.

(٢) الإملاك والملاك: عقد الزواج يقال: ملك الفتاة أي تزوجها، وأملكه فلانة: زوجه إياها، الإدراك: اللحاق، والمعنى: اخطب هذه الفتاة الكريمة فإن ملكك بحاجة إلى ما يقويه من صهر كريم، واطلب ما تشاء فإن حظك الحسن كفيل بإبلاغك ما تتمناه.

(٣) الزهر: جمع زهراء وهي الكوكب النيِّر أو المرأة المشرقة الوجه يقال: (كأن زهر النجوم «أي زهر النبات» زهر النجوم)، الأفلاك: مواقع النجوم، والمعنى: صل أسرتك الكريمة بنجوم هذه الأسرة العريقة، فإنك صهر كريم لو طلبت النجوم النيرات لهجرت أفلاكها إليك.

(٤) استهوى: استنزل من هوى يهوي إذا سقط إلى أسفل، ويقال للرجل الماهر: يستنزل العصم «أي الظباء التي في أرجلها بياض وسائرها أسود أو أحمر»، أو استهوى بمعنى أثار الهوى وجذب إليه شخصًا آخر، أو ذهب بهواه وعقله من هوى يهوى أي أحبّ، المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية ويضرب بها المثل في سعة عينيها وجمالها، والمهاة أيضًا: الشمس، يسمح: يسهل، وأسمحت الدابة: لانت بعد الجموح، والمعنى: اجذب إلى هواك هذه الفتاة الرائعة من حماها المنيع، فكل صعب يسهل إذا جذبته بعنان حبك.

يـأيّـهـــــــا المـلـكُ الـذي تـدبـيـــــــرُهُ

أضــحـى لـمَــملكةِ الـزّمـــانِ مِـلاكــا[1]

هـذي الليـــالي بـالأمـــاني سَـــمِــحــــةٌ

فــمـــتـى تَـقُلْ: «هـاتي» تَـقُلْ لكَ: «هـاكــا»[2]

فــــاعِـــقلْ شـــوارِدَهـا إزاءَ عـــقــــيـلةٍ

وافَـتْ مُــــبَـــشِّـــرةً بنَـيْلِ مُـنـاكـــــا[3]

أَهـدَى الـزمـــانُ إلـيك منـهـــا نُـخـــبـــةً

لـم تَـعْـدُ أن قَـــرَّتْ بـهـــا عَـــيْـنـاكـــا[4]

شـــمسٌ تـوارتْ في ظلام مَـــضِــيــعَـــةٍ

ثـم اسْـــتطارَ لـهـــا الـسَّنا بـسنـاكـــا[5]

قُـــــرِنَـتْ بـبـــــدرِ الـتَّـمِّ كـــــافـلـةً لـه

أنْ ســـوف تُـتْــبِـعُ فَــرْقَــدَيْنِ سِـمــاكــا[6]

---

(١) ملاك الأمر: قوامه وعماده، والمعنى: إن حسن تدبيرك أيها الملك أصبح عمادًا للملك لا ينهض الملك على سواه.

(٢) المعنى: لقد جادت الأيام عليك بما تشتهيه، فإذا قلت لها هاتي قالت لك خذ ما تشاء.

(٣) عقل البعير: قيّده، الشوارد: جمع شاردة أي نافرة، العقيلة: كريمة الحيّ، والمعنى: اجمع الآمال النافرة إليك وقيّدها بفنائك مقرونة بهذه الفتاة الكريمة التي تشع من حولها أعذب الآمال.

(٤) النخبة: المختار، لم تعد: لم تتجاوز، والمعنى: اختار الزمان هذه الأميرة هدية قيمة لك، أقرّ بها عينيك ومنحك السعادة والنعيم.

(٥) فلان بدار مَضيعة أو مَضْيَعة: أي في موضع ضياع أو هلكة، أو في مفازة منقطعة، قال الشاعر:

وهو مـــقـــيم بدار مَـــضْـــيَـــعَـــةٍ

شـــــعـــــاره في أمـــــوره الـكسـلُ

استطار: انتشر، السنا: الضوء، والمعنى: كانت الأميرة مجهولة في خدرها كالشمس خلف السحاب، حتى اجتذبتها إليك فانتشر ضوؤها تحت أشعتك الوضاءة.

(٦) في نسخة ت «قرّت ببدر التمّ» أي سرت به، الفرقدان: نجمان قريبان من القطب، السماك: أحد نجمين نيرين أحدهما الرامح والآخر الأعزل، والمعنى: هذه الشمس النيرة اقترنت بك أيها القمر الوضاء ضامنة لك أن تنجب لك نجما نيّراً ينضم إلى ولديك النجيبين «والقصيدة توحي بأن زوجة الأمير الأولى توفيت بعد أن أنجبت له ولدين، ونحن نعرف أن إسماعيل والمعتمد نجلهما الأمير وهو ولي للعهد، ولما تولى الملك وماتت زوجه صاهر مجاهدًا أمير دانية وفي هذا الصهر صاغ شاعرنا هذه القصيدة».

هِيَ والفقيدةُ كالأديم اخْتَرْتَهُ
فقَدَدْتَ إذ خَلُقَ الشِّراكُ شِراكا[١]
فاصفحْ عنِ الرِّزْءِ المُعاوِدِ ذكرُهُ
واستأنفِ النُّعْمَى، فتلك بذاكا[٢]

☆☆☆☆☆

لم يَبْقَ عُذرٌ في تَقَسُّمِ خاطرٍ
إلا الصُّبابةُ من دماءِ عِداكا[٣]
كُفّارِ أنْعُمِكَ الأُلى حَلَّيْتَهُمْ
أطواقَهُمْ، سَيُطَوَّقونَ ظُباكا[٤]
أعرِضْ عنِ الخَطَرات، إنك إنْ تَشَأْ
تكنِ النجومُ أسِنَّةً لقناكا[٥]
هُصِرَ النعيمُ بعِطفِ دهرك فانْثَنَى
وجرى الفِرِنْدُ بصَفْحَتَيْ دنياكا[٦]
وبدا زمانُكَ لابسًا ديباجةً
تجلو لعينِ المُجْتَلي سِيماكا[٧]

---

(١) الأديم: الجلد، خلق: بليَ، الشراك: سير النعل، والمعنى: لقد ماتت زوجك الأولى فاستبدلت بها هذه الفتاة كما يستبدل الإنسان رباط النعل بغيره، وفي نسخة ت «هي والقعيدة» والقعيدة هي الزوجة.

(٢) في نسخ ب، ت، ز «فتلك فداكا»، والمعنى: إذا كانت زوجك الأولى ماتت فاصفح عن إساءة الزمان إليك، واستأنف النعمة بالزوج الجديدة فإن السعادة كفيلة بمحو الإساءة، أو فإن الفقيدة كانت فداء لك من كل الأسواء.

(٣) الصُّبابة: بقية السائل في الإناء، والمعنى: ينبغي أن تفرغ للمتعة الجديدة، وألا تشغل خاطرك بأمر من الأمور، فلا مبرر للانشغال عن متعتك إلا إذا كنت تفكر في سفك الدماء الباقية في جسوم الأعداء.

(٤) الظبا: جمع ظبة وهي حد السيف أو السنان، والمعنى: هؤلاء الأعداء كفروا بنعمتك التي طوقتهم بها فهم حريون بأن تطوقهم بسيوفك.

(٥) المعنى: لا تشغل بالك بأمر هؤلاء الأعداء، فإن سعدك كفيل بالقضاء عليهم، فلو أردت حربهم لكانت النجوم أسنة لرماحك.

(٦) هصر الغصن: أخذ برأسه فأماله إليه، العطف: الجانب، فرند السيف: صفحته أو جوهره ووشيه، والمعنى: لقد طاب لك الدهر كأن السعادة مالت على عطفه منجذبة إليك، وصفت لك الحياة وازدهرت كأنما تزينت صفحتها بالوشي المنمق المنضود.

(٧) الديباج: ثوب سداه ولحمته الحرير، تجلو: تظهر، المجتلي: الناظر، السيما والسيمة والسيماء والسيمياء: العلامة، قال تعالى ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾، والمعنى: ظهر الزمان في حلة قشيبة تبدي للمتطلعين مظهرًا رائعًا من مظاهرك التي تبهر الناظرين.

دُنيــــا لـزهـرتـهـــا شُــعـــاعٌ مُــذْهَـبٌ
لو كــان وصــفًــا كــان بـعـضَ حُـلاكــا[1]
فَــتَــجَلَّ في فُــرُشِ الكرامـــةِ ناعــمًـــا
واعْــقِــدْ بمرتبــةِ السُّـرورِ حُــبــاكــا[2]
وأطِلْ - إلـى شَــدْوِ القِــيــانِ - إصــاخــةً
وتـلَـقَّ مُــتْــرَعَـــةَ الـكـؤوسِ دِراكـــا[3]
تَحْــتَــثُّــهـــا - مَــثْنَـى - مَــثــانـي غــادةٍ
شَــفَــعَـتْ بحثٍّ غنائـهـــا الإمــســاكــا[4]
مــا الـعــيشُ إلا في الصَّـبــوحِ بسُــحْــرَةٍ
قـــد جَـــسَّـــدتْ أنـوارُهـا الأحْـــلاكـــا[5]

☆☆☆☆

لكَ أريحـــيَّـــةُ مـــاجـــدٍ، إنْ تَـعْــتَــرِضْ
في لَهْـــوِ راحِكَ تَسْــتَــهِلُّ لُـهــاكــا[6]

---

(١) زهرة الدنيا: بهجتها ونضارتها وحسنها، مُذْهَبٌ ومُذَهَّبٌ: مموَّه بالذهب، والمعنى: تجلّت دنياك في بهجة ونضارة ترسل أشعتها الذهبية التي تذكرنا بصفاتك وآلائك.

(٢) الحبا: جمع حبوة وهي جلسة مريحة يجمع الجالس فيها فخذيه إلى بطنه ويشتملهما بردائه أو بيديه، والمعنى: تقلب في مهاد النعيم وتبوأ مراتب السرور.

(٣) شدو القيان: غناء الجواري، إصاخة: استماع، الكؤوس المترعة: الممتلئة، الدراك: المتابعة، والمعنى: تمتع بالاستماع إلى سجع القيان. وموالاة رشف الدنان.

(٤) حثّه واحتثه: حضه، مثنى: اثنان مقترنان تقول: جاؤوا مثنى وثناء أي اثنين اثنين، والمثاني: جمع مثنى وهو الوتر الثاني من العود، غادة: امرأة ناعمة، والمعنى: تدعوك مثاني أوتار غادة حسناء إلى مواصلة الشراب مثنى وهي تشدو بصوتها الفتان فتطلقه حينًا وتحجزه حينًا فتتلاعب بالقلوب كما تتلاعب بالألحان.

(٥) الصبوح: الشرب بالغداة وهو ضد الغبوق، السحر: قبيل الصبح، والسحرة: السحر الأعلى أي قبل السحر تقول: أتيته بسحر وبسحرة قال أبو نواس:

ذكـر الصـبـوح بسـحـرة فـارتاحـا
وأمله ديك الصـبـاح صـيـاحـا

جسَّد الثوب: صبغه بالجساد وهو الزعفران، وفي الأصول «جاسدت» ولم نجد هذا الفعل في ما رجعنا إليه من المعاجم: والمعنى: ما لذة العيش إلا في شرب الصباح المبكر وقد صبغت أضواء الفجر الأفق بالشفق الأحمر كالزعفران.

(٦) الأريحية: الارتياح والاهتزاز للجود، ماجد: كريم الآباء، قال ابن السكيت: الحسب والكرم يكونان بدون الآباء، والشرف والمجد لا يكونان إلا بالآباء، الراح: الخمر، استهلّ المطر وانهلّ وهلّ: اشتد انصبابه، اللها: جمع لهوة أو لهية وهي أفضل العطايا وأجزلها، والمعنى: قد تتذكر في وقت اللهو والشراب أريحيتك ومجدك وكرمك فتسخو بالهبات الوافرات.

مـن كــــان يَعْلَقُ فـي خـــــلال نِدامِــــهِ
ذمٌّ ببـــعض خِـــلالِهِ فـــخَـــلاكـــا[1]
أسـبــوعُ أُنْسٍ مُـــحْـــدِثٌ لـيَ وَحـــشـةً
عِلمًـــا بـأنّي فــيـــه لستُ أراكـــا[2]
فــأنـا الـمُـعَـذَّبُ غـيـرَ أنّي مُـشْـعَـرٌ
ثِقَـــــةً بـأنَّكَ نـاعِمٌ فــــهَـنـاكــــا[3]
أَنَّـى أقـــومُ بـشكر طَوْلِكَ بـعـــدَ مــــا
مَـــلأتْ مـنَ الـدنيــــا يـديَّ يداكـــا؟[4]
بَـرَدَتْ ظِـلالُ ذَراكَ، واحْـلَـوْلَـى جَـنَـى
نُعْـمـاكَ لـي، وصَـفَتْ جِـمــامُ نداكـا[5]
وأمِنْتُ عـــاديـةَ الـعـــدا الأَقْـتــالِ مُـذْ
أعْـصَـمْتُ في أعلى يَفـاعِ حـمــاكـا[6]
جَـهـد الـمُـقِلِّ نـصـيـحــةٌ ممحــوضـةٌ
أفْـرَدْتَ مُـهْـدِيَهـا فــلا إشـــراكـا[7]

(١) النـدام: المجالسة على الشراب، والمعنى: إذا كان الشراب يدفع الإنسان أحيانًا إلى فعل ما يذم عليه فإنك أنت وحدك لا يغيرك عن مآثرك الشراب.

(٢) الوحشة: الخلوة أو الهم، والمعنى: ستحتجب عني أسبوع الزفاف فتحدث لي وحشة لبعدك وعدم تمتعي بمرآك.

(٣) في الذخيرة «وأنا المعذب»، مشعر: عالم من أشعر فشعر أي أدراه فدرى، والمعنى: إنني متألم لبعدك ولكن يخفف آلامي علمي بأنك ناعم سعيد فهنيئًا لك السعادة والنعيم.

(٤) أنَّى؟. كيف؟، الطول: الغنى أو الفضل، والمعنى: كيف أقوم بشكر أياديك الجسام بعد أن ملأت يدي بخيرك العميم؟

(٥) الذرا: كل ما أظل الإنسان أو أحسن إليه، تقول: أنا في ذراه أي في كنفه وستره ودفئه، احلولى: حلا أو استحلى، الجنى: الثمر الغض، الجمام: المياه الغزيرة، والمعنى: طابت لي الحياة عندك فبردت ظلالها وحلت ثمارها وصفت مياهها، فما أعظم نداك!!

(٦) عادية: طليعة المقاتلين، الأقتال: جمع قتل وهو العدو أو المقاتل، أعصمت: احتميت من أعصم أي تشدّد واستمسك بشيء خشية الوقوع، اليفاع: المكان المرتفع، والمعنى: منذ لجأت إليك واحتميت بحماك أمنت ضراوة الأعداء المقاتلين.

(٧) الجهد (بفتح الجيم وضمها): الطاقة، ومنه قوله تعالى ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾، وجهد المقل: أقصى ما يستطيعه المعدم أو الضعيف، والمعنى: أقصى ما أستطيع بذله من جهدي المتواضع أن أقدم لك النصيحة الخالصة، وقد أفردتني بالاستشارة وجعلتني الناصح المفرد الأمين.

وثَناءَ مُحْتَفِلٍ كأنَّ ثَناءَهُ
مسكٌ بأردانِ المَحافِلِ صاكا[1]
ولْتَدْعُنِي وعُدوكَ الشّاني، فإنْ
يَرُمِ القِراعَ يَجِدْ سِلاحيَ شاكا[2]

✡✡✡✡✡

لا تَعْدَمَنَّ الحظَّ غَرْسًا مُطْلِعًا
ثَمَرَ الفوائد دانيًا لجَناكا[3]
والنَّصْرَ جارًا لا يحاولُ نُقْلَةً
والصُّنعَ رَهْنًا لا يريدُ فَكاكا[4]
وإذا غمامُ السَّعْدِ أصبح صَوْبُهُ
درْكَ المطالبِ فَلْيَصِلْ سُقْياكا[5]
فالدهرُ مُعْتَرِفٌ بأنّا لم نكنْ
لِنُسَرَّ منه - بساعةٍ - لولاكا[6]

****

(١) احتفل بالأمر وحفل به: اهتم به اهتمامًا شديدًا، الأردان: أكمام القميص أو ثياب الخز، صاك: لصق، المعنى: عندي لك النصيحة الخالصة والثناء العاطر كأنه مسك تعطرت به أبراد المجتمعات.

(٢) الشانئ: المبغض، القراع: القتال، شاك: ظهرت شوكته وحدته، والمعنى: عندي لك النصيحة الخالصة والثناء العاطر والدفاع القوي، فادعني إلى عدوك البغيض، فإذا أراد القتال قابلته بالأسلحة الفتاكة المدمرة.

(٣) المعنى: لا زال الحظ الحسن حليفاً لك يثمر أعظم الفوائد ويقدمها إليك في سهولة ويسر.

(٤) الصنع: عمل المعروف، والمعنى: لا زال النصر محالفًا لك لا يبارحك، والمآثر الحميدة موقوفة عليك لا تزايلك.

(٥) في ب، ت، ز «وإذا حمام السعد»، صوب المطر: نزوله، والمعنى: أدعو الله أن تهطل عليك أمطار السعود مؤذنة لك ببلوغ الآمال.

(٦) في الأصول «معترف بأنك» ولا يستقيم المعنى إلا بما ذكرناه، والمعنى: إن الدهر يعترف معنا بأنك مصدر سعادتنا ونعيمنا، ولولاك ما صفت لنا ساعة واحدة من ساعات الحياة.

فتى المجد[1]

«بعث الشاعر بهذه الأبيات إلى المعتضد، ونرجح أنه كتبها بعد عودته إلى قرطبة، ومن المعروف أن إشبيلية تقع إلى الغرب منها».

كم لريحِ الغَربِ من عَرْفٍ نَدي
كالشَّرابِ العَذبِ في نَفْسِ الصَّدِي[2]

حيث «عبّادٌ» فَتَى المجدِ الذي
نُصَّت الدنيا به نَصَّ الهَدِي[3]

مَلِكٌ راحَتُهُ بحرُ النَّدَى
مثلَما غُرّتُهُ بدرُ النَّدِي[4]

أصبحتْ دولتُهُ في عصرنا
كفِرِنْدٍ عاد في سَيْفٍ صَدي[5]

****

(١) إذا جعلنا رويّ هذه الأبيات الأربعة حرف الدال: اتسق معها البيت الأول، ومن الممكن أن يتسق البيتان الثاني والثالث بتخفيف الياء المشدّدة فيهما، والخليل والأخفش يجيزانه حيث يريان: «أن الياءين إذا أدغمت إحداهما في الأخرى صارتا بمنزلة الحرف الواحد، وصار التزام التشديد اختيارًا من الشاعر وإلا فترك التشديد جائز له» وقد درج على هذا الشعراء، أما البيت الأخير فحذف آخره ضرورة غير مقبولة، ولم نجده محذوف الآخر في ما رجعنا إليه من كتب اللغة. وإذا جعلنا الرويّ حرف الياء لم يستقم معنا البيتان الأول والرابع إلا بالإدغام والإبدال (وهما لغة فاشية) بعد أن نصوغ منهما صفة مشبهة على وزن (فعيل)، ولكن اشتقاق الصفة المشبهة غير قياسيّ، ولم نجد في ما رجعنا إليه من كتب اللغة كلمة (صديّ) بمعنى ظامئ أو علاه الصدأ. ولهذا آثرنا جعل الروي حرف الدال لأنه أقل ارتكابًا على الضرورات.

(٢) العرف: الريح طيبة أو خبيثة والاستعمال الأول أكثر، ند: رطب، صد: ظمآن، والمعنى: كلما هبت ريح الغرب الطيبة النديّة فعلت بنا ما يفعله الشراب العذب في إرواء العليل.

(٣) نص العروس: أقعدها على المنصة، الهَديُّ والهدية: العروس، قال أبو ذؤيب:

برقم ووشي كما نمنمت
- بمشيتها المزدهاة - الهديّ

والمعنى: طاب الغرب بعباد الماجد الكريم الذي ازدانت به الدنيا كما تزدان العروس المجلوة ليلة الزفاف.

(٤) الراحة: الكف، النديّ: النادي وهو مجلس القوم ومتحدثهم نهارًا، وقيل هو المجلس ما داموا مجتمعين فيه فإذا تفرقوا زال عنه هذا الاسم، والمعنى: إنه ملك سخي تفيض كفه بالندى كالبحر، جميل يتألق جبينه كالبدر، فتزدان به المحافل والمجالس.

(٥) فرند السيف صفحته أو حليته ووشيُه، صد: علاه الصدأ، والمعنى: ازدهرت دولته في عصرنا بعد ذبول، كما يتألق السيف الصدئ ويعود إليه وشيه ورونقه بعد الجلاء.

الملوك الصيد

هاجر الشاعر إلى إشبيلية للمرة الثانية سنة ٤٤١هـ واستقر بها، وقد استهل حياته الجديدة في خدمة المعتضد بهذه القصيدة العصماء:

للحُبّ - في تلك القِباب - مَرادُ
لو ساعفَ الكلِفَ المَشُوقَ مُرادُ(١)

لِيَغُرْ هواكِ، فقد أجدَّ حمايةً
لِفتاةِ نجدٍ فتيةٌ أنجاد(٢)

كم ذا التجلُّدُ؟ لن يساعِفَكَ الهوى
بالوصل إلا أن يطولَ جِلاد(٣)

أعقيلةَ السِّرْبِ المُباحَ لوِرْدِها
صَفْوُ الهوى إذْ حُلِّئَ الوُرّاد(٤)

ما للمَصايدِ لم تَنَلْكِ بحيلةٍ؟
إن الظِّباءَ لَتُدَّرى فتُصاد(٥)

---

(١) في نسخ ب، ت، ز «لو ساعد»، المراد: موضع الارتياد وهو طلب المرعى، الكلف: المحب، مُراد: أمل، والمعنى: للحب ذهاب وجيئة في هذه القباب، لو كانت الآمال تسعف المحب المولع ببلوغ هدفه المنشود.

(٢) الغور: تهامة وهي منخفضة، النجد: ما ارتفع من الأرض، ونجد: من بلاد العرب وهو خلاف الغور، فالغور تهامة، وكل ما ارتفع عن تهامة إلى أرض العراق فهو نجد، أنجاد: جمع نجد وهو الدليل الماهر أو الشجاع الماضي في ما يعجز غيره، والمعنى: ينبغي أن تحول هواك عن نجد إلى الغور، فإن فتاة نجد يحميها فتيان شجعان.

(٣) في نسخ ب، ت، ز «كم ذا التكلف لن يساعدك الهوى»، والمعنى: إلام تصبر مع أن الهوى لن يسعفك ببلوغ آمالك إلا بعد طول الكفاح والنضال؟

(٤) العقيلة: كريمة الحيّ، السرب: جماعة النساء أو قطيع الظباء، حلأه عن الماء: منعه وطرده، والمعنى: أيتها الفتاة الكريمة المصونة، لقد صفا الهوى في موردك العذب، ولكن المحبين الواردين على منهلك الصافي يصدون عنه في عنف وجفاء.

(٥) ادّرى الصيد وتدرّاه: خدعه حتى يقع في حباله، والمعنى: ما بال الحيل أعيتني في اصطيادك؟ مع أن الظباء تخدع فتقع في الحبال.

إن يعــدُ - عن سَمُـرات جِـزْعكِ - ســامـرٌ
في كـلِّ مُـطَّـلَـعٍ لـهـمْ أرصــــــــادُ(١)

فـبــمـــا ترقــرقَ للمـــتــيَّمِ بينَـهـــا
غَـلَـلٌ - نَـفَـى حــــــرَّ الـغَـلـيـلِ - بُـرَادُ(٢)

أنـا حـين أُطـرِقُ لـيس يَفْـــتَــأُ طارقي
شـــوقٌ كـــمـــا طرقَ السَّليمَ عِـــدادُ(٣)

يَنْـهَـى جَــــفـــاؤكِ عن زيـارتـيَ الـكَرى
كـــيـــلا يزورَ خـــيـــالُكِ المعـــتـــادُ(٤)

لا تقطعي صِلـة الخـــيـــال تَجَنُّبًـــا
إذ فـــيـــه من عَــوَزِ الوِصـــالِ سِــدادُ(٥)

مـــا ضــــرّ أنّكِ بـالـسّـــلام ضنـيـنةٌ
أيـَّامَ طَيْـــــفُكِ بـالـعِـنـاقِ جَـــــوادُ(٦)

---

(١) يعدو: يصرف، السمرات والسمر: جمع سمرة وهي شجرة الطلح، الجزع: منعطف الوادي، السامر: المجتمعون للحديث المُسَلِّي ليلاً، أرصاد: حراس مراقبون، وفي الأصول «في كل مطلع لهم أرهاد» ولعل الصواب ما أثبتناه، والمعنى: لقد حالت بيننا وبين الوصول إليك جموع من قومك محتشدون للسمر حول خبائك، ولهم عيون ورقباء معدون لصونك وحمايتك.

(٢) ترقرق: تلألأ ولمع، الغلل: الماء الجاري بين الأشجار، البرود والبراد: الماء البارد، والمعنى: إذا حال قومك بيننا فلحرصهم على أن يحولوا بيني وبين المياه العذبة الباردة المنسابة قرب خبائك تحمل إليّ طيبك وعبيرك فتشفي غليل نفسي الوالهة التي ألهبها الشوق والحنين. وفي نسخ ب. ت. ز «يقي حر الغليل».

(٣) السليم: اللديغ، العداد: اهتياج وجع قديم، وفي الحديث «ما زالت أكلة خيبر تعادّني..»، والمعنى: إنني - حين أطرق برأسي متألمًا حزينًا أفعل هذا لما يعتادني من الشوق الملح والهوى المبرح كما يهيج الألم باللديغ حينًا بعد حين.

(٤) المعنى: لقد منع هجرك النوم عن زيارتي خشية أن يزورني طيفك في المنام، وشبيه بهذا قوله ابن هانئ الأندلسي:

منعـوك من سنة الكرى، ومـضـوا، فلو
عـــــثـــــروا بطيفٍ طارق ظنوك

(٥) العوز: الحاجة والضيق، سداد القارورة: صمامها، ومن المجاز قولهم: «فيه سداد من عوز، وأصبت به سدادًا من عيش» أي ما تسد به الحاجة، والمعنى: إذا كنت محرومًا من وصالك فلا تحرميني من طيف خيالك ففيه لي بعض المواساة عما أكابده من آلام وأشجان.

(٦) المعنى: كنت بخيلة عليّ حتى بالسلام، ولكن هوّن عليّ هجرك أن طيفك كان كريمًا عليّ، فكان يصلني في المنام ويجود عليّ باللثم والعناق.

هلاّ حَمَلْتِ السُّقْمَ عن جسمٍ له
في كِلَّةٍ زُرَّتْ عليكِ فؤادُ(١)

أو عُدْتِ من سَقَمِ الهوى، إنَّ الهوى
ممّا يُطيلُ ضَنَى الفَتى فيُعادُ(٢)

إيهًا! فلولا أنْ أَروعَكِ بالسُّرَى
لَدنا وسادٌ أو لطالَ سِوادُ(٣)

لغشيتُ سَجْفَكِ في مُلاءة نَثْرَةٍ
فُضُلٍ، سوى أنَّ العِطافَ نِجادُ(٤)

لأَمِيلَ في سُكرِ اللَّمَى، فيبيتَ لي
- ممّا حوى ذاك السِّوارُ - وِسادُ(٥)

فعِدِي المُنى، فوعيدُ قومِكِ لم يكنْ
ليعوقَ عَن أنْ يُقْتَضَى المِيعادُ(٦)

☼☼☼☼

(١) الكلّة: نسيج رقيق ينصب على الأسرة للوقاية من الحشرات، والمعنى: هلاً أزحت السقم عن جسمي العليل وأنت تعلمين أن قلبي متصل بك محوم عليك، وفي ت «شزرت عليك» وفي ز «رزت عليك».

(٢) العيادة والعوادة: زيارة المريض، والمعنى: هلا أزلت سقمه أو عدته في مرضه فإن الهوى يضني الأجسام ويستدعي العواد.

(٣) إيهًا: اسكت وكف، أيّهًا: هيهات، إيه: اسم فعل أمر لطلب الزيادة من حديث أو عمل، فإذا وصلتها نونت، وقيل إيه أمر بالزيادة من حديث معهود، وإيه طلب أي حديث، أروعك: أخيفك، السرى: السير ليلاً، الوساد: المخدة، السِّواد والسُّواد: المسارة والمناجاة، ويقول شاعرنا في رسالته الهزلية. «ومتى كثر تلاقينا، واتصل ترائينا، فيدعوني إليك ما دعا ابنة الخس إلى عبدها من طول السواد وقرب الوساد؟» وابنة الخس هي هند بنت الخس الإيادي امرأة جاهلية شاعرة أديبة زنت بعبد لها فلما قرعوها قالت معتذرة: «لقد حملني على ذلك قرب الوساد وطول السواد» وفي الحديث الشريف «السواد من السحر»، والمعنى: كفي عن الدلال، فلولا أن أزعجك بطروقك ليلاً لاقتحمت عليك خدرك فدنا وسادي من وسادك وطال تناجينا فظفرنا بالوصال.

(٤) السَّجف والسِّجف والسِّجاف: الستر أو الستران المقرونان وبينهما فرجة، الملاءة: ثوب لين رقيق من قطعة واحدة، النثرة: الدرع الواسعة، العطاف: الرداء أو السيف، النجاد: حمائل السيف، والمعنى: لولا مخافة إزعاجك لاقتحمت خدرك في درع سابغة رحبة كالملاءة، ورداء مكون من حمائل السيف.

(٥) اللمى: سواد الشفة ولعلها ناشئة من شدة الإحمرار وهي سمة من سمات الجمال، والمعنى: لولا خشية إفزاعك لاقتحمتُ خدرك ورشفت ثغرك فتمايلت من نشوة الحب وجعلت من سوارك لي خير وساد.

(٦) الوعد: التبشير، والوعيد: الإنذار، والمعنى: بشريني بوصالك فإن تهديد قومك لن يحول بيننا وبين اللقاء.

أصــبُــو إلـى وَرْدِ الخـــدود إذا عَـــدَتْ
جُـــــــرْدٌ - تـبـلّـغـنـي جَـنـاهُ - وِرادُ[١]
وأراحُ لـلـعـطـرِ الـسَّـطـوعِ أريـجُــــــهُ
إنْ شِـيـبَ بـالجـسَـدِ الـعَطـيـرِ جِـسَـاد[٢]
عَـــزْمٌ إذا قـــصـــدَ الحِـــمَـى لم يَثْنِهِ
أنَّ الـقـنـا - مـن دونـه - أَقْـــصـــــاد[٣]
من كـــان يجـــهلُ مـــا الـبـلـيـدُ، فـــإنَّهُ
من تطّبـــيـــهِ - عن الحُظوظِ - بِلاد[٤]
وفَـتَى الشَّـهـامـةِ مَنْ - إذا أَمَلٌ سـمـا -
نفَــذتْ بـه شُـــورى أو اسْـــتِـبْـــداد[٥]

✲✲✲✲

من مـــبلغٌ عني الأحـــبّـــةَ - إذ أبتْ
ذكـــراهُمُ أن يطمـــئنٌ مِـــهـــاد -[٦]
لا يــأسَ رُبَّ دُنُــوٍّ دارٍ جـــــــامــعٍ
لـلشَّـــمْلِ قـــد أدَّى إليـــهِ بِعَـــادُ[٧]

---

(١) صبا: مال إلى الجهل والفتوة، عدت: جرت، الجرد: جمع أجرد وهو الفرس قصير الشعر رقيقه وهي صفة مستحبة في الخيل، الجنى: الثمر الغض، الوراد: جمع ورد وهو لون بين الحمرة القانية والشقرة في الخيل، والمعنى: تذكرني الخيل الجرد الحمراء بلون الخدود فأهتز من الشوق إليها فأدفع خيلي عدوًا إلى جناها اليانع الشهي.

(٢) أراح: أطرب وأنشط، الأريج: توهج ريح الطيب، شيب: مزج، الجساد: الزعفران، والمعنى: إنني أشعر بالنشوة والارتياح إذا سطع عبير جسمك العطر في الأبراد المصبوغة بالزعفران.

(٣) تقصّدت الرماح: تكسرت، ورمح قصيد وأقصاد متكسر، والمعنى: إن لي عزمة فتية قوية إذا شاءت بلوغ الحمى لم تثنها عن بلوغه الرماح المتكسرة من طول الطعان.

(٤) طبيته واطبيته عنه: صرفته، وإليه: دعوته، والمعنى: إن الغبي هو الذي يؤثر الإقامة مع الذل على الارتحال في سبيل المجد.

(٥) المعنى: الفتى الأبي المقدام هو الذي يندفع إلى غاياته في عزم وتصميم إذا اقتنع بأمر سواء كان اقتناعه ناتجًا عن شورى أو عن استبداد، وقريب من هذا قول سعد بن ناشب:

إذا همّ ألقى بين عـــينيـــه همـــه
ونكب عن ذكـــر الحـــوادث جـــانبـــا
ولم يســتـشــر في رأيه غـيـر نفـسـه
ولم يرض إلا قــائم الســيف صــاحـبــا

(٦) المعنى: إن ذكرى أحبابي الذين فارقتهم بقرطبة تؤرق مضجعي، فهل من رسول يبلغهم عني ما أريد؟

(٧) المعنى: من ذا يبلغ أحبابي عني ألا ييأسوا من اللقاء؟ فقد يكون رحيلي عنهم سببًا لقربي منهم، فما رحلت عنهم بغضًا لهم، ولكن لأظفر بآمالي التي تتيح لي الاجتماع بهم في سعادة ونعيم، ومثل هذا قول عروة بن الورد:

تقـــول سليـــمـى: لو أقـــمت لســـرّنا
ولم تـدر أنـي للمـــــقـــــام أُطوِّفُ

إنْ أغْـتَـرِبْ فـمـواقعَ الكَرَمِ - الذي

في الغَـرْبِ شِـمْتُ بروقَـهُ - أرتادُ[1]

أو أنْأَ عن صِـيَـدِ الملوكِ بجـانبي

فَـهُمُ العـبـيـدُ مَليكُهُمْ «عَـبُّـاد»[2]

المجـدُ عـذرٌ في الفِـراقِ لمن نأى

ليَـرى المَـصـانعَ منه كـيفَ تُشـادُ[3]

يـا هـل أتـى مَـنْ ظَـنّ بـي - فـظنـونُـهُ

شـتّى تَرَجَّحُ بينهـا الأضْـداد -[4]

أنّي رأيتُ «الـمُنذِرَيْنِ» كليـهـمـا

في كَـوْنِ مُلْكٍ لم يُحِلْهُ فـسـادُ[5]

وبَصُـرْتُ بالبُـرْدَيْنِ إرْثِ «مُـحَـرِّقٍ»

- لم يـخْـلُـقـا - إذْ تَـخْـلُـقُ الأبْـرادُ[6]

---

(١) شام البرق: تطلع إليه، ارتاد: طلب النجعة، والمعنى: إذا اغتربت عن وطني وفارقت أحبابي فلأنني أسمو إلى تحقيق آمالي الكبيرة التي أتطلع إلى بلوغها في ظل الأمير العظيم، وهو جدير بتحقيق هذه الآمال.

(٢) الصيد: جمع أصيد وهو الملك المعتز بملكه أو رافع رأسه كبرًا أو الأسد، والمعنى: إذا كنت قد رحلت عن الملوك الصيد فإنني اخترت خيرًا منهم لأنهم بمنزلة العبيد للمعتضد بن عباد، وفي الأصول «ملوكهم عباد» وربما قصد آل عباد، نظير قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ أي أهلها.

(٣) المصانع: جمع مصنع، أو مصنعة وهي السد المائي أو الحصن. وقد تكون مصدرًا ميميًّا من (صنع) إليه معروفًا أي أسداه إليه، وقد تكون محرفة عن الصنائع جمع صنيعة وهي الإحسان، المعنى: عذري وعذر أمثالي في هجرة أوطاننا إلى هذا الملك العظيم أننا نتطلع إلى رؤية قدرته على تشييد الحصون وإقامة السدود المائية أو إلى رؤية مكارمه وأمجاده.

(٤) المعنى: لقد ظنّ بي كثيرون ظنونًا مختلفة، وأوّلوا هجرتي تأويلات عديدة متناقضة، وما دروا أنني هاجرت إلى ملك عظيم سلالة ملوك أمجاد.

(٥) الكون والفساد: تعبيران فلسفيان يدوران حول التكوين والهدم أو الإيجاد والفناء المتعاورين على الحياة، والمنذران هما: المنذر بن امرئ القيس ويسمى المنذر الأكبر بن ماء السماء، وابنه المنذر ويسمى المنذر الأصغر، والمعنى: هل علم من لاموني على الهجرة أنني هاجرت إلى ملك كريم سلالة ملوك أمجاد وأنني رأيت في شخصه المنذرين الأكبر والأصغر قد عادا إلى الحياة؟ (المشهور أن بني عباد ينتسبون إلى بني لخم ملوك الحيرة وقد ظلوا يحكمونها من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٦٣٢م) والشاعر يروي هنا بعض حوادث التاريخ الممزوجة بالأساطير كما كان مؤرخو العرب يعتقدون.

(٦) محرِّق: هو عمرو بن المنذر المسمى بعمرو بن هند، وسُمي محرقًا لأنه حرّق نخل اليمامة أو حرّق مائة من بني تميم في ثأر أخ له في الرضاع، وقد قتله عمرو بن كلثوم حمية لأمه وقال فيه معلقته المشهورة التي مطلعها:

ألا هبي بصـحنك فـاصـبـحـينا

ولا تبـقي خـمـور الأندرينا

والبردان عرضهما المنذر الأكبر على وفود العرب ليأخذهما أعزهم فقام عامر بن أحيمر فأخذهما وارتداهما قائلاً: «العز والعدد في معد ثم في نزار... ثم في بهدلة فمن أنكر هذا فلينافرني» فسكت الناس، والمعنى: نظرت إلى الملك مرتديًا بردي المحرق قشيبين عليه أي أنه استعاد شخصية أسلافه الأمجاد.

وعـــرفتُ من ذي الطَّوق عـــمْـــرو ثـأرَهُ
لجِــــذيمة الـوضَّـــاح حـين يُكادُ[1]

وأتـى بيَ النُّعـمــانَ -يومَ نعـيـمِـهِ-
نجمٌ تـلقَّى ســعـــدَهُ الميـــلادُ[2]

قـــد أُلِّفَتْ أشـــتـــاتُهم في واحـــد
إلا يـكُـنْـهُـم أمــــــةً فــــيَـكادُ[3]

فـكأنـنـي طـالـعْـــتُـــهُمْ بـوفــادة
لـم يســتطِعْــهـا «عُــروةُ» الـوفَّــادُ[4]

في قـــصـــر مَلْك كـــالسَّــدير أو الـذي
نـاطـتْ بـه شُـــرُفـــاتِهـــا سِنْدادُ[5]

---

(١) ملك جذيمة بن مالك الوضاح وينعت بالأبرش الحيرة ثم قصد في جيش كثيف إمارة عمرو بن الظرب العاملي فقتله، ولما تولت الزباء الحكم مكان أبيها عمرو دبرت حيلة قتلت بها جذيمة الأبرش فانتقم له ابن أخته عمرو بن عدّي الذي ورث ملك خاله وأسس أسرة اللخميين بالحيرة، وسبب تسميته بذي الطوق أن أمه كانت تزينه وتضع في عنقه طوقاً فلما كبر قال خاله: «شب عمرو عن الطوق» فسارت مثلا للإنسان يكبر عن الشيء الذي لا يلائمه قال السري:

تصـابى فـأضـحى بعـد سلوته صَبًّـا
وعـاود عـمـرو طوقـه بعـد مـا شـبَّـا

والمعنى: إنني رأيت ملكا قوياً لا يغفل عن حياطة أوليائه كما كان أجداده يفعلون، وجذيمة الأبرش هو صاحب النديمين المشهورين.

(٢) كان للمنذر بن ماء السماء نديمان قتلهما في سكره ثم ندم على قتلهما ثم بنى لهما قبرين يسميان الغريَّين فكان يخرج إليهما يومين في العام، الأول يسمى يوم النعيم يعطي فيه أول من يطلع فيه مائة من الإبل، والثاني يسمى البؤس يقتل فيه أول من يفد عليه، ويقال إنه قتل في هذا اليوم عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي المشهور، وتنسب هذه القصة إلى النعمان بن المنذر، والمعنى: لقد ساقني حظي الحسن إلى الوفود على هذا الملك العظيم كما كان المحظوظون يفدون على جده النعمان في يوم النعيم.

(٣) المعنى: هؤلاء الملوك الصيد قد اجتمعوا في فرد وتمثلوا في شخص هو هذا الملك العظيم الذي يكاد يكون أمة وحده.

(٤) عروة الوفّاد هو عروة بن عُتبة الكلابي، كان يفد على الملوك وكان ذا قدر عندهم، قتله البَرّاض الكناني وبسببه قامت حرب الفجار. وقد وهم محقق الديوان فجعل عروة الوفاد هو عروة بن الورد، شاعر الصعاليك، ثم عدل إلى الصواب في استدراك ما في ديوانه من خطأ. (د.إحسان النص).

(٥) السدير: قصر للنعمان الأكبر بالحيرة وله نظير يسمى الخورنق، وفيهما يقول المخبّل:

فـإذا سَكِرتُ فـإنـني
ربُّ الخـورنق والسـدير
وإذا صـحـوت فـإنني
رب الشـويهـة والبـعـير

وسنداد قصر بالعذيب في ضاحية الكوفة، وفي هذه القصور يقول الأسود بن يعفر:

مـاذا أؤمل بعـد آل مـحـرق
تـركـوا منـازلـهم، وبعـد إيادِ؟
أهـل الخـورنق والسـدير وبارق
والقـصـر ذي الشـرفـات من سِنْدَادِ

والمعنى: نزلت في قصور الأمير فكأنني نزلت قصور آبائه وأجداده الشماء.

نَتَوَهَّمُ الشَّهباءَ فيه كتيبةً
بفِناءِ اليَحْمومُ فيه جَوادُ(١)
يختالُ من سِرِّ الأشاهبِ وسطَهُ
بيضٌ - كمُرهَفَةِ السُّيوفِ - جِعادُ(٢)

✡✡✡✡✡

في «آل عبَّادٍ» حطَطْتُ، فأعصَمَتْ
هِمَمي، بحيث أنافَتِ الأطوادُ(٣)
أهلُ المناذرةِ الذين هُمُ الرُّبا
فوقَ الملوكِ، إذِ الملوكُ وِهادُ(٤)
قوم إذا عُدَّتْ - مَعَدٌّ عقيلةٍ -
ماءُ السَّماءِ، فهمْ لها أولادُ(٥)

---

(١) الشهباء: إحدى كتائب النعمان بن المنذر، والشهباء من الكتائب: العظيمة الكثيرة السلاح، اليحموم: فرس النعمان بن المنذر، والمعنى: كأنني أنزل في قصور المناذرة وأرى حولها كتيبة الشهباء وأشاهد اليحموم جواد النعمان يصول ويجول.

(٢) السرّ: محض النسب وأفضله، الأشاهب: هم بنو المنذر سموا بهذا لجمالهم، جعاد: جمع جعد وهو الكريم أو البخيل ضد، والمراد هنا الكريم، والمعنى: يختال في هذه القصور سلالة المناذرة المشهورون بالوضاءة والجمال مع الشجاعة والكرم، كأنهم سيوف مرهفة المضاء.

(٣) أعصم بفلان: أمسك به، وأعصم بالفرس تشبث بعرفه لئلا يقع، أناف: أشرف، الأطواد: الجبال العظيمة، والمعنى: نزلت على بني عباد فتعلقت بهم عزائمي فسمت بسموهم، حيث ارتقت منازلهم كالأطواد.

(٤) الربا: جمع ربوة وهي المكان المرتفع، والوهاد: جمع وهدة وهي المكان المنخفض، والمعنى: هؤلاء الملوك سلالة المناذرة هم سادة الملوك والمرتفعون فوقهم كما ترتفع الربا على الوهاد.

(٥) عدّ: ظنّ وحسب، قال الشاعر:

فلا تعْدُدِ المولى شريكك في الغنى
ولكنما المولى شريكك في العُدْمِ

وعده معدًا جعله معدودًا يعتد به، عقيلة القوم: سيدهم، وعقيلة كل شيء أكرمه، والعقيلة: المرأة الكريمة النفيسة، أو الدرة الكبيرة الصافية قال ابن الرقيات:

درة من عقائل البحر بكر
لم تخنها مثاقب اللآل

ماء السماء: أم المنذر بن امرئ القيس (المنذر الأكبر) سميت بهذا الإسم لحسنها وليس لها اسم غيره، وقيل إن اسمها هو ماوية بنت عوف بن محلم الشيباني وأبناؤها ملوك العراق «راجع خبر خطبتها لامرئ القيس الحارث بن عمرو في بلوغ الأرب ج٢ ص ١٧» والمعنى: إذا عد الناس ماء السماء في عداد الدرر الكبيرة الصافية فإن بني عباد أبناؤها الأمجاد، فهم درر غالية انحدرت من درة كريمة.

بيتٌ تودُ الشُّهْبُ في أفلاكها
لوْ أنَّها - لبِنائهِ - أوتادُ[1]
ممدودةٌ بِلُهَى النَّدى أطنابُهُ
مرفوعةٌ - بالبِيض منه - عِمادُ[2]
مُتَقادِمٌ، إلاّ تكنْ شمسُ الضُّحا
لِدَةً لهُ، فنجومُها أرآدُ[3]
نِيطَتْ «بعبّادٍ» لآلئُ مجدهمْ
فتلألأتْ - في تُومها - الأفرادُ[4]
ملكٌ إذا فَتَنَتْ صفاتُ جلالهِ
فتقاصرتْ عن بعضِها الأعدادُ[5]
نسِيَتْ زَبيدٌ «عَمْرَها» بل أعْرَضَتْ
عن وصف «كعبٍ» بالسَّماحِ إيادُ[6]

---

(١) المعنى: هم من بيت كريم، تتمنى النجوم أن تكون أوتادًا في أساس أصلهم العريق.

(٢) اللها: جمع لهية أو لهوة وهي أفضل العطايا وأجزلها، الأطناب: جمع طنب وهو الحبل الذي يشد به سرادق الخباء أو الوتد الذي تشد إليه الحبال، البيض: السيوف، والمعنى: قامت أركان هذا البيت على السخاء وارتفعت على قوائم السيوف.

(٣) اللدة: الترب وهو الزميل في الولادة والتربية، أرآد: جمع رأد، ورأد الضحى: هو وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء فيه، والمعنى: هذا البيت قديم في مجده، عريق في شرفه، إن لم يعادل الشمس في قدمه فهو معادل للنجوم.

(٤) نيطت: علقت، التوم: اللآلئ المزدوجة، الأفراد: جمع فرد وهو من لا نظير له، وأفراد الناس: كبارهم، وأفراد النجوم: التي تطلع في آفاق السماء، ولعل الشاعر يقصد «الفرائد» جمع فريدة وهي الدرة النفيسة، والمعنى: تجمعت أمجاد هذه الأسرة العريقة في شخص عباد (المعتضد) فتلألأت أحسابها المزدوجة وآلاؤها الفريدة فيه.

(٥) في نسخة أ «افتتت صفات جلاله» افتنّ في حديثه: أخذ في فنون من القول، فتن: أعجب واستمال، والمعنى: صفات الأمير الجليلة تفتن الناس بوفرتها التي تفوق الأعداد وتتجاوز الحساب.

(٦) زبيد: قبيلة يمنية متفرعة من مذحج، عمرو بني زبيد: هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي من فرسان العرب وشعرائها المعدودين أدرك الإسلام فأسلم، ثم ارتد عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاد إلى الإسلام وأبلى في موقعتي اليرموك والقادسية أحسن البلاء، كعب: هو كعب بن مامة الإيادي من قبيلة إياد العدنانية يضرب به المثل في الجود، وقد آثر زميله بنصيبه من الماء في رحلة له بالصحراء ومات عطشًا، وفيه يقول الشاعر:

يجودُ بالنفس إذ ضن البخيل بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

والمعنى: إذا لاحت صفات الأمير الجليلة فتنت الناس حتى تنسى قبيلة زبيد فارسها وموضع فخرها عمرو بن معد يكرب، وتعرض قبيلة إياد عن جوادها ومناط اعتزازها كعب بن مامة، لأن الأمير فوق الأنداد والنظراء.

فَـــضَحَ الدُّهاةَ، فلو تقـــدمٌ عَـــهْـــدُهُ
لـعَنا «الـمُـــغـــيـــرةُ» أو أقَـــرَّ «زيادُ»[(١)]

لا يـأمـنِ الأعـــــــــداءُ رجـمَ ظُـنـونـهِ
إن الـغـــــيـــــوبَ وراءهـا إمـــــداد[(٢)]

ملكٌ - إذا مـــا اخْـــتـــالَ - غُـــرّةُ فَـــيْلَقٍ
قـــد أُمطِيَتْ عِـــقـــبَـــانَهُ الآسَـــاد[(٣)]

أُسْـــدٌ فـرائـسُـهـــا الـفـــوارسُ في الـوَغَى،
لكنْ براثـنُـهـــا - هـنـاك - صِـــعـــاد[(٤)]

خِلْتَ اللّواءَ غـــمـــامـــةً في ظلِّـهـــا
قَـــمَـــرٌ، بغُـــرّتـهِ السَّنا الوقّـــادُ[(٥)]

☆☆☆☆

(١) المغيرة: هو المغيرة بن شعبة من دهاة العرب المعدودين، وزياد: هو زياد بن أبيه اعترف معاوية بنسبته إلى أبيه أبي سفيان، وهو من الفرسان والخطباء الأفذاذ، والمغيرة وزياد كلاهما والٍ لمعاوية وأساس قوي من أسس خلافته، والمعنى: فاق الأمير بدهائه جميع الدهاة، فلو تقدم به الزمن لخضع له المغيرة ودان له زياد .

(٢) رجم بالظن ورجّم به: رمى به، الإمداد: التقوية والتزويد قال تعالى: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾، والمعنى: إن الأمير يسدد أفكاره فيصيب بها الأهداف في إحكام وإتقان، فكأن الغيب يكشف له ستار المستقبل وما يخفيه من أحداث، ومثل هذا قول أوس بن حجر:

الألمعي الذي يظن بك الظــــ
ــنّ، كأن قد رأى وقد سمعا

وقول البارودي:

له من وراء الغيب أذن سميعة
وعين ترى مــــالا يراه بصــــيــــر

(٣) اختال: تمايل تيهًا وعجبًا، الغرة: بياض الجبهة، أو السيادة تقول: فلان غرة قومه أي سيدهم، وغرة كل شيء أوله وأكرمه، الفيلق: الجيش، عقبان: جمع عقاب من جوارح الطير، والمعنى: يتيه الملك معتزا بشجاعته ويتيه في مقدمة جيشه المكون من فوارس كالأسود تمتطي خيولاً كالعقبان.

(٤) البراثن، جمع برثن، والبرثن من السباع كالأصابع من الإنسان. الصعاد: جمع صعدة وهي قناة الرمح المستوية بطبيعتها، والمعنى: فرسان الأمير أسود كاسرة ولكنها لا تفترس غير الفرسان في ساحة القتال، ونبالها هي الرماح المسددة في الطعان.

(٥) المعنى: إذا أبصرت الأمير في طليعة جيشه حسبت اللواء المنشور فوقه غمامة تظل قمرًا يتلألأ جبينه الوضاء، وقريب من هذا قول المتنبي:

وقـــفت ومـــا في الموت شك لواقف
كـــأنك في جـــفن الردى، وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجـــهك وضّـــاحٌ، وثغـــرك باسم

شَــيْــحـــانُ مُنغــمسُ السِّنانِ منَ العــدا
في النَّقعِ حــيث تَغَلْغَلُ الأحــــقـــادُ(١)
تشكو إليــه الشــمسُ نَقْعَ كــتــيــبــةٍ
مـــا زال منه لِعَـــيْنِهـــا إرمـــــاد(٢)
جـــيشٌ إذا مـــا الأفْقُ ســـافَـــرَ طيـــرُهُ
مَـــعَـــهُ فـــفي ذِمَمِ الصَّـــوارِمِ زاد(٣)
مُـسْـتَطْرِفٌ للمـــجــدِ لم يَكُ حَـسْـبَـهُ
مـــجــــدٌ - يدورُ معَ الزمـــانِ - تِلاد(٤)
مـــا كـــان منه - إلى رَفـــاهةِ راحـــةٍ
حـــتّى يُخَلَّدَ مـــثله - إخــــلاد(٥)
أَرِجُ النَّدِيِّ، مـــتى تفُـــزْ بجــــوارِهِ
يَطِبِ الحـــديثُ ويَعْـــبَقِ [التَّـــرْدَادُ](٦)

---

(١) الشيحان: الغيور أو الطويل أو الحازم أو المسرع، والمعنى: يندفع الأمير إلى ميادين القتال في حمية وحزم غامسًا سنان رمحه في قلوب أعدائه المليئة بالضغائن والأحقاد.

(٢) النقع: الغبار، قال بشار:

كـــأن مـــثـــار النقع فـــوق رؤوسنا
وأســيــافنا ليل تهــاوى كــواكــبــه

الكتيبة: الجيش، والمعنى: يندفع جيش الأمير إلى الأعداء فيثير في الجو غبارًا يصيب عين الشمس بالرمد فتضرع بالشكوى إلى الأمير.

(٣) الصوارم: السيوف القاطعة، والمعنى: اعتادت الطير أن ترحل فوق جيشه لأنها ضامنة أن تجد زادًا لها من جثث أعدائه، وقد نظر الشاعر في هذا إلى قول النابغة الذبياني:

إذا مـــا غـــزوا بالجــيش حلق فـــوقــهم
عــصـــائب طيـــر تهــتــدي بعــصـــائب

(٤) المجد التليد: القديم الموروث عن الأجداد، والطريف: المستحدث، والمعنى: لم يكتف الأمير بما ورثه من مجد قديم بل أضاف إليه مجدًا طريفًا فضم آلاء إلى آلاء.

(٥) أخلد إلى الراحة: مال إليها، قال تعالى ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾: والمعنى: لم يركن الأمير إلى الرفاهية والنعيم اكتفاء بما ورثه من مجد خالد، ولكنه جدّ حتى استحدث مجدًا طريفًا يستحق الخلود وضمه إلى أمجاد آبائه السابقين.

(٦) ورد ختام البيت ناقصًا، وقد أكملناه بما يناسب المقام، أرج: عاطر، النديّ: مجلس القوم ومكان حديثهم ما داموا فيه، والمعنى: يفوز الجالسون إلى الأمير بأحاديثه العطرة الطيبة وتطيب لهم الإعادة ويحسن الترداد.

لـو أن خـــاطِرَهُ الجـــمــيـعَ مُــفَــرَّقٌ

في الخَلـق أوشك أن يُحِسَّ جَـــمـــادُ(١)

☆☆☆☆☆

نفـــسي فـــداؤُكَ!! أيُّهــــا الملكُ الذي

زُهْرُ النجـومِ - لوَجْـهِــهِ - حُــسَّــاد(٢)

تبـــدو عليك - من الوَسَـــامـــة - حُلّةٌ

يـهـفـو إليـهـــا - بالـنفـوسِ - وِداد(٣)

لـــم يَـشْـفِ مـنـك الـعـيـنَ أوّلُ نـظـرةٍ

لـولا المهــــابـةُ راجَــــعَـتْ تـزداد(٤)

مـــا كـــان من خَلـلٍ فـــأنتَ سِـــدادُهُ

- في الدَّهْرِ - أو أَوَدٍ فـــأنـتَ سَـــداد(٥)

الدِّيـنُ وَجْـــهٌ أنتَ فـــيـــه غُـــرَّةٌ

والمُلْكُ جَـــفْنٌ أنت فـــيـــه سَـــواد(٦)

لـلّـهِ مـنـكَ يـدٌ عَـلَـتْ، تُـولـي بـهـــــا

صَـفَـدًا فـيُـحْـمَـدُ، أو يُفَكُّ صِـفـاد(٧)

لـو أنَّ أفـــــواهَ الملـوكِ تـوافَـــقَـتْ

فـــيـهـــا لَوافقَ حَظُّهــا الإسْــعــادُ(٨)

---

(١) المعنى: لو تفرق ذكاؤه وإحساسه على الخلق لأحسَّ الجماد.

(٢) المعنى: أفديك أيها الملك العظيم الذي تحسد وجهه النجوم المتلألئة السناء.

(٣) الوسامة: الجمال، يهفو: يسرع، والمعنى: لقد كساك الجمال حلة قشيبة تجذب إليك القلوب العامرة بالمحبة والوداد.

(٤) المعنى: لم تكتف العيون منك بالنظرة الأولى بل ازداد بها الشوق والوله لمعاودة النظر، وأوشكت أن تردد النظر إليك لولا ما يحفّك من مهابة وجلال.

(٥) الخلل: الفرجة بين الشيئين أو الصدع، الأود: العوج، السداد: ما تسد به الحاجة، السداد والسدد: الاستقامة والصواب، ومن المجاز قولهم: «فيه سداد من عوز» أي ما تسد به الحاجة، والمعنى: إذا كان هناك اختلال في شؤون الحياة ففيك صلاحه وإذا كان هناك اعوجاج فبك استقامته.

(٦) المعنى: لو تمثل الدين وجهًا لكنت أنت جبينه، ولو تجسم الملك عينًا لكنت سوادها الذي تبصر به الأشياء.

(٧) الصفد: العطاء، والصفد والصفاد: ما يوثق به الأسير من قِدّ وقيد وغل، والمعنى: لك يد سامية تمنح العطاء فتستدر الثناء أو تفك الأغلال وتحرر الرقاب.

(٨) المعنى: لو أن أفواه الملوك تلاقت على تقبيل يدك المنعمة لظفرت بأسعد حظ وفازت بأطيب نعيم.

نـفَع الـعُـــــداةَ الـيــــــأْسُ مـنـك، لأنَّـهُ
بـردتْ عـلـيــــه مـنـهـمُ الأكـــــبـــــادُ[١]
يـنصـــاعُ مَنْ جـــاراكَ مــقــبــوضَ الخُطا
فكـأنـمـا عــــضّتْ بـه الأقْـــــيـــــادُ[٢]

☆☆☆☆☆

قـــــد قُلتُ للتـــــالي ثـنـاءَك سُـــورةً
مـــا لِلْوَرَى في نصِّـــهـــا إلحـــادُ:[٣]
«أَعِـــدِ الـحــــديثَ عنِ الـسّـــيـــادةِ، إنَّهُ
لـيس الـحـــــديثُ يُـمَلُّ حـينَ يُعـــــادُ..»[٤]
كَـــرَمٌ كـــمـــاء الـمُـــزْنِ راقَ خِـــلالَـهُ
أدَبٌ كــــروضِ الحَـــزْنِ بـاتَ يُـجــــادُ[٥]
ومَـــحـــــاسِنٌ زَهَـرَ الـزمـــانُ بـزُهْـرِهـا
فـكـأنـمـا أيّـامُــــــهُ أعــــيَـــــادُ[٦]

☆☆☆☆☆

(١) المعنى: لقد يئس الأعداء منك فسكنوا إلى راحة اليأس، وانطوت نفوسهم على أن يتحاموك فقرّت عيونهم بالبعد عن حومة النضال، وفي الأمثال «اليأس إحدى الراحتين».

(٢) انصاع: انفتل راجعًا مسرعًا، الأقياد والقيود: جمع قيد وهو الغل، والمعنى: إذا حاول أحد مجاراتك فإنه لا يلبث أن يرتد منهزمًا يشل الخوف خطاه كأنما أحاطت به القيود والأغلال، وقريب من هذا قول المتنبي:

قَـصَـرتْ مــخــافـتـه الخُطا، فكأنما
ركب الكميُّ جـــــواده مــــــشكولا

(٣) المعنى: قلت لمن يرتل آيات مدحك التي يؤمن بها الجميع ولا يماري في صدقها إنسان «بقية المعنى في البيت التالي».

(٤) المعنى: قلت لمن يرتل مديحك: أعد الحديث عن مجده وسؤدده فإننا لا نمل الإعادة ولا نسأم الترداد، فللتنويه به لذة تتجدد بتجدد المديح.

(٥) المزن: السحاب، الحَزْنُ: ما غلظ وارتفع من الأرض، ورياض الحزن أحسن من رياض الوهاد، قال الأعشى:

مـا روضـة من رياض الحَزن مـعـشـبـة
خـضـراء جـاد عليـهـا مُـسْـبِل هَطِلُ
يومًـــا بـأطيبَ منهـــا نشـــر رائـحـــة
ولا بأحـــــسنَ منهـــا إذ دنا الأُصُلُ

يجاد: يُمْطَرُ بالجود وهو المطر الغزير، والمعنى: للأمير كرم فيّاض مثل السحاب، وله أدب بارع كأزهار الرياض.

(٦) زَهَرَ: أضاء، زُهْرُ النجوم: الوضاءة منها، والمعنى: وللأمير شمائل أضاءت لنا الزمان فأصبحت أيامه مواسم وأعيادًا.

يـأيّـهـــــــا المـلـكُ الـذي – في ظِلّـه –
رِيضَ الزمـــانُ فـــذلٌ منه قِـــيـــادُ[1]
يا خـــيـــرَ «مـــعـــتـــضــدٍ» بمن أقْــدارُهُ
– في كلّ مُـــعْـــضِلَةٍ – له أعــضـــادُ[2]
لما وردتُ – بوِرْدِ حــــضـــرتِكَ – الـمُنَى
فَــهِــقتْ لديَّ جِــمــامَــهـــا الأعـــداد[3]
فـاسْـتَـقْـبَلَتْني الشـمسُ تبـسُطُ راحــةً
للبـحـر – من نفـحـاتهـا – اسْـتِـمـداد[4]
فلئنْ فَـــخَـــرْتُ – بما بَلَغْتُ – لَقلَّ لي
ألا يكونَ منَ النّجــــومِ عَـــتـــــاد[5]
مـهـمـا امْـتَـدَحْتُ سـواك – قـبلُ – فـإنما
مـــدحي – إلى مـــدحي – لكَ اسْـتِطْراد[6]
يَغْـشَى الميـادينَ الـفـوارسُ – حِـقْـبـةً –
كـــيْـــمـــا يُعَلِّمَـــهـــا النزالَ طِراد[7]
فَـــلأسْـــحـــبَنْ ذيلَ الـمُنى في ســاحـــةٍ
– إلاّ أوَفّ بـهـــــا الـمُنَى – فـــأُزاد[8]

(١) راض الفارس جواده: ذلله وسهل قياده، ريض الزمان: سهل قِيَادُهُ وتيسر صعبةُ، والمعنى: أيها الأمير لقد روضت لنا الدهر فأسلس قياده ولان جانبه بعد نفور وجماح.

(٢) أعضاد: جمع عضد وهو الساعد أو الناصر والمعين، والمعنى: لقد استعنت بالله – وأنت به خير مستعين – فجعل الأقدار عونًا لك في الشدائد والملمات.

(٣) فهق الإناء: امتلأ، الجمام: المياه الغزيرة، الأعداد: جمع عد وهو الماء الجاري الذي لا ينقطع، والمعنى: لما وردت على منهلك العذب تحققت آمالي وفاضت سحائب جودك فغمرتني بفيضها الذي لا يغيض.

(٤) المعنى: لما وردت عليك استقبلت منك شمسًا وضاءة الجبين لها يد سخية يتعلم البحر منها السخاء، ويستمد منها العطاء.

(٥) في نسخة ت «بما بنيت»، العتاد: العدة، والمعنى: إذا افتخرت بما بلغته لديك من منزلة سامية فقد حق لي التيه والافتخار لأن النجوم أمست أقلّ من أن اتخذ منها عدة أو عديدًا بعد أن نلت منك خير عدة وعتاد.

(٦) المعنى: إذا كنت قد مدحت قبلك الملوك والأمراء فإنني لم أكن أعنيهم بالثناء، وإنما اتخذتهم هدفًا أتدرب عليه لأجيد المدائح، وحينئذٍ أخصك بها لأنك أحق بها من كل إنسان.

(٧) الطراد: الكر والفر في ميادين القتال، والمعنى: تدربت على مدح غيرك حتى إذا استوفيت الدربة قصرت مدائحي عليك، شأني في هذا شأن الفرسان الذين يتدربون على النزال قبل الاشتراك في القتال.

(٨) المعنى: لأسحبن في ساحتك ذيول آمالي التي أتوقع تحقيقها على يديك، وإذا لم أنلها كاملة لديك فأنال خيرًا منها وزيادة عنها مما لم يكن يجري لي على بال.

وَلَيَسْتَفِيدَنَّ السَّنَاءَ مع الغِنَى
عبدٌ يُفيدُ النُّصْحَ حين يُفادُ[1]

ولأنتَ أنْفَسُ شيمةً مِنْ أنْ يُرى
- لنفيس أعلاقي لَدَيْكَ - كسادُ[2]

هيهاتَ!! قد ضَمِنَ الصَّباحُ لمن سَرى
أن يَسْتَتِبَّ لسَعْيِهِ - الإحْمادُ[3]

لا تَعْدَمَنَّ مِنَ الحُظوظِ ذخيرةً
تَبْقَى، فلا يتلو البَقاءَ نَفادُ[4]

****

(١) السناء: الرفعة، والمعنى: إنني عبد أتقدم لك بالنصيحة الخالصة والرأي السديد، وجدير بمن يخلص لك أن ينال لديك المنزلة السامية والمال الجزيل.

(٢) شيمة: خلق، الأعلاق: جمع علق وهو النفيس من كل شيء، والمعنى: إنك أسمى خلقًا وأكرم نفسًا من أن تكسد مواهبي عندك، ويضيع ذكائي لديك.

(٣) هيهات: بَعدُ، يستتبُّ: يستقر، أحمد: صار أمره إلى الحمد، المعنى: هيهات أن تضيع مواهبي عندك فإنك كفيل بتقدير الرجال وتمييز الجهود، وأنت تعلم أن كل من سرى في الليل واحتمل المشقة فيه جدير بأن يبلغ غايته عند الصباح، وفي الأمثال «عند الصباح يحمد القوم السرى».

(٤) المعنى: أسأل الله أن يدخر لك من الحظوظ أسعدها وأبقاها فلا ينتهي لك نعيم ولا ينفد لك صفاء.

النصر الحاسم

نشبت حروب طاحنة بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس انتهت بانتصار المعتضد سنة ٤٤٣هـ[١]، وكان إسماعيل ابن المعتضد وولي عهده قائد جيوشه، فسجل الشاعر هذا النصر وقال مادحًا الأمير وابنه:

لِيَهْنِ الهُدى إنجاحُ سَعْيِكَ في العِدا
وأنْ راحَ صُنْعُ اللهِ نَحْوَكَ واغْتَدى[٢]
ونَهْجُكَ سُبْلَ الرُّشدِ في قَمْعِ من غَوَى
وعدلُكَ في استئصالِ من جارَ واعْتَدى[٣]
وأن بات مَنْ والاكَ في نشوةِ الغِنَى
وأصبح من عاداكَ في غَمْرَةِ الرَّدى[٤]
وبُشراكَ دنيا غضّةُ العهدِ طلقةٌ
كما ابتسمَ النُّوارُ عن أدْمُعِ النَّدى[٥]
ودولةُ سَعْدٍ لا انتهاءَ لِحدِّهِ
إذا قيلَ فيه قد تَناهى تولّدا[٦]

---

(١) أراد المعتضد فتح إقليم لَبْلِه فاستغاث أميره فتح بن يحيى بحليفه المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، فأغاثه، ولكن فتح بن يحيى نقض حلفه مع المظفر وانضم إلى المعتضد فصادر المظفر أمواله عنده وانقض على إمارته، فاستغاث بالمعتضد حليفه الجديد فخف إليه وأغاثه، فاستنجد المظفر بحليفه اسحق بن عبدالله أمير قرمونة فأمده بجيش يقوده ابنه العز، والتقى الفريقان في معركة طاحنة انتهت بانتصار جيش المعتضد بقيادة ابنه وولي عهده، اسماعيل، وقتل في هذه المعركة العز بن اسحق قائد جيش قرمونة وعبدالله الخزاز ابن عم المظفر بعد أن تثاقل البربر عن نصرتهما.

(٢) في بعض نسخ الذخيرة «... نحوك أوغدا»: الصنع: الجميل والمعروف، المعنى: هنيئًا للهدى أن الله نصرك على الأعداء وأن إحسانه توالى عليك في الغدو والرواح.

(٣) المعنى: هنيئًا للدين أنك سلكت في خدمته سبيل الرشاد لتأديب الغواة الضالين، وأنك التزمت العدالة في القضاء على البغاة الظالمين.

(٤) والاك: ناصرك، النشوة: السكرة أو الرائحة الطيبة، الغمرة: الشدة، غمرات الموت: شدائده، والمعنى: هنيئًا للدين أن مناصريك فازوا بوفرة المال، وأن أعداءك تجرعوا غصص الوبال.

(٥) المعنى: هنيئًا لك إقبال الدنيا عليك فتيّة الصبا متهللة الأسارير متبسمة كما تتبسم الأزهار عن قطرات الندى.

(٦) المعنى: وهنيئًا لك الملك السعيد غير المحدود، إذا ظنه الرائي قد تم تمامه اتسعت أمامه رقعته وانفسحت مساحته من جديد.

دعـوتَ، فـقـال النَّصْـرُ: «لَبَّيْكَ» مـاثلاً

ولم تكُ كـالداعي يُجـاوبُهُ الصَّـدى[1]

وأحْمَدْتَ عُقْبَى الصَّبـرِ في دَرك المُنى

كمـا بلغ السَّاري الصَّبـاحَ فـأحـمـدا[2]

✵✵✵✵

«أعـبَّـادُ» يا أوْفَى الملوك بذمَّـةٍ

وأرعـاهمُ عَـهْـدًا وأطولَهُمْ يدا[3]

تبـاينتَ في حـالَيْكَ: غُـرْتَ تواضُـعًـا

لتسـتوفيَ العَلْيـا، وأنْجَدْتَ سُـؤْدَدا[4]

ولما اعـتَـضَـدْتَ اللّهَ كنتَ مـؤهَّلاً

لديه لأنْ تُحـمَى وتُكفَى وتُعْـضَـدا[5]

وجـدناكَ إنْ ألقَـحْتَ سَـعْـيًـا نَتَـجْـتَـهُ

وغـيـرُك شـاوٍ حين أنْضَجَ رَمَّـدا[6]

---

(١) ماثلاً: منتصبًا، الصدى: رجع الصوت، والمعنى: ما كدت تدعو الله حتى لباك النصر ماثلاً أمامك، وربما دعاه غيرك فلم يجبه إلا رجع صوته في الدعاء.

(٢) الدرك: الوصول إلى الشيء، الساري: المسافر ليلاً، وفي الأمثال «عند الصباح يحمد القوم السرى» أي يرتاحون لبلوغ أهدافهم بعد ما بذلوه من مشقات السفر في الظلام، قال خالد بن الوليد:

عند الصبـاح يحـمـد القـوم السـرى

وتنجلي عنهم غـيـاهب الكرى

والمعنى: صبرت في ميادين القتال فجنيت النصر الحاسم على الأعداء، كما يحمد الساري عاقبة جهده عند الصباح.

(٣) المعنى: إنك أوفى الملوك وعدًا وأصونهم عهدًا وأكرمهم يدًا.

(٤) غار: هبط إلى الغور وهو المكان المنخفض، وأنجد: ارتفع إلى النجد وهو المكان المرتفع، والمعنى: أراك جمعت النقيضين فقد تواضعت لتستوفي الشمائل الطيبات وارتفعت مما أحرزته من سؤدد وفخار.

(٥) في بعض نسخ الذخيرة «اعتمدت الله» وفي بعضها «دعوت الله» وفي جميع نسخها «بأن تحمى»، والمعنى: لما استعنت بالله كنت أهلاً لأن يحميك ويغنيك ويمدك بالنصر والتأييد.

(٦) ألقح البعير الناقة: نزا عليها فحملت منه، قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي ملقحة للنبات لأنها تحمل مادة التذكير إلى أعضاء التأنيث في الأزهار، نتج الناقة: والى رعايتها حتى تضع، ومن الأمثال «هل تنتج الناقة إلا لمن لقحت له»، والمعنى: إن الولد لن يشبه إلا أباه، الشاوي: واضع اللحم على النار، رمده: وضعه في الرماد، ومن الأمثال «شوَى أخوك حتى إذا أنضج رمَّد»، والمعنى: إنه أحسن الشواء ثم ألقاه أخيرًا في الرماد، أي أنه فعل خيرًا ثم ختمه بشر، والمعنى: إنك إذا فعلت خيرًا أنجزتَه وبلغت أطيب التمام، وسواك إذا بدأ خيرا ختمه بأقبح الإساءات.

وكم ســــــاعَـــــدَ الأعـــــداءَ أوَّلُ مَـطْـمَـعٍ

رأوكَ بـعُـــقْـــبـــاهُ أحقَّ وأسْــــعَـــدا[1]

فـلا ظـافـرٌ إلاّ - إلى سَـعْـدِكَ - اعْـتَـزى

ولا ســائسٌ إلاّ بـتــدبـيــركَ اقْــتَــدى[2]

☆☆☆☆☆

ضــلالاً لـمَــفْــتــونٍ سَـمَـوْتَ بحــالهِ

إلى أن بَدَتْ - بينَ الفَـراقِدِ - فَـرْقَـدا[3]

رأى حظَّهــــا أوْلَى بـه، فــــأحَلَّهــــا

حـضـيـضًـا بكُفـرانِ الصَّنيـعَـةِ أوْهَدا[4]

ومـــــا زادَ - لما لَجَّ في البَـــغْـيِ - أنَّهُ

سَـعَى للذي أصلحتَ منهـا فـأفسـدا[5]

فــذلَّ، وقــد أمْطَيْـتَـهُ ثَبَجَ السُّـهــا

وضَلَّ، وقـد لَقَّـيْـتَـهُ قَـبَسَ الهُـدَى[6]

---

(١) المطمع: ما يطمع فيه، والمعنى: كم اندفع الأعداء إليك يحدوهم الطمع فيك، وغرهم أول اللقاء ثم جاءت العاقبة بغير الظفر الذي أملوه، وكنت أنت به جديرًا وسعيدًا، ولعل الأصوب «وكم أسعد».

(٢) المعنى: لن يظفر أحد إلا إذا انتمى إليك، ولن يفلح سائس إلا إذا اقتدى برأيك وحسن تدبيرك.

(٣) المعنى: ما أضل سعي هذا المفتون المغرور الذي توليته بالرعاية والعناية حتى رفعت منزلته إلى النجوم ثم خان عهدك وجحد نعماك.

(٤) الحظ: النصيب أو هو خاص بالنصيب من الخير والفضل، أولى به: أحق به وأجدر، الحضيض: القرار المنخفض من الأرض، وفي الحديث «أنه أهديت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فلم يجد شيئًا يضعها عليه فقال ضعها بالحضيض فإنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد» يعني ضعها بالأرض، الصنيعة: الإحسان، أوهد: أخفض، والمعنى: رأى عدوك نفسه أهلاً للمنزلة السامية التي أنزلته إياها فكفر نعمتك وأنزلها في الحضيض بعد أن كانت في أوج العلاء، وفي نسخة ت «أوفى به» أي أتم، وفي الخريدة «فأحطها».

(٥) لج في البغي: تمادى في الظلم، والمعنى: لمّا لج خصمك في عناده لم يسئ إليك، ولكنه أساء إلى نفسه وأفسد ما أصلحته من أحواله.

(٦) آثرنا رواية الخريدة، وفي الأصول «فدل»، الثبج: الوسط أو معظم الشيء أو صدر القطا، السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى يمتحن الناس به أبصارهم، والمعنى: لقد أعززت هذا العدو فاجتهد في إذلال نفسه، وأنرتَ له السبيل فلجّ في الضلال.

طويلُ عِـــثـــارِ الجُـــرْمِ قلتَ لـه: «لَعًـــا»

بحِلمٍ تلقّى جَـــهْلَهُ فَـــتَـــغَـــمَّـــدا[١]

تَجَنَّى، فـأهديتَ النصيـحـة مَـحْضَـةً،

ولـجَّ، فـــوالَيْتَ العِـــقـــابَ مُـــرَدَّدا[٢]

ولـم تـألُهُ بُقْـــيَـــا عليـــه تَنَظُّرًا

لِفَـيْـئَـةٍ مَنْ أكـرمـتَـهُ فـتـمـرّدا[٣]

فـــمـــا آثَرَ الأوْلَى، ولا قَلَّدَ الحِـــجى،

ولا شكر النُّعْـمَـى، ولا حَـفِظَ اليَـدا[٤]

كـــأنك أهديَتَ السَّـــوابحَ ضُـــمَّـــرًا

ليـركُضَـهـا - في مـا كرهتَ - فيُجْهِـدا[٥]

وأجْـــرَرْتَهُ ذيلَ الحَـــبِـــيـــرِ تألُّفًـــا

لِيَـخْلُقَ - في مـا جـرّ - حِقـدًا مُـجـدّدا[٦]

---

(١) لعًا: دعاء للعاثر بأن ينهض من كبوته، ومثله دع ودعدع وهي أسماء أفعال، قال رؤبة:

وإن هوى العـــاثر قلنا دعـــدعـــا

له، وعـــالينا بتنعـــيش لعـــا

تغمده بإحسانه: غمره به، والمعنى: طالما أقلت عثرته بحلمك وغمرت ذنوبه بعفوك، وهو سادر في الضلال.

(٢) تجنى: ادّعى الذنوب على الأصدقاء ليجد الوسيلة للجفاء، لجّ: تمادى في عناد، والمعنى: لقد أخذ يَتَمَحَّلُ الأسباب للمجاهرة بالعداء فنصحته فلما أبى قبول النصيحة وأصر على جحوده واليت عليه أنواع العقاب.

(٣) لم تأله نصحًا: لم تقصر في نصيحته، البقوى والبقيا والبقيّة: الانتظار وترقب الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿بقية الله خير﴾ أي طاعة الله وانتظار ثوابه، أو الحالة الباقية لكم من الخير، أو الباقيات الصالحات، الفيئة: العودة، والمعنى: لم تدخر وسعًا في ترقب توبته ورجوعه إلى الصواب ولكنه كلما بالغت في إكرامه تمرد، وشبيه بهذا قول المتنبي:

إذا أنت أكـــرمت الكريم ملكتـــه

وإن أنت أكـــرمت اللئـــيم تمردًا

(٤) الأولى: الأحرى والأفضل، الحجى: العقل، اليد: النعمة، والمعنى: لقد خالف الصواب فما فعل الأفضل، ولا اتبع صوت العقل، ولا شكر الجميل، ولا حفظ الإحسان.

(٥) السوابح: الخيل المسرعة كأنها تسبح في الهواء، الخيل الضمر: الملفوفة غير المترهلة وهي أسرع في السباق، والمعنى: كأنك قد وهبت له الخيل المطهمة ليجريها في الإساءة إليك حتى يصيبها بالجهد والإعياء.

(٦) الحبير: الثوب الناعم الجديد، والمعنى: خلعت عليه ثياب نعمائك فكلما جرر ذيولها امتلأت نفسه حقدًا عليك.

سلِ الحائنَ المُغْتَرَّ: كيفَ احْتِقابُهُ

- معَ الدهرِ - عارًا بالفَرارِ مُخَلَّدا؟[١]

رأى أنَّهُ أضحى هِزَبرًا مُصَمِّمًا،

فلم يَعْدُ أن أمسَى ظَليمًا مشرَّدا[٢]

يَوَدُّ - إذا ما جنَّهُ الليلُ - أنَّهُ

أقامَ عليه - آخرَ الدهرِ - سَرْمَدا[٣]

يُحاذِرُ أنْ يُلْفَى قتيلاً مُعَفَّرًا

- إذا الصبحُ وافَى، أو أسيرًا مقيَّدا[٤]

☆☆☆☆

لبئسَ الوفاءُ استَنَّ في «ابنِ عقيدِهِ»

عشيَّةَ لم يُصْدِرْهُ من حيث أَوْردا[٥]

قرينٌ له أغواهُ، حتى إذا هَوَى

تَبَرَّأَ، يَعْتَدُّ البراءةَ أرشدا[٦]

---

(١) في الذخيرة «سل الخائن»، الحائن: الأحمق، وفي الأمثال «أتتك بحائن رجلاه» أي قادته رجلاه إلى الهلاك على يديك، المغتر: المغرور، احتقابه: ادّخاره، والمعنى: سل هذا الأحمق المغرور كيف اندفع إلى مجاهرتك بالعداء فلما رأى بأسك بادر بالفرار فاكتسى به سبة الأبد، وفي نسخة أ، ب، ت «بالعرار» وقد آثرنا رواية الذخيرة وتمام المتون ونسخة ت.

(٢) في نسخة ت «أنه يضحى»، الهزبر: الأسد القوي، المصمم: الماضي في عزمه إلى غايته، الظليم: ذكر النعام، والمعنى: لقد اغترّ بنفسه فحسب أنه أسد كاسر فلم يلبث أن فر مشردًا كالنعام، ومثل هذا قول المتنبي:

فأتيت مُعْتَزِمًا ولا أَسَدٌ

ومَضَيتَ منهزمًا ولا وَعِلُ

الوعل: التيس الجبلي.

(٣) آثرنا رواية الذخيرة وتمام المتون ونسخة ت، وأما بقية الأصول فهي «دهاه إذا ما جنه الليل»، جنه الليل وأجنه وجنّ عليه: ستره، سرمدًا: دائمًا، والمعنى: يتمنى من شدة رعبه إذا ستره الظلام أن يظل الليل مقيمًا عليه طول الحياة، وفي الذخيرة «آخر الليل».

(٤) المعنى: إنه من رعبه يخشى انبلاج الصباح لأنه يتوقع فيه الأسر أو الهلاك.

(٥) العقيد: المعاهد، ويشير هنا إلى العز بن اسحق الذي أرسله أبوه إسحق بن عبدالله أمير قرمونة على رأس جيش لنجدة المظفر فقتل في المعركة وحز رأسه وأضافه المعتضد إلى خزانة الرؤوس التي كان يحتفظ بها في قصره، والمعنى: بئس ما صنعه من تخليه عن ابن حليفه وتركه معفرًا في ميدان القتال حيث ورد ولم يستطع الصدور.

(٦) المعنى: لقد استنجد بحليفه وأغواه حتى أورده موارد الهلاك، ثم تخلى عنه متبرئًا منه معتقدًا أن هذا هو طريق الرشاد، والشاعر هنا يستوحي الآية الكريمة عن الشيطان ﴿إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾.

فـأصـبح يَبْكيـهِ الـمُـصـابُ بثُكْلِهِ،

بُكاءَ «لبـيـدٍ» حين فـارقَ «أرْبَدا»(١)

☆☆☆☆☆

فِـداءٌ لإسـمـاعـيلَ كلُّ مُـرشَّحٍ

إذا جُـشِّمَ الأمْـرَ الجَـسـيمَ تبلَّدا(٢)

أفـادَ مِنَ الأمـلاك حِـدْثانَ نَسلِهِمْ

مَـواليَ، لم يَشْكُ الصَّدِي منهمُ الصَّدى(٣)

أعـاد الصّـبـاحَ الطلقَ ليـلاً عليـهمُ

فـحـارَ، وثَنَّى ناظرَ الشَّمْسِ أرمـدا(٤)

---

(١) المعنى: أصبح إسحق أمير قرمونة يندب ابنه العز ويبكيه كما بكى لبيد على أخيه أربد، وخلاصة قصتهما هي أن أربد – أخا لبيد لأمه – وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل ورهط من قومهما، فقال عامر للنبي (ص): أتجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني وليَّ الأمر من بعدك وأسلم؟ فقال (ص): اللهم اكفني عامرًا واهد بني عامر، فانصرف وهو يقول: لأملأنَّها عليك خيلاً جردًا ورجالاً مردًا، ولأربطن بكل نخلة فرسًا، فطعن في طريقه (أي أصابه الطاعون) فمات، أما أربد فأصابته صاعقة فأحرقته فرثاه لبيد بقصيدته المشهورة:

بلينا، ومـا تبلى النجـوم الطوالعُ

وتبـقى الديار بعـدنا والمصـانعُ

(٢) مرشح للولاية: مهيأ ومؤهل لها، جُشِّمَ: كُلف، والمعنى: فداء لإسماعيل – ابن المعتضد وولي عهده وقائد جيشه – كل مهيأ لتولي السلطان إذا كلف أمرًا قعدت به البلادة والإحجام.

(٣) في الأصول «أفاد من الأملاك حدثان فشلهم» والمعنى فيها مضطرب ولعلها: «أفاد من الأملاك حدثان قتلهم» بمعنى أنه اقتص من هؤلاء الملوك لإحداثهم قتل الأطفال العاجزين الذين لا يستطيعون الكلام. وإن كان يضعفه أن المفعول لأجله هنا (حدثان) يجب جره باللام، ولعل الصواب ما أثبتناه، الحدثان: الفتيان يقال هم غلمان أحداث السن وحدثانها، أو قرب العهد وفي الحديث «لولا حدثان قومك بالكفر لهدمت الكعبة وبنيتها» أو مصدرًا للفعل حدث بمعنى وقع، أو أول الأمر وابتداؤه، الموالي: جمع مولى وهو العبد أو المعتَق أو المعتِق أو الصاحب أو القريب أو الحليف أو الشريك، الصدِي: الظمآن، الصدَى: العطش، والمعنى: لقد استفاد ابنك اسماعيل من ملوك الأعداء أنه أسر أبناءهم وهم في حالة من الذعر أخرست ألسنتهم حتى لا يشكو الظامئ منهم ظمأه، واتخذ منهم عبيدًا وعتقاء.

(٤) في الأصول «فجاء، وأثنى» وهي عبارة ركيكة، فضلاً عن أن الفعل أثنى لا يناسب المعنى هنا، ولعل الصواب ما أثبتناه، حار: رجع، ثنَّى: أتى بأمر ثان، فإن الرجل إذا فعل أمرًا ثم ضم إليه أمرًا آخر قيل ثنى بالأمر الثاني، والمعنى: إن اسماعيل قلب الصباح المشرق فأعاده ليلاً مظلمًا على أعدائه بما أثاره من غبار المعركة، فعاد إليهم ظلامه المطبق وثنى فأصاب ناظر الشمس بالرمد.

فـــجَلَّ هـلالاً - في ظلام عَـــجــاجـــةٍ -
تُـلاحِظُـهُ الأقــمــارُ في الأفْقِ حُــسَّــدَا[١]

يُراجِـمُ مـن «صِنْـهـــاجـــةٍ» و«زِنـاتـَةٍ»
- بمثل نجـومِ القَـذْفِ - مَـثْنَى ومَـوْحَـدا[٢]

هـمُ الأولـيـــاءُ المانِحـــوكَ صَـــفــاءَهُمْ
إذا امــتــازَ مُـصــفي الـودِّ مِـمَّنْ توَدَّدا[٣]

لـهمْ كلُّ مـــيــمـــونِ النَّـقـــيــبـــةِ بـازلٍ
كـفـيـلٍ بأنْ يَسْـتَـهْـزِمَ الجَـمْعَ مُـفْـرَدا[٤]

يُسُـــرُكَ في الهَـــيْــجـــا إذا جَـــرَّ لامَـــةً
ويرضـيكَ في الـنادي إذا اعْـتَـمَّ وارتدى[٥]

✲✲✲✲✲

كــرهـتَ - لِسَـــيْفِ الـمُلْكِ - أُلفَـةَ غِـمْـدِهِ
وقلَّ غَنـاءُ الـسَّـيْفِ مــا كــان مُـغْـمَـدا[٦]

ولـم تَرَ لـلشِّـــبلِ الإقـــامـــةَ في الـشَّـــرى
فَـجَـدَّ افـتـراسًـا حينَ أصْـحَـرَ لـلعـدى[٧]

---

(١) في نسخة ز «فحل هلالا»، العجاجة: الغبار، والمعنى: ما أجله حينما يشرق في غبار الحروب كالبدر المنير فتحسده الأقمار في صفحة السماء.

(٢) راجم في الكلام والعَدْوِ والحرب: بالغ بأشد مساجلة، وتراجموا بالحجارة: تراموا بها، نجوم القذف: الشهب التي تصيب الشياطين، مثنى وموحدا: مزدوجة ومفردة، والمعنى: يقذف الأمير أعداءه بفرسان أشداء من قبيلتي صنهاجة وزناتة أزواجًا وآحادًا كما تقذف الشهب الشياطين.

(٣) الأولياء: جمع ولي وهو النصير أو الصديق، تودَّد إليه: تحبب، وتودده: اجتلب مودته، والمعنى: فرسان قبيلتي صنهاجة وزناتة هم الأنصار المخلصون لك مودتهم، وشتان بين من يصفي الود ومن يتكلفه ويتصنعه.

(٤) ميمون: مبارك، النقيبة: النفس، البازل: الرجل الكامل في تجربته، والمعنى: هؤلاء الفرسان فيهم كل رجل كامل مجرب مبارك النفس كفيل بأن يحاول وحده هزيمة جيش بأكمله.

(٥) الهيجاء: الحرب، اللأمة واللامة: الدرع، اعتم: لبس عمامة، ارتدى: لبس الرداء، والمعنى: يرضيك كل فارس فيهم إذا سحب درعه لمباشرة القتال ويروقك إذا لبس عمامته وارتدى حلته وتصدر مجالس الرجال في المنادمة حين السلام.

(٦) المعنى: أيها الملك العظيم لقد سللت من ابنك سيفًا بتارًا على الأعداء، وحين أبرزته من غمده ظهر مضاؤه، وقلّما يظهر مضاء السيف إذا ظل مغمدًا في القراب.

(٧) الشرى: طريق في سلمى كثيرة الأسود، أصحر: خرج إلى الصحراء، والمعنى: لم ترض لشبلك أيها الملك أن يقيم بغابته فأبرزته لقتال الأعداء بالصحراء فأمعن فيهم افتراسًا وتقتيلاً.

هُمـــامٌ!! إذا حـــاربتَ فـــارفعْ لـواءَهُ،

فــمـــا زال منصـــورَ اللواءِ مُـــؤَيَّدا[1]

ويَـأنَفُ من لِينِ الـمِـــهـــادِ تَعَـــوُّضًـــا

بصَـــهـوةِ طيّـارٍ - إلـى الرَّوْعِ - أجْــرَدا[2]

وقِــدْمًـا شكا حَــمْلَ التَّــمـائمِ يافـعًــا

لـيَـــحْــمِلَ رقـــراقَ الفِــرِنْدِ مُـــهَنَّدا[3]

ولـم نـر سَـــيْـــفًـــا باتِكَ الحَـــدِّ قَـــبْلَهُ

تـنـاوَلَ سَـــيْـــفًـــا دونه فَـــتَـــقَلَّدا[4]

☆☆☆☆

لـئنْ أنْجَـــزَتْ منه الشَّـــمـــائلُ آخِـــرًا

لقـد قَـدَّمَتْ منه الـمَـخـايِلُ مَـوْعِـدا[5]

---

(١) الهمام: الملك العظيم الهمة، والمعنى: إن ابنك أمير عظيم الهمة قوي العزيمة فوله قيادة جيوشك واعقد عليه اللواء فلا يزال يلقى من الله النصر والتأييد.

(٢) يأنف: يستنكف، المهاد: الفراش، صهوة: مقعد الفارس على فرسه، الروع: الفزع، جواد أجرد: قصير الشعر رقيقه، أو جواد سباق، والمعنى: يستنكف الأمير أن يطمئن على الفراش الوثير ويؤثر عليه متن جواد سباق إلى القتال وشبيه بهذا قول عنترة:

تُمـــسي وتصـــبح فـوق ظهـر حـشـيـةٍ

وأبيت فــــوق ســـــراة أدهم مُلجَمِ

وحـشـيَّـتي ســرج على عـبل الشـوى

نهـــد مــــراكله نبـــيل المحـــزمِ

(٣) التمائم: جمع تميمة وهي ما يعلق على الطفل لحمايته من حسد العيون، أيفع الغلام: شب فهو يافع، الرقراق: اللامع الوضاء، الفرند: السيف الذي لا نظير له أو حليته وجوهره أو ما على صفحتيه من الوشي، سيف مهند: مشحوذ بتار أو منسوب إلى الهند وكانت تجيد صناعة السيوف، والمعنى: شب الأمير منذ طفولته يضيق بحمل التمائم المعلقة على الأطفال ويؤثر عليها حمل السيف البتار.

(٤) سيف باتك الحد: قاطع مرهف، والمعنى: الأمير كالسيف القاطع في عزمه ومضائه ولم نر قبله حسامًا تقلد حسامًا.

(٥) الشمائل: جمع شمال وهو الخلق، المخايل: جمع مخيلة وهي الظن أو المظهر، والمعنى: إذا كان الأمير الآن تام الفضائل بارع المحاسن فلقد رأينا منه في طفولته بشائر وعلامات تنبئ بما نتوقعه له من مستقبل عظيم، قال أبو تمام في رثاء طفلين:

لهـفي على تلك المخـايل فـيـهـمـا

لو أمـــهلت حـــتى تكون شـــمـــائلا

قَــــررتَ به عَـــيْنًا! فكم ســـــادَ عِــتْـــرَةً

وكم ســاسَ سلطانًا، وكم زانَ مَـشْـهَـدا[1]

وأُعطِيـتـمـا - في مـا تُريـغـانِهِ - الرّضى،

وُبلِّـغْـتُـمــا - مِـمّـا تريدانِهِ - الـمَـدَى[2]

****

(١) عترة الرجل: نسله ورهطه الأدنون، والمعنى: أقر الله بالأمير عينيك وأسعد به قلبك!! فكم ساد عشيرته وكم أحسن سياسة رعيته وكم زان مواقف المجد والفخار.

(٢) أراغ: أراد وطلب، المدى: الغاية، والمعنى: أدعو الله أن يهب لكما من الآمال ما تحبان وأن يبلغكما من الغايات أقصى ما تريدان.

كعبة الآمال

«في عيد الأضحى سنة ٤٤٦هـ أنشد الشاعر هذه القصيدة مهنئًا المعتضد بالعيد، مشيدًا بفتكه بأمراء الأقاليم المجاورة له(١) وفي مقدمتها حنين إلى ولادّة كما ذكر ابن خاقان».

أمـا في نسـيمِ الريحِ عَـرْفٌ مُـعَـرِّفُ
لنا: هل لِذاتِ الوَقْفِ بالجِـزْعِ مَـوْقِفُ؟(٢)

فنقـضـيَ أوطارَ الـمُنَى من زيـارةٍ
لنـا كَلَفٌ منـهـا بما نتكـلّف(٣)

ضَـمـانٌ علينا أن تُزارَ، ودونَـهـا
رِقـاقُ الظُّبـا والسَّـمْـهَـرِيُّ الـمُـثَـقَّفُ(٤)

---

(١) زار المعتضد بعض أمراء الأقاليم الصغيرة المجاورة له ليستطلع أحوالها ويرشو زعماءها للانضمام إليه، وعند زيارته لابن قرّة أمير رندة فكر في اغتيال المعتضد وهو في ضيافته، ولكن أميرًا من أقاربه هو معاذ بن قرة قبح لأسرته الغدر بالضيف، وأدرك المعتضد المؤامرة فتظاهر بأنه لم يعلم شيئًا، واحتال حتى عاد إلى إشبيلية، وبعد بضعة أشهر استضاف ابن نوح أمير مورور وابن قرة صاحب رندة وشريس وابن خزرون صاحب أركش، فوفدوا عليه مع أتباعهم من الأمراء والعظماء، فأقام لهم الولائم الفاخرة ثم أعد لهم حمَّامًا، وبينما هم ينعمون فيه أوصد بابه عليهم ورفع درجة حرارته حتى ماتوا جميعًا اختناقًا، وكانوا يناهزون الستين، واستثنى من الاغتيال معاذ بن قرة الذي أبى اغتيال المعتضد حينما كان في ضيافة بني قرة، فحفظ المعتضد له صنيعه وأكرمه وغمره بإنعامه، واستولى على أقاليم هؤلاء الأمراء بعد اغتيالهم.

(٢) في القلائد والخريدة وسرح العيون «... عرف يعرف» العرف: الريح طيبة أو خبيثة والأشهر الأول، والوقف: سوار من عاج، ووقَّفها ألبَسها السِّوار، قال جِران العود:

كـوقفِ العـاج مسَّ ذكيٌّ مـسكٍ
تجيء به من اليـمن التِّـجـارُ

الجزع: منعطف الوادي، والمعنى: هل تستطيع نفحات الريح أن تعرفنا هل تقف ذات السوار العاجي بمنعطف الوادي؟

(٣) الأوطار: الحاجات، الكلف: الحب، نتكلف: نتجشم، والمعنى: هل تقف ذات السوار بمنعطف الوادي فتتيح لنا تحقيق آمالنا بزيارة لها طالما تكبدنا المشقات في الظفر بها في شوق ولهفة وهيام.

(٤) الظبا جمع ظُبة، وهي حد السيف أو السنان أو نحوهما، السمهريّ: الرمح الصلب، المثقف: المسوّى بالثقاف، والمعنى: لقد تعهّدنا أن نزورها على الرغم مما يحول دونها من السيوف المرهفة والرماح المشرعة.

وقــومٌ عِــدًى يُبْــدُونَ عن صَــفَــحــاتِهِمْ
وَأَزْهَرُهَا من ظُلْمَـــةِ الحِـــقـــدِ أكلَفُ[١]

غَـــيَـــارَى، يَعُــدُّونَ الغـــرامَ جـــريرةً
بهـــا، والهـــوى ظُلمًـــا يَغــيظُ ويُؤسِفُ[٢]

يَوَدُّونَ لـو يَثْنِي الـوعـــيـــدُ زَمـــاعَنا
وهيـهـاتَ!! ريحُ الشَّـوْقِ من ذاك أعْـصَفُ[٣]

يسـيــرٌ لدى المشــتــاقِ في جــانب الـهَـوى
نَوَى غُــربـةٍ أو مَــجْــهَلٌ مُــتَــعَــسَّفُ[٤]

هلِ الـرَّوْعُ إلاّ غَـــــمْـــــرَةٌ ثم تَـنْجَلي؟
أمِ الـهَــوْلُ إلا غُــمَّـــةٌ ســـوف تُكشَفُ؟[٥]

وفي السِّـــيَـــرَاءِ الرَّقْمِ وَسْطَ قِـــبـــابهِمْ
بـعـــيـــدُ مَناطِ القُـــرْطِ أحْـــوَرُ أوْطَفُ[٦]

---

(١) صفحاتهم: مطالع وجوههم، الأزهر: الأبيض، الكلف: الكدرة تعلو الوجه، أو هو سواد في صفرة، والاسم منه الكلف، والصفة أكلف، والمعنى دون الوصول إلى هذه الحبيبة أعداء ألداء يجاهروننا بالعداوة والبغضاء ويُسَوِّدُ الحقد وجوههم البيضاء.

(٢) جريرة: جناية، يؤسف: يثير الحزن العميق، والمعنى: قوم هذه الفتاة شديدو الغيرة علهيا يعدون حبها ذنبًا لا يغتفر وعدوانًا يثير الغيظ ويحرك الحزن الدفين.

(٣) في القلائد والخريدة «لو يثنى البعاد» وفي الذخيرة «البعيد»، الوعيد: التهديد، قال الشاعر:

فَـدَع الوعـيـدَ. فـمـا وعـيـدُك ضـائري
أَطنينُ أجنحـــة الذباب يَضـــيـــرُ؟

الزماع: المضاء في الأمور في عزم وتصميم، والمعنى: يتمنى هؤلاء الأعداء أن يخيفنا وعيدهم فيضعف عزمنا ويفل مضاءنا، وهيهات هيهات!! فإن ريح الشوق أعصف من أن تصدّها الحوائل أو تردّها العوائق.

(٤) النوى: الوجه الذي ينويه المسافر، أو البعد، أو التحول من مكان إلى آخر، أرض مجهل: لا يهتدي فيها السائر، اعتسف الطريق وتعسفه: خبط فيه على غير هداية، وأعسف: سار ليلاً خابطًا خبط عشواء، والمعنى: يسهل على المتيم أن يتكبد المشقات ويقتحم المجاهل الرهيبة في سبيل الوصول إلى حبيبته وظفره منها بالوصال.

(٥) الروع: الهول والفزع، الغمرة: الشدة، تنجلي: تزول، الغمة: الكربة، وأمر غمة: مبهم ملبس قال تعالى ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ قال أبو عبيدة: ظلمة وضيق وهم، والمعنى: من السهل علينا أن نقتحم في سبيلها الأهوال فكل رهبة سوف تنتهي وكل كرب سوف يزول، فإن الوسائل الشاقة يهون احتمالها في سبيل الوصول إلى الغايات، وقد آثرنا رواية نسخة ت وفي أ ، ب، ز «ثم تكشف».

(٦) السِّيراء: نوع من الثياب فيه خطوط صفر أو يخالطه الحرير أو الذهب الخالص، الرقم: الخز أو ضرب مخطط من الوشي، مناط الشيء: مكان تعليقه، أحور: واضح الحور وهو شدة سواد العين في شدة بياضها، أوطف: طويل أهداب العينين، والمعنى: في الحلل المذهبة الموشاة بين قبابهم يميس حبيب لي كالغزال طويل الجيد أحور العينين طويل الأهداب.

تَبـــايَنَ خَلْقــاهُ، فــعَـبْلٌ مُنَعَّمٌ
تـأوَّدَ في أعـــلاهُ لَدْنٌ مُــهَــفْــهَفٌ[1]

فلِلْعــانِكِ الـمُــرْتَجِّ مــا حــازَ مِــئــزرٌ
وللغُــصُنِ الـمُــهـتـزِّ مــا ضمَّ مِطْرَف[2]

حـــبـيبٌ إليــه أن نُسَــرٌّ بوَصْلِهِ
- إذا نحنُ زُرناهُ - ونَهْنَا ونُسْــعَف[3]

*****

وليـلـة وافَــتْنا الـكثــيبَ لموعــدٍ
سُرَى الأيْمِ، لـم يُعْلَمْ لـمِسَـراهُ مَـرْحَف[4]

تـهــادى أناةَ الخَطْوِ مــرتـاعــةَ الحَـشــا
كـمـا رِيعَ يَعْـفـورُ الفَـلا الـمُـتَشَـرِّف[5]

فــمـا الشــمسُ رَقَّ الغـيمُ دون إياتِهــا
ســوى مـا أرى ذاك الجـبـينُ الـمُنَصَّف[6]

---

(١) تبـاين: اختلف وتباعـد، عبل: ضخم (والمراد هنا الردف)، تأود: انعطف وتمايل، لدن: طري، مـهفـهف ومهـفف: ضـامـر البطن، والمعنى: اختلفت أعضاء جسمه في الصفات، فهو ضخم الردف ضامر الخصر ممشوق القوام.

(٢) العانك: المرأة السمينة، والرمل العانك: المكدس المرتفع، المئزر والإزار: الملحفة وهي ثوب يلف على الجزء الأسفل من الجسم ويسميه العامة الآن (جونّله)، المطرف (بضم الميم وكسرها): رداء مربع من الخز (ولعله ما يسميه العامة الآن بلوزة)، والمعنى: يضم مئزرها ردفًا ضخمًا مرتجًا، ويضم مطرفها غصنًا مهتزًا، حيث اكتمل لها تناسب الأعضاء وتم فيها الجمال.

(٣) المعنى: هذا الحبيب يتمنىّ أن نسعد بوصاله ونهنأ بلقائه.

(٤) في نسخة أ «لم يعلم لمسراه مرحف» وفي ب، ت وسرح العيون «مرجف»، وقد آثرنا رواية ز «مزحف» وقد فسرها في النسخة بمعنى «غاية» زحف فلان: انتهى إلى غاية ما طلب، ومزاحف الحيات مواضع دبيبها، وقد تكون «مرخف» والرخف هو الزبد الرقيق أو العجين المسترخي، الأيم: الحية، والمعنى: مازلنا نذكر الليلة التي لاقتنا فيها على الكثيب في موعد معلوم فأقبلت منسابة في خفة ورشاقة كما تنساب الحيات في هدوء فوق الرمال.

(٥) تهادى: تتهادى أي تتمايل في رشاقة ودلال، الأناة: المرأة التي تنهض في فترة استرخاء، يعفور الفلاة: ظبي الصحراء، المتشرف: المستطلع من مكان عالٍ من تشرف المربأ وأشرفه وشارفه: علاه، وفي الذخيرة وسرح العيون «المتشوف» من تشوف إذا تطاول ونظر وأشرف، والمعنى: أقبلت متهادية رقيقة الخطا خائفة من الرقباء، تسير وتتلفت وتتطلع حولها مخافة العيون، كما يرتاع الظبي فيتطلع من عل ويتفحص ما حوله ليأمن غائلة الكواسر.

(٦) أياة الشمس وأياؤها: حسنها ونورها، الجبين المنصف: الذي يعلوه الخمار، ونصّف الجارية بالنصيف ألبسها الخمار، قال النابغة الذبياني:

سقط النصيف، ولم ترد إسقاطه
فتناولته، واتقتنا باليد

المعنى: ليست الشمس - حين يحجبها الغيم الرقيق - بأجمل منظرًا من جبينها تحت النقاب.

قـــعــــيــــدكِ!! أنَّى زُرتِ؟ نُورُكِ واضحٌ
وعِطرُكِ نمّامٌ، وحَلْيُكِ مُـــــــرْجِفُ[1]

هَبِـيكِ اغْــتــررتِ الحَيَّ!! واشـيكِ هاجعٌ
وفَـــرعُكِ غِـــرْبيبٌ، وليلُكِ أغْـــضَفُ[2]

فـأنَّى اعْـتَـسَـفْتِ الهَـوْلَ؟ خَطْوُكِ مُـدْمَجٌ
وردفُكِ رَجْـرَاجٌ، وخَـــصْــرُكِ مُـــخْطَفُ[3]

لَـجـاجٌ، تمادي الحُبِّ في المعـشـر الـعـدى
وَأَمُّ الـهَـــوَى الأُفْقَ الذي فـــيـــه نُشْنَفُ[4]

وأنْ نَتَلَقَّى السُّـــخْطَ - عــانـينَ - بالرّضى
لِغَـــيْـــرَانَ، أَجْـــفَى مـــا يُرى حين يَلْطُفُ[5]

كــفـــانا من الوَصْلِ التَّـــحِـيَـــةُ خُلْسَــةً
فـــــيـــــومِئُ طَرْفٌ، أو بَـنـانٌ مُـطَرَّفُ[6]

✵✵✵✵

(١) في سرح العيون «فديتك أنَّى زرت» وفي الذخيرة «نورك فاضح»، هذا البيت والأبيات الثلاثة التالية له كررها الشاعر في قصيدته اللامية في مدح أبي الوليد بن جهور، ويمكن الرجوع إلى شرحها ص ٤٥٥، ٤٥٦، وسنكتفي هنا بشرح التغييرات الطفيفة التي اقتضاها تغيير القافية والسياق، حليك مرجف: مضطرب موسوس ينم عليك كأنه يتحدث بمسراك.

(٢) في سرح العيون «اعتسفت الليل... وليلك أغدف»، الأغدف: من الغداف وهو الشعر الطويل الأسود أو الجناح الأسود، الليل الأغضف: المظلم، ومثله الأغسف.

(٣) في سرح العيون «فكيف أطقت المشي خصرك...»، وفي الأصول «أنَّى اعتسفت الهول» وقد آثرنا رواية الذخيرة، وفي بعض نسخها «وكيف اعتسفت» وفي سرح العيون «وقدك أهيف» أهيف: ضامر نحيف، ومثله مخطف الحشا ومخطوفه وأخطفه أي ضامره.

(٤) اللجاج: التمادي والإلحاح في العناد أو الخصومة، الأَمُّ: القصد، شنفه: أبغضه وتنكر له، وفي نسخ ب، ت، ز «يشنف» والضمير فيه يعود على الهوى.

(٥) عانين: خاضعين، قال تعالى ﴿وعنت الوجوه للحيِّ القيوم﴾ أي خضعت وذلت، غيران: شديد الغيرة، أجفى: أخشن وأغلظ، والمعنى: من اللجاج في الحب أن نتلقى غضب قومها وسخطهم بالذل والخضوع محتملين غلظتهم وجفاءهم، وهم أعنف ما يكونون إذا هم حاولوا اللطف والوداد.

(٦) في الخريدة «كفانا من الشوق»، بنان مطرف: مخضب، والمعنى: لا مبرر للإلحاح في الوصول إلى هذه الفتاة على الرغم مما يحيط بها من أهوال، فحسبنا أن نبادلها التحية اختلاسًا: إيماءً باللحظ أو إشارة بالبنان.

خليليَّ مَهْلاً!! لا تلوما، فإنَّني

فؤادي أَليفُ البَثِّ، والجسمُ مُدْنَفُ[(١)]

فأعْنَفُ ما يَلْقَى المحبُّ لجاجةً

على نفسه في الحبِّ حين يُعَنَّف[(٢)]

وإنّي ليستهويني البرقُ صَبوةً

إلى برقِ ثغرٍ إنْ بَدا كاد يَخْطَف[(٣)]

وما وَلَعِي بالرّاحِ إلا توهُّمٌ

لَظَلْمٍ به كالرّاحِ، لو يُتَرَشَّف[(٤)]

وتُذْكِرُني العِقدَ المُرِنَّ جُمانُهُ

مُرِنَّاتُ وُرْقٍ في ذُرا الأَيْكِ تهتِف[(٥)]

فما قَبْلَ مَنْ أهوى طوى البدرَ هودجٌ

ولا ضَمَّ ريمَ القَفْرِ خِدرٌ مُسَجَّفُ[(٦)]

---

(١) في ب، ت، ز «أليف الحزن»، البث: أشدّ الحزن، الجسم مدنف: مريض مرضًا ثقيلاً مزمنًا، والمعنى: يا صديقيّ لا توجها إليّ اللوم على تدلهي فيها، فلا حيلة لي في حبها، وماذا أصنع في قلب برح به الحب وجسم أضناه الهيام؟.

(٢) المعنى: إن أشد ما يلقاه المحب من آلام مبرحة هو لوم اللائمين وعذل الملاحين، وفي الأمثال المأثورة «ويل للشجي من الخلي».

(٣) يستهويه: يستميله ويتيمه، قال تعالى ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾، الصبوة: الميل إلى الجهل والفتوة أو الشوق والحنين، والمعنى: كلما لمع البرق هاج شوقي وحنيني إلى ابتسام ثغر وضاء يكاد يخطف الأبصار بلألائه.

(٤) في الخريدة «لظلم لها» وفي القلائد «إذ يترشف»، الظَّلْمُ: ماء الأسنان وبريقها، الراح: الخمر، والمعنى: ما كان شغفي بالخمر إلا لأنها تذكرني بريقِهِ العذب الذي أتمنى أن أحظى برشفه، وقريب من هذا قول المتنبي:

وما شَرَقِي بالماء إلا تَذكُّرًا

لماء به أهلُ الحبيب نُزولُ

(٥) المُرِنُّ: المحدث صوتًا فيه امتداد، الجمان: اللؤلؤ أو حبوب من الفضة تشبه اللؤلؤ تصنع عقودًا، الوُرْقُ: جمع ورقاء وهي الحمامة التي في لونها غبرة، ذرا: جمع ذروة، وذروة الشيء: أعلاه، الأيك: الشجر الكثير الملتف، والمعنى: يذكرني سجع الحمائم رنين حبات عقدها النضيد.

(٦) في سرح العيون «حوى البدر»، وفي الأصول «ولا صان ريم القفر» وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد وسرح العيون، الهودج: مركب النساء، الريم والرئم والريم: الظبي الخالص البياض، الخدر: الستر أو البيت إن كانت فيه امرأة، وأخدرت الجارية: لزمت الخدر، بيت مسجف: مسدول عليه الأستار، والمعنى: لم أر بدرًا يركب هودجًا، ولا ظبيًا يحل بيتًا مصونًا بالأستار قبل حبيبي المشرق كالبدر المنير، الرشيق كالظبي الغرير.

ولا قَبْلَ «عبَّادٍ» حوى البحرَ مجلسٌ
ولا حَمَلَ الطّودَ المعظّمَ رَفْرَفُ[1]

☆☆☆☆☆

هُوَ المَلِكُ الجَعْدُ الذي في ظلالهِ
تُكَفُّ صُروفُ الحادثاتِ وتُصْرَفُ[2]

هُمامٌ يَزِينُ الدهرَ منه وأهْلَهُ
مَليكٌ فقيهٌ كاتبٌ مُتَفَلْسِفُ[3]

يَتيهُ بمَرقاهُ سريرٌ ومِنْبَرٌ
ويَحمَدُ مسعاه حُسامٌ ومُصْحَفُ[4]

رَوِيَّتُهُ في الحادثِ الإدِّ لحظةٌ
وتوقيعُهُ الجالي دُجَى الخطبِ أحْرُفُ[5]

يَذِلُّ له الجبّارُ خِيفَةَ بأسهِ
ويعنو إليه الأبلجُ المُتَغَطْرِفُ[6]

---

(١) الطود: الجبل العظيم، الرفرف: ثياب عريضة خضر تتخذ منها مفارش الوسائد والأسرة، أو الوسادة، أو المتكأ، أو نوع من البسط، قال تعالى ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾، والمعنى: ولم أر قبل الأمير مجلسًا يضم البحار ولا بساطًا يحمل الجبال، وشبيه بهذا قول ابن دراج القسطلي في ابن أبي عامر:

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس
وقام بعبء الراسيات سريرُ؟

(٢) الجعد: الكريم أو البخيل، والمقصود هنا المعنى الأول، تكف: تصد، صروف الحادثات: نوائب الدهر وأحداثه، والمعنى: هو الملك الكريم الذي يصد عنا عاديات الزمان ويكف طوارق الحدثان.

(٣) المعنى: إنه زينة للزمان وأهله، فقد ضم إلى سياسة الملك التبحر في الفقه، كما جمع إلى البراعة في الكتابة التعمق في الفلسفة.

(٤) المعنى: يعتز بحمله سرير الملك ومنبر الخطابة، كما يحمد مناقبه ومساعيه المصحف والسيف، فهو ملك عظيم وخطيب مصقع وفارس مغوار ومشمر في دراسة الشريعة ونصرة الدين.

(٥) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وسرح العيون، وفي الأصول «في الحادث الأود» والأود: العوج أو الإجهاد، الإد والإدة والإد: الأمر الفظيع أو الداهية أو المنكر، والمعنى: يحل الأمير أعضل المشكلات في لمحة خاطفة من ذهنه الوقاد، ويصوغ في بضعة أحرف الرأي الخطير الذي يبدد ظلمات الخطوب.

(٦) الأبلج: المضيء المشرق، وفي حديث أم معبد في صفة النبي صلى الله عليه وسلم «أبلج الوجه» أي مشرقُه، المتغطرف: السيد المتكبر المختال في مشيته، والمعنى: يخضع كل جبار للأمير خائفًا مرتاعًا، ويذل له كل متكبر مختال.

حِــذارَكَ - إذ تبــغي عليــه - مِنَ الرّدى
ودونَكَ فــاسْــتَـوفِ الـمُنَى حين تُنصِفُ(١)
سَـتَـعْـتـامُـهُمْ في البرِّ والبـحــرِ بالتَّوى
كــتــائبُ تُزجَى أو سَــفــائنُ تُجْــدَف(٢)
أغــــرُّ مـــتى ندرسْ دواوينَ مَـــجْــــدِهِ
يَرُقْنا غــريبٌ مُــجــملٌ أو مُــصَنَّف(٣)
إذا نحن قـــرَّظْناه قـــصَّــــرَ مُطْنِبٌ
ولم يتــجــاوزْ غــايةَ القَــصْــدِ مُـسْـرِف

☆☆☆☆☆

وأروعُ لا بــاغــي أخـــــــاهُ مُــــــبَلَّـغٌ
مُـناهُ، ولا راجـي نَداهُ مُــــــسَــــــوَّف(٤)
مُــمَــرُّ القُــوى، لا يملأ الخطبُ صَــدْرَهُ
ولـيس لأمـــــــرٍ فــــــائتٍ يتلـهّـف(٥)
لـه ظلُّ نُـعْــــــمَى يـذكــــرُ الـهِمُّ عنـدهُ
ظلالَ الـصِّــبــــا، بل ذاك أنْدَى وأَوْرَف(٦)

---

(١) في نسخة ت «أن تبغي»، والمعنى: إذا فكرت في الجور عليه فاحترس من أن يقتلك سلاحه البتار. وإذا فكرت في نيل جميع أمانيك فالجأ إليه تنل منه أعظم الآمال.

(٢) العيمة: خيار المال، واعتامها: أخذها والاعتيام: الاختيار، قال طرفة:

أرى الموت يعــتــام الكرام، ويصطفي
عــقــيلة مــال الفــاحش المتــشــدد

عقيلة كل شيء: خيرته وأنفسه عند أهله، التوى: الهلاك، تزجي: ترسل وتساق، قال تعالى: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله﴾، والمعنى: سوف تجتاح أعداءك كتائب جيشك البرية وأساطيله البحرية، فكأنها تختارهم وتقذفهم بالهلاك.

(٣) الأغر: الأبيض أو الشريف، والمعنى: إذا درسنا بواعث مجده وسؤدده وجدنا فيها ما يحير الألباب من العجائب التي ميزته عن غيره جملة وتفصيلا، وفي البيت إشارة تورية لكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ وكتاب المجمل في اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠هـ.

(٤) الأروع: الذي يثير الإعجاب بحسنه أو شجاعته، باغي: طالب والمعنى: الأمير رائع المنظر جميل المظهر لا يعتدي على أوليائه، ولا يخيب قاصدوه بإخلاف أو تسويف.

(٥) مُمَرٌّ: مفتول من أمررت الحبل أو الخيط إذا فتلته فتلاً شديدًا، والمعنى: الأمير مكتمل القوى محكم التكوين لا يرتاع لخطب نازل ولا يتأسف على أمر فائت.

(٦) الهِمّ: الشيخ الفاني، أورف: أوسع وأطول من ورف الظل وأورف إذا طال واتسع وامتد، والمعنى: يمد الأمير ظلال نعمه الوافرة فينسي الشيخ الفاني تحتها ظل شبابه، ويرى ظلال الأمير أوسع مدى وأندى نسيمًا.

جــــحــــيمٌ لِـعــــاصــــيــــه يُشَبُّ وَقــــودُهُ

وجنّـةُ عـــــدْنٍ لِـلـمطيـــــعينَ تُـزْلَفُ[1]

مَـــحــــاسِنُ، غَــرْبُ الذمِّ عنهــا مُــفَلَّلٌ

كَـهـامٌ، وشـملُ المجـدِ فـيـهـا مُـؤلَّف[2]

تناهَتْ!! فـعِـقْـدُ المجـدِ منهـا مُـفَـصَّلٌ

سَناءً، وبُرْدُ الفــخــرِ منهــا مُـفَـوَّف[3]

طلاقــةُ وجـــهٍ في مــضــاءٍ، كـمــثل مــا

يروقُ فِـرِنْدُ السَّـيْفِ والحَـدُّ مُـرْهَف[4]

على السَّيْفِ من تلك الشـهـامـةِ مِـيـسَمٌ

وفي الرَّوضِ من تلك الطّلاقَــةِ زُخْــرُف[5]

ســـجـــايا لمن والاه كـــالأَرْيِ تُجْــتَنَى

تـعــودُ لمن عـــاداه كـــالشَّــرْيِ يُنْقَف[6]

يراقبُ منه اللّهَ «مُـــعْـــتَـــضِـــدٌ» بهِ

يَدَ الدهرِ يقـــســـو في رضـــاه وَيرْأَف[7]

---

(١) أزلف: قرب، قال تعالى ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قربت لهم، والمعنى: الأمير جحيم متوقد على الأعداء وجنة وارفة دانية للأصدقاء.

(٢) الغرب: الحد، مفلل: مكسور، الكهام: الكليل الذي لاغناء عنده، والمعنى: شمائل الأمير تتلاقى وتتجمع عليها آيات المجد والفخار وترتد عنها سيوف القادحين متكسرة كليلة مفلولة المضاء.

(٣) برد مفوف: ثوب رقيق مخطط، والمعنى: بلغت شمائل الأمير حد التمام، فعلى جيد المجد منها عقد رفيع وضّاء، وعلى الفخر منها ثوب رقيق مزدان.

(٤) فرند السيف حليته ووشيه، مرهف: ماضي الحد، المعنى: الأمير متهلل الوجه بسام الثغر، وهو إلى هذا مرهف العزم ماضي الحد، كالسيف يعجبنا بوشيه ويروقنا بمضائه.

(٥) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد وسرح العيون، وفي الأصول «وفي الروض من تلك الطلاقة مظرف» وفي الخريدة «... أحرف»، وفي الذخيرة وسرح العيون «على السيف من تلك الصرامة»، وفي الذخيرة «وفي الروض من تلك اللطافة»، ميسم: علامة، الزخرف: ألوان النبات الزاهية أو الذهب أو كمال الشيء وحسنه، والمعنى: استعار السيف من الأمير مضاءه ونفاذه، واقتبست منه الروضة بهاءها وزخرفها.

(٦) الأري: العسل، الشري: الحنظل أو شجره، ينقف: يشق، والمعنى: شمائل الأمير حلوة كالشهد يقطف لمن والاه، ولكنها مرة كالحنظل تشق ثمرتها لمن عاداه.

(٧) معتضد بالله: مستعين به، يد الدهر: مدى الزمان، والمعنى: يراقب «المعتضد بن عباد» ربه ويستعين به مدى الحياة في كل أموره، فيشتد في سبيله ويلين في سبيله، فهو مراع دائمًا لحقوق الله.

فَقُلْ للملوكِ الحاسديه: متى ادَّعى
- سباقَ العتيقِ الفائتِ الشأوِ - مُقْرِفُ؟[1]
أليس «بنو عبّادٍ» القِبْلَةَ التي
عليها لآمالِ البَريَّةِ مَعْكَف[2]
ملوكٌ يُرى أحياؤُهُمْ فَخْرَ دهرهِمْ
ويَخْلُفُ موتاهُمْ ثناءٌ مُخَلَّف[3]
بهمْ باهَتِ الأرضُ السَّماءَ: فأوْجُهٌ
شُموسٌ وأيدٍ من حَيَا المُزْنِ أوْكَف[4]

✡✡✡✡✡

أشارِحَ مَعْنَى المجدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ
ومُجْزِلَ حَظِّ الحَمْدِ وَهْوَ مُسَفْسِف[5]
لَعَمْر العِدى المُستدرجيكَ بزعمهِمْ
إلى غِرّةٍ، كادت لها الشمسُ تُكْسَف[6]
لَكالوك صاعَ الغَدْرِ لُؤْمَ سَجِيَّةٍ
وكِيلَ لهم صاعَ الجَزاءِ المُطَفَّفُ[7]

---

(١) العتيق: الرائع، الشأو: الغاية والأمد، المقرف: المولود لأبوين مختلفين في الجنس، فالإقراف من جهة الأب والهجنة من جهة الأم، والمعنى: قل لحاسديه من الملوك هيهات أن تنالوا مناله، فشتان بينه وبينكم في الفخار، ومتى استطاع جواد غير أصيل أن يدرك الجواد الأصيل السباق؟.

(٢) معكف مصدر ميمي من عكف على الشيء إذا أقبل عليه مواظبًا، ومنه الاعتكاف في المسجد. قال تعالى ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾، والمعنى: إن بني عباد هم القبلة التي تتجه إليها الأنظار وتتوافد عليها الآمال.

(٣) المعنى: إنهم ملوك يفخر بهم الدهر ما داموا أحياء، ويطيب الثناء عليهم إذا طوتهم المنون.

(٤) الحيا: المطر، المزن: السحاب، أوكف: أغزر مطرًا، والمعنى: تفتخر الأرض بهم على السماء، فوجوههم شموس مشرقة وأيديهم غيوث ممطرة.

(٥) معمس: ملتبس مظلم، مسفسف: منحط حقير، والسفساف: الرديء من كل شيء والأمر الحقير، وفي الحديث «إن الله تبارك وتعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها»، والمعنى: لقد أوضحت معالم المجد بعد غموضها، وأعليت بواعث المحامد بعد إسفافها فأجزلت العطاء على الثناء.

(٦) في البيت إشارة إلى التدبير الذي أعده الأمراء لاغتيال المعتضد، والشاعر يقسم بحياتهم متهكمًا بهم، والمعنى: إنهم استدرجوك ليأخذوك على غرة فدبروا مؤامرة تكاد الشمس يدركها الكسوف من هولها.

(٧) الصاع: مكيال سعته قدحان وثلث بالكيل المصري الحديث، مكيال مطفف: منقوص قليل، قال تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ أي المنقصين في الكيل، والمعنى: لقد كالوا لك صاعًا وافيًا من الغدر الخسيس اللئيم، فجازيتهم عنه جزاءً رادعًا، ولكنه أقل مما يستحقون «وقد ذكرنا أن المعتضد استضافهم ودعاهم إلى الحمام ثم أوصده عليهم ورفع درجة حرارته حتى ماتوا مختنقين».

لقد حاولوا العُظْمَى التي لا شَوَى لَها
فأعْجَلَهُمْ عَقْدٌ مِنَ الهَمِّ مُحْصَفُ[1]

✡✡✡✡

ولمَّا رأيتَ الغَدْرَ هَبَّ نسيمُهُ
تلقَّاه إعصارٌ لبَطْشِكَ حَرْجَف[2]
أظَنَّ الأعادي أنَّ حَزْمُكَ نائمٌ؟
لقد تَعِدُ الفِسْلَ الظُّنونُ فتُخْلِف[3]
دَواعِي نِفاقٍ أنذرتْكَ بأنَّهُ
سَيَشْرَى ويَدْوَى العضوُ من حيثُ يُشْأَف[4]
تحمَّلتَ عِبءَ الدهرِ عنهمْ، وكلُّهُمْ
بنُعْماكَ مَوْصولُ التَّنَعُمِ مُتْرَف[5]
فإن يكفُروا النُّعْمى فتلك ديارُهُمْ
بسيفِكَ قاعٌ صَفْصَفُ الرَّسْمِ تُنْسَفُ[6]

---

(١) الشوى: الأمر الهين، أو الأطراف وما كان غير مقتل، وأشواه: أصاب شواه لا مقتله، عقد: تصميم، الهمُّ: العزيمة، محصف: محكم، والمعنى: لقد دبروا أمرًا جليلاً يصيب المقتل في الصميم (لا في الأطراف) فبادرهم منك تدبير محكم حصيف واستأصلتهم قبل أن يستأصلوك.

(٢) في الأصول «خرجف» ولعل الصواب ما أثبتناه، الإعصار: الريح العاصفة، الحرجف: الريح الباردة الشديدة الهبوب، والمعنى: لما رأيت الغدر باديًا منهم قابلتهم بأعنف مما أرادوه، وفي الأمثال «إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا».

(٣) آثرنا رواية نسخة أ والذخيرة، وفي ب، ت، ز «أن بأسك نائم» وفي سرح العيون «أن حريك..»، وفي القلائد والخريدة «يظن الأعادي» وفي سرح العيون «لقد تعد النسل...»، الفسل: الرذل، والفسل: الأحمق، والمعنى: أيحسب الأعداء أن عزمك غافل؟ وطالما خدعت الأحمق خيالاته وأحلامه.

(٤) يشرى: يستطير، يدوى: يمرض، يشاف: يصاب بالشأفة، وهي قرحة تخرج في أسفل القدم فتُكوىَ فتذهب، واستأصل الله شأفته: أذهبه كما يذهب الكي القرحة، والمعنى: لمحت فيهم مظاهر النفاق بادية تنذر بكيدهم المستطير، وقد يصاب العضو بالمرض من حيث مكان العلاج.

(٥) المعنى: كم تحملت عنهم أثقال الزمان ودفعت عنهم غوائله!! فأصبحوا يعيشون في ترف ونعيم تحت ظلك الوارف العميم، ولكنهم جاحدون.

(٦) القاع: المستوي من الأرض، وزاد ابن فارس وصفًا له بأنه لا ينبت، أو هو أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال، أو الأرض الخالية، الصفصف المستوي من الأرض أو حرف الجبل، قال تعالى ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا فيذرها قاعًا صفصفا﴾، أي خالية مستوية بالأرض، والمعنى: إذا كانوا قد كفروا أنعمك فقد خربت أوطانهم ودككت حصونهم فسويتها بالتراب، فهي الآن قفر خلاء، وهم أهل لهذا الجزاء.

وَطَيُّ الثَّرَى مَثْوَى يكونُ قُصارَهُمْ
وإنْ طالَ منهمْ في الأداهِمِ مَرْسَفُ[1]

✡✡✡✡

وبُشْراكَ عيدٌ بالسُّرور مُظَلَّلٌ
وبالحظِّ في نَيْل المُنَى مُتَكَنَّفُ[2]
بشيرٌ بأعيادٍ تُوافيكَ بَعْدَهُ
كما يَنسُقُ النَّظْمَ المُوالي ويَرْصُفُ[3]
تُوافي - إذا وافَتْكَ - قاضِيَةَ المُنى
فيُنْشيكَ منها الزّاهِرُ المُتَوَكِّفُ[4]
تُجَرِّدُ فيه سيفَ دولتِكَ الذي
دماءُ العدا دأبًا بغَرْبَيْهِ تُطْلَفُ[5]
هُوَ الصّارِمُ العَضْبُ الذي العَزْمُ حَدُّهُ
وحِلْيَتُه بذلُ النَّدى والتَّعَفُّفُ[6]
هُمامٌ سَمَا للمُلْكِ إذْ هُوَ يافعٌ
وتمَّتْ له آياتُهُ وَهْوَ مُحْلِفُ[7]

(١) قصارك وقصاراك: أقصى ما تستطيع، الأداهم: جمع أدهم وهو القيد الحديدي، مرسف: مشي المكبل بالقيود، والمعنى: مآلهم أن توردهم موارد الهلاك وتقذف بهم إلى القبور بعد أن تطيل تقييدهم بالأغلال.

(٢) متكنّف: محاط به، يقال: تكنفوه واكتنفوه وكنفوه: أحاطوا به، والمعنى: هنيئًا لك بالعيد الذي أقبل عليك يظلله السرور ويحيط به الحظ السعيد المبشر ببلوغ الآمال.

(٣) ينسق: يسوي وينظم في جمال وإتقان، يرصف: يحكم، الموالي: المناصر، والمعنى: هذا العيد بشير بأعياد متوالية توافيك بعده في نسق بديع محكم، كما ينسق المادحون الموالون لك أبدع آيات الثناء فيك.

(٤) أنشاه الشراب: أسكره، الزاهر: المشرق المتلألئ أو الناضر البهيج، المتوكف: من توكف المطر إذا هطل وقطر، والمعنى: توافيك هذه الأعياد حينما توافي فتقضي لك الآمال، ويثير فيك النشوة روضها اليانع الذي تسيل منه قطرات الندى، أو زمانها الندي المشرق.

(٥) غرب السيف: حدّه، تطلف: تباح وتهدر، الطلف: المباح، وذهب دمه طلفًا أي باطلاً هدرًا، والمعنى: تسل في هذه الأعياد سيف دولتك الذي يهدر ويستبيح دم الأعداء، والمقصود هنا هو الأمير إسماعيل ابن ا لمعتضد ولي العهد وقائد الجيش.

(٦) العضب: المرهف القاطع، والمعنى: إن ابنك وقائد جيشك إسماعيل هو سيف قاطع بتار، حده العزيمة الصارمة وحليته العفة والسخاء.

(٧) اليافع: الغلام الناشىء، وأيفع الغلام: شب، محلف: مجاوز للحلم، والمعنى: إن الأمير همام تطلّع لحمل أعباء الملك وهو ناشئ، وتمت له أسباب السيادة حين شارف البلوغ.

كـــريمٌ يَعُـــدُّ الحَـــمْـــدَ أنْفَسَ قِنْيَـــةٍ
فـيـولَعُ بـالفـعلِ الجـمـيلِ ويُشْـغَفُ[1]
غـــدا بخـــمـــيسٍ يُقْـــسِمُ الغَـــيْمُ إنَّهُ
لأحْـــفَلُ منه مُكْفَـــهِـــرّاً وأكْـــثَفُ[2]
هُوَ الـغَـــــيْـمُ مِنْ زُرْقِ الأسنَّةِ بَرْقُـــــهُ
وللطَّبلِ رَعْـدٌ في نـواحـيــهِ يَقْـصِفُ[3]

☆☆☆☆

ولـمّـا قَـضَـيْنا مـا عنانا قَـضَـاؤُهُ
وكلٌّ بمـا يُرضـــيكَ داعٍ فـــمُلْـحِفُ[4]
قَـــرَنَّا بحَـــمْـــدِ اللّهِ حَـــمْـــدَكَ، إنَّهُ
لأَوْكَـــــدُ مـــــا يُحْظي لـديهِ ويُزْلِفُ[5]
وعُـدْنا إلى القـصـرِ الذي هُوَ كـعـبـةٌ
يـغـــــــاديه مـنّـا نـاظرٌ أو مُـطَـوِّفُ[6]

---

(١) القنية: ما يدخره الإنسان لنفسه من التحف، والمعنى: الأمير كريم يعد المحامد أنفس ما يدخره الإنسان، فيندفع إلى فعل الجميل في شوق وهيام، فيستحق بهذا الحمد والثناء.

(٢) الخميس: الجيش الكثيف التام التكوين من المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق، والمعنى: قاد الأمير جيشًا كثيفًا يقسم السحاب – وهو حافل ممتلئ – أن هذا الجيش أغزر منه عدة وعديدًا.

(٣) المعنى: جيش الأمير كالسحاب المتراكم تبرق فيه أسنة رماحه الزرقاء، وتدوي الطبول كالرعد القاصف في نواحيه.

(٤) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد وسرح العيون وتمام المتون، وفي الأصول «فلما قضينا» وفي سرح العيون «ما دعانا أداؤه» وفي الأصول «ما عنانا أداؤه» وقد آثرنا رواية الوافي، وفي تمام المتون والوافي «وكل بما أوليت» وفي نسخ ب. ت، ز «داع فمحلف» والمعنى: ولما قضينا ما يهمنا قضاؤه من واجبات العيد، والجميع يدعون الله لك ويلحون في الدعاء أن يبلغك أقصى ما تتمناه (جواب الشرط في البيت التالي).

(٥) يُحظي: يجلب المنزلة والحظوة، يزلف: يقرب، ومنه قوله تعالى ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾، والمعنى: لما انتهينا من قضاء مناسك العيد حمدنا الله ثم حمدناك لأن في الثناء عليك تقربًا إلى الله وظفرًا برضاه.

(٦) في الأصول «ناظر أو مطرف» والمطرف هو المختار من طرف الشيء إذا اختاره، أو المقاتل حول العسكر، أو الذي يسوق الإبل أو الخيل ويرد أوائلها على أواخرها، وهذه المعاني لاتتفق مع السياق، ولعل الصواب ما أثبتناه، يغاديه: يباكره، مطوف: طائف حول مكان خاص، وطاف بالبيت: أدى مناسك الحج فيه، قال تعالى ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾، والمعنى: عدنا إلى قصرك الذي هو كعبة تتجه إليها النواظر ويطوف بها القاصدون كما يطوف الحجاج بالبيت الحرام.

فـــــــإذْ نـحـن طـالَـعْـنـاهُ، والأفْـقُ لابـسٌ
عَـجـاجَـتَـهُ والأرضُ بالـخـيلِ تَـرْجُفُ[(١)]
رأيـنـاكَ في أعْلى الـمُـصَلّى، كـأنّمـا
تَـطَـلَّـعَ من مِـحـرابِ داودَ يـوسُفُ[(٢)]
ولـمّـا حـضـرنـا الإذْنَ، والدهرُ خـادمٌ
تشـيرُ فـيُـمـضي، والـقـضـاءُ مُصَرِّفُ[(٣)]
وَصَلْنا فـقـبَّلـنا الـنّدى منك في يَدٍ
بهـا يُتْلَفُ المالُ الجـسـيمُ ويُخْلَفُ[(٤)]
لقـد جُـدْتَ!! حـتّى مـا بنفسٍ خـصـاصـةٌ
وأمّنتَ!! حـتّى مـا بقلبٍ تَخَـوُّفُ[(٥)]
ولـولاكَ لـم يَسْـهُلْ مِنَ الدهرِ جـانبٌ
ولا ذلّ مُـقـتـادٌ، ولا لانَ مِـعْـطَفُ[(٦)]
لكَ الـخـيـرُ!! أنّى لي بشكركَ نـهـضـةٌ؟
وكـيـف أؤدي فـرضَ مـا أنت مُـسْلِفُ؟[(٧)]

---

(١) في نسخة ت «فإن نحن طالعناه»، العجاجة: الغبار، ترجف: تضطرب، قال تعالى ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾، والمعنى: تطلعنا إلى قصرك العظيم وحوله الجيوش الجرارة وقد ملأت الجو بالغبار وارتجت الأرض تحتها من وقع السنابك والأقدام.

(٢) المحراب: صدر المجلس أو أكرم مواضع البيت أو مقام الإمام من المسجد أو الغرفة، قال تعالى ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾، والمعنى: لما وفدنا عليك أشرقت علينا في وضاءة وجمال يوسف الصديق من مصلاّك الشبيه بمحراب داود عليه السلام.

(٣) المعنى: لما حضرنا إلى مجلسك وتلقينا الإذن بالمثول بين يديك، والدهر يلبي إشارتك والقضاء ينفذ أحكامك «جواب الشرط في البيت التالي».

(٤) المعنى: لما وقفنا بين يديك قبلنا يديك فقبلنا الجود ممثلاً فيها لأنها تتلف المال بالبذل والسخاء وتجدده بالإصلاح والتعمير لتعيد إنفاقه وبذله في أريحية وسماح.

(٥) الخصاصة والخصاص: الفقر، قال تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾، والمعنى: لقد ظللت تجود حتى لم تترك فقيرًا معدمًا، وبسطت ظلال الأمن حتى لم تترك خائفًا مرتاعًا.

(٦) في القلائد «ولا ذلّ منقاد»، المعطف: السيف، والمعنى: ولولاك ما سهل لنا جانب الدهر، ولا انقادت لنا صروفه، ولا لان سيفه البتار.

(٧) المعنى: اسأل الله أن يهبك الخير، ولكنني لا أدري كيف أستطيع النهوض بأعباء شكرك على ما غمرتني من إحسان؟ وكيف أستطيع أن أؤدي لك جزاء ما أسديته إليّ من إنعام؟

أعـــــدتَ بـهـــــيم الحـــــال منيَ غُـــــرّةً
يقـابلُهـا طَرْفُ الجَـمُـوحِ فَـيُطْرَفُ[1]

وبوّأْتَـهُ دنيــــاكَ دارَ مُــــقـــامَـــةٍ
بـحـــــيث دنا ظلٌّ وذُلّلَ مَــــقْطَف[2]

☆☆☆☆☆

وكم نعـمـــةٍ أُلبِـسْـتُـهـا سُنْدُسِـيَّـةٍ
أُسَـــرْبَلُهـــا فـي كلّ حـينٍ وأُلْـحَف[3]

مـــواهبُ فــيّــاضِ اليَـدَيْنِ، كـأنّما
من المُزْنِ تُمْرَى أو منَ البحرِ تُغْرَف[4]

فـإن أكُ عـــبــدًا قـــد تملّكتَ رِقّـــهُ
فـأرفعُ أحـــوالي وأَسْنَى وأشْـرَفُ[5]

****

(١) آثرنا رواية القلائد، وفي الأصول «أفدت بهيم الحال» وفي الذخيرة «أنرت بهيم الحال»، وفي الأصول «يقابلها طرف الجموح» وقد آثرنا عليها رواية الذخيرة والقلائد والخريدة، الغرّة: بياض الجبهة، والمعنى: كانت أحوالي مظلمة قاتمة فبدّدت ظلامها وزينتها بغرة بيضاء يتطلع إليها الحسود فيرتد إليه طرفه وهو خاسىء حسير.

(٢) بوّأه منزلا: هيأه ومكن له فيه، المقامة: الإقامة، قال تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي أحلّنا دار المقامة من فضله﴾ أي دار الإقامة الخالدة وهي الجنة، والمقامة: المجلس أو الجماعة من الناس، ذلل: سهل مأخوذة من الذُّل أو الذِّل: ضد الصعوبة قال تعالى ﴿وذللت قطوفها تذليلا﴾ أي «سويت عناقيدها ودليت»، المقطف: القطف «اسم المصدر من الفعل قطف»، والمعنى: أنزلتني منزلاً كريمًا في دنياك الناعمة تحت الظلال الوارقة والقطوف الدانية.

(٣) في نسخ ب، ت، ز «أسرُّ بها في كل حين»، السندس: الديباج الرقيق، سربله: ألبسه القميص، ألحف: جر إزاره على الأرض خيلاء، والمعنى: كم خلعت عليّ من النعم السابغة كأنها حلل حريرية ألبسها وأجرر ذيول التيه والخيلاء.

(٤) تُمرَى: تستخرج أو تستحلب من مرى الناقة يمريها: مسح ضرعها فأمرت أي در لبنها، ومرى الشيء: استخرجه، والمعنى: الأمير كريم وهاب اليدين كأنما يستمد هباته من البحر أو يستنزلها من السحاب.

(٥) المعنى: إذا كنت قد أسرتني بإحسانك واستعبدتني بنعمائك فإنني أعتبر عبوديتي لك أرفع أحوالي وأشرف ما أصبو إليه من آمال.

نشوة العافية

هنأ الشاعر الأمير بالفصد[1] ودعاه إلى معاقرة الشراب ومباشرة اللذات:

لِيَهْنِكَ أنْ أحْمَدْتَ عاقبةَ الفصْدِ
فلله منّا أجملُ الشكرِ والحَمْدِ[2]

ويا عجبًا من أنَّ مِبضَعَ فاصدٍ
تلقَّيتَهُ لم يَنْصرِفْ نابِيَ الحدِّ[3]

ومِنْ مُتَولٍّي فَصْدَ يُمْناكَ، كيفَ لمْ
يَهُلْهُ عُبابُ البحرِ في مُعْظَمِ المدِّ؟[4]

ولم تَغْشَهُ الشَّمْسُ المنيرُ شُعاعُها
فيخطئَ في ما رامَهُ سَنَنَ القَصْدِ؟[5]

☆☆☆☆

سَرَى دَمُكَ المُهراقُ في الأرضِ، فاكْتَسَتْ
أفانِينَ روضٍ مثلَ حاشِيَةِ البُرْدِ[6]

(١) الفصد: قطع عرق في أعلى الصدغ وكانوا يستعملونه علاجًا لحدّة الصداع، وجرت العادة أن يتلقى المفصود الهدايا وينشط إلى اللهو والشراب.

(٢) أحمده: وجده محمودًا، والمعنى: هنيئًا لك الشفاء الذي نجم عن الفصد، وإننا لنتجه إلى الله بالحمد والشكر على ما أولاك من نعمائه.

(٣) المبضع: سلاح صغير للفصد، والمعنى: ما أعجب أن يشق المبضع عرقك ولا يرتد مفلول الحد كما ترتد عنك السيوف والرماح.

(٤) المعنى: وما أعجب أن يباشر المعالج فصدك ولا يخشى أن يغرق في بحرك الطامي ومدك الزخار.

(٥) السنن: الطريقة، القصد: الاعتدال أو إتيان الشيء، والمعنى: وما أعجب أن يتم المعالج الفصد ولم يرتدّ بصره حسيرًا أمام نورك الوضاء فيخطىء الهدف ويضل السبيل.

(٦) المهراق: المراق المصبوب، الأفانين: جمع أفنان، والأفنان: جمع فنن وهو الغصن، وشجرة فنّاء وفنوّاء: كثيرة الغصون، حاشية الثوب: جانبه وتكون في العادة مزخرفة، وعيش رقيق الحواشي: رغد، البرد: ثوب مخطط، والمعنى: سال دمك الزكيّ فاكتست الأرض منه بهجة وزينه كزينة الحدائق المتشابكة الأغصان أو حواشي الثوب المزخرف المزدان.

فِـصــادٌ أطابَ الـدّهرَ فـالقَطْرُ في الثّـرى
كـمــا طـابَ مـاءُ الوردِ في العنبــرِ الوَرْدِ(١)
لقـــد أوفتِ الدنيـــا بعـــهـــدك نَضْـــرَةً
كـــأنَّكَ قـــد عَلَّمْـــتَـــهـــا كَـــرَمَ العَـــهْـــدِ(٢)
لـدى زَمَـنٍ غـضٍّ أنـيـقٍ فِـــــــــــرِنْـدُهُ
كـمـــثلِ فِــرِنْدِ الوردِ في خَـــجلةِ الخَـــدِّ(٣)
نُســـــوِّغُ منـه العَـــــيْشَ في ظلِّ دولةٍ
مُــقــابَلَةِ الأرجــاءِ بـالكوكبِ السَّـــعْـــدِ(٤)

☆☆☆☆☆

وهُبَّ إلـى اللـذاتِ مُـــــؤْثِرَ راحـــــــةٍ
تُجِمُّ بـهـــا النفسَ النفـــيـــســـةَ للكدِّ(٥)
ووالِ بـهـــا في لؤلؤٍ من حَـــبـــابـهـــا
كـجِـيـدِ الفـتـاةِ الرُّودِ في لؤلؤِ العِـقـدِ(٦)
وإن تَدْعُنا لـلأُنْسِ - عن أريـحِـــيَّـــةٍ -
فـقد يـأنَسُ المولى - إذا ارتـاحَ - بالـعَبْدِ(٧)

****

(١) العنبر الورد: المائل للاحمرار، والمعنى: هذا الفصد طاب به الزمان لأنه أتاك بالشفاء فأصبح المطر في الثرى شبيهًا بماء الورد إذا اختلط بالعنبر المائل للاحمرار.

(٢) وفى وأوفى: أتم أو أدى ما وعد به، النضرة: الحسن والرونق، قال تعالى: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾، والمعنى: تمت زينة الدنيا وبهجتها في عهدك كأنك قد علمتها كيف تفي بالعهد وترعى الذمام.

(٣) أنيق: حسن معجب، فرند السيف: جوهره وحليته، والفرند: الورد الأحمر، والمعنى: لقد طابت بك الدنيا في زمن غض جميل تروق صفحته كما تروق حمرة الورد في صفحة الخد.

(٤) نسوغ: نستمرئ ونستطيب، والمعنى: نستمرئ العيش في زمانك مستظلين بدولتك التي غمرت كواكب السعد أرجاءها بأطيب الآمال.

(٥) نجمٌّ: نريح، والمعنى: انشط إلى اللذات مفضلاً الراحة من الأعباء مريحًا نفسك العظيمة تهيئة لاستئناف الكد في تدبير السلطان.

(٦) في الأصول «في لؤلؤ من جنابها» ولعل الصواب ما أثبتناه، الحباب: الفقاقيع الهوائية التي تعلو سطح الماء، الجيد: العنق، الرؤد: الشابة الحسناء، بعقدها اللؤلؤي.

(٧) الأريحية: سعة الخلق والسماحة والسخاء، والمعنى: تمتع باللذات، وإذا جدت علينا بمشاركتك فيها، فلا عجب فقد يأنس السيِّد بمنادمة العبيد.

فرحة الشفاء

شرب المعتضد دواء، وأحسّ خفة ونشاطا، فحياه الشاعر بهذه القصيدة:

أَحْـــمَـــدْتَ عـــاقـــبــةَ الدواءِ
وتَلَـتْــهُ عـــافـيـــةُ الشِّــفـــاءِ[1]
وخَــــرَجْتَ منه مِـــثْلَمـــا
خـــرجَ الحُــســـامُ من الجَـــلاءِ[2]
وبقـــيتَ للدنيـــا، فـــأنـــ
ـــــتَ دواؤهـــا مـــن كـــلِّ داءِ[3]
ووَرِثْتَ أعـــمـــارَ العِـــدا
وقَـسَـمْـتَـهـا في الأوليـــاءِ[4]

☆☆☆☆☆

يا خـــيـــرَ مَنْ ركبَ الجـــيـــا
دَ، وســـــارَ فـي ظِـلِّ الـلـواءِ[5]
وأجـــالَ يومَ الحـــربِ قَـــدْ
مًـــا، واحْــتَـبَى يومَ الحِـبـــاءِ[6]

---

(١) أحمده: وجده محمودًا، والمعنى: طابت لك عاقبة الدواء، ثم طابت لك بعدها عاقبة الشفاء.

(٢) المعنى: خرجت معافى من الداء كما يخرج السيف صقيلاً بعد الجلاء.

(٣) المعنى: أسأل لله أن يطيل بقاءك للدنيا، فأنت شفاؤها من الأسقام.

(٤) الأولياء: جمع ولي وهو المحب أو الصديق أو النصير، والمعنى: أسأل الله أن يهبك أعمار الأعداء لتمنحها للأصدقاء.

(٥) المعنى: إنك خير من يمتطي جوادًا ويحمل لواءً ويقود جيشًا جرارًا.

(٦) القَدْم والقُدُم: الشجاع، والقَدَم: التقدم، احتبى: جلس ضاماً فخذيه إلى بطنه مشتملاً بثوب يلفّه حوله، وهي جلسة يكنون بها عن السيادة والوقار، الحِباء: العطاء، والمعنى: وأنت خير من يجيل سيفه أو جواده في ميادين القتال بشجاعة متقدمًا الصفوف، وخير من يتصدر المجالس ويمنح العطاء.

بَشْــــراكَ عُـــقْـــبَى صِـــحَّـــةٍ
تَجْـــري إلى غـــيـــرِ انْتِـــهـــاء(١)

فـي دولـةٍ تَـبْـــــــــقَى بـقـــــا
ءَ الـــدَّهـــرِ آمـــنـــةَ الـــفَـــنـــاء(٢)

ومـــــسَـــــرَّةٍ يُـقْــــضي بـهـــا
زمـنٌ كـــحـــاشِـــيَـــةِ الـرِّداء(٣)

✡✡✡✡

واشْـــرَبْ، فـــقـــد لـذّ الـنـســـيـ
ـمُ ورقّ سِـــــربـالُ الـهـــــواء(٤)

لِـنـرى بـكَ الـبَـــــهْـــــوَ الـمُـطِلَّ
يَـمـــيسُ في حُـلـلِ الـبَـــهـــاء(٥)

وبَـقِـــيـتَ مَـــفْـــديّاً بـنـا
إنْ نـحـنُ جُـــزْنـا فـي الـفِـــداء(٦)

✱✱✱✱

(١) المعنى: هنيئًا لك العافية التي نسأل الله أن يمتعك بها دائمًا فلا يكون لها انتهاء.

(٢) المعنى: ندعو الله أن تبقى سعيدًا في دولة باقية بقاء الدهر آمنة من الفناء، ويجوز أن تكون «آمنة الفِناء» وفناء الدار: ما امتد من جوانبها.

(٣) في نسخة ب «تقضى بها زمنا» وفي نسخة ز «يقضى بها زمن» أفضى إليه بسره: أعلمه به، وأفضى إلى الشيء: وصل إليه، والمعنى أدعو لك أن تعيش ناعمًا في مسرة يوصلها إليك زمن مزخرف مزدان كأطراف الثياب.

(٤) السربال: القميص أو الدرع أو كل ما يلبس، والمعنى: تمتع بمعاقرة الشراب، فقد رق النسيم وطاب الجو وصفا لك الزمان.

(٥) البهو: البيت المقدم أمام البيوت، أو الواسع من الأرض، يميس: يتبختر، والمعنى: تمتع بالشراب حتى يتمايل بك فناء قصرك سعيدًا بسعادتك متبخترًا في حلل البهجة والنعيم.

(٦) المعنى: ونسأل الله أن يطيل حياتك وأن يجعلنا فداءً لك من كل سوء!! إن كنا أهلاً للفداء.

٥ - لدى المعتمد بن عباد

مرض الشاعر فعاده المعتمد فشكر له عيادته في هذه الأبيات.

لستُ بالجاحدِ آلاءَ العِلَلْ
كم لها من ألَمٍ يُدْني الأمَلْ[١]

أجْتَلي - من أجلها - بدرَ العُلا
مُشرقًا في منزلي حين كَمَلْ[٢]

حُلّةٌ ألبَسَ عالي فَخْرِها
فاغْتَدَتْ ترفُلُ في أبْهَى الحُلَلْ[٣]

رَفَّ بِشْرُ الأفْقِ في عَيْني لها
لا لأنَّ الشَّمْسَ حلّتْ في الحَمَلْ[٤]

---

(١) ورد هذا البيت والتالي له في الأصول هكذا:

لست بالجاحد آلاء العلل
مشرقاً في منزلي حين كمل

أجتلي من أجلها بدر العلا
كم لها من ألم يدني الأمل

ولعل الصواب ما أثبتناه، وفي نسخة ب، ت، ز «كم لها من أمل»، الجاحد: المنكر وهو عالم، الآلاء: النعم جمع ألًى، العلل: الأمراض، والمعنى: لست بالمنكر ما أسداه إليّ المرض من إحسان وهو قدوم الأمير لعيادتي، وكم بعث الألم في نفسي أعذب الآمال.

(٢) اجتلى الشيء: نظر إليه، والمعنى: لقد أتاح لي المرض أن أسعد برؤية الأمير في منزلي مشرقًا كالبدر عند التمام.

(٣) الحلل: جمع حلة وهي مكونة من إزار ورداء، ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين، رفل في ثيابه: أطالها وجرها متبخترًا. والمعنى: حلّ الأمير داري فألبسها فخرها العالي، فأخذت تميس وتتمايل ابتهاجًا به.

(٤) رف: برق وتلألأ، الحمل: برج في السماء تحل الشمس به في الربيع، والمعنى: حلّ الأمير داري فتلألأت آفاقها وأضاءت جوانبها ولاحت لعيني فيها بشائر الأفراح فابتهجت بها أكثر من ابتهاجي بحلول الربيع.

مـــــا أبـالي من زمـــــاني بَـعْـــــدَهـا

- إذ أصَحَّ النَّفْسَ - أنْ جِـســـمي أعلّ[١]

☆☆☆☆

أيُّهــــا المولـى لقـــد حُـــمّلتُ مـــا

لـمْ يَدَعْ في وُسْعِ عَــبْــدٍ مُــحْــتَــمَل[٢]

وَضَـحَ الـطُّـوْقُ الـذي حَـلَّـيْـــــــــتَـني

فــــتــــراءتْهُ نـفــــوسٌ لا مُـــــقَل[٣]

أنـــا لـــو طُـــوِّقْـــتُ مـــنـــه بَـــدَلاً

أنْجُمَ الجَـــوْزاءِ لـمْ أرضَ الـبَـــــدل[٤]

كم مَـــرادٍ لِيَ - من نَـعْـــمـــائِكُمْ -

وارفِ الـــظـــلِّ وكـــمْ وِرْدٍ عَـــلَـــل[٥]

لا تـزلْ دولـتُـكُـمْ مـــــبـــــســــوطـةً

بَسْطَةً في طَيِّـــهـــا قَـــبْضُ الدُّول[٦]

ورأى المعـــتـــضـــدُ المنصـــورُ مـــا

أنْـبَــــأَتْهُ فـــيكَ (لـيتٌ) و(لـعلّ)[٧]

فَـــسَـــتَـلْـقـــاهُ الليـــالي طَلْـقَـــةً

بتـــفـــاريقِ أمـــانيـــهِ جُـــمَلْ[٨]

****

(١) المعنى: لا أبالي بعد هذه العيادة الكريمة بما يفعله المرض بجسمي، فقد أصحَّت عيادة الأمير نفسي وشفتها من كل داء.

(٢) المعنى: أيها السيد الكريم لقد غمرتني بإحسانك وحملتني ما ليس في طوق إنسان احتماله من نعم وآلاء.

(٣) لقد طوقتني من إحسانك بطوق ثمين تبصره القلوب لا العيون.

(٤) المعنى: إنني أعتز بما طوقتني به من إحسان، حتى لا أرضى النجوم بديلاً من هذا الطوق الثمين.

(٥) المراد: مكان الارتياد وهو طلب النجعة، الورد العلل: المنهل المطروق الذي يتردّد عليه الشاربون، والمعنى: لقد حللت من نعمائكم في مكان فسيح وارف الظلال داني الثمار على منهل سهل الورود ميسر الطروق.

(٦) المعنى: أسأل الله أن يزيد دولتكم بسطة وسعة تنكمش أمامها الدول وتتضاءل أمامها الملوك.

(٧) المعنى: أسأل الله أن يمتع أباك المعتضد بما دلت عليه مخايل النجابة فيك، وما علقه الرجاء بك «ليت من أدوات التمني، ولعل من أدوات الرجاء».

(٨) المعنى: ستهلل الليالي بك وتقبل على أبيك في بشر وإيناس حاشدة له فيك جميع ما تفرق من آمال.

قدوم سعيد

عاد المعتمد من سفر وقد أبلَّ من مرض، فهنّأه الشاعر بالعودة والشفاء:

اقْـــدَمْ كـــمـــا قَـــدِمَ الربيعُ البـــاكـــرُ
واطلَعْ كــمــا طلَع الصّــبــاحُ الزاهرُ[1]
قَـسَـمًـا!! لقـد وفّى الـمُنَى ونَفَى الأسَى
مَنْ أَقْـــدَمَ الـبُـــشْـــرَى بأنَّكَ صـــادر[2]
لِيُـــسَـــرَّ مكتـــئبٌ ويُغْـــفِيَ ســـاهرٌ
ويَـراحَ مُـــــــــرْتَقِبٌ ويُـوفِيَ نـاذر[3]
قَـــفَلٌ وإبـلالٌ - عَـــقِـــيبَ مُطيـــفَـــةٍ -
غَـشِيَتْ كـمـا غَـشِيَ السَّـبـيلَ الـعـابر[4]
إن أعْنَتَ الجِـــــسْمَ المكرَّمَ وَعْكُهـــــا
فلرُبَّمـــا وُعِكَ الـهِـــزَبْرُ الخـــــادر[5]
مـــا كـــان إلاّ كـــانْجـــلاءِ غَـــيَـــابَةٍ
لبسَ الفِـرِنْدَ بـهـا الحُـســامُ البـاترُ[6]

(١) المعنى: اقدم علينا في رونق وبهاء كما يقدم الربيع المبكر، وأشرق علينا كما يشرق الصباح الجميل الوضاء.

(٢) المعنى: أقسم أن الذي بشرنا بصدورك إلينا قد حشد إلينا أعذب الآمال ونفى عنا البؤس والشقاء.

(٣) المعنى: إن في قدومك علينا سرورًا للحزين ونومًا للساهر وراحة للمترقب ووفاءً لنذر الناذرين.

(٤) القفل والقفول: الرجوع من السفر، الإبلال: الشفاء من المرض، مطيفة: نازلة ملمة «والمقصود بها هنا العلة»، غشيت: طرقت، عقيب: عاقب أي تال، والمعنى: رجعت من سفرك بعد شفائك من علة أطافت بك فسرنا قدومك كما سرنا شفاؤك.

(٥) أعنته: أوقعه في العنت وهو المشقة، الوعك والوعكة: أذى الحمى، الهزبر: الأسد القوي، الخادر: المقيم بالخدر، وخدر الأسد: أجمته، والمعنى: إذا كانت الحمى قد نالتك بالأذى فقد تنال الأسد الرابض في العرين.

(٦) غيابة كل شيء: ما سترك منه، الفرند: السيف أو وشيه وحليته، الباتر: القاطع، والمعنى: ما كان المرض إلا ظلامًا عابرًا تكشف عن وضاءتك وإشراقك، كما يتلألأ السيف في زينته وبريقه ولمعانه، وفي ب، ت، ز «حسام باتر».

فَلْتَغْدُ أَلْسِنَةُ الأنامِ، وَدأبُها
شكرٌ يجاذِبُهُ الخطيبُ الشّاعرُ[١]

إن كان أسْعَدَ - مِنْ وصولِكَ طالعٌ -
فكذاك أَيْمَنَ من قُفولِكَ طائر[٢]

أضحى الزّمانُ نهارُهُ كافُورَةٌ
والليلُ مِسْكٌ - من خِلالِكَ - عاطر[٣]

قد كان هَجْري الشِّعْرَ - قبلُ - صَريمَةً
حَذري لذاك النَّقْدِ فيها عاذِر[٤]

حتّى إذا آنَسْتُ أوْبَكَ بارئًا
صَفَتِ القَريحَةُ واسْتَنارَ الخاطر[٥]

عَيٌّ قَلَبَتْ إلى البلاغَةِ عَيْنَهُ
لولا تُقاكَ لقلتُ: إنّكَ ساحر[٦]

لَقَّحْتَ ذِهْني، فاجْنِ غَضَّ ثمارِهِ
فالنَّخْلُ يُحْرِزُ مُجْتَناهُ الآبِرُ[٧]

---

(١) في نسخة أ «يجاد به الخطيب الشاعر» والمعنى: على الأنام أن يتجهوا بالشكر إلى الله على شفائك فيساجل الشعراء الخطباء في شكرك، ويبارونهم في الثناء.

(٢) هكذا في الأصول ولعل تكملة البيت هكذا: «فكذاك أيمن من شفائك طائر»، ويكون المعنى: إذا كان الحظ قد أسعدنا بوصولك فقد أسعدنا كذلك بشير اليمن بشفائك، فاجتمع لنا الحظان السعيدان.

(٣) المعنى: طابت بك أيام الحياة فأصبح النهار كافورًا، والليل مسكًا، لأن سجاياك الطيبة سرت فعطرت الليل والنهار.

(٤) الصريمة: العزيمة، والمعنى: كنت مصممًا على هجر الشعر لأنني أعلم مدى بصرك بالشعر وتفننك في النقد، وعذري في هذا أنني أخشى نقدك اللاذع وأدبك البارع وبصرك النافذ العميق.

(٥) المعنى: كنت مصممًا على هجر الشعر حتى قدمت علينا صحيحًا معافى فصفت قريحتي وتفجرت ينابيع الشعر في خاطري وكنت أنت مصدر الوحي وباعث الإلهام.

(٦) العيّ: العجز عن البيان، العين: الذات، وعين الشيء: نفسه، والمعنى: كنت عييًا مفحَمًا فقلبت العي فِيًّ من طبيعته إلى البلاغة والبيان، فكيف غيرت طبائع الأشياء؟ لولا تقاك لقلت إنك من السحرة البارعين.

(٧) التلقيح: عملية الإنسال، أبر النخلة: لقحها بنقل فتات زهرة التذكير إلى ميسم زهرة التأنيث، والمعنى: كان ذهني عقيمًا لا ينتج شعرًا حتى أثرته بمواهبك فجاد بأطيب الثمار، فتمتع بثمره كما يتمتع الذي يلقح النخل بثمره الشهي المذاق.

كم قـــد شكرتكَ – غِبٌّ ذِكْــرِكَ – فــانْتَــشَى

مُـــتَـــذَكِّـــرٌ منّي، وعَـــرْبَدَ شـــاكــــرُ(١)

☆☆☆☆☆

يـأيّـهــــــــا الملكُ الذي عَلْــيـــــــاؤُهُ

مَـــثَلٌ – تناقلُهُ الليـــالي – ســـائر(٢)

يا مَنْ لِبـــرق البِـــشْـــرِ منه تَـهَلُّلٌ

مـــا شِـــيمَ إلا انْهَلَّ جـــودٌ هامــــر(٣)

أنتَ ابنُ مَنْ مَـــجَـــدَ الملوكَ، فـــإنْ يكنْ

للمـــجـــدِ عينٌ فَـــهْـــوَ منهـــا ناظِر(٤)

مَلِكٌ أَغَــــــرُّ ازْدانَتِ الدنيـــــــا بِهِ

وأعَــــــزَّ دينَ اللّـهِ منهُ ناصِــــــــر(٥)

أَبْناكَ في ثَبَجِ المَــــجَــــرَّةِ قُـــبَّــــةً

فَـــهَناكَ أنّكَ للنُّجـــومِ مُـحـــاضِـــر!!(٦)

وَتَلَقَّ – مِنْ سِـمَـتَـيْكَ – صِدْقَ تفـــاؤلي

فَـــهُـــمـــا «المُـــؤيَّدُ» بالإلهِ «الظّافِـــرُ»(٧)

✱✱✱✱

---

(١) انتشى: سكر، عربد: شغب في سكره، ورجل معربد: يؤذي نديمه في سكره، والمعنى: كم ذكرتك فانطلق لساني بالثناء عليك فتمايل قلبي سكرًا، وعربد بين الضلوع من حدّة النشوة والسرور.

(٢) المعنى: أيها الملك إن معاليك وأمجادك مثل عظيم سائر تردده الأيام على مسامع العالم طول الزمان.

(٣) شام البرق: تطلع إليه ناظرًا أين يمطر، الهامر: المنصب، والمعنى: أيها الأمير كلما رأينا البشر متهللاً في وجهك ترقبنا سخاءك الفياض فانهل علينا سحابه الهاطل بالإحسان.

(٤) المعنى: أنت ابن الملك العظيم الذي ينجب الملوك العظماء، ولو كان المجد مقلة لكان فيها إنسانها البصير.

(٥) المعنى: إن أباك ملك شريف زين الدنيا بطلعته وآلائه، وأعز دين الله بسيفه وتأييده.

(٦) أبناك: أعطاك بناء، الثبج: الوسط، محاضر: مجالد مغالب، والمعنى: بنى لك الملك قبة عظيمة فوق نهر المجرة بالسماء، فهنيئًا لك أنك منافس للنجوم ومغالب لها في السمو والضياء.

(٧) السمة: العلامة، المؤيد والظافر: لقبان من ألقاب المعتمد بن عباد، والمعنى: إني مترقب لك التأييد والظفر تفاؤلاً بلقبيك وما يحملان من معاني النصر والتأييد.

فوق المثال

طالت غيبة المعتمد فاهتزت نفس الشاعر شوقًا إليه، وابتدأ في كتابة هذه الأبيات، ولكنه لم يكملها:

سَأُهدي النَّفْسَ في نَفَسِ الشَّمالِ
فقد لَقِحَ التَّشَوُّقُ عن حِيالِ(١)

إلى الشُّثْنِ العَزائمِ - إنْ أُثيرَتْ
حَفيظَتُهُ - إلى اللُّدْنِ الخِلال(٢)

إلى الوضّاحِ آثارَ المساعي،
إلى النَّفّاحِ أخْبارَ المعالي(٣)

إلى مَلِكٍ هُوَ المَعْنَى المُجَلَّى
بهِ الإشْكالُ منْ لَفْظِ الكمالِ(٤)

(١) لقحت المرأة: حملت، ولقحت الحرب والعداوة: هاجتا بعد سكون، الحيال: العقم، ومنه حالت الأنثى حيالاً وحئولاً: لم تحمل، ولقحت عن حيال أي حملت بعد عقم، قال الحارث بن عباد يطلب فرسه (النعامة) ليشترك في الحرب بين بكر وتغلب (وكان ممتنعًا عن الاشتراك فيها حتى قتل مهلهل ابن ربيعة ابنه بجيرًا، وقال فيه: «بؤ بشسع نعل كليب»):

قربا مربط النعامة مني
لقحت حرب وائل عن حيال

لم أكن من جناتها علم اللـ
ـه وإني بحرّها اليوم صالي

قربا مربط النعامة مني
إن قتل الكريم بالشسع غالي

والمعنى: سأبعث نفسي هدية إلى الأحباب محمولة على ريح الشمال، فقد هاج شوقي بعد سكون.

(٢) الشثن: الخشونة والغلظ، وأسد شثن البراثن: خشنها، الحفيظة: الحميّة، اللدن: اللين الطريّ، والمعنى: سأهدي نفسي إلى صاحب العزمات القوية عند الغضب، والشمائل الرقيقة السمحة عند الرضى.

(٣) المعنى: إلى الذي برزت آثاره الخالدة واضحة للعيان، وذاعت أنباء معاليه فطاب حديثها على كل لسان.

(٤) الإشكال: الغموض، يقال: أشكل عليه الأمر أي التبس، والمعنى: سأهدي نفسي إلى ملك عظيم يتجلى فيه معنى الكمال إذا التبس لفظ الكمال ومعناه على الباحثين.

إلى مَنْ لا مَـثِـيلَ لـهُ - إذا مـا
بدا في السَّرْجِ - أو فَوْقَ المِثالِ[1]

هَديّةَ مَنْ - لَوَ انَّ الدَّهْرِ سَنَّى
مُناهُ - هَدَى إليكَ سُرَى الخَيالِ[2]

فكم بَوَّأْتَني ساحاتِ نُعْمَى
عِذابَ الوِرْدِ وارِفَةَ الظِّلالِ[3]

****

(١) المعنى: إلى ملك لا نظير له أو هو فوق النظير إذا لاح ممتطيًا صهوة جواده في ميادين القتال، (أو: تأتي للإباحة في التشبيه كثيرًا كما يقرر هذا ابن مالك، قال تعالى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾).

(٢) سَنَّى: يسّر وسهّل، هدي: قصد، السرى: السفر ليلاً، والمعنى: أهدي إليك نفسي، ولو أن الدهر سهل لي بلوغ آمالي لقصدتك ساريًا إليك كما يسري طيف الخيال فيقطع في طرفة عين أبعد المسافات.

(٣) المعنى: كم غمرتني بآلائك وأحللتني فسيح نعمائك، فوردت عندك أطيب مورد ونعمت لديك بأورف الظلال.

المولى المقيل

اقترح المعتمد على الشاعر أن يعارض أبياتًا كان يستحسن ألحانها فأنشده:

يُقَـــصِّـــرُ قُـــربُكِ لَيْلِي الطَّويلا
ويَشْـــفي وِصـــالُكِ قلبي العليـــلا[1]
وإنْ عَـــصَـــفَتْ منكِ ريحُ الصُّـــدودِ
فَــقَــدْتُ نسـيمَ الحـيــاةِ البليـــلا[2]
كــمـــا أنَّني إنْ أطَلْتُ العِـــثــارَ
ولم يُبْـدِ عُــذْرِيَ وَجْــهًــا جــمــيــلا[3]
وَجَـــدْتُ «أبا القـــاسمَ الظافِـــرَ الـ
ـمُـــؤيَّدَ باللهِ» مَـــوْلًى مُــقــيـــلا[4]
إذا مـــا نَداهُ هَمَى والحَـــيَـــا
شَــأهُ كَشَــأْوِ الجَــوادِ البــخــيـــلا[5]
وأقْـــلامُـــهُ وَفْقُ أسْـــيـــافِـــهِ
يَظَلُّ الصَّـــريرُ يُبـــاري الصَّليـــلا[6]

****

(١) المعنى: لقاؤك يجعل ليلي الطويل قصيرًا، ووصالك يشفي قلبي السقيم.

(٢) المعنى: إذا هبت عليّ من جانبك ريح الهجر فإنها تسلبني الحياة ونسيمها العليل.

(٣) المعنى: إذا لج بي العثار وتكرر الخطأ ولم أستطع تقديم عذر مقبول (بقية المعنى في البيت التالي).

(٤) المعنى: إذا أخطأت وجدت الأمير المعتمد عافيًا عن ذنوبي مقيلاً عثراتي.

(٥) همَى: سال، الحيا: المطر أو الخصب، شأى: سبق، والمعنى: إذا تدفق جوده فاق تدفق المطر وأصبح المطر بخيلاً بالنسبة إلى نداه.

(٦) في نفح الطيب «لأقلامه فعل أسيافه»، الصرير: صوت القلم عند الكتابة، الصليل: صوت السيوف عند القراع، والمعنى: آثار أقلامه عظيمة كآثار سيوفه، فبينهما مباراة في إحكام الأمور وقوة التأثير.

فوق الجميع

ثم عاد فاقترح عليه معارضة أبيات أخرى، فأنشده على وزنها ورويها:

أنت الـمُـسَـبِّبُ لـلـوَلـوعْ
ومُـثـيـرُ كـامِنَـةِ الدُّمـوعْ[1]
يَتَـمَنَّيـانِ لو اعْـفُـيـا
- مـهـمـا طَلَعْتَ - مِنَ الطّلوعْ[2]
والظّافِـرُ الـمَـلِكُ الـمُـؤيْـ
ـيَـدُ واحـدٌ عَـدْلُ الجُـمـوعْ[3]
الـبَـدْرُ في سُـحُـبِ الـبُـرو
دِ اللَّـيْـثُ في لِـبَـدِ الـدُّروعْ[4]
عَـنَـتِ الأصـولُ لأصْـلِـهِ
وتَـقـاصَـرَتْ عـنـهُ الـفُـروعْ[5]

****

(١) الولوع بالشيء: التعلق به، والمعنى: إنّك مصدر حبي المبرح ومثير دموعي الكامنة.

(٢) المعنى: كم تمنيت أن يبرأ قلبي من الحب وتكف عيناي عن الدمع مهما أشرقت بجمالك الفتان.

(٣) المعنى: إنّ الملك المعتمد واحد، ولكنه يعادل الجموع الغفيرة فهو أمة وحده «من ألقاب المعتمد: الظافر بحول الله، والمؤيد بالله».

(٤) البرود: الثياب المخططة أو أكسية يلتحف بها، اللبد: جمع لبدة وهي الشعر المحيط بعنق الأسد، والمعنى: يختال الأمير في أبراده كالبدر بين السحب، ويبدو في دروعه كالأسد الكاسر في لبده.

(٥) عنت: خضعت، والمعنى: فاق الأمير في عراقة أصله جميع الأصول. وتقاصرت عن فروعه جميع الفروع، فهو ماجد الآباء طيب الأبناء.

عودة ميمونة

عاد المعتمد إلى إشبيلية ظافرًا من بعض الحروب فرفع الشاعر هذه التهنئة إليه:

أيهـــا الظّافـــرُ أبشِـــر بالظّفَـــرْ
واجْـتَلِ التـأييـدَ في أبْهَى الصُّـورْ[١]

وتفــيَّــأ ظِلَّ سَـــعْـــدٍ تَجْـتَني
فـيـه من غـرسِ المُنى أحلى الثّـمـر[٢]

وَرِدِ الصُّبحَ، فكم مُسْتَـوْحِشٍ
غَـرِضٍ منك إلى أُنْس الصَّـدَر[٣]

كــان من قــربك في عــيشٍ ندٍ
عَطِرِ الآصـالِ وضَّــاحِ البُكَر[٤]

كلَّمــا شـــاءَ تـأتَّـى أنْ يَـرى
خُلُقَ البِـرجـيسِ في خَلْقِ القَـمَـر[٥]

فَــثَــوَى دونَكَ مَـثْـوى قَلِقٍ
يشـتكي من ليلهِ مَطْلَ السَّحَـر[٦]

---

(١) اجتلى الشيء: نظر إليه، والمعنى: اهنأ أيها الأمير بما نلته من النصر المبين، وتمتع بما حزته من تأييد احتشد لك في أبهى منظر وأجمل رواء، «ومن ألقاب المعتمد: الظافر بحول الله، والمؤيد بالله».

(٢) في نفح الطيب «يجتنى»، والمعنى: تمتع في ظلال السعد، واجن من غراس آمالك أطايب الثمار.

(٣) الغرض: شدة النزوع نحو الشيء والشوق إليه، وغَرِض إلى لقائه: اشتاق، قال ابن هرمة:

إني غــرضت إلى تناصف وجــهــهــا
غــرض المحب إلى الحــبــيب الغــائب

أي محاسن وجهها، المعنى: اطلع علينا صباحًا مشرقًا، فكم فينا من متيم بك مستوحش لبعدك مترقب لقربك.

(٤) المعنى: كم من مدلَّه بك كان يعيش تحت ظلالك في حياة ندية ناعمة معطرة المساء وضاءة الصباح.

(٥) البرجيس: المشتري ويسميه المنجمون عند العرب «السعد الأكبر» وأضافوا إليه الخيرات الكثيرة والسعادات العظيمة (راجع عجائب المخلوقات للقزويني). والمعنى: كم من ناعم تحت ظلالك يرى – كلما أراد – في شخصك العظيم سعادة المشتري ممزوجة بجمال القمر.

(٦) المعنى: هذا الناعم في ظلك المتمتع بقربك أقام بعد رحيلك عنه في قلق واضطراب يطول عليه الليل فيترقب الصباح شاكيًا منه المطل والتسويف.

قُلْ لِساقينا: «يُحِرْ أكؤسَهُ»

ولشادينا: «يَصِلْ قَطْعَ الوَتَرْ»(1)

حَسْبُنا سُكْرُ جَنَتْهُ ذِكَرُ

دونَهُ السُّكرُ الذي يَجْني السَّكَر(2)

لم يغادرْ لي شَفًى من جَلَدٍ

مَعَ أنّي لمْ أزلْ ثَبْتَ الغَدَر(3)

أيُّها الماشي البَرازَ المُنْبَري

لزماني، إنْ مَشَى نحْوي الخَمَر(4)

والذي إن سِيمَ ما فوقَ الرِّضَى

وُجِدَ الألْوَى البعيدَ المُسْتَمِرْ(5)

وإذا أعْتَبَ في مَعْتَبَةٍ

لانَ منهُ جانبُ السَّمْحِ اليَسَرْ(6)

---

(١) في نفح الطيب «يجد أكؤسه»، وفي الأصول يجز أكؤسه» ولعل الصواب ما أثبتناه، وفي نسخة أ «ولساقينا يطل قطع الوتر»، يُحِرْ أكؤسه: يرجعها، حار الشيء: رجع، وأحرته: أرجعته، المعنى: قل للساقي: «أبعد عنا كؤوسك»، وللمغني: «واصل سكون أوتارك» فلسنا بحاجة إلى الكؤوس والأوتار.

(٢) السكر: نبيذ يتخذ من التمر أو كل ما يسكر، المعنى: لا حاجة بنا إلى الكؤوس والأوتار، فحسبنا ذكراك العذبة التي تبعث فينا نشوة لا تبعثها كؤوس الراح.

(٣) الشفى: القليل، يقال للشمس عند غروبها وللقمر عند محاقه وللرجل عند موته: ما بقي منه إلاَّ شفًى أي قليل، رجل ثبت الغدر: ثابت في القتال والجدل وجميع ما يأخذ فيه، وفي الأصول «ثبت الغرر» ولعل الصواب ما أثتبناه، والمعنى: لم يترك بعدك لي بقية من الجلد مع أنني قويّ الجسم راسخ العزم سواء في ميادين القتال أو الجدال.

(٤) البراز: الفضاء، الخَمر: ما يواري الصائد من شجر وغيره، والمعنى: أيها الأمير إنك خير حام لي من غدر الزمان فإنه إذا دبّ إليّ مستخفيًا متواريًا نهضت أنت إليه متحديًا بارزًا للعيان.

(٥) سامه الخسف: أنزله به، فوق الرضى: دونه، مثل قوله تعالى ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ قال أبو عبيدة: فما دونها، كما تقول إذا قيل لك فلان صغير: هو فوق ذلك أي أصغر من ذلك، الألوى: الشديد الخصومة الجدل، بعيد المستمر: قوي في الخصومة لا يسأم المراس، أنشد أبو عبيد: لأرطأة بن سهية:

إذا تخازرت، وما بي من خزر

ثم كسرت العين من غير عور

وجدتني ألوَى بعيد المستمر

أحمل ما حملت من خير وشر

والمعنى: إذا تعرض خصم للأمير بما لا يرضيه وجد فيه قرنًا قوي الخصومة شديد البأس لا يمل النضال.

(٦) أعتب: رضيَ وصفح بعد العتاب، اليسر: السهل، والمعنى: إذا عتب إنسان على الأمير رق له قلبه ولان جانبه، فشمله بالصفح والغفران.

نَظْمِيَ المُهْدَى إلى أبرعِ مَنْ
نَظَمَ السِّحْرَ بيانًا أو نَثَرْ[1]
لِيَ فيه المَثَلُ السائرُ عنْ
جالبِ التَّمْرِ إلى أرضِ هَجَر[2]
غيْرَ أنَّ العُذْرَ رَسْمٌ واضحٌ
تُنفَثُ الشكوى إذا الشَّوْقُ صَدَر[3]
ثمَّ قد وُفِّقَ عَبْدٌ عَظُمَتْ
نعمةُ المولى عليه فشَكر[4]
لا عَدا حَظَّكَ إقبالٌ، تُرى
قاضيًا أثْناءَهُ كلَّ وَطَر[5]
واصْطَبِحْ كأسَ الرِّضى من مَلِكٍ
سِرْتَ في إرضائه أزكى السِّيَر[6]
حينَ صَمَّمْتَ إلى أعدائه
فانْتَحَتْهُمْ منكَ صَمّاءُ الغَبَرْ[7]

---

(١) المعنى: أهديت شعري إلى أبرع أديب ينفث السحر سواء في الشعر أو النثر.

(٢) في نفح الطيب «في جالب التمر»، والمعنى: إنني حينما أهدي إليه شعري أكون مثل من يجلب التمر إلى هجر الشهيرة بتمرها أو الخمر إلى بابل الشهيرة بخمرها. ومثله مهدي الورد إلى جور.

(٣) صدر: أصاب الصدر، والمعنى: ما كان ينبغي لي أن أتقدم بشعري إلى الأمير الشاعر العظيم ولكن لي عذرًا فإن شعري نفثة أنفس بها عن صدري الحزين.

(٤) المعنى: ومن أعذاري في رفع شعري إلى الأمير أنني أؤدي به شكر أياديه العظيمة عليّ، فمن واجب العبيد أن يشكروا ما غمرهم به مواليهم من نعم وآلاء.

(٥) في نفح الطيب «يرى قاضيا أبناءه»، والمعنى: أدعو الله أن يكون حظك سعيدًا محفوفًا بقضاء الآمال.

(٦) المعنى: اشرب في الصباح كأس المودة والقبول من والدك الملك العظيم فقد سرت في سبيل رضاه أطيب مسير.

(٧) الصماء: الحية التي لا تجدي فيها الرقى، أو الداهية الشديدة، قال العجاج:

صماء لا يبرئها من الصممْ
حوادث الدهر ولا طول القِدَمْ

الغبر: التراب، وصماء الغبر أو داهية الغبر: داهية عظمى لا يُهتدَى لمثلها، أو بلية لا تكاد تذهب، ومن أمثالهم في الدهاء والكيد «إنه لداهية الغبر»، قال الحرمازي يمدح المنذر بن الجارود:

أنت لها منذر – من بين البشر –
داهية الدهر وصمّاء الغبر

المعنى: حينما نهضت مصممًا إلى الأعداء أصابتهم منك نكبة نكباء ليس لها عنهم زوال، أو وجدوا فيك بطلاً عميق الغور واسع الدهاء لا قبل لهم به في الكيد والنضال، وفي الأصول «صماء العبر» ولعل الصواب ما أثبتناه.

فـــاضَ غَـــمْـــرٌ للنّدى من فـــوقـــهمْ
كـــان يُروي شُـــرْبَهُمْ منه الـغُـــمَـــرْ(١)
سَـــــبَـقَ الـنـاسَ فـــــصَلّـى مـنكَ مَنْ
إنْ رأى آثـارَهُ الـزُّهْـرَ اقْـــــتَـــــفَـــــر(٢)
زِنْـتُـــــمـــــا الأيّامَ، إذْ مُـلـكُكُـمـــــا
ســـالَ في أوْجُـــهِـــهَـــا سَـيْلَ الـغُـــرَر(٣)
فـــــابْقَـــــيـــــا في دولـةٍ قـــــادرةٍ
بـعضُ حُـــرّاسِ نـواحـــيـــهـــا الـقَـــدَر(٤)
مُـــسْـــتَـــذِلَّيْ مَنْ طَغَـى، مُـــسْـــتَـــأصِلَـيْ
شَـــأْفَـــةَ البـــاغي، مُـــقِـيلَـيْ مَنْ عَـــثَـــر(٥)

(١) الغمر: الكثير، وفي الحديث «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غمر»، والغمر: أصغر الأقداح، قال أعشى باهلة يرثي أخاه المنتشر بن وهب الباهلي:

تكفـــيـــه فلذة لحم إن ألم بـهـــا
من الشـــواء، ويروي شـــربه الـغـــمـــر

«القصيدة بتمامها في جمهرة أشعار العرب»، والمعنى: لما نهضت إلى أعداء الملك فأوقعت بهم، شملهم عفوه وعطفه ففاض عليهم كالبحر الزاخر، وكانوا لا يظفرون قبل هذا إلا بالنزر اليسير.

(٢) في نفح الطيب «سابقاً الناس»، صلى: جاء تاليًا للسابق، فالسابق هو المجليّ والتالي له هو المصلي، اقتفر الأثر: تتبعه قال أعشى باهلة:

لا يغـمـــز الســـاق من أينٍ ومن وصبٍ
ولا يزال أمـــام القـــوم يقـــتـــفـــر

والمعنى: سبق المعتضد الناس مجليًا فتلاه الأمير مصليًا لأنه حينما رأى آثار أبيه الزهراء تتبع مناهجها في حمية ونشاط.

(٣) المعنى: أنت وأبوك زينة الدنيا، فقد أضأتما في وجهها كما تضيء الغرة في الجبين.

(٤) المعنى: اسعدا بالبقاء في مملكة قوية تحرسها الأقدار من كيد الأعداء.

(٥) المعنى: انعما في هذه الدولة عاملين على إذلال البغاة، وإهلاك الطغاة، وإقالة عثرات الكرام.

عَلَمَيْ مَنْ ضَلَّ، مُــــزْنَيْ مَنْ شَكَا
خَلّةَ الإمْــــحــالِ، بَدرَيْ مَنْ نَظَرْ[1]
تَضْـحَكُ الأَرْضُ عن عَلياكُـمَا
ضَـحِكَ الرَّوْضَـةِ عن ثَغْـرِ الزَّهَرْ[2]

****

(١) الخَلّة: الحاجة أو الفقر، الإمحال: الفقر والجدب، المعنى: ابرزا في هذه الدولة كالأعلام تهدي الضالين، والسحب تغني السائلين، والأقمار تبهر الناظرين.

(٢) المعنى: تفتر الأرض ضاحكة مستبشرة بما أبديتما من أمجاد، كما تضحك الحديقة مفترة عن مباسم الأزهار.

ظلال النعيم

كتب الشاعر إلى المعتمد يشوقه إلى تعاطي الحميّا في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا:

فُــزْ بـالـنَّجـــاحِ، وأَحْـــرِزِ الإقـــبـــالا
وحُـــزِ الـمُنَى، وتَنَـجَّـــزِ الآمـــالا(١)
ولْيَـــهْنِكَ الـتـــأييـــدُ والظَّفَـــرُ اللذا
صَـدَقَـاكَ - في السِّـمَـةِ العَلِيَّـةِ - فـالا(٢)
يـأيُّـهـــــــا المـلـكُ الـذي لـولاهُ لـمْ
تَجِـدِ العــقـولُ الناشِـداتُ كـمـالا(٣)

✲✲✲✲✲

أمّــا «الثُّــرَيّا» فـــالـثُّـــرَيّا نِسْـــبَـــةً
وإفـــادةً وإنـافَـــةً وجـــمـــالا(٤)
قـد شـاقَـهـا الإغـبـابُ، حـتّى إنَّـهـا
لـوْ تســتطيعُ سَـرَتْ إليك خَـيـالا(٥)

---

(١) المعنى: اظفر بالنجاح الباهر، وتمتع بالحظ المقبل البسام، واسعد بأمانيك، واستنجز ما وعدك القدر به من أطيب الآمال.

(٢) من ألقاب المعتمد: الظافر بحول الله، والمؤيد بالله، اللذا: اللذان وقد حذف الشاعر النون جريًا على لغة بعض بني ربيعة، قال الأخطل:

أبـنـي كـلـيب إن عــــمّـيَّ الـلـذا
قـــتـــلا الملوك وفككا الأغـــلالا

السمة: العلامة المميزة، والمعنى: هنيئًا لك الظفر المبين وتأييد الله لك تحقيقًا لما تلقبت به وما اتخذته سمة لك من الظفر والتأييد.

(٣) المعنى: أيها الملك العظيم: لولاك ما وجدت العقول الباحثة مثالاً حيّاً مجسمًا للكمال.

(٤) آثرنا رواية نفح الطيب، وفي الأصول «فالثريا نصبة» من نصب الشيء: رفعه، أو النصبة بمعنى النوع، أو النصبة بمعنى السارية، الإنافة: الإشراف يقال: أناف على الشيء: أشرف عليه، والمعنى: إن قصر الثريا ينتسب إلى نجوم الثريا ويشبهها في الضوء والإشراق وفي سموّ المكانة والجلال.

(٥) الإغباب: الإقلال من الزيارة، وفي الحديث «زر غبًا تزدد حبّاً» والغب في سقي الأبل وفي الحمى يوم ويوم، وقال الحسن: الغب في الزيارة في كل أسبوع، والمعنى: لقد اشتاقت هذه الدار إليك وزادها شوقًا قلة ترددك عليها، فلو كانت تستطيع السير لسارت إليك تحت الظلام كطيف الخيال، وربما كانت «قد شفها» بمعنى أنحلها.

رَفِّـــهْ وُرودكَــــهـــا لِتَــــغْنَمَ راحـــةً

وأطِلْ مَــــزاركَـــهــــا لِتَنْعَمَ بالا[1]

☆☆☆☆

وتَمــــثَّلِ القَـــصْـــرَ «المبـــارك» وَجْنَةً

قــد وَسَّطَتْ فـيـــهـــا «الثُّـــريّا» خـــالا[2]

وأدِرْ هناك مـن الـمُـــدامِ أَتَمَّـــهـــا

أَرَجًـــا زَكـــا، وأشــفَّـــهـــا جِــريالا[3]

قَـــصْـــرٌ يُقِـــرُّ العينَ منهُ مـــصنعٌ

بَهِجُ الجَـــوانبِ، لو مَـــشَى لاخْـــتَـــالا[4]

لا زلتَ تَفْـــتَـــرِشُ الـسّـــرورَ حـــدائقًـــا

فـــيـــه، وتَلْتَـــحِفُ الـنَّعـــيمَ ظِلالا[5]

****

(١) رفهت الإبل: وردت الماء كلما شاءت، والمعنى: أكثر من زيارتها، ومتعها بقربك لتجد فيك الراحة والأنس والنعيم.

(٢) في نفح الطيب «وتأمل القصر» والمعنى: إذا تخيلنا قصر المبارك وجْنةً كان قصر الثريا فيها أشبه بالخال الذي يمنح الخدود البهجة والجمال.

(٣) في نفح الطيب «... كؤوسها.. وأنمها وأشفها ..»، الأرج: توهج ريح الطيب، الجريال: الخمرة أو لونها الأحمر، والمعنى: تمتع في هذا القصر بمعاقرة الراح وتناول أزكاها عبيرًا وأسطعها لونًا في سرور وطرب.

(٤) المصنع: الحصن أو حوض الماء، والمعنى: هذا القصر يحوي غديرًا حسن الجوانب، لو استطاع المشي لاختال إعجابًا بما حواه من بهاء وجمال.

(٥) المعنى: أسأل الله أن تسعد في هذا القصر مفترشًا فيه رياض الحبور ملتحفًا فيه ظلال النعيم.

الرثاء

«رثى الشاعر أبا الحزم بن جهور وزوجه، كما رثى المعتضد وأمه وابنته، ورثاؤه أشبه بمدحه، ولكن رثاءه لصديقه ابن ذكوان ينبض باللوعة ويفيض بالحنين».

تهنئة وعزاء

مات أبوالحزم بن جهور في السادس من شهر المحرم سنة ٤٣٥ وخلفه ابنه أبوالوليد في حكم قرطبة، فصاغ الشاعر هذه القصيدة في رثاء الأمير وتهنئة الحاكم الجديد:

ألم تَرَ أنَّ الشمسَ قد ضمَّها القبرُ؟
وإنْ قد كفانا - فقدَها - القمرُ البدرُ(١)
وأنَّ الحَيا إن كان أقلعَ صَوبُهُ
فقد فاضَ للآمالِ في إثرِهِ البحرِ(٢)
إساءةُ دهرٍ أحسنَ الفعلَ بَعْدَها
وذنبُ زمانٍ جاءَ يَتْبَعُهُ العُذر(٣)
فلا يتَهَنَّ الكاشحونَ!! فما دَجَا
لنا الليلُ إلاّ ريثَما طلعَ الفَجْر(٤)
وإن يَكُ ولّى «جَهْورٌ»، فمُحَمَّدٌ
خليفتُهُ العَدْلُ الرِّضى وابنُهُ البَرُّ(٥)

٭٭٭٭

(١) آثرنا رواية الذخيرة وفي الأصول «كفاها فقدها ..» البدر: القمر إذا امتلأ أو السيد، وبدر القوم: سيدهم، قال ابن أحمر:

وقد نضرب البدر اللجوج بكفه
عليه، ونعطي رغبة المتودد

والمعنى: لقد هوت الأميرة كالشمس الغارية فضمّها اللحد، ولكن عوّضنا عنها بقاءُ ابنها المضيء كالقمر الكامل أو السيد الوضيء.

(٢) الحيا: المطر أو الخصب، الصوب: نزول المطر، والمعنى: إذا كان الأمير قد قضى نحبه فقد كنت له خير خلف، كما أن المطر إذا أقلع فاض بعده البحر مبشرًا بأعذب الآمال.

(٣) المعنى: إذا كان الدهر قد أساء إلينا قد أساء إلينا بموت الأمير فقد أحسن إلينا بولاية ابنه كما يتبع المسيء إساءته بأحسن الأعذار.

(٤) في الأصول: «فلا يتمنّ الكاشحون» وقد آثرنا رواية الذخيرة، الكاشح: المنطوي على العداوة، والمعنى: لا يهنأ الأعداء بموت الأمير فقد عوَّضنا ابنه عن فقده، فما أظلم علينا الليل حتى أشرق علينا الصباح.

(٥) المعنى: إذا كان جهور قد مات فقد خلفه ابنه محمد البر العادل الذي رضيت عنه رعيته كل الرضاء.

لَعَمري لَنِعْمَ العِلَقُ أتْلَفَهُ الرّدى
فبانَ، ونِعْمَ العِلْقُ أخْلَفَهُ الدهرُ[١]

[هُمَامٌ جرى يتلو أباه، كما جَرَى
معاويةٌ يتلو الذي سَنَّهُ صخر][٢]

هززنا به الصَّمصامَ، فالعزمُ حَدُّهُ
وحِلِيَتُهُ العَلْيا، وإفْرِنْدُهُ البِشْر[٣]

فَتَى يجمعُ المجدَ المفرَّقَ همُّهُ
ويُنْظَمُ - في أخلاقِهِ - السُّودَدُ النَّثْر[٤]

أهابتْ إليه بالقلوب مَحبَّةٌ
هِيَ السِّحرُ للأهواءِ، بل دونَها السِّحْر[٥]

سَرَتْ حيث لا تسري - من الأنفس - المُنى
ودبّتْ دبيبًا ليس يُحْسِنُهُ الخَمْر[٦]

لبِسنا لديه الأمْنَ تَنْدَى ظِلالُهُ
وزهرةَ عيشٍ مثلَما أيْنَعَ الزَّهر[٧]

وعادتْ لنا عاداتُ دنيا كأنّها
بها وسَنٌ أو هَزَّ أعطافَها سُكْر[٨]

✡✡✡✡

---

(١) العلق: النفيس، بان: رحل، والمعنى: نعم الراحل الكريم، ونعم خلفه العظيم.

(٢) البيتُ زيادة من الذخيرة، معاوية: هو معاوية بن أبي سفيان الصحابي مؤسسة الدولة الأموية، وصخر هو أبو سفيان والد معاوية وكان صخر سيِّدا في الجاهلية وأسلم يوم فتح مكة، المعنى: لقد تابع الأمير أباه الراحل في المجد والسيادة كما تابع معاوية والده أبا سفيان في السؤدد والسلطان.

(٣) الصمصام: السيف القاطع الذي لا ينثني، إفرند السيف. حليته ووشيه، والمعنى: هززنا منه سيفًا بتارا: حدُّه المضاء والعزم وحليته المجدُ وصفحته التهلل والحبور.

(٤) المعنى: الأمير فتى ناهض عظيم جمعت همته ما تفرق من أشتات المعالي وانتظمت في شمائله الأمجاد المنثورة.

(٥) المعنى: دعت محبته إليه القلوب، كأن محبته سحرٌ يستهوي الأفئدة أو هي فوق السحر والساحرين.

(٦) المعنى: سرت محبته في القلوب وتغلغلت في الضمائر إلى حيث لا تسري الأماني، ودبت في الأجسام دبيبًا لا يمكن أن تدب إليه السلاف.

(٧) المعنى: نعمنا في ظلاله بالعيش الندى في سكينة وأمن واطمئنان، وسعدنا بحياة زاهرة متفتحة كما تونع الأزهار.

(٨) الوسن: النعاس أو أوله، أعطاف: جمع عطف وهو الجانب، والمعنى: تبسمت لنا الحياة في ظل الأمير، وارتدت إلينا أيام السعادة والنعيم، وطابت لنا الدنيا كأنما مالت بها سنة الكرى أو هزت جوانبها نشوة السلاف.

مَليكٌ له منّا النَّصـيـحـةُ والهَـوَى

ومنه الأيادي البِـيضُ والنِّعَمُ الخُـضْـرُ(١)

نُسِـرُّ وفـاءً حين نعلنُ طاعـةً

فـمـا خـانَهُ سِـرٌّ ولا رابَهُ جَـهْـرُ(٢)

فَـقُلْ للحَـيـارَى: «قـد بدا علمُ الهُـدَى

وللطامعِ المغـرورِ: «قـد قُـضِيَ الأَمْـرُ(٣)

✡✡✡✡✡

«أبا الحَـزْمِ» قـد ذابتْ عليك - مِنَ الأسى -

قلوبٌ مُناها الصَّـبْـرُ لو ساعَـدَ الصَّبـرُ(٤)

دَعِ الدهرَ يَفْـجَـعْ بالذخـائر أهْلَـهُ

فـمـا لنفـيسٍ - مُـذْ طَواكَ الرَّدى - قَـدْرُ(٥)

تـهـونُ الرزايا بـعـدُ، وَهْيَ جليلةٌ

ويُعـرَفُ - مذ فارَقْـتَنا - الحادثُ النُّكْرُ(٦)

---

(١) المعنى: إنه ملك محبوب، له علينا حقوق النصيحة والوداد، لأنه يغمرنا بالنعم والإحسان.

(٢) المعنى: لقد أخلصنا له في السر والعلانية، فنحن نمنحه الطاعة عن حب ووفاء، فلا تخونه الضمائر ولا تسوءه الأفعال.

(٣) المعنى: قل للضالين: لا تحاروا، فقد ظهر لكم علم الهدى ممثلاً في الأمير، وقل للعدو الطامع المتكبر: أقصر عن مطامعك في الحكم، فقد قضى الله بنصرة الأمير، ولا راد لما قضاه الله.

(٤) في الذخيرة «قلوب ومنها الصبر»، والمعنى: أيها الراحل الكريم لقد ذابت عليك قلوبنا من وقدة الأحزان. حتى أصبح أكبر آمالنا أن نظفر بنفحة من الصبر، ولكن لا سبيل إلى مساعفته للقلوب.

(٥) في الذخيرة «إذ طواك» المعنى: دع الموت يتخطف بعدك من يشاء، فلم يبق لنا بعد موتك من نخشى عليه الفناء من العظماء، ومثل هذا قول عقيل بن مرة:

لتـغـدُ المنايا حـيث شـاءت فـإنهـا
مـحللة بعـد الفـتى ابن عـقـيلِ
كـأنَّ المنايا تبـتـغي في خـيـارنا
لهـا ترة أو تهـتـدي بدليلِ

(٦) المعنى: تهون بعد موتك كل مصيبة وإن عظمت، ويجل خطبك فينا فلا يدانيه خطب مدى الحياة، وشبيه بهذا قول أشجع بن عمرو السلمي:

فـمـا أنا من رزء - وإن جل - جـازع
ولا بسـرور - بعـد مـوتك - فـارحُ
كـأن لم يمت حي سـواك، ولم تقم
على أحـد إلا عليك النوائحُ

فــقـــدناكَ فِــقْـــدانَ السَّـــحـــابـةِ، لمْ يـزلْ

لـهـــا أثـرٌ يُثْـنـي بـه السَّــــهـلُ والـوَعْـــرُ(1)

مَـــســـاعـــيـكَ حَلْـيٌ لـلـيـــالـي مُـــرَصَّعٌ

وذِكْــــرُكَ في أردانِ أيَّـامــــهـــــا عِـطْـرُ(2)

فـــــلا تَـبْـــعَـــــدَنْ إن المـنـيَّـــــةَ غـــــايـةٌ

إلـيـــهـــا التَّناهي طال أو قَــصُــرَ الـعُــمْـــرُ(3)

عـــزاءٌ - فَـــدَتْـكَ النفسُ - عنه، فــإنْ ثَوَى

فــإنـك لا الـفـــانـي، ولا الضَّـــرِعُ الـغُــمْـــرُ(4)

ومــــــا الـرُّزْءُ فـي أن يُـودَعَ التُّــــرْبَ هـالِكٌ

بَـلِ الـرزءُ كـلُّ الـرزءِ أن يَـهْـلِـك الأَجْـــــــرُ(5)

أمــــامَـكَ - مِـن حِـــفْظ الإلـهِ - طليــعـــةٌ

وحـــولَـكَ - من آلائهِ - عَــسْكَرٌ مَـــجْـــرُ(6)

ومـــا بِـكَ من فـــقـــرٍ إلـى نَصْـــرِ نـاصـــرٍ

كَـــفَــــتْـك - مِنَ اللّـهِ الكَلاءَةُ والـنَّـصْـــرُ(7)

لَكَ الخَــــيْـــرُ!! إنِّـي واثقٌ بك شـــــاكــــرٌ

لِمَـــثْنَى أياديكَ الـتـي كُـــفْـــرُها الكُفْـــرُ(8)

---

(1) المعنى: فقدناك!! ولكن بقيت فينا آثارك الخالدات، كما تذهب السحبُ وتبقى آثارها في الوديان والهضاب.

(2) في الذخيرة «مساعيك حلي للزمان»، مرصَّعٌ: محلى، الأردان: جمع ردن وهو أصل الكم، والمعنى آثارك يتحلى بها الزمان، وذكراك تتعطر بها الأيام.

(3) المعنى: لا أبعدك الله إذا كان الموتُ قد طواك فإنه نهاية كل حي سواء طالت أو قصرت به الحياة.

(4) الفاني: الشيخ الكبير الضعيف، الضرع: الذليل المستكين، الغمر: الذي لم يجرب الأمور، المعنى، أيها الأمير تعز عن الراحل الكريم، فنحن فداؤكم من كل سوء، وإذا كان الموت قد طواه فلك من شبابك وعزتك وتجاريك أكرم عوض وخير عزاء.

(5) المعنى: ليست المصيبة أن يموت إنسان، ولكن المصيبة أن نجزع عليه فنفقد ثواب الصبر ونبوء بالخسران.

(6) الطليعة: مقدمة الجيش، المجر: الجيش العظيم، والمعنى: سيحوطك الله بعنايته، فيتقدمك حفظه، وتحيط بك آلاؤه، فتكون من حولك كالجيش العظيم، وفي الذخيرة «أمامك من حفظ الإله صنيعة».

(7) الكلاءة: الحفظ والعناية، والمعنى: لست محتاجًا إلى من ينصرك فإن الله لك خير ناصر وحافظ ومعين.

(8) مثنى الأيادي: ازدواج النعمة أي إعادة المعروف مرتين فأكثر قال النابغة الذبياني:

إنـي أتمم أيســــــاري، وأمـنـحــــــهـم

مـثنى الأيادي، وأكـسـو الجـفنة الأدمـا

والمعنى: أدعو الله أن يغمرك بخيراته، إنني واثق بك ، شاكر لإحسانك المتصل الدائم الذي لو جحدته لكنتُ من الكافرين.

تَحَامَى العِدى - لمَّا اعْتَلَقْتُك - جانبي

وقال المُناوي: شَبَّ عن طَوْقِهِ عَمْرُو[1]

يلينُ كلامٌ كان يخشُنُ منهمُ

ويَفْتُرُ نحوي ذلك النَّظَرُ الشَّزْرُ[2]

☼☼☼☼

فصدِّقْ ظُنوناً لي وفيٌّ فإنَّني

لأهلُ اليدِ البيضاءِ منكَ، ولا فَخْرُ[3]

ومن يَكُ - للدنيا وللوَفْرِ - سَعْيُهُ

فَتَقريبُكَ الدنيا، وإقبالُكَ الوَفْرُ[4]

****

(١) اعتلقه: تعلق به أي أحبه، شبَّ عمرو عن الطوق: مثل يضرب لمن يكبر شأنه عن إتيان أمر صغير، وقد قاله جذيمة بن الأبرش لما رأى ابن أخته عمرو بن عدي وقد نظفته أمه وألبسته لباس الملوك ووضعت في عنقه طوقاً، والمعنى: لما تعلقت به خشيني العدوُّ، وقال الخصم: لا سبيل إلى الإساءة إليه، فقد عظم شأنه وجلّ أمره وكبر عن تلقي الإساءات.

(٢) نظر إليه شزرًا: نظر إليه بجانب العين ولم يستقبله بوجهه أن نظر إليه بمؤخر عينه غاضبًا، والمعنى: لما ظللتني بحمايتك خافني الأعداء فلان كلامهم لي بعد الخشونة ورقت نظراتهم إلي بعد نظرات الحقد والوعيد.

(٣) المعنى: صدق فيَّ ما أوحت به إليك الظنون من وفاء وإخلاص وألمعية وذكاء، فإنني أهل لإحسانك جدير باصطناعك، ولا أقول هذا فخرًا ولكنه الحق الصراح.

(٤) المعنى: من كان يسعى للحصول على الدنيا أو لجمع الأموال فإنني أسعى إليك وحدك، فقربك يغنيني عن متاع الدنيا أو وفرة الأموال.

البدر الآفل

فجع الموت شاعرنا في رفيق طفولته وصديق صباه القاضي أبي بكر بن ذكوان في ثلاث خلون من ربيع الأول سنة ٤٣٥هـ فأدمت الفجيعة قلبه، ثم قادته قدماه إلى قبره، فأوحت أشجانه إليه هذا الرثاء:

اعْجَبْ لحالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحالُ
ولدولة العَلْياء كيف تُدالُ[(١)]

لا تفْسَحنْ للنفس في شَأْوِ المُنى
إنّ اغترارَكَ بالمُنى لَضَلالُ[(٢)]

ما أمْتَعَ الآمالَ لولا أنَّها
تعتاقُ - دون بلوغها - الآجالُ[(٣)]

مَنْ سُرَّ لمَّا عاشَ قلَّ مَتاعُهُ
فالعيشُ نومٌ، والسُّرورُ خَيالُ[(٤)]

☆☆☆☆

في كلِّ يومٍ نُنْتَحَى برزيَّةٍ
للأرض - من بُرَحائها - زَلزالُ[(٥)]

(١) في الذخيرة «انظر لحال السرو...» وفي ز «ولدولة العلياء كيف تزال»، السرو: المروءة والسخاء، حال: تغير، الإدالة: الغلبة والنصر، يقال: أدالنا الله من عدونا أو عليه أي نصرنا عليه، والمعنى: ما أعجب أن تتقلب الأيام فتطمس المروءة والسخاء وتزيل دولة العلياء بعد الازدهار والنماء.

(٢) الشأو: الغاية والأمد أو السبق، والمعنى: لا تحلق مع الخيال، ولا توسِّع صدرك لعظائم الآمال، فالغرور بالمنى ضلال أي ضلال.

(٣) عاقه عن كذا واعتاقه: حبسه عنه وصرفه، والمعنى: ما أعذب الآمال لولا أن الأعمار لا تتسع لتحقيقها، فبينما يتهيأ الإنسان لاستقبال أمانيه إذا بالمنية تطويه.

(٤) المعنى: من سرّه طول الحياة قلّ بها متاعه لما يعذبه من شيخوخة ووهن وانحلال، فما العيش إلا منام، وما السرور إلا طيف خيال.

(٥) انتحاه: قصده، البرحاء: شدة الأذى، تقول: برّح به الأمر أى جهده، المعنى: ما بالنا نصاب في كل يوم بخطب مبرح تكاد الأرض يصيبها من هوله الزلزال؟.

إن يَـنْـكَـدِرْ - بـالأمـس - نجـمٌ ثـاقـبٌ
فـاليـومَ أقلـعَ عـارضٌ هطّالُ[(١)]

إن النَّعِيَّ «لِجَـهْـوَرٍ» و«مـحـمـدٍ»
أبكى الغَـمـامَ، فـدمـعُـهُ مُنْثـالُ[(٢)]

شَكلان إن حُـمَّ الحِـمـام تجـاذبا
لا غـروَ أن تـتـجـاذب الأشكـالُ[(٣)]

ولّـى «أبـو بـكـرٍ» فـراعَ لـهُ الـوَرى
هـولٌ تقـاصَـرُ - دونَـهُ - الأهـوالُ[(٤)]

قَـمَـرٌ هَوى في التُّـربِ يُحْـثَى فَـوْقَـهُ
للّهِ مـا حـازَ الثَّـرَى الـمُنهـالُ[(٥)]

قـد قلتُ - إذ قِـيلَ السَّـريرُ يُقلُّهُ -
هل للسَّـريرِ بقَـدْرِهِ اسْـتِـقْـلالُ[(٦)]

الآنَ بـيَّـنَ لـلـعـقـول زَوالُـهُ
أنَّ الجـبـال قُـصـارُهُنَّ زَوالُ[(٧)]

(١) شهاب ثاقب: مضيء، قال تعالى: ﴿والسماء والطارق، وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب﴾، أقلع: كفّ، العارض: السحاب يعترض في الأفق، ومنه قوله تعالى: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾، هطال: متوالي المطر، والمعنى: إذا كان الأمير جهور قد انطفأ سراجه الوضاء بالأمس فقد مات اليوم ابن ذكوان ورحل عنا كما يرحل السحاب المطير.

(٢) انثال: انصبّ أو تتابع، والمعنى: أن نعيَ الأمير ابن جهور والقاضي ابن ذكوان أشاع مظاهر الأسى في جميع مظاهر الحياة حتى لقد بكاهما الغمام بدمعه الهتان.

(٣) الشكل: المثل جمعه أشكال وشكول، حمَّ: قدر، الحِمام، قضاء الموت وقدره، والمعنى: كان بين الأمير والقاضي تقارب في الشمائل والأمجاد، فلما طوى الموت الأمير جذب إليه القاضي كما تتجاذب النظائر وتتقارب الأمثال.

(٤) المعنى: مات أبوبكر بن ذكوان فأصاب موته البرية بنكبة لا تعدلها نكبة، وخطب تقصر عن هوله أشد الخطوب.

(٥) في نسخة ب، ت «قمر ثوى...» حثا الرجلُ التراب: هاله بيده، والمعنى: إن القاضي قمر هوى إلى التراب، ففي ذمة الله ما طواه الثرى المنهال من أمجاد وأفضال.

(٦) أقله: حمله أو رفعه عن الأرض، السرير: النعش قبل أن يحمل عليه الميت، استقلال: حمل، والمعنى: لما رأيته محمولاً على النعش عجبت كيف أطاق السرير حمل سؤدده وأمجاده.

(٧) قصاره وقصاراه: غايته وآخر أمره أو ما اقتصر عليه، والمعنى: أثبت موتُ الأمير للعقلاء أن الحياة مصيرها إلى الفناء، وأن الجبال مآلها إلى الزوال.

مــــا أقـــبحَ الدنيــــا! خـــــلافَ مـــودَّعٍ
غَنِيَتْ بـه في حُـــسْنهـــاً تَـخْـــتــــال[١]

☆☆☆☆☆

يا قَـــبْـــرَهُ العَطِرَ الثَّـــرى لا يَبْـــعَـــدَنْ
حُلوُ مُن الفِــتــيـــانِ فـــيكَ حَــــلال[٢]
مـــــا أنت إلا الجَّـــفْنُ أصـــــبح طيُّـــه
نَصْلٌ، عليــه - من الشَّــبــابِ - صِــقــال[٣]
فـــهُناك نَفَّـــاحُ الشَّــمـــائلِ مِـــثْلَمـــا
طَرقَتْ بـأنفـــاسِ الرّياض شَــــمـــــال[٤]
دانٍ مـــن الخُـــلـــق المـــزيَّـــن نـــازحٌ
عن كل مـــا فـــيـــه عليـــه مَـــقـــال[٥]
شِــيَمٌ ينافسُ حُـــسْنُهـــا إحْـــســـانَهـــا
كـــالرّاحِ نافسَ طَعْـــمَـــهـــا الجِــريال[٦]

☆☆☆☆☆

(١) خلاف مودع: بعده، يقال: قعدت خلافه أي بعده، قال تعالى: ﴿وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾، والمعنى ما أقبح الدنيا بعده فقد كان زينة لها وبهجة فيها، تتيه به وتختال أي اختيال.

(٢) الحلو الحلال: الرجل أو الكلام الذي لا ريبة فيه، أنشد ثعلب:

تصـــيّـــد بالحلو الحـــلال، ولا تُرى
على مكره يبـــدو بهـــا فـــيـــعـــيب

وقال الشاعر:

إذا كـــان أولاد الرجـــال حـــزازة
فـــأنت الحـــلال الحلو والبـــارد العـــذب

والمعنى: أيها القبر المعطر بحلوله فيك، لا أبعد الله مقر فتاك الطاهر الأمين.

(٣) المعنى: أيها الضريح الطاهر: لقد حلّ فقيدنا بك كما يحل السيف اللامع في جفنه، وكان الشباب قد صقله، ثم عدت عليه المنون.

(٤) طرق: وفد ليلاً، والمعنى: فيك أيها القبر جثمان فتى عاطر الشمائل، تهبّ علينا ذكراه المعطرة كما تحمل ريح الشمال نفحات الرياض، فتعطر الأجواء بعبيرها الفواح.

(٥) فيه عليه مقال: فيه مجال لأن يلومه اللائمون، قال هشام بن عبدالملك:

إذا أنت لم تعص الهـــوى قـــادك الهـــوى
إلى بعض مـــا فـــيـــه عليك مـــقـــال

والمعنى: كان الفقيد قريبًا كل القرب من مكارم الأخلاق، بعيدًا كل البعد عما يثير الملامة والعقاب.

(٦) الجريال: حمرة لون الراح، والمعنى: إن شمائل الأمير المادية والمعنوية يباري جمالها فضلها، كما أن طعم الراح ينافس لونها الجميل.

يا من شأى الأمثالَ، منه واحدٌ

ضُربَتْ به في السُّودد الأمثالُ(١)

نقَصَتْ حياتَكَ حينَ فَضْلُك كاملٌ

هلاّ استُضيفَ - إلى الكمالَ - كمال(٢)

وُدِّعْتَ عن عُمْرٍ عَمَرتَ قصيرَهُ

بمكارمٍ أعمارُهنّ طوال(٣)

مَنْ لِلنَّدِيِّ إذا تنازعَ أهْلُهُ

فاسْتَجْهَلَتْ حُلماءه الجُهَّالُ(٤)

لو كنتَ شاهِدَهُمْ لقلّ مِراؤُهُمْ

لأغَرُّ فيه - مَعَ الفَتاءِ - جَلال(٥)

مَنْ للعلومِ؟ فقد هَوَى العَلَمُ الذي

وُسِمَتْ به أنواعُها الأغْفالُ(٦)

---

(١) في سرح العيون «يا من نثا الأمثال فيه مهذب، ضربت له...» والنثا: التحدث عن إنسان بمدح أو قدح، شأى: سبق، والمعنى: أيها الراحل الكريم: لقد فقت أمثالك من العظماء، فصرت مضربًا للأمثال في السؤدد والكمال.

(٢) في سرح العيون «حيث فضلك»، وفيه وفي الذخيرة والأصول «هلا استضاف إلى الكمال كمال» ولعلها مأخودة من استضاف الرجلُ إلى الأمير: لجأ إليه، أنشد ابن الأعرابي:

ومارسني الشيبُ عن لمَّتي

فأصبحت عن حقه مستضيفا

وقد تكون «هلا أضاف..» بمعنى مال، قال ساعدة بن جؤية يصف سحابا:

حتى أضاف إلى واد ضفادعه

غرقى ردافى تراها تشتكي النشجا

وربما كان الصواب ما أثبتناه، والمعنى: لقد كمل فضلك ونقصت حياتك، فهل كملت حياته مثلما كملت سجاياك «والمعروف أن ابن ذكوان مات في سن الأربعين».

(٣) في ب، ت، ز «ودعت من عمر...» والمعنى: لقد متَّ بعد عمر قصير، ولكنك أطلته بآثارك الباقية وأمجادك الخالدة.

(٤) الندي: مجلس القوم ومتحدثهم ما داموا فيه، والمعنى: من ذا يتصدر النادي بعدك فيرد الجهال إذا أساؤا القول في الحلماء؟

(٥) المراء والمماراة: الجدل أو شدة الخصومة أو الطعن في الرأي تصغيرًا لقائله وتزييفًا لرأيه، ولا يكون المراء إلا اعتراضًا بخلاف الجدل فإنه يكون ابتداءً أو اعتراضًا، الأغر: الأبيض أو الشريف، الفتاء: الشباب، والمعنى: لقد كثر الجدل واللدد بعد فقدك، ولو كنت حاضرًا لانقطع الجدل توقيرًا لشخصك المهيب الذي جمع وقار الكهولة إلى نضرة الشباب.

(٦) الوسم والسمة: العلامة، الأغفال: الخالية من العلامات، والمعنى: أين العالم المدقق الذي يتعمق في دراسات العلوم العويصة بعدك؟ لطالما لجأ إليك الباحثون، ورووا عنك دراساتك العميقة التي تحاماها أكثر الدارسين.

من للقضاء يَعِزُّ - في أثْنائِهِ -
إيضاحُ مُشكلةٍ لها إشْكالُ(1)
مَنْ لليتيم تتابَعَتْ أرزاؤُه؟
هَلك الأبُ الحاني وضاع المال(2)
أَعززْ بأن ينعاك نَعْيَ شماتةٍ
للأولياء المعشرُ الأقتال(3)
فُجِعَتْ رَحَى الإسلام مِنكَ بقُطْبِها
ليتَ الحسودَ فِداكَ!! فَهْوَ ثِفال(4)

☆☆☆☆☆

زُرناكَ لمْ تأذَنْ كأنّكَ غافلٌ
ما كان منك لواجبٍ إغفال(5)
أينَ الحفاوةُ رَوْضُها غَضُّ الجَنَى؟
أينَ الطّلاقةُ ماؤها سَلْسَالُ؟(6)

---

(١) آثرنا رواية الذخيرة لما فيها من المجانسة التي أولع بها الشاعر، وفي الأصول «إيضاح مظلمة»، والمعنى من ذا يلجأ إليه القضاة بعدك لجلاء ما يعتريهم من مشاكل معقدة يضل فيها الباحثون؟

(٢) المعنى: إلى من يلجأ اليتيم بعدك إذا توالت عليه المصائب ففقد ثراءه بعد أن فقد والديه؟

(٣) الأقتال: جمع قِتْل وهو العدو أو المقاتل، والمعنى: عزيزٌ علينا أن يشمت فيك الأعداء الألداء، وأن ينقلوا نعيك إلى الأصدقاء الأولياء.

(٤) قطب الرحى: المحور الذي تدور حوله، الثفال: ما يوضع تحت الرحى من جلد أو نحوه ليقع عليه الدقيق، قال زهير بن أبي سلمى في وصف الحرب:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضريتموها، فتضرمِ
فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافًا، ثم تنتج فتتئم

أي إذا أثرتم الحروب فإنها سوف تنتشر وتشتعل كالنار فتطحنكم برحاها وتظل تنمو وتتوالد فلا تكاد تقف عند حد، والمعنى: لقد فقد الإسلام بك عماده المكين، فليت حاسديك كانوا لك الفداء، فهم من سقط المتاع.

(٥) المعنى: زرنا ضريحك فلم نسعد بلقائك كأنك غافل عنا، وما كنت في حياتك مقصرًا عن قضاء واجب أو غافلاً عن أداء الحقوق.

(٦) آثرنا رواية الذخيرة وفي الأصول «روضها سلسال»، الحفاوة: المبالغة في الإكرام والإلطاف والرعاية، غض الجنى: طازج الثمار، ماء سلسل وسلسال وسلاسل: سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والمعنى: أين منا الآن كرمك الوارف الظلال الغض الثمار؟ وأين منا الآن طلاقة وجهك المتهلل المحبوب؟

أيَّـامَ مَـنْ يـعــــــــــرِضْ عـلـيـكَ ودادَهُ

يَكُنِ الـقَــبــولُ بشــيـرَهُ الإقــبــالُ[١]

مـــهـــمـــا نُغِـــبَّكَ لا نُـرِبْكَ، وإن نَـزُرْ

رِفْـــهًـــا فـــمـــا لـزيارةٍ إمْـــلالُ[٢]

هـيـهـاتَ!! لا عَـــهْـدٌ كَـعَــهْـدِكَ عــائدٌ

إذْ أنتَ في وَجْـــهِ الزَّمـــانِ جَـــمـــالُ[٣]

فـــاذهـبْ ذهـابَ البُـرءِ أعْـقَـبَـهُ الضَّنَى

والأمـنِ وافَـتْ بَـعْـــدَهُ الأَوْجَـــالُ[٤]

لَكَ صـالحُ الأعـمـالِ إذْ شَـيَّـعْـتَـهـا

بالبِـرِّ سـاعـةَ تُعـرَضُ الأعـمـالُ[٥]

✡✡✡✡

حـيَّـا الحَـيـا مَـثْـواكَ، وامْـتَـدَّتْ على

ضـــاحِي ثَراكَ مِنَ النَّعـــيـمِ - ظِلالُ[٦]

وإذا الـنَّســيـمُ اعْـتَلَّ فـــاعْـتـامَتْ بـه

ســـاحـــاتِكَ الـغَـــدَواتُ والآصـــالُ[٧]

---

(١) المعنى: لقد كنت تمنح عطفك وبرك لكل راغب فيك، فتقبلُ مودته وتقبل عليه في بشر وإيناس.

(٢) الإغباب: الإقلال من الزيارة، والغب في سقي الإبل وفي الحمى يوم ويوم، وقال الحسن: الغبُّ في الزيارة في كل أسبوع، والرفه: أن ترد الإبل الماء كلما أرادت، والمعنى: كنا إذا أبطأنا عليك في الزيارة لا تتهم صداقتنا وإذا أكثرنا من زيارتك لا تمل لقاءنا فما أرعاك للصداقة والأصدقاء.

(٣) المعنى: لاسبيل لنا إلى أن نظفر بعهد مثل عهدك أو مودة كمودتك، فقد كنت جمال الزمان وزينة الحياة.

(٤) الأوجال: المخاوف، والمعنى: نم منعمًا في جوار الله فقد ذهبت عنا ذهاب الشفاء أعقبه الداء، وغادرتنا مغادرة الأمان حلّت بعده المخاوف والأهوال.

(٥) المعنى: لك الأعمال الصالحات مشفوعة بالبر والتقوى وستنال عند الله جزاءها حين تعرض عليه الأعمال.

(٦) الحيا: المطر، الضاحي: البارز للشمس، والمعنى: أدعو الله أن يسقي بالمطر الغزير مثواك، وأن يسبغ عليك ظلال الرحمة والرضوان.

(٧) اعتام الشيء واعتماه: اختاره، قال طرفة بن العبد:

أرى الموت يعـتـام الكرام، ويصطفى

عـقـيلة مـال الفـاحش المتـشـدد

والمعنى: أدعو الله أن يرسل النسيم العليل على ساحاتك في الصباح والمساء.

ولئنْ أذالَكَ - بَعْدَ طول صِيانَةٍ -

قَدَرٌ، فكلُّ مَصُونةٍ سَتُذالُ[1]

سيحوطُ مَنْ خلَّفْتَهُ مُسْتَبْصِرٌ

في حفظ ما اسْتَحْفَظْتَهُ لا يالو[2]

كَفَلَ الوزيرُ «أبوالوليدِ» بِجَبْرِهِمْ

إن الوزير - لمثلها - فَعَّالُ[3]

مَلِكٌ سَجِيَّتُهُ الوفاءُ، فما لهُ

بالعهد - في ذي خُلَّة - إخْلالُ[4]

حَتْمٌ عليه «لَعًا» لِعِثْرة حالهم

قد تَعْثُرُ الحالاتُ ثمَّ تُقالُ[5]

✡✡✡✡

(١) في سرح العيون «فلئن أذالك» وفي بعض نسخ الذخيرة «ولئن أذلك وقد آثرنا رواية نسخة ت والذخيرة وسرح العيون، وفي باقي الأصول «فكل مصونِه سيذال» أذال خادمةً: أهانه، وذال الرجلُ: هان، والمعنى: إذا كان الموت قد طواك وأنزلك من عليائك فكل مصون في الحياة مآله إلى الهوان.

(٢) لا يألو: لا يقصر (وقد خفف الشاعر الهمزة)، والمعنى سيحوط الأميرُ ابن جهور أسرتك من بعدك، ولن يدخر وسعًا في حفظ حقك، وهو بصير بواجب المروءة والوفاء.

(٣) المعنى: تكفل أبوالوليد بن جهور برعاية أسرتك وجبر صدعها ولم شملها، وليس هذا بغريب على مروءته ونبله، فإنه لأمثال هذا الإحسان معتاد.

(٤) الخلة: الصداقة والحب، والمعنى: إن ابن جهور ملك مفطور على الوفاء فلا يخل برعاية الأصدقاء.

(٥) لعا لك: أقالك الله من عثرتك، قال الشاعر:

كم قال قائلهم: «لعًا

لك» عند عثرته لعاثر

والمعنى: أوجب الأمير على نفسه أن يصلح شؤون أصدقائه ويقيل عثراتهم موقنًا بأن الحسنات يذهبن السيئات، وأن التوبة تجبُّ الذنوب، وأن الأمور قد تلتوي ثم تستقيم.

إيـهًــــا بنـي ذَكْــــوانَ!! إنْ غَـلَـبَ الأَسَـى

فلكُمْ إلى الصَّــبْــرِ الجـــمــيلِ مَــآلُ[1]

إن كــــان غـــابَ البَــــدْرُ عن ســــاهُورِهِ

مـنكـمْ وفــــارقَ غــــابَـهُ الرِّئـبــــالُ[2]

****

(١) إيهًا: حسبك، أو أسكت وكفّ، قال حاتم الطائي:

إيـهًــا فــدى لكمــو أمي ومــا ولدت

حـامـوا على مـجـدكم، واكفـوا من اتكلا

قال ابن الأثير، وقد ترد بمعنى التصديق والرضى بالشيء، ومنه حديث ابن الزبير - لما قيل لـه: يا ابن ذات النطاقين - قال: إيهًا والأله أي صدقتَ ورضيتُ ، وقد تكون آهًا بمعنى أسفًا وحزنًا، والمعنى: كفوا عن الأسى يا بني ذكوان، وافزعوا إلى الصبر الجميل فإنه غاية العقلاء المتقين.

(٢) الساهور: دارة القمر، الرئبال: الأسد أو الذئب، والمعنى: إن كان بدركم قد غاب عن دارته، وفارق أسدكم غابته فافزعوا إلى الصبر الجميل.

عليها سلام الله

نظم الشاعر هذه القصيدة معزيًا الأمير أبا الوليد بن جهور في أمه:

هُوَ الدهرُ!! فـاصْـبِـرْ للذي أحـدثَ الدهرُ
فـمِنْ شِيَمِ الأبرار – في مِثْلِها – الصَّبرُ[1]
سَتَصْبِرُ صبرَ اليأسِ أو صَبْرَ حِسبةٍ
فَلا ترضَ بالصَّبرِ الذي مَعَهُ الوِزر[2]
حِذارَكَ مِنْ أنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فتنةً
يضيقُ لها – عن مثلِ أخلاقِكَ – العذر[3]
إذا آسَفَ الثُّكلُ اللبيبَ فَشَفَّهُ
رأى أبرحَ الثُّكلينِ أن يحبَطَ الأجرُ[4]
مُصابُ الذي يأسى بمَيْتٍ ثَوابِهِ
هُوَ البَرْحُ، لا الميْتُ الذي أحرزَ القَبْرُ[5]

☆☆☆☆

(١) المعنى: صبرًا لما أصابكم به الدهر، فإن الصبر الجميل من شيمة الأحرار.

(٢) في أ، ب، (معه وزر)، الحسبة: الأجر، قال ابن الزيات في رثاء زوجه واصفًا حالة طفله بعدها:

ضعيف القوى، لا يطلب الأجر حسبة
ولا يأتسي بالناس في الحدثان

والمعنى: لا بد للحزين من الصبر إمًّا يأسًا وإمّا طلبًا للثواب، فأرجو أن تأبى صبر القنوط الذي تكثر به الذنوب وتحبط به الحسنات، وقريب من هذا قول المتنبي:

وللواجد المكروب من زفراته
سكونُ عزاء أو سكونُ لغوب

(٣) المعنى: أرجو ألا تتساق مع الحزن إلى غايته حتى لا تتجم عن المصاب فتنة يضيق عنها العذر، وبخاصة لمن يتسم بمثل أخلاقك الكريمة وشمائلك العذاب.

(٤) شفه الحزن: هزله، أبرح الألم، أشده، المعنى: إذا برح الحزن بالعاقل الحكيم وأنحل بدنه لجأ إلى الصبر للثواب، فإن أكبر نكبة أن يجمع الإنسان بين المصاب العظيم والجزع المميت الذي يحبط الحسنات.

(٥) البرح: الشدة والشر، ولقيَ منه البرحين أي الدواهي والشدائد، والمعنى: إن إشد المصائب أن يفقد الإنسان إيمانه بالله وثقته فيه وتسليمه أموره إليه، فالموت أهون من هذا لأنه مصير كل إنسان.

حـــيـــاةُ الـوَرَى نَـهْجٌ إلى الموتِ مَـــهْـــيَعٌ
لهمْ فــيــه إيـضــاعٌ كــمــا يوضَعُ السَّـفـرُ[1]

فـــيـــا هاديَ الـمِنهــاجِ جُــرْتَ فــإنّمـــا
هُوَ الـفــجـرُ يَهْـديكَ الصِّــراطَ أو البَـجْـرُ[2]

لنا - في ســـوانا - عِـبــرةٌ غـــيـــرَ أنَّنا
نُـغَـــرُّ بأطمـــاعِ الأمـــانِي فَنَغْـــتَــرُّ[3]

إذا الموتُ أضــحى قَــصْــرَ كلِّ مُـعَـمَّــرٍ
فـــإنَّ سَـــواءً طالَ أو قــصُــر الـعُـمْــرُ[4]

☆☆☆☆☆

ألَــمْ تَــرَ أنَّ الــدِّيــنَ رِيــعَ ذِمـــــــــــارُهُ
فلمْ يُـغْنِ أنصـــارٌ عَـــديدٌ ولا وَفْـــــرُ[5]

بـحـــيثُ اسْـــتَـــقَلَّ الــمُلْكُ ثانِيَ عِطْفِـــهِ
وجَـــرَّرَ مِنْ أذيالِهِ الـعَـــسْكَرُ الـمَـــجْـــرُ[6]

---

(١) النهج: الطريق الواضح، مهيع: بين واضح، إيضاع: إسراع، قوم سفرٌ: مسافرون، والمعنى: حياة الورى طريق واضح موصل إلى الموت يسرع فيه الأحياء كأنهم مسرعون في السفر إلى هدف منشود.

(٢) المنهاج: الطريق، البجر: الشر أو الأمر العظيم أو العجب، يقال لقيت منه البجارى أو الأباجر أي الدواهي، وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: «يا هادي الطريق جرت، إنما هو والله الفجر أو البجر» أي إن انتظرت حتى يضيء الفجر أبصرت الطريق، وإن خبطت في الظلماء أفضت بك إلى المكروره، ويُروى البحر، يريد به غمرات الدنيا تشبيها لها بالبحر لتحيّر أهلها فيها، والمعنى: أيها الهادي إلى الطريق السوي: لقد جرت على نفسك وعلى من تهديهم، فليس أمامك إلا طريقان: إما أن تتلمس الضوء لتسير على هداه، وإما أن تتخبط في الظلماء فتتردى في الهاوية وتهوى في قرار سحيق.

(٣) المعنى: إنّ في موت غيرنا عبرة لنا أيّ عبرة، ولكن الأماني الخداعة تحملنا على مطايا الغرور.

(٤) قصرك أن تفعل كذا وقصارك وقصاراك: جهدك وغايتك والمعنى: إذا كان الموت نهاية كل حيّ فإن طول العمر وقصره سيّان.

(٥) الذمار: ما يلزمك حفظه وحياطته والدفاع عنه، أو الحرم، أو الأهل، أو المال، والمعنى: لقد أصبح حمى الدين مباحًا بعد فقدك، فلم ينفعه وفره ولا أنصاره العديدون.

(٦) استقلّ بنفسه: كان ضابطًا لأمره واستقل الطائر: ارتفع، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

يا طيب طعم ثناياها وريقـــتـــهـــا
إذا استـقلّ عـمـود الصـبح فـاعـتـدلا

ثنى عطفةُ: تاه وتكبّر، قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله﴾ العسكر المجر: الجيش العظيم، والمعنى: فقدك الدينُ، فلم يغنه عن فقدك الأنصار العديدون الذين ارتفع بهم شأن الملك فتمايل مفتخرًا تياهًا، وجرَّ بهم الجيش العظيم ذيول المجد والفخار.

هو الضَّـيْمُ لو غَـيْـرُ القَـضـاءِ يَرُومُـهُ
شـآهُ الـمَـرامُ الصَّـعْبُ والـمَـسْلَكُ الوَعْـرُ(١)

إذا عَـثَـرَتْ جُـرْدُ السَّـوابحِ في القَنا
بليلِ عَـجـاجٍ ليس يَصْـدَعُـهُ فَـجْـرُ(٢)

لـقـد بكَر الـنَّـاعي علـينـا بـدَعـوةٍ
عَـوانٍ أمَـضَّـتْنا لهـا لَوعَـةٌ بِكْرُ(٣)

٭٭٭٭٭

أأنْفَسَ نَفْسٍ – في الوَرَى – أقْـصَـدَ الرَّدى؟
وأخْطَرُ عِلْقٍ – لـلـهُـدَى – أهلَكَ الـدَّهْرُ(٤)

هَنيـئًـا لبَطنِ الأرضِ أُنْسٌ مُـجَـدَّدٌ
بثـاويةٍ حَلَّتْـهُ فـاسْـتَـوْحَشَ الظَّهْـرُ(٥)

---

(١) شآه: سبقه أو حزنه، والمعنى: لقد نكبنا الموتُ فيك، ولو رامك غير القضاء المحتوم لرده عن هدفه المسلك الشائك، وثناه عن غايته المطلب العسير.

(٢) الجرد: خيل لا رجالة فيها، أو الخيل القصيرة شعر الجلد وهو من الأوصاف المحمودة في الخيل، قال أبوالمناصف:

والفـرس القـصـيـرُ شـعـر الجلد
بـرقـة أجـردُ نجـل جُـرد

السوابح: الخيل السريعة الجري كأنها تسبح في الهواء، العجاج: الدخان أو الغبار، يصدعه: يشقه، والمعنى: لو نالك غير القضاء المحتوم لثارت الحروب الطاحنة التي تتعثر فيها الخيول بالرماح في مواقع عنيفة يثور فيها الغبار كالليل البهيم الذي لا ينشق له صباح.

(٣) العوان: النصف في سنها من كل شيء، والحرب العوان هي التي يستعر فيها القتال مرة بعد أخرى كأنهم جعلوا الأولى بكرًا، والحرب العوان هي أشد الحروب، والمعنى: لقد طالعنا الناعي بالنعي مرارًا لبعض الأعزاء، ولكنه في هذه المرة أثار في جوانحنا حزنًا ممضًا لم نشعر له من قبل بنظير، وشبيه بهذا قول أشجع بن عمرو السلمي:

كـأن لم يمت حي سـواك ولـم تقم
علـى أحـد إلا علـيك الـنوائـح

(٤) أقصد فلاناً: طعنه فلم يخطئه أو أصابه فأماته مكانه، وأقصدت الحية فلانا: لدغته فقتلته، قال أبوحية النميري:

رمين فـأقـصـدن القلوب، ولم تجـد
دمًـا مـائرًا إلا جـوًى في الحـيـازم

العلق: النفيس، والمعنى: هل طوى الموت أنفس روح بين الأنام، وهل أهلك الدهر أغلى نفس في الحياة.

(٥) المعنى: هنيئًا للأرض أن هذه السيدة الوقورة حلت ببطنها فآنسته وأوحش ظاهر الأرض بعد رحيلها عنه.

بطاهـرةِ الأثواب، قــــانِتَــــةِ الـضُّــــحَى
مُــسَــبِّــحَــةِ الآناءِ، مِــحْــرابُـهـــا الخِـدرُ[1]
فــإن أُنِّثَتْ فـــالنفسُ أنثى نفــيـــســـةٌ
إذِ الجـسمُ لا يَسْـمـــو لتـذكــيــره ذِكْــرُ[2]
حَـصَـانٌ، إنِ الـتَّـقْـوَى اسْـتَـبَـدَّتْ بسـرِّها
فـمن صـالحِ الأعـمـالِ يُسْـتَـوْضَحُ الجَـهْـرُ[3]
يُطَأْطَأُ سِــتْـــرُ الصَّــون دونَ حِـجــابِهــا
فـيُـرْفَعُ - عن مَـثْنَى نوافِلِهـا - السِّـتْـرُ[4]

☆☆☆☆☆

لَعَــمْــرُ البُــرودِ البِــيضِ في ذلك الثَّــرَى
لقـد أُدْرِجَتْ - أثناءَهـا - النِّعَمُ الخُــضْــرُ[5]
عليـــهـــا ســـلامُ اللّهِ تَتْــرَى تَحِـيَّـــةً
يُنَسِّــمُـهـا الغُـفـرانَ رَيْحـانُهـا النَّضْـرُ[6]

(١) طاهرة: الأثواب: نقية من الدنس، قنت لله: ذل له أو أطاعه، أو دعاه، أو قام في الصلاة، قال تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، الآناء: جمع إنو أو إني أو أَنْي أو إِنْى، وهو أي ساعة من ساعات الليل وقيل وهن منه، والمعنى: لقد أنس بطن الأرض بسيدة صالحة طاهرة نقية تقوم للعبادة في الضحى وتسبح الله أثناء الليل، فقد جعلت من خدرها مسجدًا ومحرابًا.

(٢) في الذخيرة «لا يسمو بتذكيره» المعنى: إذا كانت الفقيدة أنثى فلن تقلل أنوثتها من خطرها، فالنفس مؤنثة، والجسم مذكر، مع أنّ قيمة الإنسان بنفسه لا بجسمه، وشبيه بهذا قول المتنبي:

ولو كـان النسـاء كـمن فـقـدنا
لفـضلت النسـاء على الرجـال
ومـا التـأنيث لاسم الشـمس عـيب
ولا التـذكـيـر فـخـر للهـلال

(٣) في الذخيرة (استبدّت بذكرها) امرأة حصان وحاصن وحصناء: عفيفة أو متزوجة، والمعنى: إن الفقيدة طاهرة عفيفة تعمر خشية الله قلبها فتنم على تقواها أعمالها الصالحات.

(٤) النوافل: جمع نافلة وهي عطية التطوّع ومنه نافلة الصلاة، والمعنى: إن لها - دون ستر حجابها - ستارًا من الصون والعفاف يسدل عليها فيرتفع مظهرًا عطاياها العديدة.

(٥) النعم الخضر: الطيبة المحبوبة، وفي الحديث: «إن الدنيا حلوة خضرة مضرة فمن أخذ بحقها بورك له فيها»: والمعنى: وحق الثياب البيضاء المودعة في الثرى لقد ضمّت في ثناياها نعما طيبة محبوبة لاجتماعًا مدفونًا في التراب.

(٦) تترى: أصلها وترى يقال جاءوا تترى بمعنى متواترين أي متتابعين، وقد عدّى الشاعر هنا الفعل (نسمَ) إلى مفعولين مع أنه فعل لازم.

والمعنى: عليها سلام متتابع من الله تحية لها مشفوعة بالغفران لما قدمته من صالح الأعمال، وما عطرت به حياتها من أطيب الآثار.

وعـــاهَدَ تلك الأرضَ عَــهْـدُ غَــمـــامـــةٍ

إذا اسْـتَـعْـبَـرَتْ في تُربِـهـا ابْـتَـسَمَ الـزَّهرُ[١]

☆☆☆☆☆

فــــديناكَ إنَّ الـرُّزءَ كـــان غَــمـــامَـــةً

طَلَعْتَ لنا فـيـهـا كـمـا يَطْلُعُ الـبَـدْرُ[٢]

ألَسْتَ الـذي - إن ضــاقَ ذَرْعٌ بحــادثٍ -

تَبَلَّجَ منه الـوَجْــهُ واتَّسَعَ الـصَّـدْرُ[٣]

تَـعَــزَّ بحــوّاءَ - الـتي الخَلْقُ نَسْلُـهـا -

فمَنْ دونها، في العَصْرِ يَتْـبَـعُـهُ العصر[٤]

نســاءُ الـنبيّ المصطَفَى أُمَّــهــاتُنا

ثَوَيْنَ، فَـمَـغْـناهُنَّ - مُـذْ حُـقُبٍ - قَـفْـرُ[٥]

وجـازَيْتَـهـا الحُـسْنَى، فـأمٌّ شـفـيـقـةٌ

تَحَــفَّى بهـا ابنٌ كلُّ أفــعـالِهِ بِرُّ[٦]

تمنَّتْ وفـاةً في حـيـاتِكَ، بَعْـدَ مـا

توالَتْ - كنظم العِـقْـدِ - آمـالُهـا النَّثْـرُ[٧]

---

(١) عاهد: عاقد وحالف، العهد: الوفاء والضمان، والمعنى: أسأل الله أن ينضر ثراها بمطر دائم كلما سال عليها تبسم زهرها ضاحكًا.

(٢) المعنى : نحن فداؤك أيها الملك العظيم، إن المصاب الذي أصابنا بفقد والدتك أظلم علينا إظلام السحاب، ولكنّك بدّدت ظلمته كما يبدّد القمرُ الظلام.

(٣) الذرع: بسط اليد، وضاق به ذرعًا: لم يطقه ولم يقو عليه، كأنه مدّ يده إليه فلم ينله، تبلج: أضاء أو ضحك وهش، والمعنى: كلّما ألمت بنا الحوادث وضقنا بها ذرعًا فرجتها عنا بوجهك المشرق البسام وصدرك الواسع الحليم.

(٤) المعنى: لك أيها الملك العظيم عزاء في أم البشر حواء ومن تلاها من عظيمات النساء.

(٥) المغنى: الدار التي بها أهلها: الحقبُ: الدهر وجمعه أحقاب، والحقب: السنون جمع حقبة، والمعنى: لقد ماتت أمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وأقفرت منهن دارهن فهي خواء منذ عصور سحيقة.

(٦) المعنى: لقد كنت بارًا بأمك تبادلها إحسانًا بإحسان فهي أم شفيقة رؤوم، يُعنى بها ابن كريم جميع فعاله تتسم بالبر والوفاء.

(٧) المعنى: تمنت الفقيدة أن تذوق الردى وأنت حيٌّ، فأجاب الله رجاءها كما حقّق لها جميع أمانيها، فوافت متوالية كالعقد النظيم.

كـــأنَّ الـرَّدى نَذْرٌ عليـــهـــا مُـــؤكَّـــدٌ
فــإنْ أسْــعِــفَتْ بالحظّ فــيك وَفَى النَّذْرُ(١)

تَولَّتْ فـــأبْقَتْ من مُـــجـــابِ دُعـــائِهـــا
نَفـــائِسَ ذُخــرٍ مـــا يُقـــاسُ بـهِ ذُخْـــرُ(٢)

تَتِمُّ بـه الـنُّعْـــمــى، وتَتَّـــسِقُ الـمُنَى
وتُسْـتَـدْفَعُ البَلْوى، ويُسْـتَـقْبَلُ الصَّـبْـرُ(٣)

فـــلا تَهِضِ الدنيـــا جنـاحَكَ بَعْـــدَهَا
فـمنكَ - لمن هاضَتْ نوائبُـهـا - جَـبْـرُ(٤)

ولا زلت مـــوفــــورَ الـعَـــديدِ بـقُــــرّةٍ
لِعَـــيْنَيْكَ مـــشـــدودٍ بـهمْ ذلك الأزر(٥)

☆☆☆☆☆☆

بنـي «جَـــهْـــورٍ» أنتمْ ســمـــاءُ رياســةٍ
مَناقِــبُكُمْ - في أفْــقِــهـــا - أنْجُمٌ زُهْرُ(٦)

تَـرى الدَّهْـرَ: إنْ يَبْـطِشْ فـــمنكم يمينُهُ
وإنْ تَضْــحكِ الدنيـا فــأنتمْ لهـا ثَغْــرُ(٧)

---

(١) المعنى: كأن الفقيدة قد نذرت نذرًا مؤكدًا لله أن تقابل المنية فرحة متهللة إذا حقّق الله جميع آمالها فيك، فلما تمّ حظها بك وفت بنذرها واستقبلت الردى في بهجة وسرور.

(٢) المعنى: لقد طواها الردى، ولكن دعواتها الصالحة المجابة ظلت باقية بعدها معدودة من أثمن الذخائر الخالدات.

(٣) المعنى: إن دعواتها الصالحة وسيلة إلى أن يتمم الله عليك النعم، وأن يحقق لك الآمال، ويدفع عنك البلاء، ويلهمك الصبر في البأساء والضراء.

(٤) هاضَ الجناحَ: كسره، والمعنى: أدعو الله ألاّ تصدمك الدنيا في الفقيدة الكريمة، فإنك صلاحٌ لكل من تطحنه النوائب أو تصدمه الكوارث أو تتجهم له الحياة.

(٥) قرة العين: سرورها وقرّت عينه: ضدّ سخنت، وأقر الله عينه: أعطاه حتى تقرّ فلا تطمح إلى من هو فوقه، ويقال حتى تبرد ولا تسخن، فللسرور دمعة باردة، وللحزن دمعة حارة، الأزر: المعونة والنصر، والمعنى: أسأل الله أن يزيد عددك ببنيك ويجعلهم قرة لعينيك، وأن يشّد أزرك ويتم لك بهم النصر والتأييد.

(٦) آثرنا رواية الذخيرة والخريدة والمطرب، وفي أصول الديوان «لعافيكم في أفقها أنجم زهر»، المناقب: المفاخر، والمعنى: يا بني جهور: لقد علوتم في أمجادكم حتى أصبحتم في رياستكم سماء، تشرق فيها مفاخركم كالأنجم الزهراء.

(٧) في تمام المتون «وإن تبسم الدنيا»، والمعنى: الدهر إذا بطش فأنتم يده الباطشة، وإن الدنيا إذا ابتسمت فأنتم ثغرها البسام.

لكمْ كلُّ رَقْـــراقِ الـسَّــــمـــــاحِ كــــأنَّهُ
حـــســـامٌ عليــه - من طلاقَـــتِـــهِ - أَثْرُ[1]
سَـــحـــائِبُ نُعْـــمَـى أبرقتْ وتدفَّـــقتْ
فـصَـيِّـبُـهـا الجَـدْوَى، وبارِقُـهـا الـبِـشْـرُ[2]
إذا مـــا ذُكــرتُمْ، واسـتُـشْـفَّتْ خِـلالُكمْ
تضـوَّعتِ الأخـبـارُ، واسْـتَـمْـجَـدَ الخُـبْـرُ[3]
طريقَـــــتُكُمْ مُـــــثْلَى، وهَـدْيُكُمُ رِضًى
ومـــذهـبُكُمْ قَـــصْـــدٌ، ونـائِلُكُمْ غَـــمْـــرُ[4]
وكم ســائلٍ - بـالـغــيـب عنكُمْ - أجَـبْـتُـهُ
هـنـاك الأيادي الـشُّــفْعُ، والـسُّـودَدُ الـوِتْرُ[5]
عَـــطـــاءٌ ولا مَـــنٌّ وحُـــكْــمٌ ولا هـــوًى
وحِلمٌ ولا عَـــجْـــزٌ وعِـــزٌّ ولا كِـــبْـــرُ[6]
قَـدِ اسْـتَـوفَتِ النَّعْـمـاءُ فـيكمْ تَـمـامَـهـا
علينا، فــمِنَّا الحَـــمْـــدُ للّهِ والشُّكرُ[7]

****

(١) رقراق السحاب: ما تلألأ منه، وكذلك كل شيء له لألاءَ، الأثر والإثر: فرند السيف ورونقه، والمعنى: فيكم كل فتى سمح متهلل كريم كأنه سيف صقيل يبهر النظر بما فيه من لمعان ولألاء، وفي تمام المتون «من طلاقته بشر».

(٢) الصيِّب: السحاب الهاطل، الجدوى: العطية، والمعنى: سحائب أفضالكم قد لمع برقُها وتدفق مطرُها فقاضت بالهبات وتهلّلت بالبشر والحبور.

(٣) استشفّ الشيء: نظر ما وراءه، تضوّع: فاحت رائحته، استمجد: استكثر، وفي المثل «في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار» كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما، قال الأعشى:

وزنـدك خـــــيـــــــر زنـاد الملـو
ك، صـــادف منهن مـــرخٌ عـــفـــارا

الخبر: العلم بالشيء، والمعنى: إذا روى أنباءكم المتحدثون تعطرت بها الأفواه، وإذا رآكم المتطلعون وجدوا مظاهركم مطابقة لأخباركم في السؤدد والكمال.

(٤) في نسخة ز «ونائلكم قصد ومذهبكم غمر»، المثلى: الفضلى، النائل: العطاء، الغمر: الكثير، والمعنى: لقد جمعتم الفضائل كلها، فطريقتكم أفضل الطرق، وقيادتكم أحب القيادات، ومذهبكم معتدل مقبول، وكرمكم فياض عميم.

(٥) في الخريدة «وكم سائل بالغيب عنهم»، والمعنى: كم سائل متطلع لأخبارهم أجبته: إن مكارمهم متتالية مزدوجة، وإن مجدهم منفرد معدوم النظير.

(٦) المعنى: إن عطاءهم لا يكدر صفوَه المن، وحكمهم لا يميل به الهوى، وحلمهم لا يتبعه العجز، وعزهم لا تشوبه الكبرياء.

(٧) المعنى: لقد أتمت السعادة بكم نعماءها علينا، فلله منا أطيب الحمد وأعذب الثناء.

منهل الردى

توفيت أم المعتضد فرثاها الشاعر بهذه القصيدة:

ألا هلْ دَرى الدّاعي المُثَوِّبُ - إذْ دَعَا
بنَعْيكِ - أنَّ الدِّينَ مِنْ بعضِ ما نَعَى؟[(١)]
وأنَّ التُّقَى قد آذَنَتْنا بفُرقةٍ
وأنَّ الهُدى قد بان منكِ فودّعا[(٢)]
لرزئكِ تنهلّ الدموع، فمثلُهُ
- إذا حلَّ - ودّ القلبُ لو كان مَدْمَعا[(٣)]
لقد أَجْهَشَ الإخلاصُ بالأمسِ باكيًا
عليكِ، كما حنّ اليقينُ فرَجّعا[(٤)]
ودُنيا وجدنا العيش في غَفَلاتها
طريقًا - إلى وِرد المنيّةِ - مَهْيَعا[(٥)]
نُعلّلُ فيها بالمُنَى فَتَغُرُّنا
بوارقُ ليس الآلُ منها بأخْدَعا[(٦)]

---

(١) ثوب الداعي: إذا دعا مرة بعد أخرى، المعنى: أيعرف الناعي الذي ردد علينا أنباء الفجيعة أنه نعى إلينا الدين يوم نعاك؟.

(٢) المعنى: وهل يعلم الناعي أن التقوى فارقتنا بفراقك، وأن الهدى حينما رحلَت عنه آذننا بعدك بالرحيل؟ ولعل الأصوب أن يقول «بان منا فودعا» أي فقدناه يوم فقدناك.

(٣) المعنى: إن رزءك كفيل بإثارة الدموع وانسكاب العبرات، وإذابة القلوب حتى تتمنى أن تسيل في فيض الدموع.

(٤) أجهش وجهش إلى إنسان: فزع إليه وهو يريد البكاء كالصبّي يفزع إلى إمه وقد تهيأ للبكاء، وفي الحديث «أصابنا عطش فجهشنا إلي رسول الله. صلى الله عليه وسلم»، رجع واسترجع: آلمه المصاب فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، والمعنى: لقد تفجرت دموع الوفاء عليك، كما أن الإيمانُ من هول المصاب هاتفًا: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(٥) المهيع: الطريق البعيد الواسع، المعنى: إنَّ الدنيا طريق واسع يفضي بنا إلى الهلاك، ونحن مسوقون إلى الردى في غفلة بالعيش الخداع عن مصيرنا المحتوم.

(٦) الآل: السَّراب، أو ما يشبهه في أول النهار وآخره كأنه يرفع الشخوص وليس هو السراب، والمعنى: إن الحياة تغرنا بالآمال الخداعة كالسراب، أو هي أمعن منه في الوهم والضلال.

أُصِبْنا بما لوْ أنَّ هَضْبَ مَتالعٍ
أُصيب به لانْهَدَّ أو لتَضَعْضَعا(١)

مَنارٌ - من الإيمانِ - لم يَعْدُ أنْ هَوَى
وحبلٌ - منَ التّقوى - وَهَى فتقطّعا(٢)

وشمسُ هُدًى أمسى لها التُّرْبُ مَغْرِبًا
وكان لها المِحرابُ - في الخِدْرِ - مَطْلعا(٣)

✡✡✡✡✡

لئن أُتْبِعَتْ منّا غَمامةَ رحمةٍ
لقد ظَلّلَتْ ذاك السّريرَ المُرفَّعا(٤)

سريرٌ بأملاكٍ وزُهرِ ملائكٍ
إلى جنّة الفردوسِ - راحَ مُشَيَّعا(٥)

لِتَبْكِ الأيامَى واليَتامى فقيدةً
هيَ المُزْنُ أحيَا صَوبُهُ ثُمَّ أقشعا(٦)

أضلّهُمُ فقدانُها، فكأنّما
أضَلَّتْ سَوامُ الوحشِ في الجَدْبِ مرتعا(٧)

---

(١) الهضب: الجبل المنبسط، المتالع: مسايل الماء فوق الجبال إلى الوديان، ومتالع: ماء في شرقي الظهران عند الفوارة، وهضبُ متالع: موضع انحدار الماء في سفح هذا الجبل، قال كثير عزة::

بكى سائب لما رأى رمل عالج
أتى دونه، والهضب هضب متالع

المعنى: فجعنا فيك بمصيبة فادحة لو أصابت هضب متالع لانهدّ ركنه وهوت جوانبه.

(٢) المنار: علم الطريق، أو موضع النور، والمعنى: لقد كنت منارًا هاديًا مرفوعًا لم يلبث أن هوى إلى التراب، وحبلاً متينًا من التقوى لم يلبث حتى ضعف فتمزّق كل تمزيق.

(٣) المعنى: لقد أشرقت في أفقنا شمسًا للهداية، ثم لم تلبث أن غربت هاوية إلى التراب، وطالما طلعت في خدرها قانتة في المحراب.

(٤) السرير: النعش قبل أن يحمل عليه الميت، المعنى: لقد ظللتها غمائم الرحمات حينما أتبعناها بصالح الدعوات.

(٥) المعنى: لقد شيعتها الملائكة الأبرار، وحف بسريرها الملوك الوضاءون كالنجوم.

(٦) في نسخ ب، ت، ز، «قعيدة» قعيدة الرجل وقعاده: زوجته: الأيامى: جمع أيم وهي التي لا زوج لها سواء كانت بكرًا أو ثيبًا، المزن: السحاب الممطر، صوب المطر: نزوله، والمعنى: لتبك الأرامل والأيتام عليك، فقد كنت سحابًا يهطل عليهم بالإحسان، ثم لم يلبث أن تركهم للذل والهوان.

(٧) سوام الوحش: الوحوش الراعية في الخلاء، والمعنى: لقد فقد بعدها اليتامى والأيامى آمالهم، وضاقت بهم سُبُل الحياة كما يفقد الحيوان السائم في الفلوات مرتعه الخصيب.

مُسبِّحةُ الآناء، قانتةُ الضُّحى
ثَوَتْ فثَوى مَغنى التأوُّهِ بَلقعا[1]

تبيتُ مع الإخباتِ مُسعرةَ الحَشا
تقيّةَ مَنْ يَخْشى إلى الله مَرجعا[2]

إذا ما هي استَوْفَتْ من البِرّ غايةً
تأتّتْ لأخرى، لا ترى تلك مَقنعا[3]

كأن قضاءَ الواجباتِ مُحَرَّجٌ
تَقَبُّلُهُ إلاّ بأنْ تتطوّعا[4]

✡✡✡✡✡

أصَرْفَ الرّدى! لو أنَّ للسّيْفِ مَضرِبًا
لما رُعْتَنا، أو أنَّ في القوسِ منْزَعا[5]

فلو كنتَ إذْ ساتَرْتَ رامَ مُجاهرٌ
ذِمارَ الهُدَى كان المَحُوطَ المُمَنَّعا[6]

إذًا لَثَناهُ الجيشُ من كلِّ ألْيَسٍ
يُشايع قلبًا في الحِفاظِ مُشيَّعا[7]

---

(١) الآناء: جمع إنو أو إني أو أنًى أو إنًى وهو أي ساعة من ساعات الليل، وقيل وهن منه، قنت لله: ذل له أو أطاعه أو دعاه أو قام في الصلاة، والمعنى: كانت الفقيدة تقوم الليل مسبحة حامدة وتؤدي صلاة الضحى خاشعة خاضعة، ولما طواها الموت أقفر بعدها محراب التأوه والخضوع لله.

(٢) في نسخ ب، ت، ز «تبيت مع الإخبات» الإخبات: الخشوع لله، والتقاة والتقية: التقوى، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، والمعنى تبيت في محرابها خاشعة لله واجفة القلب مضرمة الأحشاء من خشيته مشفقة من لقائه.

(٣) تأتًّى: تهيّأ، المعنى: إذا بلغت أقصى غاية من أحد وجوه البر فإنها لا تقنع بما بلغته بل تتهيأ لغيره من المبرات.

(٤) محرّج أو محرم، المعنى: كأنها ترى قضاء الفرائض غير مقبولة عند الله ما لم تشفعها بالسنن والنوافل.

(٥) المنزع: السهم الذي يُرمى به أبعد ما يقدر عليه، والمعنى: أيها الموت لو أن في سيوفنا موضعًا للضراب، ولو أن في أقواسنا سهامًا للرمي ما استطعت أن تفجعنا بهذا المصاب الأليم.

(٦) الذمار: ما يلزمك حفظه وحمايته، والمعنى: لو جاهرتنا أيها الموت بنيتك في القضاء على الفقيدة التي كانت منارًا للهدى لحفظناها من صولتك ولكنك انسللت إليها في الخفاء.

(٧) الأليس: الشجاع أو الأسد، يشايع: يتابع ويلاحق، المشيع: الشجاع، والمعنى: لو رامك الموتُ مجاهرًا لصدّه الجيش المكون من كل أسد كاسر يتابع قلبه الشجاع في معارك النضال.

«ومــعــتــضِــدٌ بالله» يَحْــمي ذِمــارَهُ
فــلا سِـرْبَ يُلفَى - في حِـمــاهِ - مُـروَّعــا[1]

ولكن عـــرَرْتَ الـمَلْكَ - من حـــيثُ لا يرى -
فلمْ يســتطعْ للحــادثِ الحَــتْمِ مَـدفـعــا[2]

يـغــيظُ الـعِــتــاقَ الجُــرْدَ ألاّ ترى لـهـــا
مــجــالاً، فـتــعنو في الـمَـرابطِ خُـشَّـعـا[3]

وتـأنَـفُ بـيضُ الـهـندِ أنْ لـيس تُـنْتَـــضَـى
وسُـــمْــرُ القَنا ألا تُـهَـــزَّ وتُشــرَعـــا[4]

✡✡✡✡

لـئن ســـاءَكَ الـدّهـرُ الـمُـــسيءُ فـلـمْ يكنْ
بـأوّلِ عــهــدٍ واجبِ الحِــفْظِ ضَـيَّـعــا[5]

شَــهِــدْنا: لقــد طرّزتَ بُرْدَ جَــمـــالِهِ
وقلّدْتَهُ عِــقْــدَ البَــهــاءِ مُـرصَّـــعـــا[6]

ومــا فَــخْــرُهُ إلاّ بـأنْ كــان مُـصْـغِـيًـا
لأمْـــرِكَ إن ناديتَ لبّى فـــأســـرعـــا[7]

---

(١) السرب: القطيع من الظباء أو الخيل أو النساء، المعنى: ولو رامك الموت مجاهرًا لردّه المعتضد بالله، فإنه ملك شجاع يذود عن حرمه فلا يرتاع في حماه إنسان أو حيوان.

(٢) عرَّ فلانًا: ساءه، وعرَّ القوم بمكروه: أصابهم به، قال العجاج:

مـــا آيبٌ ســـرّك إلاّ ســـرني
نصــحًــا ولا عــرّكَ لك إلا عــرني

والمعنى:: ولكنك دهمت الملك من حيث لا يتوقع فلم يملك دفعًا للقضاء المحتوم.

(٣) العتاق: جمع عتيق، وهو الكريم من كل شيء، وفرس عتيق: جواد رائع، الجرد، جمع أجرد وهو كل فرس قصير الشعر رقيقة، تعنو: تذل وتخضع، والمعنى: يعز على الخيول المطهمة ألا تجد لها مجالاً للدفاع عنك وإنقاذك من براثن المنية فتخضع للقدر المحتوم ذليلة خاشعة في المرابط.

(٤) انتضى السيف ونضاه: سله، أشرع الرمح وشرعه: أماله وسدده للطعان، والمعنى: يعزَّ على السيوف ألا تسل وعلى الرماح ألا تشرع للدفاع عنك وإنقاذك من سطوة المنون.

(٥) المعنى: إذا كان الدهر قد أساء إليك فإن من شيمته الإساءة، وليس هذا أول عهد ضيعة الدهر وكان واجبًا عليه أن يرعى العهد ويحفظ الذمام.

(٦) المعنى: أشهد أنك كنت زينة وزخرفًا في غلائل الدهر وعقدًا في عنقه مرصعًا بالجمال.

(٧) في ب، ت، ز «لبَّى وأسرعا»، كان أكبر فخر للدهر أنه تابع لك مصيخ لأمرك ملب لندائك.

أتى العَـــثْــرةَ العُظْمَى، فــهل أنت قــائلٌ

لـه حينَ أشْــفَى من كــآبتِــهِ: «لـعــا»[1]

وها هـو مُنقـــادٌ لحُكْمِكَ فـــاحْـــتَكِمْ

لِتَــبْلُغَ مــا تَهْــوى، ومُـرْهُ ليـصـدَعـا[2]

لَعَــمْــرُ التي ودّعتَ أمسِ – مــفــارقًـا –

لقـد وردتْ حـوضَ السّـعـادةِ مَـشْـرَعـا[3]

تمنّتْ وفـــاةً في حـــيـــاتِكَ، بَعْــدَ مـــا

حَشَـدْتَ لهـا الآمـالَ: مَـرْأى، ومَسْـمَـعـا[4]

فــوفَّـيْــتَــهــا مــا لمْ تَدَعْ لضــمــيـرها

إلى غــايةٍ من بَعْــدِهِ مُــتَطَلّعــا[5]

خَــفَـضْتَ جناحَ الذُّلِّ في العــزِّ رحــمــةً

لهـــا، وعــزيزٌ أن تذِلَّ وتخــضَـعـــا[6]

تروحُ أمــيــرًا في التِّــلادِ مُــحَكَّمًــا

وتغـدو شَـفـيـعًـا في الذنوبِ مُشَـفَّـعـا[7]

(١) أشفى على الموت: أشرف عليه، لعا: دعاء للعاثر أن ينهض من كبوته، والمعنى: لقد كبا الدهر كبوة عظمى بقضائه على الفقيدة الكريمة، وأمضه الندم حتى كاد يشفي به على الهلاك، فهل أنت غافر له زلته، مقيل له عثرته.

(٢) صدع بالأمر: تكلم به جهارًا، أو أصاب به موضعه، قال تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ أي شق جماعتهم بالتوحيد أو اجهر بالقرآن أو أظهر الشريعة، والمعنى: هاهو ذا الدهر يخضع لحكمك فاحكم بما يرضيك، ومره لينفذ ما تريد.

(٣) المشرع: مكان ورود الماء، والمعنى: وحق الفقيدة الكريمة التي ودعتها بالأمس لقد حلّت بدار السعادة والنعيم وسلكت إليها أوسع طريق.

(٤) حشدت: جمعت، المعنى: لقد حققت للفقيدة جميع آمالها ولم يبق لها أمل إلا أن تموت في حياتك.

(٥) المعنى: إنك حشدت لها كل ما تطلعت إليه حتى لم يبق لها من الآمال ما تتمناه غير بقائك.

(٦) المعنى: إنك – مع عزتك وجلالك – خفضت لها جناح الذّل وخضعت لها خضوع الابن البار الشفيق، مع أنها يعز عليها خضوعك وذلك وإن كانا موجهين إليها رحمة وتكرمًا، والشاعر يشير هنا إلى الآية الكريمة ﴿واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾.

(٧) التلاد: المال القديم الموروث، وفي حديث ابن مسعود «آل حم من تلادي» أي السور القرآنية المسماة بها هي من قديم ما أخذته من القرآن وتعلمته بمكة، والمعنى: تتحكم في أموالك الموروثة فتمنحها للعافين وتزيد تكرمًا فتشفع شفاعة مقبولة للمذنبين، أو أنت تمنح العافين وهي تشفع للمذنبين.

عـــزاءً - فَــدَتْكَ - الـنفسُ - عَـــزْمَ مُــسَلِّمٍ
لموقعِ أمْـــرٍ لم يزلْ مُـــتَـــوَقَّـــعـــا[١]

مـــــتى ظنّتِ الأيّام أنّـكَ جـــــازعٌ؟
أو اسْـتَـشْـعَـرَتْ في فَلِّ صـبـركَ مطمـعـا[٢]

فــمـــا اربدَّ وجـــهُ الخطبِ إلاّ لقـــيـــتَـــهُ
بـصــفــحـــةِ طَلْقِ الـوجـــهِ أبْلَجَ أرْوَعـــا[٣]

ومـــا كنتَ أهـلاً أن يصــيــبَكَ حـــادثٌ
فـتـصـبـحَ عنه مُـقْـصَـدَ القلبِ مُـوجَـعـا[٤]

فلـولاك لـم يَسْـــمُحْ مـن الدهـر جــــانبٌ
ولا اهـتـــزَّ أعطافًـــاَ ولا لانَ أخْـــدَعـــا[٥]

فـــأنتَ الـذي لم ينتـــقمْ غِبَّ قُـــدرةٍ
ولم يُوترِ المعـــروفَ إلا ليَـــشْـــفَـــعـــا[٦]

مـــتى تُسْـدِ نُعْــمَى قلَّ إنعـامُ مِـثْلِهـا
يُقَلْ جللٌ، حـــتى إذا قـــيلَ أبدعـــا[٧]

---

(١) المعنَى: أعزيك أيها الأمير فيها، وأفتديك من كل سوء، وأرجو أن تلوذ بالصبر وتسلم لقضاء الله المحتوم، فإن المنية قضاء لازم يتوقعه لنفسه وآله كل إنسان.

(٢) الفل: الثلم أي الكسر، أو الهزيمة، المعنى: لن تتوقع الأيام أن تراك جازعًا، ولن تطمع في أن تُحطم صبرك الجميل.

(٣) أربدّ: أغبر ومال للسواد، الأبلج: المشرق المضيء ، الأروع: الرائع الحسن، المعنى: كلما عبس وجه الخطوب قابلته بوجه بسام.

(٤) مُقصد القلب: مصابه، ومنه أقصد فلانًا إذا طعنه فلم يخطئه، المعنى: ما كنت مستحقًا لأن يرميك الدهر بنكباته فيصيب قلبك الكريم.

(٥) الأعطاف: جمع عطف وهو الجانب الأخدع: عرق في جانب العنق، ورجل شديد الأخدع: ممتنع أبي، ولين الأخدع مستباح ذليل، المعنى: كيف تصيبك الأحداث، وأنت الذي ألنت لنا قياد الدهر وهززت عطفيه للسماح وكبحت منه الجماح؟.

(٦) غب كل شيء: عاقبته، يوتر: يُفرد، يشفع: يزاوج، المعنى: إنك لا تنتقم عند المقدرة، ولا تكتفي بالإحسان مرة بل تتبع الإحسان إحسانا.

(٧) في الأصول «قيل أنعم مثلها» ولعل الصواب ما أثبتناه، الجلل: الشيء العظيم أو الصغير الهين (من الأضداد)، وعلى المعنى الأول قول وعلة بن الحارث:

فلئن عــفـــوتُ لأعـــفـــون جللاً
ولئن رمــيت يصــيــبني ســـهــمي

وعلى المعنى الثاني قول امرئ القيس:

بقـــــتلِ بـنـي أســـــدٍ ربَّهـم
ألا كلُّ شـيء - ســـــواه - جـلـل

والمعنى: إذ أسدى الأميرُ معروفًا عظيمًا يقل نظيره أشاد به الشعراء ووصفوا إحسانه بأنه بلغ الغاية، حتى إذا فرغوا من تدبيج وصفهم فجأهم بإحسان آخر فوق الإحسان الأول وأبدع منه أثرًا.

وإن يَسَلِ العـــافـــونَ جَـــدواكَ يُعطِهِمْ
جـــوادٌ، إذا لـم يسـألـوه تبـــرّعـــا[1]

ويُغْـــرَى بتـــوكـيـــد الإســـاءةِ مُـــذنبٌ
فـيلقـاكَ بـالإحـســـانِ أغْـــرَى وأَوْلَعـــا[2]

خــلائقُ مُـمْــهــاةُ الفِـــرِنْدِ، كـأنَّهـــا
حـــدائقُ روضِ الحَــزْنِ جِيـــدَ فـأيْنَعـــا[3]

تُنافِـحُــهـــا منهـــا أحــاديثُ سُـــودَدٍ
تَخـالُ فَــتـيتَ المسكِ عنهـا تَضَـوَّعـا[4]

تَغَلْغَلُ في الآفـــاقِ أسْـــرَى مِنَ الصَّـــبـــا
وأشْـهَــرَ من شـــمسِ النَّهـــارِ وأســرعـا[5]

فلـو صَـــرَفَتْ - صَـــرْف الـمَنونِ - جَـــلالَةٌ
لكنتَ بَمَـحْـــيـــا مَنْ تَوَدُّ مُـمــتَّــعـــا[6]

---

(١) في نسخة ت «وإن يسأل... تعطهم جوادًا»، العافون جمع عاف وهو طالب الإحسان، الجدوى: العطية، المعنى: إذا سألك المحتاجون بادرت بالعطاء، وإذا لم يسألوك تبرعت قبل السؤال.

(٢) أغرى: أشدُّ ولعًا من غريَ بالشيء: أولع به، والمعنى: لقد تيمك الإحسان فإذا كرّر المذنب إساءته مولعًا بتوكيدها رآك أشد منه شغفًا بالصفح والغفران، وقد نظر الشاعر في هذا إلى قول المأمون: «لو يعلم الناس مقدار حبي للعفو لتقربوا إليّ بفعل الذنوب».

(٣) أمهى الصانع الشفرة: رققها، وأمهى الحديدة: أرقها وسقاها الماء، الفرند: رونق السيف ووشيه، الحزن، ما غلظ من الأرض، ورياض الحزن أحسن من رياض الخفوض قال الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبةٌ
خضراء جاد عليها مسبلٌ هطل
يومًا بأطيب منها نشر رائحة
ولا بأحسن منها إذْ دنا الأصل

والمعنى: إن شمائلك عذبة رقيقة كأنها صفحة السيف المصقولة أو هي شبيهةٌ بالحدائق الغناء جادها الغيث فأينعت وازدهرت بأطيب الثمار.

(٤) في ب، ت، ز « .... منها تضوعًا» تضوع: فاحت رائحته، المعنى: إن شمائك الطيبة تبادل أحاديث مجدك أطيب النفحات، حتى تحسب فتيت المسك ينفح منها بأطيب العبير.

(٥) تغلغل في الشيء: دخل فيه، المعنى: أحاديث مجدك وطيب شمائلك ينتقل عبيرها من بلد إلى بلد أشد ذيوعًا من ريح الصبا وأشهر من الشمس وأسرع.

(٦) صرف الدهر: حادثه، المنون: الموت، المعنى: لو كان الجلال يدفع قضاء الموت ويرده لصده جلالك فتمتعت بحياة والدتك العظيمة.

فــلا زِلتَ ممنوعَ الحِــمَى مُــسْــعَفَ المُنى

إذا كــان شــانيك المُـصــابَ المُـفـجَّـعـا[1]

ودُمتَ مُلقًّى أنْجُمَ الســعْـــدِ، باقِـــيًـــا

لـدِينٍ ودنـيـــا، أنتَ فَـــخْـــرُهُمـــا مـــعـــا[2]

****

(١) الشانئ: المبغض، المعنى: أسأل الله أن يظل حماك منيعًا وآمالك دانية وأن تحل المصائب بحسادك ومبغضيك.

(٢) المعنى: أدعو الله أن يجعل نجومك طالعة دائمًا بالسعد، وأن يبقيك ملاذًا للدين والدنيا، فأنت زينة للدنيا وعصمة للدين.

شكر وعزاء

توفيت بنت المعتضد قبل وفاته بثلاثة أيام فحزن عليها حزنًا شديدًا عزاه الشاعر عنها بهذه القصيدة:

سَــرَّك الدهــرُ وســـــاءَ　　　فـــــاقْنِ شُكرًا وعـــزاءَ[(١)]

كم أفـاد الـصّـبر أجـــرًا　　　واقْتَــضى الشّكــر نماءَ[(٢)]

أنـتَ إنْ تـــــأسَ على المف　　　قـودِ إلفًـا واجـتـبـــاءً[(٣)]

فـــاسْــلُ عنه غَـيــرةً واحـ　　　ـتَـمِـــلِ الـــرُّزءَ إبـــاءً[(٤)]

أيهـــا «المعـتـــضـــدُ» المـ　　　ـنصـورُ مُلِّيــتَ البَـقـاءَ[(٥)]

وتَــزَيَّــدْتَ مــــعَ الأيْـــ　　　ـيَـــام عِـــزًّا وعـــلاءً[(٦)]

إنّمـــا يُكســـبُنا الحُـــزْ　　　نُ عَـــنـــاءً لا غَـنـــاءً[(٧)]

أنـــت طَــبٌّ أنَّ داء الْـــــ　　　ـمَـوْتِ قد أعْـيَـا الدواءَ[(٨)]

فـــتـــــــأسَّ إنَّ ذاك الْـــ　　　ـخطبَ غـــالَ الأنبـــيـــاءَ[(٩)]

---

(١) المعنى: لقد سرك الدهر بنعيمه ثم أساء إليك بالقضاء على كريمتك فاشكر له إحسانه وتعز عن إساءته.

(٢) المعنى: طالما أعقب الصبر مثوبة وأجرًا وطالما اقتضى الشكرُ نماء النعمة، قال تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

(٣) اجتباءً: اختيارًا واصطفاءً.

(٤) معنى البيتين: إذا كنت متألمًا لفقد كريمتك لطول ألفتك إياها واصطفائك لها على غيرها فينبغي أن تسلو عنها أنفة وغيرة وإباء، والشاعر يعبر هنا عن النظرة العربية القديمة إلى النساء.

(٥) مليت البقاء: متعك الله بطول الحياة.

(٦) التزيد: المغالاة أو الكذب، وفلان يتزيد في حديثه إذا تكلّف مجاوزة ما ينبغي، قال الشاعر:

إذا أنتَ فـــاكـــهت الرجـــال فـــلا تلع
وقل مـــثل مـــا قـــالوا ولا تتـــزيد

ولع يلَع: استخف، والشاعر استعمل الفعل (تزّيد) هنا بمعنى زاد.

(٧) المعنى: إن نتيجة الحزن المشقة والعناء لا المنفعة والغناء.

(٨) الطب: الماهر الحاذق بعمله، والمعنى: إنك عليم بأن المنية ليس لها دواء.

(٩) تأسى: تعزى، غال عدوه واغتاله: أصابه من حيث لم يتوقع، والمعنى: التمس عزاء في ما أصابك بأن المنية أصابت قبل كريمتك الأنبياء.

وســـــيــــفــنـــــى المـلأُ الأعــ ـلى إذا مـــا اللّهُ شـــاءَ(١)

✡✡✡✡✡

حـــبّـــذا هَدْيُ عَـــــروسٍ دَفْنُهـــا كـــانَ الـهِـــدَاءَ(٢)
عُـــمِّـــرَتْ حـــيـنًا ومـــاءَ الْـ ـمُـــزْنِ شَكـــلين ســـواء(٣)
ثـم وّلـتْ فـــــــوَجَـــــــدَنـا أَرَجَ المســـــكِ ثـنـــــاء(٤)
جَـــمــعتْ تقــوى وإخـــبـــا تًـــا وفـــضـــلاً وزَكـــاء(٥)
ســــتـــوفّى من جِــمـــام الـ ـكَوْثَـــرِ الـعـذبِ الـــرُّواء(٦)
حـــيث تلقى الأتقـــيـــاءَ الـ ـسّـــعـــداءَ الشـــهـــداء

✡✡✡✡✡

هـان مـــا لاقت عليـــهـــا أن غـــدت منـــك فِـــداء(٧)
غُنْم أحـــبـــابك أن تـــبـ ـقى وإن عُـــمُّـــوا فَناء(٨)
فـــالـبَـــس الصُّــنـــعَ مُـــلاءً وأســـحب السّـــعْـــدَ رداء(٩)
ورثِ الأعْـــداءَ - أعـــمـــا رَهُمْ - والأولـــيـــــــاءَ(١٠)

****

(١) الملأ الأعلى: الملائكة المقربون، وقيل الملائكة وأرواح الأنبياء والصديقين.

(٢) الهديُ: السيرة، الهداء: الزفاف، قال زهير:

فـــإن تكن النســـاء مـــخـــبـــآت
فـــحـق لكل مـــحـــصـنة هداء

والمعنى: حبذا سيرة العروس إذا زفت إلى القبر، فالقبر خير صهر كما يقول عبدالله بن طاهر:

لكل أبي بنت يُراعي شـــؤونـهـــا
ثلاثة أصـــهـــار إذا حـــمـــد الصـــهـــرُ
فـبـــعل يراعـــيـــهـــا وخـــدر يكنـهـــا
وقـبـــر يواريهـــا وأفـــضلهـــا القـــبـــرُ

(٣) المعنى: عاشت الفقيدة طاهرة نقية مثل ماء المطر في النقاء والصفاء.

(٤) الأرج: توهج ريح الطيب، المعنى: لما توفيت الأميرة تركت فينا ذكرى طيبة عاطرة مثل ريح المسك تطلق الألسنة عليها بأعذب الثناء.

(٥) الإخبات: الخشوع، الزكاء: الطهارة أو الصلاح.

(٦) في أ «الكوثر العذب رواء» الجمام: الماء الغزير، الكوثر، نهر في الجنة، الرواء والرويُّ: الماء الغزير العذب أو بئر زمزم، والمعنى ستنهل في الجنة من نهر الكوثر حتى ترتوي.

(٧) المعنى: لقد هون عليها الموت أنها أصبحت لك منه الفداء.

(٨) المعنى: أكبر غنيمة يتمناها أصدقاؤك أن تتمتع بالحياة وإن طواهم الفناء.

(٩) الصنع: الجميل، الملاء والملاءة: الريطة وهي ثوب شامل من قطعة واحدة، والمعنى: ارتد غلائل الإحسان واسحب ذيول السعد في الحياة مثلما تجر ذيول الرداء.

(١٠) المعنى: تمتع بالبقاء حتى ترث أعمار الناس جميعًا سواء منهم الأعداء أو الأنصار.

تهنئة ورثاء

مات المعتضد فرثاه الشاعر بهذه القصيدة وهنأ ابنه المعتمد بولاية الحكم، ونلاحظ أن الشاعر كرر في هذه القصيدة عشرين بيتًا من قصيدته في رثائه لأم أبي الوليد بن جهور مع تغييرات طفيفة، وهي ظاهرة غريبة عند شاعر فحل كابن زيدون:[(١)]

هو الدهر فاصبِر للذي أحدث الدهرُ
فمن شِيَمِ الأبرار - في مثلها - الصَّبْرُ

ستصْبِرُ صَبْرَ اليأس أو صَبْرَ حِسْبَةٍ
فلا تُؤثرُ الوَجْه الذي معه الوِزر

حِذارك من أن يُعْقِبَ الرّزءُ فتنةً
يضيقُ لها - عن مثل إيمانكَ - العذر

إذا آسَفَ الثُّكلُ اللبيبَ فشقّهُ
رأى أفدحَ الثُّكْلَيْنِ أن يهلِكَ الأجر

مُصابُ الذي يأسَى بمَيْتِ ثوابِهِ
لهمْ فيه إيضاعٌ كما يُوضعُ السَّفْر

فيا هاديَ المنهاجِ جُرْتَ فإنّما
هُوَ الفجرُ يَهديكَ الصِّراطَ أو البَجْر

إذا الموتُ أضحى قَصْرَ كلِّ مُعَمَّرٍ
فإنَّ سواءً طالَ أو قَصُرَ العُمر

ألم ترَ أنَّ الدِّين ضِيمَ ذِمارُهُ
فلم يُغْنِ أنصارٌ عَديدُهُمُ دَثْرُ

(١) عللنا هذه الظاهرة الغريبة في كتابنا «ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه» ص٣٥٧، ٣٥٨.

وحـــيثُ اسْـــتَـــقَلَّ الـمُلْكُ ثانِيَ عِطفِـــهِ
وجــــرّر من أذياله الـعَـــسْكرُ الـمَـــجْـــرُ
هُوَ الضّــيْمُ لوْ غَــيْــرُ الـقـضــاء يَرومُــهُ
ثَناه الـمَــــرَامُ الصّــعْبُ والمسلكُ الوَعْـــر
إذا عـــثَـــرَتْ جُـــرْدُ العَناجــيجِ في القَنا
بليلِ عـــجــاجٍ ليس يصـــدَعُـــهُ فَـــجــر

٭٭٭٭٭

أأنْفَسَ نَفْسٍ - في الوَرى - أَقْــصَـــدَ الرّدى
وأخطرَ عِلْقٍ - للهُــدَى - أَفْـــقَـــدَ الدّهر[1]
أعـــبّـــادُ يا أوْفَى الملوكَ، لقــــد عـــدا
عليكَ زمـــانٌ من ســجــيّــتِــهِ الـغَــدر[2]
فـــهـــلاّ عـــداهُ أنّ عَلْيــاكَ حَليُــهُ
وذِكْـــرَكَ - في أردانِ أيّامِـــهِ - عِطْر[3]

٭٭٭٭٭

غُـــشِيـــتَ!! فلم تَغْشَ الطِّرادَ سَـــوابحٌ
ولا جُـــرّدتْ بيضٌ، ولا أُشْـــرِعَتْ سُـــمْـــر[4]
ولا ثَـنَـتِ المحــــــذورَ عـنك جَـــــلالَةٌ
ولا عـــددٌ، دَثْرٌ، ولا نـائلٌ غَـــمْـــرُ[5]

---

(١) تقدم شرح الأبيات السابقة جميعها في رثاء الشاعر لأم أبي الوليد بن جهور، لأنها مشتركة بين الرثاءين، (انظر: قصيدة «عليها سلام الله» ص (٥٧٤)، إلا بعض تغييرات طفيفة نذكر هنا معاني مفرداتها: ضيم ذماره: أبيح حماه، دثر: كثير، العناجيج: جياد الخيل.

(٢) في نفح الطيب «لقد سطا.. »، المعنى: أيها الأمير - الذي فاق الملوك بوفائه - لقد أصابك الدهر!! ولا غرو، فإن من سجيته الغدر بالعظماء.

(٣) عداه عن الأمر: صرفه عنه، أردان القميص: أصول أكمامه، المعنى هلا صرف الدهر عن إساءتك أن معاليك زينته، وأن ذكرك الطيب يعطر حواشيه.

(٤) غشيه الخطب: جلله، أو دهمه، الطراد: القتال، السوابح: الخيول المسرعة كأنها تسبح في الهواء لسرعتها، البيض: السيوف، السمر: الرماح، المعنى: لقد دهمتك المنية فلم تستطع دفعها جيوشك بخيلها وسيوفها ورماحها، فلا حيلة في ردّ القضاء المحتوم.

(٥) آثرنا رواية الذخيرة، وفي الأصول «ولا غرر ثبت»، الدثر: الكثير، النائل: العطاء، الغمر: الغزير، المعنى: لم يدفع عنك القدر جلالك المهيب ولا جيشك الكبير ولا عطاؤك الغزير.

لئن كان بطنُ الأرضِ هُيِّئَ أُنسُهُ
بأنَّكَ ثاويهِ لقد أوْحَشَ الظَّهْرُ[(١)]

لعَمْرُ البرودِ البيضِ في ذلك الثَّرى
لقد أُدْرِجَتْ أثناءَها النِّعَمُ الخُضْرُ[(٢)]

عليك - من اللّهِ - السَّلامُ تحيَّةً
يُنَسِّمُكَ الغفرانَ رَيحانُها النَّضْرُ[(٣)]

وعاهَدَ ذاك اللَّحْدَ عَهْدُ سحائبٍ
إذا استعبَرتْ - في تُربِهِ - ابتسمَ الزُّهر[(٤)]

ففيه علاءٌ لا يُسامَى يَفاعُهُ
وقَدْرُ شبابٍ ليس يَعْدِلُهُ قَدْرُ[(٥)]

☆☆☆☆☆

وأبيضَ في طَيِّ الصَّفيحِ كأنَّهُ
صفيحةُ مأثورٍ طلاقتُهُ الأثر[(٦)]

كأنْ لمْ تَسِرْ حُمْرُ المنايا تُظِلُّها
إلى مُهَجِ الأقْتالِ راياتُهُ الحُمْرُ[(٧)]

ولم يَحْمِ - منْ أنْ يُسْتَباحَ - حِمى الهُدَى
فلم يُرْضِهِ إلا أنْ ارْتُجِعَ الثَّغْرُ[(٨)]

---

(١) المعنى: إذ كان بطن الأرض قد سعد بحلولك فيه فقد أوحش ظهرها برحيلك عنه.

(٢) سبق شرح مفردات هذا البيت ومعناه ص (٥٥٧).

(٣) سبق شرح مفردات هذا البيت ومعناه ص (٥٧٧).

(٤) سبق شرح مفردات هذا البيت ومعناه ص ٥٧٨ والأبيات الثلاثة السابقة صاغها الشاعر في رثاء أم أبي الوليد بن جهور وكررها هنا.

(٥) اليفاع: الأرض المرتفعة، المعنى: لقد ضمّ قبرك مجدًا لايساميه مجد، وطوى شبابًا لا يعادله شباب.

(٦) الصفيح: وجه كل شيء عريض أو حجارة عراض رقاق، سيف مأثور: في متنة أثر، أو متنُه حديد وشفرته حديد ذكر، الأثر فرند السيف، المعنى: ثوى الأمير في أطباق التراب طلقًا وضاءً كأنه سيف مصقول ثوى في القراب.

(٧) في ت «إلى مهج الأبطال» الأقتال:: جمع قِتل وهو العدو أو المقاتل أو الشجاع أو القرن أو المثل، المعنى: انطوى الأمير كأنه لم يكن قائدًا مظفرًا يبعث المنايا الحمر إلى مهج الأعداء تحت راياته الحمر.

(٨) الثغر: موضع الخوف على الحدود المتاخمة لبلاد الأعداء، المعنى: طوى الموت الأمير كأنه لم يكن بطلاً مقدامًا حمى ذمار الدين من أن يستبيحه الأعداء. ولم يطمئن له بال حتى استرد ما اغتصبوه من ثغور.

ولم يَنْتَجِعْهُ المُعتَفونَ، فأقبلتْ
عطايا، كما وَالَى شَآبيبَهُ القَطرُ[1]

ولم تَكْتَنِفْ آراءَهُ ألْمَعِيَّةٌ
كأنَّ نَجِيَّ الغيبِ - في رأيها - جَهْرُ[2]

ولم يَتَشَذَّرْ للأمورِ مُجلِّيًا
إليها كما جَلّى مِنَ المَرقَبِ الصَّقرُ[3]

✲✲✲✲

كِلا لقَبَيْ سلطانِهِ صَحَّ فألُهُ
فباكَرَهُ عَضْدٌ وراوَحَهُ نَصْرُ[4]

إلى أنْ دعاهُ يومُهُ فأجابَهُ
وقد قَدَمَ المعروفُ واسْتَمْجَدَ الذُّخْرُ[5]

فأمسى (ثَبيرٌ) قد تصدّى لحَمْلِهِ
سريرٌ، فلم يَبْهَضْهُ منْ هَضْبِهِ إصْرُ[6]

✲✲✲✲

ألا أيُّها المولى الوَصولُ عبيدَهُ
لقد رابنا أن يتْلوَ الصِّلَةَ الهَجْرُ[7]

---

(١) انتجع فلانًا: قصده طالبًا معروفه، المعتفون: طلاب الإحسان، الشآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر، القطر: المطر، المعنى: انطوى الأمير كأنه لم يكن مقصدًا للطلاب يفدون عليه فتتهلُّ عطاياه متوالية عليهم كما تتوالى الأمطار.

(٢) تكتنف: تحيط، الألمعية: توقد الذكاء، النجوى والنجي: السر الخفي، المعنى: ذهب ذكاء الأمير الوقاد الذي كان يهتك أستار الغيوب فيكشف ما وراءها من أسرار.

(٣) تشذّر: تهيأ للقتال، أو توّعد وتغضب، أو نشط لأمر وأسرع إليه، المجلِّي: الأول في السباق، المرقب: موضع الإشراف والتطلع من عل، جلى البازي: رفع رأسه ثم نظر، المعنى: كأن الأمير لم يكن متهيأ للأمور العظيمة متحفزًا لها مسرعًا إليها كما يتهيأ الصقر للانقضاض على فريسة من مرتقاه الرفيع.

(٤) باكرهُ: أتاه بكرة أي صباحًا، راوحه: قصده في الرواح وهو العشي أو من الزوال إلى الليل، عضد: نصر، المعنى: إن لقبي الأمير (المعتضد بالله والمنصور بفضل الله) كانا فألاً حسنًا دالاً أكبر الدلالة على حياة الأمير الحافلة بالأمجاد وأن الله سيحوطه بالنصر والتأييد.

(٥) المعنى: عاش الأمير مظفرًا منصورًا إلى أن أدركته الوفاة وقد تقدم معروفهُ وتم مجده فترك لنا أخلد الآثار.

(٦) ثبير: جبل بظاهر مكة، السرير: النعش قبل أن يحمل عليه الميت، بهضه الأمر وبهظه: فدحه وشقّ عليه، الإصر: الثقل، المعنى: كيف استقل السرير بحمل الأمير وهو راسخ مثل جبل ثبير، ولم يضطرب من هول ما يحمل من عظمة وجلال؟

(٧) المعنى: أيها الأمير المنعم على رعيته الواصل لعبيده كيف قطعّت عنا إحسانك؟ وكيف استطعت أن تهجرنا بعد الوصال؟.

نُغـاديكَ - داعـينًا السّـلامُ - كَـعَـهْـدِنا
فـمـا يُسـمَعُ الداعي، ولا يُرفَعُ السِّـتْـرُ(١)

أعَـتْـبٌ علـينـا ذادَ عن ذلـك الـرّضى
فنُعْـتِبَ؟ أم بالـمَسْـمَعِ المُـعْـتَلِي وَقـرُ(٢)

أمَـا إنّـهُ شُـغْـلٌ فـراغُكَ بَـعْـدَهُ
سَـيَنْصـاتُ إلاّ أنَّ مَـوْعِـدَهُ الحَـشْـرُ(٣)

أأنسـاكَ؟ لما يَنْأ عَـهْـدٌ!! ولـو نأى
- سَجيسَ الليـالي - لم يَرِمْ نَفْسِيَ الذِّكرُ(٤)

وكـيف بنِسـيـانٍ وقـد مَـلأتْ يدي
جِـسـامُ أيادٍ منك أيْسَـرُها الوَفْـرُ(٥)

☆☆☆☆☆

لـئن كـنـتُ لـم أشـكـرْ لـكَ الـمِـنَنَ الـتـي
تَمَلَّيْـتُـهـا تَـتْـرَى لأوْبَقَني الكُفْـرُ(٦)

فـهل عَلِمَ الشِّلْوُ الـمُـقـدّسُ أنّني
مُـسَـوَّغُ حـالٍ ضَلّ في كُنْهِـهـا الفِكْرُ(٧)

---

(١) المعنى: لقد وفدنا على قبرك للتحية والسلام، كما كنا نفد عليك في الحياة، ولكنك لا تسمع دعاء، ولا ترفع سترًا، ولا تأذن للزائرين.

(٢) في نفح الطيب «فنسمع أم بالمسمع...»، الوقر: الصمم أو ثقل السمع، والمعنى: ما بالك لا ترد علينا السلام؟ أعاتب علينا فنعمل على إرضائك؟ أم أن أذنك لا تستطيع سماع التحيات؟.

(٣) انصات: أجاب وأقبل، أو استوى قائمًا. وانصات به الزمان: صار مشهورًا. وانصات الرجل: ذهب متواريًا، والمعنى: إن فراقك شغلنا وأشعل نار الحزن في قلوبنا: وسيتوارى الفراغ الذي خلفته فينا حينما تعود إليه، ولكن موعد إيابك هو يوم الحشر. أو لقد فرغت من أعباء الحياة ومشاغلها، وسيذهب فراغك ويتوارى ولكن في يوم الحساب.

(٤) سجيس الليالي: آخرها، وفي الحديث «ولا تضروه في يقظة ولا منام سجيس الليالي والأيام»، رام يريم: برح. ويقال لا رمت أي لا برحت، والمعنى: كيف أستطيع نسيانك على قرب عهدي بك؟ ولو طال العهد إلى آخر الحياة ما استطعت لك نسيانا.

(٥) المعنى: كيف أنساك وقد غمرتني بإحسانك وأياديك الوافرة التي أيسرها جليل، وأقلها كثير؟

(٦) في نفح الطيب «وإن كنتُ لم أشكر.. فلا بقيَ الكفر»، تمليتها: استمتعت بها، تترى: متوالية، قال تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ أي واحدًا بعد واحد، أوبق: أهلك، والمعنى: إذا أنا لم أحمد أياديك المتوالية عليّ وكفرت بأفضالك الجسام فإنني أكون إذًا جديرًا بالهلاك والخسران.

(٧) الشلو: الجسد أو العضو منه، سوغ له كذا: جوزه وأباحه له، أو أعطاه، والمعنى: هل يعلم الفقيد الكريم أنك واصلت بعده الإحسان إلي ورفعتني إلى مكانة كريمة يحار الفكر في ما توحي به من جلال؟.

وأنَّ مَـــتـــاتي لم يُضِيــعْـــهُ «مــحـــمــدٌ»
خليــفَـــتُك العَــدْلُ الرّضى وابْنُكَ البَـــرُّ[1]

هُـوَ الظّـافــــــــرُ الأعلـى المؤيَّـدُ بـالـذي
لـه - في الذي ولاّه من صُنْعِــــهِ - سِـــرُّ[2]

رأى في اخـــتـــصـــاصي مـــا رأيتَ وزادني
مَـــزِيَّةَ زُلْفَى من نتـــائجِـــهـــا الفَــخْـــرُ[3]

وأَرْغَمَ فـي بِرّي أنـوفَ عـــــــصــــــابـةٍ
لقـــاؤهـمُ جَــــهْمٌ ولَـحْظُهُمُ شَـــزْرُ[4]

إذا مـــا اسْـتَــوى في الدَّسْتِ عــاقـدَ حَـبْـوَةٍ
وقـــام سِــمـــاطًا حَـــفْلِهِ فلِيَ الصَّـــدْرُ[5]

وفي نفـــســـه الـعليـــاءِ لي مُـــتَـــبَـــوَّأٌ
ينافِـسُني فـيـــه السِّـمـــاكـانِ والنَّســرُ[6]

يُطيل العِـــدا فِيَّ التَّناجيَ خِـــفْـــيَـــةً
يقـولونَ: «لا تَسْـتَـفْتِ، قـد قُـضِيَ الأَمْـرُ!!»[7]

---

(١) المتات: ما يمت به من قرابة أو صداقة أو إحسان، المعنى. إن صلاتي الوثيقة ببيتكم الكريم لم يضيعها ابنك المعتمد الحاكم الجديد العادل في حكمه، المرضي في سيرته، البار في بنوته، وهذا البيت ساقط من نسخة ت.

(٢) من ألقاب المعتمد: الظافر بحول الله والمؤيد بالله، المعنى: إن ابنك الأمير له من لقبيه أوفى نصيب فهو مظفر في حروبه مؤيد بالله في أفعاله، فإن لله حكمة عالية في ما وكله إليه من ولاية وسلطان، وفي نفح الطيب «في الذي وافاه..».

(٣) الزلفى: القربة والمنزلة، قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾، المعنى: لقد أدناني الأمير منه كما أدنيتني ورآني أهلاً للاصطفاء كما رأيتني، وزاد فقربني إليه تقريبًا نتج عنه المجد والفخار.

(٤) في القلائد والخريدة وبعض نسخ الذخيرة وبعض نسخ نفح الطيب «ومنظرهم شزر» نظر إليه شزرا: نظر إليه بمؤخر عينه غاضبًا، المعنى: لقد أكرمني فأرغم أنوف أعدائي بإحسانه إليّ، وكانوا يلقونني متجهمين ويوجهون إلي نظراتهم حانقين غاضبين.

(٥) في الخريدة «فأنا الصدر»، الدست: كلمة فارسية معناها صدر البيت، عقد حبوته: جلس مشتملاً بثوب يلفّه (وهي جلسة يكنون بها عن الوقار) السماط: الجانب، والصف، المعنى: إذا تصدر الأميرُ مجلسه واصطف حوله الأمراء والوزراء قدمني عليهم وجعل لي الصدارة بينهم.

(٦) السما كان (الرامح والأعزل): نجمان نيران، النسر: يطلق على أحد نجمين: النسر الواقع أو النسر الطائر، المعنى: لي في قلبه محل كريم تتمناه نجوم السماء.

(٧) في ب، ت، ز «التناجي خيفة»، المعنى: تهامس الأعداء بالدس لي آملين أن يفسدوا ما بيني وبين الأمير من صلات معتقدين أنني قد قُضيَ عليّ بالهلاك، والشاعر يقتبس هنا ألفاظ الآية الكريمة ﴿قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾.

مـضـى نَفـثُــهم - في عُـقـدةِ السَّـعيِ - ضَلَّةً

فـعـــاد عليـــهمْ غُـمَّـةً - ذلك السِّــحْــرُ(١)

يَـشِـبُّ مـكـانـي عـن تـوقّـي مـكـانـهـمْ

كـمـا شَبَّ - قَـبْلَ اليـومِ - عن طَوْقِـهِ عـمـرو(٢)

✿✿✿✿

لكَ الخــيــرُ، إنَّ الرّزْءَ كــان غَــيــابةً

طلعتَ لنا فــيــهــا كــمــا يَطْلُعُ البــدر(٣)

فــقــرّتْ عــيــونٌ كــان أسْـخَنَهــا البُكا

وقــرّتْ قلوبٌ كــان زلـزَلـهــا الذُّعـــر(٤)

ولـولاكَ أعْــيَــا رَأْبُنا ذلك الثَّــأَى

وعــزّ فلمّــا يَنْتَــعِشْ ذلك العَــثْــر(٥)

ولـمّــا قَــدَمْتَ الجــيشَ بالأمسِ أشــرقتْ

إليكَ - مِنَ الآمــالِ - آفـاقُــهـا الغُــبْــرُ(٦)

---

(١) النفث: النفخ: مع ريق، عقدة السحر: الخيط المعقود الذي يربطه الساحر ويتلو عليه تعاويذه ورقاه وينفث فيه ليكيد به لمن يشاء. قال تعالى: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾، الغمة: الكربة، قال تعالى: ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ قال أبوعبيدة: مجازها ظلمة وضيق وهم، والمعنى: لقد حاول الأعداء أن يغيروا قلبك علي وتفننوا في الكيد والدس، ولكنك خيبت ظنونهم ورددت كيدهم في نحورهم.

(٢) المعنى: يرتفع مكاني عن متناول كيدهم كما شب عمرو عن الطوق، وهو عمرو بن عدي بن نصر كانت أمه تدلله في صغره وتلبسه طوقًا فلما أبصره خاله جذيمة الأبرش ملك الحيرة قال: «شب عمرو عن الطوق» أي كبر عن حلية الأطفال فذهبت مثلاً.

(٣) الغيابة: الستار الحاجز عن النظر، والمعنى: لقد هبط المصاب علينا كما يهبط الظلام، حتى أشرقت علينا فيه كما يشرق البدر فيبدد غواشي الظلمات.

(٤) قرت عينه: نالت ما تطمح إليه فهدأت ولم تتطلع إلى شيء آخر، أو بردت فلم تسخن، فللسرور دمعة باردة وللحزن دمعة ساخنة من شدة الحزن، وسخنة العين ضد قرتها، والمعنى: لما أشرقت علينا بعد هول المصاب فرحت العيون الباكية وهدأت القلوب المذعورة.

(٥) رأب الثأى: جبر الكسر أو أصلح الفساد، قال جرير:

هو الوافد الميمون والراتق الثأى

إذا النعلُ يومًا بالعشيرة زلت

والمعنى: لولاك ما استطعنا أن نتحمل الخطب ولأعيانا إصلاح ما فسد من شؤوننا وعز علينا النهوض بعد سقوطنا بوفاة الأمير.

(٦) في نفح الطيب «... قدمت الجيش بالأمر»، والمعنى: لما تقدمت أمام الجيش بددت حزننا على وفاة الأمير لأننا رأينا فيك خير خلف لخير سلف، وأشرقت إليك الآمال بعد أن تكدر صفاؤها من هول المصاب.

فَـــقَـــضَّـــيْتَ من فَـــرْضِ الصّـــلاة لُبـــانَـةً

مُـــشَـــيِّـــعُـــهـــا نُسْكٌ وفـــارِطُهـــا طُهـــرُ[1]

ومن قَـــــبْلُ مــــا قَـــــدَّمْتَ مَـــــثْنى نوافلٍ

يلاقي بـهـــا مـن صـــامَ من عَـــوَزٍ فِطر[2]

ورحتَ إلى الـقـــصـــر الذي غَضَّ طَرْفَـــهُ

- بُعَيْدَ التَّسامي - أن غدا غيرُهُ القَصْر[3]

فـدامـــا مــعًـــا في خَـــيـــر دهرٍ، صُـــروفُـــهُ

حَـــرامٌ عليـــهـــا أن يَطُورَهُمـــا هَجْـــر[4]

وأَجْـــمِلْ - عنِ الثَّـــاوي - الـعَـــزاءَ، فـــإنْ ثَوى

فـــإنَّكَ لا الفـــاني، ولا الضَّـــرِعُ الغُـــمْـــر[5]

ومـا أعْطَتِ السَّـبـعـونَ - قَبْلُ - أُولي الحِجى

من الإِرْبِ مـــا أعْطَتْكَ عِـشْـــروك والعَـــشْـــر[6]

✡✡✡✡✡

ألسْتَ الـذي إنْ ضَــــــاقَ ذرعٌ بـحـــــــادثٍ

تَبَـلَّجَ منه الـوَجْـــهُ واتّسَعَ الصَّـــــدْرُ؟[7]

---

(١) في نفح الطيب فشيعها نسكٌ وقارنها طهر»، اللبانة: الحاجة من غير فاقة ولكن من همة، الفارط: السابق، المعنى: أرضيت ربك ونفسك بأداء الصلاة المشفوعة بالخشوع والخضوع المسبوقة بالطهر والنقاء.

(٢) مثنى: مزدوج مكرر، النوافل جمع نافلة وهي عطية التطوع، العوز: الفقر، المعنى: لقد توالت عطاياك من قبلُ فغمرت الفقراء وأطعمت الصائمين بعد أن هدّهم الجوع.

(٣) المعنى: رجعت إلى القصر الذي كان يعتز بقربك ويرفع الرأس تيهًا بك، ولقد غض طرفه وأطرق حزينًا حينما آثرت غيره عليه، والآن يحق له التسامي والاعتلاء.

(٤) يطور: يحوم أو يقارب، وفي حديث علي كرم الله وجهه «والله لا أطور به ما سحر سحير» أي لا أقربه أبدًا، المعنى: أدعو الله أن يمتع بك هذين القصرين وأن يديمها معًا آمنين من صروف الدهر ناعمين بقربك بعيدين عن هجرك.

(٥) الفاني: الشيخ الكبير الضعيف، الضرع: الذليل المستكين، الغمر: الذي لم يجرب الأمور، المعنى: تعزَّ أيها الأمير عن الراحل الكريم، فإن لك من شبابك وعزتك أكرم عوض وخير سلوان.

(٦) في نفح الطيب «من الأب»، الحجى: العقل، الدهاء أو العقل أو الدين، والمعنى: لقد نلت في سن الثلاثين - من التجربة والحكمة والدهاء - ما لم ينله من بلغ من عمره السبعين.

(٧) ضاق بالأمر ذرعًا: لم يطقه ولم يقو عليه، تبلج: هش وضحك، المعنى: إنك تلقى الأحداث الخطيرة - التي توهن غيرك وتبهظه - بوجه متهلل وصدر رحب فسيح.

فـــــلا تَـهِـضِ الـدنـيــــا جَـنـاحَـكَ بَـعْــــدَهُ

فـمنكَ - لمن هاضَتْ نوائبُــهــا - جَــبْــرُ[(١)]

ولا زلتَ مـــــوفـــــورَ الـعـــــديدِ بـقُــــرّةٍ

لِعَـــيْنَيْكَ مَــــشْـــدودٍ بِـهِـمْ ذلكَ الأزرُ[(٢)]

فــــإنّك شــمسٌ - في ســـمـــاءِ رياســـةٍ -

تَـطَلَّـعَ منـهـمْ حَــــــوْلـهــــــا أنجُـمٌ زُهْـرُ[(٣)]

✡✡✡✡

شَكَكْنا!! فلم نُـثْــــــــبِـتْ: أأيّـامُ دَهْـرِنـا

بـهـــــا وَسَنٌ أم هَزٌّ أعطافَــــهـــــا سُكر[(٤)]

ومـــا إن تَـغَـشَّـــتْــهـــا مُـــغـــازَلَـةُ الكَرى

ومـا إنْ تَمَـشَّتْ - في مـفـاصلـهـا - خَـمْـرُ[(٥)]

سِـــوى نَشَـــواتٍ - منْ ســـجـــايا مُـــمَلَّكٍ

يُصَـدِّقُ في عَليـائهـا الخَـبَـرَ - الخُـبْـرُ[(٦)]

✡✡✡✡

أرى الـدهـرَ: إنْ يـبـطِـشْ فـــــــأنـت يمـيـنُـهُ

وإنْ تَضْـــحَكِ الدنيـــا فـــأنت لـهـــا ثَـغْــرُ[(٧)]

---

(١) هاض الجناحَ: كسره، والمعنى: أسأل الله ألا يروعك الدهرُ بمصاب آخر!! فإنك جابر كل كسر ومصلح كل فساد.

(٢) قرة العين: سرورها أو برودتها من دموع الفرح ضد سخونته من الحزن، الأزر: المعونة والنصر، والمعنى: أدعو الله أن يزيد عددك ببنيك ويجعلهم قرة عينيك وأن يمنحك بهم النصر والتأييد.

(٣) تطلع: طلع، المعنى: لقد أشرقت في سماء الملك ويزغوا هم من حولك مثل النجوم الزهر، وفي نفح الطيب «تطلع منهم حولنا».

(٤) في نفح الطيب «لأيام دهرنا»، الوسن: النعاس، الأعطاف: جمع عطف وهو الجانب، المعنى: لقد ازدانت بك الدنيا واهتزت من الطرب حتى حسبناها مالت بها سنة الكرى أو رنح عطفيها الشراب.

(٥) في نفح الطيب «في معاطفها الخمر»، والمعنى: لقد تمايلت الدنيا من هزة السرور، وما داعب عينيها النومُ ولا دبت في أعضائها نشوة الراح.

(٦) المعنى: لم يغش النوم الدنيا ولاهزتها نشوة الشراب، ولكنها اهتزت طربًا بسجايا الأمير وشمائله العذبة التي يصدق أخبارها العيانُ وتطابق فيها الأنباءُ ما تشاهد منها العيون.

(٧) المعنى: إنك عدة الدهر ومصدر أحداثه، فإذا بطش فأنت يمينه الباطشة، وإذا ضحك فأنت ثغره البسام.

وكم سائلٍ - بالغيب عنكَ - أجَبْتُهُ:

هناك الأيادي الشَّفْعُ والسُّؤدَدُ الوِتْرُ[1]

هناك التُّقَى والعِلْمُ والحِلْمُ والنُّهَى

وبذل اللُّهَا والبأسُ والنَّظْمُ والنَّثْرُ[2]

هُمَامٌ إذا لاقى المُنَاجِزَ رَدَّهُ

وإقبالُهُ خَطْوٌ وإدبارُهُ حُضْرُ[3]

محاسنُ، ما للرّوضِ - سامَرَهُ النّدى -

رُواءٌ إذا نُصَّتْ حُلاها ولا نَشْرُ[4]

متى انْتُشِقَتْ لم تُطْرِ دارينُ مِسْكَهَا

حياءً، ولم تَفْخَرْ بعَنْبَرِها الشّحْرُ[5]

عطاءٌ ولا مَنٌّ وحَكْمٌ ولا هَوًى

وحِلمٌ ولا عَجْزٌ، وعِزٌّ ولا كِبْرُ[6]

قد اسْتَوْفَتِ النَّعْماءُ فيك تمامَها،

علينا فمِنَّا الحمدُ لله والشُّكرُ[7]

****

(١) المعنى: رب سائل عنهم لم يحظ برؤيتهم أجبته بأن مكارمهم متوالية متتابعة مزدوجة، أما مجدهم فهو فذ معدوم النظير.

(٢) المعنى: لقد اجتمعت فيهم صفات التقوى والعلم والحلم والذكاء وبذل العطايا والشجاعة وبراعة النثر وروعة الشعر.

(٣) المناجز: المبارز في ميدان القتال، الحضر والإحضار: ارتفاع الفرس في جريه، المعنى: الأمير شجاع إذا بارز خصمه أقبل عليه الخصم متهيبًا مترددًا وأدبر عنه هاربًا ممعنًا في الفرار، وفي نفح الطيب «وإقباله خطر وإدباره حصر».

(٤) آثرنا رواية نفح الطيب، وفي الأصول « ... ولا بشر»، الرواء: المنظر الجميل، النشر: الرائحة الطيبة، والمعنى: إن شمائله تكسف محاسن الروض المرصع بالندى، وسجاياه العاطرة تغرق نفحات الأزهار.

(٥) دارين: ميناء بالبحرين مشهورة بتجارة الطيب، الشحر: ساحل البحر بين عدن وعمان وهو مشهور بتجارة العنبر، المعنى: إن شمائلك تتفح بأطيب العبير، فلا تجاريها دارين بمسكها العاطر، ولا الشحر بعنبرها الفواح.

(٦، ٧) سبق شرح هذين البيتين حيث ختم بهما الشاعر مدح أبي الوليد بن جهور ورثاء أمه انظر صفحة (٥٨٠).

الهجاء

«وصف الحميدي والضبّي شاعرنا بأنه قبيح الهجاء، ووصفه ابن بسام في رواية مبتورة لابن سعيد أنه كان - سامحه الله - ممن لا يرجى خيره ولا يؤمن شره.

ولكننا نرى شعره في الهجاء مقبولاً بالنسبة إلى شعر معاصريه، ونلاحظ أنه كان ينذر قبل أن يهجم، وقلّما ابتدأ بالهجوم، ولكنه يدافع دفاع القوي المستميت».

أعد نظرا

«كتب الشاعر هذه القصيدة إلى أبي عبدالله بن القلاس البطليوسي مداعبًا ومعاتبًا ومحذرًا».

أَصِخْ لمقـالتي واسمَعْ
وخُذْ - فيما ترى - أو دَعْ[1]
وأقصِرْ - بعدها - أو زِدْ
وطِرْ - في إثْرِها - أو قَع[2]

✡✡✡✡

ألم تعلمْ بأنَّ الدّهـ
ـرَ يُعطي بعد ما يَمنع
وأنَّ السَّعْي قد يُكدي
وأنَّ الظنَّ قد يَخدع[3]
وكم ضرّ امرءًا أمرٌ
توهّم أنه ينفع

✡✡✡✡

فإن يُجْدِبْ منَ الدنيا
جَنابٌ طالما أَمرعْ[4]

(١) في تمام المتون «أبا عبدالإله اسمع وخذ... بمقالتي» أصخ: استمع.

(٢) في تمام المتون وأنقص بعدها أو زد»، قع: فعل أمر ماضيه وقع.

(٣) أكدى الرجل: بخل أو قل خيره، قال تعالى ﴿أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى﴾، أكدى المطر: قل ونكد، وأكدى العام: أجدب، وفي حديث عائشة تصف أباها رضي الله عنهما: «سبق إذ ونيتم، ونجح إذ أكديتم» أي ظفر إذ خبتم.

(٤) الجناب: الفناء.. أو ما قرب من محلة القوم، أمرع: أخصب.

فما إنْ غاضَ لي صَبْرٌ
وما إنْ فاضَ لي مَدمع[١]

وكائنْ رامتِ الأيّا
مُ تَرويعي فلم أَرتَعْ[٢]

إذا صابَتْنِيَ الجُلّى
تَجَلّتْ عن فتًى أَروع[٣]

على ما فات لا يأسى
وممّا ناب لا يَجزع

تدِبُّ إليَّ ما تألو
عقاربُ ما تَنِي تَلسع[٤]

كأنّا لم يؤلِّبْنا
زمانٌ لَيِّنُ الأخدَع[٥]

إذِ الدنيا متى نقتدْ
أَبِيَّ سُرورها يتبع[٦]

وإذْ للحظّ إقبالٌ
وإذ في العيش مستَمْتَعْ

وإذْ أوتارُنا تهفو
وإذْ أقداحُنا تُتْرَعْ[٧]

---

(١) غاض الماء: قل ونضب.

(٢) كائن وكأين: بمعنى: كم في الاستفهام والخبر، وهي مركبة من كاف التشبيه وأي المنونة، قال زهير:

وكائن ترى من صامت لك معجب
زيادته أو نقصه في التكلم

راعه وروعه: أفزعه وارتاع: فَزِع.

(٣) صاب يصيب: أصاب، الجلَّى: الأمر العظيم، الأروع: الرائع الحسن، والمعنى: إذا دهمتني النوائب فإنها لا تجدني ضارعًا خوَّارًا بل تتكشف مني عن فتى مهلل الوجه رائع المنظر.

(٤) تألو: تقصر في الجهد، ما تني : ما تزال.

(٥) ألّب: جمّع، وألَب: تجمع الأخدع: عرق في جانب العنق، رجل شديد الأخدع: ممتنع أبيّ، ولّين الأخدع: ضده.

(٦) المعنى: كانت الدنيا سهلة سمحة معنا، إذا اجتذبنا سرورها البعيد الجامح انقاد إلينا في يسر وسماح.

(٧) تهفو: تتحرك، تترع: تمتلئ.

وأوطارُ المُنَى تُقْضَى
وأسبابُ الهوى تشفَعْ[1]
فَمِنْ أُدمانةٍ تعطُو
ومن قُمْريّةٍ تسجَعْ[2]

☆☆☆☆☆

أعد نظرًا فإنَّ البغْـ
ـيَ ممّا لم يزل يَصرع[3]
ولا تُطِعِ التي تغويـ
ـكَ فهْي لبغيهم أطوع[4]
تقتُّلْ إذ أتى خطبٌ
وأنْفُ الفَحلِ لا يُقرَعْ[5]

---

(١) الأوطار: الحاجات.

(٢) الأدمانة: الظبية المشربة بالبياض، والأفصح فيها أدماء، تعطو تمد عنقها وترفع مقدمتيها لتناول أوراق الشجر، القمرية: نوع من الطيور المغردة من فصيلة الحمام.

(٣) البغي: الظلم أو الكبر أو العدول عن الحق، يصرع: يسقط، والمراد هنا يهلك.

(٤) أغوى: أضلّ، البغي: الفجور، أو العهر والفساد، أو الطلب.

(٥) في الأصول: «تقبل إذ أتى خطبًا وأنف النمل لا يقرع» ولعل الصواب ما ذكرناه أو قريب منه. - ولعله «تقايل - إذ أتى - خطبًا» وتقايل بمعنى بادل فيكون المعنى: «إذا أتاها خاطب فبادله وانصرف عنها تاركا له مكانك»، تقتّل الرجل لحاجته: تهيّأ لها وجدّ فيها، وتقتّل للمرأة: خضع لها وذل، ورجل مقتل: قتله العشق، وقلب مُقتّل: أهلكه الحب، قال امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مقتل

وتقتلت المرأةُ: مشت مختالة في دلال وتثن وانكسار قال الشاعر:

تقتلت لي، حتى إذ ما قتلتني
تنسكت، ما هذا بفعل النواسك

أنف الفحل لا يقرع: لا يلطم، وفي الأمثال «هذا فحل لا يقرع - أو لا يقدع - أنفُه» وذلك إذا كان كريمًا فإن كان غير كريم وهم بتلقيح ناقة كريمة ضُرب أنفه بالرمح أو بغيره حتى يرتدع، وقد كثر استعمال هذا المثل مجازيًا بمعنى أن الخاطب الكريم لا يمكن رده، قال ورقة بن نوفل في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة خديجة رضى الله عنها: «هو الفحل لا يقرع أنفه» أي كفء كريم، الخطب: الخاطب، يقال خطب الرجل المرأة فهو خطب وخاطب، والمعنى: تذلل لهذه المرأة إذا جاءها راغب فيها، فإنها لن تردّه وستبوء أنت بالخسران، ويكون الأمر هنا للسخرية، أو يكون البيت صفة لها والفعل «تقتل» مضارع، أصله «تتقتل» حذفت فاء الفعل (التاء الثانية) أي إنها تلين في مشيتها وتتثنى وتتدلل وتستجيب لكل فحل ينشدها، وتكون كلمة (خِطب) فاعلاً، فكأن الشاعر يقول: لا تستجيب لكل راغب فيها من الفحول.

ولا تَـــكُ مـــنـــك تـــلـــك الـــدَّا

رُ بالمـرأى ولا الـمَـــســـــمعْ[1]

فـــــإنَّ قُـــصـــــارَكَ الـدِّهـلـيـ

ـزُ، حـين سِـــواك في المضـــجَعْ[2]

****

(١) المعنى: لا تحاول أن تكون قريبًا من دارها أو دانيًا منها بحيث تراها وتسمع من بها.

(٢) قصارك وقصاراك: غايتك وآخر مداك أو جهدك، والمعنى: إن أقصى ما تناله منها أن تحلّ في فناء بيتها حيث يحتل سواك مخدعها وينالُ منها ما تمناه.

تحذير ووعيد

كتب الشاعر هذه القصيدة إلى منافسه – في حب ولادة – أبي عامر بن عبدوس مذكرًا وعاتبًا ومنذرًا:

أثـرتَ هِـزبـر الـشَّـــــــــرى إذ ربَـضْ
ونَبَّـــهْـــتَـــهُ إذ هدا فـــاغـــتَـــمضْ[١]

ومـــا زلتَ تبُـــسطُ مـــسْـــتـــرسِـــلاً
إلـيـــه يدَ البَـــغيِ لـمّـــا انقـــبض[٢]

☆☆☆☆

حَـــــذارِ حـــــذارِ فـــإنّ الكريـمَ
إذا سِـيمَ خَـسـفًـا أبى فـامـتـعض[٣]

فـــإنّ سكونَ الشّـــجـــاع النّهُـــو
سِ لـيـس بمـانـعـــــه أن يَـعَـضّ[٤]

وإن الـكـواكـب لا تُـسْـــتَـــذلُّ
وإن المقـــادير لا تُـعْـــتَـــرَضْ[٥]

(١) الهـزبر: الأسـد القـوي، الشـرى: مـأسـدة في طريق سلمى، ربض: جثم، هـدًا: سكن، المعنى: حـركت الأسـد الهـادي ونبهـته فترقب أن يفترسك.

(٢) المعنى: مازلت تمد إلى الأسد يد العدوان مغاليًا في إثارته على الرغم من انقباضه، فإذا نالك بسوء فعليك وحدك الملام.

(٣) الخسف: الإذلال أو حمل الإنسان على ما يكره، سامه خسفًا: أولاه ذلاً، امتعض: اغتاظ، المعنى: احترس من نقمتي، فإن الكريم يحلم ويعفو، ولكنه إذا تعرض للهوان ثارت ثائرته فبطش بالمسيء إليه وأنزل به أشد العقاب.

(٤) الشجاع: نوعٌ من الحيات أو الذكر منها، النهوس: العاض بمقدم أسنانه أو الأسد. والمعنى: إن هدوء الثعبان – أو الأسد – المفترس لا يمنعه أن يعض إذا استثاره إنسان.

(٥) المعنى: لا يمكن أن تهوى الكواكب وتهون ، ولا يقع في الحسبان أن تقاوم الأقدار.

إذا زِيعَ فليــــقــــتــــصِـــدْ مُـــسْـــرِفٌ

مَـــســـاعِيَ يقَـــصُـــرُ عنهـــا الحَـــفَضْ[١]

وهـل واردُ الـغَـــــمْــــــر مِن عِـــدِّهِ

يقــــاسُ به مُـــسْــــتَـــشِفُّ البَـــرَضْ[٢]

إذا الشـــــمسُ قـــابلتَـــهـــا أرمـــدًا

فـــــحظُّ جـــــفــــونِكَ في أن تُغَـضْ[٣]

☆☆☆☆☆

أرى كلَّ بَحْـــــــرٍ «أبـا عـــــامـــــر»

يُسَـــــرُّ إذا فـي خـــــــلاءٍ ركَـضْ[٤]

أُعـــــــيــــــــذُكَ مِـنْ أن تَـرى مِـنـزَعـي

إذا وَتَـري بـالمـنـايـا انـقـــــــــبَـضْ[٥]

---

(١) في الأصول إذا ريغ.. مسرف.. مساع» وصحة الفعل أريغ بمعنى طلب، ولعل الصواب ما أثبتناه هو زيغ: رُدّ من الفعل زاع زوعًا: كفه مثل وزعه، مسرف: مجاوز للحدود أو مبذر أو مخطئ أو جاهل أو غافل، مساع: مآثر، الحفض: رديء المتاع أو عمود الخباء أو حجر البناء أو البعير الضعيف الرديء، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عـــمـــاد الحي خـــرت

على الأحــــفــــاض نمنع من يلينا

والمعنى: إذا زجر من يجهل أو يخطئ مآثرنا العظيمة - التي يقصر عن بلوغها الأراذل والضعفاء - فليرتدع وليكف عن الاندفاع في الجهل والأخطاء.

(٢) الغمر: الماء الكثير، العد: الماء الذي لا انقطاع له مثل ماء العين، استشف ما في الإناء: شربه كله، البرض: القليل ضد الغمر؛ والمعنى: لا وجه للموازنة بين من يتمتع بالماء الوافر الغزير ومن لا يجد إلا النزر اليسير، والمقصود هنا: لا وجه للموازنة بين العظيم والحقير.

(٣) المعنى: إذا قابلت الشمس وأنت مصاب بالرمد فلا بد أن تغض طرفك محافظة على بصرك. أي إنك ضعيف الفطنة مريض الفكر لا تستطيع أن تدرك عظمة الرجال.

(٤) البحر: الفرس، ركض: جرى، والمعنى: كل جواد يجري في الخلاء يشعر بنشوة وارتياح لأنه لا يجد من ينافسه، وقريب من هذا قول المتنبي:

وإذا مـــا خـــلا الجـــبـــان بأرضٍ

طلب الطعن وحـــــــــده والنزالا

أو إن الميدان أمامي فسيح، وما أشد شوقي للركض فيه، فاحذر منافستي، وفي الذخيرة «أرى كل مجر».

(٥) في الذخيرة «،، وتري بالمنايا انتفض»، المنزع: السهم ، والمعنى: إنني أخشى وأشفق عليك من أن تتعرض لسهامي القاتلة إذا جذبت القوس لإطلاقها.

فـــــــــــــــإنّــي ألِــينُ لِمــنْ لانَ لـــي
وأتـركُ مـن رامَ قَـــــصْــــــري حَـــــرَضْ[1]

وكـمْ حــــــرّكَ العُـــــجْبُ من حــــائـنٍ
فـــــغــــادَرْتُهُ، مـــــا بـه مـن حَــــبَضْ[2]

☆☆☆☆

«أبـا عـــــــامــــــرٍ» أيـنَ ذاك الـوفـــــاءُ
إذِ الـدهـرُ وَسْـنـانُ والـعـــــــيـشُ غَـضّ[3]

وأيـن الـذي كـنـتَ تَـعْـــــــتَــــــدُّ مِـنْ
مُـــصــــادقـــتي الواجبَ المفـــتـــرَضْ[4]

نُشُـــوبُ وأمْـــحَضُ مُـــسْـــتَـــبْـــقِـيًـا
وهيــــهـــات من شـــابَ مِـــمَّنْ مَـــحَضْ[5]

☆☆☆☆

أَبِـنْ لـي: ألـمْ أضْـطَـلِـعْ نـاهِـضًـــــــــا
بـأعــــــبــــــاءِ بِـرِّكَ، فـي مـن نَـهَـضْ[6]

---

(١) القصر: الحبس أو الإجبار ومنه حديث إسلام ثمامة «فأبى أن يسلم قصراً فأعتقه» وقيلَ أراد قهراً وغلبة من القسر فأبدل السين صادًا وهما يتبادلان في كثير من الكلام، الحرض: الإشراف على الهلاك.

(٢) العجب: الزهو والكبرياء، حائن: أحمق، الحبض: بقية الحياة، والمعنى: كم من أحمق دفعه الغرور إلى عدائي فغادرته صريعًا ما به من حراك.

(٣) وسنان: نائم غير مستغرق في نومه، قال ابن الرقاع:

وسنان أقـــصـــده النعـــاس، فـــرنقت
فـي عـــــــينه سـنـة ولـيس بـنـائـم

غض: طري، والمعنى: أين وفاؤك السابق والحياة غافلة عنّا والعيش ناعم سعيد؟

(٤) في الذخيرة «من مصافاتي»، اعتد بالشيء : أدخله في العدد والحساب، فهو معتد به محسوب غير ساقط.

(٥) تشوب: تخلط، مثل شوب اللبن بالماء، محض: أخلص، تقول محضته الود، وأمحضته: أصفيته له، ولبن محض: لم يخلط بسائل، والمعنى: كنت أصفي لك مودتي وأنت تمزجها بالكدر، وشتان بين الخلقين.

(٦) اضطلع بالأمر: قوي على النهوض به، المعنى: أظهر لي ما تعتقده: ألم أنهض ببرك والإحسان إليك مع الناهضين؟

ألــم تَـنْـشَ مــن أدبـي نَـفْـــــــــحَـــــــــةً
حَـــسِـبْتَ بـهـــا الـمِـــسْكَ طِيـــبًــا يُفَضْ[1]

ألـم تَـكُ من شِـــــيـــــــمـــــــتي غـــــاديًا
إلـى تُـرَعٍ ضـــــاحكتْـــــهـــــا فُــــرَضْ[2]

ولـولا اخـــــتـــــصـــــاصُكَ لمْ ألـتَـــفِتْ
لِـحـــــالَيْكَ: من صِـــحَّـــةٍ أو مـــــرضْ[3]

ولا عـــــادنـي – من وفـــــاءٍ – ســــــرورٌ
ولا نـالـنـي – لجَـــفـــــاءٍ – مَـــــضَضْ[4]

ولكن يـعِـــزُّ اعـــتـــصــــارُ الفَـــتَى
إذا الـبـــــاردُ العَـــذْبُ أهدى الجَـــرَضْ[5]

☆☆☆☆

عَـــمَـــدْتَ لشِـــعـــــري ولـم تَـتَّــئِبْ
تُـعـــــارضُ جــــوهـرَهُ بـالـعَــــرَضْ[6]

---

(١) نشي ريحًا طيبة: شمها وكذلك انتشاها وتنشاها، يفض: يفت أو يصب، والمعنى: ألم تشم من عبير أدبي نفحات طيبات كأنها فتيت المسك المنثور أو رذاذه المصبوب.

(٢) الترع: جمع ترعة، وهي الروضة في مكان مرتفع أو مفتح الماء حيث يرد الناسُ أو فوّهه الجدول، الفُرض: جمع فرضة وهي من النهر ثلمة يُستقَى منها، ومن البحر محط السفن، و المعنى: ألم تجد من شمائلي عذوبة ورقة كأنك غاد منها على حدائق غناء تحفها الجداول والغدران.

(٣) المعنى: لولا صلاتك الوثيقة بي ما عنيت بشأنك ولا اهتممت بوفائك أو كيدك.

(٤) في ب، ت، ز، «ولا نالني بجفاء مضض»: «المضض: وجع المصيبة.

(٥) في نسخة أ «ولكن يعز اعتصار الفتى واردًا..» وكلمة «ولكن» أو كلمة «واردًا» زيادة في الوزن فلا بدّ من حذف إحداهما الاعتصار أن يغص الإنسان بالطعام فيعتصر بالماء وهو أن يشربه قليلاً قليلاً، قال عدي بن زيد:

لو بغـــيـــــر الماء حلقي شـــــرق
كنت كـالـغـصـــان بالماء اعـتـصـــاري

الجرض: الغصة بالريق حتى لا يمكن ابتلاعه إلا بجهد وهم، والمعنى: كيف يستطيع المرء أن يزيل غصته إذا كان الماء العذب المزيل للغصص يسبب له أشد الغصص؟

(٦) أوأبه وأتأبه: أغضبه، أو ردّه بخزي، أو فعل به فعلا قبيحًا، واتّأب: خزي واستحيا، الجوهر: الأصل، أو الطبيعة، أو الحجر الكريم، العرض: المظهر: أو الصفات العارضة وهو في اصطلاح المتكلمين مالا يقومُ بنفسه ولا يوجد إلا في محلٍّ يقوم به، وهو خلاف الجوهر وذلك نحو خمرة الخجل وصفرة الوجل أو متاع الدنيا وحطامها، يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرُّ والفاجر، وفي الحديث «ليس الغنَى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنَى النفس»، المعنى: حاولت معارضة شعري الرائع الثمين بشعر تافه ركيك كمن يعارض الجوهر بالحطام أو الطبع الأصيل بالمظاهر الجوفاء، وفي الذخيرة «عبثت بشعري ولم تتئد».

أضــــــاقَتْ أســــــاليبُ هـذا الـقــــريـ
ـضِ أم قـــد عـــفــا رَسْـمُـــهُ فـــانقـــرضْ(١)

☆☆☆☆☆

لَعَـــمْـــري لقَـــوّقْتَ سَـــهْمَ النِّضــال
وأرسلتَــــــهُ، لـو أصَــــبْتَ الـغَـــرض(٢)
وشـــمّـــرْتَ للخـــوضِ في لُـجَّـــةٍ
- هِيَ البـحــرُ - ســاحِلُهـــا لم يُخَض(٣)
وغَـــرّكَ من عــــهـــدِ «فـــعّـــالةٍ»
ســـــــرابٌ تــراءى وبَــرْقٌ ومَــض(٤)
تَـظُنُّ الـوفــــاءَ بـهـــا والـظّـنو
نُ فــيــهـا تقـــولُ على مَنْ فَـــرَض(٥)
«هِـيَ المـاءُ يـأبَـى عـلـى قــــابـضٍ
ويمـنـعُ زُبْـدَتَـهُ مَـنْ مَـــــخَـض»(٦)
ونُبِّــئْــتُــهـا بـعـديَ اسـتـحـمَـدَتْ
بسِـــرِّي إليكَ لمـعنًى غَـــمَض(٧)

☆☆☆☆☆

«أبا عـــامـــرٍ» عَـــثْـــرةً فـــاسْـــتَـــقِلْ
لتُــبـــرِمَ من وُدّنا مـــا انْتَـــقَضْ(٨)

---

(١) عفا: درس وبليَ، الرسم الأثر ورسم الدار: ما كان من آثارها لاصقًا بالأرض.

(٢) في الذخيرة والخريدة ونسخة أ «لفوقت» وفي ب، ت، ز «لطوّقت»، فوق السهم: جعل له فوقًا والفوق: موضع الوتر من السهم، والمعنى: لقد أعددت سهامك لرميي وسددتها إلي ولكنك أخطأت الهدف.

(٣) المعنى: شمرت ثيابك لتخوض في بحري الطامي، وما خاضه قبلك إنسان، وفي الذخيرة «هي الموت».

(٤) في الذخيرة «من عهد ولاّدة» وفعّالة كناية عمّن تفعل الفعل القبيح الذي يُستحيًا من ذكره، المعنى: غرك من فعل ولاّدة وعود كاذبة وأحلام خادعة مثل السراب الكاذب أو السراب الخادع.

(٥ و٦) معنى البيتين: لقد خدعتك فتخيلتها مثلاً للوفاء، مع أن الظواهر تدل على ألا وفاء لها وأنها تشبه الماء الذي لا يستقر في يد ولا يعطي زبدة لمن يمخضه، فلا تغتر بملمسها اللين ولا بكلامها الرقيق.

(٧) في الذخيرة «بسير إليك» وفي ب، ت، ز «بسر إليك» ؛ استحمد: طالب الحمد؛ والمعنى: بلغني أنها توددت إليك بأن باحت لك بأسراري لغرض تخفيه في نفسها.

(٨) المعنى: يا أباعامر لقد عثرت عثرة فاطلب إليَ أن أُقيلك منها وأن أغتفرها لك، وستجد مني صدرًا رحبًا وصديقًا غافرًا، وبهذا تستطيع أن تستأنف من صداقتنا ما تبدّد.

ولا تَعْـــتَـــصِمْ ضَلَّةً بالحِـــجَـــاجِ
وسَلِّمْ، فـــرُبَّ احـــتـــجـــاجٍ دُحِضْ[1]
وإلا انتَـــحَـــتْكَ جـــيـــوشُ الـعـــتـــابِ
مُـنـاجِـــزةً في قَـــضـــيـضٍ وقَضْ[2]

☆☆☆☆☆

وأنـذِرْ خَـلـيـلَـكَ مِـنْ مـــــاهـرٍ
بـطِبِّ الجـنـون إذا مـــا عَـــرَضْ[3]
كـــفـــيلٍ ببطِّ خُـــراجٍ عَـــســـا
جـــريءٍ عـلـى شـقِّ عِـــرْقٍ نـبض[4]
يُبـــادِرُ بـالـكَيِّ قـــبـلَ الضِّـــمـــادِ
ويُسْـــعِطُ بـالـسُّمِّ لا بـالحَـــضَـض[5]
وأشْـــعِـــرْهُ أنِّي انْتَـــخَـــبْتُ البـــديلَ
وأعْلِمْـــهُ أنِّي اسْـــتَـــجَـــدْتُ العِـــوَض[6]
فـــلا مـــشـــربي - لـقِـــلاهُ - أمَـــرُّ
ولا مَـــضْـــجَـــعي - لـنَـواهُ - أقضّ[7]

---

(١) الحجاج: الجدال، دحض حجّتهُ: أبطلها؛ المعنى: لا تتمسك بالجدال والمناقشة، واعترف بالخطأ، فرُبَّ حجة باطلة لم تغن عنك في الاعتذار.

(٢) انتحى قصد؛ القض: الحصا الصغار، والقضيض: الحصا الكبار، والمعنى: اعترف بأخطائك وإلا قصدتك جيوش اللوم مجتمعة عليك في عدد وفير.

(٣) أنذر صاحبك بأنني ماهر في طب الجنون العارض، ويبدو أنه يقصد بقوله (خليلكَ) ولادة.

(٤) بط القرحة: شقها، الخراج: القروح، عسا: غلظ ويبس، والمعنى: إنني كفيل بسلاح كل داء مستعص فأشقّ القروحَ الغليظة اليابسة، والعروق النابضة ، أي إنني كفيل بشفاء كل جاهل من طيشه وتأديبه على حماقته.

(٥) يسعط: ينشق، الحضض: صمغ من نحو الصنوبر والمر وما أشبههما له ثمرة كالفلفل وتسمى شجرته الحضض، أو هو عصارة الصبر، والمعنى: إنه قبل أن يضمد الجرح يكويه بالنار، وإنه يعالج المريض بأن ينشقه السمَّ الزعاف لاعصارة الصبر كما يفعل غيره من الأطباء، أي إنه كفيل بعقاب كل جاهل مغرور.

(٦) المعنى: أشعر خليلك أنني انتخبتُ لي بديلاً خيرًا منه، واستعضت عنه حبيبًا صادق الود محمود الوفاء.

(٧) القِلَى: البغض، أمر: صار مرًا، أقض مضجعه: أقلق نومه وأتعبه، وأقض المضجع: خشن والمعنى: أخبر خليلك أنني استعضتُ عنه خيرًا منه، وأن شرابي لم يتكدر لبعده، وأن نومي لم يتبدد لهجره، فأمره أيسر من أن أشعر له بشوق أو حنين.

وأنَّ يَـدَ الـبَـيْـنِ مـشـكـورةٌ

لـعـارٍ أمـاطَ ووَصْـمٍ رحَـضْ[1]

وحَـسْـبِـيَ أنِّـي أطَـبْـتُ الجَـنَـى

لإبّـانِـهِ وأبَـحْـتُ الـنُّـفَـض[2]

ويَـهْـنِـيـكَ أنَّـك يـا سـيِّـدي

غَـدَوْتَ مُـقـارِنَ ذاكَ الـرَّبَـضْ[3]

****

(١) البين: البعد، أماط العار: أزاله، الوصم: العيب والعار، رحض الوصم: غسل العيب ومحا العار، المعنى: إن الفراق يستحق شكري لأنه أزال الغشاوة عن عيني وأبراني من حب دنس وهوى ذميم.

(٢) الجنى: الثمر الغض، النفض: ما تساقط من الورق والثمر، والمعنى: لقد تمتعت بخير ما فيها ولم أترك منها إلا الفضلات.

(٣) الريض: مأوى الماشية، المعنى: هنيئًا لك يا سيدي ما نلته من فضلات زادي وبقايا حبي، فانعم بهذه الفضلات وظلّ ملازمًا لها مدى الحياة.

سوء الجزاء

وجه الشاعر إلى أبي الحزم بن جهور – بعد أن زج به في السجن – أبياتًا لم يصل إلينا منها غير هذين البيتين:

بني جَهْوَرٍ أحرقتمُ بجَفائكُمْ
ضميري، فما بالُ المدائحِ تَعْبَقُ[1]

تعدُّونَنِي كالمَنْدَلِ الرطبِ، إنَّما
تطيبُ لكمْ أنفاسُهُ حين يُحْرَقُ[2]

****

(١) في المعجب «فؤادي»: فما بال..» وفي الذخيرة والمغرب وروايات المبرزين وسرح العيون وتمام المتون «جنابي» وفي المطرب والخريدة وأصول الديوان «ضميري»، الجَنان: القلب، تعبق: تستمر رائحته لاصقة أيامًا، المعنى: يا بني جهور : لقد قابلتم مودتي بالجفاء، وأحرقتم فؤادي بإعراضكم عني على الرغم مما خلعته عليكم من عاطر الحمد وطيب الثناء.

(٢) آثرنا رواية الذخيرة وفي أصول الديوان «كالعنبر الورد»، وفي المطرب وتمام المتون «تظنونني كالعنبر الورد»، وفي نفح الطيب «تظنوني كالعود حقا»، وفي المعجب «تفوح لكم أنفاسُه» وفي المغرب «وهو يحرق»، العنبر الورد: الزعفران، المندل: عود طيب الرائحة يستعمل في البخور ويقال إنه منسوب إلى مندل بالهند، الرطب: الغض الطري، والمندل الرطب من أجود أنواع البخور ، قال عمر بن أبي ربيعة:

لمن نارٌ قبيل الصُّبْـ
ـحِ عند البيت ما تخبو؟
إذا ما أوقدت يُلقَى
عليها المندَلُ الرطب

والمعنى: تسيئون إليّ وتنتظرون ثنائي كما تحرقون المندل الرطب لتنعموا بأريجه الفواح، ومثل هذا قول علي بن رشيق القيرواني:

أراك اتهمت أخاك الثقة
وعندك مقتٌ وعندي مِقة
وأثني عليك، وقد سؤتني
كما طيَّبَ العودَ من أحرقه

الشاعر الكذّاب

قُلْ للوزير: - وقد قطعتُ بمَدْحِهِ
زمني، فكان السِّجْنُ منه ثَوابي[1]
لا تَخْشَ لائمتِي بما قد جئتَهُ
مِنْ ذاك فِيَّ، ولا تَوَقَّ عتابي[2]
لم تُخْطِ في أمري الصّوابَ مُوَفَّقًا
هذا جزاءُ الشّاعِرِ الكذّابِ[3]

****

(١) في المطرب والخريدة وتمام المتون «بمدحه عمري» وفي تمام المتون «فكان الحبس».

(٢) آثرنا رواية تمام المتون وفي الأصول «لا تخش في حقي بما أمضيتّه» توقى: أتقى وخشيَ.

(٣) في الخريدة والمطرب «لم تعدُ...»، والمعنى لقد كذبت في مدحك؛ ونسبت إليك من المآثر ما ليس فيك، فاستحققت أن ألقى جزاء الكاذبين، وقد أخذ الأبيوردي هذا المعنى فقال:

وقصائد تحكي الرياضَ، أضعتها
في باخل ضاعتْ به الأحسابُ
فإذا تناشدها الرواة وأبصروا الـ
ـممدوح قالوا: شاعر كذّابُ

ولعل الشاعرين استوحياه من قول ابن الرومي:

إن كنتَ من جهل حقي غير معتذرٍ
أو كنتَ من ردِّ مدحي غير متئب
فأعطني ثمن الطرس الذي كتبت
فيه القصيدة، أو كفارة الكذب

نهاية طاغية

روى الصفدي وابن شاكر[1] أن الناس بعد وفاة المعتضد «تعجبوا من وزيره ابن زيدون كيف انفرد بالسلامة منه؟ فقال: كنتُ كمن يمسك بأذني الأسد يتقي سطوته تركه أو أمسكه» وأنه صاغ فيه:

لقد سَرَّنا أنَّ النَّعيَّ مُوَكَّلٌ
بطاغيةٍ، قد حُمَّ منه حِمامُ[2]
تَجانَفَ صَوْبُ الغَيْثِ عن ذلك الصَّدى
ومَرَّ عليه البَرْقُ وَهْوَ جَهامُ[3]

****

(١) يظهر أنهما تأثرًا في روايتهما بما رواه ابن الأبار من أن الشاعر «أظهر سرورًا بهلاك المعتضد لأنه كان غير مأمون على الدماء ولا حافظًا لحرمة الأولياء فقال يهجوه:

لقد سرنا أن النعي موكل.. البيتان...»

وقد أوهينا هذه الروايات في كتابنا «ابن زيدون: عصره وحياته. وأدبه ص ٢٩٦، ٢٩٧» ولهذا نرجح أنهما من صنع خصومه الذين تآمروا عليه بعد وفاة المعتضد ليغروا به الحاكم الجديد «المعتمد»، راجع ص (٣٦٠-٣٧١)، ولم يرد البيتان في أصول الديوان.

(٢) النعي: الناعي أو النعي أو النعيُّ. حم: قُضي أو قدر، الحمام: الموت أو قدره.

(٣) تجانف: مال، الصوب: نزول المطر، الصدى: جسد الميت، جهام: سحاب لا مطر فيه، ومعنى البيتين: لقد سرنا نزول الردى بهذا الملك الطاغية، وأسأل الله ألا يسقي المطر جثته، وألا يجود عليه السحاب، ومن الأدعية المحبوبة للميت عند العرب: سقى قبره الغيث وجاده السحاب.

بيت يتيم

روى صاحبا الذخيرة والخريدة أن الشاعر هجا رجلاً كان في عينه فص، ولم يذكرا المهجو ولا سبب الهجاء، ولم يشاركهما أحدٌ في رواية هذا البيت الفاحش:

مَـــخَـــضَتْ في اســ ..... الأ... حليــبًــا

فَـــــعَلَتْ عَـــــيْنَهُ من الزُّبْدِ نُقْطَةْ(١)

****

(١) لم يرد هذا البيت في أصول الديوان، وانفرد بروايته ابن بسام والعماد الأصفهاني، وفحش البيت يصرفنا عن شرحه ونعتقد أن معناه ظاهر للمتأمل على أننا نرى شعراء العرب قد استباحوا لأنفسهم أن يقذعوا في الهجاء، وكانوا يرون في هذا سمة من سمات الرقة والظرف أو شفاء الضغائن والأحقاد، حتى أصبح تناول الأعراض أمرًا مألوفًا لا غرابة فيه، ومن يراجع نقائض جرير والفرزدق والأخطل ومعاصريهم يعلم تفننهم العجيب في الإفحاش والتشهير، وقد سار على وتيرتهم بشار بن برد وحماد عجرد وأبونواس ودعبل وأضرابهم ووصل ابن الرومي في الإقذاع إلى مدى لا يلحقه فيه شاعر قديم أو حديث، وذاعت طريقته بين الشعراء، ومن يقرأ يتيمة الدهر للثعالبي يجد فيها ألوانًا غريبة من الإفحاش لو وجهها شاعر اليوم إلى خصمه لناله قانون العقوبات بأعنف الجزاء.

وقد روينا في مقدمة الديوان نبذة من هجاء ولادة لابن زيدون وللأصبحي وسنذكر مثالين من الهجاء أولهما للمتنبي في هجاء ابن كيغلغ من قصيدة طويلة:

يحـمي ابن كـيـغلغ الطريق، وعِـرسـه

مــا بين رجليـــهــا الطريقُ الأعظمُ

يمشـي بأربعـــة على أعـــقـــابه

تحـت الـعـلـوج، ومــن وراء يُـلـجَـمُ

والمثال الثاني للشاعر الأندلسي أبي بكر محمد الأعمى المخزومي في نزهونة الشاعرة:

ألا قل لـنزهونة: مــــا لـهــــا

تجـــرّ من التـــيـــه أذيالـهـــا؟

ولو أبصـــرت .... شـــمـــرت

- كـمـا عــوّدتنيَ - ســربالـهــا

ولا نستطيع أن نذكر هنا قصيدة ابن عمار في المعتمد بن عباد وزوجه وبناته (نفح الطيب طبع ليدن ج٢ ص ٢٦٩)

المطيّرات

«نوع من المطارحات الشعرية ينهض على الأحاجي والألغاز وتدور كلها على أسماء الطيور، ولكل طائر حرف يرمز إليه وقد تتغير الرموز بتغير القصائد.

وقد دارت هذه المطارحات بين الشاعر والمعتمد بن عباد إلا مطارحة واحدة دارت بين الشاعر وأبي طالب بن مكي.

وهذه المطارحات رياضة ذهنية وتدريبات شعرية، وقد عقبنا على هذه المطارحات بتعريفات موجزة للطيور غير المشهورة الواردة بهذه المطيرات، ومرتبة على الحروف الأبجدية».

البعيد القريب

كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأحباس أبوطالب بن مكي إلى الشاعر قصيدة معماة بأسماء الطيور تتكشف رموزها عن هذين البيتين:

[يا بعيدَ الدارِ موصو
لاً بقلبي ولساني
ربّما باعدك الدهْـ
ـرُ، فأدْنَتْكَ الأماني]

فأجابه ابن زيدون:

لا افْتِنَانٌ كافْتِناني
في حُلَى الظُّرْفِ الحِسانِ(١)
خصَّني بالأدب اللـ
ـهُ فأعلى فيه شاني
خاطري أنْفَذُ - مهما
قيسَ - من حَدِّ السِّنان(٢)

✲✲✲✲

أيّها المُرسلُ أطيا
رَ المُعمَّى لامتحاني(٣)

(١) افتن في حديثه وفي خطبته: جاء بالأفانين، والأفانين: الأساليب وهي أجناس الكلام وطرقه، الظرف : الكياسة أو الذكاء والبراعة يوصف بها الشبان لا الشيوخ، أو حسن العبارة، أو حسن الهيئة ، أو الحذق بالشيء.

(٢) الخاطر: الهاجس: ، أو ما يخطر في القلب من تدبير أمر، والمراد هنا الذكاء.

(٣) التعمية: الإخفاء والتلبيس، ومنه عميت، معنى البيت تعمية فهو معمى أي جعلته غامضًا مبهمًا، قال تعالى: ﴿فعميت عليهم الأنباء﴾ وفي إحدى القراءات «فَعُمِّيَتْ».

هـــاكَ: كـــي تَـــزداد فـــي الآ
داب عِـلـمًـــــــــا بمـكـانـــي
قـــد أتـتْنا الطّـيْـــرُ تشـــدو
بـعـضَ أبـيـــــات الأغـــــانـي
بـرطـانـاتٍ قَـــــــضَـــــــتْـنـا
مـــا اقْـــتَـــضَـــيْنا من بيـــان[1]

☆☆☆☆

إن تـغَـنَّـى الـبـلـبـلُ اهْـتـــــــا
جَ غِـنـاءَ الـوَرَشـــــــــــــان[2]
فَـــتَـــآدى منه بيـــتَـــــا
غَـــــزَلٍ مُـنـفـــــــردان[3]
لِـمُـــــحِبٍّ في حـــبـــيـبٍ
عـــنـــه نـــاءٍ مـــنـــه دان
«يا بعـــيـــد الدار، مـــوصـــو
لاً بـقـلـبـي ولـســـــــــاني
ربّمــــــا بـاعـــــدك الـدَّهْـ
ـرُ، فـــــأدْنَـتْكَ الأمـــــاني»

****

(١) الرطانات: الأحاديث بلغة أعجمية، قضيته ما اقتضى: أعطيتُه ما سأل.

(٢) الورشان :طائر لحمه أخف من الحمام يسمى ساق حر، يقول الدميري: إنه ذكر القمارَى، قال حميد بن ثور:

ومـــا هـاج هذا الشـــوقَ إلا حــمــامــةٌ
دعتْ ســـــاقَ حــــرٍّ ترحــــة وترنما

والقمري من فصيلة الحمام وقيل إنه يتولد بين الفاختة والحمام وهو عذب التغريد.

(٣) تآدى: تتابع.

قرة عين المعتمد

مدح الشاعر المعتمد بن عباد بقصيدة وقد عمّى له فيها بيتًا هو:

الحـــاجبُ الأعلى العـــضُــدْ
قُـــرّةُ عين المعـــتـــمِـــد[1]

ففكّه المعتمد، وقدم له بأبيات هي:

يـا سـيـدي الأعلى ومـن
أعــددتُهُ أقـــوى العُـــددْ
حلّت طيـــورُكَ بي وقـــد
قـــرُبتَ منهـــا مـــا بَعُـــد
كـاشَـفْــتَنا عن سِـــرّها
فـــوَشَى إليَّ بهـــا الصُّــرَد[2]
بيـــتًـــا يدلُّ على اعـــتـــقـــا
دِكَ يا جـــمـــيلَ المُـــعْـــتَـــقَـــد:
«الحـــاجبُ الأعلى العـــضُـــد
قُـــرّة عين المعـــتـــمِـــد»

فأجابه ابن زيدون:

لو أنّ مَنْ جـــارَ قَـــصَـــدْ
لم يَجْـزِ - عن وَصْلي - بصَـد[3]

(١) العضد: الناصر والعين، قرة العين: سرورها، أو برودتها أو انقطاع بكائها أو رؤيتها ما كانت متشوفة إليه حتى تقرّ فلا تطمح إلى زيادة عنه، ويقال حتى تبرد ولا تسخن، فللسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارة ، وضدها سخنت عينه.

(٢) الصرد: طائر فوق العصفور يصيد العصافير ضخم الرأس والمنقار.

(٣) قصد: عدل.

سَـــيِّئُ عَـــهْـــدٍ أُرخِـــصَتْ

عـــيناه في قَـتْلِ العَـــمَــد[1]

مـــــالِكُ سُلطانِ الهَـــوَى

أَمِّـنَـهُ مِـن الـقَـــــوَد[2]

مُـــــخَـلَّـدٌ خَـلَّـدَ - بَـرْ

حَ الشَّــــوْقِ - في كلِّ خَـلَـد[3]

وَعْـــرُ الرِّضى، لِحـــبِّـــهِ

نَـهْجٌ - إلى القلب - جَــــدَد[4]

قـــاسٍ!! إذا مـــا قـــيل: أبـ

ـلى حُلَّةَ الهَـــجْـــر» أجـــد[5]

أو قلتُ: «قـــد هَبَّ نســـيـ

ـمُ الوصلِ لي منه» ركَـــــد[6]

مــــا كنتُ آبَى صَـــدَّهُ

لو أنَّ سُلوانِيَ صَــــــد[7]

☆☆☆☆

(١) أرخصَ ورخّص له في فعل كذا: أذن له في فعله بعد النهي عنه، العمد: القصد وهو ضد الخطأ في القتل، وقسم الفقهاء القتل على ثلاثة أوجه القتل: الخطأ المحض (بالصدفة) وشبه العمد (كالضرب المفضي إلى الموت)، والعمد المحض (مع سبق الإصرار) وقد حرّك الشاعر السكون تسهيلاً لحركة القافية، والمعنى: هذا الحبيب ناكث للعهد أبيح لعينيه أن تقتلا القلوب متعمدتين دون حرج أو قصاص.

(٢) القود: القصاص، وأقاد الأميرُ القاتل بالقتيل: قتله، والمعنى : إن هذا الحبيب يقتل القلوب وهو آمن من القصاص.

(٣) مخلد: محلّى بالقرط أو مسوّر بسوار . أنشد أبوعبيد:

ومـــخلدات باللجين كـــأنما

أعـــجـــازهن أقـــاوزُ الكثـــبـــان

الأقاوزُ: قبضات من الرمال مستديرة تشبه بها أرداف النساء، خلّد: أبقى، الخلَد: القلب أو النفس، والمعنى: أنه جميل مزين بالحلي أبقى نار الشوق أبدًا في كل القلوب.

(٤) وعر: صعب، وطريق وعر: شاق مليء بالعقبات، نهج: طريق واضح، الجدد: ما استرق من الرمل أو الأرض المستوية أو ما لا وعث فيها أو السعة، وفي الأمثال «من سلك الجدد أمن العثار» والمعنى: طريق رضاه محفوف بالمتاعب، ولكن حبّه يسلك إلى القلوب طريقا ممهدًا رحبًا.

(٥) المعنى: هو حبيب قاسي القلب، إذا حسبناه مزق رداء الهجر أعاده جديدًا.

(٦) المعنى: كلما ترقبتُ منه نسيم الوصل ركدت ريحه ولفحتني منه عواصف الهجران.

(٧) الصَّدُّ والصُّدُّ : الجبل، المعنى: ما كنت أتألم من هجره وأنفر منه لو كان سلوي عنه راسخًا كالجبل الأشم.

فتنةُ وَجْدٍ، هي كالـ
ـفتنةِ في العِجْلِ الجَسَدْ[١]

غَيْرُ مُبينٍ، طَرْفُهُ
يعصِفُ بالخَصْمِ الألد[٢]

عَصْفَ «أبي القاسمِ» بالـ
ـقتل إذا القتلُ مَرَدْ[٣]

الحاجبُ الأعلى الذي
لو ماجَدَ الشَّمْسَ مَجَد[٤]

مَحْضُ التُّقى، عَفُّ الهَوَى
غَمْرُ النَّدى، صَدْقُ الجلَد[٥]

ركينُ طَوْدِ الحِلْمِ إنْ
حُباه في النادي عقَد[٦]

مُوفَّقُ الأنْحاءِ غا
دٍ في أساليب الرَّشَد[٧]

لو قُصَّ كُنْهُ جودِهِ
للبحرِ، وافَى فاسْتَمَد[٨]

---

(١) المعنى: إن فتنتي بمثل فتنة بني إسرائيل بالعجل الذهبي الذي صاغه لهم السامري فعبدوه.

(٢) اللدد: الخصومة، الألد: الشديد الخصومة، المعنى : إنه لا يستطيع الإبانة أو الجدال ولكن نظرات عينية بليغة الأداء تعصف بكل خصم لدود.

(٣) أبوالقاسم من ألقاب المعتمد، مرد: عتا وتجبر أو بلغ الغاية، المعنى: تعصف عيناه بالقلوب كما يعصف المعتمد بالقتل إذا استمر القتال وبلغ مداه.

(٤) ماجد الشمس: فاخرها في الشرف، مجدها: فاقها في مجدها.

(٥) محض التقى: خالص التقوى نقيها، غمر الندى: جزل العطاء، صدق: صلب، الجلد: الشجاعة.

(٦) الركين: الجبل العالي الأركان، ورجل ركين: رزين يشبه الجبل، عقد حبوته أو احتبى: اشتمل بثوبه وقيل جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها ليستند، إذ لم يكن عند العرب ما يستندون إليه في مجالسهم، وأصبحت جلسة يكون بها عن التؤدة والوقار، والمعنى: الأمير ثابت وقور حليم إذا عقد حبوته مثل الحبل الراسخ الوطيد.

(٧) النحو: القصد جمعه أنحاء، الأساليب جمع أسلوب وهو الطريق أو الفن من القول، والمعنى: الأمير موفق في مقاصده ناهج سُبُل السداد.

(٨) كنه الشيء: نهايته أو جوهره، المعنى: لو حكى للبحر عن طبيعة سخائه ومداه لأتى إليه البحرُ مستمدًا منه العطاء.

مُـــــــؤمّـلـي - مَـعَ الـرّضـى -

يُـهـــابُ في حـينِ الـبَـــعَـــدْ[1]

إنْ قُـلِّـدَ الأمْـــــرَ كَـــــفَى

وإنْ تولّـى الـثُّـــغْـــرَ سَـــد[2]

مـــاءُ سَـــمـــاحٍ فـــاضَ في

جَـــمْـــرِ ذَكـــاءٍ فـــاتّقَـــد[3]

يـا عَــــضُـــــدَ الـدّولـةِ يـا

مَــولًى ببــاريهِ اعْــتَــضَــد[4]

ومَنْ - بـفَــضـل اللّـهِ - حـــا

ز النَّصـــرَ في جِـــدٍّ وجَـــد[5]

أصـــــــــبَـح أعـلـى والـدٍ

فـــــاوَقَـــــهُ أسْـنَى ولـد[6]

حَـــــدّثْـتَـنـا عـن سَـــــرْوهِ

نـاهـيـك مــن قُـــــربٍ سَنَـدْ[7]

☆☆☆☆☆

---

(١) البَعَد والبُعْد: الهلاك. قال تعالى: ﴿ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ المعنى: إنه مهبط آمالي عند الرضا ومثار خوفي عند مواطن الهلاك أي عند اشتداد القتال.

(٢) الثغر: المكان الذي يخشى هجوم الأعداء منه في الحرب على الحدود، المعنى: إذا عهد إليه بالحكم اضطلع به، وإن ولي القيادة الحربية في مكان مخوف أمنه.

(٣) المعنى: اتقد ذكاؤه كالنار ورقت شمائله كالماء.

(٤) اعتضد: استعان

(٥) الجدُّ: ضد الهزل أو الاجتهاد، الجَدّ : الحظ، وفلان مجدود: محظوظ، والجد أيضًا: الغنى أو العظمة، قال عزّ وجل: ﴿وأنه تعالى جدُّ ربنا﴾ أي عظمته وجلاله.

(٦) سني سناء: ارتفع، المعنى: أصبح المعتضد أسمى أب طاوله في سموه ومجده أسمى ولد.

(٧) السرو: سخاء في مروءة، ناهيك: حسبك أو كافيك، السند: نسبة الحديث إلى قائله، وأسند الحديث: رفعه، والمسنَد من الحديث: ما اتصل إسناده حتى يسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعكس المرسل والمنقطع، المعنى: حدثتنا أيها الأمير عن سخاء أبيك ومروءته، وما أصدق الحديث إذا كان راويه متصلاً بالمروي عنه قريبًا منه.

مَلْكٌ – إذا نـحـنُ اعـــتـــمَـــدْ
نـا منه أوفى مُـــعْـــتَـــمَـــدْ
تَـهَلَّـلَتْ شـــــمسُ جَـــبـ
ـينٍ واسْـــتَـــهَلّتْ مُـــزْنُ يد[1]
مُـــــمَــــحِّصُ الدّهـرَ الـذي
أصلـح منه مـــا فَـــســـد[2]
وعـــــاضِـــــدُ الـدّيـن الـذي
قــد كــان – قَــبْلُ – مُـضْطَهَـد[3]
ونـاصـــــــرُ الـعِلْـمِ الـذي
نَفَّـــقَـــهُ لـمّـــا كـــسَـــد[4]
مــن لـم يَـعِـــــدْ إلا وَفَـى
ولا وَفَـى إلا وعَـــــــــد
مُــــشـــاورٌ – فـي أمـــره
شَـيْـحـانُ لو شـاءَ اسـتـبـد[5]
يَخْـــشَى الـعَـــدوُّ منه عَـــزْ
مَ قَـــسْـــوَرٍ شـــاكي اللِّبَـــد[6]
سَـــمْحٌ لـه مـــهـــمـــا عَنَا
فـظٌّ عـلـيـــــه إنْ عَـنَـدْ[7]

---

(١) المعنى: إنه ملك كريم، إذا اعتمدنا عليه تهلل وجهه بالسماح وفاضت يداه بالسخاء.

(٢) محص الذهبَ بالنار: أخلصه مما يشوبه، المعنى: إنه نقّى الزمان مما خالطه من أكدار.

(٣) عاضد الدين: ناصره ومعينه.

(٤) نفقه: روجه. كسد: بار، ومنه كسدت البضاعة إذا لم يقبل عليها شار.

(٥) الشيحان: الغيور أو الحازم.

(٦) القسور والقسورة: الأسد قال تعالى: ﴿كأنهم حمرٌ مستنفرة فرت من قسورة﴾ شاكي السلاح وشائكه: نافذهُ. اللبد: الشعر المتراكم على عنق الأسد.

(٧) في ب عتا: طغى وتجبر ، عنا: خضع وذل، قال تعالى: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ مهما: مصدرية شرطية، أو زمانية شرطية بمعنى كلما مثل قول الشاعر:

وإنك مـــهـــمـــا تعط بطنك ســؤله
وفــرجك نالا منتــهى الذم أجــمــعــا

والمعنى: كلما ذل خصمه له وخضع قابله بالسماحة والغفران، وإذا ركب الخصم رأسه قابله بالخشونة والجفاء.

كـــالسَّـــيْفِ في حـــالَيْـــه: إنْ
راقَ فِـــــرِنْدُ راعَ حَـــــــدْ[١]

يـا مُــــهـــدِيَ السِّـــمْطِ الذي
قُـلِّـدْتُـهُ فَـــــخْـــــرَ الأبـد[٢]

أحَـــــسَنُ مـن رَقْمِ عِـــــذا
رِ ســـائـلٍ في وَشْـيِ خَـــــد[٣]

أو مـــبْــسَمٍ حُـلـوِ الـلّمـى
يَـفْــتَــرُّ عن عــذبٍ بَرد[٤]

☆☆☆☆☆

قـــــد قـلـتُ - لمـا هــزّنـي
منـه البــديعُ الـمُنْتَـقَــدْ:[٥]

«نســـيـمُ أيـلـولٍ سَـــرى؟
أم وَردُ نَـيْـــســـانٍ وَرَدْ؟»[٦]

خــــاطِرُك الـشَّــــهمُ وَشَـى
بِســـرٍّ طَيْـــري لا الصُّـــرَدْ[٧]

(١) فرند السيف وإفرنده: وشيه وحلية صفحته أو جوهره، راع: أفزع، المعنى: الأمير سمح كريم في رضاه، ولكنه قاس عنيف في غضبه، مثل السيف يروقك وشيه وجوهره ويفزعك حدّه ومضاؤه.

(٢) السمط: الخيط مادام فيه الخرز: وإلا فهو سلك، أو القلادة الطويلة، المعنى: طوقت جيدي بسمط ثمين من جواهر شعرك، فأصبح مناط فخري إلى الأبد.

(٣) الرقم: الكتابة ، أو ضرب مخطط من الثياب، أو الخز، أو البرود، العذار: الشعر النابت على صفحتي الوجه، الوشي: النقش والتزيين، المعنى: إن شعر الأمير أجمل من منبت العذار على صفحة الخد المشرق الوضاء.

(٤) اللمى: سمرة في الشفة مستحسنة، المعنى شعر الأمير أجمل مظهرًا من ثغر أحمر الشفتين يفتر عن أسنانٍ لؤلؤية تشبه البرد.

(٥) المنتقد: المتميز المختار من نقدت الدراهم وانتقدتها إذا ميزت جيدها وأبعدت الزيف منها.

(٦) أيلول: يعادل شهر سبتمبر في التقويم السرياني، نيسان: يعادل في هذا التقويم شهر إبريل، وترتيب هذه الشهور يوافق ترتيب الشهور الإفرنجية إبتداء من سبتمبر حتى أغسطس على النسق الآتي: أيلول، تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان، آيار، حزيران، تموز، آب، المعنى: لقد هتفت - حينما هزني شعره المختار - أفيه - نسماتُ الخريف أم فيه ورد الربيع؟

(٧) الشهم: الذكي الفؤاد المتوقد، الصرد: طائر جارح فوق العصفور وهو شرس يصيد العصافير، ويقلد أصواتها فتأتي إليه فيفترسها، المعنى: لقد أدرك خاطرك الوقاد سر ما عميته لك فنم عليه، وليس اسم الصرد وحده هو مفتاح اللغز، ولكن بصيرتك الملهمة هي التي استشفته من خلف الحجاب.

وفِــطــنــةٌ تــألّــفــتْ -

من الـمُـعَـمّى - مـا شَـرَدْ[1]

شِنْشِنَةٌ أعــرفُــهــا

في شِـبْلِ مَلْكٍ مِنْ أسَـد[2]

☆☆☆☆☆

يا آل «عــبّــادٍ» مِــثــا

لٌ لـيس يـعـدوه السَّــدَد[3]

مَنْ لـي بـشـكـر نـعــمــةٍ؟

الحُــرُّ عنهــا مُـعْـتَـبَـد[4]

سُــوِّغتُ منهــا العــزّةَ الـ

ـقـعـسـاءَ في العـيشِ الرَّغَـد[5]

حـــيثُ أَضــافَ مَـنْـهَلٌ

صــفــا إلـى ظِـلٍّ بَـرَدْ[6]

---

(١) المعنى: لك خاطر نفاذ يحل المشكلات، وفطنة تؤلف ما شرد من معاني المعميات، فإذا تألفت وضح منها ما كان محفوفًا بالغموض.

(٢) الشنشنة: العادة أو الطبيعة أو الخلق، ومن الأمثال «شنشنة أعرفها من أخزم» قاله أبو أخزم الطائي، وكان أخزم عاقًا أبيه، ثم توفي فوثب أبناؤه على جدهم فأدموه، فقال:

إن بنـيَّ ضــرجــوني بـالـدمِ

شنشنة أعــرفــهــا من أخــزمِ

المعنى: أن فطنة الأمير طبيعة فيه ورثها عن أبيه ، كما ترث الأشبال طبائع الآساد.

(٣) يعدوه: يجاوزه، السدد والسداد: الاستقامة والصواب.

(٤) عنْ: من معانيها التعليل مثل قوله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أي بسبب موعدة، معتبد: متخذ عبدًا، المعنى: كيف أستطيع القيام بشكر نعمة تستعبد - بسبب وفرتها وجزالتها - الأحرار؟

(٥) سوغه: جوزه، وسوغ له كذا: أعطاه إياه، القعساء: الثابتة الراسخة، الرغد: الطيب الواسع.

(٦) في الأصول: «استضاف منهل» واستضاف معناها طلب الضيافة ولعل الصواب ما أثبتناه، ضاف إليه وأضاف: مال ودنا، قال ساعد بن جؤية يصف سحاباً:

حـتى أضــاف إلى واد ضـفـادعُـه

غـرقى ردافى تراها تشـتكي النشـجـا

أي غرقَى مترادفة تشتكي النشج وهو مجرى الماء، المعنى: حيث انعطف المورد الصافي إلى ظل ظليل.

كــــــــأنَّـهـــــــــا لــي جَـنّـةٌ
حُـــــفَّتْ بمكروهِ الحَـــــسَــــــد[1]

يَـحْـــــــــمِـلُـهـــــــا مـنِّـيَ وا
فِي الشُّكْرِ صــافي الـمُـعْـتَـقَـد[2]

كـم قــــــــــــام بــالـشّـكـر إلـى
أنْ أثْقَلَتْــــــهُ فَــــــقَــــعَـــــدْ

أقْـــــصَـــــرَ، لـكنْ لـم يُقَـــصْـ
ـصِرْ، مُـبْلغُ الـعُـذرِ اجْـتَـهَـد[3]

وُقِّـــــيتُ بَطْشَ الـعَين فــــيـ
ـكمْ بالـعَــــمَـى لا بـالـرَّمَـــــدْ[4]

****

(١) المعنى: إن نعمتك السابغة عليَّ تجعلني أعيش في جنة وارفة الظلال، ولكنها محفوفة بالحاسدين، وهو يشير هنا إلى الحديث الشريف «حفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات».

(٢) صافي المعتقد: نقي العقيدة خالص الإيمان.

(٣) أقصر : أوجز، المعنى: لقد أوجزت في إيفائك حقك من الثناء ولم أقصر عامدًا ولكن حقك فوق طاقة الشعراء وبحسبي أنني بذلت غاية الجهد والتمستُ عذرًا.

(٤) المعنى: أدعو الله أن يقيكم عيون الحاسدين بأن يصيبها بالعمى لا بالرمد.

معدن العلم

كتب المعتمد إلى ابن زيدون:

يا سيّدي يا مَعْدِنَ العِلْمِ
يا آلةً للحرب والسِّلْمِ(١)
وَجِّهْ طيورَ الشِّعْر نَحْوي، فقد
بثّ فؤادي شَرَكَ الفَهْمِ(٢)

فطير إليه ابن زيدون بيتًا هو:

اظْفَرْ كما أنتَ ظافرْ
بكلّ غاوٍ مُنافرْ(٣)

ثم شفعه بهذه الأبيات:

ألحَقَني بِرُّكَ بالنَّجْمِ
يا ابنَ البدورِ الزُّهْرِ مِنْ لَخْمِ(٤)
يا لابسَ المجدِ الذي زانَهُ
بالعِلم زَيْنَ البُرْدِ بالرَّقْمِ(٥)
قد لَثِمَتْ كفّي الدراريَّ مُذْ
شافَهْتُ تلك الكَفَّ باللَّثْمِ(٦)

---

(١) معدن العلم: مركزه أو أصله أو جوهره.

(٢) المعنى: ابعث إلي بشعر معمى على أسماء الطيور فقد بث ذهني الشباك لاصطياد هذه الطيور المعماة والوقوف على أسرارها.

(٣) غاو: ضال: منحرف عن الصواب، منافر: مفاخر في الحسب.

(٤) الزهر: الوضيئة، لخم: قبيلة يمنية ينتسب إليها المناذرة ملوك الحيرة، وينتمى إليهم بنو عباد.

(٥) البرد: الثوب المخطط ، الرقم: الكتابة أو التزيين، المعنى: لقد زينت مجدك العريق بالعلم الوافر كما تزدان الثياب بزخارف الألوان.

(٦) الدراري: الكواكب الوضاءة، شافه فلانا: أدنى شفته من شفته، وشافه البلد: داناها.

قُلِّدَ منكَ المُلْكُ عَضْبَ الظُّبا

يمضي مَضاءَ القَدَرِ الحَتْمِ[1]

فِرِنْدُهُ الرّقْراقُ من بِشْرِهِ

وحَدُّهُ من نافذِ العَزْمِ[2]

٭٭٭٭٭

قد جاءني النَّظْمُ الذي خِلْتُهُ

مُؤلَّفَ اللؤلؤِ في النَّظْمِ[3]

حَلَّيْتَنِي منه بفخرٍ يُرى

في غُفْلِ حالي رائقَ الوَسْمِ[4]

مُسْتَدْعِيًا طَيْرَ المُعَمَّى لكيْ

يَصيدَها في شَرَكِ الفَهْمِ

فهاكَها: تُهدَى إلى خاطرٍ

يَسْتَخْرِجُ الإفْصاحَ من عُجْمِ[5]

****

---

(١) العضب: القطع: أو السيف البتار، الظبا جمع ظُبة وهي حد السيف أو السنان، المعنى: لقد صرت للملك حسامًا مرهف الحدّ تمضي في تأسيسه ودعمه كما يمضي قضاء الله المحتوم.

(٢) فرند السيف وإفرنده: وشيه وحلية صفحته أو جوهره، المعنى: أصبحت للملك سيفًا مرهفًا تتألق بالبشر كما تتألق صفحته، وتقطع بحزمك كل مشكلة تعترضك كما يقطع حده البتار.

(٣) المعنى: تلقيتُ شعرك فحسبته لؤلؤًا مؤلفًا في عقده النظيم.

(٤) الغفل: الخالي من العلامات، الوسم: النقش، المعنى: لقد زينت مكانتي بشعرك وكانت قبل هذا عطلاً من التزيين والتمييز.

(٥) المعنى: خذها هدية مني إلى خاطرك النفاذ الذي يستنبط الفصيح من الأعجمي المبهم.

علم الطيور

طيرّ المعتمدُ إلى الشاعر أبياتًا رمز فيها إلى هذين البيتين:

[شِـــعْـــرُ مَنْ مَـــحْضُ وُدِّهِ
لكَ في عِلْمِ طَيْـــرِهِ(١)
فَـهْيَ مهما زجرتَها
لمْ تُخَـبِّـرْ بغيـرِهِ(٢)]

فأجابه ابن زيدون:

أيّهـا الماجـدُ الذي
خِيـرُه وَفْقُ خَيْـرِهِ(٣)
والذي سَيْـرُ مُشْتَرِي
أُفْقِنا دون سَيـرِهِ(٤)
مَلِكٌ صَحَّ - مِن أديـ
ـمِ الهُدَى - قِدُّ سَيْـرِهِ(٥)
فَهُوَ - الدهرَ - نَفْعُهُ
حاضـرٌ، دونَ ضَيْـرِهِ(٦)

☆☆☆☆

(١) المحض: الخالص النقي.

(٢) زجر الطير: رماها ليعرف جهة طيرانها فيستنبط منها ما يتوقعه من خير أو شر، وكان العرب يزجرون الطير ويثيرونها فما تيامن منها سموه سانحًا وتفاءلوا به، وما تياسر منها سموه بارحًا وتشاءموا منه، المعنى: ستنبئك الطير بما غمض من معاني الشعر ولن تنبئك بسواه.

(٣) الخِيرُ: الكرم أو الشرف أو الهيئة، الخَيِّر: المال، المعنى: أيها الملك الشريف النسب لقد اتسق كرمك الجم مع مالك الكثير.

(٤) المعنى: إن مسار نجم المشتري ينخفض عن مساره.

(٥) الأديم: باطن الجلد، القِد: قطعة تقد من جلد غير مدبوغ، السير: شراك مقدود من الجلد، والمعنى: إن شراك نعله قدت من جسم الهداية.

(٦) الضير: الضرر، ومنه قوله تعالى: ﴿لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾.

يـا لِلَـيْلِي سـئـمـتُ مـنْ

سَـهَـري في قُـمَـيْـرِهِ[1]

عـزٌّ - فـي وَهْـنِهِ مَـرا

مُ، عَنَـا في سُـحَـيْـرِهِ[2]

«شِـعْـرُ مَـنْ مَـحْضُ وُدِّهِ

لـكَ فـي عِـلْـمِ طَـيْـرِهِ

فَـهْيَ - مـهـمـا زجـرتَـهـا -

لـمْ تُـخَـبِّـرْ بغَـيْـرِهِ»

****

(١) المعنى: ما بالي سئمت من السهر في الليل على ضوء الهلال الذي لم يكتمل.

(٢) الوهن والموهن: نحو من نصف الليل، قال الأصمعي: هو حين يدبر الليل، عنا: خضع وذل، السحر: قبيل الصبح أو طرف كل شيء، وتصغيره سُحير، المعنى: لقد عز عليَّ نيل مطلبي بعد منتصف الليل وإن كان هينًا في الصباح.

الظافر المظفّر(1)

كتب ابن زيدون إلى المعتمد قصيدة مُطَيَّرة هي:

أيـهـــــــا الـظـافـــــــــرُ لا زلـ
ـتَ مـــــدى الـدنـيـــا مُـظفَّـــــرْ
أنــت أسـنَــى ابــنٍ لأســـــــــــمـى
والـد - في الـدهـر - فـــافـــخَـــرْ(2)
إنْ تُــردْ شَـــــــرْحَ مُــــــعَــــــمّىً
هـو - في نَظْمِيَ - مُــضْــمَــرْ(3)
فـــاسْـــألِ - الشـــاهـينَ، والصَّــقْـ
ـرَيْنِ والـعَنقـــاءَ - تُـخْـــبَـــرْ(4)
ثـم رَأْلَ الـقَـــــفْـــــرِ والـفــــيْـ
ـيَـــادَ، والـنَّـسْـــرَ الـمُـــعَـــمَّـــرْ

---

(1) في هذه القصيدة يرمز كل طائر إلى حرف من حروف الهجاء كما يلي:

الحــرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ت	بازي	ا	نسر
د	صقر	ل	رأل	ظ	طاوس	ل	رال
ق	عنقاء	ا	نسر	ف	ديك	ك	العقعق
ل	رأل	ل	رأل	ر	قمري	ل	رأل
ن	فياد	س	حبارَى	ع	هيق	م	سماني
ا	نسر	م	سماني	ل	رأل	هـ	شقراق
ف	ديك	هـ	شقراق	ي	قبج		

وسنعرف بغير المعروف عندنا الان من هذه الطيور تعريفًا موجزًا في آخر فن المطيرات وقد أوردناه مرتبًا على الحروف الأبجدية ليسهل الرجوع إليه.

(2) أسنى: أرفع أو أضوأ.

(3) في ب، ت، ز «شرح معمى» وفي ت «فهو في نظمي مُضمر».

(4) أرجع إلى التعريف بهذه الطيور في آخر فن المطيرات.

ثم - بـعـــــدَ الـدّيكِ عُــــدْ لـلـنْـ

ـنَسْــــر والـرألِ الـمُنَفّــــرْ

ثـمَّ عُــــدْ - لـلّنسـر والـرأ

ل - فـكُـلٌّ قــد تـكرّر

والحُــبــارَى والسُّــمــانَى

والشِّــقِــرّاقِ الـمُــحَــبَّــر[1]

ثمَّ ســائلْ بـعــدها البـا

زيَ إنْ حلَّ فــصَــرْصَــر[2]

مـعـه الـطاوُسُ والـديـ

ـكُ إذا بالصُّــبح بشّــر

تِلوُه القُــمْــريُّ مــهــمـا

ردّد السّــجْعَ فــقَــرقــر[3]

ثُـمَّ نـادِ الـهَــيْـقَ والـرأ

لَ، لـعلّ السِّـرَ يـظـهـر

وتَـعَــيَّفْ مـا لدى القَــبْـ

ـجَـيْنِ من خــافٍ سـيظـهـر[4]

ثـم عُــدْ لـلنّسـر والـرأ

ل هـمـا - في - الأمـر أكـثـر

وازجُـرِ الـعَـقْـعَقَ - حـقُّ الزْ

ـزَجْـرِ - إنَّ الطّيـر تُـزْجَـرْ

(١) الشقراق: من فصيلة الغربان، المحبَّر: المزين المرقش بالألوان.

(٢) صَرَّ وصرْصَرَ: صاح بشدة.

(٣) القرقرة، والقرقار: صوت الحمام وهدير البعير.

(٤) عاف الطير: زجرها ليستدل منها على ما يتفاءل أو يتشاءم به، ولم نجد فعل (تعيف) الذي استعمله الشاعر في ما رجعنا إليه من كتب اللغة.

وَلْيَلِ الرَّأْلَ سُـــمَـــانَى
وشِـــقِـــرَّاقٌ تـأخُّـــرْ

✵✵✵✵✵

لـكَ ذهـنٌ بـالـذي - فـي الـشْـ
شِـعْـرِ من خَبْءٍ - سَـيَـشْـعُـر[1]

فـتـأمّلْ مـا انبـرى فِكـ
ـرِي لـه، ثُـمّ تَـدبَّـر

واعـتـقِـد أنّيَ فـي «تَمٍّ»
كـمـن خـطَّ فـسـطَّرْ[2]

وتَـيَـقّنْ: أن مـا يَـنْـ
ـفَكّ أمـرٌ سـوف يُقْـدَر

ففك المعتمد البيت المعمى وهو:

[صَـدِّقْ لنا فَـالَ السِّـمَـهْ
تَـظفـرْ علـيَّ الكَلِمَـهْ][3]

وكتب معه هذه الأبيات:

[أيـهـا الـفـائقُ أهـلَ الـ
ـعـصـرِ في مـرأى ومـخـبَـرْ[4]

لـك آراءٌ مـتـى تـنـ
ـهَـدْ إلى الأعـداءِ تظفَـرْ[5]

---

(١) الخب والخبيء: ما خُبِئَ وغاب.

(٢) التمّ: التمام، أو الشيء التام، المعنى: لقد جئت بكلامي على تمامه كمن أوضح رأيه بالكتابة، ولم يبق على السامع أو القارئ إلا أن يقدح زناد فكره فيصل إلى الهدف المنشود، وفي نسخة أ «في نمٍّ» وعليه يكون المعنى: لقد أودعت كلامي ما ينم على المعنى المقصود منه، فكأنني أوضحته كتابة وتسطيرًا.

(٣) الفأل: ما يستبشر به الإنسان من علامات، وضده الطيرة، وفي الحديث: «إنه كان يحب الفأل ويكره الطيرة» السَمة : العلامة المميزة.

(٤) المرأى: المنظر، المخبر: الاختبار، المعنى: إنه فاق أهل عصره سواء في المنظر أو التجربة.

(٥) تنهد: تنهض أو تقاوم وتصمد.

وافقَ العَنْبَرَ منْ لَفْـ

ـظِكَ من ذِهنِيَ مِجْمَرْ(١)

فعرفنا بذكيِّ الـ

ـعَرْفِ ما قد كان مُضمَر

ولَعَرْفُ الكَلِمِ العَذْ

بِ، مِنَ العنبرِ أعْطَر(٢)

وسألنا صَقْرَ أطيا

رِكَ، بالسِّرِ فأخبَر

وغدا النَّسر خطيبًا

إذ غدا القِرطاسُ مِنْبَر(٣)

وبدا ما كان يَخْفَى

وفشا ما كان يُستَر(٤)

نظمُ دُرٍّ يَسْتَبي القَلْـ

ـبَ، متى يُنْظَمْ ويُنْثَر(٥)

دَلَّني أنَّكَ في الخُلْـ

ـصَانِ معقودٌ بخِنصَرْ(٦)

---

(١) المجمر: الإناء الذي يوضع فيه الجمر للبخور، المعنى: ألفاظك مثل العنبر تلقفها ذهني فأظهر عبيرها كما يُلقَى المسك والعنبر بالمباخر فيفوح عبيرهما الطيب.

(٢) العَرْف: الرائحة طيبة كانت أو خبيثة، والمقصود هنا الطيبة، المعنى: إن الكلمات العذبة أطيب من العنبر أريجًا.

(٣) القرطاس: الصحيفة.

(٤) فشا: ذاع وانتشر.

(٥) يستبي القلب: يأسره.

(٦) الخُلصان: الصديق أو الأصدقاء، تقول هو خالصتي وخُلصاني وخِلّصي أي خِدّني، وهو خلصاني وهم خلصاني، يستوي فيه الواحد والجماعة، وهم خلصاني، وخلصائي .

دُمْتَ فـي عـــــــيشٍ هـنـيءٍ
صـــــفــــوهُ غــــيــــرُ مُكدَّرْ]

فأجابه ابن زيدون:

بمكانـي مـنـكَ أَفْـــــخَــــرْ
واعــــتــــقـــادي لـكَ أذخَــــرْ
وكَـــــــفَـــــــتْـني نِـعَـمٌ أوْ
ليـــتَـنيـــهـــا ليس تُكفَـــر[1]
أحــــمَــــدُ الجَــــدّ الـذي أسـ
ـهَمَ لـي فــــيك فــــأكــــثــــر[2]
جــــاءني الشّـــعــــرُ الـذي لو
بُـــثّ فـــي الأُفْـــقِ لــعَـــطَّــــر
مــــثـلمــــا فُضّ خِـــتــــامٌ
عـن أحـمٍّ الـلّـون أذفَـــــــــر[3]
أو كـــــــمـــــــا رِيـحَ مـع الأسـ
ـحــــــار روضٌ بـات يُمْـطَـر[4]
لـم أَخَـلْ مـن قـــــــبـلــه أنّ
بـيــــانَ اللفظ يســــحَــــر
سَـــــرْدُ نظـمٍ كــــالّلآلـي التْـ
ـتــــــوم لـكـنْ ذاك أخـطـر[5]

(١) وكف البيت: قطر، ووكف الدمع والماء: سال، والوكيف: القطر، المعنى: غمرَتّني منك نعمٌ وفيرة لا سبيل إلى جحدها.
(٢) الجد: الحظ، أسهم: أجرى القرعة.
(٣) أحم اللون: أسود، الذفر: كل ريح ذكية طيبة كانت أو خبيثة ومسك أذفر: طيب الريح غامره، المعنى: شعرك معطر كالمسك الذي فض عنه ختامه فذاع عبيره الفواح.
(٤) المعنى: أو مثلما تطيّب روض عاطر جاده المطر في الصباح.
(٥) اللآلئ التوّم: المزدوجة أو المتشابهة.

هـو فـي مَــــفـــــرِقِ حـــــالـي
تــاجُ تـشـــريـفٍ مُـــشَـــهَّـــرْ(١)

✧✧✧✧

أيـهــــــا الأزهـرُ وَجْــــــهًـــــا
حـين يـبـــــدو المـوتُ أحــــمـــــر(٢)
والـذي يَـنْـهَـلُّ مـــــهــــــمـــــا
أمـــــسـكَ المزنُ الـكَنَـهْــــــوَر(٣)
أفــــرَحَ المعـــــتـــــضــــدَ المنـ
ـصـــورَ مـــا منك تـخـــيُّـــر
مَـلِكٌ لـولا تـحَــــــفِّــــــيـ
ـهِ بـرَبـع المجــــد أقــــفــــر(٤)
قـــمـــرٌ، إن جـــاب غَـــيْـمَ النَّـ
ـقع فـــالـهـــالـة مِـــغْـــفَـــر(٥)
قَـــسْـــوَرٌ إن صـــال فـــالظُّفـ
ـرُ طَـريـرُ الـحـــدّ أســـمــــر(٦)
أكــــــبـــــرُ الأمـــــلاك، إلاّ
أنّـــه لا يــتـكــبّـــــــــــــر
قـــــد رأى - أبْـهـى حُـلَـى الـمُلْـ
ـكِ لكَ - «الـظـافــرُ» فـــاظْفَـــرْ(٧)

---

(١) المفرِق والمفرق: وسط الرأس وهو الموضع الذي يفرق فيه الشعر، مشهر: مشهور.

(٢) الأزهر: النيّر أو أبيض الوجه مشرقه.

(٣) انهلَّ المطر انهلالاً: سال بشدة، المزن: السحاب، الكنهور: المتراكم مثل الجبال.

(٤) تحفَّى به واحتفى به: بالغ في إكرامه الربع: المنزل، المعنى: لولا عناية الملك بمنزل المجد لأصبح باليًا مقفرًا لاحياة فيه.

(٥) جاب البلاد: قطعها سيرًا، النقع: الغبار، الهالة: الدارة المحيطة بالقمر، المغفر: زرد يلبس على الرأس عند القتال، المعنى: الأمير مثل البدر، إذا صال في غبار الحرب فإن الضوء المشعَّ من وجهه يقوم مقام الخوذة له في ساحة القتال.

(٦) القِسّورَ والقِسّوَرة: الأسد، طرير: مرهف مسنون، المعنى: يصول الأمير كالأسد الهصور ومخلبه رمح مرهف الحد.

(٧) المعنى: لقّبَك والدك «الظافر بحول الله» فكان هذا بشيرًا لك بالنصر والتأييد.

أنـــتَ إن تمـــثُـــلْ لَـــدَيْـــهِ
قـــائـمًـــا مـنـك ابـنُـهُ الـبَـــر
سَـــــرَّهُ أجـــــمـلُ مَـــــرأى
زانَـهُ أكـــرمُ مَـــخـــبـــــر
بـكـمـــــا ضـــــاحـكـنـي مـن
زمـنـي ثَـغْـــرٌ مُـــؤشَّـــر[1]
فَـــهَـــصَـــرْتُ الـدّهـر لَـدْنًـا
ولـبـــستُ الـعـــيشَ أخـــضـــر[2]
ثـاويًـا حـــيـثُ حـــلا لـي
مَـــوردٌ، أو لـذَّ مَـــصْـــدر[3]
دانـيًـــا مـــا كـنـتُ أبـغِـي
نـائـيًـــا مـــا كـنـتُ أحـــذر
فـــاقـنَـيـــا الـصُّـنْـعَ الـمُـــوَفَّـى
مَـــعَـــهُ الـنَّـصْـــرُ المؤزَّر[4]
وأبْـقَـــيـــا مـــا جَـنَّ لـيـلٌ
أو بـدا صـــبحٌ فـــأسْـــفَـــرْ

****

(١) مؤشر: محزوز مرقق، المعنى: سرني بكما من دهري ثغر بسام محزز الأسنان، و«تحزيز الأسنان من علامات الجمال».
(٢) هصر الغصن: أخذ برأسه فأماله إليه، اللدن: اللين الطريّ، المعنى: طاب لي الدهر بفضلكما فجذبت غصنه النضير، ولبست فيه غلائل النعيم.
(٣) ثاوٍ: مقيم، المورد، مكان الورود، والمصدر: مكان الصدور.
(٤) إقنيا: إكسبا ، الصنّع: المعروف والإحسان، المؤزر: القوي الشديد، المعنى: أكسبا الإحسان إلى الناس وافيًا تامًا لتنالا عنه أحسن الجزاء، واظفرا معه بالنصر العظيم.

نصح مشكور

كتب الشاعر هذه القصيدة المُطيَّرة إلى المعتمد:

يأيّهـــا الظّافـــرُ نِلت الـمُنَى
ولا يَنلْنا فـــيكَ مـــحـــذورُ[1]

إن الخـــلالَ الزُّهرَ قـــد ضـمَّـهـا
ثوبٌ عليكَ - الدهرَ - مـــزرور[2]

لا زال للمـــجـــد الذي شِـــدْتَهُ
رَبْعٌ - بتعـميرك - معمور[3]

حـتى يُوفَّى فـيك مـا يَبْتَـغي
مـعـتـضِـدٌ بالله منصـور[4]

✡✡✡✡

وافــاكَ نظمٌ ليَ في طَيِّـــه
مـعنًى مُـعـمًّى اللفظ مـسـتورُ

مَـرامُـهُ يصـعُبُ، مـا لم يَبُحْ
- بالسِّرِّ - قُمْريٌّ وعُصفور[5]

وبُلبـلٌ، ثُـم يَـكُرُّ اللَّـذا
تقـدّمـا، فـاللّفظُ مكرور[6]

---

(١) في نفح الطيب (ولا أتانا فيك محذور)

(٢) المعنى: إن السجايا الحميدة المشرقة قد تجمعت فيك فضمها ثوبك فهو مزرور عليها مدى الزمان.

(٣) المعنى: أدعو الله أن يظل بناء المجد الشامخ الذي أقمته معمورًا بك...

(٤) المعنى: لعل مجدك يظل مأهولاً بك حتى يظفر والدك المعتضد المنصور بما أمّله فيك.

(٥) راجع التعريف بالطيور في آخر فن المطيرات.

(٦) بعض بني ربيعة يحذفون نون (اللذان واللتان) قال الأخطل:

أبني كليب إن عـمَّيَّ اللذا
قـتـلا الملوك وفككا الأغـلالا

وفي نسخة ت «في اللفظ مكرور».

ثم ترى البُلبلَ قــــد حَـــثَّـــهُ
نَسْـــرٌ، به الشَّـــفِنينُ مَنســـورُ[١]

ثمَّ الغُـــرابُ الجَـــوْنُ، يتلوه قُـــمْـ
ـــــــــــــريٌّ ودُرَّاجٌ وزَرزور[٢]

ثم يلِي الدُّرَّاجَ - من بعـــدُ - غِـــرْ
نِيقٌ ومُكَّاءٌ وشُـــــــرْشُـــــــورُ

وباشقٌ، ثم إذا حَلَّقَ الشَّـــــا
هِينُ فـــالعُــصــفــورُ مـــذعــور

ثم سلِ الـمُكَّاءَ يَصْـــــدُقْكَ والـ
ـعُصْفُورَ، والقُمريُّ مزجور[٣]

وإن جـــرى الدُّراجُ - في إثره الـ
ـزرزورُ - فـــالـمَطويُّ منشـــور

و(ثُمَّ) فـاعلمْ أنَّ مـــوضـــوعَـــهـــا
حَـــرفٌ لفَـــصل اللفظ مـــقـــدور

وفي الذي عَـــمَّـــسْتُ نصحٌ - لمن
حُـــدَّ من الأعـــداء - مـــشكور[٤]

---

(١) منسور: مقنوص أو مأكول.

(٢) الجون: الأبيض أو الأسود من الأضداد.

(٣) زجر الطائر: أثاره ليستدل بطيرانه على ما يثير التفاؤل أو التشاؤم.

(٤) عمّس عليه الأمر وعمسه خلطه ولبّسه ولم يبينه، فهو معمّس ومعموس، حُدَّ: منع من الخير وحرم منه فهو محدود، وضده مجدود بمعنى محظوظ.

والبيت المطَيَّر في القصيدة هو:

أنت إن تَـغْـــــــزُ ظـافـــــــرُ
فـلـيُـطِـعْ مــن يُـنـافــــــــــرُ[1]

ففك المعتمد المعمَّى ، وكتب إلى الشاعر هذه القصيدة:

[يا خَــيْــرَ مَنْ يَلْحَظُهُ ناظري
شـــهــادةٌ مـــا شـــابهـــا زُورُ[2]
ومن إذا مــــا ليلُ خطبٍ دجـــا
لاحَ بـــه - مـــن رأيـــه نـــورُ[3]
رأيُك - إمَّــا شِـمـــتُــهُ - صــارمٌ
عَـضْبٌ على الأعـداء مـشـهـورُ[4]
جـــاءتنيَ الطيـــرُ التي سِـرُّها
نَظْمٌ بـه قـلـبيَ مـــــــســــــرورُ
شـعــر هو السِّـحــر، فـلا تنكروا
أني بـه - مــا عــشتُ - مــسـحـورُ
اللفظُ والقــرطاسُ، إن شُــبِّــهــا
قِــيلَ: همـــا مـــسكٌ وكــافــورُ[5]

---

(١) حروف البيت ترمز إلى الطيور الموضحة أمامها في الجدول الآتي:

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قمري	غ	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفنين	ل	غرنيق	ي	مكاء
ت	بلبل	ظ	غراب	ي	مكاء	ن	عصفور
إ	قمري	ا	قمري	ط	شرشور	ا	قمري
ن	عصفور	ف	دراج	ع	باشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

(٢) شابها: مازجها وخالطها، وفي نفح الطيب «ما شانها زور»

(٣) الخطب: الشأن والأمر عظم أو صغر، والمراد هنا الخطير من الأمور، دجا: أظلم وفي نفح الطيب «ومن إذا خطب دجا ليله..»

(٤) إمَّا شمته: إن تطلعت إليه، صارم عضب: سيف قاطع.

(٥) المعنى: الألفاظ المكتوبة شبيهة في سوادها بالمسك، والقرطاس في بياضه شبيه بالكافور.

وإنّه لما اغـــــتـــــدى خــــــاطري
مُــســـائلاً جـــاوبَ عُــصــــفــورُ
هَوَى لِـجَــيْشِ الطَّيـــرِ من فكرتي
صــقــرٌ، فــولّى وَهْوَ مــقــهــور[١]
فـــــلاحَ لـي بـيتٌ، فـــــؤادي لـه
دأبًا على وُدِّكَ مـــــقـــــصــــور[٢]
حَظُّكَ مـن شكريَ ياســــيِّــــدي
- بما بدا لي منكَ - مـــوفــور[٣]
قَـصَّـرتُ في نَظْمِيَ، فـاعـذرْ، فَـمن
ضـاهاكَ في التَّـقـصـيـر مـعـذور[٤]
فــأنت إن تنظمْ وتنثــرْ فــقــد
أعــــــوزَ مـنظومٌ ومـنـثــــــور
لا يَـعْـــدُكُمْ روضٌ منَ الحظّ في الـ
إكْـــرامِ والتَّـــرفـــيـعِ مَـــمْطورُ][٥]

فأجابه ابن زيدون بهذه القصيدة:

حَظِّيَ مِنْ نُعْـــمـــاكَ مَـــوْفـــورُ
وذَنْبُ دهري بكَ مـــغـــفـــورُ
وجـــــانبي - إن زَمَـني رامَـــهُ -
حِــجْــرٌ لدى ظِلِّكَ مَــحْــجــورُ[٦]

✡✡✡✡

(١) في نفح الطيب «هوى لحسن الطير..»
(٢) في نفح الطيب «ولاح لي بيتٌ..» دأبا دائبًا أي جادًا مجتهدًا، مقصور علي الشيء : محبوس عليه، المعنى: ظهر لي معنى بيت جعل قلبي مقصورًا على محبتك دائبًا عليها.
(٣) المعنى: نصيبك من شكري جزيل موفور بسبب ما أغدقته عليَّ من إحسانك، وفي نفح الطيب «حظ بمالي منك موفور».
(٤) المعنى: لقد قصرتُ في إجابتك فاعذرني، فإن من جاراك في شعرك ونثرك معذور في التقصير.
(٥) المعنى: أدعو الله ألا يتجاوزكم الحظ في الإكرام والرفعة، وأن يظلكم منهما روضٌ مغمور بالأمطار.
(٦) في نفح الطيب «إن رامه أزمة» ، الحجر المحجور: الحرام الممنوع، قال تعالى: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجرًا محجورًا﴾ كما كانوا يقولون في الدنيا لمن يخافونه في الشهر الحرام، والمعنى : إنك حميت جواري وجعلته حرامًا محرمًا على الطامعين.

يا ابنَ الذي سِرْبُ الهُدى آمنٌ
- منذُ انْبَرى يَحميهِ - مَخفورْ[1]

وآمِرَ الدّهر الذي لم يزلْ
يُصْغي إليه منه مأْمورْ[2]

أُلبِسَ منكَ المُلْكُ أسْنَى الحُلَى
بظافرٍ يَنميهِ منصورْ[3]

✲✲✲✲✲

يا مُرْوِيَ المأثورِ، يا مَنْ لهُ
مجدٌ - معَ الأيام - مأثورْ[4]

عَبْدُكَ إنْ أكْثَرَ من شُكرهِ
فَهْو بما تُوليهِ مشكورْ[5]

إن تَعْفُ عن تقصيره مُنعِمًا
فالسَّرْوُ أنْ يُقبِلَ مَيْسورْ[6]

إنَّ حلالَ السِّحْرِ - إن صُغْتَهُ -
في صُحُفِ الأنْفُسِ مسطور

نَظْمٌ زهاني منه إذْ جاءني
عِلْقٌ عظيمُ القَدْرِ مذخورْ[7]

(١) آثرنا رواية نفح الطيب، وفي الأصول «يحميه موفور» خفر اللاجىء: أجاره فاللاجئ مخفور، السرب: النفس، وهو آمنٌ في سربه أي في نفسه، والسرب أيضًا القطيع من القطا والظباء والوحش والخيل والحُمُر والنساء.

(٢) آثرنا رواية نفح الطيب، وفي الأصول «أجبت أمري بالذي لم يزل»، المعنى: إن أباك يأمر الدهرَ فيلبي الدهرُ نداءه ولا يزال مُصغيًا لتلقي أوامره.

(٣) أسنى: أرفع أو أضوأ، الظاهرُ بحول الله من ألقاب المعتمد، والمنصور بفضل الله من ألقاب والده المعتضد، ينميه: يرفعه إلى نسبه، المعنى: ازدان الملك بك أيها الظاهر الذي نجله المنصور، وفي نفح الطيب «منماه منصور».

(٤) في نفح الطيب «قام، وفي المأثور مأثور» السيف المأثور: الذي في متنه أثر، أو متنه حديد أنيث وشفرته حديد ذكر، ويزعمون أنه من صناعة الجن، مجد مأثور: مروي، المعنى: إنك تُروي سيفك بدماء الأعداء وتصنع الأمجاد الخالدة على مرّ الأيام.

(٥) في نفح الطيب «بما توليه مكثور» أولاه معروفًا: أسدَى إليه جميلاً.

(٦) في نفح الطيب: «فاليسر أن يقبل معسور» السرو: المروءة والسخاء: المعنى: قابل تقصيره بعفوك فمن المروءة أن يقبل الميسور بوجهه وعفوه على المعسر المحتاج.

(٧) زهاني: أشعرني بالزهور والعُجب، علق: نفيس.

هَوَى إليــــه طرَبًا خـــــاطري

كـــمـــا تلقّى الوَصْلَ مـــهـــجـــورُ

لا غَـــــرْوَ أنْ أُفْـــــتَنَ إذْ لاحَظَتْ

فِكْرِيَ مـنـه أعـينٌ حُـــــــــور(١)

تَشِفُّ عن مـــــعنـاه ألفــــاظُهُ

كـــــمــــا وَشَى بالرَّاحِ بَلُّور(٢)

جَـهِلتُ إذْ عـارضـتُـهُ، غَـيْـرَ أنْ

لا بدّ أن يَنْفُثَ مَـــصْـــدور(٣)

يا آلَ «عـــبّـــادٍ» مُـــوالاتُكُمْ

زاكٍ – من الأعـمـال – مَـبْـرور(٤)

إنَّ الذي يرجـــو مُـــؤَازاتَـكمْ

– مِنَ المُناوينَ – لَـمَــغْـرور(٥)

مكانُهُمْ منكمْ كـمـا انْحَطَّ – عَنْ

مَنْزِلَةِ المرفوعِ – مَـجْـرور(٦)

يَدْنُو إليكمْ مـــا نَـأى عـنكمُ

إنَّ العَلِيَّ أُنـسُـــــهُ نـور(٧)

---

(١) لا غرو: لا عجب، حُور: حوراء، والحور هو شدة بياض العين المحدق بإنسانها الشديد السواد، وقال أبوعمرو: الحورُ أن تسودّ العينُ كلها مثل أعين الظباء والبقر، وليس في بني آدم حور، وإنما قيل للنساء حُور تشبيها لهنّ بالظباء والبقر.

(٢) في نفح الطيب «تنمّ عن معناه» المعنى: جئت بشعر سهل رقيق تشف ألفاظه عن معانيه في يسر وسلاسة كما يكشف البلور النقيّ عن لون الخمر.

(٣) المصدور: المريض بصدره، المعنى: كان جهلاً مني أن أعارض شعرك لأنه فوق المحاكاة، ولكنه أحدث في نفسي تأثيرًا عميقًا دفعني إلى معارضته، ولا بد للمتأثر أن ينفس عن نفسه كما يلفظ المريض بصدره ما يعلق بداخله من أقذاء.

(٤) زاك: نام أو طاهر، عمل مبرور: مقبول يثيب الله به الطائعين.

(٥) مؤازاتكم: محاذاتكم، المناوين: المناوئين أي المعادين، المعنى: إن من يطمع في أن يساويكم ويرتفع إلى منزلتكم من الأعداء لجاهل مغرور.

(٦) الاسم المرفوع ركن من أركان الجملة تنهدم بانعدامه، أما المجرور فهو فضلة يمكن الاستغناء عنه، فالجملة «محمد مسافر في الصباح» لا يمكن الاستغناء عن ركنيها «محمد» و«مسافر» ولكن يمكن الاستغناء عن الجار والمجرور.

(٧) المعنى: يتودد إليكم ويتقرب منكم كلُّ بعيد عنكم أنسًا بكم كما يأنس النور بالأماكن الرفيعة.

لا زلـتُمُ تَشْـــأوْنَـهُمْ مـــا انْـجَلَـى
- عن فَلَقِ الإصْـبـاحِ - دَيْجـورُ[١]
ولا يـزلْ يَـجْــــــرِي - بـإيـراثِـكُمْ
- أعــمـــارَهُمْ - للّـهِ مَـــقْـــدورُ[٢]

****

(١) تشأونهم: تسبقونهم، فلق الإصباح: ضوء الصبح أو انشقاق الظلام عن الصباح ، قال تعالى ﴿فالق الإصباح﴾.

(٢) في نفح الطيب «ولا يزلْ يجري بما شئتمو أعماركم.. » المعنى: لا يزال قضاء الله جاريًا نافذًا بأن ترثوا أعمار أعدائكم.

سرب الطيور

كتب الشاعر هذه القصيدة المُطَيَّرة إلى المعتمد:

يا مُرضِيًا كلَّ مِخْذَمْ
ومُرْوِيًا كلَّ لَهْذَمْ[1]
ويا سَمِيَّ المُصلَّى
على اسْمِهِ والمُسَلَّمْ[2]
ويا ابْنَ أعظَمَ مَنْ هَا
بَهُ الملوكُ وأكرمْ
- وافاكَ - للطَّيْرِ - سِربٌ
لديه سِرٌّ مُكتَّمْ[3]
إنْ تَسْألِ الطَّيْرَ عنها
مستَعْلِمًا منه تعلمْ
والنَّسْرُ والرَّهْوُ يُنْبِـ
يكَ والظَّليمُ المُصَلَّمْ[4]
ثم الهَديلُ تَليهِ
حَمامةٌ تتَرَنَّمْ
إلى عُقابَيْنِ يدعو
هما الظَّليمُ فيَفهم

(١) للمخذم: السيف السريع القاطع، قال عنترة:

فطعنته بالرمح، ثم علوته
بمهند صافي الحديدة مخذم

اللهذم: السنان الحادّ النافذ، المعنى: يا من أرضيت السيوف بقطع الرقاب، وأرويت الأسنة من دماء الأعداء.

(٢) المعنى: إن اسمك – محمدًا – كاسم النبي الذي نصلي عليه ونسّلم في كل حين.

(٣) السرب: القطيع من القطا أو الظباء أو الوحش أو الخيل أو النساء.

(٤) الظليم المصلم: ذكر النعام المقطوع الأذنين، راجع التعريف بالطيور في آخر فن المطيرات.

ثُم الـعُــــقـــــابُ مع الـصَّــــقـ
ـر، فــــهْــــوَ بالسَّــــرْحِ أعلمْ[1]
والـرَّألُ والـرَّهْـوُ والـقَــــــــبْـ
ـجُ، فـــــالـثَّـــــلاثَـةُ حُــــوَّمْ
ثـمَّ الـعُـــــقـــــابُ فـــــسلْهُ
والـصَّـــــقْـــــرُ لا يَـتَلَعْــــثَمْ[2]
إلــى حُـــــبـــــارى وبـازٍ
وحــــــالـكِ الـلـونِ أعْـــــصَمْ[3]
ثـمَّ الـسَّـــــمــــــامُ مـع الـرَّأ
لِ كي يبــوحَ الـمُــجَـمْـجِمْ[4]
إلــى عُـــــقــــابٍ ورَهْــوٍ
يُفــصِحْ بما شــئتَ أســحَمْ[5]
ومـــــــــا الـظَّـلـيـمُ بـآلٍ
فـلـو زَجَــــرْتَ لـتَــــرْجَمْ[6]
ثـمَّ الـعُــــقـــابَ ســيُــوحي
لـلـصَّـــــقْـــــرِ: لا تَـتَـكَـلَّمْ

(١) في ز «فهو بالسرج» السرح: المال السائم، أو شجر عظام طوال واحدته سرحة.

(٢) تلعثم في الأمر: تلكّأ فيه وتأنّى، وقال الخليل: نكل عنه أو تبصره.

(٣) حالك اللون: شديد السواد، الأعصم: الغراب الأسود الذي في إحدى رجليه بياض أو فيهما معًا أو في جناحه ريشة بيضاء.

(٤) المجمجم: الذي لا يبين، أو الذي يكتم شيئًا في صدره لا يصرح به.

(٥) الأسحم: الأسود قال عنترة:

فـيـهـا اثنتـان وأربعـون حلوبة
سـودًا كـخـافـيـة الغُـراب الأسـحم

والحلوبة: الناقة في ضرعها لبن.

(٦) آل: مقصر، وهو لا يألوك نصحًا أي لا يقصر في نصيحتك، زجر الطيرَ: أثارها ليستبين من علاماتها ما يدعوه إلى التفاؤل أو التشاؤم، ترجم: فسّر أو نقل من لسان آخر.

وعَـــــــــــقْـــــــــعَقٌ وهَـديـلٌ

والـقَـــــــــــبـجُ فـي ذاك مُـلْـهَـمْ(١)

وثُـمَّ فَـــــــصْلٌ كـــــمـــــا قـــــد

عَـــــهِـــــدْتَ في مـــــا تَـقَـــــدَّمْ

يـا مُـلـبِسَ الـدَّهْـرِ وَشْـــــــيًـــــا

مِـنَ الـجَـــــــمـــــــالِ مُـنَـمْـنَـمْ(٢)

اسْـلَـمْ مُـــــــسَـنًّـى الأمـــــــانِـي

مُـــــــؤَزَّرَ الـنَّـصْـــــــرِ مُـطْـعَـمْ(٣)

والبيت المطيَّر هو:

أهْـلِـكْ عَـــــــــــدُوكَ واسْـلَـمْ

واظـفـــــرْ بـسُـــــولِكَ وانْـعَـمْ(٤)

---

(١) في نسخة أ «ملم» وفي ب، ت، ز «ملتم»، خف ملثم: يصك الحجارة، ملتم: اسم من لتم الشيء إذا ضربه أو طعنه، وقد تكون محرفة عن ملئم بمعنى مصلح، ولعل الأقرب إلى الصواب ما أثبتناه.

(٢) الوشي الثوب المنقوش ويكون من كل لون، منمنم: مزخرف.

(٣) مسنّى: ميسر من سنى الأمر وأسناه إذا سهله، نصر مؤزر: بالغ شديد، رجلٌ مطعم: ميسر الرزق.

(٤) السؤل: المطلب ومنه قوله تعالى: ﴿قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، وهذه هي الطيور التي يرمز إليها البيت وبإزاء كل طائر الحرف الذي يدل عليه:

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
الهمزة	طير	ك	ظليم	أ	صقر	ل	رهو
هـ	نسر	و	عقاب	ظ	حبارى	ك	ظليم
ل	رهو	ا	صقر	ف	باز	و	عقاب
ك	ظليم	س	رأل	ر	أعصم: غراب	ا	صقر
ع	هديل	ل	رهو	ب	سمام	ن	عقعق
د	حمامة	م	قبج	س	رأل	ع	هديل
و	عقاب	و	عقاب	و	عقاب	م	قبج

ففكّه المعتمد وأعجله سفر فكتب إلى الشاعر:

[العينُ بعدك تَقْذَى
بكلِّ شيءٍ تَراهُ
فَلْيَجْلُ شَخْصَكَ عنها
ما بالمَغِيب جَناهُ]

ثم دارت بينهما مطارحة طويلة أثبتناها في باب الإخوانيات صفحة (٢٨٤) لأن مكانها المناسب هناك.

****

تعريف بالطيور

رأينا من المناسب بعد إيراد القصائد المُطيرَات أن نعرّف ببعض الطيور الواردة فيها، لأن أكثرها غير معروف إلا للمتخصصين، وقد آثرنا أن يكون التعريف موجزًا واعتمدنا فيه على كتاب الحيوان للجاحظ وحياة الحيوان للدميري والطيور المصرية تأليف عبدالله النجومي وآخرين وكتاب: Birds of Egypt, by Micols & Meinertzhagen.

وكنا نود أن نوضح التعريف بالصور لولا أن المجال لا يسمح بمثل هذا التحقيق في ديوان شعري، وقد رتبناها أبجديًا ليسهل الرجوع إليها عند دراسة القصائد:

الأعصم:

من فصيلة الغربان ويمتاز بأن في أحد جناحيه ريشة بيضاء أو أن إحدى رجليه بيضاء أو هو الأبيض الجناحين أو الأبيض الرجلين، ويضرب المثل بندرته فيقال: أعز من الغراب الأعصم، قال النبي صلى الله وعليه وسلم: «مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم في مائة غراب». وفي حديث آخر «عائشة في النساء كالغراب الأعصم في الغربان».

البازي:

نوع من الصقور مدرب على الصيد خفيف الجناح سريع الطيران، ويُضرب به المثل في الشرف قال الشاعر:

وكم طِيبٍ يفوحُ، ولا كَمِسكٍ
وكم طيرٍ يطيرُ، ولا كبازي

الباشق:

يستوطن أوربا الشمالية ويهاجر منها في الشتاء إلى الجنوب. وهو طائر جارح من أنواع الصقور يصيد أفخر أنواع الطيور وهو صغير المنظر طويل الساقين قصير الفخذين، وإذا قَوِيَ عليه صيدُه فإنه لا يتركه إلا أن يتلف أحدهما، ويستوطن جميع أنحاء أوروبا وآسيا الصغرى وسورية وفلسطين ويطير في الشتاء إلى مصر والسودان والحبشة وعدن.

الحبارى:

يستوطن آسيا ويطير في الشتاء إلى الجنوب، ويزعم العرب أن سلاحها سَلْحُها(زرقها) قال الشاعر:

وهم تركوك أسلح من حُبارَى
رأت صقرًا، وأشرد من نعامِ

الدُرّاج:

يستوطن صحارى إفريقيا وآسيا وما يشبهها من مناطق أوروبا وجسمه يبدو نحيفًا لطول جناحيه وذنبه، ومنقارُه قصير مقوس قليلاً في أعلاه، وهو طائر مغرد يستبشر به العرب ويسمونه أبا ضبّة ويزعمون أنه يقول في تغريده «بالشكر تدوم النعم»

الرأل:

ولد النعام جمعه رئال، قال المتنبي في رثاء أم سيف الدولة:

مشى الأمراءُ حوليها حفاةً
كأن المروَ من زفِّ الرئالِ

والمرو: حجارة براقة تقدح منها النار، والزفّ: الريش.

الرهو:

من نوع الكراكيِّ يستوطن أوربا ويطير في الشتاء جماعات إلى الجنوب، ولكل جماعة منه قائد يقدمها، ويقف على إحدى رجليه ويعلق الآخرى، ويضرب به المثل في الحرص والحذر.

الزرزور:

من فصيلة تشتمل على أكثر من خمسين جنسًا تشبه العصافير، وهي طيور متوسطة الحجم، ذات مناقير مستقيمة أو مقوسة قليلاً، وأجنحتها طويلة، وأذنابها قصيرة، قوية الطيران، نشطة لا تسكن أبدًا، تتغذى بالحشرات والديدان وبعض الثمار، وفي الحديث «أرواح المؤمنين في أجواف طيور خضر كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة».

السَّمام:

مفرده سمامة وجمعه سمام وسمائم ويتميز بجسم صغير مستطيل قوي البناء ورقبة قصيرة ورأس عريض ومنقار قصير وريش قصير قوي، ويوجد في أماكن عديدة، ولكن أحب الأماكن إليه الجبال أو المدن ليضع بيضه في الصخور أو شقوق الجدران، ويمضي شطرًا كبيرًا من حياته في طيران مستمر. وهو دائب الحركة من الصباح إلى المساء.

السمانَى:

يستوطن الدنيا القديمة وأستراليا، ويتميز بجسم منضغط مليء، ومنقار صغير ضعيف، وجناح طويل نسبياً، وذنب قصير، وأحب الأماكن إليه الحقول وبخاصة الحنطة، وهو سريع المشي سريع الطيران، وإذا ارتفعت الشمس سكن بين أعواد الحنطة، وينشط قبيل الغروب، ويتغذى على الحبوب والحشرات، ويسمى أيضًا السلوى.

الشاهين:

من أنواع الصقور الجارحة، يدرب على الصيد ويستوطن معظم أنحاء العالم، ويتميز بجسم مليء ورأس كبير ورقبة طويلة وجناحين طويلين ومنقار قصير قوي معقوف ومخالب حادة، وهو شديد الضراوة على الصيد سريع الانقضاض من غير تحويم، قال عبدالله بن المبارك:

صـــيّـــرت دينك شـــاهينًا تصــــيـــدُ بـه
وليس يـفلـح أصــــــحـــــاب الشّــــــواهـيـنِ

الشرشور:

يستوطن جزر الكناري وجنوب إسبانيا وجزيرة قبرص، وكل البيئات الملائمة في المناطق شبه الصحراوية من مراكش حتى برقة وحوض بحر قزوين وإيران والعراق ومصر، يشبه البط ويهاجر إلى الجنوب في الشتاء، ويسميه العرب أبا براقش لتعدد ألوانه: إنه يتلون في كل ساعة بلون قال الشاعر:

كـــــأبي براقشَ كل يوم لـونه يتـــــحـــــولْ

الشفنين:

وتسميه العامة «اليمام» يستوطن معظم الأقطار ويكثر بمصر، وهو يشبه الحمام ولكنه أصغر منه وأقصر جناحًا وأطول نسبياً وتغريده يشبه صوت الرباب فيه شجو وتحزين، وإذا مات الذكر أو الأنثى حزن عليه قرينه حتى الممات.

الشقراق:

من فصيلة الغربان (Corvus) يستوطن معظم الأقطار وبخاصة المناطق الاستوائية، وهو آبد وقلّما يبرح موطنه طول العام، ويمتاز بجسم منضغط ومنقار مقوس أسود قوي، ويسمونه «الأخيل»، وفي طبعه شراسة وشره، والعرب تتشاءم به، وفي أمثالهم: هو أشأم من الأخيل.

الصرد:

يستوطن معظم أنحاء العالم وبخاصة أوربا، ويهاجر في الشتاء إلى المناطق الحارة، ويقول العرب: إنه فوق العصفور وله منقار قوي مقوس يصيد به العصافير، وهو شرس شديد النفور، يقلد صفير كل طائر صغير فإذا انخدع به وهبط إليه نقره نقرة من ساعته أو أكله ومأواه الأشجار ورؤوس القلاع وأعالي الحصون.

الظليم:

ذكر النعام ويسمى الهيق أو الهيقم ويضرب به المثل في حدة حاسة الشم قال الراجز:

أشمُّ من هيقٍ وأهدى من جملْ

العقاب:

يستوطن معظم القارات ويعتبر أقوى الطيور بأسًا وأشدها فتكًا، وتتخذه كثير من الدول شعارًا لها، ويسكن الجبال العالية والبراري الشاسعة والغابات الواسعة، وينقض على فريسته منشبًا مخالبه في جسمها فإذا قاومت ضربها بإحدى رجليه على رأسها وأنشب مخالبه في عينيها ليعميها فلا تستطيع المقاومة ويخطف الحملان الصغيرة، وأحيانًا الأطفال، وقد يخطف الثعالب والكلاب، ويدرب على الصيد، ويضربون به المثل في حدة البصر، ويقولون: إنه سيد الطيور والنسر عريفها.

العقعق:

من فصيلة الغربان (Corvus) في حجم الحمامة وجناحاه أكبر من جناحيها، والعرب تتشاءم به وبصياحه، وتضرب به المثل في الخبث والحمق والسرقة ويزعمون أنه يختطف كل ما يراه، فكم سرق من عقد ثمين قال الشاعر:

إذا بارك الله في طائرٍ
فلا بارك الله في العقعقِ
قصير الذنابى طويل الجناح
متى ما يجد غفلةً يسرقِ

العنقاء:

طائر خرافي يسميه العرب عنقاء مغرب، وتزعم الأساطير العربية: أنه يخطف الفيل في مخالبه ويفترسه، وأنه يبيض بيضًا كالجبال، ويروون عنه أساطير غريبة، ويضرب كثيرون به المثل في ما لا يمكن أن يقع فيقولون: المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء والخل الوفي، ويقول الشاعر:

الجود والغول والعنقاء ثالثةٌ
أسماءُ أشياءَ لم توجد ولم تَكُنِ

وتزعم الأساطير الإنكليزية أن العنقاء له رأس نسر وجناحاه، وله جسم أسد.

الغُرْنيق:

من فصيلة الكراكيّ Grus يمتاز برقبة طويلة وجسم قوي مستطيل ومنقار مستقيم ورجلين طويلتين قويتين وجناحين طويلين عريضين، ويعيش في الحقول والمستنقعات والبحيرات وينشط من الصباح حتى المساء، وإذا هاجرت أسرابه في الشتاء واصلت الليل بالنهار في الطيران، ويقول العرب: إنه حينما ينام يقف على رجل واحدة ويدخل رأسه تحت جناحه.

الفياد:

ذكر البوم من جنس BuBo ويسميه العرب الصَّدَى يستوطن معظم أجزاء العالم، ويمتاز بجسم نحيف على الرغم من مظهره الضخم لأن ريشه غزير ورأسه كبير وجناحيه طويلان عريضان ومنقاره مقوس وعينيه واسعتان مُعدَّتان لحياة الليل، والعرب تتشاءم منه.

القبج:

وهو الحجل أو هو الذكر منه، يتميز بمنقار صغير أصفر وذنب مستدير ومخالبه قصيرة مقوسة قليلاً ويسميه العرب دجاج البر وينطلق في طيرانه كالقذيفة، والذكر منه شديد الغيرة على أُنثاه.

القمريّ:

من فصيلة اليمام يشبه الحمام ولكنه أصغر منه حجمًا وجناحًا وأقصر وذنبه أطول نسبياً، وهو حسن الصوت كثير الترجيع قال عبدالرحمن بن أبي بكر – لما طلق زوجةُ عاتكة – نادمًا على الطلاق:

أعاتِكُ لا أنساكِ ما ذرٌ شارقٌ
وما ناح قمريُّ الحمام المطوّقُ

المُكَّاء:

يستوطن بلاد العرب وشمال أفريقيا وغرب آسيا وجنوب أوربا، ويعيش أزواجًا، وهو سريع العدو خفيف الطيران، وقلّما يفارق الذكر أنثاه، وهو لا يخاف الناس، ويعيش في الأماكن المزدحمة بهم ما لم يطاردوه، ويشبه القبرة، وهو كثير الصَّفير في الرياض فإذا غرد في غير روضه كان هذا دليلاً على الجدب وهلاك الماشية كما يقول العرب، قال الشاعر:

إذا غـــرد الـمُكّاءُ في غــيـــر رَوْضِــهِ
فـــويلٌ لأهـلِ الشّــاء والحُـــمُـــراتِ

الهديل:

ذكر الحمام من فصيلة (Columba) يستوطن العالم بأجمعه، وهو أنواع عديدة، والذكر منه يقتصر على أنثى واحدة، وهو أليف وديع وبعضه بريّ، ويزعم العرب أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده طير جارح فكل حمامة تبكي عليه إلى يوم القيامة، قال نصيب:

فـــقلتُ: أتبكي ذاتُ طوقٍ تذكــرتْ
هديلاً، وقــد أودى ومـــا كـــان تُبَّعُ؟

أي مات الهديل قبل وجود تبع «كان هنا فعل تام».

الهيق:

(وهو) الظليم «ذكر النعام» وقد سبق الحديث عنه.

الورشان:

ذكر القماري من فصيلة اليمام حسن التغريد يقال إنه إذا ماتت أنْثاه ظل حزينًا عليها حتى يموت، ويسمى أيضًا «ساق حر»، قال الكُمَيت:

تغـــريدُ ســـاقٍ على ســاقٍ يجـاوبُهـــا
مـنَ الـهــــــواتـف ذات الطوق والعَطَلِ

عنى بالأول الورشان وبالثاني الساق.

****

الرسائل

ضاعت معظم آثار ابن زيدون النثرية فلم تبق منها إلا بضع رسائل وثلاث مقطوعات، ومعظمها غير كامل، مع أن صاحب الذخيرة يصفه بأنه كان على حظ من النثر غريب المباني شعري الألفاظ والمعاني» ورسائله السياسية عن المعتضد ضاعت كلها مع أنه قضى في ظلاله زهاء عشرين عامًا كانت رسائله فيها تنفذ «إلى شرق الأندلس، فيقال: تأتي من إشبيلية كتب هي بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور» كما ذكر ابن بسام.

الرسالة الهزلية

كتبها ابن زيدون على لسان ولادة إلى ابن عبدوس منافسه في الحب والسياسة(١):

أمّا بعدُ(٢) أيها المصاب بعقله، المورَّط بجهله(٣)، البَيِّنُ سقطُه(٤) الفاحش غلطُه(٥) العاثر في ذيل اغتراره(٦)، الأعمَى عن شمس نهاره، السّاقطُ سقوطَ الذّباب على الشَّراب، المتهافت(٧) تهافتَ الفَراش إلى الشِّهاب، فإن العُجْبَ أكذب(٨) ومعرفةَ المرء نفسه أَصوبُ. وإنك راسلتَني مستهديًا - من صِلتي ما صفِرت منه أيدي أمثالك(٩)، متصدّيًا - من خُلتي - لما قُرعت دونه أنوفُ أشكالك(١٠)، مرسلاً خليلَتَكَ مُرتادةً،

(١) ذكر ابن نباته الباعث على إنشاء هذه الرسالة وهو أن ابن عبدوس أرسل إلى ولادة «امرأة من جهته تستميلها إليه، وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها، في التفرد بمواصلته، فبلغ ابن زيدون ذلك، فكتب هذه الرسالة البديعة جوابًا له عن لسانها، تتضمن هذه الغرائب من سبٍّ أبي عامر والتهكم به والهجاء له.. وأرسلها إليه عقب رجوع المرأة، فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة إلى أن انتقل ابن زيدون إلى إشبيلية وتوفي بها، تغمده الله برحمته وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه، هذا معنى ما ذكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين، راجع قصيدته إلى ابن عبدوس في الديوان، وقد اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة على سرح العيون ونهاية الأرب ج٧ ص٢٧١ - ٢٩٠، والمجموعة الأدبية مخطوطة رقم ٧ أدب بدار الكتب.

(٢) هذه العبارة ترد كثيرًا في مستهل الخطب والرسائل وتقديرها «مهما يكن بعد»، قال سحبان:

وقد علمت قيس بن عيلان أنني
إذا قلتُ: «أما بعد» أني خطيبُها

(٣) الورطة: الهلاك، ورطه: أوقعه في الورطة فتورط فيها، وأصل الورطة أرض مطمئنة لا طريق فيها، وربما هلك الواقع فيها.

(٤) البيّن: الظاهر، السقط: الرديء، ومنه سقط المتاع أي رديئه، وسقط القول: خطؤه.

(٥) الفاحش: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال، ومنه الفاحشة: الفعلة القبيحة.

(٦) العثور: السقوط، الاغترار: الغفلة؛ ذيل الاغترار: استعارة لطيفة كأنه كان يسحب ذيله تيهًا وعجبًا فتعثر به فسقط.

(٧) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية «في الشهاب»، التهافت الترامي مع خفة وطيش، الشهاب: الشعلة من النار.

(٨) فإن العجب أكذب، الفاء واقعة في جواب «أما بعد» في أول الرسالة، العجب: الكبر.

(٩) صلتي: مودتي أو قربي، صفرت: خلت.

(١٠) تصدى له: تعرض له، الخلة: المودة أو الصداقة، قرعت: ضربت، وفي الأمثال: «هو الفحل لا يقدع - أو لا يقرع - أنفه» لأن العرب كانت تضرب أنف البعير لتصرفه عن لقاح الناقة إذا كان غير كريم، ثم استعمل المثل في الكريم الذي لا تردُّ خطبته، ولما بلغ أبا سفيان زواج النبي صلي الله وعليه وسلم ابنته أم حبيبة قال: «ذاك الفحلُ لا يقدع انفه». وفي نهاية الأرب «قرعت فيه» ولعل الأصح «قدعت دونه أنوف أمثالك» لمشاكلة كلام أبي سفيان.

مُسْتَعْمِلاً عشيقتكَ قوّادة(١)، كانبًا نفسك أنك ستتنزلُ(٢) عنها إليَّ، وتخْلُفُ - بعدها - عليَّ(٣):

ولـســتَ بـأول ذِي هِـمّـــــــــــــةٍ
دعـــــــتْـــــهُ لما لـيـس بـالـنـائـل

☆☆☆☆☆

ولا شك أنها قَلَتْكَ(٤) إذ لم تضَنَّ بك، وملَّتْكَ إذ لم تغَزْ عليك، فإنها أعذرت(٥) في السِّفارة لك، وما قصّرت في النيابة عنك، زاعمةً أن المروءة(٦) لفظ أنت معناه، والإنسانيّة اسم أنتَ جِسمه وهُيولاه(٧) قاطعة أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ في مراتب الجلال، واستوليتَ على محاسن الخِلال، حتى خَيّلتَ أنَّ يوسفَ عليه السلامُ حاسنكَ فغضضتَ منه(٨)، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلَتْ عنه(٩)، وأنَّ قارونَ أصاب بعضَ ما كنَزت(١٠)، والنُّطِفَ عثَر على فضل ما رَكَزْتَ(١١)، وكسرى حمل غاشيتَك(١٢)، وقيصرَ رَعى ماشيتك(١٣)، والإسكندرَ قتل دَارًا في طاعتك(١٤)، وأردشِيرَ

---

(١) في بعض نسخ سرح العيون «مرسلاً حليلتك»، الحليلة: الزوجة، الحليلة: الصاحبة، المرتاد: طالب الكلأ، وسمي به الطالب مطلقًا، القوادة: التي تجمع بين الرجل والمرأة في الحرام، كأنها تقود كلا منهما للآخر.

(٢) المعنى إنك ستتصرف عن هذه الخليلة إليّ وتعتاض عنها بي.

(٣) البيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، ويذكر هجومه على الخارجي أولها:

إلام طماعيةُ العاذلِ؟ ولا رأي في الحب للعاقلِ

ورواية البيت نقلاً عن الديوان و«ليس بأول ذي همة...» ومعناه: ليس الخارجي بأول صاحب عزيمة دفعته إلى مالا يناله.

(٤) قلتك: أبغضتك، تضن: تبخل، ملتك: سئمتك، وفي المجموعة الأدبية «وسلتك إذ لم تعز عليك».

(٥) أعذر: بلغ من الاجتهاد ما صار به معذورًا، السفارة: المشيُ في الصلح.

(٦) المروءة: الإنسانية، والمراد كمال الصفات الإنسانية، والمعنى: زعمت في حديثها أن المروءة تجسمت فيك.

(٧) الهيولَى: الصورة المعنوية التي يُصبُّ الجسمُ على مثالها، وقد نادى إفلاطون بنظرية المثل Ideality وخلاصتها أن الأجسام المادية تقليد للعالم المثالي المعنوي الأزلي، والمعنى: إن الإنسانية تجسمت فيك بمعناها ومبناها.

(٨) حاسنك: باراك فِي الحسن، غضضت منه: خفضت، ونقصت من قدره، ويوسف عليه السلام ضرب به المثل في الجمال، وقد قالت فيه علِيةُ نساء مصر قديمًا ﴿ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم﴾.

(٩) قصة امرأة العزيز وتدلهها في حب يوسف عليه السلام - حتى نسيت منزلتها ومكانة زوجها - مشهورة «راجع سورة يوسف في القران الكريم»

(١٠) قارون: من قوم موسى عليه السلام، وكان يضرب به المثل في الثروة الطائلة والغنى الفاحش، فلما اغترّ بما ملك خسف الله به وبداره الأرض «راجع قصته في سورة القصص الآيات ٧٦-٨٣».

(١١) كان النطفُ بن جبير مقيمًا بالبادية مع بني تميم، فأغار مع آخرين على قافلة أرسلها عاهل اليمن إلى كسرى حافلة بالثياب اليمنية والذهب والمسك والجوهر، وقتلوا من بها، واستولى النطف على كثير منها من جملته خرجان مملوءان ذهبًا محلى بالجواهر النفيسة، الفضل : بقية الشيء ، الركز والركاز: دفين مال الجاهلية، وفي المجموعة الأدبية «عثر على ما كنزت».

(١٢) في المجموعة الأدبية «حامل غاشيتك»، كسرى: لقب لكل ملك من ملوك الفرس، وإذا أطلق قصد به كسرى أنوشروان، وقد حكم فارس في أواخر القرن السادس، الغاشية: غطاء السرج أو المظلة.

(١٣) في المجموعة الأدبية «راعي ماشيتك» قيصر: لقب لكل ملك من ملوك الروم، وإذا أطلق قصد به أغسطس.

(١٤) حارب الإسكندر المقدوني الأكبر ملك الإغريق دارا ملك الفرس وقتله واحتل مملكته وضمها إليه.

جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك[١]، والضحّاك استدعى مُسالمتك[٢]، وجَذيمة الأبرش تمنَّى منادمتك[٣]، وشيرين قد نافست بُورانَ فيك[٤]، وبلقيس غايرت الزَّبّاء عليك[٥]وأنَّ مالكَ بن نُويرة إنما ردف لك،[٦]وعُروةَ بن جعفر إنما رحل إليك[٧]، وكُليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتّك،[٨]وجَسّاسًا إنما قتله بأنفتك[٩]، ومُهلهِلاً إنما طلب ثأره بهمتك[١٠]، والسَّموءل إنما وفى عن عهدك[١١]، والأحنفَ إنما احْتَبى في

---

(١) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون «بخروجهم من طاعتك»، أردشير بن بابك: حارب أمراء بلاد فارس بعد مقتل دارا وارتداد الإغريق عنهم حتى ضمَّهم إلى طاعته، ووحَّد مملكة فارس تحت عرشه وأسَّس لها صولة ودولة من جديد.

(٢) اختلف الرواة في نسب الضحاك، فزعم بعضهم أنه من الفراعنة وقال بعضهم من الفرس وقال آخرون من العرب، ولكنهم جميعًا يروون أنه قتل جمشيد الطاغية واستلب ملكه وطغى وتجبر ويزعمون أنه أول من غُنيَ له، وضرب الدراهم والدنانير ولبس التاج ووضع العشور.. الخ.

(٣) جذيمة بن مالك بن فهم بن عامر التنوخي ملك الحيرة: يقال إنه أول من قاد العرب وملك قضاعة وكان أبرص فعدل عن هذا الاسم فقيل الأبرش أو الوضاح، قيل إنه كان ينادم الفرقدين أنفة منه وكبرًا أن ينادم بشرًا، وقيل كان له نديمان قتلهما في سكره، ثم ندم عليهما وبنَى عليهما الغريّين ونادم بعدهما الفرقدين، قال متمم بن نويرة في رثاء أخيه:

وكنا كندماني جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل: لن يتصدّعا

(٤) شيرين: زوجة ابرويز بن هرمز ملك الفرس، كانت يتيمة في حجر رجل من الشعب فأحبها ابرويز فتزوجها ورفعها إلى العرش فوفت له حتى قيل إنها سمَّت نفسها بعد وفاته، بوران بنت ابرويز: وليت الملك بعد أبيها وكانت من أجمل النساء.

(٥) بلقيس بنت الحارث ملكة سبأ: كانت مشركة هي وقومها، فدل الهدهد عليها سليمان عليه السلام، فتوعدها وقومها بالحرب إن لم تؤمن برسالته، فوفدت عليه وآمنت به وتزوجته «راجع قصتها في سورة النمل الآيات ٢٠-٤٤» الزباء: بارعة أو ميسونة بنت عمرو بن الظرب ملكت الجزيرة بعد أبيها وأخذت بثأره من جذيمة الأبرش ملك الحيرة، في المجموعة الأدبية «وبلقيس غايرت.. وشيرين نافست..».

(٦) آثرنا رواية المجموعة الأدبية وفي سرح العيون ونهاية الأرب «أردف لك» مالك بن نويرة بن شداد: من فرسان العرب وشجعاتهم وذوي الردافة في الجاهلية، وأرداف الملوك هم الذين يخلفونهم في القيام بأمر المملكة كالوزراء في الإسلام.

(٧) عروة بن عتبة بن جعفر: من بني عامر بن صعصعة يُعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك، وكان من ذوي العقل والشهامة، وهو من أرادف الملوك، وكان قد تعهد للنعمان بن المنذر بحماية قافلته من أهل نجد وتهامة فاغتاله البراض وقامت بسببه حرب الفجار.

(٨) كليب بن ربيعة: زعيم قبيلتي بكر وتغلب، يقال فيه «أعز من حمى كليب» وكان يحمي مواقع السحاب فلا يرعاها أحد غيره، وإذا مر بمرعى قذف فيه جروًا يعوي فلا يرعاه أحد.

(٩) جسّاس بن مرة بن ذهل: صهر كليب قتل كليبًا لأنه قتل ناقة لخالة جساس اندسّت بين إبله.

(١٠) مهلهل: هو عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب، ظل يطلب ثأر أخيه كليب سنوات عديدة، وأثار حروبًا طاحنة بين قبيلتي بكر وتغلب في طلب الثأر، وسُميَ مهلهلاً لأنه أول من هلهل نسج الشعر أي أرقَّه.

(١١) السموءل بن عادياء من يهود يثرب: يضرب به المثل في الوفاء، وسبب ذلك أن امرأ القيس لما خرج في طلب ثأر أبيه حجر وذهب إلى ملك الروم ليستعين به، أودع عند السموءل مائة درع وسلاحًا أمانة عنده حتى يرجع، فحفظها بحصنه الأبلق في تيماء، فجاء الحارث بن ظالم، وطالب السموءل بها وهدده، فأبى أن يسلمها له، وتحصن بحصنه، فأخذ الحارث ابنًا للسموءل وساومه على تسليم ابنه مقابل السلاح ، فأبى السموءل أن يغدر بعهده، فقتل الحارث ابنه أمامه وطرحه وانصرف، فقال السموءل من أبيات: وفيت بأدرع الكندي، إنــي إذا ما خان أقوامٌ وفــيتُ

بردك[1]، وحاتمًا إنما جاد بوَفرك، ولقيَ الأضياف ببشرك[2]، وزيدَ بن مُهلهل إنما ركب بفخذيك،[3] والسُّليكَ بن السُّلَكة إنما عدا على رجلَيك،[4] وعامرَ بن مالك إنما لاعب الأسنّة بيديك[5]، وقيسَ بن زهير إنما استعان بدهائك[6]، وإياسَ بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك[7]، وسَحبانَ إنما تكلم بلسانك[8]، وعمرو بن الأهتم إنما سَحَرَ

(١) في سرح العيون «في بردتك»، وفي المجموعة الأدبية «احتقى في بردك»، الأحنف: هو صخر بن قيس بن معاوية السعدي يضرب به المثل في الحلم والسيادة، وله حكم مشهورة منها: أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك، أنفق في حق ولا تكونن خازنًا لغيرك، لا راحة لحسود ولا مروءة لكذوب، وقال له رجل لأشتمنك شتمًا يدخل معك في قبرك، فقال في قبرك والله يدخل لا قبري، وتوفي بالكوفة سنة ٦٩ هـ، احتبى في بردك: اشتمل في كسائك.

(٢) حاتم بن عبدالله الطائي: ممن ضرب به المثل في السماحة والسخاء يقال: أجواد العرب في الجاهلية ثلاثة: حاتم الطائي، وهرم بن سنان، وكعب بن مامة وحاتم أشهرهم، وكان كما قالت ابنته للنبي صلي الله عليه وسلم: إن أبي كان يفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري، ومن شعره:

أماويُّ إن المالَ غـادٍ ورائـحٌ ... ويبقى من المال الأحاديثُ والذكر
أماويّ ما يُغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

(٣) في المجموعة الأدبية «وزيد الخيل» زيد بن مهلهل الطائي من فرسان العرب وشعرائها المعدودين، أدرك الإسلام وأسلم وكان يسمى زيد الخيل لكثرة خيله، فسماه النبي صلي الله عليه وسلم زيد الخير، يقال: إنه كان طويل القامة عظيم الخلقة يركب الفرس ورجلاه تخطان في الأرض، وقال له النبي (ص) «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله «الأناة والحلم».

(٤) السليك بن السلكة: أحد فتاك العرب وصعاليكهم في الجاهلية، وكانت الخيل لا تلحقه في العدو.

(٥) عامر بن مالك من بني عامر يسمى ملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه:

يلاعب أطراف الأسنة عامر ... فراح له حظ الكتائب أجمعُ

وقيل لقول حسان بن نمير – وقد رآه بين فرسان أطافوا به فقاتلهم: «ما هذا إلا ملاعب الأسنة».

(٦) قيس بن زهير بن جذيمة العبسي شيخ بني عبس، ثارت الحروب بينه وبين حذيفة بن بدر شيخ بني ذبيان بسبب تراهنهما على فرسيهما داحس والغبراء في قصة مشهورة، وكان قيس معروفًا بالدهاء وبعد النظر ولما استطار الشر بسبب هذه الحروب نصح قومه بصلح بني عمهم، ومن كلامه يصف نفسه: إني أمرؤ غيور فخورٌ أنف ولست أفخر حتى أُبتلى، ولا أغار حتى أرى، ولا آنف حتى أظلم، ومن شعره:

إذا أنت أقررتَ الظلامة لامرئ ... رماك بأخرى شَعبها متفاقمُ
فلا تُبْدِ للأعداء إلا خشونة ... فما لك منهم إن تمكن راحمُ

(٧) إياس بن معاوية بن قرة المزني قاضي البصرة زمن عمر بن عبدالعزيز كان مشهورًا بحدة الذكاء وسداد الإجابة، وله نوادر في القضاء وفي سرعة البديهة مشهورة، وله أخبار كثيرة مجموعة في كتاب يسمى «ذكاء إياس»، قيل له يومًا: إن فيك عيوبًا: دمامة الشكل، وإعجابك بما تقول، وعجلة بالحكم، فقال: أما الدمامة فليس أمرها إليّ، وأما الإعجاب بالقول أفليس يُعجبكم ما أقول؟ قالوا: بلى، قال: فأنا أحق بالإعجاب بقولي، وأما العجلة بالحكم فكم هذه ؟ ومدّ – أصابع يده – قالوا خمس، فقالوا: أعجلتم بالجواب، فقالوا: كيف نعدّ ما نعلم؟ فقال: وأنا كيف أؤخر حكم ما أعلمه؟ توفي سنة ١٢١هـ.

(٨) سحبان بن زفر بن إياس الوائلي خطيب مصقع يضرب به المثل في البيان واللسن، قال الأصمعي: كان إذا خطب يسيل عرقًا، ولا يعيد كلمة، ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ، استدعاه معاوية يومًا على غير أهبة وكلفهُ الخطابة في وفد خراسان، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر، ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا أبتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليه منه شيء فما زالت تلك حالهُ حتى أشار إليه معاوية بيده، فأشار إليه سحبان: ألا تقطع علي كلامي، فقال معاوية: الصلاة!! قال: هي أمامك ونحن في صلاة وتحميد ووعد ووعيد، فقال معاوية: أنت أخطب العرب!! فقال سحبان: والعجم والجن والإنس!! توفي سنة ٥٤هـ.

ببيـانك[1]، وأن الصُّلح - بين بكرٍ وتَغْلِبَ - تمَّ برسـالتك[2]، والحَمَـالات - بين عـبس وذبيـان - أُسندت إلى كَفالتك[3] وأن احتيالَ هَرِمٍ - لِعَلْقَمَةَ وعامرٍ حتّى رضِيا - كان ذاك عن إشارتك،[4] وجوابه لعمر - وقد سـأله عن أيهما كان يُنَفِّرُ؟ - وقع عن إرادتك،[5]

(١) عمرو بن سنان الأهتم التميمي وفد على النبي صلي الله عليه وسلم هو والزبرقان بن بدر فأسلما، فسأل النبي عمرو بن سنان عن الزبرقان بحضوره، فقال: مطاع في ناديه، شديد العارضة في قومه، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني، فقال عمرو: أما والله لئن علمتُ ما قد علمتُ، فإنه زمن المروءة أحمق الأب لئيم الخال ضيق العطن، فرأى تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله: فقال: يا رسول الله لا تغضب، لمّا رضيت قلت أحسن ما علمت ولما غضبت قلت أقبح ما علمت، فو الله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية، فقال صلى الله وعليه وسلم: «إن من البيان لسحرا» توفي عمرو سنة ٥٧هـ.

(٢) في المجموعة الأدبية «إنما تم» لما قتل جساس بن مرة كليبًا ثارت الحربُ بين قبيلتيهما بكر وتغلب وهما أبناء عمومة وأصهار، واستعرت الحرب أمدًا طويلاً حتى برَّحت بالقبيلتين، إلى أن تدخَّل بينهما الحارث بن عمرو بن معاوية ملك كندة جد أمرئ القيس، وضم القبيلتين إلى حكمه فأصلح شأنهم وكان الحارث ملكًا جليلاً رفيع الهمة ويلقب بآكل المرار.

(٣) الحمالات، جمع حمالة وهي الدية، لما ثارت الحرب بين عبس وذبيان وأهلكت الكثير ين تدخل الحارث بن عوف وهرم بن سنان بينهما واجتهدا في إصلاح ذات البين وحملا الديات، وفي هذا يقول زهير بن أبي سلمى:

تداركـتـمـا عـبـسًـا وذبيـان، بعـدمـا

تفـــانوا، ودقـــوا بيـنهم عطر منشم

وكانت اليد الطولى للحارث بن عوف، وعاش الحارث إلى أن أدرك النبي صلي الله عليه وسلم فأسلم، ومن شعره:

كم من يد - لا أؤدي حق نعـمـتـهـا -

عـندي لمغـــتــــبط طارٍ، ومـن مِنَنِ

إذْ جـاء يسـعى إلى رحلي لأسـعـفـه

أليس قـــد ظنّ بي خـــيـــرًا، ولم يرني؟

(٤) تفاخر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة في الجاهلية، واستطار بينهما اللجاج فتنافرا - أي احتكما إلى هرم بن قطبة بن سيار - لا ابن سنان كما ذكر ابن نباتة - على مائة من الإبل، فأرجأهما عامًا، ثم وفدا عليه ومع كل منهما أشراف قومه، فأقاموا عنده أيامًا، فأرسل سرًا إلى عامر، فقال له: يا عامر ما حبستك هذه الأيام إلا لتتصرف عن صاحبك، أتفاخر رجلا لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه؟ فما الذي أنت به خير منه؟ فقال عامر: ناشدتك الله والرحم ألا تفضل عليّ علقمة، فإن كنت ولا بد فاعلاً فسوِّ بيننا، قال سأرى ثم استدعى علقمة، وقال له مثل ما قال لعامر فناشده أن يسويَ بينهما إذا لم يكن بد، فلما مثلا بين يديه هما وقومهما قال لهما: يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي وإنكما كركبتي البعير تقعان معًا على الأرض، وكلاكما سيد كريم. وبهذا حجز الشر بين قوميهما، وانصرفوا راضين. في المجموعة الأدبية «كان من أشارتك»، وفي نهاية الأرب: «لعامر وعلقمة حتى رضيا كان عن رأيك».

(٥) في نهاية الأرب وقع بعد مشورتك» وفي المجموعة الأدبية «عن أيهما ينفر كان عن رأيك»، لما وفد هرم بن قطبة على عمر رضي الله عنه فسأله عن منافرة عامر وعلقمة، وقال يا أبا عمرو أيهما كنت تنفر؟ - أي تغلب - ومن كان عندك الأفضل منهما؟ فقال هرم: لو قلتُ الآن فيهما كلمة لعادتْ - الحرب بين الحيين - جذعة، فأعجب عمر بهذه الإجابة وقال: بحقٍّ حكمتك العرب.

وأن الحجّاج تقلّد ولاية العراق بجدّك،[1] وقُتيبةَ فتح ما وراء النهر بَسعدك[2]، والمهلَّب أَوْهَنَ شوكةَ الأزارقَةِ بأَيْدِكَ، وفرّق ذَاتَ بينهم بكَيدك[3]، وأن هرمسَ أعطى بلينوسَ ما أُخذ منك[4]، وأفلاطون أورد على أرسطاليس ما نَقل عنك[5]، وبطليموس سوّى الاصْطِرْلابَ بتدبيرك، وصوَّر الكُرَةَ على تقديرك،[6] وأبقراط علِم العِلل والأمراض بلطف حِسِّك[7]، وجالينوس[8] عرف طبائع الحشائش بدقّة حَدسك، وكلاهما قلّدك في العِلاج ، وسألك

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي من قادة العرب وخطبائها المعدودين، ولي العراق لعبد الملك بن مروان فأخمد الفتن وشتّت شمل الخوارج، ثم قضى على ثورة ابن الزبير بالحجاز، وكان جَبارًا قاسيًا لا يرحم، سفاكًا للدماء، وفصيحًا مفوّهًا، قال مالك ابن دينار: و«الله لربما رأيتُ الحجاج يتكلم على المنبر، ويذكر حسن صنعه إلى أهل العراق وسوء صنعهم له، حتى يخيل إليَّ أنه مظلوم» الجَدّ: الحظ، والجِدُّ: الاجتهاد، وكلاهما صالح للمعنى هنا.

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي كان واليًا على خراسان من قبل عبدالملك بن مروان، وهو الذي فتح بلاد ما وراء النهر «أي ما هو شرقي نهر جيحون بخراسان» وهو قائد شجاع أبلى في حروبه أحسن البلاء، وكان دمث الأخلاق لبيبًا، وأقام بالمشرق واليًا عليه ثلاث عشرة سنة عظيم الرتبة مرهوب الجانب، قُتل سنة ٩٦هـ.

(٣) في سرح العيون «أوهَى.. بيدك»، الأيد: القوة، المهلب بن أبي صفرة الأزدي أمير كبير طائر الذكر شجاع، أمَّره مصعب بن الزبير على البصرة، ثم ولاه عبدالله بن الزبير خراسان، ثم أقره عبدالملك بن مروان ليتمم ما بدأه من حرب الأزارقة فشتت شملهم، ومن كلامه «عجبت لمن يشتري العبيد بماله، ولا يشتري الأحرار بأفضاله» وكان يقال فيه: «ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مسمع بحبه لعشيرته، وقتيبة بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال جميعها» وتوفي سنة ٨٣ هـ، والأزارقة طائفة من الخوارج تنسب إلى نافع بن عبدالله بن الأزرق، ثاروا بالبصرة والأهواز وغيرها من بلاد فارس، وعظمت شوكتهم وكثرت فتكاتهم بالمسلمين حتى خضد شوكتهم المهلب بمكايده حينًا، وحروبه أحيانًا، وهم ينادون بكفر علي عليه السلام بسبب قبوله التحكيم، ويكفرون من يقعدون عن القتال في صفهم، ويرون أن مرتكب الكبيرة خارج عن الإسلام مخلد في النار، ويكفرون كل من لا يدين بآرائهم من المسلمين.

(٤) في المجموعة الأدبية «أعطى جالينوس»، تروي الأساطير العربية أن هرمس – عند قوم من الصابئة – نبي مرسل وأنه إدريس عليه السلام، ويزعمون أنه باني الأهرام ويسندون إليه شرائعهم، ويزعمون أن بلينوس ورثه في النبوة وكان قد أخذ عنه العلوم والأسرار.

(٥) في نهاية الأرب «ما حدث عنك»، افلاطون من أشهر فلاسفة الأغريق – القدماء وهو صاحب نظرية المثل Ideality وخلاصتها أن الأجسام المادية تالية في الخلقة لعالم مثالي معنوي صبت على صورته. وهو تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أشهر فلاسفة الإغريق وأعظمهم، وقد تدارس فلاسفة العرب فلسفة أرسطو وافتتنوا بها وشرحوها وسموه المعلم الأول.

(٦) في المجموعة الأدبية «ووضع الكرة» ، بطليموس صاحب كتاب المجسطي الكبير من أشهر علماء الفلك والجغرافيا عند الإغريق، ونفى القفطي في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» أنه من أسرة البطالسة التي حكمت مصر كما وهم كثيرون، الاصطرلاب: آلة لرصد النجوم، والكرة هنا الكرة الأرضية.

(٧) ذكر القفطي أن أبقراط كان في زمن أردشير ملك الفرس، وهو الذي بث صناعة الطب في الناس يتوارثونها بالتلقين ولا يكتبون فيها شيئًا.

(٨) جالينوس من أشهر أطباء الإغريق ويسمى خاتم الأطباء والمعلمين، وظلت آراؤه سائدة عند الإغريق ثم العرب قرونًا متتالية ويقولون «إنه عرف خواص الحشائش، وقاس أمزجة الأبدان، ودرس طبائعها، وشرح الأعضاء، ووضع الكتب النفيسة في الطب، وفي نهاية الأرب «بدقة نظرك».

عن المزاج[1]، واستوصَفكَ تركيب الأعضاء، واستشارك في الدّاء والدواء وأنك نهَجت لأبي معشر طريق القضاء[2]، وأظهرت جابرَ بن حيان على سرّ الكيمياء[3]، وأعطيت النَظّامَ أصلاً أدرك به الحقائق[4]، وجعلت للكنديِّ رسمًا استخرج به الدقائق[5]، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار (والأنقار) توليدُك وابتداعك[6]، وأن عبدالحميد بن يحيى باري أقلامِك،[7] وسهل بن هارون مدوّن كلامك،[8] وعمرو بن بن بحر

(١) المزاج: واحد الأمزجة وهي الطبائع، ويقسمها القدماء إلى تسعة أقسام: واحدة معتدلة وثمانية غير متعدلة، منها أربعة مفردة هي: الحار والبارد والرطب واليابس، وأربعة أخلاط هي: الدم والمرة والصفراء والمرة السوداء والبلغم... الخ ما قالوه.

(٢) في المجموعة الأدبية «فتحت لأبي معشر»، أبومعشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم المشهور، كان من أصحاب الحديث، ثم درس الحساب والهندسة، ثم أحكام النجوم فمهر فيها حتى اعتبروه عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم، وله فيها مصنفات عديدة، وكان من أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر الأعجام، ولكنه كان مدمنًا على الشراب، وكان يصيبه الصرع شهريًا، توفي سنة ٢٧٢هـ، نَهجَ الطريق: أبانه وأوضحهُ ، القضاء: المراد به هنا حكم المنجمين وقولهم بتأثير الكواكب، وهو يشير بهذا إلى قول أبي تمام – ساخرًا من المنجمين في حديثهم عن تأثير النجوم – :

يقضون بالأمر عنها، وهي غافلة
ما دار في فلك منها وفي قطب

(٣) ذكر ابن نباتة في شرحه لهذه الرسالة أنه لم يقف له على ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد عليه، ولو راجع الفهرست لابن النديم وطبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي لوجد له فيهما ترجمة موجزة، وهما كتابان يعتمد عليهما، وهو أبوموسى جابر ابن حيان بن عبدالله الكوفي المعروف بالصوفي من أشهر مؤلفي العلوم عند العرب، وقد بلغت تصانيفه زهاء خمسمائة كتاب، بقي منها: «كتاب أسرار الكيمياء، وأصول الكيمياء، وعلم الهيئة، ومجموعة رسائل في نحو ألف صفحة، وكلها مطبوعة، وكان من أصحاب جعفر الصادق ثم اتصل بالبرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى البرمكي، وتوفي سنة ١٦١هـ.

(٤) إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري النظام من شيوخ المعتزلة وأئمتهم كان آية في الذكاء وقوة الجدل، ومن آرائه: أن الله خلق العالم دفعة واحدة، ولكنه أكمن بعضه في بعض، وأن في قدرة البشر أن يأتوا بمثل القرآن إلا أن الله تعالى صرف أذهانهم عن محاكاته، وأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور. توفي سنة ٢٣٠ وقيل سنة ٢٣٦هـ.

(٥) يعقوب بن إسحق الكندي من أبناء الولاة والحكام، وجدّه الأشعث بن قيس من الصحابة، سماه القدماء فيلسوف العرب، وله مصنفات عديدة في العلوم الفلسفية تناهز الخمسين، توفي سنة ٢٥٥هـ على الأرجح.

(٦) لم ترد كلمة (الأنقار) في نهاية الأرب، وفي المجموعة الأدبية «الأوتار والأنغام» وينسب العرب إلى بطليموس أنه أول من أفرد لها كتابًا سماه كتاب اللحون الثمانية ، الأنقار: آلات الطرب.

(٧) عبدالحميد بن يحيى بن سعيد العامري كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين بالمشرق من أشهر الكتاب المجيدين، ضُرب به المثل في البلاغة وقيل فيه: بُدئت الكتابة بعبدالحميد، ويُروَى أنه كتب خطابًا إلى أبي مسلم الخراساني ليصرفه عن الدعوة العباسية، فخشيَ أبومسلم تأثير الخطاب فيه فلم يقرأه وأحرقه وكتب على قصاصة باقية منه:

محا السيفُ أسطارَ البلاغة، وانتحى
عليك ليوثُ الغاب من كل جانب

وقد ابتدع للكتاب مناهج تبعوها من بعده وكان إبراهيم بن جبلة يكتب خطًا رديئًا فقال له عبدالحميد: أطل جلفة قلمك وأسمنها وحرف قطّك يصلح خطُك. ولعل هذا ما أشار إليه ابن زيدون، وظل وفيًا لمروان حتى قتله العباسيون سنة ١٣٢هـ.

(٨) سهل بن هارون اشتهر بالبلاغة والحكمة، قدمه الفضل بن سهل للمأمون فأعجب ببلاغته وجعله كاتبًا على خزانة الحكمة، وكان شعوبيًا يتعصب على العرب، وألف كتبًا عارض بها كتب الأوائل حتى قيل فيه «بزرجمهر الإسلام» وقد نقل عنه الجاحظ كثيرًا من آثاره، توفي سنة ٢١٥هـ.

مُسْتَمِلِيك،[1] ومالك بن أَنس مُستفتيك،[2]وأنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين،[3] وحَدّ الماهيّة، وبين الكيفيّة والكمية[4]، وناظر في الجوهر والعرَض[5]، وميّز الصحة من المرض، وفكّ المعمَّى[6] وفصل بين الاسم والمسمّى[7]، وضرب وقسّم، وعدل وقوّم[8]، وصنف الأسماء والأفعال، وبوّب الظرف والحال، وبنى وأعرب، ونفى وتعجّب، ووصل وقطع، وثنّى وجَمع، وأظهر وأضمر، واستفهم وأخبر[9]، وأهمل وقيّد[10]، وأرسل وأسند[11]، وبث ونظر، وتصفّح الأديان، ورجَح بين مذهبي ماني وغَيلان[12]، وأشار بذبح الجَعد[13]، وقتل

(١) أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ شيخ كتاب العربية وإمام الفصحاء والمتكلمين في شتى الفنون من أدب ودين وحيوان ونبات وفلسفة وضرب به المثل فقيل: «مما فضّل الله به أمة محمد عليه السلام على غيرها من الأمم: عمر بن الخطاب في سياسته والحسن البصري في علمه ، والجاحظ في بيانه» ومن أعظم كتبه الباقية الخالدة: البيان والتبيين والبخلاء، والحيوان. توفي سنة ٢٥٥هـ.

(٢) مالك بن أنس أحد الأئمة الأربعة وإمام دار الهجرة وصاحب كتاب الموطأ، ضُرب به المثل في العلم والورع فقيل «لا يفتى ومالك بالمدينة» ومن كلامه: «إذا ترك العالم قول «لا أدري» أصيبت مقاتله، ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يقذفه الله في القلب توفي سنة ١٨٩هـ.

(٣) البراهين: الأدلة: القوانين، الصور الكلية التي تتعرف بها أحكام جزئياتها.

(٤) الماهية: الصورة الذهنية للشيء في الفكر، الكيفية: التركيب والتكوين، الكمية : الحجوم والأقدار.

(٥) الجوهر: الجسم أو الطبيعة أو الأصل، والعرض: الصفات الطارئة والأحوال المتعاقبة.

(٦) في نهاية الأرب والمجموعة الأدبية «وبين الصحة.. » المعمى: اللغز مأخوذ من عميتُ الشيء إذا أخفيته، وعمي الأمر: التبس.

(٧) الاسم: العلم الذي يتميز به كل كائن والمسمى هو الذات التي يطلق عليها هذا الاسم، وللفلاسفة والمتكلمين أبحاث كثيرة في هل الاسم هو المسمى أو غيره.

(٨) في سرح العيون «وصرف وقسم» وعقب عليها ابن نباتة بأنه لم يدرك المعنى المطلوب، وقد آثرنا رواية نهاية الأرب، ومعناها أنه أتقن الحساب من ضرب الأعداد وقسمتها. وعدَّل وقوم ذكر ابن نباته أيضًا أنه لم يفهم المقصود منها، ولعل المعنى: إنه وازن بين الأشياء وأدرك قيمة كل منها أي أنه دقيق النظر بارع التمييز خبير في تقدير ما يقع عليه نظره.

(٩) الاسماء والأفعال، الظروف والأحوال، والبناء والإعراب، والنفي والتعجب، وهمزتا الوصل والقطع، والإفراد والتثنية والجمع، وإظهار الضمير وإضماره، كلها اصطلاحات نحوية وصرفية لها أبواب وأحكام معروفة في كتب النحو والصرف، أما الخبر والاستفهام (أو الخبر والإنشاء) فهما من اصطلاحات علم المعاني، وفي نهاية الأرب. و«ابتدأ وأخبر» فيكونان من اصطلاحات النحو أيضًا يقصد بهما: المبتدأ والخبر.

(١٠) في نهاية الأرب «واستفهم وأهمل وقيد» وقد آثرنا رواية سرح العيون، أهمل: كتب الحروف بدون تنقيط وتشكيل، وقيَّد: ضبطها بهما، أو أهمل وقيد: ترك واختار، أو أسقط وحفظ، أو خطأ وصوّب.

(١١) أرسل: روَى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يذكر سلسلة النسب حتى تصل إليه، بل تصل إلى أحد التابعين، وأسند: روى الأحاديث مسلسلة راو عن راو حتى تصل إلى من سمعها عن النبي عليه السلام.

(١٢) ماني : ظهر في أيام سابور بن أردشير ملك الفرس وادعى النبوة وتبعه خلق كثير، وكان يزعم أن العالم خلقه اثنان: إله الخير وهو النور، وإله الشر وهو الظلام، غيلان بن يونس: ظهر في زمن هشام بن عبدالملك وهو أول من تكلم في القدر وخلق الإنسان، قتله هشام بن عبدالملك. ولا وجه للموازنة بين المذهبين.

(١٣) الجعد بن درهم مولى بني الحكم، كان يقول بخلق القرآن، قتله خالد بن عبدالله القسري والي العراق من قبل هشام بن عبدالملك لما خشيَ تفاقم شره.

بشار بن برد[1]، وأنك لو شئت خرقتَ العادات، وخالفت المعهودات[2]، فأحلتَ البحار عذبة، وأعدت السِّلام رطبَة[3]، ونقلت غدًا فصار أمسًا، وزدت في العناصر فكانت خمسًا[4]، وأنك المقول فيه: «كل الصيد في جوف الفَرا[5]» و:

لـيـس عـلـى الـلـه بمـسـتـنـكـر
أن يـجـمـع الـعـالـم فـي واحـدِ[6]

والـمَعنيُّ بقول أبي تمام:

فـلـو صَـوّرتَ نـفـسَـك لـم تـزِدهـا
على مـا فـيـكَ مـن كـرم الطَبـاعِ[7]

---

(١) بشار بن برد الشاعر المشهور من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكان متهمًا بالمجون والفسق والزندقة والتعصب للفرس ضد العرب، أمر المهدي بضربه بالسياط حتى تلف سنة ١٦٨هـ.

(٢) خرق العادات: أتى بما يخالف الطبيعة مثل المعجزات.

(٣) السِّلام: جمع سَلِمة وهي الحجرة الصلبة. ثم أخذ الكاتب يعدد أمثلة خرق العادات، ومخالفة المعهودات، مثل تحويل البحار الملحة إلى عذبة، وتحويل صلابة الصخور إلى ليونة وطراوة، وتزعم الأساطير العربية أن الحجارة كانت ليّنة على عهد نوح عليه السلام.

(٤) في المجموعة الأدبية (فصارت خمسًا) العناصر عند الأقدمين أربعة: النار والهواء والماء والتراب، وهي ليست عناصر في نظر العلم الحديث بل مركّبات والعناصر في نظر العلم الحديث قد جاوزت التسعين.

(٥) الفرا: الحمار الوحشي، وسبب المثل: أن جماعة خرجوا للصيد فاصطاد أحدهم أرنبًا والثاني ظبيًا، والثالث حمارًا(*)، فسخر الأولان من الثالث، فقال: «كل الصيد في جوف الفرا» أي إن ما صدته يشتمل على ما عندكما وليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي، وأستأذن أبوسفيان على النبي صلى الله عليه وسلم فحجبه قليلاً، فلما عاتبه قال له: «يا أبا سفيان أنت كما قيل: كل الصيد في جوف الفرا» أي إذا حجبتك قنع كل محجوب.

(٦) في سرح العيون: «وليس لله بمستنكر» البيتُ لأبي نواس في مدح الفضل بن يحيى من قصيدة يقول فيها مخاطبًا الرشيد:

قُـولاَ لـهـرون إمـام الـهـدى
عند احـتـفـال المجلس الحـاشـدِ:
أنتَ – على مـا بك من قـدرة –
فلست مـثل (الفـضل) بالواجـد
لـيس عـلـى الـلـه بمـسـتـنـكـر
أن يجـمـع الـعـالـم في واحـدِ

(٧) البيت لأبي تمام من قصيدة في مدح مهدي بن أصرم يقول فيها:

جـعلتَ الجـود لألاء المسـاعي
وهل شـمس تكون بلا شـعـاع؟
ورأيك مـثل رأي السـيف صـحت
مـشـورة حـدِّه عند المصـاع
ولـو صـورت نفـسك لم تزدهـا
على مـا فـيك من كـرم الطبـاع

(*) المقصود حمار وحش.

والمراد بقول أبي الطيّب:

ذُكِـــرَ الأنـامُ لنـا فكان قـــصـــيـــدةً

كنتَ البــديع الفـــردَ من أبيـــاتهـــا[1]

فكدَمَتْ في غير مَكْدَمٍ[2]، واستَسْمَنتْ ذا ورم[3]، ونَفَخَتْ في غير ضَرَمٍ[4]، ولم تجد لرمح مَهزًا، ولا لشفرةٍ مَحَزًا[5]، بل رَضيَتْ من الغنيمة بالإياب،[6] وتمنت الرجوع بخُفَيْ حنينٍ[7]، لأني قلت:

لقـد هان من بالت عليـه الثَّـعـالب[8]

---

(١) البيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها محمد بن أحمد بن عمران يقول فيها:

أعـــيـــا زوالك عن مـــحـل نلتَـــه
لا تخـــرجُ الأقـــمـــارُ عن هالاتهـــا
ذُكِـــرَ الأنام لنا فكان قـــصـــيـــدة
كنتَ البـــديع الفـــرد من أبيـــاتهـــا

(٢) الكدم: العض، المكدم: موضع العض، «كدمت في غير مكدم» مثلٌ يضرب لمن يطلب شيئًا لا يتمكن منه.

(٣) لم ترد هذه الجملة في نهاية الأرب، الورم: الانتفاخ، والمعنى مأخوذ من قول المتنبي:

أعـــيـــذها نظرات منك صـــادقـــة
أن تحسب الشحم في من شحمه ورم.

(٤) في نهاية الأرب «ونفخت في غير فحم»، الضرم: التهاب النار، والمعنى مأخوذ من قول عمرو بن معد يكرب:

ولو نـار نفـــخت بهـــا أضـــاءت
ولـكـن أنـت تـنـفـخ فـي رمـــــــــاد

(٥) في سرح العيون «ولم تجد لريح مهزا» وفسرها بأن المرأة المرسلة لم تجد لريح كلامها ما يهزني ويستميلني، ولا لشفرة احتيالها ما يحز ويقطع، وفي المجموعة الأدبية «لرمحك» وقد آثرنا رواية نهاية الأرب، «لم أجد لشفرتي محزًا» مثل يضرب في تعذر الحاجة أي لم أجد مجالاً لعزمي، والمعنى : إنها لم تجد لكلامها تأثيرًا ولا لاندفاعها مجالاً، فما هزّت رمحًا ولا سنت حداً.

(٦) «رضي من الغنيمة بالإياب»: مثل يضرب لمن قنع – بعدما بذل من جهد – بالرجوع إلى بيته سالمًا، وهو مأخوذ من قول امرئ القيس:

وقـــد طوفتُ في الآفـــاق حـــتى
رضـــيتُ من الغنيـــمـــة بالإياب

(٧) كان حنين إسكافيًا ساومه أعرابي على خفين فأغاظه، فوضع حنين في طريقه أحد الخفين، فقال الأعرابي: لو كان معه زميله!! ثم سار قليلاً فوجد الخفَّ الآخر، فعقل بعيره، ورجع ليأخذ الأول، فخرج الإسكافي من مكمنه وأخذ البعير، ورجع الأعرابي بالخفين وأضاع بعيره، فقيل فيه «رجع بخفي حنين» وهو مثل يضرب للخيبة.

(٨) في المجموعة الأدبية ومجمع الأمثال «لقد ذل»، كان غاوي بن ظالم سادنًا لصنم يعبده بنو سليم في الجاهلية، فرأى ثعلبًا أقبل على الصنم وبال عليه، فقال: يا بني سليم والله ما يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، ثم أنشد:

أربٌّ يبـــول الثـــعلبـــان برأســـه؟
لقـد هـان من بالت عليـه الثـعـالبُ.

وذهب غاوي بن ظالم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، فسماه راشد بن عبد ربه، الثعلبان: ذكر الثعالب.

وأنشدتُ:

على أنهـــا الأيام قـــد صـــرنَ كلُّهـــا
عـجـائبَ، حـتى ليس فـيـهـا عـجـائبُ[1]

ونخرتُ وكفرتُ، وعبَست وبَسرتُ[2]، وأبدأتُ وأعدتُ، وأبرقتُ وأرعدتُ، وهمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتَني[3]، ولولاَ أن للجوار ذمةً، وللضيافة حرمةً، لكان الجوابُ في قَذال[4] الدُّمُسْتُقِ، ولكن النَّعلَ حاضرةٌ إن عادت العَقرب[5]، والعقوبةَ ممكنةٌ إن أصرّ

(١) في المجموعة الأدبية «وأنشدت لها»، البيت لأبي تمام من قصيدة يرثي بها غالب بن الصغدي يقول فيها:

وقلتُ أخي قـــالوا أخ ذو قـــرابة؟
فـــقلت لهم: إن الشكولَ أقـــاربُ
صـــديقيَ في رأيي وعـــزمي ومـــذهبي
وإن باعـــدتنا في الأصـــول المناسبُ
عـجـبت لصـبـري بعـده وهو مـيت
وكنت امـــرءا أبكي دمًـــا، وهو غـــائبُ
على أنهـــا الأيام قـــد صـــرن كلهـــا
عـجـائبَ، حـتى ليس فـيـهـا عـجـائب

(٢) النخير: صوت يصدر من الأنف وأكثر ما يكون عند الغضب، الكفر: التبرؤ من الشيء، قال تعالَى: ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾، التعبيس: قطوب الوجه من ضيق الصدر، البسر: التقطيب والعبوس أو القهر، قال تعالى: ﴿ووجوه يومئذٍ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي كالحة تتوقع أن تحل بها كارثة ، قال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة: ﴿ثم نظر، ثم عبس وبسر﴾ وفي سرح العيون «ونخرت وبسرت، وعبست فكفرت» وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية ونهاية الأرب.

(٣) أي هممت بقتل هذه المرأة ولم أنفذهُ، وقد كدت أن أفعله وليتني فعلتُه، وهو شطر بيت لضابئ بن الحارث البرجمي، كان بذيئًا كثير الشرور حبسه عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنه دهم صبيًا بدابته فقتله، ثم خرج من السجن، فاستعار كلب صيد من بني نهشل وماطل في رده ، فألحوا عليه فقال:

فأمكم لا تتركوها وكلبكـــــــم	فإن عقوق الأمهات كبيرُ
إذا اكتنفت من آخر الليل شخصه	يظل له فوق الفراش هرير

فاستعدوا عليه عثمان، فقال له، ويلك ما سمعت أحدًا يرمي امرأة بكلب غيرك، ثم حبسه، فأعد حديدة لقتله فأخذت منه وترك مهملاً في السجن فقال:

هممتُ... ولم أفعل... وكدت... وليتني   تركتُ على عثمان تبكي حلائله

(٤) القذال: جماع مؤخر الرأس، المعنى لولا أنه صار لهذه المرأة حرمة بدخول منزل وضيافتي لفعلت بها فعلَ سيف الدولة بالدمستق وهو بطريق قاد جيشًا من الروم لحرب سيف الدولة فارتد مهزومًا منكسرًا، والمعنى مأخوذ من قول المتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة يقول فيها:

رأى ملك الروم ارتياحك للندى	فقام مقام المجتـدي المتمـلقِ
وكنـــتَ إذا كاتبـتَه قـــبل هذه	كتبت إليه في قذال الدمستقِ

(٥) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية «والنعل حاضرة» وهو مثل مأخوذ من قول الفضل بن العباس المهلبي:

إن عـادت العقـرب عدنـا لهـا   وكانـت النعـل لها حاضـره

الـمُذنبُ، وَهَبْهَا لم تلاحظكَ بعين كليلةٍ عن عيوبك(١)، ملؤها حبيبها(٢)، وحَسَنٌ فيها من تودُّ(٣)، وكانت إنما حلّتكَ بحُلاكَ ووسَمتكَ. بسيماكَ(٤)، ولم تُعِرْكَ شهادةً ولا تكلّفتْ لك زيادةً، بل صَدَقَتْ سن بَكرها فيمـا ذكرتْه عنك(٥)، ووضعت الهِنَاء مواضعَ النُّقب(٦)

---

(١) كليلة: ضعيفة، والمعنى: هب هذه المرأة المرسلة صدقت في ما تحدثت به عنك، وقالت ما اعتقدته فيك «فإن منظرك القبيح يغني عن خبرك» ومن الأحاديث المأثورة «حبك الشيء يعمي ويصم» وهو مأخوذ من قول عبدالله بن معاوية بن عبدالله [بن جعفر](*) بن أبي طالب الهاشمِي:

وأنت أَخِي مـا لم تكن لي حـاجـة
فـإن عـرضت أيقنت ألاَّ أخـا ليـا
وعين الرضى عن كل عـيب كليلة
ولكن عين السّخط تبـدي المساويا

(٢) ملؤها حبيبها: ترى حبيبها كل شيء في الحياة، وهو مأخوذ من قول مجنون ليلى:

أهابكِ إجـلالاً، ومـا بك قـدرة
عليّ ولكن ملء عين حـبـيـبُـهـا
ومـا هجـرتكِ النفس أنك عندها
قليل ولكن قلَّ منك نصـيـبـهـا

(٣) المعنى: إن حبيبها فتان في نظرها وإن كان قبيحًا، وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة:

ولقـد قـالت لأتراب لهـا
ذات يوم – وتعـرّت تبـتـردْ:
أكـمـا يَنْعَـتُنِي تُبْـصـرْنَني؟
عـمـركنّ الله! أم لا يقـتـصـدْ؟
فـتـضـاحكن، وقـد قلن لهـا:
«حـسـنٌ في كل عـينٍ من تـود»
حـسـد حـملنه من أجلهـا
وقـديمًا كـان في الناس الحـسـدْ

ومثل هذا قولهم: «زين في عين والد ولده» و«كل فتاة بأبيها معجبة»

(٤) وسمتك بسيماك: ميزتك بما امتزت به.

(٥) البكر: الفتِيُّ من الإبل، وفي الأمثال «صدقني سنَّ بكره» وهو مثل يضرب في الصدق، وأصله أن رجلاً ساوم أعرابيًا في بعيره، وسأله عن سنه، فقال له: بكر، فقال الرجل «صدقني سن بكره».

(٦) الهناء: القطران، النقب: الثقب الذي تحدثه جرثومة الجرب في الجسم أو الجربُ نفسه، وهو مأخوذ من أبيات قالها دريد بن الصمة، وكان قد مرَّ بالخنساء وهي تطلي بعيرًا لها بالقطران حتى فرغت منه، فنضت ثيابها واغتسلت ودريدٌ يراها ولا تشعر به، فقال فيها:

حـيُّـوا «تماضـر» واربعـوا صـحـبى
وقـفـوا، فـإنَّ وقـوفكم حـسـبي
مـا إن رأيتُ ولا سـمـعتُ بـه
كـاليـوم هانِئَ أينُقٍ جـرْبِ
مـتـبـذلاً تبـدو مـحـاسنه
يضـع الهِناء مـواضع النقبِ

أي يضع الأمور في مواضعها، ثم خطبها فردَّته لكبر سنه، وفي نهاية الأرب «فيما نسبته إليك».

(*) انظر: الأعلام للزركلي. ج ٤ ص ١٣٩. «المراجع»

بما نسبته إليك، ولـم تكـن كـاذبةً فـي مـا أثنت بـه عليـك، فـالـمُعَيديّ تسـمع بـه خيـر من أن تـراه[1].

هَجينُ القَذالِ[2]، أرعَنُ السِّبالِ[3]، طويلُ العُنُقِ والعِلاوةِ[4]، مفرطُ الحُمْقِ والغَباوةِ، جافي الطبع، سيِّئُ الجابة والسّمع[5]، بغيضُ الهيئة، سخيفُ الذهاب والجَيئة، ظاهرُ الوسواس، منتنُ الأنفاس، كثيرُ المعايب، مشهورُ المثالب[6]، كلامك تمتمة، وحديثك غمغمة، وبيانك فَهفهة، وضِحكك قَهقهة، ومشيُك هَرولة، وغِناك مسألة، ودينك زندقة[7]، وعلمك مَخرقة[8]:

مسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَواني
لما أُمهِرنَ إلا بالطَّلاقِ[9]

---

(١) في نهاية الأرب «.... تسمع به لا أن تراه» وهو مثل مشهور، ورد على عدة صور منها: «أن تسمع بالمعيدي، أو: لأن تسمع بالمعيدي، والمختار «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، ويُروى لا أن تراه» وهو مثل يضرب لمن يكون خبره خيرًا من منظره، وهو مثل قاله النعمان، لأن شقة بن ضمرة كان يغير على ماله ويطلبه فلا يقدر عليه، فأمّنه – وكان يعجبه ما يسمعه عنه – فلما رآه قال: «تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه» فقال: أبيت اللعن!! إن الرجال ليسوا بجَزرٍ وإنما يعيش المرء بأصغريه قلبه ولسانه فصارت مثلاً، والجزر: الشاء السمينة.

(٢) الهجين: من في نسبه هجنة أي قبح من جهة أمه، والمقرف من في نسبه قبح من جهة الأب، القذال: جماع مؤخر الرأس، هجين القذال: لئيم النسب يبدو لؤم نسبه من النظر إلى قذاله إذا أدبر، لأنه يخفض رأسه ذلاً وحياء أو لأنه كثير الفرار في الحروب.

(٣) السبال: جمع سبلة وهي الشارب: أرعن السبال: أحمق الشارب وخصت الرعونة به لأنه مظهر الرجولة.

(٤) العلاوة: أعلى الرأس والعرب يعدون طول الرأس والعنق من دلائل الحمق.

(٥) الجابة: الإجابة، وفي الأمثال: «أساء سمعًا فأساء جابة»، وفي المجموعة الأدبية «سيئ الإجابة».

(٦) المثالب: النقائص.

(٧) التمتمة من معايب النطق المعدودة، قال الجاحظ: إنها التردد في التاء ،الغمغمة: أن يصدر الصوت مسموعًا، ولا تظهر فيه مقاطع الحروف، القهقهة: الضحك الشديد، وهو خصلة منافية للوقار، والأفضل فيه التبسم، الهرولة: ضرب من العدو فوق المشي ودون الجري، وهي مشية تنافي الاتزان وتشعر بالنزق، وشبيه بهذا قول المتنبي في هجاء إسحق بن كيغلغ من قصيدة:

وارفق بنفسك!! إن خلقك ناقصٌ   واستر أباك، فإن أصلك مظلمُ
وغناك مسـألة وطيشك نفخةٌ   ورضـاك فَيْشَلَةٌ، وربك درهمُ

(٨) الزندقة: الميل إلى وثنية الفرس القديمة نسبة إلى كتابي «زند وزندين» المنسوبين إلى زرادشت ومزدك، ثم أصبحت الزندقة تطلق على كل من خرج على شريعة الإسلام، المخرقة: نوع من التحايل لإظهار البراعة إيهامًا للناس بأنها كرامات.

(٩) البيت لأبي تمام من أبيات يهجو بها الأعمش يقول منها:

دع ابن الأعمش المسكين يبكي   لـداء ظلَّ منه في وثاقِ
كحلتُ بقبح صورته، فأضحى   لها إنسان عيني في السياقِ
مساوٍ لو قسمن على الغواني   لمـا أمهـرن إلا بالطلاق

حتى إن باقلاً موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِنَ بك[١] وهَبَنَّقةَ مستحقٌّ لاسم العقل إذا نسب إليك[٢]، [وأبا غُبشانَ محمودٌ منه سَدادُ الفعل إذا أضيف إليك][٣]، وطُوَيْسًا مأثورٌ عنه يُمن الطائر إذا قيس عليك[٤]، فوجودُكَ عدم، والاغتباطُ بك ندم، والخيبةُ منك ظفر، والجنة معك سَقر[٥]، كيف رأيتَ لؤمكَ لكرمي كِفاء؟ وَضَعتَك لشرفي وفاء[٦] وأنَّى جهلتَ أنَّ الأشياءَ إنما تنجذبُ إلى أشكالها؟ والطَّيرَ إنما تقعُ على أمثالها[٧]، وهلا علمتَ أنَّ الشرقَ والغربَ لا يجتمعان؟ وشعرتَ أن (ناديَيْ) المؤمنِ والكافرِ لا

(١) باقل بن عمرو بن ثعلبة الإيادي يضرب به المثل في العيّ يقال: «أعيّ من باقل»، قال أبوعبيدة: بلغ من عيّه أنه اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا وحمله، فسأله شخص عن ثمنه ففتح كفيه، وفرق أصابعه وأخرج لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر فهرب الظبي، قال المعري:

إذا وصف الطائيَّ بالبخل مادرٌ
وعيّرَ قسًّا بالفهاهة باقلُ
فيا موتُ زر إن الحياة ذميمة
ويا نفس جدّي، إن دهرك هازلُ

والطائي: حاتم الطائي المشهور بالجود، ومادر يضرب به المثل في البخل، وقس مضرب المثل في البلاغة.

(٢) آثرنا رواية نهاية الأرب وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية «.. مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك»، هبنّقة: هو يزيد بن ثروان أحد بن قيس بن ثعلبة، ويسمّى أبا الودعات لأنه نظم ودعًا لنفسه في سلك وجعله في عنقه علامة لنفسه لئلاً يضيع، ففافله أخوه يومًا ولبس العقد، فارتبك هبنقه وقال له: أنت أنا، فترى من هو أنا؟

(٣) لم ترد هذه الجملة في سرح العيون ولا في المجموعة الأدبية، وقد زدناها عن نهاية الأرب، وأبوغبشان مضروب به المثل في الحماقة، ذكر الميداني في مجمع الأمثال: أن أبا غبشان خزاعي كان يلي سدانة الكعبة، فخدّعه قصي وأسكره، ثم أشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر، وأشهد عليه ودفعها لابنه عبدالدار، وطيّر به إلى مكة، فلما أشرف عليها رفع عقيرته صائحًا: معاشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم، فلما أفاق أبوغبشان من سكره ندم ولات حين مندم، فقال الناس: «أحمق من أبي غبشان» قال الشاعر:

أبوغبشان أظلمُ من قصي
وأظلم من بني فهر خزاعة
فلا تلحوا قصيًّا في شراه
ولوموا شيخكم إن كان باعة

(٤) اليُمن: البركة، طويس: هو عيسى بن عبدالله مولى بن مخزوم كان ماجنًا ظريفًا، يقال إنه أول من غنى على الدف بالعربية، ويضرب به المثل في الشؤم لأنه ولد يوم قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفطم يوم مات أبوبكر، وختن «وقيل بلغ الحلم» يوم قُتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد له يوم مقتل عليٍّ وكانت أمه تمشي بالنميمة بين نساء الأنصار.

(٥) المعنى: حياتك مثل فقدك، والفرحة بك تجلب الندم، والفشل منك ربح عظيم، والجنة في صحبتك تنقلب إلى الجحيم.

(٦) اللؤم: الدناءة في الأصل وفي الأخلاق، كفاء: مماثل ومناظر أو مجاز، الوفاء: العدل أو الطول، المعنى: كيف ترى لؤمك لكرمي مماثلاً؟ وذلتك لشرفي معادلة أو مطاولة.

(٧) في نهاية الأرب وسرح العيون «تقع على أُلّافها» وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية، أنَّى: كيف؟ المعنى: كيف تجهل أن الشيء ينجذب إلى مثيله؟ والطير تقع على نظائرها؟ فلا عجب إذا ملتُ إلى شكلي وإلفي، ولستَ منهما.

يتقاربان(١)؟ [وقلتَ]: الخبيثُ والطَّيِّبُ لا يستويان(٢) وتمثلت:

أيهـــا المنكحُ الثُّـــريّا سُـــهَـــيْــــلاً
عَــمْــرَكَ اللّه كــيف يلتــقــيــانِ(٣)؟

وذكرتَ أني عِلْقٌ لا يُباعُ ممن زاد،(٤) وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرضٌ لا يصيبهُ إلاّ من أجاد(٥)، ما أحْسَبُكَ إلاّ كنت قد تهيّأتَ للتهنئة، وترشّحتَ للترفئة(٦)، [أوْلَى لكَ!!](٧) ولولا أن جَرْحَ العَجماءِ جُبار(٨)، للقيتَ من الكواعب ما لاقى يسار(٩)، فما هَمَّ

(١) كلمة (ناديي): زيادة من نهاية الأرب، وفيه «أن ناديي المؤمن والكافر لا يتراءيان» وقد آثرنا رواية سرح العيون والمجموعة الأدبية، النادي والنديّ والندوة: مجلس القوم ومكان حديثهم وتشاورهم ما داموا فيه والمعنى: لا سبيل إلى تقاربنا كما لا سبيل إلى اجتماع الشرق والغرب، ولا يمكن اتفاقنا كما لا يمكن اتفاق مجلس المؤمنين والكفار.

(٢) نَظَرَ الكاتب إلى قوله تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ وما بين القوسين ساقط من المجموعة الأدبية.

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة في الثريا بنت عبدالله حينما تزوجها سهيل بن عبدالعزيز بن طلحة أو سهيل بن عبدالرحمن بن عوف الزهري ورحل بها إلى الشام فقال عمر «وفي البيتين تورية بنجمي الثريا وسهيل»:

أيها المنكح الثريا سُهيــلاً ... عمرك الله كيف يلتقيان؟
هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني

عمرك الله: قسم ببقاء الله ودوامه، أو سألت الله تعميرك، وعلى هذا المعنى يكون غير قسم.

(٤) العلق: الثمين لا يباع ممن زاد أي لمن زاد، فمن بمعنى اللام من استعمال الفقهاء كما في شرح النووي على مسلم.

(٥) الغرض: الهدف.

(٦) الترشيح: الاستعداد للشيء، الترفئة: التهنئة بالزواج من قولهم للمتزوج: «بالرفاء والبنين» أي بالالتئام والاتفاق وجمع الشمل، ومنه قول عمر بن الخطاب لما أصبح معرسًا بأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من زوجته السيدة فاطمة: رفئوني، ثم صارت الترفئة عامة في الزواج وغيره، وفي الحديث: «إذا رفأ أحدكم أخاه ليقل: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير».

(٧) زيادة واردة في نهاية الأرب، أولى لك: تهديد ووعيد أي قاربك ما يهلكك، أو الشر أقرب إليك، أو اندم على ما فاتك، أو كلمة تلهف يقولها الرجل إذا أفلت من مصيبة، أو دنوت من الهلكة، قال تعالى: ﴿فلا صدَّقَ ولا صلى ولكن كذب وتولى، ثم ذهب إلى أهله يتمطى، أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾. أي قربت من الوبال، قالت الخنساء:

هممتُ بنفسَي كلَّ الهموم ... فأولى لنفسيَ أولى لها.

(٨) «جرح العجماء جبار» حديث شريف العجماء: البهيمة، جبار: هدر وعدم القصاص في جرح البهيمة لأنها لا تعقل، ويضرب به المثل لما يستهان به.

(٩) يسار: عبد أسود دميم يقال له يسار الكواعب لأن النساء كن يضحكن منه لقبحه، فكان يظنهنّ معجبات به، حتى نظرت إليه امرأة مولاه (أو بنته) فضحكت فطمع فيها وراودها، فقالت له: مهلاً فإن للحرائر طيبًا أشمك إيّاه، فقال: هاتيه، فأتت بطيب وموسى فأشمته الطيب ثم أنحت بالموسى فقطعت أنفه، فصاح!! فقالت له «صبرًا على مجامر الكرام» فضرب به المثل، ولما ماتت امرأة الفرزدق أراد الخطبة إلى بسطام بن قيس، فقال جرير يهجوه:

فـــهل أنت– إذ مـــاتت أتانك – راحل
إلى آل بسطام بن قـــيس بخـــاطب؟
وإني لأخْـــشَى – إن رحلتَ إليــــهم –
عليكَ الذي لاقى يســـــار الكواعبِ

إلاّ بدون مـا همـمتَ به، ولا تعـرّض إلا لأيْسَـرِ مـا تعـرّضتَ له[1]، أين ادعـاؤُكَ رواية الأشعار؟ وتعاطيك حفظَ السِّيَر والأخبار؟ [أما ثابَ إليك قولُ الشاعر][2] :

بنـو دارمٍ أكـــفــاؤُهـم آلُ مِـــسْــمَعٍ
وتُنْكَحُ في أكـــفــائِهـــا الحَـــبِطَاتُ[3]

وهلا عشَّيتَ ولم تغترّ[4]، وما أَمَّنك أن تكون وافدَ البراجم[5]؟ أو ترجعَ بصحيفة المتلمِّس[6]؟ أو أفعلَ بك ما فعله عَقيل بن عُلَّفَةَ بالجُهَنيِّ، إذْ جاءه خاطبًا، فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النّمل[7]؟ ومتى كثُر تلاقينا؟ واتَّصَلَ ترائينا؟ فيدعوني إليكَ ما دعا

---

(١) آثرنا رواية نهاية الأرب وفي سرح العيون «فما هَمَّ إلا ببعض ما به هممت، ولا تعرض إلا لأيسر ما له تعرضت».

(٢) ما بين القوسين ساقط من نهاية الأرب، ثاب إليك: رجع إلى ذهنك.

(٣) البيت للفرزدق، ومعناه: إن بني دارم لا ينبغي أن يصاهرهم إلا بنو مسمع فأما بنو الحبطات فلا، بنو دارم: من ذرية دارم وهو مالك بن حنظلة التميمي بيته أكبر بيوت بني تميم، آل مسمع: بيت بكر بن وائل من بني قيس بن ثعلبة، الحبطات: بنو الحارث بن مالك بن عمرو بن تميم، وفيهم يقول الشاعر:

وجـــدنا النِّيب مـن شــــر المطايا
كـــمـــا الحـــبطاتُ شــــرُّ بني تميم

(٤) في الأمثال: عش ولا تغتر» وهو مثل يضرب للاحتياط والأخذ بالثقة، ومعناه: هلاّ رفقت بإبلك فأطعمتها بالعشي لأنك لا تضمن ما يكون في غد، عشَّى: رفق.

(٥) في سرح العيون والمجموعة الأدبية «وما أشك أنك تكون وافد البراجم» وقد آثرنا بعض الروايات في نهاية الأرب. من الأمثال: «أشقى من وافد البراجم» والبراجم خمسةٌ من أولاد حنظلة، وسبب المثل أن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلاً في ثأر أخ له، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة، فمرّ رجل اسمه عمار (أحد البراجم) فشم رائحة اللحم فظنه طعامًا فأتى إليه، فأكمل الملك به المائة، وعيرت بنو تميم بحب الطعام بسببه، قال الشاعر:

إذا ما مات ميْت من تميم وسرك أن يعيش فجئ بزادِ

(٦) «صحيفة المتلمس» تضرب مثلاً لمن يحصل له الضرر من حيث يتوقع النفع، والمتلمس: شاعر مُجيد من شعراء الجاهلية، وفد مع ابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة، فحنق عمرو عليهما يومًا، فلم يظهر لهما الموجدة خوف هجائهما، وأرسل كلاً منهما بكتاب إلى عامله بالبحرين يأمره بقتلهما، وأوهمهما أنه كتب لهما بصلة من عامله، ففتح المتلمس صحيفته وعرف ما بها فمزقها، ونصح طرفة أن يفعل كما فعل فأبى وظن أن الملك لا يجرؤ على هذا خيفة قومه، فلاقى مصرعه.

(٧) عقيل بن علَّفة اليربوعي من شعراء الدولة الأموية، كان أهوج جافيًا شديد الاعتزاز بنسبه عنيف الغيرة، وكان لا يرى أحدًا كفئًا لمصاهرته، خطب عبدالملك بن مروان إحدى بنات عقيل لأحد أبنائه فأطرق ساعة، ثم قال: إن كان ولا بد فجنبني هُجناءك، أي أولاد الإماء، ودخل على عثمان بن حيان وإلي المدينة فقال له: زوجني بعض بناتك، فقال عقيل: أبكرة من إبلي تعني؟ فنهره عثمان، وكان له جار جهني تقدم لخطبة ابنته وكان أحمر اللون، فغضب عقيل وكتَّفه ودهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل فآذته أشد الإيذاء، وقال فيه:

رددتُ صحيفة القرشي لما أبت أعراقه إلا احمرارا

ابنةَ الخُسِّ إلى عَبْدها من طول السَّواد، وقُرب الوِساد[١]، وهل فقدتُ الأراقمَ[٢] فأنكحَ في جَنْبٍ؟ أو عَضَلَني[٣] هَمّامُ بنُ مُرّة فأقول: «زوجٌ من عُودٍ خيرٌ من قُعودٍ».

ولعمري!! لو بلغتُ هذا المبلَغ لارتفعتُ عن هذه الحِطّة، وما رضيت بهذه الخُطّة[٤]، فالنار ولا العار، والمنيّة ولا الدنيّة، والحُرّة تجوع ولا تأكل بثدييها[٥]:

فكيف، وفي أبناء قومك مَنكَحٌ
وفتيانُ هِزّانَ الطوالِ الغرانِقةْ[٦]

☆☆☆☆☆

(١) ابنة الخس: هي هند بنت الخُس بن حابس الإيادي، وكانت تعد من حكيمات نساء العرب، ولكنها زنت بعبدها فلما سئلت: ما حملك على الزنى، قالت: قرب الوساد وطول السواد، وزاد بعضهم في حديثها «وحب السِّفاد» لأن أباها كان قد منعها من الزواج. السَّواد: السرار يقال ساودته إذا أسررتُ إليه كلامًا وأسرّ هو إليّ كلامًا، وفي الحديث الشريف: «السواد من السحر».

(٢) الأراقم: حي من تغلب، جنب: حيّ من اليمن، وقد أشار بهذا إلى قول مهلهل بن ربيعة لما رحل عن قومه بعد أن أضنتهم حرب البسوس، ونزل في طريقه على حي من اليمن فخطبوا إليه ابنته، وساقوا إليها جلودًا من أدم فقال:

أعزز على تغلبٍ بما لقيتْ ... أختُ بني الأكرمين من جَشَمِ
أنكحها فقدُها الأراقم من جنب ... وكان الحِباء من أَدَمِ

(٣) عضل الوليُّ فتاته: منعها من الزواج، عضل همامُ بن مرة بن ثعلبة بناته الأربع عن الزواج، فاستمع إليهنّ مرة وهن لا يعلمن، فسمع كلاً منهن تتمنى الزواج من رجل يكون متصفًا بصفات خاصة ذكرنها، إلا الصغرى فإنها صمتت، فلما ألحتّ عليها أخواتها بأن تذكر صفات الزوج الذي تتمناه، قالت: «زوجٌ من عود خيرٌ من قعود» فصارت مثلاً، ولما سمع أبوهن هذا الحديث أسرع في تزويجهن.

(٤) في سرح العيون والمجموعة الأدبية «.. ولا رضيت بهذه الخطة» وقد أخذنا برواية نهاية الأرب، والمعنى: وحياتي لو بلغ بي الأمر مبلغه لارتفعتُ عن هذه المذلة ولم أرض بهذه السبة.

(٥) في المجموعة الأدبية «من كد ثدييها» أمثلة ثلاثة تضرب لمن تؤثر التلف على قبح السيرة، فالحر يفضل التعذيب بالنار على احتمال العار، ويؤثر الموت على الذل، والمرأة الشريفة الحرة ترضى بالجوع ولا ترضى أن تتجر بشرفها وكرامتها، أو تكون مرضعًا بمنزلة الخادم.

(٦) البيت للأعشى، هزان بن يقدم: بطنٌ من العرب، الغرانقة: جمع غرنوق أوغرنيق وهو الشاب الأبيض الجميل، تزوج الأعشى امرأة من عنزة فلم يرضها، فطلقها وقال فيها من أبيات:

أيا جارتي بيني، فإنك طالقةْ
كذاك أمور الناس غادٍ وطارقةْ
وبيني حصان الفرج غير ذميمة
وموموقة فينا كذاك ووامقةْ
وذوقي فتى قوم، فإنِّيَ ذائقٌ
فتاة أناس مثلما أنت ذائقةْ
وكيف؟ وفي شبان قومك منكح
وفتيانِ هزانَ الطوال الغرانقةْ

وفي سرح العيون «فقد كان في أبناء قومك منكح»، وفي المجموعة الأدبية «في أبناء عمي».

وما كنتُ لأتخطّى المسكَ إلى الرَّماد، ولا لأمتطي الثَّورَ بعد الجواد[1]، فإنما يتيمَّمُ من لم يجد ماء، ويرعى الهشيمَ من عدم الجَميم[2]، ويركب الصّعب من لا ذَلولَ له[3]، ولعلّك إنما غرّك مَنْ علمتَ صَبوتي إليه، وشهدتَ مُساعفتي له، من أقمار العصر، ورياحين المِصر[4]، الذين هم الكواكبُ عُلُوَّ هِمَمَ، والرياضُ طيبَ شيم:

مَنْ تَلْقَ منهمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ
مِثْلَ النُّجومِ التي يَسْري بها السَّاري[5]

فيحِنُّ قِدْحٌ ليس منها[6]، ما أنت وَهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلاّ واو عمرٍو

(١) في سرح العيون والمجموعة الأدبية «ولا أمتطى» وفي نهاية الأرب «دون الجواد»، المعنى: ما كنتُ لأترك فتيان قومي لأنصرف إليك، مع أنّ نسبتك إليهم كنسبة الرماد إلى المسك والثور إلى الجواد، قال المتنبي:

ومن ركب الثورَ بعد الجوا
دِ أنكر أظلافَه والغَبَبْ

الغبب: اللحم المتدلي تحت الحنك.

(٢) في المجموعة الأدبية «فإنما يتيمم من لا ماء له»، الهشيم: النبات اليابس المتكسر، والجميم: النبت الكبير أو الذي نهض وانتشر: أو الذي طال بعض الطول ولم يتم نموه، والمعنى: يرعى النبات المتكسر من عدم النبات الأخضر الغض، وفي سرح العيون «من عدم الجميم»، وشبيه بهذا قول أبي علي البصير:

لعمر أبيك ما نُسب المُعلَّى
إلى خير، وفي الدنيا كريمُ
ولكنّ البلادَ إذا اقشعرَّتْ
وصُوِّحَ نبتُها رُعيَ الهشيمُ

(٣) الصعب من المطايا: الجامح، والذلول منها: السهل القياد.

(٤) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية «وريحان الصبر»، الصبوة: الميل والشوق، المصر: المدينة.

(٥) البيت من شعر عبيد بن العرندس في مدح بني بدر الغنويين من أبيات يقول منها:

هينون لينون أيسارٌ ذوو كرمٍ
سُوّاس مكرمة أبناء أيسارِ
من تلق منهم تقل لاقيتُ سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

(٦) من الأمثال «حن قدح ليس منها» القدح: أحد قداح الميسر، وإذا كان أحد القداح من غير جوهر القداح ثم أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها فيعرف أنه ليس منها، ويضرب للرجل يفتخر بقبيلة ليس منها أو يتمدح بما ليس فيه، وتمثل به عمر بن الخطاب حين أراد النبي صلى الله عليه وسلم قتل عقبة بن أبي معيط، فقال عقبة: أأقتل من بين قريش؟ فقال عمر: حن قدح ليس منها» وفي المجموعة الأدبية وسرح العيون «نحن قدح».

وفيهم(١)، وكالوَشيظة في العَظم بينهم(٢)، وإن كنتَ إنما بلغتَ قَعر تابوتِكَ(٣)، وتجافيتَ [لقميصكَ] عن بعض قُوتِكَ،(٤) وعطّرتَ أردانَكَ، وجَرَرْتَ همْيانَكَ(٥)، واختلْتَ في مِشيتكَ، وحذفتَ فُضولَ لِحيتك(٦)، وأصلحتَ شاربك، ومطَطتَ حاجبك، ورقّقتَ خطَّ عِذارك(٧)، وأستأنفتَ عَقْدَ إزارِكَ(٨)، رجاء الاكتتابِ(٩) فيهم، وطمعًا في الاعتداد منهم(١٠)، فظَننتَ

---

(١) المعنى إنك لست منهم ، فأنت مثل الواو التي تلحق في الكتابة باسم عمرو، وليست من حروفه، والمعنى مأخوذ من قول أبي نواس في أشجع السلمي:

أيهـا المدعي سليـمـا سـفـاهًا
لست منهـا ولا قـلامـة ظُفْـرِ
إنمـا أنـت مـن سـليـم كـواوٍ
ألحـقت في الهـجـاء ظلمـا بعـمـرو

ويروى «قل لمن يدعي ولاء سليم» وفي سرح العيون «وأنّى تقع منهم» وقد آثرنا رواية نهاية الأرب.

(٢) الوشيظة: قطعة عظم تكون زائدة عن العظم الصميم، أو قطعة خشب يُشعب بها القدح، وهم وشيظة في قومهم أي حشو فيهم، قال الحسين رضي الله عنه لعمرو بن العاص: «وغلت في قريش، وإنما أنت منها كالوشيظة في العظم».

(٣) لعل معناها: لازمت منزلك، واختفيت فيه معظم وقتك بخلاً، حتى لا تتورط في النفقات، أو لعله: أتيت بآخر ما عندك، وأنفقت آخر ما تملك لتظهر بمظهر الثراء.

(٤) عبارة (لقميصك) زيادة من نهاية الأرب، والمعنى: تنازلت عن بعض طعامك لتظهر بقميص جديد توهم به الناس أنك ثري، أي جعت لتتزين.

(٥) الأردان: أكمام القميص، الهميان: السراويل أو كيس يشدّه الإنسان في وسطه لحفظ الدراهم، قال الشاعر:

يشـد همـيـانه على عـدمٍ
وذاك من حـمـقـه ومن تِيـهِـه

والمعنى: عطرت ملابسك، وسحبت ذيول التيه والكبرياء، أو سحبت كيس النقود إظهارًا للثروة والجاه.

(٦) اختال في مشيته: تبختر وتمايل فيها تيهًا وكبرًا، وحذف فُضول لحيته: قص ما تناثر أو شذ فيها من الشعر ليسويها حتى يبدو في مظهر مناسب.

(٧) مط حاجبيه: تكبر، أو مدهما لجانبي الوجه بقصد الزينة كما تفعل بعض السيدات الآن. في نهاية الأرب «ورققتَ خط عذارك» العذار: منبت اللحية من الخدين، والمعنى: إنك سويت مسيل لحيتك في أعلى خديك وجعلتها رقيقة خفيفة مبالغة منك في الزينة.

(٨) الإزار: الرداء، والمعنى: أستأنفت إصلاح ملابسك ومطابقتها لمقتضيات زينتك.

(٩) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية: «رجاء الاكتتانِ فيهم» الاكتتان: التستر أي راجيًا أن تتستر في وسط هؤلاء الفتيان «أقمار العصر ورياحين المصر»، الاكتتاب: الاندماج في عدادهم من اكتتب: كتب نفسه في ديوان السلطان مع الخاصة.

(١٠) الاعتداد منهم: الاندماج في عددهم.

عَجزًا(١)، وأخطأتْ أستُك الحُفرة(٢)، والله لو كساكَ مُحرّقٌ البُردَين(٣)، وحلَّتْكَ ماريةُ بالقُرطين(٤)، وقلّدكَ عمرُو الصَّمصامة(٥)، وحملك الحارثُ على النعامة(٦)، ما شكَكتَ فيك، [ولا تكلمتَ بملءِ فيك]، ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك(٧).

وهبْكَ ساميتَهم في ذِروة المجد والحسب، وجاريتَهم في غاية الظَّرف والأدب(٨)،

---

(١) المعنى منظور فيه إلى قول الخنساء:

وَمَن ظنّ ممن يلاقي الحرو
بَ ألاّ يصاب فقدْ ظن عجزا

(٢) هذا مثلٌ يضرب لمن يطلب أمرًا فيخطئه، أو يتهيأ لمنزلة فلا ينالها.

(٣) محرق هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء الشهير بعمرو بن هند، وسُمّي مُحَرِّقًا لأنه أحرق مائة من بني حنظلة في ثأر أخ له، أما قصة البُردين فخلاصتها أن وفود العرب اجتمعت عند عمرو بن هند فأخرج بُردين من لباسه وقال ليَقُم أعز العرب فليأخذهما، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما قائلاً: العز كله في معد، والعدد في معد، ثم في نزار ثم في مضر ثم في خندف ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا فلينافرني، فسكت الناس، فقال عمرو: هذه عشيرتك فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة ثم أخذ البردين وانصرف.

(٤) مارية بنت ظالم بن وهب الكندي: زوجة الحارث الأكبر الغساني ملك الشام، كان في قرطيها لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك، وقد وصلتا إلى عبدالملك بن مروان فأهداهما إلى ابنته لما زوجها لعمر بن عبدالعزيز، ويقال إنَّ مارية أهدتهما إلى الكعبة.

(٥) في سرح العيون «بالصمصامة» وقد آثرنا رواية نهاية الأرب، والمجموعة الأدبية، عمرو بن معد يكرب الزبيدي من فرسان العرب المعدودين في الجاهلية والإسلام، وقد أبلى في موقعة القادسية أعظم البلاء وله شعر وأخبار مشهورة، والصمصامة: سيفه، ويضرب به المثل في المضاء، يقال إنه توارثه من هدايا بلقيس لسليمان عليه السلام، ويُروى أن عمر بن الخطاب طلبه منه، فبعثه إليه فلم يجده كما سمع، فحدثه في هذا فقال: إنني بعثتُ إليك الصمصامة، ولم أبعث إليك اليد التي تضرب به.

(٦) الحارث بن عباد التغلبي سيد بني وائل، والنعامة اسم فرسه، وكان قد اعتزل حرب البسوس، فلما قتل ابنه فيها اشترك في خوض غِمارها، وقال:

قرّبا مربط النعامة مني
لقحت حرب وائل عن حيالِ
لم أكن من جناتها علم اللـ
ـه، وإني بحرّها اليومَ صالي

(٧) عبارة «ولا تكلمت بملء فيك» زيادة من نهاية الأرب، المعنى: لو كساك محرق البردين، وحلتك مارية بالقرطين.. ما حملتني على الشك فيك، لأن عيوبك أظهر من أن تخفى وأوضح من أن تتوارى خلف التزين والتصنع، وليس لك أن تفتخر بملء فمك لأن معايبك تعقلُ لسانك عن الافتخار، ولن تقدر أن تستر نسبك الوضيع، ولن تكون إنسانًا غيرك فأنت أنت، مهما تزينت وتصنعت.

(٨) المساماة: المباراة في السمو، الذروة: أعلى الشيء، الحسب: ما يعده الإنسان من مفاخره، أو ما يحسبه من مفاخر آبائه، وقيل: الحسب والكرم يكونان في المرء وإن لم يكن له آباء له شرفاء، وقال ابن السكيت مثل هذا، وزاد أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء.

ألستَ تأوي إلى بيتٍ قعيدتُه لَكاعِ[١]؟ إذ كلّهم عَزَبٌ خالي الذِّراع[٢]، وأين من أنفردُ به، ممن لا أُغلَبُ إلاّ على الأقلِّ الأخسِّ منه[٣]، وكم بين من يعـتـمـدني بالقـوّة الظاهرة، والشـهـوةِ الوافرة، والنفس المصـروفـة إليَّ، واللذة الموقـوفـة عليَّ، وبين آخـرَ قـد نَضَبَ غديرهُ، وَنَزَحَتْ بيرُهُ، وذهب نشاطُهُ، ولم يبقَ إلا ضُراطُهُ[٤]؟

وهل يجتمع لي فيك إلا الحَشَفُ وسوءُ الكيلةِ[٥]، ويقترنُ ليَ بك إلا الغُدّةُ والموتُ في بيتٍ سَلوليّةٍ[٦]:

تعــــالى اللـه يا سَلْمَ بنَ عـــمــــروٍ
أذلّ الحِـــــــرصُ أعـنـاقَ الـرِّجـــــــالِ[٧]

مـا كـان أخلقك بأن تَقْـدِرَ بذَرعِكَ[٨] وتربعَ [بذلك] على ظَلْعِكَ[٩] ولا تكونَ بَراقِشَ

---

(١) القعيدة: الزوجة، اللكاع: اللئيمة النفس، قال الحطيئة في هجاء زوجته:

أُطوّف ما أطوف ثم آوي   إلى بيت قعيدتهُ لَكاعِ

والمعنى: هَبْكَ أحرزت جميع الفضائل مثلهم، ألست متزوجًا؟ وكيف أنصرف عن عزب إلى متزوج؟

(٢) العزب: غير المتزوج، خالي الذراع: كناية عن أنه متحرر لا تتعلق به زوجه..

(٣) في سرح العيون «ممن لا غلب إلا على الأقل..» وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية ونهاية الأرب، والمعنى: كيف أوازن بين زوج أنفرد به، وآخر لا أنال منه إلا فضلة غيري من الزوجات؟.

(٤) في نهاية الأرب «قد نزحت بيره ونضب غديره»، نضب غديره: جف مجرى مائه، نزحت بيره: لم يبق بها ماء والمعنى: كيف أنصرف عن الفتَى الفَتيِّ المقصور عليَّ وحدي إلى آخر مسنٍّ ذهبت حيويته وفتر نشاطه وبرحت به العلل والأمراض.

(٥) الحشف: أردأ التمر، الكيلة: اسم هيئة من الكيل، «أحشفا وسوء كيلة»: مثل يضرب لمن يجمع بين خصلتين كريهتين «سوء البضاعة وتطفيف الكيل»، وفي نهاية الأرب «وهل كان يجمع لي فيك إلا الحشف وسوء الكيلة؟».

(٦) غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية» مثل يضرب في خصلتين تجتمعان وكل منهما شر من الأخرى، وسببه: أن عامر ابن الطفيل وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، قال تجعل لي الأمر بعدك، قال لا ليس ذاك لي، إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء، قال فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال لا، فقال عامر وهو منصرف: والله لأملأنها عليك خيلاً جردًا وفتيانًا مردًا، فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعاد عامر ونزل في بيت امرأة من سلول، فلما أصبح ظهرت له غدة كغدة البعير، فلما أحس الموت، قال: «غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية!» فصارت مثلاً لاقتران المرض بالذل والهوان.

(٧) البيت لأبي العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو، ويليه هذا البيت:

هب الدنيا تصير إليك عفوًا   أليس مصير ذلك للزوال؟

(٨) في نهاية الأرب «ما كان أحقك بأن...» وفي المجموعة الأدبية «ما كان أخلقك أن...» ما أخلفك!: ما أجدرك، تقدر بذرعك: تقيس الأمر بجهدك قبل أن تتورط فيه، الذرع: الجهد، ومنه ضاق فلان ذرعًا، وأصل الذرع بسط اليد كأنه جهد في بسطها.

(٩) أربع: أقم، الظلع: الغمز في الشي بما يشبه العرج، «أربع على ظلعك» مثل يضرب لمن يكلف نفسه مالا يقدر عليه، ومعناه: أقم على ضعفك وارفق بنفسك أو اسكت على ما فيك من عيب أو على قدر طاقتك، وفي نهاية الأرب والمجموعة «وتربع على ظلعك».

الدالّةَ على أهلها[١]، وَعنزَ السُّوءِ المُستثيرَةَ بظلفها لِحَتْفِها[٢]، فما أراكَ إلاّ قد سَقَطَ العَشاءُ بك على سِرْحانٍ[٣]، وبكَ لا بظَبيٍ أعْفَرَ[٤]، قد أعذرتُ إنْ أغنيتُ شَيّا وأسْمَعْتُ لو نادَيْتُ حيًا[٥]، [وقرعتُ عَصا العِتابِ، وحذّرتُ سوءَ العِقابِ][٦]:

إنّ العـــصـــا قُـــرِعَتْ لـذي الحِلْمِ
والشيءُ تحـــقِـــرُهُ وقـــد يَنمِي[٧]

---

(١) في سرح العيون «ولا تكن براقش»، على أهلها تجني براقش: مثل يضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره إليه، واختلفت الروايات في سببه، وأصحها: أن براقش كلبة لقوم من العرب أغير عليهم فهربوا، ومعهم كلبتهم براقش، فاتبع المغيرون آثارهم مستدلين بنباح الكلبة حتى أدركوهم فأوقعوا بهم، قال حمزة بن بيض:

لم تكن عن جناية لحقتني … لا يساري ولا يميني رمتني
بل جناها أخٌ عليّ كريمٌ … وعلى أهلها براقش تجني

(٢) في نهاية الأرب والمجموعة الأدبية: «وعنز السوء المستثيرة لحتفها»، ومن الأمثال «الباحثة عن حتفها بظلفها»، وهو مثل يضرب لمن يعين على الإضرار بنفسه، وسببه أن رجلاً أراد ذبح عنز فلم يجد سكينًا، فبينما هو يتطلبها إذ بحثت العنز بظلفها فاستثارت سكينًا فذبحها بها.

(٣) «سقط العشاء به على سرحان»: مثل يضرب لمن أراد غنيمة فقادته إلى نكبة، والسرحان: الذئب، ومثله «سقط العشاء به على متقمر» والمتقمر: الأسد يطلب الصيد في القمراء، والمعنى: أراد أن يتعشى فخرج طالبًا عشاءه فقادته قدماه إلى ذئب افترسه أو أسد بطش به، وقال ابن الأعرابي: سببه أن سرحان بن هزلة كان بطلاً فاتكًا يهابه الناس، فاندفع رجل بإبله يطلب المرعى في وادي سرحان، فهجم عليه سرحان فقتله وأخذ إبله، وقال:

أبلغ نصيحة أن راعيَ أهلها … سقط العشاءُ به على سرحان
سقط العشاء به على متقمر … طلق اليـــدين معـــاود لطعان

في سرح العيون والمجموعة الأدبية: «فما أراك إلا سقط بك العشاء على سرحان» وفي نهاية الأرب «إلا قد سقط العشاء بك على السرحان»

(٤) «به لا بظبي أعفر»: مثل يضرب عند الشماتة، أي نزل به المكروه ونجا منه الظبي، الأعفر: الذي لونه مثل التراب، قاله الفرزدق حينما بلغه نعيُ زياد ابن أبيه:

أقول له – لما أتانِي نعيُّه: … به لا بظبي في الصريمة أعفرا

(٥) المعنى: لقد أبلغت في عذرك لو سمعت نصيحتي وأسمعتك إن كانت بك حياة!! قال دريد بن الصمة:

لقد أسمعت لو ناديت حيًا … ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نار نفخت بها أضاءت … ولكن أنت تنفخ في رمادِ

وفي سرح العيون «أعذرت إن أغنيت..»

(٦) ما بين القوسين زيادة من نهاية الأرب، والمعنى: لقد نبهتك بالعتاب قبل العقاب، وحذرتك سوء العاقبة، فلا عذر لك بعد الآن.

(٧) «إن العصا قرعت لذي الحلم»: مثل يضرب لمن ينتبه إذا نبه وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب، أو قيس بن خالد، أو عمرو بن حممة وقيل عمرو بن مالك، وذلك أنه لما طعن في السن أنكر من عقله شيئًا، فقال لبنيه: إذا رأيتموني خرجت من كلامي وأخذت في غيره فأقرعوا لِي المجنَّ بالعصا، فكانَ إذا فعلوا تنبه إلى صوابه وإليه أشار الحارث بن وعلة في قوله:

وزعمتم ألا حلوم لنا … إن العصا قرعت لذي الحِلْم

وقال المتلمس:

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا … وما عُلّم الإنسان إلا ليعلما

«الشيء تحقره وقد ينمي» مثل يضرب للأمر الصغير يكبر ويستشري أمره، قال الحارث بن وعلة – وقد قتل بعض سادات قومه أخاه – من أبيات:

لا تأمـــنن قومًا ظلمتهمُ … وبدأتهم بالشر والغَشْمِ
أن يأبروا نخلاً لغيرهمُ … والشيء تحقره وقد ينمَي

أي يستولوا على نخل غيرهم فينقلوا طلع التذكير من ذكوره إلى الإناث.

وإن بادَرْتَ بالنّدامَـةِ، ورَجَعْتَ على نفسك بالملامـة، كنْتَ قـد اشـتريتَ العـافيـةَ لكَ بالعـافـيـة منك[١]، وإن قلتَ: «جَـعْـجَـعَـةً، ولا طِحْنًا»[٢]و «رُبَّ صلَفٍ تحتَ الرّاعِدَةِ[٣]»، وأنشدتَ:

لا يُـوئِـسَـنَّـكَ مـن مُـخَـدَّرةٍ
قـولٌ تُـغَـلِّظُـهُ وإنْ جَـرحَـا[٤]

فَعُدْتَ لما نُهيتَ عنه، وراجَعْتَ ما اسْتَعْفَيتَ منه، بعثتُ مَن يزعِجُكَ إلى الخضـراءِ دَفعًا، ويستحثُّكَ نحوها وَكزًا وصَفعًا[٥]، فإذا صِرتَ إليها عَبِثَ أكّاروها بكَ، وتَسلَّطَ نواطيرُها عليكَ[٦]، فمن قَرْعَةٍ مُعْوَجَّةٍ تقومُ في قَفاكَ، ومن فُجْلَةٍ منتنةٍ يُرمى بها تحت خصَاكَ[٧]، [ذلك بما قَدَّمَتْ يداكَ[٨]]، لتذوقَ وبالَ أمرِكَ[٩]وترى ميزانَ قَدْرِكَ[١٠]:

---

(١) المعنى: إذا ندمت على ما فرط منك ولمت نفسك على ما قدمت من إساءات فإنك بهذا تشتري نجاة نفسك بأن تعفينا من إلحاحك وإلحافك..

(٢) الجعجعة: صوت الرحى، الطحن: الدقيق، «جعجعة ولا طحنًا» مثل يضرب لمن يعد أو يتوعد ولا يستطيع الوفاء، ويُروَى: «أسمع جعجعة، ولا أرى طحنًا».

(٣) السحاب الصلف: كثير الرعد قليل الماء، وفي المثل «رُبَّ صلف تحت الراعدة» يضرب لمن يتوعد ثم لا يقدر على التنفيذ، أو للبخيل الغني، أو لمن يكثر الافتخار بلا طائل.

(٤) البيت لبشار بن برد، ومعناه: لا تيأس من الوصول إلى قلب امرأة محجبة وإن أغلظت لك المقال، وبعده:

عسرُ النساء إلى مياسرة والصعب يركب بعدما جمحا

(٥) استعفى: طلب العفو، الخضراء: المزرعة أو اسم ضيعة، استحث الفارس جواده: صاح به أو خبطه برجل أو ضرب، الوكز: الدفع وهو ضرب الظهر، وقيل الضرب بجمع اليد على الذقن أو الظهر، الصفع: الضرب بيد مبسوطة على القفا أو البدن، فإذا كانت الكف مقبوضة لا يسمى صفعًا: والمعنى: إذا عدت إلى وقاحتك وتبجحك وادعائك بعثت إليك من يسوقك إلى الخضراء، ويدفعك بالضرب والصفع المتوالي.

(٦) في نهاية الأرب «صرت بها» الأكارون: الفلاحون جمع أكار، النواطير: جمع ناطور وهو حافظ الكرم والنخل، قال المتنبي في هجاء كافور:

نامتْ نواطيرُ مصرٍ عن ثعالبها فقد بشمنَ ، وما تفنَى العناقيدُ

والمعنى: إذا صرت إلى هذه المزرعة انقضّ عليك فلاحوها وحراسها فأذاقوك الوبال.

(٧) المعنى: ينالك الفلاحون والحراس بالضرب والتنكيل فيضربك أحدهم بالقرعة المعوجة في قفاك حتى تستقيم (وهي لا تستقيم أبدًا)، ويدخل آخر الفجلة في دبرك، حتى يشهروا بك كل تشهير.

(٨) ما بين القوسين ساقط من نهاية الأرب، والمعنى: ذلك بسبب فعلك، والعرب تقول: هذا ما كسبت يداك، أي فعلتاه وإن لم تكن اليد هي الفاعلة، قال تعالى: ﴿ذلك بما قدمت يداك، وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾.

(٩) في نهاية الأرب «كي تذوق..» الوبال: سوء العاقبة، قال تعالى: في شان من قتل الصيد وهو محرم – ﴿ليذوق وبال أمره﴾.

(١٠) وترى ميزان قدرك: أي تعرف مكانك فلا تتعداه.

فــــمـن جَـــــهِلَتْ نفــــسُـــــهُ قَـــدْرَهُ

رأى غَـــــيْــــــرُهُ منـه مــــــا لا يَـرى[1]

****

(١) البيت للمتنبي في هجاء كافور، وقبله:

وأســـودُ مــشــفــره نصـــفُـــه

يـقــــــــال لـه: أنـت بـدر الـدجـى

فــــمــــا كـــــان ذلك ممدحًـــا لـه

ولـكـنـه كــــــان هـجـــــــو الـورى

ومن جـــــهلت نفـــسُـــه قـــدرَه

رأى غـــــيــــره منه مـــــالا يرى

الرسالة الجدية

كتب الشاعر هذه الرسالة من سجنه إلى أبي الحزم بن جهور[(١)]:

يا مولايَ وسيدي الذي وِدادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به[(٢)]، [وامتدادي منه]، ومن أبقاه الله تعالى[(٣)]، ماضيَ حدّ[(٤)] العزم واريَ زَند الأمل[(٥)]، ثابتَ عهد النعمة، إن سلبتني - أعزّك الله - لباسَ إنعامك[(٦)]، وعطّلتني من حَلي إيناسك، [وأظمأتني إلى بَرُود إسعافك[(٧)]، ونفضتَ بي كفَّ حِياطتك[(٨)]]، وغضضت عني طرفَ حِمايتك[(٩)] - بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائي عليك[(١٠)]، وأحسّ الجمَادُ باستنادي

(١) يظهر أن هذه الرسالة وصلت إلينا غير كاملة، بدليل عبارة ابن بسام في الذخيرة: «وله من رقعة خاطب بها ابن جهور من موضع اعتقاله» وبدليل قوله في ثنايا الرسالة: «وفي فصل منها». وقد اعتمدنا في تحقيق الرسالة على الجزء الأول من الذخيرة لا بن بسام ص ٢٩٢- ٢٩٧، كما اعتمدنا على الجزء السابع من نهاية الأرب للنويري ص ٢٩٠ - ٣٠٢، وعلى تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي، وعلى الجزء الثاني من المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله ص ١٧١-٢٠٥.

وقد ذكر الصفدي - في تمام المتون عند شرحه عبارة «وتأولتُ في بيعة العقبة» - هذا النص: «هكذا قاله ابن زيدون، وهكذا أثبته ابن بسام عنه في الذخيرة، وكذا نقلته من خط علي بن ظافر رحمه الله في كتاب نفائس الذخيرة له».

(٢) في الذخيرة ونهاية الأرب «واعتدادي به واعتمادي عليه»، المولى: ابن العم أو الحليف أو المنعم أو المعتق أو العتيق.

(٣) هذه العبارة زيادة في تمام المتون والمواهب الفتحية.

(٤) في الذخيرة ونهاية الأرب «واعتمادي عليه، أبقاك الله ماضي حد العزم».

(٥) ورى الزند: خرجت ناره عند قدحه، والمعنى: جعل الله أملك مهيأ معدًا.

(٦) في المواهب الفتحية «لباس نعمائك». المعنى: إن سلبتني الستر الذي أسدلته عليّ وانتزعت مني ما حليتني به من أنسك وإقبالك (فلا عجب في هذا فقد يغص بالماء شاربه..)

(٧) البرود: البارد، الإسعاف: الإنجاد.

(٨) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب، النفض: الطرح، الحياطة: الإحاطة بالشيء، المعنى: أعطشتني إلى برد إغاثتك ونفضت مني كفّ رعايتك.

(٩) غض طرفه: خفض بصره، الحماية: الوقاية، المعنى: صرفت عني بصرك، وتركت وقايتي، فصرت عرضة للمصائب والآلام.

(١٠) المعنى: لقد أبصر تأميلي لك كل إنسان حتى الأعمى، وسمع به كلُّ امرئ حتى الأصم، يشير بهذا إلى قول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعتْ كلماتي من به صمم

إليك[1] – فلا غَرْوَ[2]: قد يَغَصُّ بالماء شاربُه[3]، ويقتل الدّواءُ المستشفيَ به، ويُؤتَى الحذِرُ من مأمنه[4]، [وتكون منيّةُ المتمني في أمنيتّه[5]، والحَيْنُ قد يسبق جُهدَ الحريص[6]:

كل المصـــــائب قـــــد تمرّ على الفـــــتى
وتهـون، غـيْـرَ شـماتة الحُـسّـادِ[7]]

وإني لأتجلّدُ، [وأُرِيَ الشّامتين أنّي لِرَيب الدهرِ لا أتضعضعُ[8]]، فأقولُ: هل أنا

(١) في الذخيرة «بإسنادي إليك» وكذلك في رواية لتمام المتون، وفي رواية أخرى فيه وكذلك في المواهب الفتحية «باستحمادي إليك»، وقد آثرنا رواية نهاية الأرب.

(٢) لا غرو: لا عجب.

(٣) في الذخيرة «فقد يغص» و«قد» هنا للتقليل مثل قولهم: قد يصدق الكذوب، وقد ينبو الحسام، وقد يبخل الجواد، والمعنى: إن الماء الذي يزيل الغصة قد يكون هو سببًا للغصة، قال الشاعر:

من غُصَّ داوَى بشـرب الماء غـصّـتـه
فكيف يصنع من قـد غُصّ بالماءِ؟

(٤) المعنى: ربما قتل الدواء المريض، وأصيب المحترس من الجهة التي كان يطمئن إليها.

(٥) المنية: الموت، الأمنية: الأمل، قال أبوالعتاهية:

وقـد يهلك الإنسـان من باب أمنه
وينجـو بإذن الله من حـيث يحـذر

استمده من قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

(٦) الحيْن: الموت، قال عدي بن زيد:

قـد يـدرك المبطئ من حظه
والحين قـد يسبق جـهـد الحـريصْ

(٧) ما بين القوسين لم يرد بالذخيرة، والبيت لم يرد في نهاية الأرب، وهو لعبدالله بن محمد بن أبي عتبة المهلبي يعاتب ذا اليمينين من أبيات يقول فيها:

من مـبلغٌ عنيٍّ الأمـيـر رسـالة
محـصـورة عندي من الإنشـاد
وأظن لي منهـا لديك خـبـيـئـة
ستكون عند الزاد آخـر زاد
مـا لي أرى أمـري لديك كـأنه
من ثـقـلـه طـود من الأطـواد
كل المصـائب قـد تمر على الفـتى
وتهـون، غـيـر شـمـاتة الحسـاد

(٨) ما بين القوسين ناقص من الذخيرة، وفي نهاية الأرب «وإني لأتجلد وأري الشامتين أني لا أتضعضع، وأقول...» وهو مقتبس من بيت لأبي ذؤيب الهذلي في قصيدة يرثي بها أولاده:

وتجلدي للشـامـتين أريهـمـو
أني لريب الدهر لا أتضـعـضـع

والبيت من قصيدة طويلة أوردها صاحب جمهرة أشعار العرب مطلعها:

أمن المنون وريبـهـا تتـوجع؟
والدهر ليس بمعـتـب من يجـزع

إلا يدٌ أدماها سوارُها[١]؟ وجَبينٌ عضّ به إكليلُه[٢]؟ ومَشرفيٌّ ألصقه بالأرض صاقلُه[٣]، وسَمهريٌّ عرضه على النار مُثقِّفُه[٤]؟ [وعبد ذهب به سيده مذهبَ الذي يقول:

فـقــســا لـيــزدجــروا، ومن يَكُ حــازمًــا
فليَـــقْسُ أحــــيــــانًا عـلـى من يرحـمُ][٥]

هذا العَتْبُ محمودٌ عواقبه[٦]، وهذه النَبْوَةُ غَمرةٌ ثم تنجلي[٧]، وهذه النكبةُ سحابةُ صيف عن قريب تَقَشّع[٨]، [ولن يريبني من سيّدي أنْ أبطأ سَحابُهُ[٩]، أو تأخَّرَ – غيرَ

---

(١) المعنى: إذا آلمني الأمير بعقابه فقد زانني بإنعامه، فإساءته ناجمة عن إحسانه، كاليد التي يدميها السوار، وهو معنى مأخوذ من المتنبي حيث يقول:

بنو كــعب ومــا أثرت فــيــهم
يد لم يدمــهــا إلا الســوارُ
لـهــا من قـطـعــه ألـمٌ ونـقـصٌ
وفـيـهـا من جـلالتـه افـتـخـار

(٢) في الذخيرة وبعض نسخ نهاية الأرب «عضه إكليله»، الإكليل: التاج أو عصابة للرأس مُكللة باللؤلؤ.

(٣) مشرفي: سيف منسوب إلى مشارف (نسبة غير قياسية) وهي قرى باليمن مشهورة بصناعة السيوف الجيدة، الصاقل: الحداد الذي يجلو السيوف.

(٤) السمهري: الرمح الصلب، أو منسوب إلى سمهر وهو رجل اشتهر بتقويم الرماح، والتثقيف: التقويم.

(٥) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة، الازدجار: الارتداع، والبيت من قصيدة لأبي تمام في مدح مالك بن طوق مطلعها:

أرض مــصــردة وأخــرى تثــجم
منهــا التي رُزقتْ وأخــرى تحــرمُ

(٦) في الذخيرة ونهاية الأرب «والعتب محمود عواقبه، والنبوة والنكبة..»، العواقب: جمع عاقبة، وهي آخر كل شيء، وقد أخذ هذه العبارة من قول المتنبي:

لـعل عــتـبك مــحــمـود عــواقــبـه
وربما صــحت الأجــســام بالعلل.

(٧) النبوة: البعد أو الجفوة، الغمرة: الشدة الشديدة، تنجلي: تذهب وتتكشف، ومن الأمثال «غمرات ثم تنجلين» ومنه قول الراجز:

الـغــمــرات ثم يـنـجـلـينْ
عـنـا، ويـنـزلـن بـآخــرينْ
شــدائد يتــبــعــهن لـينْ

وقال شرف الدين المبارك:

ومــا هي إلاغــمــرة ثم تنجلي
ســريعًــا، وإلا نبــوة تتــصــرم

(٨) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب، وفي تمام المتون «عن قليل تقشعُ» تقشعت السحابة: أقلعت، قال ابن الخياط:

ســحــابة بر آن منهــا انقـشــاعـهــا
وأيكة مــجــد حــان منهــا ذبولـهــا

(٩) في رواية لتمام المتون «أن أبطأ سقيُه» يريبني: يحملني على الشك والارتياب.

ضَنين – غَناؤه(١)، فأبطأُ الدّلاء فيضًا أملؤها(٢) وأثقلُ السّحائب مشيًا أُحْفَلُها(٣)، وأنفعُ الحَيا ما صادف جدبًا(٤)، وألذّ الشراب ما أصاب غليلا(٥)، ومع اليوم غد(٦)، ولكلّ أجلٍ كتاب(٧) له الحمدُ على اهتباله(٨) ولا عَتْبَ عليه في إغفاله(٩)]

(١) ضنين: بخيل، غناؤه: نفعه.

(٢) من الأمثال «لعل أبطأ الدلاء أملؤها»، قال ابن المعتز:

قلت: – وقد صاح رافعًا يده –
دعوا البرايا فالله يكلؤها
واستيقنوا بالدواء منه، كما
أبطأ وفر الدلاء أملؤها

(٣) أحفلها: أكثرها امتلاء، قال المتنبي:

ومن الخير بطء سيبك عني
أسرع السحب في المسير الجهامُ

(٤) الحيا: المطر، الجدب: القفر، وشبيه به قول ابن حيوس:

وإن ألذ القرب ما قبله نوى
وأحلى وصال ما تقدمه صدُّ

(٥) الغليل: العطش، ومنه قول كشاجم:

هذا الشراب أخو الحياة، وماله
من لذة حتى يصيب غليلا

(٦) من الأمثال: إن مع اليوم غدًا»: أي إن الحالات تتغير، والدول تتقلب، قال ابن طباطبا العلوي:

يا من يخاف أن يكو
ن – ما يكون – سرمدا
أما سمعت قولهم:
إن مع اليوم غدا؟

(٧) الأجل: المدة، والجملة مقتبسة من الآية الكريمة ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، لكل أجل كتاب﴾. ومعناها: لكل أجل كتابٌ اثبته الله فيه لا يتقدم عنه ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

(٨) الاهتبال: الاغتنام أو الفرصة أو القصاص، وفي الحديث «من اهتبل جوعة مؤمن كان له كيت وكيت» أي تحينها واغتنمها، واهتبل: تكسب، والهبال: الكاسب المحتال، والمعنى للأمير الحمد على ما أغنمني إياه.

(٩) ورد ما بين القوسين في الذخيرة ونهاية الأرب كما يأتي: «عن قريب تقشع، وسيدي إن أبطأ معذور، فإن يكن الفعل..» الإغفال: الترك والإهمال، وقريب من هذا قول البهاء زهير:

ومن شغفي فيكم ووجديَ أنني
أهوِّن ما ألقاه وَهْوَ هوانُ
ويحسن قبحُ الفعل إن جاء منكم
كما طاب ريح العود وهو دخانُ

فـــإن يكن الـفـــعل الذي ســـاء واحـــدًا

فـــأفـــعـــالُهُ اللاتي سَـــرَرْنَ ألوفُ[1]

وأعودُ فأقول:[2]

[مـا هذا الذنبُ الذي لم يَسَـعْـهُ عـفـوُك؟ والجـهلُ الذي لم يـأتِ من ورائه حِلْمُكَ؟ والتطاولُ الذي لم يستغرقْه تطوّلك[3]؟ والتحاملُ الذي لم يفِ به احتمالك[4]، ولا أخلو من أن أكون بريئًا فأين العدلُ؟ أو مسيئًا فأين الفضلُ[5]؟

إلا يـكـن ذنـبٌ فـــعـــــدلك واسـعٌ

أو كـــان لي ذنبٌ فـــفـــضلُك أوسعُ[6]

حنانَيكَ[7]!! قد بلغ السّيل الزُّبى[8]، ونالني ما حَسْبي بهِ[9] وكفى[10]] وما أراني

(١) هذا البيت للمتنبي من أبيات يعاتب فيها أبا العشائر على أن أغرى به غلامه فرماه بنبله قائلاً: خذها وأنا غلام أبي العشائر، فقال المتنبي:

ومنتسب عندي إلى من أحبه ... وللنبل حولي من يديه حفيف
فهيج من شوقي، وما من مذلة ... حننت، ولكن الكريم ألـــوف
فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا ... فأعماله اللائي سررن ألوف

(٢) في الذخيرة بدل هذه العبارة «وليت شعري ما الذنب..؟»، وفي نهاية الأرب «فليت شعري ما الذنب؟».

(٣) التطاول والاستطالة: الترفع والتكبر، وفي الحديث «أربى الربا الاستطالة في عرض الناس» أي استحقارهم والترفع عليهم والوقيعة فيهم، التطول: التفضل والإحسان.

(٤) التحامل: التكلف على مشقة، وتحامل على نفسه: تكلف الأمر على مشقة، والتكلف أيضًا: الميل، يقال: تحامل عليه أي مال عليه، الاحتمال: العفو والإغضاء.

(٥) في إحدى روايات تمام المتون «بريًا فأين عدلك؟ أو مسيًا فأين فضلك؟

(٦) البيت للبحتري في مدح الخليفة المتوكل وعتابه من قصيدة مطلعها:

شوق إليك تفيض منه الأدمع ... وجوى عليك تضيق عنه الأضلع

(٧) حنانيك: والِ حنانَك ورحمتَك حنانًا بعد حنان، قال طرفة بن العبد للنعمان بن المنذر:

أبا منذر أفنيت!! فاستبق بعضنا ... حنانيك! بعض الشر أهون من بعضِ

(٨) الزبى: جمع زبية وهي حفرة تتخذ لصيد الأسود وتختار في مكان مرتفع لا يعلوه الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفًا مجحفًا، وهذا مثل يضرب لكل ما تجاوز الحد.

(٩) المعنى: لقد أصابني ما فيه كفاية من الآلام.

(١٠) ورد ما بين القوسين في الذخيرة ونهاية الأرب على الصورة الآتية: «ما الذنب الذي أذنبت ولم يسعه العفو؟ ولا أخلو من أن أكون بريئًا فأين العدل؟ أو مسيئًا فأين الفضل؟».

إلاّ لو [أنّي][(١)] أُمِرتُ بالسجود لآدمَ فأبيتُ [واستكبرتُ[(٢)]] وقال لي نوحٌ: «اركب معنا» فقلتُ: «سآوي إلى جبلٍ يعصِمُني من الماء[(٣)]» وأَمَرْتُ ببناء الصَّرح[(٤)] لعلّي أطّلع إلى إلهِ موسى[(٥)]]، وعكفتُ على العِجل[(٦)]، واعتديتُ في السّبت[(٧)]، وتعاطيتُ فعقَرت[(٨)]، وشربتُ من ماء النّهر الذي ابتُلِيَ به جنود طالوت[(٩)]، وقُدتُ الفِيل لأبرهة[(١٠)]، وعاهدت قريشًا على ما في الصّحيفة[(١١)]، وتأوّلتُ في بَيْعَةِ العقبة[(١٢)]، ونفرتُ إلى العِير ببدر[(١٣)]، وانخذلتُ بثُلث

---

(١) زيادة عن تمام المتون والمواهب الفتحية.

(٢) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة، أخذ الشاعر يعدِّد كبار الذنوب، ويقول: لو أني ارتكبتها جميعًا لكفاني ما نلته من عقابك، وكان أولى به أن يعدد مواقف الصفح ويشيد بمواقف الحلم، وقد ابتدأ بذكر إبليس وتكبره عن السجود لآدم عصيانًا منه لأمر الله.

(٣) أشار إلى قصة سيدنا نوح عليه السلام وطلبه من ابنه الجاحد أن يركب معه في السفينة لينجو من الطوفان فرفض وقال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ فقال له أبوه: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾، «سورة هود آية ٤٢، ٤٣».

(٤) الصرح: القصر أو كل بناء عال، يشير إلى قصة فرعون وطلبه من وزيره هامان بناء صرح عال كما ورد في الآية الكريمة ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبًا﴾ سورة غافر: ٣٦:٣٧.

(٥) ما بين القوسين «وقال لي نوح.. إله موسى» ساقط من الذخيرة.

(٦) إشارة إلى العجل الذي صنعه السامري لبني إسرائيل فعبدوه من دون الله ولم ينتظروا رجوع موسى عليه السلام من المناجاة «راجع قصته في سورة الأعراف ١٤٨-١٥٢، وسورة طه: ٨٣-٩٨».

(٧) إشارة إلى تحريم الصيد على بني إسرائيل يوم السبت وعصيانهم لهذا الأمر وانتقام الله منهم «سورة الأعراف: ١٦٣».

(٨) تعاطى: قام على أطراف أصابع رجليه، ثم رفع يده متهيأ للضرب أو الطعن، عقر: جرح، وعقر البعير: ضرب قوائمه بالسيف أو ذبحه، إشارة إلى قصة الناقة التي خلقها الله من الصخر معجزة لنبيه صالح عليه السلام فعقرها أحد الطغاة من قومه ثمود «سورة القمر: ٢٧-٣٠»، وسرة الشمس: ١١-١٥» وقد وردت هذه العبارة في نهاية الأرب قبل قوله وأمرت ببناء الصرح...».

(٩) في الذخيرة «وشربت من النهر» وفي بعض نسخ تمام المتون «جيوش طالوت» وكذلك في المواهب الفتحية، وقد آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب وما صح من تمام المتون مسايرة للفظ القرآن الكريم، والإشارة هنا إلى أن الله بعث طالوت ملكًا لبني إسرائيل لينتقم من عدوهم الطاغية جالوت، وقد أوصى طالوت جنده ألا يشربوا من النهر فعصى معظمهم أمره ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ سورة البقرة: ٢٤٦-٢٥٢».

(١٠) إشارة إلى قصة أبرهة وتجهيزه جيشًا لهدم الكعبة يقدمه فيل ضخم، فلما وصل إلى مكة شتت الله شمل الجيش وحطم جنوده فرجع منهزمًا مكسورًا «سورة الفيل» وفي الذخيرة «وقلدت لإبرهة الفيل».

(١١) لما رأى مشركو مكة انتشار الإسلام وإيمان عمر بن الخطاب وغيره من الأشراف به اجتمعوا وتعاهدوا على ألا يعقدوا صهرًا مع بني هاشم ولا يتجروا معهم، وكتبوا هذا العهد في صحيفة علقوها في جوف الكعبة توثيقًا وتوكيدًا فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شِعَب أبي طالب وظلوا كذلك سنتين أو ثلاثًا حتى أجهدهم الضيق، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا يستخفي به من أراد صلتهم من قريش، حتى نقض الصحيفة نفر من عقلاء قريش.

(١٢) إشارة إلى بيعة الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة التي بين مكة ومنى، وهي ثلاث بيعات: بايعه في الأولى ستة من الأوس، وفي الثانية اثنا عشر منهم الستة الذين بايعوه أولاً، وفي الثالثة سبعون وامرأتان، وروى الصفدي أن الذين بايعوه أخيرًا ثلاثة وتسعون وامرأتان، قال الصفدي: «لم أقف مما علمته على أن أحدًا من أهل العلم بالسير تأول في بيعة من البيعات أو صدر منه.. بعد المبايعة فعل يخالف قوله» ثم أوّلَ كلامَ ابن زيدون بأن مراده: لو حدث أن أحدًا نقض البيعة متأولاً ونقضتُها مثله مقترفًا هذه الكبيرة.. (لكان في ما نالني من العقاب ما يكفي).

(١٣) يشير إلى غزوة بدر الكبرى فقد علم أبو سفيان زعيم المشركين أن المسلمين سيتعرضون لقافلته التجارية أثناء عودته من الشام، فخالف الطريق المعهود، وأرسل إلى قريش بمكة يستنفرهم إلى إنقاذ أموالهم، فنفروا سراعًا والتحموا مع المسلمين في موقعة بدر الكبرى ونصر الله الإسلام، العير: الإبل التي تحمل الميرة ثم غلب على كل قافلة.

الناس يوم أُحُد[١]، وتخلّفتُ عن صلاة العصر في بني قُريظة[٢]، و[وجئتُ بالإفك على عائشة الصّديقية[٣]]، وأَنفتُ من إمارة أُسامة[٤]، وزعمتُ أن بيعةَ أبي بكر كانت فَلْتة[٥]، وروَّيتُ رُمحي من كتيبة خالد[٦]، [ومزّقتُ الأديمَ الذي باركتْ يدالله فيه[٧]] وضحّيتُ

---

(١) أحد: جبل يقع شمال المدينة التحم عنده المسلمون بالمشركين فقتل من المسلمين حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وكثير من أبطالهم، وانخذل عن المسلمين عبدالله بن أبي بن سلول – رأس المنافقين بالمدينة – بثلث الناس، وترك النبي وأصحابه في الميدان.

(٢) ما كاد المسلمون يضعون سلاحهم بعد غزوة الخندق حتى أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالنهوض لغزو بني قريظة قائلاً: لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فنفروا إليها، وأدركتهم العصر بالطريق فصلاّها بعضهم فهمًا منه لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن القصد منه السرعة، وأخرّها الباقون حتى فات وقتها امتثالاً لنص الأمر الكريم، فلم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدًا منهم فلا وجه لابن زيدون في عد التخلف من الذنوب، وفي الذخيرة «وتخلفت عن صلاتي..».

(٣) لم ترد هذه الجملة في الذخيرة، ولم ترد كلمة «الصديقية» في نهاية الأرب، وملخص حديث الإفك أن النبي صلى الله عليه وسلم قفل من غزوة بني المصطلق، وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين معه، فتخلفت في مرحلة بالطريق تلتمس عقدًا انفرط منها، ثم أدركها صفوان بن المعطل السلمي فأركبها بعيره ولحق بها الجيش، فأطلق المنافقون ألسنتهم فيهما بغيًا وبهتانًا حتى نزل القرآن الكريم ببراءتهما «سورة النور: ١١–٢٦».

(٤) في نهاية الأرب «وأبيت من إمارة أسامة» يشير إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعد جيشًا لغزو الروم وأمَّر عليه أسامه بن زيد بن حارثة، وكان في هذا الجيش كبار المهاجرين الأولين مثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة.. فانتقد جماعة إمرة أسامة على هذا الجيش وفيه أمثال هؤلاء، وهو شاب لم يبلغ سبع عشرة سنة وبخاصة أن أباه من الموالي أعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ النبي هذا النقد غضب غضبًا شديدًا، وكان مريضًا فخرج من بيته، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله وأيم الله إنه كان لخليقًا بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق بها» فأذعن الجميع، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم فأمضى أبوبكر إنفاذ هذا الجيش بقيادة أسامة، وللنبي صلى الله عليه وسلم حكم في هذه الإمارة منها: تشجيع الشباب وتأهيله لمهام الأمور، ومنها المساواة بين السادة والموالي، ومنها أن يأخذ أسامة بثأر أبيه من الروم، فضلاً عن أن أسامة بهذه الإمارة جدير.

(٥) في الذخيرة «وزعمتم أن خلافة الصديق فلتة» وفي نهاية الأرب «أن خلافة أبي بكر كانت فلتة» وقد وردت هذه الجملة في خطبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما بلغه أن ناسًا يقولون: لو مات أمير المؤمنين لنبايعن فلانًا، فقال من خطبة طويلة: «.. وقد بلغني أن قائلاً يقول: لو مات عمر بايعتُ فلانا، فلا يغترَّن أمرؤ منكم أن يقول: كانت بيعة أبي بكر فلتة، وليس فيكم من تقطع دونه الأعناق مثل أبي بكر وإنه كان من خيرنا ..».

(٦) كان أبوشجرة السلمي من فتاك العرب جمع قومه والمرتدين من العرب لقتال خالد بن الوليد بعد قضائه على المرتدين من بني حنيفة، وقال في هذا:

ورويتُ رمحي من كتيبة خالد
وإني لأرجو بعدها أن أُعَمَّرا
وعارضتها شهباء تخطر بالقنا
ترى البيض في حافاتها والسَّنوَّرا

السنوّر: لبوس من الجلد كالدرع، أو جملة السلاح، ثم أسلم أبوشجرة بعد هذا.

(٧) لم ترد هذه الجملة بالذخيرة، وفي تمام المتون «باركت يد الله عليه»، الأديم، الجلد، يشير إلى فتك أبي لؤلؤة المجوسي بعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طعنه بخنجره، وقل الشماخ فيه:

جزى الله خيرًا من إمام، وباركتْ
يد الله في ذاك الأديم الممزقِ

بالأشمط الذي عنوانُ السجود بِه[1] [وبذلتُ لِقَطام:

ثلاثة آلاف وعبدًا وقينةً
وضَرْبَ عليٍّ بالحُسامِ المُسَمَّمِ[2]

وكتبتُ إلى عمر بن سعد: أنْ جعْجِعْ بالحسين،[3] وتمثلتُ عندما بلغني من وقعة الحَرَّة[4]:

ليت أشياخي ببدر شَهِدوا
جَزَعَ الخزرج من وَقْعِ الأسَلْ[5]
(قد قتلنا القِرْنَ من أشياخهم
وعدلناه ببدرٍ فاعتدلْ)[6]

---

(١) الأشمط: الذي في شعره بياض يخالطه سواد، عنوان السجود به: في جبهته أثر من كثرة السجود، قال تعالى ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ والإشارة هنا إلى مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وقول حسان في رثائه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحًا وقرآنا
لتسمعُنَّ وشيكًا في ديارهمُ
«الله أكبرُ، يا ثارات عثمانا»

(٢) في نهاية الأرب «الحسام المخذم» أي المرهف القاطع: والإشارة هنا إلى مصرع الإمام عليٍّ رضي الله عنه بيد عبدالرحمن بن ملجم، وكان ابن ملجم قد تقدم لخطبة قطام فاشترطت عليه أن يبذل في صداقها: ثلاثة آلاف وعبدًا وجارية مغنية وقتل عليّ، فقال:

ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينةٌ   وضربُ عليٍّ بالحسام المسمّم
فلا مهر أغلى من عليٍّ، وإن غلا   ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقال لها: والله ما أتيتُ إلا للفتكِ به، ولا أقدمني هذا المصر غيرُ ذلك، وعبدالرحمن بن ملجم أحد ثلاثة من الخوارج تآمروا على اغتيال علي ومعاوية وعمرو بن العاص فأصاب الأول وأخفق الأخيران.

(٣) قاد عمر بن سعد بن أبي وقاص جيشًا لقتال الحسين رضي الله عنه حين خرج إلى الكوفة بإشارة من أهلها ليبايعوه، وقد سها ابن زيدون حيث جعل الرسالة مرسلة إلى عمر بن سعد، والحقيقة أن الرسالة كتبها عبيد الله بن زياد إلى الحر بن يزيد التميمي الذي انتدبه لقتال الحسين يقول فيها:

«أما بعد فجَعجعْ بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي فلا تنزله إلا بالعراء، في غير حصن وعلى غير ماء...» جعجع به: احبسه أو ضيّق عليه.

(٤) حرّة واقم: إحدى حرتي المدينة وهي الشرقية، وسبب الموقعة أن أهل المدينة، ثاروا سنة ٦٣هـ على يزيد بن معاوية وخلعوا بيعته وحاصروا بني أمية بالمدينة، فبعث إليهم يزيد بجيش يقوده مسلم بن عقبة، فقتل عددًا كبيرًا من الرجال واستباح الدماء والأموال، ولهذا سمِّي مسلم مُسرفًا لشدة سرفه في سفك الدماء، وقد تمثل يزيد بالبيتين، وهما من شعر عبدالله بن الزبعرَى في الفخر بانتصار المشركين على المسلمين في أحد.

(٥) في بعض نسخ تمام المتون «ليت أشياخي ببدر علموا»، الأسل: الرماح.

(٦) لم يرد هذا البيت في صلب الرسالة إلا في نهاية الأرب. القرن: كفؤك في الشجاعة أو من يقاومك في علم أو قتال أو غير ذلك، والبيتان لعبدالله بن الزبعرَى مفتخرًا بانتصار قريش على المسلمين يوم أحد، ورواية البيت الثاني في سيرة ابن هشام «فقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل».

ورجمتُ الكعبة، وصلبتُ العائذ «بها»[1] على الثَّنية[2]] لكان في ما جرى عليَّ ما يُحتملُ أن يسمّى نكالاً ويُدعى - ولو على المجاز - عقابًا:

وحسبُك من حادثٍ بامرئٍ
ترى حاسديه له راحمينا[3]

☆☆☆☆☆

فكيف[4]؟ ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشحٌ، ونبأٌ جاء به فاسقٌ[5]، [وهم الهمّازون المشّاءون بنميم[6]، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدَعوا العَصا[7]، والغُواةُ الذين لا يتركون أديمًا صحيحًا[8]، والسُّعاةُ الذين ذكرهم الأحنفُ بنُ قيس[9]، فقال: «ما ظنُّكَ

---

(١) زيادة عن نهاية الأرب.

(٢) ما بين القوسين لم يرد بالذخيرة، والإشارة هنا إلى محاصرة الحجاج لمكة المكرمة أثناء ثورة عبدالله بن الزبير بها، وقذفه المسجد الحرام بحجارة المنجنيق من فوق جبل أبي قبيس حتى تهدّم، ثم قتله عبدالله بن الزبير وصلبه إياه على الثنيّة. وقد سُمّي عبدالله بن الزبير عائذًا لأنه عاذ ببيت الله الحرام.

(٣) المعنى: لو فعلت هذه الذنوب جميعها لكان ما وقع عليّ من العقاب كافيًا بل كان فوق ما أستحق من جزاء وأصبح تنكيلاً، وحسبك من العقاب ما يُثيرُ رحمة الأعداء قبل الأولياء. والبيت للعتبي، وقيل لعبدالصمد بن المعذل.

(٤) المعنَى: كيف أتعرض لهذا النكال؟ وألاقي هذا العقاب؟ مع أني غير مذنب.

(٥) النميمة والنميم: السعي بين الناس بالفتنة ونقل الأحاديث المثيرة الكاذبة للإيقاع والإغراء، الكاشح: الذي يضمر العداء، الفاسق: الخارج عن طاعة الله، قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

(٦) الهمازون: المغتابون الطعانون الذين يتناولون أعراض الناس بالتشهير، النميم: النميمة وهي نقل الكلام السيء بقصد الوقيعة، قال تعالى في حق الوليد ابن المغيرة ﴿ولاتطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم...﴾، وقال صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة نمام».

(٧) الصدع: الشق، صدع العصا: تفريق الجماعة، أو الخروج على جماعة المسلمين، قال كثير عزة:

لعمرُ أبي الواشين لا عمرُ غيرهم
لقد كلفوني خطة لا أريدُها
ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا
إذا هي لم يصلب على البري عودُها

(٨) الغواة: جمع غاو وهو الضال أو الخائب، الأديم: الجلد، كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج «والبيتان ينسبان إلى الإمام علي»:

ولا تفش سرك إلا إليك
فإن لكل نصيح نصيحا
فإني رأيت غواة الرجا
لِ لا يتركون أديما صحيحا

(٩) السعاة: جمع ساع وهو الماشي، ثم غلب في العرف على من يذكر الناس بالسوء ويسعى بينهم بالوقيعة، الأحنف بن قيس: سيد من سادات تميم ضربَ به المثل في الحلم والسؤدد والحكمة، ومن حكمه: ربِ غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه، ثلاث ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر: لا أخلف جليسي بغير ما أحضره به، ولا أُدخل نفسي في ما لا مدخل لي فيه، ولا آتي السلطان أو يرسل إليَّ. وسأله معاوية يومًا في أمر بلغهُ عنه، فأنكر الأحنف، فقال معاوية: الثقة بلغني، فقال الأحنف: الثقة لا يبلغ.

بقوم الصّدق محمودٌ إلا منهم»(١):

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسك ريبةً
وليس وراء اللهِ للمرءِ مذهبُ](٢)

والله ما غَشَشْتُكَ بعد النّصيحة(٣)، ولا انحرفتُ عنك بعد الصاغية(٤)، ولا نصبتُ لك بعد التشيُّعِ فيك(٥)، [ولا أزمعتُ يأسًا منك مع ضمانٍ تكفّلتْ به الثقةُ عنك(٦)، وعهدٍ أخذه حُسْنُ الظنّ عليك](٧)، ففيمَ عَبثِ الجَفاءُ بأذمّتي(٨)، وعاث العقوقُ في مودّتي(٩)؟ [وتمكن الضّياع من وسائلي؟ ولمَ ضاقتْ مذاهبي؟ وأكْدَتْ مطالبي(١٠)، وعلامَ رضيتُ من المركب بالتعليق(١١)، بل من الغنيمةِ بالإياب؟](١٢)، وأنّى غلبني المغلَّبُ، وفخر عليَّ

---

(١) المعنى: الصدق رأس الفضائل والكذب أسوأ الرذائل، ولكن الصدق في بعض المواطن وبال، ولهذا يستحب الكذب في الصلح بين متخاصمين، أو في الكيد للأعداء في ميادين القتال، أو في دفع شر محقق عظيم النكال.

(٢) البيت من قصيدة للنابغة الذبياني يعتذر فيها للنعمان بن المنذر، ومعناهُ: لقد أقسمت لك على براءتي، فلم أدع لك مجالاً للشك، وليس ثمت حكم نحتكم إليه بعد الله. وبعد هذا البيت بأبيات:

لئن كُنتَ قد بلغت عني خيانةً ... لمبلغك الواشي أغش وأكذبُ

وما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب.

(٣) الغش: التدليس والتضليل، قال صلى الله عليه وسلم «من غشنا فليس منا».

(٤) الانحراف: الميل عن الشيء، الصاغية إلى الشيء: الميل إليه، قال تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾.

(٥) نصب له: عاداه، التشيّع الميل إلى قوم والدخول في أمرهم، والكاتب يقصد هنا: الناصبة وهم أعداء عليّ عليه السلام وأسرته من بعده، والشيعة وهم أنصاره ذريته من بعده.

(٦) قال الخليل: أزمع فلان على الأمر: ثبت عزمه عليه، وقال الكسائي: يقال أزمعتُ الأمر ولا يقال أزمعت عليه، تكفل بشيء: ضمنه وتعهد بأدائه.

(٧) العهد: الموثق أو اليمين أو الوصية، قال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولا﴾، وما بين القوسين لم يرد بالذخيرة ولا نهاية الأرب.

(٨) العبث: اللعب أو اللهو أو الإفساد، الأذمة: جمع ذمام وهو الحرمة وصلة المودة أو القربى.

(٩) في الذخيرة ونهاية الأرب «وعاث في مودتي» وفي تمام المتون «في مواتّي» المواتّ: جمع ماتة وهي الحرمة أو الوسيلة، عاث: أفسد، العقوق: كفران النعمة ومنه عق الولد أباه إذا جحد فضله وأساء جزاءه.

(١٠) المذاهب: الطرق. أكدَى: منع، قال تعالى: ﴿أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدَى﴾ وأكدى الحافرُ: بلغ الكدية من الأرض فلم يستطع حفرها، وأكدت الأرض: أبطأ نباتها، وأكدى الرجل: قل خيره.

(١١) من الأمثال: «أرضَ من المركب بالتعليق» أي اكتفِ من الركوب بتعليق أمتعتك على الدابة أي اقنع من عظيم الأمر باليسير.

(١٢) من الأمثال: «رضي من الغنيمة بالإياب» قال امرؤ القيس:

وقد طوّفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإيابِ

أي قنعت من الغنائم بسلامة العودة، ومثله قول البحتري:

وكان رجائي أن أؤوب مملّكا ... فصار رجائي أن أؤوب مسلّما

وما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب.

العاجزُ الضعيفُ(١)، ولطمتني غيرُ ذات سِوار(٢)، وما لك لا تَمْنَعُ منّي قبل أن أُفترسَ، وتدركُني ولمّا أمزَّقُ؟(٣) [أم كيف لا تتضرّمُ جوانحُ الأكفاء حسدًا لي على الخصوص بك(٤)، وتتقطعُ أنفاسُ النظراء مُنافَسَةً في الكرامة عليك؟(٥) فكيف](٦)؟ وقد زانني رَسْمُ خِدمتك(٧)، [وزهاني وَسْمُ نعمتك](٨) وأبليتُ البلاءَ الجميلَ في سِماطَك(٩)، وقمتُ المَقامَ المحمودَ على بساطك:(١٠)

---

(١) في الذخيرة «فخر عليَّ الضعيف» أنَّى: كيف، المغلب: المغلوب. قال أمرؤ القيس:

وإنك لم يفخر عليك كفاخرٍ
ضعيف، ولم يغلبك مثل مُغَلَّبِ

(٢) من الأمثال «لو ذات سوار لطمتني!!» أي لو ظلمني من كان كفئا لي لهان الأمر عليّ» ولكن ظلمني من هو دوني وكانت العرب قلَّما تُلبس الإماء السوار، فهو يتألم من أن أمةً لطمته، ويروي أن قائل المثل حاتم الطائي وكان أسيرًا فلطمته أمةٌ فقاله، ومثل هذا قول الشاعر:

ولو أني بُليتُ بهاشمي
خئولته بنو عبد المدانِ
لهان عليَّ ما ألقى، ولكنْ
تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

(٣) في نهاية الأرب وتمام المتون والمواهب الفتحية «لم تمنع مني» وقد آثرنا رواية الذخيرة، المعنى: ما لك لا تدفع عني قبل أن يدركني الافتراس؟ وتلحقني قبل أن ينالني التمزيق؟ وقد نظر في هذا إلى قول المثقب العبدي:

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكلٍ وإلا فادركني، ولما أمزقِ

وقد تمثل بهذا البيت سيدنا عثمان في رسالة كتبها وهو محاصر في بيته إلى الإمام علي.

(٤) تتضرم: تتوقد، الجوانح: الأضلاع التي تحت الترائب مما يلي الصدر، الأكفاء: جمع كفء وهو النظير أو الذي ينهض بالأعباء الجسيمة،، الخصوص: الاختصاص، وفي المواهب الفتحية «كيف لا تضطرم..».

(٥) المعنى: كيف لا تخفت أنفاس المناظرين لي في التنافس على بلوغ منزلتي الكريمة عندك؟.

(٦) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب.

(٧) آثرنا رواية المواهب الفتحية، وفي الذخيرة وتمام المتون ونهاية الأرب «اسم خدمتك».

(٨) هذه الجملة ساقطة من الذخيرة ونهاية الأرب، زها: تكبّر، ومثله زُهي، وزهاه: استخفّه، الوسم: العلامة.

(٩) في الذخيرة «وقد زانني اسم خدمتك، وأنلت الجميع من سماطك»، أبليت البلاء الجميل: صنعتُ الصنع الحسن، يقال أبلاه الله بلاء حسنًا، وأبليته معروفًا: أوليته إياه، قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أي صنع بهما خير الصنيع، السماط: الجانب أو الصف، والمقام بين السماطين من الناس من المواقف العظيمة، قال الرستمي.

وما كنت لولا طيب ذكرك شاعرًا ولا منشدًا بين السماطين في حفلِ

(١٠) في بعض نسخ تمام المتون «في بساطك».

ألستُ المُوالي فيكَ غُرَّ قصائدٍ

هيَ الأنْجُمُ اقتادتْ مع الليل أنْجُما؟[1]

ثناءً يُظَنُّ الرّوضُ منهُ مُنَوَّرًا

ضُحًى، ويُخالُ الوَشْيُ فيه مُنَمْنَما[2]

وهل لبس الصباح إلا بردًا طرّزته بفضائلك؟[3] وتقلّدت الجوزاءُ إلا عقدًا فصّلته بمآثرك؟[4] [واستملى الربيع إلا ثناءً ملأتُهُ من محاسنك؟][5] وبثّ المسكُ إلا حديثًا أذعتُهُ في محامدك؟[6] ما يوم حَليمة بسرٍّ[7]، [وإن كنتُ لم أكْسُكَ سليبًا، ولا حَلّيتكَ عُطْلاً، ولا وَسَمْتُكَ غُفلا[8]، بل وجدت آجُرًا وجِصّاً فبنيتُ،[9] ومكانَ القول ذا سَعةٍ فقلت]،[10] وحاشى[11] لله أن

(١) البيتان من قصيدة للبحتري في عتاب الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل، وفي الذخيرة ونهاية الأرب «نظم قصائد» ولم يرد البيت الثاني فيهما في صلب الرسالة، ولكنه ورد بها في تمام المتون والمواهب الفتحية، ورواية الديوان له هي:

(٢) ثناء كأن الروض منه منورا ... ضحى، وكأن الوشى فيه مسهما

ومعنى البيتين: لقد واليتُ في الثناء عليك نظم القصائد التي أضاءت في ظلام الليل مع النجوم كالنجوم، بمدح إذا قرنته بالرياض رأيته قد غمرها بالأضواء الوهاجة كالضحى، وإذا وازنته بالغلائل والأبراد وجدته مزخرفًا بأبهى الألوان.

(٣) في الذخيرة ونهاية الأرب «بمحامدك»، التطريز: تزيين حواشي الثوب وقد يكون الثوب مطرزًا بالذهب، المعنى: لقد صغت فيك من الثناء الخالد ما هو حلية للدهر وزينة للصباح.

(٤) آثرنا رواية تمام المتون ونهاية الأرب، في الذخيرة «بمشاعرك»، والمعنى: لقد نوهت بمآثرك حتى جعلتها عقدًا تتزين به كواكب الجوزاء.

(٥) لم ترد هذه الجملة في الذخيرة ونهاية الأرب، المعنى: لقد استعار الربيع بهجته مما نشرته على الدنيا من محاسنك.

(٦) في الذخيرة «وفت المسك»، وفيها وفي نهاية الأرب «أذعته بمفاخرك»، فت المسك: سحقه، بث الحديث: نشره، وقد استعار الحديث لرائحة المسك، وشبيه بهذا قول ابن حيوس.

وطيب ثناء طبّق الأرض، فاكتست ... مشارقها من عرفه والمغاربُ

(٧) في الذخيرة «وما يوم..»، ومن الأمثال «ما يوم حليمة بسر» يضرب للأمر المشهور الذي لا يمكن إنكاره، وحليمة هي بنت الحارث الأكبر بن أبي شمر ملك غسان، وكان أبوها قد وجه جيشًا إلى المنذر بن ماء السماء وانتدب لاغتياله مائة من الأبطال المشهورين فأخرجت لهم بنته حليمة طيبًا طيبتهم به، قال النابغة الذبياني يصف السيوف:

تخيرن من أزمان يوم حليمة ... إلى اليوم قد جربن كل التجارب

(٨) المعنى: لم أكسُك من ثنائي ما كنت منه عاريًا، ولا حليتك به وكنت عاطلاً من الزينة، ولم أميزك به وكنت مجردًا من التمييز، وشبيه بهذا قول أبي تمام:

أنا من كساك – وما كساك لخلة – ... حر القصائد فوفت تفويفا

وقول أبي الحسين بن الجزار: ولقد كسوتك من قريضي حلة ... جلت عن التلفيق والترقيع

حسنت برقم من جلالك، فاغتدت ... كالروض في التسهيم والترصيع

(٩) الآجر: الطوب المحروق المخصص للبناء، الجص: الكلس، ويستعمل لطلاء الجدران.

(١٠) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب، المعنى: لم أخلع عليك من الثناء ما ليس فيك، فقد وجدت أساسًا أبني عليه فبنيت، ووجدت مكان القول واسعًا فيك فقلت، قال ابن الخازن:

ومن سقيا سحابك جاد طبعي ... ولولا الغيث لم ينبع قليب

وقال المتنبي: وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لسانًا قائلاً فقل

وقال ابن قلاقس: ومنك وفيك تنتظم القوافي ... ومن وجد المقال الرحب قالاً

(١١) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب، وفي تمام المتون والمواهب الفتحية «حاش لك»، حاش لله، وحاشى له: تنزيهًا له.

أُعدُّ من العاملةِ الناصبِةِ(١)، وأكونَ كالذُّبالَةِ المنصوبةِ تضيءُ للناس (وهي) تحترقُ(٢)، [فلك المثلُ الأعلى، وهو بك – وبي فيك – أولَى](٣).

وفي فصل منها:(٤)

ولَعمرُكَ ما جهلتُ أنَّ صريحَ الرأي أن أتحوّلَ إذا بلغتْني الشَّمسُ، ونبا بِيَ المنزلُ،(٥) وأَصفحَ عن المطامع التي تَقطعُ أعناقَ الرجال،(٦) فلا أستوطيءُ العجزَ(٧)، [ولا أطمئنّ إلى الغرور](٨) فَيُضْرَبَ بِيَ المثل(٩) «خامِري أمَّ عامر»(١٠) وإنِّي

---

(١) العاملة الناصبة: مأخوذة من الآية الكريمة ﴿وجوه يومئذٍ خاشعة، عاملة ناصبة، تصلى نارًا حامية﴾ المقصود بها وجوه الكفار التي عملت في الدنيا وتعبت دون أن تفوز بجزاء في الآخرة، قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾.

(٢) (وهي): زيادة من الذخيرة ونهاية الأرب، والمعنى: معاذ الله أن تعدني في مصاف الكفار الذين يشقون ويكدحون دون فائدة، أو تجعلني كالشمعة المنصوبة التي تضيء للناس وهي تفنى وتذبل، قال العباس بن الأحنف:

أحرم منك ما أقول، وقد	نال به العاشقون ما عشقوا
صرت كأني ذبالة نُصبتْ	تضيء للناس وهي تحترقُ

وهو مأخوذ من الحديث الشريف «العالم بغير عمل كالمصباح يحرق نفسه – ويضيء للناس».

(٣) سقط ما بين القوسين من الذخيرة ونهاية الأرب، المثل الأعلى: الصفة العليا، قال تعالى ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ أي ليس كمثله شيء، المعنى: والمثل الأعلى أولى بك، وبي كذلك إذا كان فيك.

(٤) وردت هذه العبارة بالذخيرة ونهاية الأرب، وهي تدل على أن الرسالة لم ترد كاملة.

(٥) في الذخيرة ونهاية الأرب «ولعمري ما جهلت أن الرأي في أن أتحول»، لعمرك: وحياتك، صريح الرأي: الرأي الواضح السديد، وهو مأخوذ من قول أبي تمام:

وإن صريح الرأي والحزم لامرئ	إذا بلغته الشمس أن يتحولا

ونبا بي المنزل: جفاني المنزل أو لم يستقر بي فيه قرار، قال عنترة:

احذر محل السوء، لا تحلل به	وإذا نبا بك منزل فتحول

(٦) في الذخيرة ونهاية الأرب «وأضرب عن المطامع»، ضرب عنه: أعرض، ومثله صفح عنه، المعنى: كثيرًا ما يقود الطمع إلى الهلاك، قال البعيث:

طمعت بلَيلى أن تزيع، وإنما	تُقطع أعناق الرجال المطامع

تزيع: ترجع وتعود، وقال أبو العتاهية:

تعالى الله يا سلم بن عمرو	أذل الحرصُ أعناقَ الرجال

(٧) في الذخيرة ونهاية الأرب «ولا أستوطئ العجز»، واستوطأ المركب: وجده وطيئًا ليِّنًا سهلاً، وفي الأمثال «العجز وطيء» أي سهل.

(٨) مابين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب.

(٩) في تمام المتون والمواهب الفتحية «ومن الأمثال المضروبة»

(١٠) من الأمثال «خامري أم عامر»، خامري: استتري، أم عامر: كنية الضبع، والمثل يضرب لمن يعرف أن الدنيا غدارة ثم يغترّ بها مثل الضبع يقال لها خامري فتهدأ وتسكن حتى يدخل عليها الصائد فيصيدها، قال البهاء زهير:

يا هذه لا تغلطي	والله مالي فيك خاطر
خدعوك بالقول المحا	ل، فصح أنك أم عامر

مـــع المعــرفة أنَّ الجَــلاءَ سِـباءٌ[١] والنَّقْـلَةُ مُثْلَـةٌ[٢]:

ومن يغـــتــربْ عن قـــومـــه لم يزلْ يرى
مَـصــارع مظلومٍ: مَـجَـرًا ومَـسْـحَـبـا
وتُدفَنُ منه الـصــــالحـــــاتُ، وإنْ يُسِئْ
يكنْ مــا أســاءَ النّارَ في رأسِ كَـبكبــا[٣]

لَعارفٌ أنّ الأدبَ الوطنُ الذي لا يُخشى فراقُهُ، والخليطُ الذي لا يُتَوَقَّعُ زِيالُهُ، والنَّسَبُ الذي لا يَخْفَى، [والجمـالُ الذي لا يُجْفَى[٤]، ثم مـا قِرانُ السَّعد للكواكب أبهى أثرًا، ولا أسْنَى خطرًا من اقترانِ غِنَى النفسِ به، وانتظامِها نَسَقًا معه[٥]، فإن الحائزَ لهما الضّاربَ

---

(١) الجلاء: الرحيل عن الوطن، السباء والسبي، الأسر، وفي الذخيرة ونهاية الأرب «بأن الجلاء».

(٢) المثلة: التنكيل، يقال مثل به: مزق جثته وأذاقه الوبال، قال الصفدي: وقد قلت أنا «النوى توى (أي الفراق هلاك)، والغربة كربة، والسفر سقر، والشتات ممات، والافتراق احتراق»، قال الشاعر:

ما من غريب – وإن أبدى تجلّده – إلا سيذكر عند الغربة الوطنا

وقال شوقي: وطني لو شغلت بالخُلْدِ عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

(٣) لم يرد هذان البيتان بالذخيرة ولا نهاية الأرب، وينسبان لعروة بن الورد، وقيل هما للأعشى وهو الأصح، ومعناهما: إن المغترب عن وطنه لا يزال يواجه المهالك في شتى صورها، وإذا أحسن أنكر الناس إحسانه، وإذا أساء أعلنوا كل إعلان إساءته، (كبكب: جبل عال بعرفات) وشبيه بهذا قول الشاعر:

إن يسمعوا الخير يخفوه، وإن سمعوا شرّاً أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا

وقول الآخر:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحًا مني، وما سمعوا من صالح دفنوا

(٤) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب وإن كانت عبارة نهاية الأرب «لا يتوقع زواله»، وفي تمام المتون والمواهب الفتحية «عارف بأن الأدب الوطن لا يخشى فراقه، والخليط لا يتوقع زياله، والنسيب لا يجفى، والجمال لا يُحفى»، والمعنى: وإني – مع علمي بما في الجلاء من أهوال – لعارف بأن لي من أدبي وطنًا عظيمًا، فالأدب وطن لا يخشى صاحبه فراقه، وعشير لا يتوقع زواله، ونسب ظاهر لا يمكن إخفاؤه، وجمال فتان لا سبيل لمقته، وشبيه بهذا قول البارودي:

أنا ابن قولي، وحسبي في الفخار به وإن غدوت كريم العم والخال

(٥) اقتران الشيء بغيره وقرانه به: مصاحبته له، وقران السعد للكواكب: مصاحبة الطالع الحسن لها، وكان العرب يعتقدون أن للكواكب منازل سعود ومنازل نحوس، أسنى خطرًا: أرفع قدرًا، انتظامها نسقًا: ترتيبها على وتيرة واحدة، وثغر نسق: أسنانه منضدة مستوية، قال أبو الفتح البستي:

ما قران السعدين في الجو أبهى منظرًا من قران شكر وبرٍّ

والمعنى: ليس قران السعد للكواكب أحسن أثرًا وأبهج منظرًا من اقتران الأدب بغنى النفس، قال الشاعر:

إن الغنيَّ هــو الغنــيُّ بنفــسه ولو انه عــاري المناكب حافــي
ما كل ما فوق البسيطة كافيًا فإذا قنعت فبعض شيء كافي

بسهم فيهما[1] – وقليل ما هم[2] –] أينما توجَّهَ وردَ أعذبَ مَنْهَلٍ[3]، وحَطَّ في جَنابِ قَبولٍ فنزل[4]، وضُوحِكَ قبل إنزال رَحْلِهِ[5]، وأُعْطِيَ حُكْمَ الصَبِيِّ على أهلِهِ[6]:

وقــيـل لـه: أهلاً وســهــلاً ومــرحــبًــا
فــهــذا مــبــيتٌ صــالـحٌ وصــديقٌ[7]

غيرَ أنَّ الموطنَ محبوبٌ[8]، والمنشأَ مألوفٌ، واللبيبَ يَحنُّ إلى وطنه (حنينَ النَّجيبِ إلى عَطَنِهِ[9])، والكريمَ لا يجفو أرضًا بها قوابِلُهُ، ولا ينسى بلدًا فيه مراضِعُهُ[10]:

(١) الضارب والضريب: الموكل بالقداح أو الذي يضرب بها، ويضرب في الأمر بسهم: شارك فيه بنصيب، وهو يومئ إلى أنه جمع بين الأدب البارع وغنى النفس وشارك فيهما بنصيب وافر.

(٢) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب، وقليل ما هم: أي الجامعون بين الأدب البارع والنفس العفيفة قليلون، والجملة مقتبسة من القرآن الكريم، قال تعالى ﴿وإن كثيرًا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ما هم﴾.

(٣) آثرنا رواية الذخيرة، وفي بقية الأصول «ورد منهل بر»، المنهل: مورد الماء.

(٤) عبارة «فنزل» زيادة عن بعض نسخ الذخيرة، الجناب: الفناء او ما قرب من المساكن، القبول: الرضاء، وجناب القبول هو المكان الذي يجد فيه الإنسان من يقبل عليه ولا يدبر عنه.

(٥) ضوحك قبل إنزال رحله: قوبل بالبشر والترحاب لأول قدومه قبل إنزال متاعه، قال حاتم الطائي:

أضاحــك ضيفي قبل إنزال رحلـه ... ويخصب عندي، والزمان جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

(٦) من كلام العرب: «نزلنا على فلان فجعل لنا حكم الصبي على أهله» أي أكرمنا غاية الإكرام، لأن الصبيّ يلقى من أهله كل رعاية وعناية ومحبة على الرغم مما يجشمهم إياه من المتاعب والأهوال، قال الشاعر:

ولا تحكما حكم الصبيِّ، فإنه ... كثير على ظهر الصديق مجاهله

وكان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له: «يا هذا إنك قد اخترتني جارًا، واخترت داري دارًا، فجناية يدك عليّ من دونك، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبيّ على أهله».

(٧) في بعض نسخ الذخيرة، وبعض نسخ تمام المتون، والمواهب الفتحية «... مبيت صالح ومقيل» والبيت من نظم عمرو بن الأهتم، قال أبو تمام:

يعطي عطاء المحسن الخضل الندى ... عفوًا، ويعتذر اعتذار المذنـب
ومرحّـب بالزائـريـن، وبشـره ... يغنيك عن أهل لديه ومرحب

(٨) آثرنا رواية نهاية الأرب لمطابقة المنشأ للموطن. وفي باقي الأصول «الوطن».

(٩) لم ترد هذه العبارة في نهاية الأرب، وفي بعض نسخ الذخيرة «حنين الناب» والناب: الناقة المسنة، النجيب: الفحل الكريم، العطن: مبرك البعير عند الماء، قال ابن الرومي في الحنين إلى بغداد:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيتـه ... وعليه أغصان الشبـاب تميـد

(١٠) القوابل: جمع قابلة وهي التي تباشر ولادة النساء «الداية».

أحَبُّ بلاد اللّهِ ما بينَ مَنْعِجٍ
إليَّ وسَلْمَى أنْ يَصُوبَ سحابُها[(١)]

بلادٌ بها عَقَّ الشّبابُ تمائمي
وأوّلُ أرضٍ مسَّ جِلدي ترابُها[(٢)]

هذا إلى مغالاتي بعَقْدِ جوارك[(٣)]، ومُنافَسَتِي في الحظّ من قُربك[(٤)]، واعتقادي أن الطمعَ في غيرك طَبَعٌ، والغِنى من سواك عَناءٌ[(٥)]، والبدلَ منك أعورُ[(٦)] والعِوض لَفاءٌ[(٧)]:

وإذا نظرتُ إلى أميري زادني
ضَنًّا به نظري إلى الأُمَراءِ[(٨)]

(١) البيتان وردا في الأمالي (ج١ ص ٨٣) مصدرين بالعبارة الآتية: «أنشدنا عبدالله بن نفطويه، قال أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي ثعلب» وهذه العبارة لا تقطع باسم قائلهما، وأوردهما ياقوت في معجم البلدان وقال إنهما لبعض الأعراب، وقد أورد لسان العرب البيت الثاني منهما في مادة (نوط) ونسبه إلى رقاع بن قيس الأسدي، وللبيتين أول ذكره الصفدي هو:

ألم تعلمي يا دار بلحاء أنني ... إذا أخصبت أو كان خصبًا جنابها

منعج: واد يأخذ بين حفر أبي موسى والنباج ويدفع في بطن فلج (ياقوت)، سلمى: جبل لطيء شرقيّ المدينة (تاج العروس)، يصوب سحابها: ينزل مطرها.

(٢) في الأمالي ومعجم البلدان «حل الشباب تمائمي» وفي لسان العرب مادة (نوط) «بلاد بها نيطت عليّ تمائمي»، عق: شق، التمائم: جمع تميمة، وهي عوذة تعلق على الطفل لتقيه الحسد، وقد تكون خرزة أو صحيفة بها أدعية وطلاسم أو غير ذلك، وفي الحديث «من علق تميمة فلا أتم الله له»، وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

والمعنى: لقد نشأت في هذه البلاد ولما بلغت بها سن الشباب أزلت عني التمائم، وهي أول أرض لمس جلدي ترابها، ومثله قول الشاعر:

ذكرت بلادي فاستهلت مدامعي ... لشوقي إلى عهد الصبا المتقادم
حننت إلى أرض بها اخضر شاربي ... وحلت بها عني عقود التمائم

(٣) في الذخيرة «مع مغالاتي بعلو جوارك» وفي نهاية الأرب «في تعلق جوارك».

(٤) في تمام المتون والمواهب الفتحية «في لحظة من قربك» وقد آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب.

(٥) الطبع: الدنس، قال الشاعر:

لاخير في طمع يُدني إلى طبع ... وغفّة من نعيم العيش تكفيني

الغفة: الزاد القليل يتبلغ به الجائع إلى حين، العناء: التعب والمشقة.

(٦) في الذخيرة «عوز»، من الأمثال «بدل أعور» وسببه – كما في مجمع الأمثال للميداني – أن يزيد بن المهلب صرف عن ولاية خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلي، وكان شحيحًا أعور، فقال الناس هذا بدل أعور، وقال فيه بعض الشعراء:

كانت خراسان أرضًا إذ يزيد بها ... وكل باب من الخيرات مفتوح
حتى أتانا أبو حفص بأسرته ... كأنما وجهه بالخل منضوح

(٧) اللفاء: الخسيس الحقير، أو التراب، أو هو ما دون الحق، يقال فلان رضي من الوفاء باللفاء، وفي الأمثال «أعطاني اللفا غير الوفا» يضرب لمن يبخسك حقك.

(٨) البيت لعدي بن الرقاع، ومعناه: يزيدني اعتزازًا بأميري ما أرى عليه بقية الأمراء من نقص وضعف وهوان.

وكلُّ الصَّيدِ في جَوْفِ الفَرا[١]، وفي كلِّ شجرٍ نارٌ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفارُ[٢]، فما هذه البراءةُ مِمَّنْ يتولاك؟[٣] والميلُ عمّن يميلُ إليك[٤]؟ وهلاّ كان هواك في من هواه فيك!! ورضاك لمن رضاه لك!!

يا من يَعِــزُّ علينا أن نُفــارقَــهُمْ

وِجْــدانُنا كلَّ شيءٍ بعــدكم عــدَمُ[٥]

أُعيذُكَ ونفسي من أن أَشيمَ خُلَّبًا، وأسْتَمْطِرَ جَهامًا[٦]، وأكْدِمَ في غير مَكْدَمٍ[٧]، وأشْكُوَ شكوى الجريحِ إلى العِقبانِ والرَّخمِ[٨]، فما أبْسَسْتُ لك إلا لتدِرَّ[٩]، وما حرّكتُ لك

(١) «كل الصيد في جوف الفرا» مثل مشهور. الفرا: الحمار الوحشي، وأصل المثل: أن ثلاثة خرجوا للصيد فاصطاد الأول أرنبا، والثاني ظبيا، والثالث حمار وحش، فتطاول الأولان على الثالث فقال: «كل الصيد في جوف الفرا». واستأذن أبو سفيان على النبي صلى الله عليه وسلم فحجبه قليلا، وعاتبه أبو سفيان فقال له: «يا أبا سفيان أنت كما قيل: كل الصيد في جوف الفرا» معناه: إذا حجبتك قنع كل محجوب.

(٢) استمجد: استكثر، المرخ: شجر يطول ويتفرع حتى يُستظل به، ويؤخذ منه الزناد الذي يقتدح به، العفار: شجر خوار يؤخذ منه الزناد أيضًا، قال أبو زياد: ليس في الشجر كله أورى زنادا من المرخ، والزند الأعلى يكون من العفار والأسفل من المرخ، قال الأعشى: زنادك خير زناد الملو ك، خالط فيهن مرخ عفارا

والجملتان مثل لمن يكثر العطاء طلبًا للمجد.

(٣) في نهاية الأرب «ممن تولاك»، تولاه: أصبح مواليًا له متعلقًا به.

(٤) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب، وفي تمام المتون والمواهب الفتحية «ممن لا يميل عنك».

(٥) البيت للمتنبي في عتاب سيف الدولة، ويليه:

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة!! لو أن أمركم من أمرنا أممُ

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

(٦) في الذخيرة «أعيذك ونفسي أن أشيم»، شام البرق: نظر إلى سحابته متطلعًا أين تمطر، الخلب: البرق الذي لا سحاب معه كأنه خداع، الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه، قال عمرو بن معد يكرب.

لا يكن برقك برقًا خلّبا إن خير البرق ما الغيث معه

(٧) في بعض نسخ الذخيرة: «وأكدم غير مكدم» وفي بعض نسخ تمام المتون ونسخ الذخيرة «وأكرم غير مكرم» وهو مأخوذ من قول زهير بن أبي سلمى:

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ومن الأمثال «كدمت غير مكدم» أي عضضت غير موضع للعض، يضرب لمن يطلب شيئًا في غير مطلبه.

(٨) مقتبس من قول المتنبي:

ولا تشكّ إلى خلق فتشمتهم شكوى الجريح إلى العِقبان والرخم

الرخم: جمع رخمة من جوارح الطير تشبه النسر في الخلقة، والمعنى: إن جوارح الطير تفترس الجريح، فكيف يشكو إليها ما يلاقيه من جروحه، وهذا مثل قولهم «كالمستجير من الرمضاء بالنار».

(٩) الإبساس: أن يقول الحالب للناقة «بُس، بُس» لتسكن وتدر اللبن.

الحِوارَ إلا لتحنَّ(١)، وما نبهتُكَ إلا لأنامَ(٢)، وما سَرَيْتُ إليكَ إلا لأحمَد السُّرى لديكَ،(٣) بعد اليقينِ من أنك إن سَنَّيت عَقْدَ أمري تيسَّرَ(٤)، ومتى أعذرتَ في فكِّ أسري لم يتعذَّر(٥)، وعِلْمُكَ محيطٌ بأنّ المعروفَ ثمرةُ النعمةِ(٦)، والشَّفاعةَ(٧) زكاةُ المروءةِ وفضلَ الجاهِ(٨) – تعودُ به – صَدَقةٌ.

وإذا امــــرؤٌ أهدى إليكَ صنيـــعـــــةً
من جـــــاهِهِ فكأنَّهـــــا من مــــــالِه(٩)

لعلِّي أُلقِي العصا بذَراك(١٠). وتستقرُّ بِيَ النَّوى في ظِلِّك، [فتستلذَّ جَنى شُكري من غرسِ عارِفَتِكَ، وتستطيبَ عَرْفَ ثَنائي من روضِ صَنيعتك](١١) وأستأنفَ التأدُّبَ بأدبك(١٢)

(١) الحوار: ولد الناقة، ولا يزال حوارًا حتى يفصل عن الرضاع، وفي الأمثال «حرك لها حوارها تحن» أي أظهره للناقة لتستثير حنانها.

(٢) مأخوذ من قول بشار:

إذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمرًا، ثم نم

(٣) السرى: السفر ليلاً. وفي الأمثال: «عند الصباح يحمد القوم السرى»، قاله خالد بن الوليد من أرجوزة منها:

عند الصباح يحمد القوم السرى ... وتنجلي عنهم غيابات الكرى

وفي الذخيرة ونهاية الأرب «وإنما أبسست لك لتدر، وحركت لك الحوار لتحن، ونبهتك لأنام، وسريت إليك لأحمد....» وفي نهاية الأرب «ليحمد المسرَى إليك».

(٤) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي الذخيرة «بعد اليقين أنك»، وفي تمام المتون والمواهب الفتحية «وإنك إن سنّيت» وفي بعض نسخ تمام المتون «متى سنيت» وفي نهاية الأرب «إن شئت»، سنيت: سهلت، قال بشار:

فبالله ثق إن عزَّ ما تبتغي، وقل ... إذا الله سنّى عقد أمر تيسرا

(٥) أعذر: طلب العذر أو بالغ في طلبه، لم يتعذر: لم يصعب.

(٦) المعروف: ضد المنكر، والمعنى: من أحسن الله إليه وجب أن يقدم معروفًا إلى الناس ليكون ثمرة نعمة الله عليه، وفي نهاية الأرب «وعلمك يحيط».

(٧) المعنى: إن الشفاعة لدى الرؤساء في قضاء الحاجات يؤديها الإنسان زكاة عما رزقه الله به من جاه عند الحكام.

(٨) الجاه: القدر والمنزلة، يعود به: ينفع به.

(٩) البيت لأبي تمام من قصيدة كتبها إلى إسحق بن ربعي كاتب أبي دلف، ومعناه: إذا نفعك امرؤ بجاهه فكأنما نفعك بماله.

(١٠) الذرا كل ما استترت به. يقال: أنا في ظل فلان وذراه أي في كنفه وستره، والعرب تكنى عن الاستقرار والسكون بإلقاء العصا لأن المسافر إذا ألقى عصاه عن كتفه فقد قرّ قراره، قال المعتمد بن أوس بن حماد:

وألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينًا بالإياب المسافر

وقد تداول الشعراء هذا المعنى، قال الحسين بن إبراهيم الكاتب:

ألا ليت شعري هل أقولن مرة ... وقد سكنتْ مما أجن الضمائر
فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر

(١١) ورد ما بين القوسين في الذخيرة ونهاية الأرب، وسقط من تمام المتون والمواهب الفتحية، الجنى: الثمر الغض، العارفة: المعروف، الصنيع والصنيعة: الإحسان، وهو صنيعي وصنيعتي أي اصطنعته لنفسي وربيته وحرجته، والمعنى: عسى أن أستقر في ظلك فتجني من شكري ما غرسته نعماؤك، وتستطيب من ثنائي ما أنبته روضك.

(١٢) في الذخيرة ونهاية الأرب «فأستأنف التأدب بك»، المعنى: أعود إلى ما اتبعته من التخلق بأخلاقك والاقتداء بآدابك.

والاحتمالَ على مذهبك[1] فلا أُوجِدَ للحاسد مَجالَ لحظةٍ، ولا (أَدَعَ) للقادح مَساغَ لفظةٍ،[2] والله مُيسِّرُكَ من إطّلابي بهذه الطَّلِبَةِ[3] وإشكائي من هذه الشّكوى، بصنيعةٍ تُصيبُ منها مكانَ المصنَعِ،[4] ويدٍ تستودعُها أحفظَ مُستَودَعٍ[5]، حَسْبَما أنت خليقٌ له، وأنا منك حَريٌّ به[6]، فذلك بيدكَ وهيّنٌ عليك[7].

☆☆☆☆☆

ولما توالتْ غُرَرُ هذا النَّثر، واتَّسَقَتْ دُرَرُه[8]، فهزّ عِطفَ غُلَوائه، وجَرَّ ذيلَ خُيَلائه[9] عارضه النّظم مُباهيًا، بل كايَدَهُ مُداهيًا[10] حينَ أَشفَقَ من أن يَعْطِفَكَ استعطافُهُ، ويَميلَ

---

(١) الاحتمال والتحمل: الارتحال، والمعنى: لعلي أعود إلى التخلق بأخلاقك، والسير على مذهبك، واتباع طريقتك، وفي الذخيرة «والاحتيال على مذهبك»، وشبيه بهذا قول أبي سعيد الرستمي «من شعراء اليتيمة»:

إذا وردوا ماء وردت، وإن طووا ... طويت، وإن قالوا تحوّلتُ قائــلا
وإن نصبوا للحَر حُر وجوههم ... تمثلت حِرباء على الجذل مــاثــلا
يظنون أني سائل فضل زادهم ... ولولا الهوى ما ظنني الركب سائلا

(٢) «أدع» زيادة من الذخيرة، القادح: العائب، ساغ الشراب سوغًا ومساغًا: سهل دخوله في الحلق، وفي تمام المتون والمواهب الفتحية «لحظه... لفظه» والمعنى: لا أدع للحاسد فرصة ليصوب إليّ سهام عينيه، ولا للعائب مجالاً للتشهير بي.

(٣) في الذخيرة «والله شهيدك من إطلابي بهذه الطلبة» وفي تمام المتون والمواهب الفتحية «والله مبشرك» وقد آثرنا رواية نهاية الأرب، إطلابي: إسعافي، الطلبة: ما رجوته من أمر.

(٤) أشكيته: أزلت شكواه، الصنيعة: الإحسان، المصنع والصنيع: المعروف، قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى تصيب بها مكان المصنع

وفي الذخيرة ونهاية الأرب «لصنيعة تصيب بها طريق المصنع».

(٥) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي الذخيرة «وقد تستودعها» وفي تمام المتون والمواهب الفتحية «وتستودعها»، اليد: النعمة والإحسان، المعنى: ونعمة تضعها في خير مكان يحفظها ويصونُها.

(٦) حسبما: بقدر ما، خليق به: جدير به، ومثله حري به: أي جدير به وأهل له، المعنى: إنك جدير بالإحسان، وأنا أهل له منك.

(٧) آثرنا رواية الذخيرة، وفي بقية الأصول «وذلك بيده وهيّن عليه»، وما ورد بعد هذا ساقط من نهاية الأرب، وبدلاً منه قال: «وشفعها بأبيات فقال:

الهوى في طلوع تلك النجوم ... والمنى في هبوب ذاك النسيم»

وأورد القصيدة ثم التعقيب عليها.

(٨) في الذخيرة «واتسعت درره»، توالت: تتابعت، الغرر: جمع غرة وهي أول كل شيء أو أكرمه، اتسقت: انتظمت في نظام بديع.

(٩) العطف: الجانب، الغلواء: سرعة الشباب أو أوله أو المغالاة، وهزّ عطف غلوائه: افتخر بشبابه ومال به تيهًا وعجبًا، الخيلاء: الكبر والتيه، وجرّ ذيل خيلائه: جرر ذيله تيهًا وكبرًا.

(١٠) كايده: كاد له ومكر به، مداهيًا: لعلها مأخوذة من دهاه يدهاه دهيًا إذا عابه وتنقصه، فتكون مداهيًا بمعنى مبادلاً إياه ذكر العيوب والنقائص.

بنفسك إلطافُهُ[١]، فاستحسنَ العائدَةَ منه، واعتدَّ بالفائدة له[٢] وما زال يستكدُّ الذِّهْنَ العليلَ، والخاطرَ الكليلَ،[٣] حتّى زَفَّ إليك منه عَروسًا مَجلُوَّةً في أثوابها،[٤] منصوصةً بحَلْيِها ومَلابها[٥]، [وها هي الأبيات][٦]:

الهــــوى في طُلوع تلك النُّجـــومِ
والــمُنى في هُبـــوب ذاك النَّســـيمِ

.... القصيدة[٧].

ها كَها – أعزّك اللّهُ – يبسُطها الأملُ، ويَقْبِضُها الخَجلُ[٨] لها ذَنْبُ التقصيرِ، وحُرمةُ الإخلاصِ[٩]، فَهَبْ ذنبًا لحُرمةٍ، واشفعْ نعِمةً بنعمةٍ[١٠]، ليتأتّى لكَ الإحسانُ من جهاتهِ، وتَسلكَ إلى الفضل طُرُقَاتِهِ[١١]، إن شاءَ اللّهُ تعالى[١٢].

****

(١) في بعض نسخ الذخيرة «حين أشفق»، أشفق: خاف وحذر، يعطفك: يثنيك ويجذبك إليه، إلطافه: بره وعطفه.

(٢) العائدة: العطف والمنفعة، اعتدّ: عد، المعنى: آثر الشعر أن يكون هو صاحب الفضل في جذبك إلى العفو والغفران.

(٣) في الذخيرة «وما زال يستكره»، يستكد: يجهد، الكليل: غير الحاد أو الضعيف.

(٤) في الذخيرة «حتى زف إليك عروسا ...» جلا العروس على بعلها واجتلاها: عرضها عليه مصقولة مزينة.

(٥) نصّ العروس: جلاها على المنصة، الملاب: الزعفران أو الطيب مطلقًا.

(٦) هذه الجملة زائدة من الذخيرة ولم ترد في غيرها.

(٧) راجع القصيدة في باب الشكوى والعتاب، الصفحة (٣٥٨).

(٨) في الذخيرة «وبعد تمام هذه القصيدة: ها كها..» المعنى: خذها – أعزك الله – ينفسح لها الأمل فتقبل عليك مطمئنة، ويصدها الخجل فتتقبض في حياء، فكأنها يدنيها الأمل ويصدها الخجل.

(٩) المعنى: لها ذنب التقصير عن إيفائك حقك من الثناء ولكنها تمت إليك، بحرمة الإخلاص لك، والتعلق بك.

(١٠) شفع نعمة بنعمة: ضم إلى النعمة مثيلاً لها، المعنى: اعف عن ذنب التقصير إكرامًا لحرمة الوفاء.

(١١) يتأتى: يتهيأ، وفي الذخيرة «لتأتي الإحسان من جهاته، وتسلك إلى الفضل طرقاته» وفي المواهب الفتحية «لتأتي بذلك الإحسان من جهاته وتسلك إلى أفضل طرقاته».

(١٢) هذه الجملة لم ترد في تمام المتون ووردت ببقية الأصول وكلمة «تعالى» ساقطة من الذخيرة.

الرسالة البكرية

«كتب ابن زيدون هذه الرسالة إلى أستاذه وصديقه أبي بكر مُسلَّم بن أحمد بن أفلح النحوي، عاتبًا وآملاً وشارحًا موقفه، وقد أتبعها بقصيدة مؤثرة أوردناها بالديوان[1] وقد عرضنا لمحاكمة ابن زيدون وسجنه في كتابنا عنه: (ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه) ص ١٨٠ – ٢٠١».

يا سيّدي الذي كنت أراه أعَدَّ عُددي لأبدي[2]، وأخصَّ جُنني من زمني[3]، ومن أبقاه الله في أصلح الأحوال، وأفسح الآمال.

أبدأ من كتابي إليك بشرح الضرورة الحافزة إلى ما صنعت،[4] إذ بلغني أنك صدرُ اللائمين لي عليه[5]، وأولُ المسفّهين لرأيي فيه، ومن أمثالهم: «ويل للشَّجيّ من الخَليّ»[6]

(١) وردت هذه الرسالة موجزة بالذخيرة ج١ ص ٣٠٥ مصدرة بالعبارة الآتية: «وكتب إلى الأديب أبي بكر بن مسلم (الصحيح أنه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي كما صححناه في كتابنا عن ابن زيدون ص ١١٨ – ١٢٠) وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن رقعة يقول فيها:» ثم وردت في الكتاب نفسه ج ١ ص ٣٤٤ مصدرة بالعبارة الآتية: «وله من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها، ولم يذكر منها إلا قطرة من وابل، أو نفثة من سحر بابل، وها أنا مثبتها على تواليها، إشادة بحسن معانيها واستفادة من سنيِّ آدابه فيها، وهي:»، ويظهر أن المؤلف أبا الحسن على بن بسام أوردها موجزة، فأضاف أحد تلاميذه أو الدارسين لكتابه الرسالة مفصلة إلى الكتاب، ومع هذا لم ترد كاملة في النص الأخير بدليل قوله في خلال الرسالة «وفي فصل منها» ولكن هذا الأديب أسدى إلى الأدب يدًا مشكورة، فإن أبا الحسن اختصرها في صفحة وبضعة أسطر، وأوردها الأديب في نحو عشر صفحات، وقد اعتمدنا على النص الأخير مع الإشارة إلى اختلاف نسخ الذخيرة وسميناها الرسالة البكرية نسبة إلى كنية المرسل إليه.

(٢) أعد: خير ما أعده، العدد: ما يعده الإنسان لحوادث الدهر من المال والسلاح والأصدقاء، الأبد: الدهر، المعنى: يا سيدي الذي أدخره خير عدة لي مدى الحياة.

(٣) الجنن: جمع جنة وهي ما يستتر به الإنسان من سلاح أو درع أو مغفر.

(٤) حفزه: دفعه من خلفه، والليل يحفز النهار أي يسوقه، الضرورة الحافزة: أي الملحة الدافعة، وفي الصيغة الموجزة «ابدأ أولاً بشرح الضرورة..».

(٥) في بعض النسخ «مما بلغني انك أحد اللائمين...»، صدر كل شيء: أوله، المسفهين: المخطئين، من سفهه إذا نسبه إلى السفه وهو الطيش والنزق.

(٦) الشجيّ: الحزين، الخليّ: الخالي من الهموم، قال أبو الأسود الدؤلي:

ويل الشجيّ من الخليّ، فإنه ... نصب الفؤاد لشجوه مغموم

وسبب مضرب المثل في ما يزعم العرب: أن رجلاً اسمه شجيّ كانت له زوجة أحبت رجلاً آخر اسمه خلي، فدبرت حيلة للفرار من زوجها، ورآها لقمان الحكيم فقال: «ويل للشجيّ من الخليّ»، وفي رواية أخرى: أن أكثم بن صيفي دعا قومه إلى الدخول في الإسلام، فقال مالك بن نويرة لقد خرف شيخكم فقال أكثم: «ويل للشجي من الخلي».

و«هان على الأملَس ما لاقى الدَّبِر»(١).

وأُوسِّطُه بمعاتبتك على ما كان من انفصالك عني، وبراءتك أمَدَ المِحنة منّي(٢)، وأنك لم تكن في وِرْدٍ ولا صَدرٍ من مشاركتي فيها(٣)، ولا كانت لك ناقةٌ ولا جملٌ في مُظاهرتك لي عليها(٤)، مع القُدرة بك على تهوين خطبها، وتذليل صَعبها، وتليين شديدها، وتقريب بعيدها(٥).

فأرى صِدقك الحديثَ، وما ذا
ك لبخلٍ عليك بالإغضاء
أنت عَيني، وليس من حق عيني
غضُّ أجفانها على الأَقْذاء(٦)

وإنما يُعاتَبُ الأديمُ ذو البَشَرَةِ(٧)، والمثَلُ السائر: «ويبقى الودّ ما بقِيَ العتابُ»(٨)، وقال الأول(٩):

---

(١) الأملس: الصحيح الظهر، الدبر: الذي أصابت ظهره الدبرة وهي القرحة، والمعنى: إن السليم لا يشعر بمرض المريض، والمثل يضرب لسوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه، وفي بعض النسخ «ما يلقى الدبر».

(٢) في الصيغة الموجزة «وأعاتبك على انفصالك عني، وبراءتك..».

(٣) الورد: ورود الماء، والصدر: الصدور عنه، يقال: فلان ليس له ورد ولا صدر من هذا الأمر: أي ليس له به أي إلمام، قال الشاعر:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ ... لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

(٤) «لا ناقتي في هذا ولا جملي» أي لا شأن لي بهذا الأمر، وهو مثل قاله الحارث بن عباد وقد اعتزل الحرب بين بكر وتغلب، قال الراعي:

وما هجرتك حتى قلت معلنة ... لا ناقةٌ ليَ في هذا ولا جملُ

والمظاهرة: المعاونة، والظهير: المعين، قال تعالى ﴿الملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

(٥) المعنى: تبرأت من التهمة الملصقة بي مع قدرتك على تهوين مصابها، وتسهيل صعبها، وإضعاف شدتها، وتقريب ما بعد منها.

(٦) البيتان لابن الرومي من قصيدة طويلة يعاتب فيها صديقه أبا القاسم:

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو ... ه لدهري، قطعت متّن الرجاءِ
لا أجازيك من غرورك إيَّا ... يَ غرورًا، وُقيتَ سوء الجزاءِ
بل أرى صدقك الحديث، وما ذا ... كَ لبُخل عليك بالإغضاءِ

المعنى: إني أصارحك بما بنفسي من عتاب، وليس هذا خروجًا مني على ما يجب على الصديق من الإغضاء على هفوة الصديق، فإنك بمنزلة عيني، والواجب ألا يغمض الإنسان عينه على ما يؤلمها ويمرضها من الأقذاء.

(٧) الأديم: الجلد، والبشرة: ظاهره، والأدمة: باطنه، المعاتبة: المعاودة، والمثل «إنما يعاتب الأديم ذو البشرة» معناه: إنما يراجع من تصلح مراجعته، ويعاتب من الإخوان من لا يحمله العتاب على اللجاج، في ما كره منه وعوتب عليه، وأصله: أن الجلد إذا لم تصلحه الدبغة الأولى أعيد في الدباغ إذا كان ذا قوة ومسكة، وترك إذا كان ضعيفًا لئلا يزيد ضعفًا، وشبيه بهذا قول الشاعر:

وليس عتاب المرء للمرء نافعًا ... إذا لم يكن للمرء لب يعاتبه

(٨) هذا عجز بيت هو:

إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقي العتاب

(٩) هو همام الرقاشي، ويلي هذا البيت ثلاثة أبيات وردت في البيان والتبيين هي:

قدمت قبلي رجالاً، لم يكن لهمُ ... في الحق أن يلجوا الأبواب قُدَّامي
لو عُد قبر وقبر كنت أكرمهم ... قبرًا وأبعدهم من منزل الذَّام
حتى جعلتُ إذا ما حاجة عرضت ... بباب دارك أدلوها بأقوامِ

أبلغْ أبا مِسمَعٍ عني مغلْغَلةً
وفي العِتاب حياةٌ بين أقوام[١]

وأختِمه بتكليفك ما كان سببَ الكتاب، والداعي إلى الخِطاب، عساك أن تتلافى عَوْدًا ما ضيَّعت بدءًا[٢]، وتهتبلَ آخِرًا ما أغفلتَ أولاً[٣]، فيعودَ غيثُهُ على ما أَفسد[٤]، وإن كنتُ في ذلك «كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ»[٥] فمنفعة الغَوث قبل العَطب[٦].

وخيرُ الأمر ما استقبلتَ منه
وليس بأن تَتَبَّعَه اتِّبَاعا[٧]

وفي علمك أني سُجنت مُغالبةً بالهوى، وهو أخو العَمى[٨]، وقد نهى الله تعالى عن

---

(١) مغلغلة: محمولة من بلد إلى بلد، والمعنى: أبلغْ أبا مسمع رسالة سائرة في عتابه لأن في العتاب حياة المودّة والصفاء.

(٢) تتلافى: تتدارك، المعنى: عساك تصلح آخرًا ما أهملت أولاً، وفي بعض النسخ «... ما أضعت بدءًا».

(٣) اهتبل: اغتنم، واهتبل الفرصة: انتهزها، قال ذو الرمة:

ومطعم الصيد هبالٌ لبغيته ... ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب

(٤) المعنى: لعلك تنقذ ما ضيعته مني، كما يصلح الغيث الأرض الجدباء التي طال هجره إياها.

(٥) حلم الأديم: فسد الجلد، والمعنى: إنك في محاولة إصلاح أمري مثل من تدبغ الجلد وقد كاد يتمزق، أو إنني في محاولة استدرار عطفك عليّ كمن يحاول استعطاف من لا يعطف، والمعنى مأخوذ من قول الوليد بن عقبة محرضًا معاوية على حرب عليّ عليه السلام من أبيات:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فإنك من أخي ثقة مليمُ
قطعت الدهر كالسَّدِمِ المعنى ... تهدد في دمشق ولا تريمُ
فإنك والكتاب إلى عليّ ... كدابغة، وقد حَلِم الأديمُ
لك الويلات أوردنا عليه ... وخير الطالب الترة الغشومُ

(٦) في الأصول «فمنفعة القوت...» ولعل الصواب ما أثبتناه، وهو عجز بيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، ويذكر صده الدمستق قائد الروم بعد أن أوقع ببعض رعايا سيف الدولة، ويشرح كيف أنقذهم سيف الدولة من قبضته، يقول منها:

سبقت إليهم مناياهمُ ... ومنفعة الغوث قبل العطب
فخَروا لخالقهم سُجَّدًا ... ولو لم تُغث سجدوا للصلب
وكم ذدت عنهم ردًى بالردى ... وكنفت من كرب بالكرب

(٧) البيت للقطامي من قصيدة يمدح فيها زفر بن الحارث يقول فيها:

ومعصية الشفيق عليك مما ... يزيدك مرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبعه اتباعا

والمعنى: إذا عصيت الشفيق عليك ندمت وعدت إلى استماع نصحه، وخير الأمور ما أتى إليك عفوًا دون مشقة أو إلحاح في الطلب.

(٨) يشير إلى الحديث الشريف «حبك الشيء يُعمي ويُصم»، قال عبدالله بن معاوية الطالبي:

ولست براء عيب ذي الود كله ... ولا ناظر فيه وإن كنت رائيا
وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

اتباعه، وذكر أنه مُضلّ عن سبيله، إذ يقول: ﴿ولا تَتَّبِع الهَوى فيُضِلَّك عن سبيل الله[(١)]﴾:
وقال الشاعر:[(٢)]

إذا أنت لم تَعْصِ الهـوى، قـادك الهـوى
إلى بعض مـا فـيـه عليك مَـقـالُ[(٣)]

دون تأنٍّ تُدرَك بعضُ الحاجة به، أو استثباتٍ تؤمَنُ مُواقعةُ الزَّلَلِ معه[(٤)]، بل:

أوردها سَـعْـدٌ، وسـعْـدٌ مـشـتـمِلْ
مـا هكذا تُورَدُ يا سـعْـدُ الإبِلْ[(٥)]

وشهد ابنُ العطّارِ العشّارُ العاري عن الثقةِ والأمانةِ، البعيدُ من الرعاية والصّيانة[(٦)]، الناشرُ لأذُنيه طمعًا، الآكلُ بيديه جَشعًا، قال... وكان القولُ ما قالت حَذامِ[(٧)]، ولم يقتصر على أن أُلْحِقَ بالشُّهود وهو واوُ عمرو فيهم[(٨)]، ونون الجمع المضاف معهم[(٩)]، دون أن

---

(١) سورة ص الآية ٣٦.
(٢) ذكر المبرد في كتابه (الكامل) أنه هشام بن عبدالملك.
(٣) إذا اتبعت هواك وانقدت إلى شهواتك وقعت في ما يوجب عليك الملام.
(٤) المعنى: لقد ألقيت بالسجن دون تأن أو تثبت رجاء إدراك بعض الحاجة أو خشية الوقوع في الأخطاء، يشير بهذا إلى قول القطامي:
قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل
(٥) هذا البيت مثل يضرب للرجل إذا قصر في الأمر إيثارًا للراحة، مشتمل: ملتف بكسائه، قال هذا المثل مالك بن زيد مناة ابن تميم حين رأى أخاه سعدًا أورد إبله، ولم يحسن القيام عليها، بل تركها واشتمل بثوبه.
(٦) لم نجد في ما بين يدينا ترجمة لابن العطار هذا، ولعله كان جابيًا للزكاة فإن من معاني العشار جابي الزكاة، وفي بعض النسخ، «العاري من الثقة»، وفي جميع الأصول «البعيد من الرعية..» ولعلها الرعيا أو الرعوى بمعنى رعاية العهد أو النزوع عن الجهل، وقد تكون الرِّعوة أو الرَّعوة أي الازدجار والاتعاظ، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٧) آثرنا رواية الصيغة الموجزة، وفي الصيغة المطولة «الآكل بيديه جشعًا، فكان القول»، ويشير الكاتب هنا إلى قول لجيم بن صعب في صدق زوجته «حذام»:
إذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام
(٨) من نظام القضاء في الأندلس ألا يتولى إنسان أمر الشهادة أو الفتوى «حتى يطول اختباره وتعقد له مجالس المذاكرة ويكون ذا مال»، ويلزم القاضي «أن يكون أول ما يبتدئ به الكشف عن الشهود والموثقين فيتعرف حال من لا يعرف حاله منهم، ويفحص عن عدالتهم، فمن كان عدلاً أثبته، ومن كان فيه جرحة أسقطه، وأراح المسلمين من أذيته»، وهو نظام يشبه نظام المحلفين في المحاكم الفرنسية، ولعل الفرنسيين اقتبسوه من مذهب مالك وهو مذهب الأندلسيين «راجع كتابنا: ابن زيدون حياته وعصره وأدبه ص ١٩٠» والكاتب هنا يشير إلى أنّ ابن العطار دخيل على الشهود كما زيدت الواو في اسم عمرو دون أن تكون من حروفه، قال أبو نواس: في أشجع السلمي:
أيها المدعي سُلَيْمًا سفاهًا   لست منها ولا قلامة ظفرِ
إنما أنت من سليم كواو   ألحقت في الهجاء ظلمًا بعمرِو
(٩) المعروف أن نون الجمع تحذف عند الإضافة مثل: معلمو المدينة ومهندسوها حاضرون.

يُلحَقَ بخُزيمةَ ذي الشّهادتين،(١) وينوبَ منفردًا عن اثنين(٢).

لـيـس عـلــى الـلــه بمـســــــــــتَـنـكَـرٍ

أن يجــــمـع الـعـــــالم في واحــــدِ(٣)

وليتني – مع من لا يحِلُّ قولُهُ عليَّ – أُعْذِرَ في شهادته إليَّ(٤)!! ولم يقترنْ الحَشَفُ مع سُوء الكيلة،(٥) وتُستضَفْ لِيَ الغُدّة إلى الموت في بيت سلُوليّة،(٦) خُطَّتَا خَسفٍ!! لم أرَ النَّجاء منهما إلاّ أن ركبتُ الحَــوليَّ الأشـــهبَ، ورأيـــتَ خُـراســـانَ مكان السُّوق أو هــي أقرب(٧)، وكـان المتــولِّي سـجْني بـعــد شـــهر مـــن إنفـــاذه، لـــه مـجلــسٌ

(١) هو خزيمة بن ثابت الأنصاري سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذا الشهادتين» وذلك أن يهوديًا أتاه فقال: يا محمد أقضني ديني، فقال عليه السلام: أو لم أقضك؟ قل: لا، فقال: إن كانت لك بينة فهاتها، وقال لأصحابه: أيكم يشهد أني قضيت اليهودي ماله؟ فأمسكوا جميعًا، فقال خزيمة: أنا يا رسول الله أشهد أنك قضيته، قال: وكيف تشهد بذلك ولم تحضره ولم تعلمه؟ فقال: يا رسول الله نحن نصدقك على الوحي من السّماء فكيف لا نصدقك على أنك قضيته؟ فأنفذ عليه السلام شهادته وسماه ذا الشهادتين لأنه قام مقام شاهدين.

(٢) المعروف أن الشهادة لا تتم إلا بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين من العدول.

(٣) البيت لأبي نواس «سبق شرحه وإيراد مناسبته».

(٤) الإعذار: اصطلاح فقهي وهو إعطاء المتهم فرصة الدفاع عن نفسه. وفي هذا يقول ابن فرحون: «كل من قامت عليه بينة بحق من معاملة أو نحوها أو دعوى بفساد أو غصب أو تعد فلابد من الإعذار إليه قبل الحكم عليه...» أي إعطاؤه الفرصة للدفاع عن نفسه قبل إدانته «راجع كتابنا عن ابن زيدون ص ١٩٠». وفي النص الموجز «وليت مع قبول من لا تجهل شهادته عليّ، بعد رقيه إني ولم يقرن الحشف...».

(٥) الحشف: أردأ التمر، والعبارة مثل يضرب لمضاعفة الغبن بالبضاعة الرديئة المصحوبة بتطفيف الكيل.

(٦) الإشارة إلى المثل «غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية»، وسببه أن عامر بن الطفيل أنذر النبي صلى الله عليه وسلم بالحرب فدعا عليه، فبرزت له غدة كبيرة وهو نازل في بيت امرأة من سلول «وقد ذكرنا القصة بالتفاصيل آنفًا».

(٧) الحوليُّ: كل ذي حافر أو خف مرت عليه سنة، الأشهب: الأبيض المشرب بنوع من السواد، ويطلق على الأسد، أو الأمر الصعب، أو العام الجديب، والكاتب يشير إلى قصة ضابئ بن عميرة البرجمي حينما وفد على ابن نهية صاحب الشرطة بالبصرة، فأغراه به أحد أعوانه، وذكره أن ضابئًا دخل على عثمان بن عفان عند مقتله فوطئ ضلعين من أضلاعه، فأمر ابن نهية بقتله، ففر ضابئ هاربًا من بلد إلى بلد، وفي ذلك يقول عبدالله بن الزبير الأسدي:

تجهز، فإما أن تزور ابن ضابــئ	عميرًا، وإما أن تزور المهلبـا
هما خطتا خسف!! نجاؤك منهما	ركوبك حوليًا من الثلج أشهبــا
فأضحى، ولو كانت خراسان دونه	رآها مكان السوق أو هي أقربَا

والهاء في (دونه) عائدة على المهلب، (راجع القصة في الكامل للمبرد ج١ ص ١٨٣).

حضـرةُ فقهاء الحَضرةِ ومن أُعلِمَ بسيماهم[١]، وجرى في غِشْيانِ الحُكّام مَجراهم، فذكر له أنه اتّهمني بالغَيب،[٢] على عهد المتوفى مولايَ – كان – نقعَ الله صَداه، وبلّ ثَراه[٣]، وثبت عنده مع ذلك أني ممن تعلقُهُ التُهم، ولا ترتفعُ عنه الظِّنن[٤]، فكلهم أفتى بالإعذار إليَّ، فيما شـهد به من ذلك عليَّ، ثُمَّ سِجني إن لم آتِ بمدفَع، أو أصـدَعْ من الحُجّة بمَقنع[٥]، فاحتاطَ واجتهدَ، وتحرّى واقتصدَ، وصالحني من هذه الفُتيا على النِّصْفِ، بتأخير الإعذار وتقديم السّجن[٦]!! والصلحُ جائزٌ بين المسلمين[٧]؛ ثم أظهرتُ إليه عَقدًا كان المتوفّى – قدسَ الله روحَهُ، ونوَّرَ ضريحَهُ – وقد أَشْـهَدَ فيه أَلاَّ مالَ له، وأنّ جميعَ مـا تحيطُ به الدارُ التي تُوفّيَ بُعَيْدَ هذا الإشهاد فيها، إنما هو للغانية التي في عِصمته[٨] – حاشَا دقائقَ بيِّنها ومُحقَّراتٍ عيِّنها – ومعلومٌ أن من أشـهَدَ بهذا على نفسه، وتقيّدَ إلى مثله من لفظه، فمحالٌ أن يُخلِّفَ عـهدًا أو يَهْلِكَ عن وصيَّةٍ[٩]، وسـألتُه الشورى فيـما أثبتُّه من هذا العِقْدِ، فلم يجبْني إلى

(١) حضرة الرجل: قربه أو فناؤه، أنشد الليث:

فشلت يداه يوم يحمل راية ... إلى نهشل، والقوم حضرة نهشل

والحضـرة تطلق في الاصطلاح على مكان الرئيس أو الحاضرة وهي العاصمة، والسيماء: العلامة، وكان للفقهاء زي خاص لا يلبسه سواهم يتميزون به هو القلنسوة والرداء (راجع كتابنا عن ابن زيدون ص ٥٧، ٥٨).

(٢) في الأصول «اتهمني بالمغيب» ولعل الأصح ما ذكرناه، قال تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤمنون بما لم يشاهدوه أو يدركوه بحواسهم، واتهمه بالمغيب: رماه بذنب دون أن يعلم صدوره عنه.

(٣) نقع الغليل: أذهب العطش: وفي المثل: «الرشف أنقع» أي أقطع للعطش، الصدى جثمان الميت بعد دفنه، والمعنى: أدعو الله أن يسقي ضريحه وأن يعطره بالرحمات، ومن عادة العرب أن يدعوا للميت بالسقيا لأن المطر كان خير نعمة تمنحها لهم السماء، قال الحسين بن مطير الأسدي في رثاء معن بن زائدة:

الِمّا على معن، وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعًا ثم مربعا

(٤) من قواعد القضاء في مذهب الإمام مالك (مذهب أهل الأندلس) أن القاضي يجب أن يعذر إلى المتهم قبل الحكم عليه – أي يعطيه فرصة الدفاع عن نفسه – «إلا أن يكون من أهل الفساد الظاهر أو من الزنادقة المشهورين بما ينسب إليهم» ويظهر أن الحاكم أراد النكاية بابن زيدون فعدّه من أهلي الفساد الظاهر، الذين تصدق فيهم التهم، وتتحقق فيهم الشكوك.

(٥) لم يقنع الفقهاء بما سمعوه، وأفتوا بالإعذار إلى ابن زيدون أي بإعطائه فرصة الدفاع عن نفسه قبل الحكم عليه، فإذا لم يستطع الدفاع عن نفسه بدليل يدفع عنه التهمة، أو حجة مقنعة فللحاكم أن يحكم بسجنه.

(٦) عكس الحاكم النصيحة فقدّم نصفها الأخير وهو السجن، وأخر نصفها الأول، وهو تمكين المتهم من الدفاع عن نفسه، فقلب الأوضاع قلبًا غريبًا يدل على سوء النية والإصرار على الظلم والإجحاف.

(٧) في الحديث الشريف: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً» وقد اقتبسه عمر بن الخطاب في رسالته الجامعة لأحكام القضاء التي وجهها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.

(٨) في بعض النسخ «.. هو للغلامة التي في عصمته»، الغانية: المرأة الجميلة التي غنيت بحسنها وجمالها عن التزيّن، أو الزوجة التي غنيت بزوجها عن الرجال، والكاتب يذكر هنا: أنه قدّم عهدًا مكتوبًا من المتوفى أشهد فيه على نفسه أنه لا مال له، وأن الدار المتنازع عليها ليست ملكًا له، وإنما هي ملك لزوجته، إلا بعض المتاع الذي ذكره، ويظهر أن ورثة المتوفى – غير زوجته – ادعوا على الكاتب أنه اغتصب الدار من مورثهم، فأثبت لهم أنها لم تكن من ملكه.

(٩) يظهر أن الورثة يدعون أن مورثهم عهد إليهم بداره أو أوصى لهم بها، مع أن العقد الذي أظهره الكاتب يناقض هذه الدعوى بأجلى بيان.

ذلك[1]، ولو لم تكن الشُّورى من أدب الله – إذ يقول: ﴿وشَاورهم في الأمر، فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله﴾[2] – لوجبَ أن يَعلمَ أنها لِقاحُ العقلِ، ورائدُ الصّواب[3]، وأن للمُشاورِ إحدى الحسنيين: صوابًا يفوزُ بمحْمَدتِهِ، أو خطأً يشاركُ في مذمَّته[4]، قال الشاعر:

ولا تجعلِ الشّورى عليك غَضاضةً
فإن الخوافي عدةٌ للقَوادمِ[5]

قد قُرِعتْ له العصا[6]، ونُبِّهَ على [أنَّ][7] الذي دعوتُه إليه، لا يسوغُ لي دفعُه عنه، ولا يجوزُ منعي منه، فحينئذٍ علّلني بمواعيدِ «كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلاً[8]»، «إذا قطعنَ

---

(١) لجّ الحاكمُ في عناده فطلب إليه الكاتب أن يستشير في أمره الفقهاء، ومن الشروط الواجبة في القاضي في مذهب الإمام مالك أن يكون «.. حليمًا مستشيرًا لأهل العلم والرأي» وكان للقضاء في الأندلس مشاورون كي لا يصدروا إلا عن آراء ناضجة، وهذا يشبه إلى حد ما نظام المحلفين في العصر الحديث (راجع كتابنا عن ابن زيدون ص ٥٧).

(٢) الآية ﴿فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر﴾ سورة آل عمران ١٥٩.

(٣) اللقاح: اتصال الذكر بالأنثى للتناسل، ولقاح العقل: أي إن الشورى مثيرة للعقل دافعة إياه إلى التفكير الناضج الحكيم، رائد الصواب: دليله.

(٤) المعنى: إذا أصاب المستشير فقد استحق الحمد والثناء، وإذا أخطأ فقد وجد من يحتمل معه نتيجة الخطأ، فهو ظافر على الحالين بإحدى الحسنيين.

(٥) البيت لبشار بن برد من أبيات يقول منها:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن — برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة — فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها — وما خير سيف لم يؤيد بقادم

الخوافي: ما دون الريشات العشر من مقدم الجناح، القوادم عشر ريشات في مقدم الجناح، والمعنى: لا تستنكف من مشورة الحكماء فإن ضم رأي إلى رأي ينير أمامك الطريق، كما أن قوادم الجناح وخوافيه تعطيه قوة على الطيران.

(٦) معناها نبه على ما ينبغي له أن ينتبه إليه، وفي الأمثال «إن العصا قرعت لذي الحلم» وسببه أن أحد حكماء العرب طعن في السن فأوصى بنيه أن يقرعوا له العصا إذا خلط في كلامه ليتنبه، وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل آنفًا.

(٧) زدنا حرف التوكيد «أنّ» لأن السياق يقتضيه.

(٨) يقال إن عرقوبًا رجل من خيبر وعد أخاه بثمر نخلة ثم أخلفه ما وعده، فضرب به المثل في الكذب والخلف، قال كعب بن زهير:

فلا يغرّنك ما منت وما وعدت — إن الأماني والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً — وما مواعيدها إلا الأباطيل
فليس تنجز ميعادًا إذا وعدت — إلا كما تمسك الماء الغرابيل

عَلَمًا بدا علَمُ[١]»، وكان آخرُها الذي نسَخَ به ما قبلَه أن تُدرَجَ الشورى للورثة، فثويتُ أرقبُ هذا الحِينَ، وأرجو أن يحينَ، «كما يرجو أخو السنَّة الربيعا[٢]»، و«كما في بطون الحاملات رجاءُ[٣]».

فكنتُ وإياه ســــحــــابةَ مُــمْــحِلٍ
رجـــاها، فلمـــا جـــاوزتْهُ اســتــهلّتِ[٤]

وفي فصل منها:[٥]

ولم أقُصَّ عليك يا سيدي ممّا اجتلبْتُهُ إلا ما شُهِر شُهرةَ الاسم، وعُرِف معرفة النَّسب، و«ما يومُ حَليمةٍ بِسرٍ»،[٦] وكنتُ أوّلَ حبْسى قد وُضِعتُ من السّجن في موضعٍ جرت العادةُ بوضع مستوري الناس وذوي الهيئات فيه، وفي الشرّ خِيارُ[٧]، وبعضُه أهونُ

(١) العلم: الجبل، والبيت مُقتبس من أرجوزة لجرير يقول منها:

أقبلن من جنبيِّ فتاخ وأضمّ ... على قلاص مثل خيطان السلمْ
إذا قطعن علمًا بدا علـــمْ ... حتى تناهين إلى باب الحكـــمْ

(٢) السنة: هنا الجدب والقحط، صاحب السنة: الذي يشكو الفقر والقحط، وقد اقتبس الكاتب شطرًا من أبيات رواها ابن دريد يقول فيها:

ألا يا كاس قد أفنيت قولـــي ... فلستُ بقائل إلا رجيـــعـــا
ولســـــتُ بنائم إلا بـهـــمّ ... ولا مستيقظًا إلا مَروعـــــا
أؤمل أن ألاقي آل كــــأس ... كما يرجو أخو السنة الربيعا
وإنك لو نظرتِ فدتكِ نفسي ... إلى كبدي وجدتِ بها صُدوعا.

(٣) المعنى: أرجو تحقيق وعده كما ترجى الولادة أثناء الحمل، وقد اقتبس الكاتب هذا الشطر من أبيات قالها محرز بن المكعبر الضبي يقول منها:

وإني لراجيكم على بطء سعيكم ... كما في بطون الحاملات رجاءُ
فهلا سعيتم سعي عصبة مازن ... وهل كفلائي في الوفاء سواء؟

«راجع القصيدة ومناسبتها في ديوان الحماسة».

(٤) البيت لكُثير من قصيدته التائية المشهورة يقول منها:

وإني وتهيامي بعزةَ بعدمــــا ... تخليتُ مما بيننا وتخلـــتِ
لكالمرتجي ظل الغمامة، كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت
فكنتُ وإياها سحابةَ ممـحل ... رجاها، فلما جاوزته استهلت

الممحل: المجدب، والمعنى: كنت أترقب الخير منه، ففاتني خيره، كالرجل المجدب الذي رأى سحابة فتوقع مطرها، فلم تمطر إلا بعد أن جاوزته.

(٥) تدل هذه العبارة على أن الرسالة وصلت إلينا ناقصة.

(٦) وجه الحارث بن أبي شمر الغساني جيشًا لقتال المنذر بن ماء السماء، وندب مائة رجل ليحتالوا على المنذر ويأخذوه على غرة، فأخرجت لهم ابنته حليمة طيبًا طيبتهم به، فاشتهر هذا اليوم، وقال فيه المبرد: هو أشهر أيام العرب. ويضرب مثلاً لكل أمر متعارف مشهور، وقد تحدثنا قبل عن هذا المثل بالتفصيل.

(٧) يشير إلى المثل المشهور «إن في الشر خيارًا».

من بعض[1]، فُمنيتُ من مطالبة بعض من يأتمرُ الناظرون في السّجن له، ويسمعون منه، بما اقتضى نقلي إلى حيث الجناةُ المفسدون، واللصوص المقيَّدون[2] [ومُنِعَ مني عُوّادي][3] وشكوتُ ذلك إلى الحاكم الحابس لي في اليوم الذي مضى ذِكْرُه، بَمشهدِ مَنْ تقدَّمَ وصفُه، فانتفى من الرِّضى به[4]، وأظهر الامتعاضَ منه، وتقدم إلى الموكَّل بالسّجن في اختيار مجلس أُباينُ فيه من لا تليقُ بي مُلابستُه[5]، وأَنتبذُ عمَّن لا تُرضى لي مجالستُه[6]، ثم لم ألبثْ أن أَحضَرَهُ مجلسَ نظره،[7] وأمر بتأديبه على امتثاله فيَّ ما أمره به[8]، وانتهائه إلى ما حدَّ له، واستأنفَ العهدَ في التضييق عليَّ، ومنع من اعتاد صِلتي من الوصول إليَّ، فأُصْعِدْتُ إلى غرفةٍ في السجن أقنعني بها مع خساستها، وأسلاني عن المصيبة بالكون فيها على مضاضتها، انفرادي من لفيفِ الأخلاط، ومن ضمّه السجنُ من السَّفِلَةِ والسُّقّاط[9]، فحين استوائِي إليها، عهدِ بحطِّي إليهم، وخَلطي بهم، ووضعي بينهم، فَنُقِلْتُ في نفسي ثلاثَ نُقلٍ[10]، على أقبحِ النُّصُبِ، وأسوأ الرُّتَب[11]، ودخل إليَّ في هذه الحال

(١) يشير إلى قول الشاعر:

أبا منذر أفنيت! فاستبق بعضنا ... حنانيك! بعض الشر أهون من بعض

(٢) في النص الموجز «ثم نقلت بعد إلى حيث الجُناة المفسدون واللصوص المقيدون».

(٣) زيادة من النص الموجز، ويؤيدها ما ذكره الشاعر في قصيدته الملحقة بالرسالة الجدية، ص (٣٦٤) حيث يقول:

سقم لا أعاد فيه، وفي العا ... ئد أنس يفي ببرء السقيم

نار بغي سرى إلى جنة الأمـ ... ـن لظاها، فأصبحت كالصريم

(٤) في النص الموجز: «فشكوت إلى الحاكم الحابس لي فصمّ عني».

(٥) الملابسة: المخالطة، يقال: لابس الرجل فلانا: خالطه، أو عرف باطنه.

(٦) انتبذ: ذهب ناحية، وانتبذ عن قومه: تنحى عنهم، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم «مر بقبر منتبذٍ عن القبور...» أي منفرد عنها.

(٧) مجلس النظر: مجلس الحكم.

(٨) امتثل أمره: احتذاه أو أطاعه.

(٩) المضاضة: وجع المصيبة، قال طرفة بن العبد:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

الأخلاط: جمع خلط وهو الأحمق، ورجل خلط ملط: مختلط النسب، والمراد هنا الأوشاب، الأسقاط: جمع سقط والسقط هو رديء المتاع ومثله الوغد الدنيء من الناس.

(١٠) وضع الشاعر في مكان بالسجن يناسب منزلته ومكانته، ثم نقل إلى حيث الأوغاد والسفلة، ثم نقل إلى غرفة حقيرة انفرد بها، ثم أعيد مرة ثانية إلى حيث يقيم المجرمون والرعاع، فالشاعر أقام بثلاثة مواضع في سجنه.

(١١) النَّصب والنُّصّب والنُّصُب: الداء أو الشر أو البلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾.

من أبلغني عن ابن أخي الحكَم رسالةً جامعةً من السبِّ الفاحشِ لفنونٍ، مشتملةً من الوعيد المرهب على ضُروبٍ، فلو ذاتُ سوارٍ لطمتني[١]!!

وإنك لم يفخَر عليك كفاخرٍ
ضعيفٍ، ولم يغلبك مثلُ مغلَّب[٢]

فلم أستطع صبرًا، وعلمت أني قد أَبلَيْتُ عُذرًا[٣]، ولم يبقَ إلا أن يعذرني لَبيدٌ، وكاد[٤]!! ورأيت أن العاجز من لا يستبد[٥]، فالمرء يعجز لا المَحالةُ[٦]، ولم أستجزْ أن أكونَ ثالث الأذلَّيْن: العَيْرِ والوَتِدِ[٧]، وذكرتُ أن الفِرارَ من الظلم، والهربَ ممّا لا يطاقُ من سُنَنِ المرسلين[٨]، قال الله عز وجل على لسان موسى عليه السلام: ﴿ففررتُ منكم لمّا خِفتكم[٩]﴾، وقال الشاعر:

---

(١) «لو ذات سوار لطمتني» مثل يضرب لشدة الهوان، يقال إن حاتمًا الطائي لطمته أمةٌ وهو أسير، فقال هذه العبارة فصارت مثلاً، كأنه جعل السوار علامة للحرية، ويروى «لو غير ذات سوار لطمني» أي لو ضربني رجل لانتقمت منه أشد انتقام.

(٢) البيت لامرئ القيس ومعناه: من البلية أن يفخر عليك الضعيف ويغلبك المغلوب.

(٣) أبليْتُه عذرًا: أديته إليه فقبله.

(٤) يشير إلى قول لبيد حين أحس دنو منيته:

يسرُّ ابنَتيَّ أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فإن حان يومًا أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شعر
إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

(٥) في الصورة الموجزة «وعلمت أن العاجز» يشير إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

لَيْتَ هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

(٦) في الصورة الموجزة «والمرء يعجز...»، المحالة: الحيلة، والجملة مثل معناه: لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز الضعيف، قال مجاعة بن مرارة الحنفي:

حاولت حين صرمتني ... والمرء يعجز لا المحالةْ
والدهر يلعب بالفتى ... والدهر أروغ من ثعاله
العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه المقاله

(٧) العَيْر: الحمار، قال المتلمس:

ولا يقيم على ذل يراد به ... إلا الأذلان: عَيْرُ الحيِّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحدُ

(٨) في الصورة الموجزة «ممن لا يطاق من سنن المسلمين، وقد قال تعالى».

(٩) سورة الشعراء آية ٢١.

لا عـــارَ لا عـــارَ في الفِـــرارِ، فـــقَـــدْ
فـــرّ نـبيُّ الـهُـــدى إلى الـغـــارِ[1]

ونظرتُ في مفارقةِ الوطنِ، والبَيْنِ عن الأحبَّةِ، فتبيّن لي أن إيحاشَ نفسي بإيناسِ أهلي[2]، وقطعَها في صلَةِ وطني، غَبْنٌ في الرأي، وخَوَرٌ في العزم[3]، ووجدتُ الحُرّ ينامُ على الثُّكلِ، ولا ينامُ على الذلِ[4]، وأذِنْتُ إلى قولهم: ليس بينك وبين البلاد نسَبٌ[5]، فخيرُها ما حَملكَ، وإذا نبا بك منزلٌ فتحوّلْ[6].

وقال بعض المحدثين[7]:

أرى الـنّـــاسَ أحـــــــــــــدوثــةً
فكُوني حـــديـثًـــا حـــسَنْ[8]

(١) البيت لأبي عبدالله الحسن بن أحمد بن الحجاج من أبيات يقول فيها:

هـربت من موطني إلى بلـــــد | قد صفر الجوع فيه منقاري
يقول قوم: فر الخسيس، ولـــو | كان فتى كان غيرَ فــــرَّار
لا عيب لا عيب في الفرار، فقد | فر نبي الهدى إلى الغـــار

(٢) البين: الفراق، الإيحاش: كثرة الوحشة وهي الخلوة والهم والانقطاع عن الناس وبعد القلوب عن المودات، وأوحش المكان: خلا من الأنس.

(٣) الغبن: النقص أو الغش أو الخسارة، الخور: الضعف.

(٤) الثكل والثكل: [بضم الثاء وفتحها] فقدان الحبيب أو الولد.

(٥) أذِنَ: استمع، قال قَعنب بن أم صاحب:

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحًا | مني، وما أذنوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرًا ذكُرتُ به | وإن ذكرتُ بشر عندهم أذنـوا

(٦) نبا به المنزل: لم يوافقه، والعبارة عَجُز بَيت ينسب إلى عنترة حيث يقول:

احذر محل السوء لا تحلل به | وإذا نبـــا بك منزل فتحـــول

أو ينسب إلى عبدقيس بن خفاف البرجمي حيث يقول:

وصِلِ المُوَاصلَ ما صفا لك وُده | واحذر حبال الخائن المتبذل
واترك محل السوء لا تحلل به | وإذا نبا بك منزل فتحـــول

(٧) الأبيات لعبد الصمد بن المعذل من أبيات يقول فيها:

أمُنّ على المجتـــــدي | وما أتبع المن مَـــــنّ
أرى الناس أحـــدوثة | (الأبيات الثلاثة)
إذا عز يومًا أخــــو | ك في بعض أمر فَهُنْ

(٨) في نهاية الأرب «فكونوا حديثًا حسن» وفي الكامل للمبرد «فكوني حديثًا حسن» والخطاب هنا لنفسه.

كــــــــــأنْ لـم يـزل مـــــــــا أتـى
ومـــــــا قــــــد قُـــــضِـي لـم يـكـن[1]

إذا وطـــــــــــنٌ رابـــــــــــنـــــــــي
فـــــــكـــــــلُّ مــــــكــــــان وطـــــــنْ

ولم أستغربْ أنْ أسامَ مثلَ هذا الخسفِ في مسقط رأسي[2]، ومَعقّ تمائمي[3] وأوّلِ أرضٍ مَسَّ ترابُها جلدي[4]، فقديمًا ضاعَ المرءُ الفاضلُ في وطنه، وكسد العِلْقُ الغبيطُ في معدِنه[5]، قال بعضهم:

أضـــــيع في مَـــــعـــــشـــــري!! وكم بلدٍ
يُعَــــدُّ عُـــودُ الكِبــــاءِ من حَطَبِـــــة[6]

فاستخرتُ الله عزّ وجل[7] [في إنفاذ العزم][8] واضحَ وجْهِ العُذر، ثابَتَ قدمِ الحُجّة، عند من غَضَّ عين الهوى، وخزنَ لسانَ التعسُّفِ[9]، والله يُصيبُ غَرضَ الصّوابِ برأيي،

(١) في نهاية الأرب «كأن لم يكن... وما قد مضى...»: وفي الكامل «كأن لم يزل... وما قد مضى».. والمعنى: كأن الحاضر لن يفارق، وكأن الماضي لم يقع.

(٢) أسامه الخسف: أولاه الذل والهوان، مسقط رأسي: موضع ولادتي.

(٣) معق التمائم: مكان شق التعاويذ التي تعلق على الطفل، ويكون قطعها إيذانًا بانتهاء عهد الطفولة، والمراد أن هذه الأرض مولده ومنشؤه.

(٤) قال رقاع بن قيس الأسدي:

أحب بلاد الله ما بين منعــج — إليَّ – وسلمى أن يصوبَ سحابُها
بلاد بها عق الشباب تمائمي — وأول أرض مـــس جلدي ترابُهــا

والمراد أن هذه الأرض حبيبة إلى نفسه لأنها مولده وموضع نشأته.

(٥) العلق: الغالي النفيس، في الأصول الغبيط، والغبيط هو الرحل، أو الأرض المطمئنة، أو مسيل الماء في الوادي، وهي معان لا تتفق مع السياق، ولعله العبيط، ومعناه: الثوب المشقوق، أو السمين، ولحم عبيط: طريّ، وكذلك الدم والزعفران، وعبط الحمار التراب بحوافره: أثاره، فالتراب عبيط، ولعل المعنى: تضيع الجواهر الثمينة في مواطنها فتدوسها الأقدام.

(٦) الكباء: عود يستعمل في البخور، والمعنى: لقد ضعت في بلدي ولم أنل فيه تقديرًا، كما تحتقر أخشاب البخور في مواطنها فتعد أنواعًا من الخشب.

(٧) في النص الموجز «واستخرت الله».

(٨) زيادة عن النص الموجز.

(٩) المعنى: اعتزمت الفرار، ووجه عذري فيه واضح، وحجتي فيه ثابته القدم، عند من يفحص موقفي بعين بعيدة عن الهوى، ويتناوله بلسان منصف بعيد عن التكلف والتعسف، والكاتب هنا يردّ على من يلومونه على الفرار.

ويقرّبُ غايةَ النجاحِ على سعيي، حَسْبَما في علمه[1] أنّي مظلومٌ مَبْغِيٌّ عليه، منسوبٌ مالم آته إليَّ، فهو المؤمّلُ بذلك، والمرجوُّ له.

ولَعمرُك يا سيدي إن ساحةَ العذر لتضيقُ عنك، وما تكاد تتّسعُ لك، في إسلامك تلميذَك[2] وابنَ جارك وشيخِكَ، الذي لم تزل متوفّرًا عليه، آخذًا عنه، مقتبسًا منه، مع إكثارك من ذكر هذا والاعتداد به، وادعاء الحفظ له، وقد رويتَ أنّ «حُسْنَ العهدِ من الإيمانِ[3]»، وسمعتَ المثل: «انصُر أخاك ظالمًا أو مظلومًا[4]» فالمرءُ كثيرٌ بأخيه، ولا أقلّ من استعمالَ الجدِّ، واستغراقِ الجُهد.

* **فمُبلغُ نفسٍ عذرَها مثلَ مُنجِحِ[5]**
* **ولا لومَ في أمرٍ إذا بلغ العُذرُ[6]**

ولكنْ مَن لك بأخيك كُلّهِ[7]؟ وأين الشَّريكُ في المُرّ أينا[8]؟ وبعد ما مرَّ بي فالقضاء

---

(١) في بعض النسخ «حسبما ذلك».

(٢) في بعض النسخ «إسلامك لتلميذك».

(٣) «حسن العهد من الإيمان» حديث شريف، فقد أقبل النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة عجوز، فقالت السيدة عائشة: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز كل الإقبال؟ فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

(٤) «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» قال العسكري في جمهرة الأمثال «كان مذهب أهل الجاهلية أن ينصروا أقرباءهم وجيرانهم وأصدقاءهم، محقين كانوا أو مبطلين، وعلى هذا المذهب يقول الراجز.

إن أخا الصدق الذي يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ضر زمان صدعـــك ... شتت أمر نفسه ليجمعك
وإن غدوت ظالمًا غدا معك

وقد روي هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن كان صحيحًا إسناده فمعناه انصر أخاك مظلومًا، وكفه عن ظلمه إن كان ظالمًا». والمعروف أن الجاهلي كان يلبي دعوة الداعي القريب، وينصره ويفتخر بهذا، قال قريط بن أنيف:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

وزاد رواة الحديث فيه: «إن يك ظالمًا فاردده عن ظلمه، وإن يك مظلومًا فانصره».

(٥) هذا عَجُز بيت، معناه أن من اجتهد وأبلى عذرًا فهو مثل الناجح في قصده، وهو من قول عروة بن الورد حيث يقول:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عــذرًا أو ينــال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرهــا مثل مُنجحِ

(٦) هذا عَجُز بيت، معناه: لا وجه لملامة امرئ بذل غاية الجهد وأبلى أحسن البلاء، والبيت هو:

إذا ما شفيتُ النفسَ أبلغتُ عذرَها ... ولا لوم في أمر إذا بلغ العذر

(٧) من لك بأخيك كله؟: مثل يضرب في عز الإخاء، وهو من قول أبي الدرداء الأنصاري، أي من يكفل ويضمن لك محبة أخيك كلها، قال أبو تمام:

ما غبن المغبونَ مثلُ عقله ... من لك يومًا بأخيك كله؟

(٨) المعنى: أين الصديق الذي يشاركك في الضراء كما يشاركك في السراء، قال بشار بن برد من قصيدة:

خير إخوانك المشارك فــــي المـ ... ـرِّ، وأين الشريك في المر أينا؟
الذي إن شهدتَ سرك في الحــي، ... وإن غبــــتَ كـان أذنا وعينــا
ما أرى للأنام ودًا صحيحًــــــا ... عاد ود الأنـــام زورًا ومــيْنــا

غالبٌ، وما حُمَّ واقعٌ[1]، ولا حذَرَ من قدرٍ، وقد سبق السّيفُ العَذَلَ[2]، وتقدّم من فعلي ما جفّ به القلم[3]، وأنا الآن بحيث أمِنتُ بعضَ الأمن، إلا أن رِزًّا[4] من وعيدٍ سقط إليَّ بأن السَّعْيَ لم يرتفعْ، وأن مادة البغي لم تنقطعْ، وأن البصيرة[5] مستحكمةٌ في استرجاعي من الأفق الذي أحُلُّ به، والجنابِ[6] الذي أَحُطُّ فيه، وأكّد ذلك في ظنّي ما كان أشار إليه بعض من كنتُ آوي إلى الثقة بعهده، وأبني على الوثاقةِ من عَقده، من الفقهاء الموسومين بالأثرة عند الحَكَم المذكور[7] والمكانة منه، وقد عاتبتُه على تأخره عن مُظافرتي، وتقصيره في مؤازرتي، فاعتذرَ بأن ذلك لا سبيلَ إليه، ولا منفذَ للحيلة فيه، إذ المحرِّضُ عليَّ لا تتأتّى معارضتُه، ولا يتهيّأ الاستبدادُ عليه، وأنه وصفني بالبَذاء[8]، وعابني بالتسلّط على الأعراض، ووالله ما استجزتُ هذا بعد أن هتكَ من سِتري ما هتَكَ، وانتَهك من حُرماتي ما انتهك[9]، إذ كنتُ أقول معذورًا، وأنفثُ مصدورًا[10]، فكيف قبل ذلك؟ إذ لم يحدث سببٌ، ولا عرضٌ مُوجِبٌ:

وما لي وإهداءَ الخَنى؟ ثم ما ليا؟[11]

---

(١) المعنى: ما قدره الله لابد من وقوعه.

(٢) سبق السيف العذل: مثل قاله ضبة بن أدّ لما لامه الناس على قتل قاتل ابنه في الحرم، ويقال: إنه لخزيم بن نوفل الهمداني، والعذل: اللوم.

(٣) المعنى: مأخوذ من الحديث الشريف: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، جفت الأقلام وطويت الصحف» أي أن ما قدّره الله للإنسان لابد من وقوعه.

(٤) الرز: الصوت تسمعه من بعيد، أو صوت الرعد.

(٥) البصيرة: عقيدة القلب أي العزيمة.

(٦) الجناب: الفناء أو الناحية، وقد أطلق اصطلاحًا على بلاط الملوك.

(٧) الموسومون: المتميزون، الأثرة: المكرمة المتوارثة.

(٨) البذاء، الفحش، يقال: بذا على القوم يبذُو إذا سفه وأفحش في منطقه وإن كان كلامه صدقًا، فهو بذيّ.

(٩) هتك الستر: تمزيقه وكشف ما وراءه، والمراد به فضح الأسرار، انتهاك الحرمة: تناولها بما لا يحل.

(١٠) أنفث مصدورًا: أنبذ ما بصدري من أقذاء كما ينفث المريض بصدره ما فيه من إفرازات.

(١١) في الأصول «... وهذا المجتني...» ولعل الصواب ما أثبتناه، والخنى: الفحش، وهو عجز بيت من أبيات نظمها صخر بن عمرو أخو الخنساء في رثاء أخيه معاوية، وقد حرضه قومه على هجاء قاتليه فقال:

وقالوا: ألا تهجو فوارس هاشم؟ ... ومالي وإهداء الخنى؟ ثم ماليا؟

أبَى الهجوَ أني قد أساءوا كريمتي ... وأن ليس إهداء الخنى من شماليا

و﴿ستكتَب شهادتهم ويسألون﴾[1]، وليست هذه ببكرٍ من النمائم التي دُخِلَ بها بين العصا ولِحائها[2].

وإنــي رأيتُ غُـــــــواةَ الـرِّجـــــــا
لِ لا يَتـــركـــون أديمًا صـــحــيـــحَــا[3]

☆☆☆☆

ومــن يــأذنْ إلــى الــواشــين تُــسْــلَــقْ
مـــســـامِـــعُـــهُ بـألسنة حِـــدادِ[4]

ويا سيدي:

لـو بغـــيـــر الماء حَلْقي شَـــرِقٌ
كنتُ كـالغَـصَّـانِ بالماء اعـتـصـاري[5]

ووالله مـا توهّمتُ أني أُوتَى ممَّن زعم أني أُتيتُ منه[6]، مع اتصـالي به، وانقطاعي

---

(١) اقتباس من الآية الكريمة ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ سورة الزخرف الآية ١٩.

(٢) من الأمثال «لا تدخل بين العصا ولحائها» أي قشرتها، قال أبو عبيد: إذا أرادوا أن صاحب الرجل موافق له لا يخالفه في شيء قالوا: بين العصا ولحائها.

(٣) كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج:

ولا تفش سرك إلا إليك   فإن لكل نصيح فضيحَـــا
فإني رأيت غواة الرجـا   ل لا يتركون أديمًا صحيحا

وينسب البيتان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمعنى: لا يترك الغاوون الفاسقون جلدًا صحيحًا إلا مزقوه، ولا أمرًا صالحًا إلاّ أفسدوه.

(٤) البيت ختام قصيدة لأبي تمام في مدح أحمد بن أبي دؤاد يقول فيها واصفًا قصيدته:

منزهة عن السرق المـــــورى   مكرمة عن المعنى المعــــاد
تنصل ربها من غير جـــــرم   إليك سوى النصيحة والوداد
ومن يأذن إلى الواشين تسلق   مســـــامعـه بألسنة حداد

(٥) البيت لعديّ بن زيد، الغصان: من أصابته غصة، اعتصر الغصان بالماء: شربه قليلاً قليلاً ليزيل الغصة، والمعنى: لقد غصصت بالماء ولو كانت غصتي بغيره لأزلته به. قال الشاعر:

من غص داوى بشرب الماء غصته   فكيف يصنع من قد غص بالماء؟

(٦) يشير بهذا إلى ما قيل من أن المحرض عليه هو الأمير كما قال قبل هذا: «إذ المحرض عليَّ لا تتأتّى معارضتُه، ولا يتهيأ الاستبداد عليه».

إليه، واتسامي[١] بالتأميل له، والتعويل عليه.

إن المعــارف في أهل النُّهى ذِممُ[٢]

ولكن:

إذا كـــان غـــيــرُ الله للمـــرء عُـــدّةً
أتَتْـــهُ الرزايا من وُجـــوهِ الفـــوائدِ[٣]

لقد كان من محاسنِ الشِّيَم، وشروطِ المُروءة والكرمِ، أن يَهَبَ لي ما أَنكر لما عَرفَ، ويغفِرَ ما أسخطَ لما أرضى[٤]، ويدفَعَ بالتّي هي أحسن[٥]، ويؤثرَ الذي هو أجملُ وأرفقُ، ويتوقَّفَ عندما نُصَّ له من سِعايةٍ، وزُفَّ إليه من وشايةٍ،[٦] فإن كان باطلاً ألغاه، وفضحَ المُخبِرَ المتقرّبَ به وأقصاه، وإن كان حقًّا صبر صبرَ الحليم، وأغضى إغضاء الكريم، وقَبِلَ إنابة المُعتِبِ[٧]، واقتصد في مؤاخذةِ المُذنِب، فقدّم التوقيفَ قبل التثقيفِ[٨]، والتأنيبَ قبل التأديبِ.

---

(١) اتسامي: تميزي مأخوذ من الوسم وهو العلامة المميزة.

(٢) هذا عجز بيت للمتنبي من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة يقول فيها:

يا من يعزّ علينا أن نفارقهـــم وجداننا كل شيء بعدكم عـدم
إن كان سركم ما قال حاسـدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألـــم
وبيننا – لو رعيتم ذاك – معرفة إن المعارف في أهل النُّهى ذمم

أي إن المودات مرعية عند أصحاب العقول.

(٣) المعنى: إذا استعان الإنسان بغير خالقه دهمته المصائب من حيث يتوقع الفوائد، والبيت لأبي فراس الحمداني من قصيدة له وهو مأسور في بلاد الروم يقول فيها:

صبرت على اللأواء صبر ابن حرة كثير العدا فيها قليل المساعد
إذا كان غير الله للمرء عـــدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد

(٤) في بعض نسخ الذخيرة «ما سخط لما رضى».

(٥) يشير إلى الآية الكريمة ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ سورة فصلت آية ٣٤.

(٦) في بعض النسخ «زف عليه»، نصّ له: رفع إليه، من نص الحديث إليه إذا رفعه، ونصّ فلانا: استقصى مسألته عن الشيء، السعاية: الوشاية.

(٧) الإنابة: التوبة والإقبال على الله، المعتِب: الذي يصفح ويرضى بعد العتاب، والمعتَب: المرضي عنه بعدما عوتب، ولعلها المتعتب أي طالب العُتبى أي الرضى، قال تعالى ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾.

(٨) التوقيف عن الشيء: الإمساك عنه، التثقيف: إقامة المعوج، والمعنى: أمسك عن العقوبة وتأنَّى في إنزالها قبل أن يبادر بها دون تثبت.

فــإن الرِّفق بالجــاني عِــتــابُ[1]

والحُـرّ يُلحى والعـصـا للعـبـد[2]

ولستَ بمســـتــــبقٍ أخًـــا لا تلمّـــه

على شَـــعَثٍ، أيُّ الرجـــال المهـــذَّبُ؟[3]

وهو يرى ويسمع أن بالحَضرة قومًا لا يحصُرهم العدُّ[4] تُحتَمَلُ سقطاتُهم، وتُغتفَرُ هفواتُهم، وتقالُ عَثراتُهم[5].

ومـــا شـــرُّ الثـــلاثة أمَّ عـــمـــرو

بصـــاحـــبك الذي لا تُصـــبِـــحـــينا[6]

وما أعلم أنهم يدلون بوسيلةٍ لا أشاركهم فيها، ولا يَمُتُّون بذريعةٍ ينفردون دوني بها:[7]

هو الجَـدُّ حـتى تَفْـضُلَ العينُ أختَـهـا

وحـتى يكون اليـومُ لليـوم سـيّـدا[8]

---

(١) عجز بيت للمتنبي في مدح سيف الدولة، من قصيدة وصف فيها غزوته لبني كلاب، حيث يقول:

ترفّق أيها المولــى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب

فإنهم عبيدك حيث كانوا إذا تدعو لحادثة أجابـوا

(٢) يلحى: يلام، والبيت من أرجوزة لبشار بن برد يقول فيها:

الحر يلحى، والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

(٣) لمه على شعث: ضمه على تفرق، والبيت للنابغة الذبياني، ومعناه: لا تستطيع أن تستبقي مودة إنسان إذا لم تقبله على ما فيه من عيوب، فلن تجد إنسانًا كاملاً.

(٤) حضرة الرجل: قربه أو فناؤه أو مشهده، والمقصود هنا بلاط الأمير.

(٥) أقال عثرته: أنهضه من كبوته.

(٦) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة إذ يقول:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

وما شـر الثلاثة أم عـمـرو بصاحبك الذي لا تصبحينـا

ويقال إن هذين البيتين لعمرو ابن أخت جذيمة الأبرش، وذلك لما وجده مالك وعقيل في البرية، وكانا يشربان، وأم عمرو الساقية تصد عنه الكأس، فقال هذين البيتين، فسقياه وحملاه إلى خاله جذيمة.

(٧) أدلى بحجته: احتج بها، وأدلى برحمه: مت بها، وأدلى بماله إلى الحاكم: دفعه إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾، الذريعة: الوسيلة، وتذرع بذريعة: توسل بوسيلة.

(٨) البيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحى يقول فيها:

فذا اليوم في الأيّام مثلك في الورى كما كنت فيهم واحدًا كان أوحدا

هو الجد حتى تفضل العين أختهـا وحتى يكون اليوم لليوم ســيدا

أي أن الحظوظ تقدم الشبيه على شبيهه، فترفعه فوقه دون مبرر.

فإن كانت مُسامحتُهم لسابقةٍ سلَفتْ، فقد أحرزتُ منها الحظَّ الأعلى، أو لكمال أدبٍ فقد ضربتُ فيه بالقِدْحَ المُعَلَّى(١)، أو للُطفِ تودّدٍ فما قصّرتُ في الاجتهاد، غير أني حُرِمتُ التوفيق.

والأمـــرُ لله!! رُبَّ مـــجـــتـــهـــدٍ
مـــا خـــابَ إلا لأنه جـــاهَدْ(٢)

☆☆☆☆

فـــإن كـــان ذنبي أنَّ أَحـــسَنَ مَطلبي
أســاء، فـفي ســوء القـضــاء ليَ الـعـذرُ(٣)

والله لقد أظهرتُ مَدْحَهُ، وأضمرتُ نُصْحَهُ، وتَممتُ على الصّاغية له(٤)، وجريتُ ملءَ العِنان إلى الاعتلاق به(٥)، أسقيه السّائغَ من مياه وُدّي، وأكسوه السّابغَ من بُرودِ حمدي(٦)، وأُجنيهِ الغَضَّ من ثمرات شكري، وأُهدي إليه العِطرَ من نفَحاتِ ذكري، لا يُفيدني التحبب إليه إلا ضَياعًا لديه، ولا يزيدني التقربُ منه إلا بعدًا عنه.

كـــأنِّيَ أسْـــتَـــدْني به ابن حَنِيّـــةٍ
إذا النَّزْعُ أدناه من الصّـــدر أبعَـــدا(٧)

والذي أحبُّه منك وأثقُ في المسارعة إليه بك، لقاؤُهُ مُجارِيًا ذكري، مفاوضًا في أمري، مُعْلِمًا له بما لا يذهبُ عنه، من أن الذي اختَرتُه لنفسي غايةُ ما يُسيءُ العدوُّ به(٨)، ويُساءُ

---

(١) القدح المعلى: السهم السابع من سهام الميسر وهو أوفرها حظًا.

(٢) البيت للمتنبي، ومعناه: الحكم لله وحده، وحكمته فوق مستوى الأذهان، فكم من مجتهد جنى عليه اجتهاده وأصابه بالحرمان.

(٣) البيت لأبي تمام، من قصيدة قالها في الافتخار بقومه عند انصرافه من مصر، ومعناه: إذا كان خير ما قدمته من حسنات يحسب عليّ في الإساءات فعذري أنّ أحكام القضاء نافذة، ولا يدَ لى في ما تمضيه من أحكام، ويلي هذا البيت قوله:

قضاء الذي ما زال في يده الغنـــى ... ثنى غرب آمالي، وفي يدي الفقر
رضيت، وهل أرضى إذا كان مُسخِطي ... من الأمر ما فيه رضا من له الأمر؟

(٤) الصاغية: الميل، قال تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾.

(٥) اعتلق الرجل امرأة وعلقها وتعلقها: أحبها، قال الأعشى:

عُلقتها عرضًا، وعُلقت رجلاً ... غيري، وعلق أخرى غيرها الرجلُ

(٦) المعنى: أسقيه من ودي أعذب شراب، وأخلع عليه من ثنائي أغلى رداء.

(٧) قال ابن الرومي في عتاب صديق له:

تودد تُ حتى لم أدع متوددًا ... وأفنيتُ أقلامي عتابًا مُـــردَّدا
كأنيَ أستدني بك ابنَ حنية ... إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ابن الحنية: السهم، النزع: المدّ، والمعنى: كلما أدنيته مني نأى عنى بعيدًا، مثل السهم نجذبه في وتر القوس قريبًا من الصدر فينطلق بعيدًا نحو هدفه ومرماه.

(٨) في جميع الأصول «ما يسيء العروبة» والعَروبة: المتحببة إلى زوجها أو العاصية له أو العاشقة له أو الضحّاكة، أو يوم الجمعة. والعروبة: الانتماء إلى العرب، ولعل الصواب ما أثبتناه، ومعناه: إن التغريب، هو أقسى عقاب ينزله الخصم بأعدائه.

المولى منه، فالجَلاءُ أخو القتل، والغُربةُ أحد السِّباءين[1] قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾[2] وقال الشاعر[3]:

ومن يغـــتـــربْ عن داره لا يـزل يرى
مـصـارعَ مظلوم مـجـرًا ومَـسـحـبَـا
وتُدفَنُ مـنـه الـصـالـحـاتُ، وإن يُسِىءْ
يكن مـا أسـاء الـنارَ في رأس كَـبْكبـا[4]

وقد هجرتُ الأرضَ التي هي ظِئري[5]، والدارَ التي كانت مَهدي، وغبتُ عن أُمٍّ أنا واحدُها، تمتد أنفاسُها شوقًا إليَّ، وتغُضُّ أجفانَها حزنًا عليَّ، واللّهُ يَرى بكاءها، ويسمعُ لي على من ظَلمني نداءها، فالاستجابةُ مضمونةٌ للمُخْلِص والمظلوم، وقد حملتُ السِّمتَين[6]، واستوجبتُ الصِّفتَين، ولتكن بُغيتُكَ التي تدَّخِرُها عليها كلمةَ تأمينٍ، وإشارةً إلى تأنيسٍ وتسكين، تُراجعُني بها، فأظهرُ بحيث أنا آمنًا، وألقي العصا مطمئنًا[7]، فإن وجدتَ مَحزًّ

---

(١) السباء: الأسر، وشبه الغريب عن وطنه بمن وقع في أسر الأعداء.

(٢) سورة النساء الآية ٦٦.

(٣) هو الأعشى (ميمون بن قيس)، من أشهر شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام واعتزم أن يعتنقه، فصرفه زعماء قريش عنه، وهذان البيتان من قصيدة له في هجاء عمرو بن المنذر.

(٤) أصل البيتين في ديوان الأعشى ثلاثة أبيات هي:

متى يغترب عن قومه لا يجد لـــه — على من له رهط حواليه مغضبا
ويحطم بظلم لا يزال يرى لـــــه — مصارع مظلوم مجرا ومسحبـــا
وتدفن منه الصالحات، وإن يسيء — يكن ما أساء النار في رأس كبكبا

والمعنى: إن الغريب يكون وحيدًا مستوحشًا يستقبل الظلم فلا يستطيع له دفعًا، ويتعرض لمواطن الهلاك جذبًا وسحبًا، وإذا أحسن طويت معالم إحسانه، وإذا أساء ذاعت معالم إساءاته، كأنها نار مشتعلة على قمة جبل كبكب، أو بالعبارة المأثورة «كأنها علم في رأسه نار».

(٥) الظئر: الناقة تعطف على ولد غيرها، ومنه قيل للمرأة الأجنبية تحضن ولد غيرها ظئر، وللرجل الحاضن ظئر أيضًا، والجمع أظآر، والمراد الوطن الذي ضمني وحنا عليّ حنو المرضعات على الفطيم.

(٦) السمتين: العلامتين المميزتين «الإخلاص، ووقوع الظلم».

(٧) ألقى العصا مطمئنا: استقر وادعًا آمنًا، وقد نظر فيه إلى قول عبد ربه السلمي (وينسب إلى معافر بن حمار البارقي أو سُلَيم بن ثمامة الحنفي):

تذكرت من أم الحويرث بعدمـــا — مضت حجج عشر، وذو الشوق ذاكرُ
وحدثها الرواد: أن ليس بينهـــا — وبين قرى نجران والشام كافــــر
فألقت عصاها واستقرّ بها النوى — كمـا قرّ عينا بالإياب المســـــافر

الشَّفرةِ فالعَوانُ لا تُعلَّمُ الخِمْرةَ(1)، وإن أشْبَهَتِ الليلةُ البارحَةَ أعلمتَني بذلك(2)، فطلبتُ الأمن في مَظانِّه، وتقرّيتُ السلامةَ في مواطنها(3)، وصبرتُ حَتى يحكمَ الله لي، وهو خيرُ الحاكمين(4)، ﴿كلَّ يوم هو في شأن﴾(5)، ومع اليوم غدٌ(6).

ولكل حـــال مُـــعـــقِب، ولربما
أجلى لك المكروهَ عـــمـــا تَحْـــمَـــدُ(7)

ولك يا سيدي – في انتدابك لما ندبتُكَ إليه – الفضلُ(8)، والأيادي قُروضٌ(9)، والصّنائعُ ودائعُ(10).

لا يذهب العُرفُ بين الله والنّاسِ(11)

والتحيّة الطيّبة، والسلام المردَّدُ على سيدي.

****

(1) الشفرة: السكين العريضة العظيمة، وشفرة السيف: حدّه، محزّ الشفرة: مكان الحزّ، العوان: النصف من النساء، الخمرة طريقة وضع الخمار على الرأس، العوان لا تعلم الخمرة: أي لا تحتاج إلى تعليم، وهو مثل يضرب للرجل المجرب الخبير، العارف بدقائق الأمور، والمراد إذا وجدت مجالاً للقول فقل.

(2) أشبهت الليلة البارحة: لم تتغير الحالة، والمعنى مقتبس من قول طرفة بن العبد:

كل خليل كنت خاللته ... لا ترك الله له واضحه
كلهمُ أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليل بالبارحه

(3) قرا الباحث الأمور واقتراها وتقرّاها: تتبعها أمرًا أمرًا وبحثها بحثًا دقيقًا ليدرك بواطنها ويحل مشكلاتها.

(4) الجملة مقتبسة من قوله تعالى: في قصة يوسف عليه السلام على لسان أخيه الأكبر: ﴿... فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين﴾، سورة يوسف الآية ٨٠.

(5) مقتبسة من الآية الكريمة ﴿يسأله من في السموات والأرض، كل يوم هو في شأن﴾ سورة الرحمن الآية ٢٩.

(6) مع اليوم غد: مثل يضرب لترقب انفراج الأمور بعد ضيقها، قال ابن طباطبا:

يا من يخاف أن يكو ... ن ما يكون سرمدا
أما سمعت قولهم ... إن مع اليوم غدا؟

(7) البيت لعلي بن الجهم من قصيدة له وهو في السجن يمدح بها الخليفة المتوكل يقول فيها:

غِيَرُ الليالي بادئات عـــود ... والمـــال عارية يفاد وينفـــــد
ولكل حال معقب، ولربما ... أجلى لك المكروه عما تحـــمد
لا يؤيسنك من تفرج كربة ... خطب رماك به الزمان الأنكد

ومعنى البيت: لكل أمر نهاية، ولكل حال تغيير، وربما انكشف الضيق عن فرج قريب وختام محمود:

(8) ندبه للأمر وانتدبه إليه: دعاه لأدائه.

(9) في الأصول «والأيادي فروض» ولعلّ الصواب ما أثبتناه، والمعنى: الإحسان دين واجب الأداء، يؤديه المحسن إليه ولو بعد حين.

(10) الصنائع: جمع صنيعة وهي الإحسان، والمعنى: إن المعروف وديعة لابد أن يردها المودع عنده، قال لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائع

(11) المعنى: الإحسان لا يضيع عند الله إن ضاع عند الناس، وقلّما يضيع عندهم، وهو عجز بيت للحطيئة من قصيدة له في هجاء الزبرقان يقول فيها:

دع المكارم لا ترحـــل لبغيتهـــا ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جـوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والنـاس

الرسالة المظفَّرية

«كتبها ابن زيدون إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأفطس أمير بطليوس مستشفعًا متوددًا(١)».

لما لبس الحاجب – أعزّه الله – رداء المجد مُعلَمًا(٢)، وحمل لواء الحمد مُعلَنًا، فاستطار بارقُ فجره، واستضاعَ فائحُ ذكره(٣)، وشُهِرتْ محاسنه على كلِّ لسان، وسارت مآثره مسيرَ الشمس بكلِّ مكان، لما سَوَّغَ من كرمه، وأسبغَ من نِعمه، ووطّأ للآملين من أكنافه(٤)، وهزّ إلى الراغبين من أعطافه(٥)، ورفرفت أجنحة الأهواء عليه، واهتزّت جوانحُ الآمال إليه، وكثر التغايُرُ على تفيُّؤ ظله(٦)، والتنافسُ في الاعتلاق بحبله(٧)، وكلٌّ استفرغَ جُهدَهُ، وتوسّلَ على حسب ما عنده، ولا غرو أن يُستمطرَ الغَمامُ، ويؤمَّلَ الكرامُ ، ويكثرُ في المشرب العذب الزِّحام(٨).

---

(١) لم ترد هذه الرسالة إلا في الذخيرة، وقد أثبتنا ما بين نسخها من اختلاف، وقد صدّرها ابن بسام بهذه العبارة: «وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأفطس من رقعة، وضمنها قصيدة أولها:

لبيض الطلى ولسود اللممْ بعقلِيَ – مُذْ بنَّ عني – لَمَمْ

راجع القصيدة في الديوان ص (٤٦٩).

(٢) أعلمت الثوب فهو معلم: جعلت له علمًا يعرف به من طراز ونحوه، والمعنى: لبس الأمير ثوب المجد متميزًا به عن سواه.

(٣) استطار الفجر: انتشر، ضاع المسك وتضوع وتضيع: تحرك فانتشرت رائحته، قال عبدالله بن نمير الثقفي:

تضوع مسكًا بطن نعمان أن مشت به زينب في نسوة خفرات

وقد استعمل الكاتب الفعل «استضاع»، ولم نجد له ذكرًا في ما بين يدينا من كتب اللغة.

(٤) رجل موطأ الأكناف: سهل دمث مضياف، أو باسط حمايته وأمنه على من يلوذ به.

(٥) الأعطاف: الجوانب، واهتزاز الأعطاف للراغبين: كناية عن الارتياح للكرم والندى، قال أبو رباط:

وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

(٦) المعنى: كثر الاختلاف إلى حماه، والتسابق إلى الاستظلال بنعماه.

(٧) الاعتلاق: الحب، الحبل: العهد والذمة والأمان أو الوصال، والمعنى: تنافس الراغبون في حبه، والتمسك بقربه.

(٨) في بعض النسخ «ولا غرو في أن» المعنى: بذل كل راغب في قربه أقصى جهده، واتخذ إليه الوسائل والأسباب وليس عجيبًا أن يسأل السائلون المطر من الغمام، ويؤملون سخاء الكرام، ويتكاثر الواردون على المنهل العذب الزلال، قال الشاعر:

يزدحم الناس على بابه والمشرب العذب كثير الزحام

وما زلتُ، أبقَى الله الحاجبَ، أتلقّى من مَساعيه المشكورة، ويقرع سَمعي بمآثره المأثورة، ما هو أندى من بلوغ الأمل(١)، وأشهى من اختلاس القُبَل(٢)، وأغضُّ من جَنيّ الزّهر(٣)، وألطفُ من نسيم السّحَر(٤)، حتى انقادت نفسي في زمام التأميل والمودّة(٥)، ونازعت إلى الأخذ بحظٍّ من الاعتلاق والممازجة(٦)، ونظرتُ إلى ما دون ذلك من أسباب البعد المانعة، وامتداد البلاد المعترضة، فغضضتُ طرفَ الخَيبة، وطويتُ كَشحًا على اليأس من دَرك الأمنيّة(٧)، إلى أن ندبني الأديب أبو فلان إلى مخاطبته، وحرّضني على مكاتبته، ونبّهني على ما في التثاقل عن مُداخلته(٨)، من التضييع الصّريح، والتقصير البَيّن الصحيح، إذ هي أسنى عِلق غُولي به(٩)، وأنفس ذخر نوفس فيه، فطربت إلى ذلك «كما طرب النشوان مالت به الخَمر»(١٠)، واهتززت له «كما اهتّز تحت البارح الغُصُن الرطب»،(١١) ورأيت من شكر يد العلياء فيما حثّني إليه، وحضّني عليه، مما فيه حِلية الفخر، ومَكرمة الدّهر، أن أستفتح باب المكاتبة بالشّفاعة، وأنهَج طريق المخاطبة في العناية

(١) أندى: أكثر خيرًا.

(٢) الاختلاس: الأخذ في نهزة ومخاتلة، والاختلاس أسرع من الخلْس، وفي الأمثال: «الفرصة خلسة».

(٣) الثمر الجني: الغض الذي يُجْنَى من ساعته، ومثله الزهر الجني.

(٤) السحر: قبل الصبح.

(٥) التأميل: الرجاء، والمعنى: اندفعت نفسي إليه مقودة بعنان الرجاء.

(٦) نازع: اشتاق، الاعتلاق: الحب، والمعنى: اشتاقت نفسي إلى الأخذ بنصيب من مودته، والمفاخرة بقربه.

(٧) اعترض الشيء: وقف حائلاً كالخشبة المعترضة في النهر، الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، وطوى فلان عني كشحه: قطعني، وطوى كشحه على الأمر: أضمره وستره، الدرك: اللحاق، والمعنى: أضمرت بين جوانحي اليأس من بلوغ الرجاء بقربه.

(٨) المداخلة: الامتزاج أو المخالطة.

(٩) العلق: النفيس الثمين من كل شيء، جمعه: أعلاق.

(١٠) اقتبس الكاتب ما اقتبسه بديع الزمان الهمذاني في رسالته إلى أبي بكر الخوارزمي حيث يقول: «أنا لقرب الأستاذ – أطال الله بقاءه – [كما طرب النشوان مالت به الخمر]... ومن الابتهاج بمرآه [كما اعتز تحت البارح الغصن الرطب]».

(١١) هذا عَجُز بيت من أبيات وجهها أبو رياط لابنه حيث يقول:

رأيت رياطًا حين تمّ شبابه	وولّي سباني ليس في بره عتب
إذا كان أولاد الرجال مرارة	فأنت الحلال الحلو والبارد العذب
لنا جانب منه أنيق، وجانب	شديد على الأعداء، مركبه صعب
وتأخذه عند المكارم هزة	كما اهتز تحت البارح الغُصُن الرطب

والبارح: الريح الحارة في الصيف، ومن الصيد: ما مر من ميامنك إلى مياسرك.

به، وبيننا بَعْدُ من زِمام الطَّلب، وحُرمة الودّ والأدب، ما أستقصرُ نفسي معه أن يتقدّمَ في خِدمة رغبته قَلمي، وقد تأخّرتْ قَدمي[١]، ويُعدّ لاقتصار بُغيته كتابي، دون أن أَزُمّ إليه رِكابي[٢]، وهو فتى نام جَدُّه، واستيقظ حَدّهُ[٣]، فتنكّر الزمان له، واعْتَرَّتِ الأيام به[٤]، بين ذئاب سِعايةٍ عوتْ عليه، وعقاربِ وشايةٍ دبّتْ إليه، وأُصْلِيَ بنار حرب لم يجْنِها، وأَعْدَتْهُ مَبارك جُرْبٍ التبس بها[٥]، وآلَ به الأمرُ إلى فراق أحبّته، والبعدِ عن مَسقط رأسه، ومعقّ تمائمه[٦]، على ضِيق حاله، وضعف إحسانه، وأَشهدُ أن ذلك لم يزد الحاجبَ إلا ولاءً، وعليه إلا ثناءً[٧]، وأنه لا يزال يعيدُ شكره ويُبْديه، وينشرُ[٨] حَمدَهُ ويَطويه، والحاجبُ – أدام الله إعزازَهُ – وَليُّ إعْدائِهِ على زَمَنِهِ الغَشوم، وأملأُ بإنصافهِ من دهره الظلوم[٩] بإلباسه من جميل رأيه ما عُرِّيَ منه، وإيرادِهِ من شَريعةِ رضاه ما حُلِّئ عنه[١٠]، والتخليةِ بينه وبين الأفُقِ الذي لم يَرَ كوكبَ سعدٍ إلا فيه، ولا تلقّى نسيمَ حياةٍ إلا منه، فإنه – مما يُوليه من إحسانه، ويأتيه من الفضل في شأنه[١١] – مستجزلٌ شكرَ من أنْهَضَهُ لسانٌ.

(١) في الأصول «أن أتقدم»، ولعل الصواب ما أثبتناه، وقد نظر الكاتب إلى ما صاغه بديع الزمان الهمذاني من رسالة يقول فيها: «يعز عليّ – أطال الله بقاء الشيخ الرئيس – أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي دون وصولي، ويرد شرعة الأنس به كتابي قبل ركابي...».

(٢) في بعض النسخ «لاقتصار غيبته كتابي دون أن أزم لذلك...» وقد تكون «لاختصار غيبته»، الاقتصار على الشي: عدم تجاوزه والاكتفاء به، البغية: الطلب أو الحاجة المنشودة، ولعل صحة العبارة «لاقتضاء بغيه» فالاقتضاء: الطلب، والبغي: النظر إلى الشيء لتعرف خوافيه، فيكون المعنى: أن ينشد كتابي النظر إليه، أزم إليه ركابي: أشد إليه رحالي.

(٣) جدّه: حظه، حدّه: عزمه أو ذكاؤه أو مضاؤه.

(٤) اعترّ به: تعرّض له راجيًا نواله دون أن يسأله، والمعنى. ألمت به الأيام فاستنفدت ما عنده من ثراء.

(٥) المبارك: جمع مبرك، وهو مكان إناخة الجمال، يقال: «فلان ليس له مبرك جمل» أي لا شيء له، الجُرُب: جمع أجرب وهو من أصابه داء الجرب، التبس بها: اختلط بها، والمعنى: إنه تعرض للريبة وسوء الظن لإحاطة الأشرار به من حيث لا يحتسب.

(٦) في بعض النسخ «وأبعد عن مسقط رأسه» مسقط الرأس: مكان الولادة، معق التمائم: المكان الذي تشق فيه التعاويذ المعلقة على الأطفال ايذانًا بانتهاء عهد الطفولة.

(٧) المعنى: إنه على الرغم مما لاقاه فإنه ازداد إخلاصه وولاؤه للحاجب، وبالغ في الثناء عليه والإطراء له.

(٨) في الأصول «وينثر» ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٩) ولي إعدائه على دهره الغشوم: كفيل بإعانته على دهره الظالم، أملأ: أجدر، وملؤ الرجل: صار ثقة فهو مليء، ولعل العبارة «أولى بإعدائه.. وأملأ بإنصافه...».

(١٠) حلىء عنه: منع منه وأبعد عنه.

(١١) في جميع النسخ «نسيم حياء» ولعل الصواب ما أثبتناه، وفي بعض النسخ «مما يؤلفه من إحسانه»، والمعنى: إن الحاجب بما يمنحه من الإحسان، ويقوم به من الأنعام كفيل باستثارة القرائح للاشادة بذكره والتنويه بمجده.

واستقلَّ به بَيان[1]، وهو أهلُ الفضل، والمعهودُ منه كَرمُ الفعل، والله يُبقيهِ ويُعليهِ، وهو حَسْبُهُ وحَسْبي فيه.

ولما أَطْرَدَ هذا النثرُ لحسن اتّساقه، ولَذَّ مساقِه[2]، هَزّتِ النظمَ أريحيَّةٌ جَذبَ لها بعنانهِ، وعارضَهُ بها في ميدانه[3]، وأبتْ أن ينفردَ النّثرُ بلقاء الحاجبِ ومُشافَهَتِهِ، ويستبدَّ بأن تُلمحَ غُرّتهُ، وتُخدَمَ بالحضور حَضرتُهُ، فأثبتُّ منه، ما إن أَنعمَ عند تصفُّحِهِ بالصَّفحِ عن الزَّلل يعرِضُ فيه، والخَلَلِ يبدو منه، وَصَلَ النِّعمةَ بمثلها وقرنَ العارفةَ بشكلها[4].

لِبِـــــيض الطُّلى ولسُــــــود اللِّمَمْ

بِعَـــــقْليَ - مُـــــذْ بِنَّ عَنّي - لَـمَمْ[5]

هذا - أعزّ الله الحاجبَ - ما اقْتَضَتْهُ القَريحةُ مع اقتضائها[6]، وأجابتنا به البديهةُ عند استدعائها، والذِّهنُ عليلٌ، والطبعُ كَلِيلٌ، والرويّةُ فاسدةٌ، وسوقُ الأدب - إلا عنده - كاسدةٌ، ولو أني أُوتيتُ في النثر غزارةَ عمرو[7]، وبراعةَ ابن سَهل[8]، وأُمددتُ في النظم بطبع البحتري[9]، وصناعةِ الطائي[10]، لما رددتُ إلى الحاجب إلا ما أَخذتُ منه، ولا أوردتُ

---

(١) مستجزل: مستكثر، أنهضه لسان: رفعه لسانه وسما به بيانه، استقل الطائر في طيرانه: نهض وارتفع في الهواء، واستقل به بيان: نهض وارتفع به أدبه.

(٢) الاتساق: التناسق والانتظام، اللذ: اللذيذ، المساق: التتابع والاطراد.

(٣) الأريحية: النشاط والارتياح.

(٤) العارفة: المعروف، والمعنى. أثبتُّ من الشعر نفحة، أرجو أن يصفح عما قد يكون فيها من زلة عارضة، أو نقص طارئ، فتكون بذلك نعمه مضاعفة عليّ وإحسانه مزدوجًا إليّ.

(٥) راجع القصيدة بتمامها في الديوان (ص ٤٤٣).

(٦) اقتضى دينه: أخذه، أو طالب به، واقتضى الأمر الوجوب: دل عليه، والمعنى: هذا ما سمحت به القريحة بعد أن استوحيتها: ولعلّ الجملة «... هذا ما اقتضته القريحة..».

(٧) عمرو بن بحر الجاحظ أشهر كتاب العربية وإمام من أئمة الدين والعلوم عند العرب، ومن أشهر مؤلفاته: البيان والتبيين، والحيوان، والبخلاء.. توفي سنة ٢٥٥هـ.

(٨) المقصود سهل بن هرون، وكان قيّما على خزانة الحكمة للخليفة المأمون، وكان واسع الثقافة غزير المادة قوي الحجة، ألف كتبًا عديدة ضاعت ولم يبق منها إلا بعض رسائل ونبذ، رواها لنا الجاحظ في ثنايا كتبه، وأوسعها رسالته في تفضيل البخل، نقلها الجاحظ في كتابه «البخلاء» وتوفي سهل سنة ١٧٢هـ.

(٩) البحتري: أرق شعراء العربية ديباجة، وأروعهم موسيقى، وأبرعهم صياغة، توفي سنة ٢٨٤هـ.

(١٠) الطائي: أبو تمام حبيب بن أوس أستاذ البحتري والمتنبي في الشعر، وهو أبرع من صاغ بديعًا في شعره، وأدقّ الشعراء الثلاثة فكرًا، وأعمقهم غوصًا على المعاني، وله غير شعره ديوان الحماسة جمع فيه نخبة صالحة من خير ما صاغه الشعراء السابقون توفي سنة ٢٣١هـ ولم تنيِّف سنه على الأربعين.

عليه غيّر ما صدر عنه، ولما أَنفذتُ ما أنفذتُ إلا بين أملٍ يَبْسُطُ، وخجلٍ يَقْبِضُ، فرأيُهُ موفَّقًا في أن يمنحَ ما بعثَ الأملَ إسعافًا، وما أوجبَ الخجلَ إغضاءً[1] ، ليأتيَ الإحسانُ من جهاتهِ، ويسلُكَ إلى الفضل طرقاتهِ، ومراجعتُهُ لي عن كتابي بعهدٍ كريمٍ، يكون كُحلاً لعين الرضى بوجنة القَبول[2]، أقِفُ به من توالي النِّعم عليه، وانتظامِ الأحوالِ بالصّلاح لديه، على ما تبتهجُ له نفسي، وينتظمُ معه عِقْدُ أُنسى[3]، يُدٌ عندي جَناها شَهْدٌ، وشَذاها عنبرٌ وورد[4]، أُرفِّلُها الشكرَ الجزيلَ، وأُتْبِعُها الثناء الجميل[5]، إن شاء الله، ولْيُبلِّغْ مني سلامًا يُهدِي إليه نفسَه، وتحيةً آخرها عندي، وأوَّلُها عنده.

****

(١) المعنى: أرجو أن يمنحنا الأمير من إسعافه ما يلائم آمالنا فيه، ومن إغضائه عن تقصيرنا ما يصد عنا الخجل والحياء.

(٢) لعلها «بوجه القبول» والمعنى: أرجو أن يجيبنا الأمير إلى رغبتنا بعهد كريم يزين به عين رضاه عنا بوجه إقباله علينا.

(٣) المعنى: إذا تفضل الأمير بعهده الكريم على هذا الأديب – الذي استشفع بي – فإن نفسي ستبتهج، وغبطتي ستنتظم وتتسق، لاطمئناني إلى توالي نعم الأمير عليه، وانتظام أحواله الصالحة تحت ظلال رضاه وعطفه العظيم.

(٤) الجنى: الثمر الغض، الشذا: الرائحة الطيبة، والمعنى: سيكون عهد الأمير يدًا أسداها إليّ، وجميلاً خلعه عليّ، له مذاق العسل، وطيب العنبر، ونفحة الورد.

(٥) لعل العبارة «أرفدها الشكر» أي أمنحها، أرفل الرجل ثوبه: أرسله، والترفيل: التسويد والتعظيم، يقال: رَفَّلْتُ الرجُلَ إذا عظمته وملّكته، قال ذو الرُّمة:

إذا نحنَ رفَّلنا أمرأً ساد قومه ... وإن لم يكنْ من قبل ذلك يذكرُ

الرسالة العامرية

«كتب ابن زيدون هذه الرسالة من قرطبة إلى صديقه أبي عامر بن مَسْلمة بإشبيلية»[1].

يا سيدي، وأرفعَ عُددي، وأوّلَ الذّخائر في عَددي، وأخطرَ عِلْقٍ ملأتُ من اقتنائه يدي[2]، ومن أبقاه الله في عيشةٍ باردةِ الظلال، ونعمةٍ سابغةِ الأذيال، قد تقاصرَ الثناءُ عليك، وتوالى الحديثُ الحسنُ عنك، حتى حللتَ محلّ الأمانة[3] وكنتَ مَوْضعَ تقليدِ الوطَر[4]، وإثباتِ الطَويّة[5]، والله يمتّعكَ بما حازه لك من الخير، ووفّره عليكَ من طيبِ الذكر.

في علمك – أعزّك الله – ما تقتضيه العُطْلةُ من إظلام الخاطر، وصدأ النفس، ويجنيه طولُ المُقام من إخلاقِ الدّيباجةِ، وإرخاصِ القَدْر[6]، وقد آنَ أنْ أجتني ثمَرةً من آدابٍ أطلتُ الاعتناءَ بها، وأخلاقٍ أدمتُ رياضةَ الأنفسِ عليها، ولمّا مخضتُ الملوكَ[7] وجدتُ عميدَهم الذي أنسى السّالفَ قَبْلَهُ، وتقدّمَ الراهنَ معه، وأتعب الغابرَ بعده[8]، الحاجبَ فخرَ

---

(١) اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة على ما بين يدينا من نسخ الذخيرة، فإنها لم تصلنا إلا عن طريقها، وقد ذكر ابن بسام أن ابن زيدون أرسل هذه الرسالة من قرطبة إلى إشبيلية قبل تحوله إليها «راجع الرسالة» بالذخيرة ق ١ ج١ ص ٣٤٠ – ٣٤٢.

(٢) العلق: الثمين من كل شيء.

(٣) محل الأمانة: هو القلب عند العرب، وهو كذلك محل الانفعالات جميعها عندهم.

(٤) الوطر: الحاجة التي يهتم بها الإنسان ويعنى بها أتم العناية، موضع تقليد الوطر: مكان تعليق الآمال.

(٥) الطويّة والطيّة: الضمير أو النية، المعنى: كنت ثابتًا في أعماق القلب راسخًا في الضمير.

(٦) الديباج: ثوب سداه ولحمته الحرير، والديباجتان: الخدان، إخلاق الديباجة: استعمال مجازيّ معناه ذهاب الروعة والبهاء، قال الشاعر في هذا المعنى:

وطول مقام المرء في الحي مخلق	لديباجتيه، فاغتربْ تتجــــــدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة	إلى الناس أن ليستْ عليهم بسرمدِ

(٧) مخض اللبن: حركه ليستخرج ما فيه من زبد، والمعنى: إنني فحصت الملوك فلم أر فيهم خيرًا من ابن عباد.

(٨) الغابر: الباقي، قال الزبيدي غبر غُبورًا: مكث، وقد يستعمل بمعنى مضى فيكون من الأضداد، وفي لغة: عبر للماضي، وغبر للباقي.

الدولة مولاي، ومن أطالَ اللهُ بقاءه، وكبَتَ أعداءه لما خصَّه الله به من سَناء الهِمَمِ[١]، وسماحة الشِّيَم، وانتظامِ أسبابِ الرياسةِ، وكمالِ آلاتِ السّياسة، واجتماع المناقب التي أفْرَدَتْهُ من النُّظَراء[٢]، وأعلته عن مراتب الأكفاء، فرأيتُ قبل أن أحملَ لغيره نعمةً[٣]، أو أُوسَمُ ممن[٤] سواه بصَنيعةٍ[٥]، أن أعرِضَ نفسي مملوكةً عليه عرضَ من لا يؤهّلها لإجارته إلا بالاستجازة[٦]، ولا يطمعُ لها في قَبولِه إلا مع المسامحة[٧]، فلو كنتُ الوليدَ بنَ عُبيدٍ براعةَ نظم[٨]، وجعفرَ بنَ يحيى بلاغةَ نثر[٩]، وإبراهيمَ بنَ المهديّ طيبَ مجُالسةٍ، وإمتاعَ مشاهدةٍ[١٠]، ثم حضرتُ مجلسه العالي لما كنتُ مع سعةِ إحاطته إلا في جانب التقصير[١١]، وتحت عُهدة النقصان، غير أنه لم يَعَدمْ فيَّ نَجابة غَرسِ اليد[١٢]، وإصابةَ طريقِ المَصنع[١٣]، من ولايةٍ أُخلِصها، ونصيحةٍ أمحَضُها[١٤]، وشكرٍ أُجنيه الغَضَّ من زَهَراتِه، وثناءٍ أُهدي إليه العَطِرَ من نَفَحاتِه، ففوّضتُ إليك هذه السِّفارةَ، واعتمدتُكَ بتكليفِ النيابةِ لوجوهٍ، منها: حُظْوَتُكَ لديه، ومكانتُكَ منه، سَوّغَكَ اللهُ الموهبةَ في ذلك[١٥]، وأَنْهَضَكَ بأعباء الشكر لها، ومنها: سَرْوُ مذهبك[١٦]، وكرمُ سجيتك، وصِحّةُ مشاركتك لمن لم يستوجبْها

(١) سناء الهمم: علوها.

(٢) المناقب: جمع منقبة وهي الفعل الكريم.

(٣) في بعض نسخ الذخيرة «أحتمل لغيره».

(٤) الوسم: العلامة المميزة.

(٥) الصنيعة: الخير المصنوع لإنسان.

(٦) في بعض النسخ «لإجارته إلا بالاستجارة»، أجاره من الظلم: حماه منه أو أنقذه وأعاذه، استجار: طلب الحماية والإنقاذ، استجاز: طلب الإجازة أي الإذن، واستجزته فأجاز: سقى أرضك أو ماشيتك بما فاض من مائه، والمعنى: أعرض نفسي عليه راجيا حمايته أو الفوز بنواله مستجيرًا به أو مستمنحًا إياه.

(٧) في بعض النسخ «إلا بالمسامحة».

(٨) الوليد بن عبيد: هو البحتري الشاعر المشهور، وهو أبرع الشعراء في جودة الصياغة وحسن التنسيق والتميق توفي سنة ٢٨٤هـ.

(٩) جعفر بن يحيى البرمكي: وزير الرشيد كان مشهورًا ببلاغة الإيجاز وبخاصة في التوقيعات، قتله الرشيد سنة ١٨٧هـ.

(١٠) أخو هرون الرشيد وقد برع في الغناء وحسن المنادمة وطيب المؤانسة ادعى لنفسه الخلافة بعد الأمين، ثم خلعه المأمون وصفح عنه، وتوفي سنة ٢٢٤هـ.

(١١) في بعض النسخ «بسعة إحاطته» والمعنى: مهما أوتيت من المواهب فإنني لم أبلغ مداه.

(١٢) في بعض النسخ «لم يعدم مني»، والمعنى: إنه سيجد فيّ موضعًا طيبًا لإسداء النعم.

(١٣) في بعض النسخ «طريق الصنع» والصنع هو الإحسان، والصنع مصدره الميمي.

(١٤) أمحضها: أخلصها، الغض: الطري.

(١٥) سوّغك: أعطاك.

(١٦) السرو: المروءة والسخاء.

استيجابي، ولا استدعاها بمثل أسبابي، من تداني الجدار، وتصافي السَّلَفِ، والانتماء إلى أسرةِ الأدبِ(١)، فإن وافقتْ السّانحةُ الإرادةَ فحظٌّ أقبلَ، وعبدٌ بلَغ من قَبولِ سيّده ما أَمّل(٢)، ولم أقل: «عمرك الله!!» كما قيل في النجمين(٣)، بل قلت: «وقد يجمع الله الشّتيتين»(٤)، وإن عاق حِرمانٌ عادتُهُ أن يَعُوقَ عن الظَّفر، ويعترضَ دون الأمل، فأَعلِمْهُ – أيّده الله – أني في حال العُطلة مع غيره والتصرف، ويَوميْ الإيطانِ والتطوّفِ، كالمهتدي بالنجم حينَ عَدِمَ ذُكاءً، ومُتَيَمِّمِ الصَّعيد إذا لم يجد الماء(٥).

فــإن أغشَ قــومًــا غــيــرَه أو أزرهُمُ
فكالوَحْشِ يُدنيــه من الأَنَسِ الـمَـحْلُ(٦)

والله يتولاه بالفُسْحَةِ في عمرهِ، والإعلاءِ لأمرهِ، ويُصَرِّفُ الأقدار مع إيثارهِ، ويَصْرِفُ وجوهَ التوفيقِ إلى اختياره(٧).

---

(١) يسرد الكاتب مسوغات الشفاعة وهي حظوة الشافع عند الأمير، ثم مروءته وإكرامه لمن هو أقلّ من الكاتب استحقاقًا، هذا إلى حرمة الجوار وصداقة الآباء والأجداد، وصلة الآداب.

(٢) المعنى: إذا وافقت الفرصة السانحةُ توفيقَ الله وإرادته فقد بلغتُ ما أمّلته.

(٣) يشير إلى قول عمر بن أبي ربيعة، راجع ص (٦٥١).

أيها المنكح الثريا سُهيلا　　　عمرَك الله كيف يلتقيان

(٤) يشير إلى قول قيس بن الملوح (مجنون ليلى):

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما　　　يظنان كل الظن ألا تلاقيا

(٥) في بعض النسخ «حين لم يجد الماء»، المعنى: إذا حال الدهر بيني وبين الفوز بقربه – ومن شيمة الدهر أن يحرم الراغبين – فأعلمه أنني سواء كنت عاملاً لغيره أو عاطلاً، وسواء كنت مقيمًا أو راحلاً فليس هذا انصرافًا عنه، وإنما شأني شأن من يهتدي بالنجم إذا غابت الشمس، ويتيمم بالتراب إذا لم يجد الماء.

(٦) البيت لمسلم بن الوليد في مدح بني خالد ومعناه: إنني ألجأ إلى غيرهم مضطرًا كما يضطر الوحش إلى القرب من الناس لما يصيب موطنه من قفر وإجداب، وقد ورد البيت والبيت السابق له في الديوان بهذه الصيغة:

ثناء كعرف الطيب يُهدَى لأهـله　　　وليس له إلا بني خالد أهـــــــلُ
فإن أغش قومًا بعدهم أو أزرهُمُ　　　فكـالوحش يستَدْنيه للقنص المحـل

القنص: الصيد، والمحل هو الجدب والإقفار.

(٧) المعنى: أدعو الله أن يطيل عمره، ويرفع منزلته، ويُصيرَ الأقدار متصرفة بما يرضيه، ويجعل التوفيق مصاحبًا لاختياره.

ولك يا سيدي في انتدابك لما ندبتُك له، ما للسّاعي المُنْجِحِ من الشكر، وللمجتهد البالغ من العُذر[١]، ومِلاكُ الأمر تقديمُ المراجعةِ بالإيجاب، فأسْكُنُ إليها، والجوابِ فأعتمدُ عليه[٢]، وأهدي إليك نديَّ الغَضِّ الناضرِ من سلامي، والأَرِجَ العاطرَ من تحيتي.

****

(١) المعنى: إذا وفقت يا سيدي لإنجاز طلبي، فلك ما للساعي الناجح من الشكر، وإذا عاقتك العوائق، فلك ما للمجتهد المخفق من العذر، وهو يشير بهذا إلى قول عروة بن الورد:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترًا ... من المال يطرح نفسه كل مَطْرَحِ
ليبلغ عذرًا أو ينال رغيبـــة ... ومبلغ نفس عذرها مثل مُنجحِ

وإلى قول الآخر:

إذا ما شفيتُ النفسَ أبلغتُ عذرها ... ولا لوم في أمر إذا بلغ العذرُ

(٢) ملاك الأمر وملاكه: ما يقوم به، يقال: القلب ملاك الجسد، والمعنى: قوام الأمر أن تختبرني بالنتيجة فأطمئن إليها وأن ترسل إليّ خطابًا أعتمد عليه في إنجاز شؤوني والرحلة إلى الأمير.

الرسالة العَبّادية

(١)

كتب ابن زيدون هذه الرسالة إلى المعتضد بن عباد[١]:

أطال الله بقاء الحاجب فخرِ الدولة مولاي وسيّدي، ومَولى المناقب الجليلة، والضرائب النفيسة[٢]، في أكمل ما تكفّل له به من عُلوّ القدر، ونفاذ الأمر، وخَصَّهُ من النِّعم بأسبغها سِربالاً[٣]، وأبردها ظلالاً، وأحمدها مآلاً.

كنتُ – أعزّ الله الحاجبَ مولايَ – قد كتبتُ إلى الوزير أبي عامر عبدِه بما أيقنتُ أنه انتهى إليه، واشتملَ عليه[٤]، فكتب الوزيرُ إلى بعض أسبابه[٥] بما يقومُ مقامَ المراجعةِ لي[٦] بما يرتفعُ عن قدري، ولا تتّسعُ له ساحةُ شكري، لعلمي أنه عن الحاجب – أيّده الله – صدر، وبإذنه نفذ، والذي عداني[٧] عن أن يكون الكتابُ في ذلك إلى الحاجب – أبقاه الله – التأدبُّ بآداب حُصفاء[٨] العَبيد في الإجلال والإعظام، وترك التَّبَسُّطِ والإقدام[٩]، وقلّما استغنتْ أوائلُ مطالبِ الأتّباع لحضرة[١٠] الملوك عن وسائطَ تُمهّدُ لها، وتَعْتَمِدُ أوقاتَ

(١) أرسل الكاتب هذه الرسالة عقب الرسالة السابقة كما ذكر ابن بسام في مقدمتها حيث يقول: «وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها:» وقد اعتمدنا في تحقيقها على نسخ الذخيرة فإنها لم ترد إلا بها.

(٢) المنقبة: الفعل الكريم، الضرائب: الطبائع.

(٣) في بعض النسخ «أكمل ما تكمل له به»، أسبغها: أوسعها، سربالاً: قميصًا.

(٤) اشتمل عليه: أحاط به.

(٥) الأسباب: جمع سبب وهو صلة القرابة.

(٦) في بعض النسخ «مما يرتفع عن قدري».

(٧) عدَاهُ وعدَّاهُ: صرفه وشغله.

(٨) حصفاء العبيد: حكماؤهم، من الفعل (حصف): استحكم عقله.

(٩) ترك التبسط: الاحتشام.

(١٠) في بعض النسخ «بحضرة الملوك من» المعنى: إنني أعتذر عن كتابتي إلى الأمير الحاجب كتابة غير مباشرة عن طريق وزيره أبي عامر بن مسلمة لأن حكماء الأتباع يحرصون على أن يوسطوا بينهم وبين سادتهم وسطاء يمهدون لهم السبل، ويتخيرون الأوقات المناسبة إجلالاً منهم لسادتهم واحتشامًا.

الإمكان بها، لا أنّي اتَّخَذْتُ إلى الحاجب - أدام الله عُلُوَّهُ - غيرَ سيادته ذَريعةً[١]، أو التمستُ إليه إلا من نفاسةِ نَفْسِهِ شَفاعةً، وأنَّى مَعْدَلٌ لمثلي عن تَفَيُّؤ ظلاله[٢]، والاعتمادِ بحبله[٣]، وصناعةُ الأدب كاسدةٌ إلا عليه، وطريقُ الأملِ موحِشَةٌ إلا إليه، ولم يدعُني إلى استطلاع ما قِبَلَهُ شكٌّ في كرمه، ولا سوءُ ظنٍّ بسماحة شِيَمِهِ، بل لزومُ الطريقة في التوطئة للمطلب[٤]، والتدرُّجُ إلى إحرازِ الأرب[٥]، وحسبي أن أملي قد ارتادَ الجَنابَ الرَّحبَ[٦]، والمشرَب العذب[٧]، ولعلَّ الحظوظَ ستُكشَفُ، والنوائبَ ستُصْرَفُ[٨]، إلى أن أبلغَ إلى أبعد غاياتِ الأمل، من مشاهدة حضرته العلياء، والنظرِ إلى غُرتِّهِ الزهراء[٩]، فوالله ما ينصرفُ فكري، ولا ينصرمُ حينٌ من عمري[١٠] إلا في الذِّكر له، والشَوق إليه، وتصوُّر المثولِ بين يديه[١١] وأنا أقدّم الاعتذار من مَهابة تَسْتَمْلِكُ جَناني[١٢]، وحَصَرٍ يكاد يقطع في أول المشافهة لساني[١٣]، فإن حدث ذلك، فعُذري عذرُ الفضلِ بنِ سهل، وقد انقطعَ بين يَدَيْ الرشيد، فقال: يا أميرَ المؤمنين، من فَراهةِ العبدِ أن تَمْلِكَ قلبَهُ مَهابةُ سيِّده[١٤].

---

(١) الذريعة: الوسيلة، وتذرع فلان بذريعة: توسل بوسيلة.

(٢) معدل: مصرف، تفيأ: تظلل.

(٣) الحبل: الرباط أو العهد أو الذمة أو الوصال.

(٤) التوطئة: التمهيد.

(٥) الأرب: الحاجة المرغوب فيها.

(٦) ارتاد الرجل الشيء: طلبه.

(٧) المشرب العذب: المورد السائغ، قال الشاعر:

يزدحم الناس على بابه ... والمشربُ العذب كثير الزحام

(٨) المعنى: لعل الآمال ستظهر والهموم تنصرف.

(٩) حضرة الرجل: قربه أو فناؤه، وكلمه بحضرة فلان: بمشهد منه، الزهراء: البيضاء المشرقة.

(١٠) ينصرم: يزول أو ينقطع.

(١١) مثل بين يديه مثولاً: انتصب قائمًا أمامه.

(١٢) تستملك جناني: تستولي على قلبي.

(١٣) الحصَر: العيّ. المشافهة: المخاطبة فَمًا إلى فَمٍ.

(١٤) في بعض النسخ «فقال له». الفراهة: الحذق أو الحسن والصباحة.

وسيُفْضي ذلك بمشيئة الله إلى ما يَستجيزُهُ الحاجبُ مولايَ من إمتاعٍ[1]، ويَقْبلُهُ من شاهد[2]، ويستطرِفُهُ من أدب[3]، ويستلطفهُ من إجمال طلب، وجمال مَذهب[4]، كما أني أعلم أني سأصل إلى ما لم أعهد مثله من بَهاء منظر، وسَناء مخبر[5]، ورِفعةِ شان، وعظم سلطان.

ولعلَّ السعادةَ أن تهيئ لي من الحظّ ما أُثبتُ به ما ادّعيته لنفسي من هذه الصّفات، وأُنجزُ معه ما قدّمتُ عنها من هذه العِدات[6]، فحَوْلُ الله في ذلك كفيل[7]، وهو حسبي ونعم الوكيل[8].

زاد الله الحاجبَ مولايَ من سَنِيِّ قِسَمِهِ[9]، وهَنِيِّ نِعمه، وبلَّغَهُ النهايةَ من آمالهِ، وصرفَ بعزّته غِيَرَ الزمان عن كماله[10].

****

(١) أفضى إلى الشيء: وصل إليه، المعنى: سينتهي اتصالي بسيدي إلى ما يسر إن شاء الله فيرى في شمائلي من الإمتاع والمؤانسة ما يبيحه طبعه ويلتئم مع ميوله.

(٢) الشاهد: اللسان أو ما يشهد على جودة الفرس من جريه.

(٣) يستطرفه: يراه بديعًا.

(٤) في بعض النسخ «يستطلعه».

(٥) السناء: الرفعة، المخبر: يقابل المنظر، والمعنى: أعتقد أنني سأجد عنده مالم أجد في حياتي له مثيلاً من حسن منظر وطيب خبر.

(٦) العدات: جمع عدة، وهي الموعد.

(٧) الحول: القوة، كفيل: ضامن.

(٨) مقتبسة من الآية الكريمة ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

(٩) سَنِيّ: رفيع، القِسَم: جمع قسمة وهي الحظ والنصيب.

(١٠) غِيَرُ الزمان: أحداثه ونوائبه.

الرسالة العَبّادية

(٢)

وجه الكاتب هذه الرسالة إلى المعتضد بن عباد بعد أن غادره إلى قرطبة(١).

أطالَ اللهُ بقاءَ مولايَ للنِّعم يُطوّقها(٢)، والآمالِ يُصدّقها، والمِنَنِ يقلّدُها(٣)، والأحرارِ يستعبدُها، يعلمُ الذي أسألُه إعزازَ مولايَ وإعلاءَ أمره، وصلةَ تأييده، وتمكينَ نصره(٤)، أنّي لم أزل منذ فارقتُ حضرَتَهُ الجليلةَ، حضرةَ المجد والسيادة(٥)، ومحلَّ الإقبال والسعادة، لَهِجَ اللسانِ بما أجناني من ثمار الحكمةِ والنّعمة(٦) وأفادني من عُقَدِ الأدب والنَّشب(٧)، فمن كبِدِ حاسدٍ تصدّعتْ، وأنفاسِ منافسٍ تقطّعتْ، وناعمِ البال كَسَفَتْ بالَهُ، ومُتَمَنٍّ لحالي طالما تمنّيتُ حالَهُ، وَقلَّ لمن نال أدنى مكانةٍ منه، ورَقِيَ أولَ درجةٍ من الخصوصِ به(٨) أن تَحْسُدُهُ الكواكبُ في إشراقها، وتنحشِدَ إليه الأماني من أطرافها(٩)، والله يبقيه لعبيده الذين أنا آخرُهُمْ في الخِدمة، وأوّلهم في شكر النّعمة، ويرفعُ من هِممهم ما انخفضَ، ويبسط من آمالهم ما انقبضَ، ولا يُعدِمُهُم التقلُّبَ في نِعَمِهِ، والاعتلاقَ بأسباب ذِمَمِهِ(١٠)، بمجدهِ وكرمهِ.

---

(١) اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة على نسخ الذخيرة، فإنها لم ترد إلا بها وقد صدرها ابن بسام بهذه العبارة: «وكتب إليه بعد أن صدر عن حضرته إلى قرطبة رقعة يقول فيها»، مما يدل على أن الكاتب عاد إلى قرطبة ليرتب شؤونه قبل الالتحاق بخدمة المعتضد.

(٢) طوّقه بنعمته: قلده إياها.

(٣) المنن: النعم.

(٤) المعنى: يعلم الله الذي أدعوه أن يعز مولاي ويُعلي شأنه، ويديم تأييده ويثبت فوزه أني.

(٥) حضرة الرجل: قربه أو فناؤه، وكلمه بحضرة فلان أي بمشهد منه.

(٦) لهج بالشيء: أولع به فثابر عليه، أجناه: منحه الجنى أو سهّل له جنيه.

(٧) العقد: جمع عقدة وهي الولاية: النشب: العقار، وقيل المال والعقار.

(٨) الخصوص: الاختصاص.

(٩) احتشد القوم وتحشدوا وأحشدوا: اجتمعوا، ولم نر الفعل «انحشد» المطاوع للفعل «حشد» في ما رجعنا إليه من كتب اللغة.

(١٠) اعتلق وتعلّق بامرأة: أحبها، وقد استعمل الكاتب هنا الاعتلاق بمعنى التعلق، ولم نجده في كتب اللغة، والمعنى: أسأل الله ألا يحرمهم من التمتع بنعمه، والتمسك بحبال مودته ورعايته.

وكانت من مولايَ – أعزّه الله – إشارةٌ، بل عبارةٌ، أعْدَدْتُها طليعةً لسُعود تَتَوافَى طَلَقًا[١]، ومقدّمةً لمسرّاتٍ تتوالى نَسَقًا[٢]، فلما لَحِقَ الجِسمُ بعد تركه النَّفْسَ لديه، والبراءةِ منها إليه، بالوطن الذي أسلاني عنه وأسْنَى لي العِوَضَ منه[٣]، تأتّيتُ من طاعته المقترنةِ بطاعة الله في نفسي مَمْلوكَتِهِ لما أنا مُهنَّأٌ به[٤]، مُنافَسٌ فيه، فساعفتْ المآربُ، وأسمحتْ المطالبُ[٥]، ولم يَرِبْني تعذّرُ وجهٍ حاولتُه، ولا عداني تيسُّرُ أمرٍ تناولته[٦]، ولم تبقَ علّةٌ تسوِّغُ باعتراضها الاعتذارَ إلا ما يتراخى، ريثما يعاودُ أمرُهُ[٧] ويتجدَّدُ في الحركة إذنُهُ، ولم أستأذنْ لأن الإذنَ بَعُدَ عهدُهُ، وأن الميعادَ لم يُحْكَمْ عِقْدُه[٨]، بل تجنّبتُ أن أُدِلّ بترك المشاورةِ، أو أُخِلَّ برسم المؤامرةِ[٩] فلمولايَ الطَّوْلُ في أمر الواسِطَةِ عبدِهِ[١٠]، بمراجعةٍ أعتمدُ عليها، وأجتهدُ في الانتهاء إليها، والله يُبلِّغُني الأملَ من وقفةٍ بحضرته، ونظرةٍ إلى غُرّته، وتقبيلٍ لراحته[١١]، وتصرّفٍ في ساحته، فهو المالكُ لذلك، والقادرُ عليه[١٢].

****

(١) الطلَقُ : جَرْيُ الفرس إلى هدفه دون تعويق، أو الشوط، تتوافى طلقًا: يتكامل ورودها طائفة بعد طائفة، وفي بعض نسخ الذخيرة «ستتوافى طلقًا».

(٢) تتوالى نسقًا: تتوافد متتابعة في نظام دقيق، وفي بعض نسخ الذخيرة ستتوالى سبقًا.

(٣) أسنى: رفع، والمعنى: أجزل لي العوض عن مفارقة وطني.

(٤) تأتّى له الأمر: تسهل وتهيأ، وتأتّى في أمره: ترفق.

(٥) أسمحت المطالب: أجابت الرغائب.

(٦) لم يربني: لم يحملني على الشك، ولا عداني: ولا صرفني.

(٧) علة: سبب، تسوغ: تسهل، والمعنى: لم يبق لي مسوّغ للاعتذار عن اللحاق به إلا ترقبي أن يُعاود الإذن لي بالوفود إليه بعد أن طال العهد على إذنه الأول.

(٨) المعنى: لم أستأذنه في المثول بين يديه، لأنّ الإذن الأول بعد عهده ولم يحدد وقته.

(٩) المؤامرة: المشاورة.

(١٠) الطول: المن.

(١١) الراحة: الكف.

(١٢) في بعض النسخ «القادر عليه».

ليلة نعيم

وصف الكاتب في هذه المقطوعة ليلة طواها مع ولّادة في نعيم ثم في عتاب أشبه بالنعيم(١):

كنت في أيام الشباب، [وغمرة التصاب](٢)، هائمًا بغادة، [تدعى ولّادة](٣)، [أرى الحياةَ متعلقةً بقربها، ولا يزيدني امتناعها إلا اغتباطًا بها](٤)، فلما قُدّر اللقاء، وساعد القضاء(٥) كتبتْ إليّ:

ترقَّبْ إذا جَنّ الظّلامُ زيارتي
فإنّي رأيتُ الليل أكتمَ للسِّرِّ
وبي منكَ: ما لو كان بالشّمسِ لم تَلُحْ
وبالبدرِ لم يَطْلُعْ، وبالنَّجمِ لم يَسِرِ(٦)

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عبيرَه(٧)، أقبلتْ بقَدٍّ كالقضيب، وردْفٍ

(١) اعتمدنا في تحقيق هذه المقطوعة على نسخ الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٧، ٣٧٨، وتحفة العروس لأبي عبدالله محمد بن أحمد التيجاني ص ٢٠٢، وقد قدم لها بالعبارة الآتية: «ومن كلام ابن زيدون مخبرًا عن أول اجتماعه بها مما لم يثبت في الذخيرة» مع أن هذه المقطوعة وردت بالذخيرة كاملة على العكس من تحفة العروس.

(٢) غمرة كل شيء: حدّته، يقال هو يضرب في غمرة اللهو: إذا كان منهمكًا فيه، التصابي مأخوذ من الصبوة وهي الميل إلى جهلة الفتوة، يقال تصبت المرأة الرجل: شاقته، وتصبّاها: دعاها إلى الصبا أو خدعها وفتنها، أنشد ابن الأعرابي:

لعمرك لا أدنو لأمر دنية ولا أتصبَّى آصرات خليل

وغمرات التصابي: غفلات الفتوة والجهالة والانقياد للشهوات، ولعلها «غرة التصابي»، ولم ترد هذه الجملة في تحفة العروس.

(٣) زيادة عن الذخيرة.

(٤) زيادة من تحفة العروس.

(٥) في تحفة العروس «فلما ساعد القضاء وآن اللقاء».

(٦) آثرنا رواية تحفة العروس، وفي الذخيرة.

«... لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أدجى...»

(٧) العبير: الرائحة الطيبة، وفي بعض نسخ الذخيرة «ونشر الليل عنبره» أي سواده.

كالكَثيب[1]، وقد أطبقت نَرجسَ الـمُقَلِ، على ورد الخَجل[2]، فملنا إلى روضٍ مدبَّج، وظلٍّ سَجسج[3]، قد قامتْ راياتُ أشجاره، وفاضتْ سلاسلُ أنهاره[4]، وُدرُّ الطَلّ منثور، وجَيْبُ الراح مَزرور[5]، فلما شَببنا نارها، وأدركتْ منا ثأرها[6] باح كلٌّ منا بحُبّه، وشكا أليم ما بقلبه[7]، وبتنا بليلةٍ نجني أقحوانَ الثُّغور[8]، ونقطفُ رمّانَ الصُّدور[9]، ولما نشر الصبحُ لواءه، وطوى الليلُ ظلماءه، ودّعتُها، وأنشدتُها[10]:

وَدِّعَ الصَّــــبْــــرَ مــــحبٌّ ودّعكْ
ذائعٌ من سِــرِّه مـــا اسْــتَـــوْدَعَكْ
يـقــــــــرعُ السِّنَّ علـى أنْ لم يكنْ
زادَ في تلك الخُطا إذ شــيَّــعكْ[11]
يا أخـــا البــــدرِ سَناءً وسَنًا
حـــفظَ الله زمــانًا أَطْلعكْ[12]
إن يَطُلْ بعــــدكَ ليْلِي فلَكَمْ
بتُّ أشكو قِـصَــرَ الليل مَـعَكْ[13]

---

(١) في تحفة العروس «في ردف». والمعنى: أقبلت بقوامها المعتدل المشوق وعجزها الممتلئ المرتج مثل كثيب الرمال.

(٢) المعنى: أطبقت عينيها الشبيهتين بالنرجس على خديها الموردين.

(٣) مدبج: مرقش مزين، سجسج: لا حر فيه ولا برد.

(٤) في تحفة العروس «وامتدت سلاسل أنهاره».

(٥) جيب القميص: فتحته عند النحر، والمعنى: كان الطل منثورًا كاللآلئ على الأزهار، وأواني الخمر مغلقة في انتظار الشاربين والسمار.

(٦) في الذخيرة «وأدركت فينا»، المعنى: لما أفرغنا كؤوس الراح أشعلت فينا جذوة الهيام، وأخذت منا بثأرها في إراقة دمها، كما قال الشاعر:

والخمر تعرف كيف تأخذ ثأرها ... إني أملت إناءها فأمالني

(٧) في تحفة العروس «... وشكا ما بقلبه».

(٨) في تحفة العروس «نجتني». الأقحوان: زهر طيب الرائحة، وسطه أصفر، وأوراقه بيضاء، جمعه أقاح، قال الشاعر:

تحير في الرياض، فليس يدري ... أيجني الورد أم يجني الأقاحا؟

والمعنى: طوينا ليلتنا نتبادل القبلات كأننا نجني من الأفواه أطيب الأزهار.

(٩) في تحفة العروس «ونقتطف».

(١٠) في الذخيرة «فلما انفصلت عنها صباحًا، أنشدتها ارتياحًا» وقد آثرنا رواية تحفة العروس.

(١١) يقرع السن: يندم.

(١٢) السناء: الرفعة، السنا: الضوء.

(١٣) راجع الديوان، (ص ٢٠٠) وإلى هنا انتهت رواية تحفة العروس واعتمدنا في ما بقي من المقطوعة على نسخ الذخيرة.

قال أبو الوليد: وكانت عُتبةُ[1] قد غَنَّتنا:

أحـــبُّـــتَـنـا إنّـي بلـغـتُ مُــؤمَّلي
وســاعــدني دهري وواصَلَني حِـبِّي[2]
وجــاء يُهنّيني الـبَــشــيــرُ بقُــرْبِهِ
فــأعطيــتُــهُ نَفْــسي، وزدتُ لـه قلبي[3]

فسألْتُها الإعادة، بغير أمر ولاّدة، فخبا منها برقُ التبسّم، وبدا عارضُ التجهّم[4].

وعاتبتْ عتبةَ، فقلتُ:

ومــا ضَــرَبَتْ عُــتْــبَي لذنبٍ أتَتْ بهِ
ولكنَّمــا ولاّدةٌ تشــتــهي ضَــرْبي
فــقــامتْ تَجُــرُّ الذَّيْلَ عــاثرةً بهِ
وتمسحُ طَلّ الدَّمْعِ بالعَنَم الرَّطبِ[5]

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودمُ المُدام مسفوك[6]، ومأخذُ اللهوِ متروك، فلما قامتْ خطباءُ الأطيار، على منابرِ الأشجار[7]، وأَنِفَتْ من الاعتراف، وباكرتْ إلى الانصراف[8]، وَشَتْ بمِسْكِ الأنقْاس[9] على كافورِ الأطْراس[10]:

---

(١) عتبة: وصيفة ولادّة.

(٢) الحِبّ: الحبيب.

(٣) راجع الديوان، (ص١٣٧).

(٤) خبا الضوء: انطفأ، التجهم: العبوس.

(٥) راجع الديوان (ص ٢١٨)، تجر الذيل: تسحبه، العنم: شجر لين الأغصان تشبه به أصابع الحسان، والمعنى: إنها مسحت مدامعها الشبيهة بالطل بأصابعها الشبيهة بالعنم الطريّ.

(٦) المعنى: بتنا في عتاب دائم، نفزع فيه إلى سكب الخمر في الكؤوس ورشفها فرارًا من الجفوة القائمة.

(٧) المعنى: فلما أصبح الصباح، وغردت الطيور على ذوائب الأغصان..

(٨) المعنى: صرفها الغضب والدلال عن الاعتراف بخطئها فبادرت إلى الانصراف.

(٩) وشّى: زيّن. الأنقاس: جمع نقس، وهو المداد، والمعنى: كتبت بالمداد الشبيه بالمسك.

(١٠) الكافور: نوع من الطيب أبيض اللون، يؤخذ من شجره الضخم، الأطراس: جمع طرس، وهو الصحيفة، والمعنى: كتبت بالمداد المعطر على الصحائف البيضاء الشبيهة بالكافور.

لو كنتَ تُنْصِفُ في الهَوَى ما بينَنا
لمْ تَهْوَ جاريتي، ولم تَتَخَيَّرِ
وتركتَ غُصْنًا مُثْمِرًا بجمالِهِ
وجنحتَ للغُصْنِ الذي لمْ يُثْمِرِ[1]
ولقد عَلِمْتَ بأنَّني بدرُ السَّما
لكن دُهِيتُ لِشِقْوَتي بالمُشْتَرِي[2]

****

(١) جنح: مال.

(٢) المعنى: إنني بدر مشرق في صفحة السماء زاحمه نجم المشتري والمقصود به جاريتها عتبة.

إلى ولادة

كتبت ولادة إلى ابن زيدون[1]:

ألا هل لنا من بعـد هذا التـفـرّقِ
سبيلٌ؟ فيشكو كلُّ صَبٍّ بما لَقِي
وقد كنتُ أوقاتَ التَّزاوُرِ في الشِّتا
أبيتُ على جَمْرٍ من الشَّوْقِ مُحرِقِ
فكيف؟ وقد أمسيتُ في حال قَطْعَةٍ
لقد عجّل المقدارُ ما كنتُ أتّقي
تمرُّ الليالي، لا أرى البَيْنَ ينقضي
ولا الصَّبْرَ من رِقِّ التَّشَوُّقِ مُعْتِقِي
سَقَى اللّهُ أرضًا قد غَدَتْ لك منزلاً
بكلِّ سَكوبٍ هاطلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله:

لَحَا الله يومًا لستُ فيه بمُلتقٍ
مُحَيّاكِ من أجل النَّوى والتَّفَرُّقِ
وكيف يطيبُ العيشُ دونَ مَسَرَّةٍ؟
وأيُّ سرورٍ للكئيب المُؤرَّقِ[2]؟

وكتب في أثناء كلام بعد الشعر: «وكنتِ ربما حثثتِني على أن أُنبِّهَكِ على ما أجد فيه عليك نقدًا، وإني انتقدتُ عليك قولك:

سقى الله أرضًا قد غدتْ لك منزلاً

(١) نقلاً عن نفح الطيب ج٢ ص ٥٦٤، ٥٦٥.

(٢) انظر الديوان، ص (٢١٥).

فإن ذا الرُّمّة قد انْتُقِدَ عليه قوله، مع تقديم الدعاء بالسلامة:

ألا - يا اسْلَمِي - يا دارَ مـيٍّ على البِلَى
ولا زال مُنْهَـــلاً بَجـــرْعَـــائِكِ القَطْرُ

إذ هذا أشبَهُ بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأما المستحسن فقول الآخر[1]:

فَسَقَى ديارَكِ - غَيْرَ مُفْسِدِها -
صَـــوْبُ الرَّبيعِ ودِيمَةٌ تهْـــمِي[2]

****

(١) البيت لطرفة بن العبد.

(٢) سبق العسكري إلى هذا النقد في كتابه الصناعتين ص ٣٧٩، وقد أورده ابن رشيق في كتابه العمدة ج ٢ ص ٤١.

من كتاب التبيين

ذكر المقّري في نفح الطيب(1) أن ابن زيدون ألف كتابًا جامعًا في تاريخ خلفاء بني أمية بالأندلس سماه «التبيين على منزع التعيين في خلفاء المشرق للمسعودي»(2)، وقد ضاع الكتاب، ولم تبق منه إلا مقطوعتان حفظهما لنا نفح الطيب، هما:

(1)

ذكر ابن زيدون: «أن الداخل ألفى على قَضاء الجماعة بقُرطبة يحيى بن يزيد اليحصبي، فأقرّه حينًا، ثم ولَّى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصي، ثم عمرو بن شُرحبيل، ثم عبدالرحمن بن طريف.

وكان جِدار بن عمرو يقضي في العساكر، وكان الداخل يرتاح لمّا استقر سلطانه بالأندلس إلى أن يفد عليه فَلُّ بيته بني مروان بها حتى يشاهدوا ما أنعم الله عليه، وتظهر يده عليهم، فوفد عليه من بني هشام بن عبدالملك أخوه الوليد بن معاوية، وابن عمه عبدالسلام بن يزيد بن هشام(3)».

(2)

في وصف عبدالرحمن الداخل: «أنه كان أصهبَ، خفيفَ العارضين، بوجهه خالٌ، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعورَ أخشمَ – والأخشم الذي لا يشَمُّ – وكان يُلقّب بصقر قريش، لكونه تغرّب وقطع البرّ والبحر وأقام مُلكًا – قد أدبر – وحدَه(4)».

****

(1) ج ٢ ص ١٢٣.

(2) ضاع كتاب المسعودي كما ضاع كتاب ابن زيدون، على منزع: على منهج.

(3) نفح الطيب ج ٢ ص ٣١. فل بيته: بقايا أسرته المنهزمة بالمشرق.

(4) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٤. أصهب: أشقر الشعر، خفيف العارضين: أي خفيف شعر جانبي الوجه.

الأعـــــلام

الذين وجّه إليهم الشاعر قصائده أو رسائله، وقد تحدثنا عن صلاتهم بالشاعر في كتابنا «ابن زيدون»(١).

باديس بن حبّوس(٢):

ينتمي إلى صنهاجة القبيلة البربرية المشهورة، ورث إمارة غرناطة عن أبيه، فوسّع حدودها، وبسط سلطانه على الأقاليم المجاورة. ودارت بينه وبين المعتضد بن عباد حروب طاحنة تداولا فيها النصر، وكان باديس جبارًا قاسيًا لا يرحم، كاد يفتك بالعرب جميعًا في إمارته، ولكنه كان حسن السياسة، منصفًا حتى من أقاربه، توفي سنة ٤٦٧هـ.

أبو بكر بن ذكوان(٣):

انحدر من سلالة بيت كريم، ودرس علوم اللغة والدين، وعكف على التأمل والنظر حتى كان الحذاق يتباهون بمجالسته، فأصبح نسيج وحده في فضله وعلمه ومعرفته، كما يقول ابن بسام.

ولي الوزارة في سن العشرين، ثم خطة المظالم الخاصة، ثم أجمع أهل قرطبة على توليته القضاء. فنهض به خير نهوض، وكان صلب القناة، حميَّ الأنف، أبى أن يستجيب للأمير في أخذ مال الأوقاف، واعتزل القضاء حتى توفي سنة ٤٣٥هـ دون الأربعين.

---

(١) أما مئات الأعلام الذين ذكرهم الشاعر في خلال قصائده ورسائله فقد أشرنا إليهم أثناء الشرح بهامش الصفحات، وقد رتبنا الأعلام في هذا الثبت بحسب الترتيب الأبجدي، مع إغفال «أبو.. وابن...» وقد أشرنا بالهامش إلى مصادر تراجمهم ليراجعها من شاء التوسع.

(٢) راجع ترجمته في أعمال الأعلام ص ٢٣٠، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٤ وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ والمغرب ج ١ ص ١٠٧.

(٣) راجع ترجمته في المغرب ج ١ ص ٧٠، وترتيب المدارك ج ٢ ص ١٥٤، ١٥٥، والذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٨، ج٢ ص ١٥.

أبو بكر بن الطُّبْني[١]:

أديب شاعر من بيت علم وأدب وجلال، وكان إلى هذا عالمًا بالطب، ولي الوزارة وتوفي سنة ٤٦١هـ - دارت بينه وبين الشاعر مطارحة شعرية، ولكن ابن خاقان ذكر في المطمح أن هذه المطارحة دارت بين ابن زيدون وأبي مروان عبدالملك بن الطبني[٢] - ابن عم أبي بكر - وكان من أهل الحديث واللغة والأدب، وصفه الحجّاري بأنه كان إمامًا في الحديث، ولكنه كان شديد التقتير على أهله، حتى قتله جواريه سنة ٤٥٧هـ.

أبو بكر بن القصيرة[٣]:

من أهل أشبيلية، برع في الكتابة وتفنن فيها، قال فيه ابن بسّام: «هو في وقتنا جمهور البراعة، وقدوة أهل الصناعة»، ولكنه كان منطويًا على نفسه، بعيدًا عن السلطان، حتى تولاه ابن زيدون وقدّمه إلى المعتضد ودفعه إلى الصدارة، فكان سفيرًا للمعتضد، ثم وزيرًا للمعتمد إلى أن نكب معه وحمل إلى المغرب منفيًا معه، وتقدمت به السنّ حتى خرف قبيل موته، وتوفي سنة ٥٠٨هـ.

أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي[٤]:

من رجال الأدب والنحو المشهورين. قال فيه ابن بشكوال: إنه «كان رجلاً جيّد الدين، حسن العقل، متصاونًا لين العريكة واسع الخلق مع نبله وبراعته، وتقدمه في علم العربية واللغة، راوية للشعر، وكتب الآداب، وكان لتلاميذه كالأب الشفيق، والأخ الشقيق، مجتهدًا في تبصيرهم، متلطفًا في ذلك سنيّاً ورعًا، وافر الحظ من علم الاعتقادات، سالكًا فيها طريق أهل السنة، يقصر اللسان عن وصف أعماله الصالحة، وكان إمام مسجد السقاء توفي سنة ٤٣٣هـ.

---

(١) الصلة ج ١ ص ٩٦ جذوة المقتبس ص ١٤٩.

(٢) جذوة المقتبس ص ٢٦٥، الصلة ج ١ ص ٣٤٣، والمطمح ص ٥٠ وبغية الوعاة ص ٣١٢.

(٣) المغرب ج ١ ص ٣٥٠، القلائد ص ١٠٤، إعتاب الكتاب ص ٨٤ الذخيرة ق ٢ ص ١٤٢، الصلة ج ٢ ص ٥٣٩.

(٤) الصلة ج ٢ ص ٥٩١.

أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم[(1)]:

جد الشاعر لأمه، ورث حب العلوم والآداب عن أبيه، وُلِّيَ القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والقضاء بقرطبة، وكان من أهل الصرامة في أحكامه، وكان ذا عناية بالعلوم والآداب، توفي سنة ٤٣٢هـ.

أبو الحزم بن جهور[(2)]:

قضى أهل قرطبة على الخلافة الأموية ونادوا بابن جهور حاكمًا لهم، فقبل الحكم بعد إلحاح، ولم يتحول عن داره المتواضعة، ولم يقبل أن يكون بيت المال تحت إمرته، وكان حاكمًا، مصلحًا جم التواضع، يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويؤذن بمسجد بالربض الشرقي، توفي سنة ٤٣٥هـ.

أبو حفص أحمد بن برد[(3)]:

ورث الأدب عن جدّه أبي حفص أحمد بن برد الأكبر. وبرع في النظم والنثر، وبلغ مرتبة الوزارة، وقد حفظ لنا ابن بسام طائفة صالحة من رسائله، وباقة يانعة من شعره، وكان مقرّبًا إلى الملوك أثيرًا عند الحكام، ذكر الحميدي أنه رآه بالمرّية بعد سنة ٤٤٠هـ.

أبو طالب محمد بن مكي[(4)]:

وُلِّيَ أحكام الشرطة والسوق بقرطبة مع الأحباس وأمانة الجامع، وكان محمودًا في ما تولاه من أحكامه، وكان له حظ وافر من الأدب، وكان حسن الخط جيد التقييد، ولد سنة ٤١٤هـ وتوفي سنة ٤٧٤هـ.

---

(١) الصلة ج ١ ص ٤٩٤.

(٢) المغرب ج ١ ص ٥٦، أعمال الأعلام ص ١٤٧، الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١١٥، المطمح ص ١٤، الحلة السيراء ص ١٦٨، جذوة المقتبس ص ٢٧، المعجب ص ٥٩، الصلة ج ١ ص ١٣٠.

(٣) المغرب ج ١ ص ٨٦، والذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١٨، ٤٣٥ جذوة المقتبس ص ١٠٧، المطمح ص ٢٤.

(٤) الصلة ج ٢ ص ٥٢٣.

أبو عامر أحمد بن عبدوس[1]:

وُلي الوزارة بقرطبة، ونافس ابن زيدون في حب ولادة، وصبر حتى استطاع آخر الأمر أن يظفر بمودتها، وكان يدعي حفظ الشعر وقرضه، ولكن ما بقي من شعره ركيك. توفي سنة ٤٧٢هـ، وقد جاوز الثمانين.

أبو عامر بن مسلمة[2]:

من سلالة بيت كريم، وليَ أجدادهُ الوزارة، وقد بزهم جميعًا بمنصبه وشعره وأدبه، هجر قرطبة إلى إشبيلية لأملاك قديمة كانت له في البلد، وعاش في كنف المعتضد بن عبّاد، وألف له كتاب (الارتياح في حقيقة الراح)، ويقول ابن خاقان: إن المعتضد اغتاله، ولكن الحجارى وابن بسام وابن سعيد نفوا هذه الرواية، وقد أورد له ابن بسام في القسم الثاني من الذخيرة طائفة صالحة من الشعر.

أبو العباس أحمد بن أبي حاتم بن ذكوان[3]:

من بيت جلالة وأدب ووقار، ولكنه مال إلى المجون، فجاء فيه كما يقول ابن بسام: «طرفًا ليست وراءه غاية، يصور القلوب برقة ظرفه، وحرارة نادرته، لا يكاد أحد يمكنه من أذنه إلا أخذ بفؤاده رقة وحلاوة، ويشوبها ببعض الهزل عند انبعاث النادرة، وله في ذلك أخبار مشهورة، وملحه في الأدب غزيرة، شاهدة له بقوة الطبع، وخفة الروح.

أبو عبدالله بن عبدالعزيز[4]:

هو الوزير الكاتب المشهور محمد بن مروان بن عبدالعزيز، وَزَر لبني عبدالعزيز أمراء بلنسية، وكان من أعظم الكتاب البارزين وذوي الرأي السديد، والتدبير المحكم، والثروة الطائلة.

---

(١) تكملة التكملة ص ٢٥٧، رايات المبرزين ص ٣٨، مسالك الأبصار ج ١٠ ورقة ٢٣١.

(٢) المغرب ج ١ ص ٩٦، جذوة المقتبس ص ٦١، المطمح ص ٢٣، بغية الملتمس ص ٨٠، الذخيرة ق ٢ ص ٥٨، مسالك الأبصار ج ١٠ ورقة ٢٣١.

(٣) الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١٥، ١٦.

(٤) الحلة السيراء ص ١٩١، أعمال الأعلام ص ٢٠١، المطمح ص ١١.

أبو عبدالله بن القلاس:

لم نجد له ذكرًا بين آلاف التراجم الأندلسية التي رجعنا إليها، وقد نافس ابن زيدون في حب ولادة حتى زجره عنها فازدجر.

أبو العطاف بن حُيَيّ:

كان مولعًا برواية الأشعار وجمعها، توسّل إلى ابن زيدون بالمعتمد بن عباد ليقدم إليه طائفة من شعره، ولم نجد له ذكرًا في كتب التراجم الأندلسية.

أبو القاسم بن رفق:

عاتبه ابن زيدون بقصيدة رقيقة ولم نجد له ذكرًا في كتب الأندلسيين.

مجاهد العامري(1):

أسس إمارة قوية في إقليم دانية، وضم إليها جزر البحر الأبيض القريبة منها: ميورقة ومنورقة ويابسة، وأسس لنفسه أسطولاً عظيمًا هدّد به شواطئ فرنسا وإيطاليا، وغزا جزيرة سردينية، وكان عالمًا محبّاً للعلماء والأدباء والفقهاء، فألفوا له المصنفات الجليلة، وبخاصة في العلوم القرآنية. توفي سنة ٤٣٦هـ.

المظفر بن الأفطس(2):

ورث إمارة بطليوس عن أبيه، وكان فاضلاً عالمًا، وشجاعًا فارسًا، ألف كتابًا جامعًا سماه المظفري في خمسين مجلدًا، وقيل مائة، وذكر الحميدي أنه أعرف أهل الأندلس قاطبة باللغات والأخبار، ومعاني الأشعار، وقد دارت بينه وبين المعتضد بن عباد حروب طاحنة حفلت بها كتب التاريخ، وتوفي سنة ٤٦٠هـ في سنّ السبعين.

---

(1) أعمال الأعلام ٢١٧، البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥، وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤، جذوة المقتبس ص ٣٣١، والمغرب ج ٢ ص ٤٠١.

(2) أعمال الأعلام ص ١٨٣، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٦، والصلة ج ٢ هامش ص ٤٥٣.

المعتضد بن عباد[1]:

ورث حكم إشبيلية عن أبيه سنة ٤٣٣هـ فوسع رقعتها حتى أصبح أعظم أمير من ملوك الطوائف، وكان قاسيًا غليظ القلب، ولكنه كان شاعرًا يجزل العطاء، ويكرم الشعراء توفي سنة ٤٦١هـ.

المعتمد بن عبّاد[2]:

ورث إمارة إشبيلية عن أبيه المعتضد فوسّع، رقعتها وضم إليها إمارة قرطبة. وكان شاعرًا مجيدًا، فتح بلاطه للشعراء، وأغدق عليهم الأموال، فاجتمع في ظله منهم ما لم يجتمع في بلاط خلفاء الأندلس وأمرائها، أسره يوسف بن تاشفين. ومات أسيرًا عنده بالمغرب سنة ٤٨٨هـ.

أبو الوليد بن جهور[3]:

ورث حكم قرطبة عن أبيه أبي الحزم بن جهور سنة ٤٣٥هـ وكانت بينه وبين ابن زيدون مودة وثيقة منذ طفولتهما، ولكن الوشاة عكروا صفو هذه الصداقة أخيرًا، وكان أبو الوليد بن جهور كريمًا أريحيًا تقيًا ورعًا عالمًا محبًا للعلماء، وكان سهلاً متسامحًا رقيقًا يعطف على الناس ويفسح لهم صدره، ويُسالم جيرانه من الملوك والأمراء، ولما تقدمت سنه فوض لولديه: عبدالرحمن وعبدالملك تدبير شؤون الحكم فأساءا استعماله، وأتاحا للمعتمد بن عباد الاستيلاء على قرطبة فنفى أبا الوليد ابن جهور وأسرته إلى جزيرة شلطيش فمات بها سنة ٤٦١هـ.

---

(١) الذخيرة ق ٢ ص ١٠، أعمال الأعلام ص ١٥٥، جذوة المقتبس ٢٧٧، ملوك الطوائف ص ٩٥ وما بعدها، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٤، تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٦.

(٢) أعمال الأعلام ص ٧، ٢١، الذخيرة ق ٢ ص ٢٣، القلائد ص ٤، ٥ ديوان المعتمد (المقدمة)، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٩، ٢٧٣.

(٣) أعمال الأعلام ١٤٨، المغرب ج ١ ص ٥٦، الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١١٧، الصلة ج ٢ ص ٥١٦، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٤ جذوة المقتبس ٤٣.

ولادة بنت المستكفي[1]:

سليلة بيت الخلافة الأموية نشأت على خلاف أخلاق أبيها الخليفة المستكفي بالله الأموي، فكانت شاعرة أديبة، ومحدثة بارعة، ماهرة في الموسيقى والغناء إلى جمال فتان، وقد أنشأت لها ندوة أدبية (صالونًا) يتسابق إليه الوزراء والأدباء، وشغف بها كثير منهم وبخاصة ابن زيدون، ولكنها آثرت أن تظل عانسًا حتى توفيت سنة ٤٨٤هـ وقد قاربت المائة.

****

(١) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٦، الصلة ج ٢ ص ٦٥٧، بغية الملتمس ص ٥٣١، نزهة الأبصار والأسماع ص ١٠، محاسن النساء ص ١٠٩.

تنبيهان

أولاً: رجعنا إلى مئات المراجع في تحقيق آثار الشاعر، ولم نشر إلى طبعاتها ومؤلفيها اكتفاءً بوصفنا لها في كتابنا ابن زيدون، واقتصرنا هنا على ذكر الصفحات، أما كتب اللغة ودواوين الشعراء والأمثال فاكتفينا بذكرها لأنها مرتبة على القوافي أو أوائل الكلمات أو أواخرها.

ثانيًا: يجد الباحث في كتابنا «ابن زيدون» ذكر البواعث التي أوحت إلى الشاعر بآثاره الأدبية، كما يجد فيه الأجواء التي صبغت فنّه بما صبغته من أضواء وظلال وألوان.

****

استدراك

قلنا في الديوان عند تعليقنا على هذا البيت:

فكأنني طالعتُهم بوفادة

لم يستطِعْها عُروةُ الوَفَّادُ[1]

لعله يقصد عروة بن الورد، وقد اتضح لنا أخيرًا - بعد البحث - أن المقصود هو «عروة بن عتبة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة»، ويعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك، وهو من أردافهم - الذين يقومون مقامهم عند غيبتهم - وكان من ذوي العقل والشهامة والسداد.

تعهد للنعمان بن المنذر بحماية قافلته التجارية من أهل نجد وتهامة، فاغتاله البرّاض وضرب بمصرعه المثال فقيل: «أفتك من البراض» وبسببه قامت حرب الفجار.

****

(١) انظر: الديوان، ص (٥٠٧) «المراجع».

ديوان ابن زيدون

فهرس القـوافي والبحـور

قافية الراء:

****

فهرس قوافي الأشعار

الواردة في الديوان لغير ابن زيدون

صدر	قافية	البحر	اسم الشاعر	صفحة
- يا معطشي	وا عطشي	بسيط	جارية	٢٠٩
- ألا هل	لقي	طويل	ولادة بنت المستكفي	٧٤٥،٢١٦
- أبا الوليد	زوّار	بسيط	أبو بكر بن الطبني	٢٦٧
- تباعدنا	المزار	وافر	أبو عامر بن مسلمة	٢٧٢
- مولاي	مطّلعه	منسرح	أبو بكر بن القصيرة	٢٧٨
- وفي يوم	خليفة	وافر	ابن خلدون الحضرمي	٢٨٠،٨٢
- هما	وجيفة	وافر	ابن عمار	٢٨٢،٨٢
- أيها	مجلس	رمل	المعتمد بن عباد	٢٨١
- العين	تراه	مجتث	المعتمد بن عباد	٦٥٢،٢٨٤
- وعدت	المبتدا	متقارب	المعتمد بن عباد	٢٨٤
- يا أيها	ينئم	كامل	جماعة حاسدين	٣٨٦
- كذبت	أكرم	كامل	المعتمد بن عباد	٣٩٠

****

المحتوى

● في ظل بني عباد:

● أضواء وظلال:

● آثاره الأدبية:

الـــديـــوان

****